

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

تخصص : الدراسات الأدبية والحضارة الإسلامية

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه (ل.م.د) بعنوان:

البلاغة القرآنية تفرد وخصوصية في الحضارة العربية الإسلامية

- دراسة موضوعية بلاغية لسورة هود -

إشراف الأستاذ:

أ. الدكتور: محمد عباس

إعداد الطالبة:

مغني حنان

أعضاء اللجنة المناقشة

رئيسا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د: بوعلي عبد الناصر
مشرفا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د: محمد عباس
عضوا	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر "أ"	د: سيدي محمد طرشي
عضوا	جامعة وهران	أستاذ التعليم العالي	أ.د: محمد ابن سعيد
عضوا	جامعة مستغانم	أستاذ محاضر "أ"	د: سعدي محمد
عضوا	المركز الجامعي مغنية	أستاذ محاضر "أ"	د: دواح أحمد



السنة الجامعية: 1437هـ - 1438هـ 2016م - 2017م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ﴿٨٨﴾

صدق الله العظيم

سورة الإسراء (الآية: 88)

الإهداء

إلى من تكبّدوا معي رحلة هذا البحث بصبر ودعاء

والذي الكريمين أدامهما الله لي برا وإحسانا

إلى من شاركوني رحمة أممي

أشقائي الأحباء أدامهم الله لي ذخرا وسندا

إلى الذين حملوا أقدس رسالة في الحياة إلى حملة القرآن الكريم

الذين ساروا به تاجا على جبين الدهر

ونبراسا على مناكب الحياة الحضارية

إلى الساهرين بين الحبر وعممة الليل لخدمة العروبة ولغتها

إلى الشموع المضيئة، والقلوب النابضة، والأقلام المجاهدة

إلى كل من يحمل مشعل النور الحضاري

الإسلامي

إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة جهدي هذا

كلمة شكر وعرفان

يقول الله تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

سورة الضحى الآية-11-

فالحمد لله على نعمة العلم والعمل والتوفيق حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه
ومصادقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم "من لا يشكر الناس لا يشكر الله"
-رواه الترميذي-

وتقديرا لحق الأستاذية واعترافا بالجميل أبي القلم إلا أن يخط حروفا يجمعها في
كلمات تحوي أسمى معاني الشكر والتقدير إلى من أشعل شمعته المضئ في
درب عملي، وأعطاني من حصيلة فكره الثير، ولم ييخل علي بجهده
العلمي ووقته الثمين إلى أستاذي الفاضل
الأستاذ الدكتور "محمد عباس"

تحية إخلاص وإجلال مكللة بالهبة والوقار فجزاه الله عني أحسن الجزاء وتولى
عني مكافأته وأطال الله بقاءه كطول يده بالعطاء.

كما أتقدم بالشكر إلى السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الموقرين على
جهدهم وتقويماتهم ومناقشتهم المثمرة.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشكر كل من أمد لي يد العون، وذل لي الصعاب
وسهل علي العقبات، وهم كثيرون، فلهم مني جزيل الشكر والتقدير.

مقدمة

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان، ومنّ عليه بنعمة البيان، والصلاة والسلام على من بُعث برسالة القرآن
رحمةً ونوراً وهدى للعالمين محمد صلى الله عليه وسلم أمّا بعد:
فإنّ من أشرف العلوم وأجلّها تلك التي اتصلت بكتاب الله تعالى، فالقرآن الكريم بحر العلوم، ومستودع
المعارف، وهو الذي لا تنفذ أسراره ولا تنتهي عجائبه.

وتعد علوم اللغة العربية من أشدّ العلوم وأوثقها صلة بالقرآن الكريم وخصوصاً علم البلاغة، فقد كان
لنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وبوجه إعجازي بلاغي الأثر الأكبر في تأسيس مباحث البلاغة في
الدراسات العربية الإسلامية.

ومن المعلوم أنّ البلاغة كانت سمة الإنسان العربي، ومصدر فخره وهيبته منذ العصر الجاهلي لذلك عندما
جاء القرآن إلى هؤلاء العرب على وجه الخصوص شاء الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم في جنس ما برعوا
فيه وبثبت صدق رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فأنزل القرآن الكريم بلسانهم العربي الفصيح، ولكن
على وجه بلاغي إعجازي عجز عن مجاراته أساطين بلاغتهم، ومصاقع بياهم، فانقادوا له طوعاً
وكرهاً، وخضعوا له إجلالاً وتقديراً.

ومنذ ذلك الحين أصبح للعرب بلاغة إلهية إعجازية على خلاف بلاغتهم الجاهلية، وبدلاً من الشواهد
الشعرية أصبح الشاهد القرآني مثالا على كل درس بلاغي.

فالبلاغة القرآنية غيرت مسار الحياة الأدبية للعرب، وأكسبتهم خصوصية حضارية متفردة، فالخطاب
القرآني يمثل هوية الأمة العربية الإسلامية وخصوصيتها العقائدية والحضارية، وبلاغته جزء من ذلك، وهذا ما
شدّ عقول العرب المسلمين وأقلامهم إلى التدبر في ذلك النبع البلاغي الإلهي وإثبات تلك الخصوصية
البلاغية التي تفرد بها القرآن الكريم، مما خلف لنا تراثاً لغويّاً أدبيّاً زاخراً بعلوم البلاغة القرآنية والدراسات
الإعجازية.

لكن مع هذا الفيض الهائل من الدراسات التي قامت حول البلاغة القرآنية خدمة لكتاب الله تعالى، إلاّ
أنّ باب البحث فيها لا تزال آفاقه مفتوحة للباحثين، يقول الله تعالى: (**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) سورة
لقمان: الآية 27.

وأمام هذا الكنز البلاغي الذي يزخر به كتاب الله تعالى حاولت أن أقف على جانب من جوانب هذه البلاغة القرآنية العظيمة، وقد انتابني خوف وتردد من عظم مسؤولية البحث في كتاب الله تعالى، ثم عقدت النية وشددت العزيمة على اختيار موضوعي الذي جعلته بعنوان: "البلاغة القرآنية تفرد وخصوصية في الحضارة العربية الإسلامية-دراسة موضوعية بلاغية لسورة هود". وللأمانة العلمية واعترافا بصاحب الفضل، فإنّ عنوان هذا البحث كان مجرد فكرة مشوشة تدور في خلدي، أما صياغتها بهذا الشكل فيعود الفضل في ذلك إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عباس. وبقينا مني بأن موضوع البلاغة القرآنية ليس بالجديد على أهل الاختصاص وسدنة العقيدة، وجهابذة البلاغة والبيان الذين طالما وقفوا أمام إعجاز القرآن الكريم مستنبطين أسرار البيان، ودلائله الإعجازية ومقاصده الشرعية، إلا أنّ ما أحسبه من الجدة في هذا البحث هو إثبات تلك الخصوصية الإعجازية البلاغية التي تفرد بها النص القرآني عن غيره من النصوص البلاغية الأخرى التي بفضلها اكتسبت الحضارة العربية الإسلامية أيضا خصوصية متفردة عن باقي الحضارات والأمم.

أولاً: دوافع اختيار الموضوع

وبطبيعة الحال وراء كل موضوع قيد البحث دوافع شخصية و علمية تدفع إلى البحث فيه، وما وقع اختياري لهذا الموضوع إلا لأسباب منها:

- حيي للقرآن الكريم، والإحساس بواجب المشاركة في خدمته ولو بالشيء البسيط، خصوصاً في العصر الزّاهن الذي نشهد فيه هجراً للقرآن الكريم، ومحاولات إهانته من جهات عدوانية، استغلت ضعف المسلمين وتخلّفهم.

- تعلقي بالدراسات البلاغية منذ بداية دراستي الجامعية، والفضل في ذلك يعود إلى قدوتي وأستاذي الدكتور محمد عباس.

- تخلي بعض العرب المسلمين عن هويتهم اللغوية وإهانتهم للأصالة العربية والقرآنية ما حزّ في نفسي كثيراً وهذه محاولة مني لإبراز تلك الخاصية الإعجازية البلاغية في القرآن الكريم والتي شرف الله بها اللغة العربية وجعلها لسان الحضارة العربية الإسلامية دون سواها من ألسنة الأمم الأخرى التي توارت عليه ناهلة من عذب فرائده.

- طبيعة تخصصي الذي دفعني إلى الربط بين القرآن والبلاغة والحضارة العربية الإسلامية، حيث رأيت بأنّ القرآن الكريم هو العروة الوثقى بين الدراسات الأدبية العربية، وبين الحضارة العربية الإسلامية.

- وكان وقوفي على سورة هود كأنموذج تطبيقي لسببين أحدهما: حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي أورده أبو يعلى في مسنده حيث قال: "حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا محمد بن بشير، حدثنا علي بن صالح بن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: قالوا: يا رسول الله قد شئت، قال: شيتني هود وأخواتها"¹.
هذا الحديث الذي كنت كلما قرأته استوقفني تساؤل: لماذا شيت سورة هود النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما كان قصده من ذلك؟

وأما السبب الأخر: فلأني وجدت في سورة هود ضالتي التي كنت أصبو إليها في الجمع بين الجانب الحضاري والبلاغي، وذلك من خلال عرضها لتلك السلسلة القصصية لحوار الأنبياء مع أقوامهم، وبيان مصير حضارات الظلم والطغيان، وكل ذلك كان بأسلوب قصصي بلاغي مشوق جمع بين دفتيه التفرد الإعجازي البلاغي، والتهديب التربوي الرباني، وهذا رصيد كاف للأمة العربية الإسلامية لتأخذ الدرس والعبرة وتستأنف دورها في صناعة الحضارة العربية الإسلامية من جديد.

ثانياً: إشكالية الموضوع

تولدت عن هذه الدوافع إشكالية أجبرتنا على طرح التساؤل التالي: ماهي خصوصيات النص القرآني التي تدفعنا إلى القول بخصوصية بلاغته؟ وهل تتفق الظاهرة البلاغية في النص القرآني مع أنواع النصوص الوضعية الأخرى أم تختلف عنها؟ وكيف كانت علاقة البلاغيين والمفسرين في التعامل مع النص القرآني؟ وإلى أي حد تنوعت تساؤلاتهم الفكرية وهم يعالجون النص الديني المؤسس للحضارة العربية الإسلامية؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية الأساسية تساؤلات أخرى فرعية لها صلة بالجانب التطبيقي الماثل في سورة هود، والمتمثلة فيما يلي:

* إلى أي مدى أسهمت سورة هود في رسم الجانب البلاغي المتفرد في القرآن الكريم؟ وما هي أهم الفنون البلاغية التي تناولتها؟

* هل وفي الأسلوب القصصي في سورة هود حقّ الجمع بين الجانب التربوي والحضاري والجانب الإعجازي البلاغي؟

1 الإمام الحافظ أحمد بن علي بن مثنى التميمي: "مسند أبو يعلى الموصلي"، تحقيق: حسن سالم أسد، دمشق، دار المأمون، ط1، 1404هـ - 1984م، ج2، رقم الحديث: 880، ص184.

ثالثاً: خطة البحث

وقد اقتضت طبيعة الموضوع السير وفق خطة شملت مدخلاً وأربعة فصول:

– المدخل: وتناولت فيه: "البلاغة العربية بين الجاهلية والقرآن" تكلمت فيه عن حالة العرب قبل الإسلام، وأثر القرآن الكريم في تغيير مسار الحياة العقلية والأدبية عند العرب، مع التركيز على تحديد مفاهيم المصطلحات الأساسية والتي تمثلت في: مصطلح البلاغة، الفصاحة، القرآن الكريم، والبلاغة القرآنية، وأشارت إلى أهمية البلاغة القرآنية في الحضارة العربية الإسلامية وضرورة التفقه في مباحثها. وكان هذا المدخل تمهيداً إلى موضوع البحث في فصوله الأربعة، ثلاثة منها خصصتها للجانب النظري، وواحد وهو الأخير جعلته للدراسة التطبيقية.

الفصل الأول: وجاء بعنوان الإعجاز القرآني وصلته بالمباحث البلاغية وجعلته في ثلاثة أقسام:

أولاً: افتتحت هذا الفصل بالحديث عن مفهوم الإعجاز القرآني كمصطلح إفرادي ثم كمركب إضافي إلى القرآن الكريم، دون أن أنسى الحديث عن مفهوم المعجزة وبالأخص المعجزة القرآنية وذكر مزاياها التي تفردت بها وإبراز الفرق بينها وبين غيرها من معجزات الأنبياء والرسل السابقين .

ثانياً: خصص القسم الثاني من الفصل الأول لعرض المسيرة التاريخية للدراسات الإعجازية من القرن الثالث هجري إلى العصر الحديث المعاصر.

كما وقفت على بيان مقاصد الإعجاز القرآني وأهداف عناية المسلمين بالدرس الإعجازي.

ثالثاً: حاولت في القسم الثالث والأخير من هذا الفصل أن أبين أوجه الإعجاز القرآني وذلك مع عرض آراء العلماء المختلفة، وركزت في هذا القسم على الإعجاز البلاغي باعتباره محور موضوع البحث، بالإضافة إلى أنه الوجه الذي اتفق عليه جلّ علماء الإعجاز وبه وقع التحدي الإلهي في إثبات صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني: وجاء تحت عنوان: الأسلوب القرآني وخصائصه البلاغية، وأفردت هذا الفصل للحديث عن الأسلوب القرآني وإبراز خصائصه التي جعلت منه أسلوباً متفرداً عن سواه من الأساليب الوضعية، وحصرت هو بدوره في ثلاثة أقسام:

أولاً: تناولت في البداية الحديث عن مفهوم الأسلوب باعتبار العالمية لغة واصطلاحاً، ثم باعتبار الإضافة إلى القرآن الكريم، كما ذكرت أنواع الأساليب في القرآن الكريم، ثم بينت أهمية الأسلوب القرآني في الدراسات الإعجازية البلاغية.

ثانياً: تطرقت في هذا القسم إلى خصائص الأسلوب القرآني على مستوى التّسق والسيّاق، وأبرزت أوجه الاختلاف بين الأسلوب القرآني المتفرد بخصائصه الإعجازية ذات المصدر الإلهي والأسلوب البشري.

ثالثاً: بينت في هذا الجانب الصّلة بين الأسلوب البلاغي للقرآن الكريم وعلم التّفسير إذ كل منهما يكمل بعضه بعضاً حيث لا يمكن لأيّ إنسان أن يدرك مكامن البلاغة الإعجازية دون أن يقف على القرآن الكريم متدبراً ومستقراً ومستنبطاً.

الفصل الثالث: وعنوانه التّفرد البلاغي للنص القرآني وخصوصيته في الحضارة العربية الإسلامية.

أردت في هذا الفصل أن أبين تلك الميزة البلاغية التي تفرّد بها كتاب الله تعالى، وتشرفت بها الأمة العربية الإسلامية عن غيرها من الأمم والملل، فجعلت من هذا الفصل ثلاثة أقسام وهي:

أولاً: أردت الحديث في هذا القسم عن تفرد البلاغة القرآنية عن البلاغات الأخرى مما دفعني إلى إعطاء مفهوم لمصطلح التّفرد البلاغي مع ذكر الخصائص والسّمات التي جعلت من النّص القرآني نصّاً بلاغيّاً متفرداً، ثمّ وقفت بعد ذلك على أوجه التّباین بين البلاغة القرآنية وبلاغة الكتب السّماوية الأخرى هذا من جهة، ثمّ أوجه التّباین بينها وبين البلاغات الوضعية للأمم الأخرى، لأصل في الأخير إلى إثبات تلك الخصوصية التي ميزت النّص القرآني من غيره من الكتب السّماوية أو الكتب الوضعية.

ثانياً: بينت في القسم الثّاني من هذا الفصل دور البلاغة القرآنية في التّفاعل الحضاري بين الأمم، ومدى مساهمتها في توحيد الإنسانية جمعاء تحت راية القرآن الكريم، كما ذكرت جهود العلماء المسلمين على اختلاف أجناسهم في خدمة القرآن الكريم والعناية ببلاغته الإعجازية.

ثالثاً: حاولت في ختام هذا الفصل أن أبين بأنّ التّفكير البلاغي فريضة إسلامية وواجب ديني في الحضارة العربية الإسلامية، على أبناء الأمة الإسلامية مراعاته في العصر الرّاهن والعودة إليه لبناء حضارتهم من جديد واستكمال مهمتهم في الشّهادة الحضارية على الإنسانية.

الفصل الرابع: وهو الفصل الذي خصصته للدراسة التّطبيقية، والذي جاء بعنوان: الأسلوب القصصي ميزة بلاغية وتربية حضارية دراسة موضوعية بلاغية لسورة هود، ووزعته على أقسام ثلاثة:

أولاً: استهلكت هذه الدراسة التطبيقية بالحديث عن القصة والإعجاز القرآني فقدمت نبذة عن مفهوم القصة القرآنية وخصائصها وأشكالها وأغراضها، وذلك تمهيدا لسورة هود التي جاءت عرضا قصصيا منوعا عن صراع الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، ومصير الحضارات البائدة.

ثانياً: تطرقت في هذا القسم إلى الحديث عن القصة ودورها في التربية الحضارية من خلال سورة هود، فاستفتحت هذا القسم بتقديم نظرات شاملة عن سورة هود، ثم عرجت بعد ذلك إلى الحديث عن الموضوعات التي تناولتها والتي كانت في معظمها سردا قصصيا لسيرة الأنبياء والمرسلين ومصير أقوامهم الطغاة الظالمين، ثم بينت في ختام هذا القسم أصول التربية الحضارية من خلال هذا القصص، والذي يمكن أن تستفيد منه الأمة العربية الإسلامية وتأخذ الدرس والعبرة في بناء صرح الحضارة الإسلامية من جديد.

ثالثاً: حاولت في هذا القسم أن أقف على الظواهر البلاغية التي تزينت بها سورة هود، والتي جعلت منها لوحة فنية بلاغية مزينة بأفانين من علم المعاني والبيان والبديع الإلهي العظيم، لنشبت في الأخير أنه بالفعل لعلم البلاغة القرآنية ميزة متفردة تفرّد مصدرها الإلهي، جمعت بين دفتيها التفرد الإعجازي، والتربية والتهديب الرباني، وسورة هود ما هي إلا نموذج واحد من نماذج كثيرة في القرآن الكريم.

خاتمة: أبرزت فيها أهم النتائج التي كنت أصبو إلى الوصول إليها، مع ذكر بعض التوصيات، عسى أن تجد آذانا صاغية وصدى في صدر كل قارئ لهذا البحث.

رابعاً: منهج البحث

قد نهجت فيما كتبت منهج الاستقراء تارة، وذلك بالنظر فيما قاله البلاغيون وعلماء الإعجاز عن البلاغة القرآنية، والاستفادة من ذلك في توظيف موجّهات البحث، كما نهجت نهج التحليل والاستنباط تارة أخرى، وذلك لاستنباط الفنون البلاغية التي تضمنتها سورة هود، وقيم التربية الحضارية التي احتواها أسلوبها القصصي.

وقد اعتمدت في ذلك على كتب التفسير التي كانت لي نعم المعين في فهم الآيات القرآنية، إضافة إلى كتب الحديث الشريف وعلوم القرآن عندما كانت تقتضي الحاجة إلى ذلك.

خامساً: أهمية الموضوع وأهدافه:

أمر الله خلقه أن يتدبروا القرآن منذ نزوله ولا يزال أمر التدبر قائماً إلى اليوم أمام أهل الفكر والبحث والدراسة، فالقرآن الكريم كتاب الله للعالمين الصالح لكل زمان ومكان، فهو الذي أصلح الإنسانية وقوم

سلوكها من وثنية الجاهلية، ونور بصيرتها ببلاغته التي أعجزت العقول ورقت لها القلوب، فصنعت بها حضارة خدمت الإنسانية لعدة قرون.

ولعل هذه الأهمية التي يحتويها القرآن الكريم وبلاغته هي التي دفعتنا إلى البحث في هذا الموضوع والكشف من خلاله عن بعض القضايا ومنها:

- دور البلاغة القرآنية في الحضارة العربية الإسلامية.

- الإشادة بجهود البلاغيين وعلماء الإعجاز في إثبات خصوصية النص القرآني وتفرد بلاغته الإعجازية.

- بيان أهمية التفكير البلاغي في الحضارة العربية الإسلامية.

- إبراز دور القصة القرآنية بأسلوبها البلاغي المشوق في التربية الحضارية.

- ولعل أكبر هدف كان من وراء هذا البحث هو إضافة بحث علمي أكاديمي إلى الدراسات القرآنية اللغوية العربية، وإثراء المكتبة العربية الإسلامية بمرجع خدمة للقرآن الكريم، والأمة العربية الإسلامية.

سادسا: الدراسات السابقة

لا يمكن لأيّ بحث علمي أكاديمي أن ينطلق من الفراغ، وبحسنا ليس بدعا من ذلك، فكثيرة هي البحوث والدراسات المقدمة في القرآن الكريم وبلاغته.

ومن بين هذه الدراسات التي تمكّنت من الإطلاع عليها، والتي كان لها فضل السبق في ذلك:

1- رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة بعنوان: "سورة هود عليه السلام دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية" من إعداد الطالب: دخيل الله بن محمد الصحفي وبإشراف الأستاذ الدكتور عبد العظيم ابراهيم المطعني، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، سنة 1413هـ - 1993م.

2- دراسة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على الماجستير بعنوان: "النظم القرآني في سورة هود- دراسة أسلوبية"، من إعداد الطالب: مجدي عايش عودة أبو لحية، وبإشراف: أ.د: محمد شعبان علوان، غزة، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، سنة 1430هـ - 2009م.

3- رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير بعنوان: "الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب الثالث والعشرون من القرآن سورة هود الآيات 1-83"، من إعداد الطالب: سعيد طه خضر، وبإشراف الدكتور: زهدي محمد أبو نعمة، غزة، الجامعة الإسلامية، كلية أصول الدين، سنة 1435هـ - 2014م.

4- بحث مقدم لنيل درجة الماجستير بعنوان: "المضامين التربوية في قصص الأنبياء في سورة هود"، من إعداد: سليمان بن أحمد بن سليمان المشعلي وبإشراف الدكتور: محمد بن عبد الرحمن آل عبد الوهاب، المملكة العربية السعودية، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، 1430هـ-1431هـ.

لكن ومع كثرة الدراسات التي تناولت موضوع البلاغة القرآنية لم أصادف موضوعاً مطابقاً لعنوان بحثي ولا مشابهاً له في الطرح والمعالجة، فلم يكن هدفي من وراء هذا البحث عرض العلوم البلاغية وتتبع شواهدها في النصوص القرآنية، بقدر ما كان هدفي إثبات ذلك التفرد البلاغي الموجود في القرآن الكريم والذي اختصت به الأمة العربية الإسلامية وتميزت به عن سائر الأمم، مع التركيز في ذلك على الأسلوب القصصي باعتباره أكثر الأساليب القرآنية التي تجمع بين الجانب البلاغي المتفرد والجانب التربوي الحضاري، كما سَجَّلُهُ العرض القصصي الذي قدمه القرآن الكريم في سورة هود.

سابعاً: مصادر البحث ومراجعته

إنَّ من أهم المصادر والمراجع التي تناولت هذا الموضوع -وما أكثرها- والتي مهدت لي الطريق، وسهلت لي الصعاب، وكانت لي مصادر قيمة، ومراجع هامة، ومن بينها ما يلي:

- كتب الإعجاز القرآني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني - إعجاز القرآن للباقلاني، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء.
- كتب التفسير: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تفسير الكشاف للزمخشري، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، في ظلال القرآن لسيد قطب، صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لمصطفى مسلم وآخرون.
- كتب علوم القرآن: البرهان للزركشي، مناهل العرفان للزرقاني، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان.
- كتب بلاغية: مثل: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي، من بلاغة القرآن لأحمد بدوي، من بلاغة النظم القرآني لبسيوني فيود، البلاغة تطور وتاريخ شوقي ضيف وغيرها.
- بالإضافة إلى مصادر ومراجع أخرى في الأسلوب القرآني، والقصة والحضارة، مع موسوعات ومجلات ومقالات مشار إليها في قائمة المصادر والمراجع والتي كان لها أثر كبير في إنتاج ثمرة هذا الجهد.

ثامنا: الصعوبات التي واجهت البحث

أكد لا ينفك أيُّ باحث من صعوبات ومسالك وعرة تعترض مسيرته العلمية وخصوصا إذا ما تعلق الأمر بالبحث في كتاب الله تعالى لأنَّ ذلك بمفرده أمر كبير ومسؤولية عظيمة.

ومن الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث وأعاقني عن العمل، بل وأصابتني بالخوف والقلق:

- الموضوع ذو الطابع الإعجازي البلاغي وتشعب مجالاته ومباحثه مما استعصى الخوض فيه.

- كثرة المصادر والمراجع المتعلقة بالدراسات الإعجازية والبلاغة القرآنية مما صعب عليّ جمع آراء أصحابها ومناقشتها والتوفيق بينها.

- الرؤية الجديدة للموضوع الذي أردنا من خلاله إثبات دور البلاغة القرآنية في الحضارة العربية الإسلامية، وتفرد الأمة العربية الإسلامية بهذا الكنز العظيم دون غيرها من الأمم، مما صعب علينا التركيز على مصطلح التفرد الذي كان جوهر الموضوع.

- الدراسة المقارنة التي تطلبت منا الاطلاع على التّوراة والإنجيل وتحليل نصوصها تحليلا بلاغيا وموازنتها مع نصوص القرآن الكريم.

- صعوبة الاستنباط والتعامل مع آيات سورة هود خصوصا فيما يتعلق بجانب التربية الحضارية.

لكن كل هذه العقبات هانت أمام توفيق من الله عز وجل ، وإرشادات أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمّد عباس الذي أبقى مدينة له بالشكر والعرفان في الرّعاية والمتابعة حتّى خرج هذا العمل في حلته الأخيرة.

وفي ختام هذا المقام إنني أتقدم بعظيم الشكر، وأسمى معاني التقدير والعرفان بالجميل لأستاذي على أن قبلي تلميذة في منزلة ابنته من مرحلة السنة الأولى في قسم اللسانيات إلى تولاتي بالإشراف في مذكرة الماجستير وعلى هذه الرسالة بتكريم شريف، وتوجيه قويم، وقد بثّ فيّ روح الصبر والتّزود بالقراءة، والتّدوق البلاغي ولم يخل عليّ بنصائحه القيمة وتوجيهاته النيرة التي بفضلها وصل هذا البحث إلى بر الأمان، فله مني جزيل الشكر والتقدير، وخالص التّحية والاحترام، وأبقاه الله للعلم يعلي معلمه ويحيي مكارمه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، على أمل أن يكون بحثي هذا ثمرة طيبة تخدم القرآن الكريم وأهله، وتزرع في أبناء الأمة العربية الإسلامية أمل النهوض بحضارتنا العربية الإسلامية من جديد.

فإن أصبت فمن الله ذي الفضل والتّوفيق، وإن زلّ القلم، وعجز الفكر، وقلّ النّظر فمن نفسي التي تسأله
سبحانه وتعالى العفو.

وعلى الله توكلني وبه ثقني و اعتمادي

تلمسان في يوم: 22 رمضان 1437 هـ

الموافق ل: 28 جوان 2016 م

حنان مغني

مدخل: البلاغة العربية بين الجاهلية والقرآن

أولا: لمحة عن حياة العرب في الجاهلية

ثانيا: تعريف البلاغة العربية

ثالثا: تعريف القرآن الكريم

رابعا: تعريف البلاغة القرآنية

مدخل: البلاغة العربية بين الجاهلية و القرآن

شغلت اللغة العربية حيزا كبيرا في دائرة البحث، ولا تزال متواصلة في ذلك، فقد أسرت عقول الباحثين وشدتهم إلى الانتباه إليها والاهتمام بها، وذلك لما تزخر به من علوم جمة فذة، إذ كانت منذ العصور الأولى لغة لها قيمتها ومعارها التّقليل بين لغات الأمم.

ومما زادها تقديسا وتشريفا نزول القرآن الكريم بلسانها، هذا الأخير الذي شاءت الذات الإلهية إلا أن يكون نسما لغوية تنزل من السماوات السبع بلسان عربي مبين على رجل عربي نسبا ونشأة، وهو محمد بن عبد الله القرشي سيد من نطق الضاد قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾)¹

وبهذا كان لظهور الإسلام أثر كبير في مستقبل اللغة العربية فقد جعلها لغته وانتشرت بانتشاره، كما أنّها بقيت محفوظة حفظ القرآن الكريم، يقول الله عزّ وجل: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)².

إلا أنّ الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم ينزل في تلك البقعة من الأرض -شبه الجزيرة العربية- عبثا، ولم يختار الله محمدا صلى الله عليه وسلم حضا، وإتمام كلّ هذا كان تحديا وإعجازا لهؤلاء العرب من جهة، وتكريما وتشريفا لهم بحمل الرسالة الخاتمة من جهة أخرى، قال الله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)³

فالرسول صلى الله عليه كان المعني الأول في حمل وتبليغ رسالة القرآن، وصناعة حضارة الإسلام ثم تواصل بعده أمته العربية الإسلامية هذه المهمة المنوطة بها في الشهادة على البشر قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)⁴

¹ سورة الشعراء: الآية 193-194-195.

² سورة الحجر: الآية 9.

³ سورة النساء: الآية 41

⁴ سورة البقرة: الآية 143

أولاً: لمحة عن حياة العرب في الجاهلية:

كان الإنسان العربي بسجيته العربية البدوية يتميز بملكة لغوية وحس أدبي وذوق جمالي، فهو شديد التأثر بالألفاظ ومعانيها وموسيقاتها قوي البرهان، يشد الكلام شدا سواء في نظمه الشعري أو نشره الخطابي مستعملاً في ذلك سحر الكلمة وحسن التعبير في إبلاغ المعنى إلى المتلقي بصدق، وهذا ما كانوا يطلقون عليه اسم البلاغة.

فلقد أحب العرب البلاغة منذ العصر الجاهلي، إذ كانت عندهم الحاسة اللغوية من أدق الحواس وفن القول من أشرف الفنون، وتجسد هذا في أشعارهم وخطبهم على ألسنة رجالهم ونسائهم، شيوخهم وأطفالهم، فهي عندهم نظام لغوي جمالي، وأصل من أصول الفن الأدبي لما تحمله من حسن في الكلام وجودة في اللفظ ولما تحمله من معاني إنسانية وانفعالات صادقة.¹

فالبلاغة نظام خبرة باللغة والجمال الأدبي اختص به العرب دون غيرهم وفي هذا يقول ابن سلام الجمحي: "علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"²

من هذا المنطلق شاء الله سبحانه وتعالى إلا أن تكون رسالته الخاتمة معجزة ربانية من جنس ما برع فيه أولئك العرب، فلم تكن هذه المعجزة كعصا موسى السحرية، ولا كمعجزة خروج ناقة صالح من صخرة الجبل، ولا كنار ابراهيم الباردة، بل كانت معجزة لغوية بيانية، وهي معجزة القرآن الكريم، التي أذعن لها الإنس والجن، قال عز وجل: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾).³

تبدو نبرة التحدي بارزة في هذا الخطاب القرآني الذي أدهش العرب بروعة أسلوبه وفصاحة كلماته ورفعة معانيه، حتى أنهم لم يجدوا أي سبب يبررون به اندهاشهم وحيرتهم سوى أنهم تفرقوا إلى فريقين، أحدهما آمن وصدّق بما جاء فيه من الذكر الحكيم، والآخر عاند وكذب شقاء وضلالاً.

¹ ينظر: رمضان كريب: "التصور اللغوي في البلاغة القديمة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تلمسان، ع3-4، ص2001، ص21.

² ابن سلام الجمحي: "طبقات الشعراء"، تحقيق وشرح: محمود شاكر، القاهرة، د د ن، 1952، ص22.

³ سورة الإسراء: الآية 88.

إذن :هي روعة القرآن الكريم التي أخذت بألباب ذلك العصر الأول كلهم مؤمنهم وكافرهم، فأما المؤمنون فهو أمر ظاهر للعيان، وأما المشركون الجاحدون، فهذا هو شاهد واحد من شواهد كثيرة تدل على إعجابهم وانبهارهم بالقرآن العظيم وذلك ما صدر من رؤساء كفار قريش أبي جهل، وأبي سفيان والأحنس بن شريق، إذ روى ابن اسحاق قال حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث "أنّ أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأحنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم: لا تعودوا، فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر، تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألاّ نعود إلى ذلك، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت ولا ما يراد بها معناها، قال الأحنس وأنا الذي حلفت به كذلك، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تهاذينا على الركب وكان كفرسي رهان قالوا: "منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذا؟ والله لا نؤمن به أبدا، ولا نصدقه"¹

الملاحظ من هذه القصة أنّ كفرهم لم يقف حائلا بينهم وبين الاستماع إلى القرآن الكريم، والميل إليه لما يجدون في نفوسهم من النشوة والانجذاب إليه وهو يلقي على مسامعهم وصدق الله في

¹ ابن هشام: "السيرة النبوية"، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري، عبد الحفيظ شليبي، القاهرة، مطبعة الحلبي، ط1375، ص2-2.

قوله: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾).¹

فاللغة العربية كتب لها عمر جديد مع بزوغ شمس الإسلام، ونزول أول كلمة من كتاب الله المجيد، فكلمة اقرأ شكلت صدمة حضارية للأمة العربية، وأكسبتها خصوصيتها الثقافية وتفردتها الحضاري، فعدت العربية لغة تحمل رسالة حضارية إنسانية بمفاهيمها وأفكارها، فنشأت علومها في أحضان القرآن الكريم، وترعرعت في خدره وسارت تحت ظل هودجه خدمة له وتقرباً لفهمه وبيانه وصونا للسانه.

وغني عن البيان أنّ من أجلّ علوم العربية التي لها صلة وطيدة بكتاب الله تعالى علم البلاغة، وبالأخص بلاغة النص القرآني، إذ لا يخفى على أحد أنّ القرآن الكريم "كتاب أدبي وعقدي في نفس الوقت وبنفس الدرجة، باعتباره كتاباً أدبياً لغوياً بلاغياً تتطلب دراسته دراية واسعة عميقة للغة العربية التي أنزل بها نصه الأصلي"²

ومن هنا كان القرآن الكريم رافداً أساسياً للبلاغة العربية، بل مثل البلاغة العربية، في عظمتها ورفيها لما قدمه من أساليب الإعجاز وقوة البيان، الشيء الذي جعل العرب على اختلاف مشاربهم يجدون أنفسهم مذهلين أمام "بلاغة محكمة ونظم بديع، وبيان من لدن حكيم خبير"³

إذ لا يخفى على أحد أنّ العرب قبل البعثة المحمدية كانوا قوماً يتسمون بالبداءة وقلة الحضارة والبساطة في العيش، لكن هذا لم يمنع من أنّهم أهل فصاحة وأرياب بلاغة، يضرب بهم المثل في الكلام الطيب، والدّوق الفني والإحساس المرهف، والدليل على ذلك ما كانت تشهده أسواق العرب كعكاظ، مجنة، وذى الحجاز من مسابقات بيانية فقد كانت تشهده هذه الأسواق تجارة المادة إلى جانب

¹ سورة التّمل: الآية 13-14.

² محمد بركات حمدي أبو علي: "الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية"، عمان، دار وائل للطباعة والنشر، ط1، 1999، ص9.

³ عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية في الآيات المحكمات"، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1، 2007، ص20.

تجارة البيان من معلقات تعلق على أستار الكعبة إلى مذهبات تكتب بماء الذهب، ومنقحات وحوليات.¹

تلك هي حال العرب قبل الإسلام، فجاهليتهم لم تكن مرتبطة بالنّاحية الأدبية بل بالنّاحية الدّينية لما كان شائعاً عندهم من عبادة الأصنام، وكثرة الحروب والنزعات وتقديم القرابين والعصبية القبلية، أمّا من النّاحية الأدبية فقد "اتفق المؤرخون-القدماء والمحدثون-على أن العرب لهم مآثر في البيان وذوق في الكلام، وقدرة على التّفريق بين كريمه وسقيمه، فقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب".

هؤلاء هم العرب قبل الإسلام بيئة بدوية ونظام اجتماعي الغلبة فيه للقوي وأسياد العشيرة، عبادة للأصنام، عصبية قبلية وحروب وصراعات داخلية، "فلم تكن لهم مدنيّة اجتماعية، ولا حكومة سياسية وأنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية"².

لكن بالرّغم من ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر عن العرب بعض أخلاقهم الحميدة كالكرم وحسن الجوار، والشرف والاعتزاز بالأصل والتّسب، "فقد عرفوا الشورى كقيمة سياسية، وكانوا يتداولون الرأي... والتشاور كما عرفوا نصرة المظلوم، وتعاهدوا وتحالفوا، ورد الحق إلى صاحبه"³.

لذلك عندما أذن الله لرسالته الخاتمة بالظهور قرّر سبحانه وتعالى أن يجعلها عند هؤلاء العرب تكريماً وتشريفاً قبل أن تكون إعجازاً وتحدياً، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾).⁴

¹ ينظر أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها في نهاية القرن السابع الهجري"، القاهرة، مطبعة الخانجي، 1410هـ-1990م، ص17.

² أحمد حسن الزيات،: "تاريخ الأدب العربي"، القاهرة، دار نخبضة مصر للطباعة والنشر، د ط، ص9.

³ عمر عبيد حسنة: "الوراثة الحضارية"، دمشق، المكتب الإسلامي، ط1، 1424هـ، 2003م، ص101.

⁴ سورة يوسف: الآية 2.

والمقصود بقوله: (لعلكم تعقلون) هم العرب ليعلموا أنه أنزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم وخص لسأهم من دون الألسنة الأخرى تمجيدا لشرفهم وإحياء لعزتهم حتى يهيئهم لقيادة الإنسانية وصناعة الحضارة وحمل الرسالة الإلهية إلى العالم وتحريره من دياجير الظلام والوثنية.¹

غير أن العرب في البداية جهلوا هذا التكريم الرباني لهم، وعارضوا القرآن الكريم أشد المعارضة، وتحذوا الذات الإلهية ببلاغتهم واتهموا الصادق الأمين بالسحر تارة، قال الله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾).²

وبالشعر تارة أخرى، قال تعالى: (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ).³

ولم يكتفوا بذلك القدر بل بالغوا في اتهاماتهم، وادّعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم مجنون، قال

تعالى: (وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾).⁴

إلا أن الله سبحانه وتعالى أبقى إلا أن يتم نوره ويثبت عليهم الحجة والبرهان، فجاء كتابه الكريم "نمط فريد من البلاغة والروعة وجلالة الروح وإشراق البيان وجمال الديباجة وقوة المنطق وعبقريّة التصوير والتعبير"⁵

إذن: وجد العرب أنفسهم أمام بلاغة معجزة وأسلوب بياني راقى من فصاحة الكلمات ورفع المعاني وبلاغة العبارات، بل أنهم لم يجدوا أي مبرر يبررون به اندهاشهم وحيرتهم سوى أن بعضهم آمن وأسلم والبعض الآخر جحد وكفر.

ومن هذا المنطلق الإعجازي كان السبيل للوقوف على البلاغة القرآنية التي تفردت بخصائصها عن أنماط الخطابات المختلفة لأنها بلاغة لنص ثابت: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ

¹ ينظر عبد الحميد بن باديس: "تفسير ابن باديس"، الجزائر، منشورات المعارف، د ط، 1991م، ص506.

² سورة سبأ: الآية43.

³ سورة الأنبياء: الآية 5.

⁴ سورة الصافات: الآية36.

⁵ محمد عبد المنعم خفاجي: "الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام"، بيروت، دار الجيل، د ط، 1410هـ-1990م، ص24.

مَنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾¹. بالدرجة الأولى، ونص لغوي عربي بالدرجة الثانية، قال تعالى: (كِتَابٌ
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾)²

فلعلم البلاغة في الحضارة العربية الإسلامية خصوصية ليست لغيره في سائر العلوم الأخرى، لأنها
بلاغة بيان إلهي مقدس، وبلاغة "لغة عظيمة ذات أعماق إعجازية متصلة بالقرآن"³

إنّ هذه المكانة التي منحها الله تعالى للأمة العربية لمكانة عالية حقاً، إذ جعل خطابه القرآني يمثل
هويتهم اللغوية وخصوصيتهم الحضارية من خلال بلاغته الإعجازية التي تفردت في أسلوبها ونظمها
وجمالها.

وعلى هذا الأساس أصبح التفكير البلاغي فريضة إسلامية على الباحث فيها أن يجاهد لإبراز
هذه الخصوصية التي أكسبها إياها القرآن الكريم، لكن قبل الوقوف على أوجه البلاغة في كتاب ربّ
البرية، لا بد من التعرف على المفاهيم المفتاحية لهذا البحث، وأولها مفهوم البلاغة.

¹ سورة فصلت: الآية 42.

² سورة فصلت: الآية 3.

³ عبد الحليم عويس،: "الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل"، جمهورية مصر العربية، القاهرة، دار الصحوة للنشر
والتوزيع، ط1، 1431هـ-2010م، ص53.

ثانيا: تعريف البلاغة العربية

أ-التعريف اللغوي: البلاغة في اللغة مشتقة من الفعل بلغ، بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغا وبلغه تبليغا: وتبلغ الشيء وصل إلى مراده، وفي حديث الاستسقاء: واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين، البلاغ ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ ما بلغك، والبلاغ: الكفاية.¹

فالبلاغة بمعنى الوصول والانتهاء والكفاية، وهو التعريف نفسه الذي ذهب إليه الزبيدي في معجمه تاج العروس يقول: بلغ المكان بلوغا بالضم وصل إليه وانتهى، ومنه قوله تعالى: (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا لِيَشِقَّ الْإِنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾)²، أو بلغه شارف عليه، ومنه قوله تعالى: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)³، أي قاربته.⁴

وذات التعريف ذهب إليه صاحب الصحاح: بلغت المكان بلوغا وصلت إليه، وكذلك إذا شارفت عليه، وبلغ الغلام: أدرك، والإبلاغ: الإيصال، وكذلك التبليغ، الاسم منه البلاغ، والبلاغ أيضا: الكفاية.⁵

وقد أشار ابن منظور في نفس المقام إلى تعريف آخر للبلاغة فقال: البلاغة: الفصاحة، والبليغ والبليغ: البليغ من الرجال، ورجل بليغ وبلغ حسنه الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه والجمع بلغاء، وقد بُلِّغَ بالضم بلاغة أي صار بليغا.⁶

وخلاصة هذه التعاريف هو أن البلاغة في اللغة تؤول بوجهين:

أولها: البلاغة بمعنى الوصول والانتهاء.

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، لبنان، دار صادر، ط1، 1997م، ج1، ص246-247.

² سورة النحل: الآية 7.

³ سورة الطلاق: الآية 2

ينظر: الزبيدي: "تاج العروس من جواهر القاموس"، تحقيق: علي هلاي مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1407هـ-

1987، ج2، ص38

⁵ ينظر: الجوهري: "تاج اللغة وصحاح العربية"، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دط، 1982، ص

⁶ ينظر: ابن منظور، "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص247.

ثانيهما: بمعنى الكلام الحسن الفصيح.

وكلاهما يعبران عن صلة البلاغة باللغة، إذ تعد البلاغة الأمر الذي يساعد اللغة في أداء وظيفتها الأساسية التي هي التعبير والإبلاغ والتواصل، فالبلاغة في معناها اللغوي هي إيصال المعنى كاملا إلى ذهن القارئ والسماع في أحسن صورة وأفصح كلام.

وبما أن القرآن الكريم هو مصدر هذه الدراسة كان من الواجب البحث عن المعنى الدلالي لكلمة البلاغة في فحوى آياته التي وردت فيها ومن ذلك:

- 1- قوله تعالى: (... حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً...)¹
- 2- قوله تعالى: (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ)²
- 3- قوله تعالى: (... مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ...)³
- 4- قوله تعالى: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)⁴
- 5- قوله تعالى: (لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾)⁵، معناها أصل.
- 6- قوله تعالى: (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ)⁶، أي منتهية في التوكيد.
- 7- قوله تعالى: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)⁷، أي قاربه

¹ سورة الأحقاف: الآية 15.

² سورة البقرة: الآية 232 .

³ سورة غافر: الآية 56.

⁴ سورة الصافات: الآية 102.

⁵ سورة غافر: الآية 36 .

⁶ سورة القلم: الآية 39 .

⁷ سورة الطلاق: الآية 2

8- قوله تعالى: (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾)¹

9- قوله تعالى: (وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ)²، شارفت ووصلت إلى النهاية.

فكلمة بلغ في هذه الآيات الكريمة وردت بمعنى البلوغ والبلاغ أي الانتهاء إلى أقصى الحد المنتهى مكانا كان أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدره، كما دلت على المشاركة والانتهاء إلى أقصى الأجل³.

كما وردت كلمة بلغ في مواضع أخرى من القرآن الكريم بمعان مغايرة من ذلك:

1- قوله تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ)⁴، أي خبر وقول.

2- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)⁵

3- قوله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ)⁶، أخبرتكم.

4- قوله تعالى: (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)⁷، فصيحاً.

5- قوله تعالى: (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾)⁸، القول والخبر الفصيح.

6- قوله تعالى: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي)⁹

يستنتج من هذه الآيات الكريمة أن كلمة بلغ تعني القول والخبر الفصيح.

¹ سورة مريم: الآية 8.

² سورة آل عمران: الآية 40.

³ ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، تحقيق وضبط: محمد سيّد كيلاني، لبنان، بيروت، دار المعرفة، دط، ص 60

⁴ سورة ابراهيم: الآية 52.

⁵ سورة المائدة: الآية 67.

⁶ سورة هود: الآية 57.

⁷ سورة النساء: الآية 63.

⁸ سورة يس: الآية 17.

⁹ سورة الأعراف: الآية 62.

وبعد هذا التتبع لمادة بلغ في القرآن الكريم يمكن القول بأنّ البلاغة من منظور القرآن الكريم تحمل معنيين اثنين إمّا الانتهاء والوصول أو الفصاحة وحسن القول.¹ وهو المعنى نفسه الذي ذهب إليه علماء اللغة في تعريفهم للبلاغة.

ب-التعريف الاصطلاحي: لعل كلمة البلاغة في المفهوم الاصطلاحي أعقد منها على المفهوم اللغوي وأحفلها بالمناقشة والجدل، فقد تعددت آراء العلماء واختلفت في تحديد مفهوم البلاغة، حيث أورد ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة مجموعة من الأقوال منها:

سئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: قليل يفهم وكثير لا يسأم، وسئل آخر فقال: معان كثيرة في ألفاظ قليلة، وقليل لأحدهم ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز، وسئل بعض الأعراب من أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة.

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: البلاغة كلمة تكشف عن البقية.

وقال آخر: البلاغة معرفة الفصل من الوصل، وقليل: البلاغة حسن العبارة، مع صحة الدلالة.

وقيل لأرسطو طاليس: ما البلاغة؟ قال: إصابة المعنى والقصد إلى الحجة.

وسئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون خطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامّة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة.²

وقال عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث: "البلاغة الفهم والإفهام وكشف المعاني بالكلام، ومعرفة الإعراب، والاتساع في اللفظ، والسداد في النظم، والمعرفة بالقصد، والبيان في

¹ ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص 61.

² ينظر: ابن رشيق القيرواني: "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، تحقيق: الدكتور محمد فرقان، دار المعرفة بيروت، ط 1 1988م، ج 1، ص 420.

الأداء، وصواب الإشارة، وإيضاح الدلالة، والمعرفة بالقول، والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار، وإمضاء العزم على حكومة الاختيار".¹

هذه جملة من أقوال البلغاء في تعريفهم للبلاغة كلّ حسب تصوره، ولعل المفهوم الأخير الذي ذهب إليه عبد الله بن محمد بن جميل هو الأنسب والأقرب كونه يتصل بأصل البلاغة ومباحثها. وهناك من ذهب إلى القول بأن البلاغة مرادفة للفصاحة كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن المفهوم اللغوي.

ويعد هذا المفهوم من أكثر المفاهيم الشائكة بين علماء البلاغة فقد تعددت أقوالهم واختلفت آراؤهم في إبراز الفرق بين الفصاحة والبلاغة، وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير: "هذا باب متعذر على الواج ومسلّك متوعر على الناهج، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه، ولم أجد من ذلك ما يعول عليه إلا القليل".²

ولكن قبل الفصل في قضية ما بين البلاغة والفصاحة من فروق لا بد من الوقوف على مفهوم الفصاحة.

ج- تعريف الفصاحة والفرق بينها وبين البلاغة

أ- التّعريف اللغوي: الفصاحة من فصّح، وهي البيان، فصّح الرجل فصّاحة فهو فصّيح من قوم فصحاء، وفصّاح وفصّح، رجل فصّيح، وكلام فصّيح، وبلغ لسان فصّيح أي طلق، وأفصّح عن الشيء إذ بينه وكشفه.³

وذهب الراغب الأصفهاني إلى القول بأنّ: فصّح: الفصح خلوص الشيء مما يشوبه وأصله في اللبن وأفصّح فهو مفصّح وفصّيح إذا تعرّى من الرغوة: وقد روي: وتحت الرغوة اللبن الفصّيح.

¹ المصدر نفسه، ص426.

² ابن الأثير: "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مصر، القاهرة، دار النهضة للطباعة والنشر، ط1، دت، ج1، ص90.

³ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج8، ص420.

ومنه استعير فصّح الرجل جادت لغته، وأفصح تكلم بالعربية، وقيل الفصيح الذي ينطق والأعجمي الذي لا ينطق، قال الله تعالى: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)¹ وعن هذا استعير: أفصح الصبح إذا بدا ضوءه².

فالفصاحة في معناها اللغوي هي الكشف والإبانة والكلام البليغ.

ب-التعريف الاصطلاحي: الفصاحة هي: "عبارة عن استعمال الألفاظ والتراكيب البينة الفهم والمألوفة المأنوسة"³.

فالفصاحة في معناها الاصطلاحي تؤدي نفس المعنى اللغوي بمعنى الكلام الواضح البين الخالي من التعقيد والغرابة، وعلى هذا الأساس عرفها معظم علماء اللغة، فقد عرفها الإمام فخر الدين الرازي (ت س 606هـ) بقوله: "الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد"⁴

كما عرفها إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت س 471هـ) بقوله: "إنها خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر بها الفائدة"⁵

وبعد هذه الوقفة العابرة لمفهوم الفصاحة لا بد من الإشارة إلى قضية ما بين البلاغة والفصاحة من فروق، وهذا الموضوع الذي أثار جدلاً واسعاً بين علماء البلاغة، فبعضهم اعتبر كل من البلاغة والفصاحة وجهان لعملة واحدة، والبعض الآخر قال بأنهما مصطلحان مختلفان لفظاً ومعنى وهناك من قال بأن بينهما عموم وخصوص.

فمن بين الذين يرون بأن البلاغة والفصاحة وجهان لعملة واحدة الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت س 471هـ) الذي يرى بأنّ البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة ألفاظ مترادفة، وقد أشار إلى ذلك في

¹ سورة القصص: الآية 34.

² ينظر: الراغب الأصفهاني: "مفردات غريب القرآن"، مصدر سابق، ص 280.

³ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع"، ضبط: يوسف صميلى، بيروت، صيدا، الناشر: المكتبة العصرية، ط 1 1999م، ص 7.

⁴ فخر الدين محمد بن عمر الرازي: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، مصر، القاهرة، مطبعة الآداب والمؤيد، دط، 1317هـ، ص 37

⁵ عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز"، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، ط 3، 1413هـ-1992م، ص 36.

فصل تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم¹

فعبد القاهر الجرجاني يرى بأنه لا يمكن إخراج الفصاحة من حيز البلاغة والبيان، فقد جمع بين المصطلحين وجعل لهما مفهوما واحدا، ويبدو ذلك جليا في نظريته المعروفة بالنظم إذ يرى بأن كل من الفصاحة والبلاغة ينبئ عن شرف النظم وفضيلته².

وهناك من البلاغيين من ذهب إلى التفريق بين الفصاحة والبلاغة أمثال أبو الهلال العسكري (ت395هـ) إذ على الرغم من أنه بدأ حديثه بتأكيد المعنى المشترك الذي تحمله كل من كلمتي الفصاحة والبلاغة في قوله: "وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له"³

ولكن يلاحظ بأن أبا الهلال العسكري يضرب عن كلامه هذا ويعود ليقرر بأن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تختص بالمعنى، وعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، "وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى"⁴

ومن الذين جعلوا بين المصطلحين عموما وخصوصا ابن سنان الخفاجي (تس395) يرى بأن: "الفصاحة مقصورة على الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغ"⁵

¹ المصدر نفسه، ص43.

² ينظر: المصدر نفسه، ص59.

³ أبو الهلال العسكري: "الصناعيتين"، تحقيق: علي محمد الجاوي، دب ن، دار الفكر، ط2، 1972م، ص14.

⁴ المصدر نفسه، ص14.

⁵ ابن سنان الخفاجي: "سر الفصاحة"، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، القاهرة، د ط، 1969م، ص53.

وفي ذات المعنى ذهب الخطيب القزويني (ت739هـ) عند حديثه عن الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة فهو يرى بأنّ الفصاحة خاصة بالمفرد فيقال: "كلمة فصيحة"، ولا يقال: "كلمة بليغة"¹

فالخطيب القزويني يجعل من كلمة البلاغة أعم من الفصاحة، لأن البلاغة تقع صفة للكلام فيقال: "قصيدة فصيحة"، أو بليغة"، ورسالة فصيحة أو بليغة". وتقع صفة للمتكلم فيقال: "شاعر فصيح"، أو بليغ" وكاتب فصيح أو بليغ. والفصاحة تقع صفة للمفرد فيقال "كلمة فصيحة"، لكن البلاغة لا تقع في ذلك فلا يقال كلمة بليغة.²

والكلمة لا تكون فصيحة إلا إذا سلمت من :

* **تنافر الحروف** : و المقصود به أن يجد المتكلم صعوبة و ثقلا في نطق الكلام لتقارب مخارج حروفها ، وهو نوعان

أ- **شديد الثقل** : كقول أعرابي : تركت ناقتي ترعى الهعجع

ب- **خفيف الثقل** : كقول امرئ القيس: غدائره مستشزرات³ إلى العلا

إذن: فكلمتا اللفظتين الهعجع و مستشزرات غير فصيحيتين وذلك لتقارب مخارج حرفهما بينما تكون اللفظة فصيحة إذا كانت دقيقة وعذبة وخفيفة اللسان ، و يعرف التناثر بالذوق السليم والحس الصادق .

* **غرابة الاستعمال** : وهي الكلمة الوحشية الخفية المعنى ، مثل قول عيسى ابن عمرو : " مالكم تكأ كأت عمليّ.....افرنعوا عني " أي اجتمعتم علي انصرفوا عني .

وإذا كانت خالية من الغرابة تكون مألوفة الاستعمال وتعرف الغرابة " بكثرة الاطلاع على كلام العرب والإحاطة بالمفردات المألوفة"⁴

¹ ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع"، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 5، ص 5.

² ينظر : المصدر نفسه ، ص 5.

³ غدائر : الذوائب المصفورة ، مستشزرات : المرتفعات

⁴ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة في المعاني والبيان و البديع"، مرجع سابق ، ص 36.

* **مخالفة القياس:** هو كون الكلمة مخالفة لقوانين علم الصرف وما اصطلح عليه الجمهور مثل قول الشاعر :

الحمد لله العلي الأجلل الواحد الفرد القديم الأول

فالأجلل لفظه شادة والصحيح الأجلّ بالادغام والشاعر فك الإدغام وبالتالي خالف القاعدة .

* **كراهة السمع :** هي تلك الكلمات القبيحة الشنيعة التي تشمئز النفس من سماعها ، لأنّ اللفظ هو من قبيل الأصوات فمنها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه كلفظ " الجرشي " في قول أبي الطيب : كريم الجرشي ، شريف النسب¹

هذا فيما اختص بالكلمة وشروط فصاحتها فإذا اختل شرط من هذه الشروط سقطت فصاحتها

أمّا فصاحة الكلام فتأتي في المرتبة الثانية بعد التأكيد من فصاحة الكلمة المفردة والمراد بها أن يكون التركيب الكلامي يحتوي على كلمات فصيحة يسهل على اللسان التلّفظ بها ، كما أنّها تكون مرتبة ترتيباً حسب معانيها حتى يسهل على العقل فهمها² وتحقق فصاحة الكلام إذا خلص من :

* **تنافر الكلمات :** بسبب ثقلها على اللسان وعسر التلّفظ بها لتقارب مخارج حروفها وهو نوعان

أ- **شديد الثقل:** كقول الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ب- **خفيف الثقل :** كقوا أبي تمام

كريم متى أمدحة أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

¹ ينظر : الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق ، ص 7

² ينظر : أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق ، ص 36

* **ضعف التأليف** : وهو أن يكون الكلام مخالفا لقوانين علم النحو ، والمتفق عليها بين جمهور العلماء مثل : ضرب غلامه زيد .

فرجوع الضمير إلى المفعول المتأخر غير جائز و مخالف لقاعدة الجمهور.

* **التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي** : فالأول هو أن يختل الكلام في نظمه فيخفي الدلالة على المعنى المراد نتيجة لتقديم أو تأخير أو فصل بين الكلمات كقول الفرزدق

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

فقول الفرزدق في غاية التعقيد فقد أحل بالنظم والصحيح أن يقول :

وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو ألامه أبوه

ويعرف هذا التعقيد اللفظي بعلم النحو شأنه في ذلك شأن ضعف التأليف¹

أما التعقيد المعنوي فيعرف بعلم البيان² ، وهو التعبير على المعنى بألفاظ مستعملة في غير معانيها الحقيقية كقول عباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

فالشاعر كنى عن فرحة اللقاء بجمود العين من الدموع وهذا خطأ ، لان جمود العين عن البكاء

كناية عن البخل.

* **كثرة التكرار**: هو تعدد الكلمة الواحدة في التركيب ولا يكون من ورائها أي فائدة كقول الشاعر :

إني وأسطار سطرن سطرًا لقائل يا نصر نصر نصرًا³

* **تتابع الإضافات** : والمقصود بها الإضافات المتداخلة التي تحدث ثقلا و استكراها في التركيب كقول أحد الشعراء :

يا علي بن حمزة بن عماره أنت _ والله _ ثلجة في خياره

وفي هذا قال الشيخ عبد القاهر ، قال الصاحب : " إياك والإضافات المتداخلة فإنها لا تحسن ... ثم

قال لا شك في ثقل ذلك في الأكثر لا كن إذا سلم الإستكراه ملح ولطف"⁴

¹ ينظر : المرجع نفسه، ص36، وينظر الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص9

² ينظر : المرجع نفسه، ص 36

³ ينظر : المرجع نفسه، ص 36

⁴ ينظر : الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة" ، مصدر سابق، ص 10

أما عن فصاحة المتكلم: فهي " ملكة يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المعنى المقصود بلفظ فصيح"¹

وتكون هذه الملكة ثابتة في نفس المتكلم بفطرته من غير تكلف ولا تصنع،

هذا فيما يخص الفصاحة والتي حصر البلاغيون وقوعها في أمور ثلاثة :

فصاحة الكلمة مفردة

فصاحة الكلام

فصاحة المتكلم.

أما عن البلاغة: فهي تقع فقط في الصفتين الأخيرتين اللتان تجلت فيهما الفصاحة ، وهما بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم ، ولا تقع في الكلمة لأنها قاصرة على تأدية المعنى والغرض المطلوب.

فبلاغة الكلام " مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته "² والمقصود بالحال : المقام أو الأمر الذي يحمل المتكلم على ايراد كلامه في صورة مخصوصة ، والمقتضى هو الاعتبار المناسب أو الصورة التي ترد عليها العبارة ، ولهذا قالت العرب لكل مقام مقال ، فمثلا المدح حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الاطناب ، وذكاء المخاطب حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز فالمدح والذكاء هو المقام ، والإطناب والإيجاز هو المقتضى .³

أما بلاغة المتكلم " فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ فصيح "⁴

وبعد هذه الوقفة مع البلاغة والفصاحة وما بينهما من فروق يلاحظ بأنّ البلاغة جامعة للفصاحة على عكس الفصاحة فهي مفردة فليس كل فصيح بليغ بينما كل بليغ فصيح فالفصاحة مقصورة على الألفاظ وصفاتها ، بينما البلاغة لا تصف الألفاظ إلاّ مع معانيها .

¹ المصدر نفسه ، ص 11

² المصدر نفسه ص 11

³ ينظر : أحمد الهاشمي : " جواهر البلاغة " ، مرجع سابق ، ص 30

⁴ المرجع نفسه ، ص 31

وكان لذي العقول الراجحة والشأن العظيم في البلاغة أقوال متعددة ، فهذا قدامة يحصر البلاغة في ثلاثة مذاهب متصلة باللفظ و المعنى وهي :

1_ المساواة : وهو أن يكون اللفظ مطابقا للمعنى

2_ الإشارة : وهي أن يكون اللفظ كاللمحة الدالة على المعنى

3-التذييل : هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد¹

ويقول أحدهم في وصف البلاغة " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه"²

فالبلاغة العربية ليست مقتصرة على اللفظ بدون معنى و إنما كل منهما يكمل بعضه , وفي هذا يقول ابن المقفع " لا خير في كلام لا يدل على معناه و لا يشير إلى مغزاه"³

ولعل التعريف الجامع المانع لمفهوم البلاغة هو أنّ "البلاغة هي الكلام الذي يصيب معناه بوضوح وسلامة مع خلوه من التلطف والفضول ومراعاته لمقتضى الحال"⁴.

إذن: البلاغة في العرف العربي و بصفة عامة هي الكلام الفصيح الذي يوافق طباع العرب السليمة و يؤدي إلى أرق المعاني و أجمعها وأجملها .

هذا هو مفهوم البلاغة العربية بصفة عامة موجزة حسب آراء أهلها , فالبلاغة العربية كانت في بدايتها مجرد بذور منبثة في مناظرات شعرية معروضة في أسواق العرب المعروفة على شكل ملاحظات و أحكام بلاغية , إلى أن جاء القرآن الكريم بنسماته البلاغية و أسرار الإعجازية , فكان الأساس الذي بنيت عليه قواعد البلاغة ، " فقد كان البحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم طريقا و سبيلا للوقوف على البلاغة العربية بعلومها المختلفة , فقد دعاهم البحث في الإعجاز إلى الخوض

¹ ينظر : المرجع نفسه، ص 31

² المرجع نفسه، ص 32

³ مازن المبارك: "الموجز في تاريخ البلاغة"، دمشق، دار الفكر ط2، 1400هـ، 1979م، ص 17.

⁴المرجع نفسه:ص18

بالضرورة في البحوث البلاغية، فأخذوا يدرسون فنون البلاغة كي يقفوا على سر الجمال في التعبير القرآني، وكشف النواحي التي من أجلها عجز العرب عن أن يأتوا بأقصر سورة¹ إذن هي بلاغة القرآن التي أخذت بألباب وجهابذة البيان و أسرت عقولهم وأخرست ألسنتهم وأعجزتهم عن الإتيان بمثله ولو بسورة واحدة .

¹ أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص34.

ثالثاً: تعريف القرآن الكريم:

يشترط قبل الوقوف على مفهوم بلاغة القرآن، وكما يقتضي منهج البحث تحليل هذا المركب الإضافي، و ذلك بالتحدث عن طريقه و عن العلاقة الإضافية بينهما، والواجب أن معرفة القرآن الكريم تكون أولاً .

أ_التعريف اللغوي: اختلفت آراء العلماء المسلمين في المفهوم اللغوي للفظ القرآن الكريم، فهناك من ذهب إلى القول بأنه مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾)¹

ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من باب إطلاق المصدر على مفعوله.²

والمنقول عن الأشعري (ت س 330 هـ) وأقوام أنه " مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا أضممته إليه وسمي به عندهم لقرآن السور والآيات والحروف فيه بعضهما ببعض"³ وهناك من ذهب إلى القول بأنه وصف من القراء بمعنى الجمع أو أنه مشتق من القرائن، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجل أي موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز

المنزل، غير مهموز ولا مجرد من الألف واللام.⁴

ومن الذين ذهبوا إلى أن القرآن غير مهموز الإمام الشافعي و الفراء و الأشعري، فقد قال الإمام الشافعي (ت س 204 هـ) عن لفظ القرآن المعرف " بأنه ليس مشتقاً ولا مهموزاً بل ارتجل ووضع علماً على الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم"⁵

¹ سورة القيامة: الآية 17_18

محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان في علوم القرآن" واعتنى به: فواز أحمد زلمي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1415هـ-1995، ج1، ص16.

³ عبد العزيز معطي عرفة: "فضيلة الإعجاز القرآني و أثرها في تدوين البلاغة العربية"، بيروت، عالم الكتب ط1، 1985، ص 22

⁴ ينظر: محمد الزرقاني: "المرجع السابق، ج1، ص19

⁵ صبحي الصالح: "مباحث في علوم القرآن"، لبنان، بيروت د ط، 2009م، ص 18

ويقول الفراء(ت س 207هـ) ، " أنه مشتق من القرائن ، جمع قرينة لأن آياته يشبه بعضها بعض فكأن بعضها قرينة على بعض ، وواضح أن النون في قرائن أصلية"¹
و يقول الاشعري (ت س330هـ) وأقوام يتابعونه على رأيه ، "إنه مشتق من قرن الشيء بالشيء إذا ضمه إليه لأن السور و الآيات تقرن فيه ويضم بعضها على بعض"²

فهذه الآراء الثلاثة كافية للحكم على القرآن بأنه اسم غير مهموز والنون فيه أصلية، ووزنه فعال .
لكن هناك آراء أخرى تذهب إلى القول بأن القرآن مهموز ،ومن العلماء الذين تبنا ذلك:

الزجاج يقول : " إن لفظ القرآن مهموز على وزن فعالن ، مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأ الماء في الحوض إذا جمعه لأنه جمع ثمرات الكتب السابقة"³

وفي ذات المعنى يذهب اللحياني⁴ إلى القول بأن القرآن " مصدر مهموز بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا، سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر "

وقد ذهب ابن منظور إلى تعريف القرآن لغة فجمع بين الرأيين فقال : قرأ القرآن : التنزيل العزيز و إنما قدم على ما هو أبسط منه لشرفه قرأه ، يقرؤه ، يقرؤه ، الأحيرة عن الزجاج قرء او قراءة وقرآنا الأولى عن اللحياني فهو مقروء ، أبو اسحاق النحوي : يسمى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه و سلم كتابا و قرآنا وفرقانا ، ومعنى القرآن معنى الجمع ، وسمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها ، وقوله تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) ⁵ أي جمعه وقراءته

¹ المرجع نفسه ص 18

² المرجع نفسه ص 18

³ المرجع نفسه ص 19

⁴ اللحياني هو أبو الحسن علي ابن حازم لغوي مشهور ت س (21هـ) له كتاب النوادر .

⁵ سورة القيامة: الآية 17

ومعنى قرأت القرآن : لفظت به مجموعاً أي ألقيته وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين¹ وكان يقول : القرآن اسم وليس مهموز ، ولم يؤخذ من قرأت ولكنه اسم كتاب الله مثل التوراة و الانجيل ، ويهمز قرأت ولا يهمز قرآن²

ولعل الرأي المتفق عليه بين جمهور العلماء هو أنّ القرآن لفظ مهموز مشتق من الفعل قرأ بمعنى تلا ، ذات الأصل الآرامي فمن المعروف أن اللغة العربية تأثرت بلغات الأمم المجاورة لها حسب ما ذهب إليه بعض المستشرقين في دراستهم للغة العربية ، فربما تداول العرب قبل الاسلام لفظ قرأ الآرامي الأصل بمعنى تلا وعربوه واستعملوه تسمية لكتاب الله الكريم³ المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم .

ومما يؤكد هذا الرأي التسمية الأخرى التي أعطاها الله تعالى لكلامه العزيز ، وهي الفرقان قال الله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)⁴ ، فالفرقان أيضا مصدر رسمي به النظم الكريم تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل⁵

ب _ التعريف الاصطلاحي : اختلف العلماء في تعريف القرآن الكريم وتعددت مفاهيمهم له كل حسب اختصاصه ، بل أنّ البعض أعرض وقال بعدم جواز تعريفه لأنّه علم شخصي والتعريفات إنما تكون للكليات ، والآخرين وهم جمهور الفقهاء والمتكلمون والأصليون وعلماء اللغة قالوا بجواز تعريفه⁶ واصطلحوا على هذا التعريف بقولهم : " إنّه كلام الله المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ."⁷

لقد اشتمل هذه التعريف على مجموعة من الصفات تعد بمثابة قيود اختص به القرآن الكريم دون غيره .

¹ إسماعيل بن قسطنطين المعروف بأبي اسحاق المخزومي مولاهم المكي المقرئ ، قارئ اهل مكة في زمانه وآخر أصحاب ابن كثير ، أقرأ الناس فقرأ عليه الامام الشافعي وكثيرون غيره

² ينظر : ابن منظور "لسان العرب" ، مصدر سابق ، ج 5، ص 219

³ ينظر : صبحي الصالح : " مباحث في علوم القرآن " ، مرجع سابق ، ص 20

⁴ سورة الفرقان : الآية 1.

⁵ ينظر : محمد الزرقاني : " مناهل العرفان " ، مرجع سابق ، ج 1، ص 19

⁶ ينظر : المرجع نفسه ص 25

⁷ المرجع نفسه ، ص 24

- 1-فقولهم : كلام الله مركب إضافي ، فالكلام جنس شامل لكل كلام ، وإضافته إلى الله تميزه عن كلام من سواه من الإنس و الجن و الملائكة
 - 2-المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم أي على محمد احترازا عما أنزل على الانبياء السابقين كالنوراة والإنجيل والزبور وغيرها
 - 3-المكتوب في المصاحف ، ميزة اختص بها القرآن دون غيره أنه دون وحفظ بالكتابة والإشراف والعناية ، فقال الله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾)¹
 - 4-المنقول بالتواتر : أي أن القرآن الكريم قد نقله جمع غفير لا يمكن تواطئهم على الكذب ولا وقوع الخطأ منهم صدفة ، فقد قام جمع ضخم بنقل القرآن عن جمع مثله وهكذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك إثبات اليقين القاطع بأن هذا القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذه الخصوصية لم تتح لأي كتاب من الكتب السماوية السابقة ، فقد بقي القرآن محفوظا في السطور والصدور بفضل تواتره جيلا بعد جيل
 - 5-المتعبد بتلاوته : أي أن قراءته في الصلاة وغيرها عبادة للمؤمن
 - 6-المعجز : الإعجاز أعظم خصائص القرآن ، فهو معجز لجملة كما أنه معجز بأيّ سورة منه ، ولو كانت هي أقصر سورة من سور .²
- هذا هو البرهان القاطع والنور الساطع الذي سطع على شبه جزيرة العرب فتحدى أهلها وأعجز أرباب بلاغتها ، فالإعجاز خصوصية ليست لغير القرآن الكريم.
- وقد عرف مصطفى صادق الرافعي القرآن الكريم بأسلوب بلاغي رائع فقال: "القرآن آيات منزلة من حول العرشألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، و إذا لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامهاومعاني بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ،ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان."³

¹ سورة الحجر : الآية 9

² ينظر : نور الدين عتر: "علوم القرآن الكريم" ، دب ن ، مطبعة الصباح ، ط 1 ، 1414هـ - 1993م ، ص 10-11.

³ مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن و البلاغة النبوية" ، دب ن ، المكتبة التوفيقية ، ط 8 ، دت ، ص 29 - 30

كما بين الاختلاف بين القرآن الكريم وبين ما دعتة العرب في أنه من باب السحر والشعر والجنون، وغيرها من الافتراءات التي أُتهم بها النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: "فلما أنزل الله كتابه قالوا: هذا هو السحر المبين... ومن الشعر ما تسمعونه أم أنتم لاتسمعون؟ بل إنه لسحر يغلب حتى يفوق بين المرء وعادته، وينفذ حتى ينصرف بين القلب وإرادته... إذ هو ألاحظ لم تعهد كلم أحداقها، وثمرات لم تنبت في قلم أوراقها... وبلى إنه لشعر ولكن زنه مبانيه في معانيه، وزينه معانيه في مبانيه... يقولون مجنون... بل إنه العقل الكبير في كماله ليتمثل في العقول الصغيرة كأنه جنون."¹

فالقرآن الكريم أتى كل نص من نصوصه مطابقا لمقتضى الحال، هذا الأخير الذي يؤدي الوظيفة الأساسية للبلاغة، فقد عبر القرآن الكريم عن كل الأحوال مع مراعاة جميع الظروف والملابسات التي تحيط بالمقام الذي جاءت فيه الآيات الكريمة، وهذا ما تقول عنه العرب: لكل مقام مقال، فالقرآن الكريم يراعي حال مخاطبيه و يجعل لكل مقام مقاله الخاص، فجاءت بلاغته مكتملة الجوانب سامية عن أي بلاغة من بلاغات البشر.

¹المصدر نفسه:ص30-31

رابعاً: تعريف البلاغة القرآنية :

وبعد هذه الوقفات السالفة سواء مع البلاغة أو القرآن الكريم ، جدير بالمقام أن يجمع بين الطرفين ويقدم المفهوم العام للبلاغة القرآنية، هذه الأخيرة التي تعد واحدة من أبرز القضايا التي شغلت البلاغيين قديماً وحديثاً، ومن بين الذين عرفوها :

أبو الحسن الرّماني (386هـ)¹ قال : " فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات منها ما هو في أعلى طبقة ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن ، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس"².

يحدد الرّماني البلاغة ويجعلها وفق طبقات ، أعلاها طبقة في الحسن والبيان بلاغة القرآن الكريم ، وذلك لاكتسابها درجة الإعجاز وارتباطها بالنص القرآني ، أما باقي البلاغات فهي أقل درجة لأنها متعلقة بالبلغاء من الناس كل على اختلافه ومعرفته بها .

ويواصل الرّماني في حديثه عن البلاغة ليقول : " وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، فأعلاها طبقة في الحسن ، بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة وأعلى طبقات البلاغة معجز العرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم"³

فالرّماني أسس لبلاغة معجزة تجاوزت حدود أداء التّمط العادي إلى الأداء الفني العالي ، الذي يحدث تأثيراً نفسياً مرتبطاً بوصول المعنى إلى القلب في أحسن صورة ، ولا يوجد كلام يترك أثره على النفس مثل كلام الله تعالى ، يقول سبحانه وتعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)⁴

¹هناك بعض المراجع ترجع تاريخ وفاته 384هـ

² أبو الحسن الرّماني : "النكت في إعجاز القرآن"، ضمت ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، حققها وعلق عليها محمد خلف ومحمد

زغلول ، مصر ، دار المعارف ط3، 1976 ، ص75

³المصدر نفسه ، ص75

⁴ سورة ق: الآية 37

ثمّ يذهب إلى تحديد فنون البلاغة ويحصرها في عشرة فنون : الايجاز والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان¹ اعتقاداً منه أنّ البلاغة القرآنية لا تقع إلا في هذه الوجوه .

كما ذهب الخطابي (388هـ) إلى تعريف البلاغة القرآنية في كتابه بيان إعجاز القرآن ، وحذا في ذلك حذو الرّماني ، إذ قسم البلاغة إلى طبقات ، وربط بلاغة القرآن بقضية الإعجاز فقال : " أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التباين متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصيف الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائر الطلق الرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع المهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة"² وبعد هذا الكلام المحمل يذهب إلى التفصيل فيقول : " فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة وأخذت من كل نوع من أنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة و العذوبة ، وهما على الانفراد في نوعتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعان من الوعورة فكان اجتماع الامرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه ودلالة على صحة ما دعا اليه من أمر دينه"³

وقد تطرق الباقلائي(ت س403هـ) إلى قضية البلاغة القرآنية وعرفها بأثما البلاغة التي عجز عنها البشر وذلك عند حديثه عن القرآن فقال : " بديع النظم عجيب التّأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"⁴

¹ ينظر أبو الحسن الرماني: "النكت في إعجاز القرآن ، مصدر سابق ، ص 75

² أبو سليمان الخطابي: "بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" ، حققها وعلق عليها: محمد خلف ومحمد زغلول ،سلام، مصر ، دار المعارف ، ط 19 ، ص 26

³ المصدر نفسه ص 26

⁴ الباقلائي: "إعجاز القرآن" ، تحقيق السيد: أحمد صقر ، القاهرة ، دار المعارف ، ط 4 ، 1977م، ص 51

فهو يرى بأن بلاغة القرآن بلاغة معجزة تعدت الحدود الطبيعية لبلاغة الكلام فوصلت إلى حد البراعة ، ثم أشار إلى هذه الحدود التي تبين هذه البلاغة المعجزة فقال : "ومحصولها الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغاً و بليغاً فإذا تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة و انتهى إلى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة صح أن تكون له حكم المعجزات"¹

وفي نفس المعنى حدّد القاضي عبد الجبار الهمداني (ت 415هـ) مفهوم البلاغة القرآنية ، فجعل من البلاغة وجهها من وجوه الإعجاز قال : "واعلم أن التحدي وإن كان بقدر الفصاحة والبلاغة فمتى اختص ماله قدر عظيم في الفصاحة بطريقة من النظم خارجة عن العادة يكون وجه الإعجاز فيه أظهر و أبين وظهور عجز الغير عنه أكشف ، فلما كان الأمر كذلك أجرى الله تعالى حال القرآن على مثله ليكون وجه الإعجاز فيه أبين يخصه الله تعالى بطريقة خارجة عن نظمهم ونثرهم ، ويقدر من الرتبة في الفصاحة خارج عن عادتهم"²

وتعاقبت جهود البلاغيين في دراستهم لبلاغة النصّ القرآني فها هو ذا الخطيب القزويني (ت س 739هـ) يرى بأنّ " للبلّاحة طرفان : أعلى إليه تنتهي ، وهو حد الإعجاز وما يقرب منه ، وأسفل منه تبتدئ وهو ما إذا غيّر الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات و إن كان صحيح الإعراب وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة"³

وبعد هذا العرض من التعاريف لمفهوم البلاغة القرآنية حسب آراء أهل الاختصاص والذين انشغلوا بهذه القضية منذ عصر مبكر ، يستنتج بأنّ البلاغة القرآنية هي البلاغة التي يعجز البشر عن مثلها لأنّها تقع في أعلى مراتب الكمال فهي بلاغة إعجازية لإعجاز كتابها الكريم الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم تحدياً لهؤلاء العرب لجهلهم وكفرهم .

وهذه ميزة انفردت بها بلاغة القرآن عن سواها من بلاغات البشر سواء فيما يخص بلاغة بلغاء العرب أو بلاغة الأمم الأعجمية ، فهي بلاغة تتحدد من خلال علاقة تكاملية بين اللفظ و المعنى

¹ المصدر نفسه ، ص434

² القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني : "المغني في أبواب العدل و التوحيد" ، قدم نصح: أمين الحولي ، القاهرة ، دار الكتب، ط1، 1405هـ1985م، ج16 ، ص 224

³ الخطيب القزويني : "الإيضاح في علوم البلاغة" ، مصدر سابق ص 13

والنَّظْمُ وفق سياق قرآني (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾) ¹

وعلى هذا الأساس الإعجازي الذي تأسست عليه البلاغة أصبح التفكير البلاغي ضرورة مهمة وذلك لفهم كتاب الله تعالى فأبو الهلال العسكري (ت 395هـ) يضع علم البلاغة و الفصاحة في المرتبة الثانية بعد علم التوحيد يقول في ذلك: " اعلم علمك الله الخير أن أحق العلوم بالتعلم وأولها بالحفظ بعد المعرفة بالله عز وجل ثناؤه ، علم البلاغة و الفصاحة الذي يعرف به إعجاز كتاب الله " ²

فعلم البلاغة العربية لم ينشأ لاكتساب مهارة التكلم بل لاكتساب مهارة حسن فهم كتاب الله يقول عمر بن عبيد ³ " إن البلاغة أداة لتقرير حجة الله " ⁴

وليس العلم ببلاغة القرآن كمثّل العلم ببلاغة البيان الإنساني ففضل بلاغة القرآن على بلاغة البشر كافة كمثّل فضل الله على جميع خلقه، وليس كل عالم ببلاغة الناس يكون عالماً ببلاغة القرآن الكريم والكلام على العكس صحيح فعن محمد بن اسماعيل: قال: "حدثنا شهاب بن عباد العبدي، قال: حدثنا: محمد بن الحسن عن أبي يزيد الهمداني، عن عمرو بن قيس عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الرب عز وجل من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " ⁵.

ويقول أبو حسن الحرالي ⁶ : "بلاغة البيان تعلو على قدر علو المبين فعلو بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله تعالى على خلقه" ¹

¹ سورة فصلت : الآية 42

² أبو الهلال العسكري: "الصناعتين"، مصدر سابق، ص3

³ عمرو بن عبيد (ت س 144هـ) رجل ينتمي إلى المذهب الاعتزالي .

الجاحظ: "البيان و التبيين"، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط7، 1418هـ-1998م، ج1، ص12.

4

الإمام الحافظ أبو عيسى الترميذي: "سنن الترميذي"، تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، السعودية، الرياض، مكتبة المعارف للنشر

⁵ والتوزيع، ط1، دت، رقم الحديث 2926، ص654

⁶ الحرالي هو أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن المراكشي الأندلسي، رجل متصوف، كان مولعاً بالعقليات ونظريات علم الكلام و اهتم بتفسير القرآن الكريم .

وبما أنّ العربية هي اللسان الذي نطق به الحق سبحانه تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" ²، فقد اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية لغة لكتابه الكريم تشريفا وتكليفا لأمة خير البشر صلى الله عليه وسلم وبثّ في هذه اللغة أسراراً بلاغية لا توجد في أي لغة من لغات الأمم، وذلك ليشيدوا على الأرض حضارة تخدم الإنسانية وفق منهج رباني ارتضاه سبحانه وتعالى للعالمين جميعا .

فالأمة العربية الإسلامية هي الأمة الخاتمة المسؤولة على الأمم، وحضارتها هي الحضارة الشاهدة قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)³

إنّ هذه المكانة التي منحها الله تعالى للأمة العربية الإسلامية لمكانة عالية فهي أمام رسالة عالمية صالحة لكل زمان ومكان لأنها تحمل قرآنا ثابتا صالحا لكل زمان ومكان يقول بديع الزمان

النورسي⁴: "الأبرهن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن اطفاء نورها"⁵. فالقرآن في حد ذاته رسالة حضارية لكل البشر، فهو خطاب العالمين الأزلي يقول الشيخ محمد الغزالي⁶: "إنّ الله ربّي محمد ليربّي به العرب، وربّي العرب بمحمد ليربّي بهم الناس كافة."⁷

¹ أبو الحسن الحرالي: "رسالة مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل"، تحقيق: محامدي الخياطي، المغرب، ط 1، 1418هـ، ص 29

² سورة الزحرف: الآية 3.

³ سورة البقرة: الآية 143

⁴ بديع الزمان النورسي من مواليد (1294هـ/1877م) بتركيا من أصل تركي، مفكر وعالم مسلم من العلماء الذين حملوا لواء التجديد في القرن العشرين توفي 1379 هـ - 1960م.

⁵ بديع الزمان النورسي: "الإيمان وتكامل الإنسان"، من كليات رسائل النور، تحقيق: إسحاق قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، ط 7، 2011، ص 7

⁶ هو محمد الغزالي احمد الساقا عالم ومفكر إسلامي من مواليد 1335 هـ-1917م، بمصر عاش داعيا للصحوّة مدافعا عن الإسلام ت س 1416هـ-1996 م.

⁷ محمد الغزالي: "من مقالات الشيخ الغزالي"، جمع: عبد الحميد حسانين، القاهرة، نضضة مصر للطباعة، ط 1، يناير 2005 م، ج 3، ص 184.

ومما لا ريب فيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم قام بمهمته التي فرضها الله عليه فشرّف الحضارة العربية الإسلامية ، وكان قائدها الحضاري الأول ، كما كرمه الله تعالى وجعله من أفصح العرب ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "بعثت بجوامع الكلم..."¹ ويقول أيضا عليه الصّلاة والسّلام: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر"²، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان صاحب فصاحة وبلاغة ، فجاءت بلاغته النبوية مكتملة لبلاغة القرآن الكريم منفردة عن بلاغة الناس في خصائصها وسماتها ، يقول مصطفى صادق الرافعي عن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم : " هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها وحسرت العقول دون غايتها ، لم تضع وهي من الأحكام مصنوعة ، ولم يتكلف له وهي على السهولة بعيدة ممنوعة"³ والمطلع على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم يرى أنها جاءت في غاية الفصاحة وكمال البلاغة بأسلوب محكم من غير تكليف ولا تعقيد .

وعلى هذا الأساس تكون البلاغة النبوية في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم فقد حرص عليه الصّلاة والسّلام أن يكون كلامه مطابقا للغة العرب لكن مع درجة عالية من الفصاحة والبلاغة لا ترقى إليها أيّ بلاغة من بلاغات أولئك العرب .

ولعل في قوله صلى الله عليه وسلم " أنا أفصح العرب " إشارة نبوية إلى ضرورة تعلم علم الفصاحة والبلاغة لأنه وسيلة لفهم كتاب الله تعالى و مقصد آياته .

فالإطلاع على بلاغة القرآن الكريم فريضة إسلامية لا تقل في أهميتها للمسلمين عن أي فريضة أخرى من فرائض الإسلام ، وأكبر دليل على ذلك أنّها ميزة انفردت بها الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم .

محمد بن اسماعيل البخاري : "صحيح البخاري" ، اعتنى به : أبو عبد الله محمود بن الجميل ، القاهرة ، مكتبة الصفا ، ط1 ،

1423هـ ، 2003م ج3 ، رقم الحديث 7273 ، ص421

الحديث فيه خلاف ، وأغلب العلماء يرون بأنّه حديث مرفوع ليس له نسق وذكر في بعض المواضع من باب الاستثناس والإعراب² عن فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم .

³ مصطفى صادق الرافعي : "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" ، مصدر سابق ، ص 279

وعلى هذا الأساس يجب على أبناء الأمة الإسلامية أن يطلّعوا على موروثهم البلاغي الذي خلّفه السلف على مدار مسيرتهم الحضارية ويسعوا إلى رفع جمود الفكر البلاغي الذي تعاني منه الأمة في العصر الحالي ، وذلك من خلال تجديد العلاقة بالبيان القرآني تحقيقاً لتهيئة المسلم للقيام برسائلته الاستخلافية و القيادية التي شرفه الله تعالى بها دون غيره ، قال الله تعالى: (كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)¹

فشهادة الأمة الإسلامية على الناس في الدنيا شهادة قيادية حضارية تفتح الطريق أمام العقول والقلوب لتشاهد جلال الربوبية وقدوسية الألوهية من خلال الكشف عن أسرار الإعجاز في كلام رب البرية سبحانه وتعالى .

فالتجديد الحضاري رسالة هذه الأمة وجوهر شخصيتها إنّها أمة ليس لها موروث بشري بل موروث مقدس ثابت ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"²

فالتفكير البلاغي في الحضارة العربية الإسلامية له خصوصية منفردة ليست لغيره عن سائر العلوم الأخرى سواء عند العرب أو عند غيرهم من العجم وسرّ ذلك إعجاز كتاب الله تعالى على الوجه البلاغي .

¹ سورة البقرة : الآية 143.

² محمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط 1 ، 1399هـ -1977م ، ص150 حديث صحيح رواه أبو هريرة وأخرجه الحاكم في المستدرک ، وهناك من ينكرون صحة هذا الحديث .

الفصل الأول: الإعجاز القرآني وصلته بالمباحث

البلاغية

أولاً: الإعجاز القرآني - المفهوم والنشأة -

ثانياً: الإعجاز القرآني عبر مسيرته التاريخية

ثالثاً: أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

الفصل الأول: الإعجاز القرآني وصلته بالمباحث البلاغية

جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمة بسيطة كان معظمها من الحفاة العراة يعانون شظف العيش ويكابدون الأهوال في حياتهم الاجتماعية، والجهل والكفر في حياتهم الدينية، والعصبية والتناحر في حياتهم السياسية، قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)¹.

وبالرغم من هذه الصفات السلبية لا يستطيع أحد أن ينكر عن العرب فصاحتهم وبلاغتهم وذلاقتهم وبراعتهم في البيان، وقد وصف عتبة بن أبي سفيان كلامهم فقال: "أن للعرب كلاما ما هو أدق من الهواء وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها بكلمات مؤلفات إن فسرت بغيرها عطلت، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت"².

لكن هؤلاء العرب وهم جهابذة البيان وأرباب البلاغة ومضرب الفصاحة يقفون منبهرين أمام وحي السماء الذي نزل فيهم قصدا دون غيرهم من العالمين، واختار رب البرية من بينهم رجلا عرف بصدقه وأمانته وصفاء روحه عندما كانوا هم يسبحون في دياجير ظلماتهم ويغوصون في برك جهلهم، فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون محمدا صلى الله عليه وسلم نبي الله ورسول الرسالة الخاتمة، التي بها تطوى صحف السماء إلى الأرض لتكون شاهدة على مر الزمان.

ومن سنة الله في رسله أنه يؤيدهم بمعجزات من جنس ما برع فيه أقوامهم، فقد كانت معجزة موسى العصا التي انقلبت إلى حية تسعى لأن فرعون وقومه نبغوا في ميدان السحر، وكانت معجزة عيسى هي إبراء الأكمه والأبرص لأن قومه نبغوا في ميدان الطب، ومن ثم اقتضت سنة الله أن تكون معجزة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة بلاغية بيانية من جنس ما برع فيه العرب.

¹ سورة الجمعة: الآية 2.

² محمد السيد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1398هـ، ص3.

فالقُرآن الكريم كتاب عظيم يجمع بين دفتيه التّمييز والتّفرد البلاغي، ومع ظلال آياته الارتقاء والتّجرد الأسلوبّي، وفي رحاب معانيه السّمو والعلو، وفي فسحة ألفاظه الدّقة والرّقة، لأنّه ببساطة كلام ربّ البرية سبحانه وتعالى، يقول عز وجل: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)¹.

وبمجرد نزول أولى آيات القرآن الكريم بدأت قصة التّحدي بين كلام العرب وكلام الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)²

وبالرغم من طول عنادهم ومعارضتهم انهزموا أمام عظمة القرآن ورضخوا لحسن بيانه وبلاغته، وسلّموا أمرهم رغم أنهم لم يسلموا لأنّها قوة القرآن التي تصدّع لها الجبل وانقاد لها الإنس والجن، قال تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)³.

وعلى أساس هذا التّحدي والمعارضة ظهر علم الإعجاز القرآني الذي تفرد به كتاب الله تعالى دون غيره، فقد برهن القرآن الكريم بإعجازه وضعف العرب وعجزهم عن الإتيان بمثله أنّه وحي ربّ السماء لا يمكن لأي من البشر أن يبلغوا كمال بلاغته وسبك أسلوبه ودقة نظمه.

فالقُرآن الكريم هو سرّ العربية وكتابها الخالد الذي ضمن لها البقاء وحفظها من الزوال وأسس علومها وقعد مصطلحاتها، ومن أجلّ تلك العلوم التي لها علاقة وطيدة بالقرآن الكريم علم البلاغة، إذ ساهمت الدّراسات وجهود العلماء حول البحث في سر الإعجاز القرآني إلى تأسيس مباحث البلاغة العربية وتقييد قواعدها محاولين من خلال ذلك إلى كشف الستار عن القيم البلاغية التي حوّاها كلام ربّ البرية⁴.

تلك القيم التي تفردت بها بلاغة القرآن الكريم دون غيرها من بلاغات العالمين، لكن قبل الغوص في قاع بحر بلاغة القرآن لابد من الوقوف وقفة متأنية مع مفهوم الإعجاز، هذا الأخير الذي ساهم في تأسيس

¹ سورة الشورى: الآية 11.

² سورة البقرة: الآية 23.

³ سورة الحشر: الآية 21.

⁴ ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني" مرجع سابق، ص 6.

علم البلاغة وأعطاهها طابعا خاصا في الحضارة العربية الإسلامية، بل أصبح البحث في حقول الإعجاز فرضا من فروض الكفاية التي يجب على المسلمين البحث فيها على مرّ الزمان لأنّه علم اختص به دستور حياتهم الخالد.

أولاً: الإعجاز القرآني _ المفهوم والنشأة _

أ- تعريف الإعجاز القرآني:

الإعجاز القرآني مركب إضافي مكون من كلمتين هما (الإعجاز) و(القرآن)، وقبل الوقوف على الأصل المفاهيمي لهذا المركب الإضافي بصفة كلية عامة، جدير بالمقام أن يفصل القول في مفهوم كل مصطلح على حدة.

ففيما يخص مفهوم القرآن فقد سبقت الإشارة إليه فيما سلف لغة واصطلاحاً، وعلى هذا الأساس لا بد من الوقوف فقط على مفهوم الإعجاز لغة واصطلاحاً.

1- التعريف اللغوي: لأهل اللغة آراء مختلفة حول الجذر الأصلي لكلمة إعجاز، فهناك من يرجعها إلى

أصل الفعل الثلاثي عجز، وهناك من يرجعها إلى أصل الفعل الرباعي أعجز، فابن فارس مثلاً يرى بأن العين والجيم والزاي أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف والآخر على مؤخر الشيء.

فالأول: عجز عن الشيء يعجز عجزاً، فهو عاجز أي ضعيف، ويقال: أعجز في فلان، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، ويقال: فلان عاجز فلاناً، إذ ذهب فلم يوصل إليه.

والثاني: العجز مؤخر الشيء والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور أواخرها¹.

فمادة عجز عند ابن فارس تدل على الضعف تارة، وعلى مؤخر الشيء تارة أخرى.

كما ذهب الراغب الأصفهاني إلى الحديث عن مادة عجز، فقال: "عجز الإنسان مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره، قال تعالى: (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)².

والمقصود بالإعجاز في هذه الآية الكريمة "أصول النخل، لأن أصل الشجرة هو في آخرها مما يلي الأرض"³، والعجز أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر أي مؤخره، وصار في التعارف اسماً

¹ ينظر: ابن فارس: "مقاييس اللغة"، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، بيروت، دار الفكر، ط، 1992م، ص738-739.

² سورة القمر: الآية 20.

³ الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، تونس، الدار التونسية للنشر، ط، 1984م، ج27، ص194.

للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال الله تعالى: (.. أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)¹.

وأعجزت فلانا وعجزته، وعاجزته جعلته عاجزا، قال تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)² وقال تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)³

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)⁴

فمعاجزين قيل: معناه ظانين ومقدرين أنّهم يعجزوننا، ومنه العجوز، قال تعالى: (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)⁵ فالعجوز سميت عجوزا لعجزها في كثير من الأمور⁶.

يلاحظ بأنّ العجز عند الأصفهاني يدل على التّأخر عن الشيء وعدم القدرة والاستطاعة والقصور عن فعل الشيء.

وقال ابن منظور في مادة-عجز-العجز نقيض الحزم عجز عن الأمر يعجز وعجز عجزا فيهما، والعجز: الضعف، والمعجزة بفتح الجيم وكسرهما مفعلة من العجز، والإعجاز: الفوت والسبق، والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام⁷.

يستنتج من هذه التعاريف اللغوية لمفهوم الإعجاز أنّها كلها تصب في معنى لغوي واحد، فالإعجاز مشتق من فعلين هما:

– **الفعل الثلاثي: عجز، يعجز، عجزا، فهو عاجز:** بمعنى ضعف عن فعل الشيء، وقصر عن تنفيذه، وتأخر عن العمل المطلوب، ولم يقدر على فعله.

1 سورة المائدة: الآية 31.

2 سورة التوبة، الآية 2.

3 سورة الشورى: الآية 31.

4 سورة سبأ: الآية 5.

5 سورة الشعراء، الآية 171.

6 ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص322-323.

7 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج4، ص262-263.

- **الفعل الرباعي:** أعجز، يعجز، إعجازا فهو معجز: بمعنى سبق وفاز وفات أي لم يلحق به خصمه¹. فالعجز والإعجاز اسمان مشتقان يجتمعان في دلالة واحدة وهي الضعف والقصور وعدم القدرة على فعل الشيء وتحصيله، ويكون العجز نتيجة الإعجاز، فالضعف والتشبيط لا يأتي إلا نتيجة السبق والقوت، ومنه كذلك المعجزة.

2- التعريف الاصطلاحي: يقصد بالإعجاز في مفهومه الاصطلاحي العام هو: "أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"².

أمّا فيما يخص مفهوم الإعجاز كمركب إضافي إلى القرآن، أي -الإعجاز القرآني- فالأهل الاختصاص مجموعة من التعريفات اصطلاحوا عليها قديما وحديثا من ذلك تعريف الخطابي (ت388هـ) للإعجاز القرآني "بكونه معجز ممتنعاً عليهم الإتيان بمثله"³.

وعرفه مصطفى صادق الرافعي (ت1356هـ-1937م) بقوله: "وإنما الإعجاز شئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت"⁴.

وعرف محمد علي الصابوني الإعجاز القرآني بأنه: "إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من إعجاز القرآن هو تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثال القرآن، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض هو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق، وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عنها"⁵.

¹ ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، الأردن، عمان، دار عمار للنشر

والتوزيع، ط3، 1429هـ-2008م، ص15.

² علي بن محمد بن علي الجرجاني: "التعريفات"، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب، ط1، 1405هـ، ص47.

³ أبو سليمان الخطابي: "بيان إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص21.

⁴ مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص139.

⁵ محمد علي الصابوني: "التبيان في علوم القرآن"، باكستان، كراتشي، مكتبة البشرية للطباعة والنشر، ط4، 1432هـ-2011م، ص159.

فالإعجاز القرآني هو حجة الله إلى نبيه محمد إثباتاً لنبوته وصدق رسالته إلى العرب بصفة خاصة والبشرية بصفة عامة، يقول مناع القطان عن الإعجاز القرآني بأنه: "إظهار صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة، وهي القرآن وعجز الأجيال بعدهم"¹

فالقرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي أعجز العرب ببلاغته وتفوق عليهم بفصاحته فعجزوا وضعفوا عن الإتيان بمثل آياته الكرام.

وبهذا يكون معنى إعجاز القرآن هو: "عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحديهم، تقرير عجزهم عن ذلك"².
فالقرآن الكريم هو معجزة الله التي أيد بها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ونصره بها أمام قومه، وتلك سنة الله في رسله وأنبيائه منذ خلق آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، فما المقصود بالمعجزة؟ وهل هي مرادفة للإعجاز أم مخالفة له؟

ب- تعريف المعجزة القرآنية وميزاتها:

1- التعريف اللغوي: المعجزة بفتح الجيم وكسرهما مفعلة من العجز: عدم القدرة، فقد ورد في حديث عمر: "ولا تلبثوا بدار معجزة"³، أي لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش⁴.
فالمعجزة اسم فاعل مشتق من الفعل الرباعي أعجز، يعجز، معجز، وأضيفت التاء للمبالغة حسب رأي أهل اللغة والاختصاص⁵.

يستنتج من هذا التعريف أنّ المعجزة في مفهومها اللغوي مماثلة لمفهوم العجز والإعجاز، ولعلّ التعريف الاصطلاحي لمفهوم المعجزة سيبين ذلك بشكل أوضح وأعم.

1 مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، القاهرة، مكتبة وهبة، ط7، 1990م، ص265.

2 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص17.

3 الحديث هو للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورواه أبو عبيد بن القاسم بن سلام الهروي في كتابه غريب الحديث.

4 ينظر: ابن منظور "لسان العرب"، مصدر سابق، ج4، ص262-263.

5 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص18.

2- **التعريف الاصطلاحي:** تعددت آراء العلماء في تحديدهم لمفهوم المعجزة، ومن بين هؤلاء الذين تناولوا هذا المفهوم الإمام جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) إذ يقول: "اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة"¹.

وعرفها كذلك عبد القاهر البغدادي (ت 1037هـ): "بأنها ظهور أمر خلاف العادة في دار التكاليف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء أو ذي كرامة من الأولياء مع نكول من يتحدى به عن المعارضة"². كما ذهب عبد الرحمن الميداني إلى تعريف المعجزة بأنها: "أمر ممكن عقلا خارق للعادة يجريه الله على يد من أراد أن يؤيده، ليثبت بذلك صدق نبوته وصحة رسالته"³.

ومما يلاحظ على هذه بعد التدقيق والتّمعن أنّها تعريفات تؤخذ عليها بعض المأخذ فتعريف كل من البغدادي والميداني لمفهوم المعجزة هو تعريف ناقص وغير مكتمل، ذلك أنّ البغدادي في تعريفه لم يفرق بين معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء، أمّا الميداني فيرى بأنّ المعجزة أمر ممكن عقلا أي يتقبله العقل في حين أنّ المعجزة أمر إلهي خارق للعادة يفوق قوة وقدرة البشر لذلك يتحدى الله به عباده، فكيف يكون ممكنا عقلا؟ ولعل تعريف السيوطي لمفهوم المعجزة هو التعريف الأصح المتفق عليه عند أهل العلم والاختصاص غير أنه يبقى تعريفا باعتبار العالمية لا باعتبار الإضافة.

كما أنّ التّمييز بين معجزة وأخرى أمر لا بد منه لأنّ كل معجزة تختلف عن الأخرى فمثلا الكون بما فيه هو معجزة الله، لكن المقصود في هذا المقام هي معجزات الأنبياء التي جعلها الله حجة وبرهانا لأنبيائه تأييدا وتصديقا لرسالاتهم وعلى هذا الأساس نصل إلى أنّ "المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة دال على صدق الرسول في دعواه"⁴.

1 جلال الدين السيوطي: "الإتقان في علوم القرآن"، تحقيق: أحمد بن علي، د ب ن، دار الحديث، د ط، 2004م.

2 عبد القاهر البغدادي: "أصول الدين"، إستانبول، مطبعة الدولة، د ط، 1928م، ص 170.

3 عبد الرحمن الميداني: "العقيدة الإسلامية وأسسها"، دمشق، دار القلم، ط 2، 1979م، ص 338.

4 عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 72.

وبهذا يكتمل مفهوم المعجزة في إطارها المعرفي العام، أمّا عن مفهوم المعجزة في إطارها المعرفي الخاص، ونقصد بذلك المعجزة القرآنية فلها مفهومها التّفردى الخاص، وذلك راجع إلى تفرد هذه المعجزة بمزايا وسمات اختصت بها عن سواها من معجزات الأنبياء الأخرى.

3- المعجزة القرآنية كمركب إضافى: من بين التعريفات التي قدمت حول مفهوم المعجزة القرآنية تعريف الدكتور عمار ساسى، إذ يرى بأنّ المعجزة القرآنية هي: "أمر معنوي خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، باق في الزمن، دال على البلاغ وحامل لصدق الرسول في دعواه"¹. وبناء على هذا التعريف يستنتج بأنّ هناك أوجه تشابه وأوجه اختلاف بين معجزة الرّسل والأنبياء السابقين وبين معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القرآنية.

***أوجه التشابه:** تتمثل أوجه التشابه بين معجزات الأنبياء ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يلي:

- كلاهما سواء معجزات الأنبياء أو المعجزة القرآنية أمر خارق للعادة يفوق قدرة البشر.
- مقرون بالتحدي.

- سالم عن المعارضة.

- دال على صدق الرّسل في دعواهم².

***أوجه الاختلاف:** إنّ المعجزة القرآنية ليست كشأن المعجزات الأخرى بل لها خصوصية تتفرد بها في طبيعتها وغايتها ومسارها وموقعها من معجزات الرّسل السابقين عليهم السلام جميعا في حياة البشرية وهذا ما أراد الله عز وجل لها، وهذه الخصوصية هي التي شكلت نقطة الاختلاف بينها وبين المعجزات ويمكن حصر هذا الاختلاف فيما يلي:

- معجزات الرّسل والأنبياء جميعها أمر حسي خارق للعادة بينما المعجزة القرآنية أمر معنوي خارق للعادة.

- كل المعجزات كانت مؤقتة محددة بحياة الرّسول أمّا المعجزة القرآنية فهي مستمرة حتى بعد وفاة الرسول

¹ المرجع نفسه، ص73.

² المرجع نفسه، ص73.

صلى الله عليه وسلم باقية أبد الدهر¹، قال الله عز وجل: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)².
 إنَّ هذا الاختلاف الذي اقتضاه الله سبحانه وتعالى لمعجزته التي أيد بها رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم والذي غير به مسار سنة المعجزات كان عن مقصد وحكمة إلهية مفادها أنَّ خاتمة المعجزات تكون معجزة متفردة لتصنع حضارة الأمة المتفردة وهي أمة القرآن قال الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...)³.

4-مزايا المعجزة القرآنية: وعلى ضوء الاختلاف المشار إليه سالفًا تبرز خصائص المعجزة القرآنية التي جعلت منها شامة بين معجزات الأنبياء والرسل، ومن هذه الخصائص:

*إنَّ المعجزة القرآنية التي أيد الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن معجزة حسية ملموسة كشأن المعجزات الأخرى، إنما هي معجزة لغوية بيانية، فجميع المعجزات التي أيد الله بها رسله وأنبياءه عليهم السلام كانت معجزات حسية مرئية تأتي من جنس ما برع فيه أقوامهم لتخرق ما كان يعتبر عندهم من التواميس الطبيعية فتبهرهم وتدهشهم فبعضهم يؤمن والبعض الآخر يكابر ويعاند كمعجزة موسى عليه السلام التي تمثلت في العصا السحرية التي تحولت بإذن الله إلى حية تسعى تلقف حبال سحرة فرعون، قال تعالى: (قالوا يا موسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) ⁴،

¹ ينظر: المرجع نفسه، ص73.

² سورة الحجر: الآية9.

³ سورة آل عمران: الآية110.

⁴ سورة طه: الآية 65-69.

فمعجزات الله وآياته التي يؤيد بها أي رسول من رسله¹ تقع مناسبة لحال قومه فلما كان السحر فاشيا عند فرعون، جاء موسى عليه السلام بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا¹. وكان يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، قال تعالى: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)².

ولما وقع التحدي بين معجزة موسى عليه السلام وسحرة فرعون، انبهر السحرة وأدركوا أن ما قام به موسى عليه السلام ليس سحرا وإنما هو آية خارقة من آيات الله³، فقنعوا ساجدين لله مؤمنين بعظمة معجزته، قال تعالى: (فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)⁴.

وكما بعث الله موسى عليه السلام بمعجزة حسية بعث كذلك عيسى عليه السلام بمعجزة حسية مناسبة لظروف زمنه متناسبة مع ما برع فيه قومه من تقدم طبي، غير أنها فاقت قدرة طب بني إسرائيل وعلاجهم، فقد أيد الله عيسى عليه السلام بمعجزة طبية وهي علاج الأمراض التي كان يستعصي على أطباء بني إسرائيل معالجتها كإبراء الأكمه والأبرص⁵.

بل تعدت معجزة الله التي أيد بها نبيه عيسى عليه السلام إلى درجة إحياء الموتى وهذا ما أبهر أطباء وحكماء بني إسرائيل الذين عرفوا بتقدمهم الطبي ومهارتهم في العلاج⁶، قال الله عز وجل: (وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّانِجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)⁷.

1 عبد العزيز السحيباني: "جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز"، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1429هـ-2008م، ص14.

2 سورة النمل: الآية 12.

3 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص35.

4 سورة طه: الآية 70.

5 الأكمه: هو الذي يخلق أعمى، الأبرص: هو المصاب بداء معروف وهو بياض يعتري جلد.

6 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، "المرجع السابق"، ص36.

7 سورة المائدة: الآية 110.

وهكذا كانت جميع معجزات الرّسل والأنبياء معجزات مادية حسية، ومثلما بعث الله موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرّسل وأيدهم بمعجزات وآيات، بعث كذلك محمد صلى الله عليه وسلم غير أنّه أيده بمعجزة من جنس خاص وهي معجزة القرآن الكريم، معجزة قولية لغوية بيانية تدرك بالعقل والذّوق لا بالحس والمشاهدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)¹، ولعل حديث النبي صلى الله عليه وسلم هذا هو أقوى دليل على أنّ معجزته التي أيده الله بها متفردة في جنسها ونوعها وطبيعتها، وكأنّه صلى الله عليه وسلم أراد أن يقول بأنّ معجزته التي تحدى بها الثقلين هي معجزة عظمتها اختص بها دون غيره، فقد بعثه الله نبيا في أمة البيان والإعراب والفصاحة والبلاغة، ولذلك كانت آياته الأولى آية بيانية بلاغية تنسجم وتناسب مع البيان والبلاغة في الظاهر، ولكنها تفرق عنها في الحقيقة والدرجة والمستوى².

وإنّه لمن الأمانة أن نوضح بأنّ هذا الرأي القائل بأنّ المعجزات التي يؤتيها الله على يد أنبيائه تكون من نفس جنس ما برع فيه القوم المرسلين إليهم رأي فيه خلاف: والقائلين بذلك يبررون رأيهم بأنّ هذه المعجزات إن أتت من النوع الشائع الذي ذاع وشاع، فما الفضيلة فيها وما مزيتها آنئذ؟ بل "إن المعجزات قد أتت حقيقة من جنس ما شاع وذاع ولكنها امتازت بزيادة بالغة تقصر دونها المهم"³.

أمّا الذين ذهبوا إلى القول بأنّ المعجزة تأتي من نفس جنس ما برع فيه القوم يبررون رأيهم بأنّ ذلك يعود إلى حكمة الله في معجزات أنبيائه، إذ يجعلها منسجمة مع ما اشتهر به أقوامهم، ومتناسبة معه، وقريبة في الظاهر منه، وذلك ليحسن القوم فهمها والتّظر إليها، والاتّفات إلى المقصود منها، والاستدلال بها على صدق نبوة نبيهم، وليصح التّحدي بها أيضا، حيث كان النبي يتحدى القوم بشيء يعرفونه ويتقنونه⁴.

1 محمد بن إسماعيل البخاري: "صحيح البخاري"، اعتنى به: أبو عبد الله محمود بن الجميل، القاهرة، مكتبة الصفا، ط1، 1423هـ-

2003م، ج3، رقم الحديث 7274. ص422

2 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني"، مرجع سابق، ص36.

حنفي محمد شرف: "إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق"، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون

الإسلامية، دط، 1390هـ-1970م، ص4.

4 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص37.

وهنا تتشابه المعجزة القرآنية مع المعجزات الأخرى، حيث أنّها أتت هي كذلك من جنس ما برع فيه القوم الذين نزلت فيهم، فقد كان العرب قد بلغوا شأنًا عظيمًا في البلاغة والفصاحة، فتحداهم القرآن ببلاغته الراقية وأعجزهم عن الإتيان ولو بسورة من مثل سورة القصار.

بما أنّ المعجزة القرآنية معجزة قولية عقلية فهي تعتمد على الاستنباط لاستنتاج دلائل الإعجاز، فلا تعتمد على الانبهار شأن المعجزات والآيات الأخرى الواضحة للعيان بالمشاهدة، ولعلنا نقف من حكمة هذه الخاصية على خاصية الدوام والاستمرار والفاعلية، لأنّ استنباط دلائل الإعجاز من القرآن الكريم لا يختص به عصر دون عصر، وإتّما هو دائم لا يتوقف، يضيف فيه اللاحق إلى السابق، قال الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)¹.

يعني أنّ التفكير في القرآن فريضة عين على كل مسلم ومسلمة على مرّ العصور وهذا ما فقهه الرّعيل الأول من الصّحابة رضوان الله عليهم والتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدّين، فتجد العلماء في كل عصر ومصر يعنون بدراسة كتاب الله يستخرجون كنوزه ويستنبطون درره، فيجدون فيه ما يوافق زمنهم، ويواكب حضارتهم، وكل ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم، قال عز وجل: (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)².

فالمعجزة القرآنية تميزت بميزة خاصة وهي مخاطبة الإدراك العقلي بدلا من الإدراك الحسي³، باعتبار أنّ العقل أرقى على فهم الحق، وسبيل إلى معرفة طريق الهداية، ويؤكد هذا الأمر رد القرآن الكريم على المعاندين من كفار قريش الذين كانوا يطالبون الرّسول صلى الله عليه وسلم بمعجزات حسية قصد تعجيزه لا قصد تصديقه والإيمان به، يقول الله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ

¹ سورة النحل: الآية 44.

² سورة الأنعام: الآية 38.

³ ينظر: بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، الجزائر، بن عكنون، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، د ت، ص 11.

عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ¹.

فجاء الرد في موطن آخر من مواطن القرآن الكريم، يقول الله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ².

فالقرآن الكريم هو المعجزة العقلية والبرهان القطعي الذي لا يفهم إلا بالاستنباط والاجتهاد العقلي والذي عمي عن رؤية الحق في المعجزة القرآنية لا يمكن أن يراه في غيره من المعجزات الأخرى ³.

بالإضافة إلى أنّ المعجزة القرآنية هي معجزة الرسالة الخاتمة التي ستكون شاهدة على صدق نبوة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة فيإيمان البشرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة لم يكن بمشاهدة معجزته والانبهار بها بل باستنباط درر معانيها والإحساس بجلال الألوهية وجمال الربوبية القائم في بلاغتها المعجزة.

*تتميز المعجزة القرآنية عن غيرها من المعجزات الحسية الأخرى التي أيد الله عز وجل بها الرّسل السابقين بميزة خاصة وهي أنّها من جنس الوحي ذاته، "فهي تحمل في ذاتها الوحي والمعجزة معا، أي أنّها ظاهرها وحي وباطنها معجزة" ⁴.

معنى هذا أنّ القرآن الكريم في ظاهره هو الكتاب السماوي الذي أنزله الله على خاتم الأنبياء والرّسل محمد صلى الله عليه وسلم وفي نفس الوقت كان معجزته الخارقة التي أيده الله بها وتحدى بها قومه المرسل إليهم، يقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" ⁵،

1 سورة الإسراء: الآيات 90-93.

2 سورة العنكبوت: الآيات 50-51.

3 بغداددي بلفاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص12.

4 المرجع نفسه، ص13.

5 محمد بن إسماعيل البخاري: "صحيح البخاري"، مصدر سابق، حديث رقم 7274. ص422

في حين أنّ معجزات الرّسل الأخرى "كانت خارجة عن كتبهم التي أنزلها الله عليهم، ولم تكن جزءاً من تلك الكتب، فموسى عليه السلام أنزل الله عليه التّوراة، ولكن آيته كانت العصا واليد، وداود عليه السلام أنزل الله عليه الزبور وكانت آيته تسبيح الجبال والطّير معه، وعيسى عليه السلام أنزل الله عليه الإنجيل، وكانت آيته إحياء الموتى وشفاء المرضى"¹.

أمّا محمد صلى الله عليه وسلم أنزل عليه القرآن الكريم، وكانت آيته القرآن الكريم، فمعجزته صلى الله عليه وسلم كانت في صلب رسالته²، التي تحدي بها الثّقيلين من الإنس والجن.

*تختص المعجزة القرآنية بالديمومة والاستمرار عكس المعجزات الأخرى التي انقرضت بانقراض أعمارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها في ذلك الزّمن إذ "كانت تلك الآيات المادية موجهة للأقوام الذين بعث إليهم الرّسل السّابقون فقط، ومعلوم أنّ كل رسول من السّابقين كان يبعث إلى قومه خاصة، ولذلك كان أثرها في القوم الموجهة إليهم، ومخصوصاً بحياة الرّسول الذي جرت على يديه، وبعد وفاة ذلك الرسول، ونسخ رسالته كان ينتهي أثر رسالته المادية التي آتاه الله إياها"³.

أمّا معجزة محمد صلى الله عليه وسلم فهي باقية بقاء هذا الدّين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد كتب الله لها الحفظ والبقاء حتى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)⁴.

فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم غير محددة لا بزمان ولا بمكان ولم يقتصر تأثيرها على من عاصر محمد صلى الله عليه وسلم⁵، ولم يختص بها العرب فقط، بل هي الرّسالة الخاتمة التي طويت بها صحف السّماء إلى الأرض، فكانت رسالة للبشر كافة، يقول الله عز وجل: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)⁶، فرسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي رسالة الإنسانية جمعاء، والأمة الإسلامية باعتبارها أمة محمد

1 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، مرجع سابق، ص 37.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص 44.

3 المرجع نفسه ص 38.

4 سورة الحجر: الآية 9.

5 ينظر: بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 13.

6 سورة سبأ: الآية 28.

صلى الله عليه وسلم هي القوامه على البشرية، والمسؤولة عن مواصلة تبليغ الرسالة القرآنية، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)¹. ولعل هذه الخاصية من أهم الخصائص التي امتازت بها المعجزة القرآنية، فقد جعل الله القرآن الكريم شاهدا على معجزات الرسل السابقين وكتبهم، وجعل محمدا صلى الله عليه وسلم شاهدا على أمته والأمم السابقة، وجعل الأمة الإسلامية بما تؤمن به من قيم القرآن وبيانه هي الأمة الواحدة التي تملك زمام القيادة الدنيوية والشهود على البشرية إلى يوم القيامة².

* ومن بين الخصائص التي اختصت بها المعجزة القرآنية كذلك هي أنها معجزة لغوية بيانية وبالتالي مادتها متوفرة ومتيسرة للإنسان على مر الزمن، فقد خلق الله الإنسان وأنعم عليه وكرمه عن سائر مخلوقاته بنعمة العقل والكلام فجعل له لسانا نطق بشتى أنواع اللآلى وجواهر الكلم، قال الله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)³.

وتوالت معجزات الله في رسله منذ خلق آدم عليه السلام إلى غاية محمد صلى الله عليه وسلم، الذي خصه المولى عز وجل عن سواه من الرسل بمعجزة اللغة والبيان، قال الله عز وجل: (الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)⁴.

فقد جعل الله عز وجل هذه المعجزة اللغوية مناط التّحدي على مر العصور، وخصّ لسان العربية عن غيرها من ألسنة الأمم الأخرى لسانا لخاتم كتبه السماوية، يقول جل جلاله: (إِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾)⁵.

¹ سورة البقرة: الآية 143.

² ينظر: عمر عبيد حسنة: "حتى يتحقق الشهود الحضاري"، بيروت، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، د ط، 1412هـ -

1991م، ص 12.

³ سورة البقرة: الآية 31.

⁴ سورة الرحمن: الآية 1-4.

⁵ سورة الشعراء: الآية 192-193.

واصطفى لهذه المهمة التبليغية الإعجازية أفصح العرب، محمد صلى الله عليه وسلم ليقوم عليهم الحجة ويثبت البرهان الإلهي عن صدق رسالته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بعثت بجوامع الكلم..."¹.

وكان هذا إلهاما وتوفيقا من الله عز وجل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، بل كان هذا في حد ذاته معجزة من معجزات الله إلى رسوله الكريم أن جعل له لسانا ناطقا بشتى فنون البلاغة وضروب البيان إذ "ليس في العرب قاطبة من جمع الله فيه هذه الصفات، وأعطاه الخالص منها، وخصه بجملتها، وأسس له مأخذها، وأخلص له أسبابها كالنبي صلى الله عليه وسلم فهو اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصه بكتابه، واصطفاه لرسالته"²، يقول صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب بيد أني من قریش ونشأت في بني سعد بن بكر"³.

فالعربية هي لسان القرآن الذي لا ينطق عن الهوى، وهذه الخاصية اللغوية هي التي جعلت من القرآن الكريم "أعظم معجزاته دوام آياته، متلوا بالألسنة باقيا مع بقاء الأزمنة محفوظة في الصدور، منتقلة في الصحائف والمصاحف من لدن الرسول، محروسة من التبديل والتغيير والزيادة والنقصان والذهول، قرآن لا يسأم منه تاليه مع تكراره وتواليه، ولا يمله واعيه، بل تتوفر على توقيير دواعيه، في كل حين تظهر فيه من قضايا التنزيل وخفايا التأويل من نتائج أفكار الخلف غير ما جلدت به فطن السلف، كل حرف منه تتفجر به ينابيع من الحكمة، وكل كلمة تمطر منه سحائب الرضوان والرحمة، وكل آية تحوي على بحار من الإعجاز، وكل سورة تكاد تنطق بعلوم الأوائل والأواخر، لم نجد له في كتب السوالم نظيرا... فهو الصراط المستقيم، والذكر العظيم، والكتاب الحكيم... والآية العظمى وكلمات الله، والذكرى والدرجة العليا"⁴.

فالمعجزة القرآنية باقية بقاء مادتها اللغوية التي كرم الله بها البشرية ودليلا صادقا على عجز البشر عن الإتيان بمثل هذه المعجزة وإن كانت مادتها هي لغتهم التي درجوا وتعودوا عليها، فمحمد صلى الله عليه

1 محمد بن إسماعيل البخاري، "صحيح البخاري"، مصدر سابق، ص421، حديث رقم 7273.

2 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص285.

3 الحديث فيه خلاف كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المدخل ص28.

4 شمس الدين بن قيم الجوزية: "كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن والبيان"، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت، القاهرة، مكتبة القرآن

للطباعة والنشر، د ط، د ت، ص14.

وسلم" لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام، وسلطان البلاغة، وصحة الدليل، مبلغ الحجة وآية الحق"¹.

هذه الخصائص التي اتسمت بها المعجزة القرآنية هي التي جعلت منها معجزة متفردة عن سواها من المعجزات الأخرى، باقية إلى يوم القيامة، "وكل واقف على تاريخ الإسلام يعلم علما قطعيا أن معجزة هذا الدين متواترة تواترا متصلا من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة ولا وجود لمعجزات أخرى بعد ختم معجزة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم"².

وبعد هذا العرض التفصيلي لخصائص المعجزة القرآنية توصلنا إلى أن المعجزة القرآنية هي الآية اللغوية البلاغية التي أيد الله بها خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم ليقيم الحجة على قومه خاصة والبشرية عامة ويعجزهم عن الإتيان بمثلها، قال الله تعالى: (قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)³.

فالإعجاز القرآني هو إثبات عجز الإنس والجن على الإتيان بمثل القرآن، قصد إظهار صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في دعواه⁴.

كما يمكن القول بأن الإعجاز القرآني هو إثبات عجز العرب خاصة والإنسانية عامة بالتحدي على الإتيان بمثل القرآن قصد إظهار صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في دعواه.

فالإعجاز هو السمة التي اتسم بها خاتم كتب السماء إلى الأرض، فما هو محل هذا اللفظ من القرآن الكريم؟

1 محمد رشيد رضا: "الوحي الحمدي ثبوت النبوة بالقرآن وعدوة شعوب المدينة إلى الإسلام"، لبنان، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط3، 1406هـ، ص249.

2: المرجع نفسه، ص250.

3 سورة الإسراء: الآية 88.

4 ينظر: عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص70.

ج- المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم:

بعد البحث والتتبع لم نجد لكلمة إعجاز ولا لكلمة معجزة موضعا لا في آيات القرآن الكريم، ولا في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في كلام الصحابة والتابعين¹.
غير أنه ورد لفظ عجز بمشتقاته المختلفة في ستة وعشرين موضعا في كتاب الله وقد ذكرها محمد فؤاد عبد الباقي في معجمه المفهرس لألفاظ القرآن وهي كالتالي²:

1- أعجزت: قال الله تعالى: (. قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ)³.

2- نعجزه: قال الله تعالى: (وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)⁴.

3- نعجز: قال الله تعالى: (وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ)⁵.

4- ليعجزه: قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)⁶.

5- يعجزون: قال الله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)⁷.

يلاحظ على هذه الآيات القرآنية أن مادة عجز وردت على صيغة الفعل المضارع أربع مرات في القرآن الكريم، مرتين مع ضمير المتكلم الخاص بالجماعة وهو نحن في قوله "نعجز"، ومرة مع ضمير الغائب المفرد "هو" في قوله: "يعجزه" ومرة مع ضمير الغائب الخاص بالجماعة "هم"، في قوله: "لا يعجزون"، وكلها تقرر حقيقة عدم قدرة المخلوقات كلها على تعجيز الله، وأنها كلها عاجزة أمام قوة الله⁸.

1 يتظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن الباني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص21.

2 ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، د ب ن، دار الفكر، ط3، 1992م، ص567.

3 سورة المائدة: الآية 31.

4 سورة الجن: الآية 12.

5 سورة الجن: الآية 12.

6 سورة فاطر: الآية 44.

7 سورة الأنفال: الآية 59.

8 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص25.

- 6-عجوز: قال الله تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا)¹.
- 7-عجوز: قال الله تعالى: (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)².
- 8-عجوزا: قال الله تعالى: (فَنجِينَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)³.
- 9-عجوزا: قال الله تعالى: (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)⁴.

يلاحظ أنّ لفظة عجوز عبارة عن صيغة مبالغة على وزن فعول، وقد وردت أربع مرات في القرآن الكريم، مرتين مرفوعة وتمثل ذلك في حديث القرآن عن تكريم الله عز وجل لزوجة إبراهيم عليه السلام إذ جعلها تلد وهي عجوز وبعلمها عليه السلام شيخ كبير وذلك لإيمانها.

ووردت مرتين منصوبة وذلك في حديث القرآن عن زوجة لوط الكافرة التي استثناها الله بالعذاب وجعلها من المهلكين.⁵

- 10-أعجاز: قال الله تعالى: (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)⁶.
- 11-أعجاز: قال الله تعالى: (... فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)⁷.

قد وردت كلمة أعجاز مرتين في القرآن الكريم، وفي كلا الموضعين وردت مضافة إلى النخل، والمقصود بأعجاز النخل أواخرها التي تلي الأرض، أمّا عن دلالتها في القرآن الكريم سواء في سورة القمر أو في سورة الحاقة فهي تدل على هلاك قوم عاد الطّاغين.⁸

12-معجزين: قال الله تعالى:

1 سورة هود: الآية 72.

2 سورة الذاريات: الآية 29.

3 سورة الشعراء: الآية 170-171.

4 سورة الصافات: الآية 134-135.

5 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرّباني"، مرجع سابق، ص25

6 سورة القمر: الآية 20.

7 سورة الحاقة: الآية 7.

8 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص26.

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)¹.

13- معاجزين: قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ)².

14- معاجزين: قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)³.

يلاحظ بأن كلمة معاجزين وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم في سياق واحد وعلى صورة واحدة والمقصود بها أنه على الرغم من معاجزة أولئك الكافرين وعنادهم لله وآياته فسيهزمون ويولون إلى عذاب الجحيم⁴.

15- معجز: قال الله تعالى: (وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أُوْلِيَاءُ)⁵

وردت لفظة معجز مرة واحدة في القرآن الكريم، ومعجز صيغة لاسم الفاعل المشتق من الفعل الرباعي أعجز وذلك بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره فنقول: أعجز- يعجز- معجز. والمقصود بالمعجز "هو الذي جعل غيره عاجزا أمامه"⁶.

16- معجزي: قال الله تعالى: (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)⁷.

17- معجزي: قال الله تعالى: (... وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)⁸.

1 سورة الحج: الآية 51.

2 سورة سبأ: الآية 5.

3 سورة سبأ: الآية 38.

4 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، ص 27.

5 سورة الأحقاف: الآية 32.

6 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص 27.

7 سورة التوبة: الآية 2.

8 سورة التوبة: الآية 3.

- وردت كلمة معجزي مرتين في القرآن الكريم وذلك في سورة واحدة وهي سورة التوبة، وقد دلت في الموضوعين على تهديد الله للكافرين بقدرته وقوته، وربما الأصل فيها معجزين وحذفت النون للتخفيف.
- 18- معجزين: قال الله تعالى: (إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)¹.
- 19- معجزين: قال الله تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)².
- 20- قال الله تعالى: (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ)³.
- 21- قال الله تعالى: (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)⁴.
- 22- قال الله تعالى: (أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقُلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)⁵.
- 23- قال الله تعالى: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ)⁶.
- 24- قال الله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)⁷.
- 25- قال الله تعالى: (سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)⁸.
- 26- قال الله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)⁹.

بعد تتبع لفظة معجزين في القرآن الكريم يستنتج أنّها وردت تسع مرات، وبجدها أنّها كلها وردت في سياق النفي لتدل على دلالة واحدة وهي نفي قدرة الكافرين على تعجيز الله سبحانه وتعالى.¹⁰

1 سورة الأنعام: الآية 134.

2 سورة يونس: الآية 53.

3 سورة هود: الآية 20.

4 سورة هود: الآية 33.

5 سورة النحل: الآية 46.

6 سورة النور: الآية 57.

7 سورة العنكبوت: الآية 22.

8 سورة الزمر: الآية 51.

9 سورة الشورى: الآية 31.

10 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 29.

إذن: يلاحظ بعد هذا العرض لمادة عجز ومشتقاتها كما جاءت في القرآن الكريم أنه بالفعل لم يرد لفظ الإعجاز ولا لفظ المعجزة في القرآن الكريم، ويؤكد هذا الرأي الأستاذ نعيم الحمصي حيث يقول: "لم يرد في القرآن لفظ معجزة أو إعجاز، وإنما جاء فيه ألفاظ آية وبرهان وسلطان، وهذه الكلمات لاترادف كلمة معجزة، ولا تشمل معنى الإعجاز والمفهوم منها، وإنما تدل على جزء من معناها الذي يشمل أكثر من معنى جزئي واحد، وهذا الجزء يقابل كلمة الدليل أو الحجة، بمعنى أن حادثة من الحوادث هي دليل نبوة أحد الأنبياء أو دليل الألوهية، ولا يدل على أكثر من ذلك، وأما كلمة معجزة فتدل على أمر خارق للعادة يكون دليلاً على نبوة أحد الأنبياء دون غيره، ويعجز غيره من الخلق على الإتيان بمثله"¹.

يستنتج من هذا القول أنه على الرغم من أن كلمة إعجاز أو معجزة لم ترد في القرآن الكريم إلا أنه وردت بعض الكلمات القريبة من معناها، وليست مرادفة لأنه لا ترادف في كلمات القرآن².

ومن بين هذه الكلمات القرآنية المتقاربة مع معنى المعجزة والتي تطلق على ما قدمه الرسل لأقوامهم كحجة ودليل على صدق دعواهم:

1- الآية: قال الله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)³.

2- البينة: قال الله تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...)⁴

3- البصيرة: قال الله تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)⁵.

¹ نعيم الحمصي: "فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر"، د ب ن، مؤسسة الرسالة، ط3، 1980م، ص7.

² ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني" مرجع سابق، ص21.

³ سورة الإسراء، الآية 101.

⁴ سورة الأعراف، الآية 73.

⁵ سورة الإسراء، الآية 59.

4- البرهان: قال الله تعالى: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ (...)¹.

5- السُّلْطَان: قال الله تعالى: (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ...)².

6- الحجة: قال الله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ...)³.

إذن هذه هي الكلمات القرآنية التي وردت في القرآن الكريم والتي تحمل معنى مقاربا نوعا ما لمعنى المعجزة⁴، و قد تم الوقوف على بعض نماذجها في القرآن الكريم على سبيل المثال لا الحصر. ولا يعني عدم ورود كلمتي "المعجزة" و"الإعجاز" في القرآن الكريم عدم جواز استخدامهما كمصطلحين، وأن هذه بدعة ابتدعتها بعض الخارجين عن الدين، بل يجوز ذلك، ويصح أن نقول عن القرآن الكريم بأنه معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإعجازه مستمر إلى قيام الساعة⁵، وأكد أن وراء إعجازه مقاصد وأهدافا.

1 سورة القصص: الآية 31-32.

2 سورة إبراهيم: الآية 10-11.

3 سورة الأنعام: الآية 83.

4 ينظر: عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 22-23.

5 ينظر: المرجع نفسه، ص 23.

ثانيا: الإعجاز القرآني عبر مسيرته التاريخية

إنّ القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي أنزله على خاتم أنبيائه ورسله-محمد صلى الله عليه وسلم- وجعله الحجة البالغة، والمعجزة الخالدة، فقد تفرد بميزات وخصائص ليست في سواه من الكتب المنزلة، وذلك لما تحويه من درر ولآلى إعجازية مكنونة في فحوى سوره وآياته، فأعجزت الثقلين من الإنس والجن عن مجاراته، وأعيتهم عن الإتيان بمثل روائع بلاغته وأفانين بيانه، قال الله تعالى: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)¹.

ومما لا شك فيه أنّ العرب كانوا أول المعنيين بهذا التحدي الإلهي باعتبارهم أهل الفصاحة واللسان، وجهابذة البلاغة والبيان، ورغم طول المنافسة والعناد، غير أنّهم في آخر المطاف، استسلموا لهذا التحدي وأظهروا ضعفهم وعجزهم أمام بلاغة ربّ البرية التي كانوا يسترقون سماعها ليلا ويعاندونها نهارا. إنّها روعة القرآن الكريم التي أبهرت ألباب هؤلاء الكفار، وأسرت أسماعهم رغم كفرهم وعنادهم.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ الإعجاز القرآني نشأ منذ نزول أولى آي القرآن الكريم على قلب الرسول المصطفى-محمد صلى الله عليه وسلم- إذ أظهر العرب عجزهم وضعفهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، بل عجزوا عن الإتيان ولو بسورة مثل سوره القصار، وأدركوا أنّ ذلك سرّ إعجازي مبثوث في كلام ربّ البرية سبحانه وتعالى.

لكن على الرغم من إدراك العرب منذ الوهلة الأولى أنّ القرآن الكريم كتاب الله المعجز بما تركه من عظيم الأثر في نفوسهم، إلاّ أنّه ظل مستوليا على القلوب والأذهان، ولم تكن هناك دراسات واهتمامات في صدر الإسلام تثبت هذا العلم-علم الإعجاز القرآني- شأنه في ذلك بطبيعة الحال شأن كل العلوم الإسلامية الأخرى².

فقد كان اهتمام المسلمين في بداية الأمر متوقفا على حفظ القرآن الكريم وسماعه من الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر المسلمون على هذا الحال فترة من الزمن، خوفا من مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ سورة الإسراء: الآية 88.

² ينظر محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء"، دراسة نقدية مقارنة، جدة، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، ط2، 1422هـ-2002م، ص58.

وابتداع بدعة ليست من فعله صلى الله عليه وسلم، يقول بعض المعاصرين إنّه: "قد مضى عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية وشطر كبير من دولة العباسيين دون أن يحاول أحد التعرض لقضية الإعجاز ودلائله، ولم يكن ذلك عن تفصير في حق القرآن... إنما كان إعظاما لأمر القرآن، وتهيبا لمقامه، وصونا لذاته أن يكون غرضا للآراء والأهواء، ومجالا للجدل والخلاف"¹.

وسبق أن أشرنا فيما سلف أن كلمة إعجاز أو معجزة، لم ترد لا في آيات القرآن الكريم، ولا في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في كلام الصحابة والتابعين -رضي الله عنهم-، في حين كانت تستعمل كلمات قريبة إلى معناها كآلية والبينة والبرهان... إلخ.

لكن بعد انتشار الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الإسلام ودخول كثير من العجم إلى الدين الإسلامي، أصبح من الضروري على المسلمين "النظر في القرآن الكريم نظرا متعمقا فاحصا دارسا، مقلبا وجوه الرأي، أمر لا مناص منه للعلماء وأصحاب الرأي بين مختلف المذاهب والطوائف"².

ولما كان الإعجاز سرا من أسرار القرآن الكريم، وسمة من سماته المتفردة، أقبل العلماء قديما وحديثا على دراسته والبحث عن هذا السر الذي تفرد به خاتم الكتب السماوية عن سواه من الكتب الأخرى، فالقرآن الكريم بحر لا ينفذ وكنز لا يفنى، فقد أودع الله فيه من الأسرار مالا يحصى عدده مما فتح المجال للمسلمين إلى الكتابة عن إعجازه على مرّ العصور والأزمان وفي هذا الصدد تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: "من إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل، ثم يظل أبدا رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه مابلغ الغاية، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح عاليا يفوت طاقة الدارسين."³

أ- أطوار الكتابة في الإعجاز القرآني:

نظرا لأهمية الدرس الإعجازي لدى المسلمين، وبناء على كثرة المؤلفات التي كتبت حوله، يمكن تقسيم أطوار الكتابة في الإعجاز القرآني إلى أربعة أطوار.

¹ ينظر: المرجع نفسه، ص58.

² عبد الفتاح لاشين،: "بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية"، د ب ن، دار الفكر العربي، د ط، د ت، ص426.

³ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية"، القاهرة، دار المعارف، ط3، د، ت، ص19.

1_ الطور الأول: جهود العلماء في القرن الثالث الهجري

سبقت الإشارة فيما سلف ذكره أنّ أولى إشارات الإعجاز كانت منذ نزول القرآن الكريم فقد أحس العرب بإعجاز القرآن الكريم، غير أنّ ذلك بقي مستولياً على قلوبهم وأنفسهم ولم يحظ بالدراسة والتأليف. وقد أجمع أغلب الدارسين أنّ أول استعمال لمصطلح الإعجاز كان في القرن الثالث الهجري، ولكنه لا يعلم على وجه القطع أو التخمين من الذي بدأ استعماله ومتى¹ وحسب معظم الآراء التي تم رصدها أنّ إبراهيم بن سيار النّظام المعتزلي (ت221هـ)²، هو أول من تكلم عن الإعجاز في القرآن الكريم، إذ قال: "بأن الآية والأعجوبة في القرآن مافية من الإخبار بالغيوب، فأما التأليف والنظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم"³.

كما أنّه قال بأنّ: "نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة النبي عليه الصلاة والسلام ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه مافية من الأخبار عن الغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرين على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف"⁴.

فقد ذهب النّظام إلى القول بأنّ القرآن معجز بالصرّفة، أي أنّ الله صرف الكفار عن معارضة القرآن.⁵ وهذا ما عابه عليه جميع العلماء الذين تناولوا قضية الإعجاز القرآني من بعده وكان أولهم أقرانه وتلامذته، وسيتم الحديث عن هذا الموضوع -إعجاز القرآن بالصرّفة- بالتفصيل فيما سيأتي ذكره لاحقاً من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

1 محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء"، مرجع سابق، ص69.

2 هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النّظام، ولد سنة 185هـ، يقال أنه لقب بالنّظام لأنه كان نظاماً للكلام المنشور والشعر الموزون، وهناك من يقول بأنه لقب بذلك لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة، يعد من أشهر شيوخ المعتزلة، غير أنه اتهم بالكفر بسبب آرائه وأفكاره، توفي سنة 221هـ.

3 أبو الحسن الأشعري: "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين"، عني بتصحيحه: هلموت دريتر، دار النشر، فراتر شتاين بقسبادن، ط3، 1980م، ج1، ص255.

4 عبد القاهر البغدادي: "الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم"، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشن، القاهرة، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، ط1، ص129.

5 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص83.

إذن: على الرغم من أنّ النّظام كان أول من تكلم عن الإعجاز في القرآن الكريم، إلا أنّ رأيه فيه كان رأياً خاطئاً، فقد نظر إلى الإعجاز القرآني نظرة فلسفية وعده مسألة من مسائل علم الكلام¹. وقد عاب عليه هذا الرّأي تلميذه الجاحظ (ت255هـ) من أشهر الذين تكلموا عن الإعجاز القرآني، بل يقال بأنّه أول من قال بالإعجاز البياني، فقد صنف كتاباً سماه نظم القرآن²، احتجاجاً لإعجاز هذا النظم، ومخالفاً به رأي من اكتفوا فيه بالقول بالصرفة، دون نظر إلى بلاغته المعجزة التي تفوت بلاغات البشر³.

غير أنّ هذا الكتاب لم يصل إلينا، وضاع مع من ضاع من أمهات الكتب العربية⁴ ولو وصل لوجدنا فيه زادا علمياً وفيراً، ولكان مصدراً أصيلاً للدراسات القرآنية⁴، والجاحظ نفسه يعترف بتأليفه لهذا الكتاب ويشير إليه في مؤلفاته الأخرى، ولعل كتاب نظم القرآن هو ما كان يقصده، عندما تكلم في كتابه الحيوان قائلاً: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة"⁵. يبدو بأنّ الجاحظ كان يهتم في كتابه نظم القرآن بالمسائل البلاغية التي احتوى عليها كتاب ربّ البرية، والتي ارتأها دلالة على إعجاز القرآن في الجانب البلاغي، يقول عنه الخياط المعتزلي: "لا يعرف المتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة، واحتج للنبوة وبلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ ولا يعرف كتاباً في الاحتجاج لنظم القرآن، وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم، وعلى نبوته غير كتاب الجاحظ"⁶.

وعلى الرّغم من الجهد الذي قدمه الجاحظ في مجال الإعجاز البياني في كتابه هذا -نظم القرآن- إلا أنّ بعض العلماء انتقدوه، وقدموا عليه مأخذ، ومن هؤلاء الإمام الباقلاني الذي انتقده بقوله: "وقد صنف

1 ينظر، أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مرجع سابق، ص28.

2 ألف الجاحظ كتاب نظم القرآن للفتح بن خاقان، لكنه لم يلق قبولا لديه وعابه عليه.

3 عائشة عبد الرحمن بنت الشاطبي: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص83.

4 أحمد جمال العمري: "المرجع السابق"، ص90.

5 أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: "الحيوان"، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجليل، د ط، 1996م، ج3، ص76.

6 أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية، مرجع سابق، ص33، نقلا عن الاختصار، ص154.

الجاحظ نظم القرآن كتابا لن يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"¹.

إذن: لقد انتقد الباقلاني الجاحظ غير أنه لم ينصفه لأنه من غير الممكن الحكم على الشيء وهو مفقود وهذا ما رآه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي والأستاذ أحمد صقر كذلك².

وسواء كان الجاحظ قد قال بالصرفة أو بالإعجاز البياني، واختلط عليه الأمر باعتبار أنه معتزلي كما قال الإمام الباقلاني، فإن آثاره ومؤلفاته تعد رصيذا هاما في مجال الدراسات البلاغية القرآنية، وعلى غرار كتاب نظم القرآن المفقود، هناك مؤلفات أخرى للجاحظ ساهم فيها بقدر كبير في توضيح إعجاز القرآن من الناحية البيانية، كحجج النبوة، هذا الكتاب الذي تحدث فيه عن معجزات الأنبياء بصفة عامة، ومعجزة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة، فقد عدّ القرآن الكريم معجزة كبرى فاقت حجج جميع الأنبياء ومعجزاتهم³.

كما وضح بأن معجزات الأنبياء جانست ما برع فيه قومهم، ومن ثم كان القرآن الكريم معجزة بيانية، لأنّ العرب "كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسن البيان، ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به"⁴.

إذن: حتى في كتابه حجج النبوة يذهب الجاحظ إلى القول بالإعجاز البياني ويؤكد رأيه بأنّ إعجاز القرآن يكمن في نظمه يقول في ذلك: "فما بال القرآن، وقد جمع إلى النظم الرائع المعاني الفائقة"⁵.

ولعل كتاب البيان والتبيين الذي كتبه الجاحظ في أواخر حياته، وهو يوشك على الموت لأكبر دليل على الجهد الكبير الذي بذله الجاحظ في حقل البحث الإعجازي للقرآن الكريم، وبالأخص الإعجاز

1 الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص15.

2 ينظر، عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكري" م، مرجع سابق، ص29.

3 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص90-91.

4 الجاحظ: "الرسائل"، فصل حجج النبوة، طبع هذا الكتاب ضمن رسائل الجاحظ، د ب ن، السندوني للنشر، د ط، د ت، ص146.

5 المصدر نفسه، ص144.

البياني، فقد ذهب في هذا الكتاب إلى القول بالإعجاز البياني للقرآن الكريم وأنّ "نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج"¹.

وبعد هذه الجهود التي قدمها الجاحظ في مجال البحث الإعجازي للقرآن الكريم يمكن القول بأنّه أول باحث في الإعجاز - حسب ما علمناه- "إذ جعله موضوعاً خاصاً للنظر والدرس، أما الذين جاؤوا قبل الجاحظ فلم يكن البحث في الإعجاز عندهم قائماً على هذا الوجه، وإنما كان نتفاً متفرقة، أو آراءً ينقصها التمحيص والتدقيق"².

وهناك من العلماء والباحثين من ذهب إلى القول بأنّ أبا عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت306هـ)، "وضع كتابه إعجاز القرآن، وهو أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف"³.

غير أنّ الملاحظ هو أنّ محمد بن يزيد الواسطي (ت306هـ) عاش حوالي نصف قرن بعد الجاحظ، فكيف يكون له السبق في الحديث عن الإعجاز وإتّما يمكن "أن يكون قد استفاد مما كتبه الجاحظ وبنى عليه"⁴، بالإضافة إلى هذا فإنّ كتاب الواسطي لم يصل إلينا، وفقد مع من فقد من الكتب. كما تكلم عن الإعجاز في هذا العصر علي بن سهل بن الطبري (ت247هـ)⁵، وذلك في كتابه الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهناك من يرى بأنّ الطبري أول من أشار إلى مفهوم إعجاز بعد منتصف القرن الثالث الهجري من خلال كتابه الدين والدولة إلا أنه لم يستخدم كلمتي إعجاز ومعجزة، وإنما استخدم كلمة آية⁶.

¹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: "البيان والتبيين"، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط7، 1418هـ-1998م، ج1، ص383.

² محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء"، مرجع سابق، ص77.

³ مصطفى ديب البغا ومحي الدين ديب متو: "الواضح في علوم القرآن"، د ب ن، دار الكلام الطيب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1418هـ-1998م، ص177.

⁴ المرجع نفسه، ص177.

⁵ هو العالم المسلم أبو الحسين علي بن سهل وبن الطبري ولد سنة 164هـ وهناك من يقول 153هـ، من أسرة فارسية تدين المسيحية، لكنه اعتنق الإسلام في خلافة المتوكل، توفي سنة 247هـ.

⁶ ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص81.

وبهذا لا يمكن أن يكون الطبري أول من استخدم مصطلح الإعجاز بل ربما أشار إلى معنى فقط، إلا أن هذا لا يمنع من أن ينكر له الفضل في البحث الإعجازي ولو بالإشارة. وقبل أن نسدل الستار على الجهود المبذولة في القرن الثالث الهجري لابد من الإشارة إلى جهود ابن قتيبة الدينوري (ت286هـ) الذي وقف يزود عن القرآن العظيم وبلاغته وإعجازه بكل طاقته¹ من خلال كتابه "تأويل مشكل القرآن" فقد "كان عمله هذا سببا في اتجاه علماء اللغة المسلمين إلى دراسة القرآن، وبلاغة القرآن، الوقوف على وجوه الإعجاز فيه"². وفي الحقيقة أن ابن قتيبة استمد مباحثه في دراسة الإعجاز من الجاحظ وبني آراءه في ذلك على خلفية جهوده ودراساته للإعجاز القرآني³. وبهذا يكون الجاحظ هو أول من أسس لعلم الإعجاز القرآني في القرن الثالث الهجري.

لكن على الرغم من هذه الجهود المبذولة في هذا القرن، إلا أن قضية الإعجاز القرآني لم تنفرد بدراسات مستقلة، وإنما عولجت مع غيرها من القضايا التي نشط فيها الكلام وتجادلت الفرق، وبخاصة تلك التي تتصل بالنبوة والمعجزة، كالذي في (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، و(مقالات الإسلاميين) لأبي الحسن الأشعري، و(حجج النبوة للجاحظ)...⁴.

كما أن أغلب المؤلفات لم تحمل اسم الإعجاز ما عدا الواسطي الذي صرح بذلك وجعله عنوانا لمؤلفه الذي سماه "إعجاز القرآن"⁵.

غير أن القضية لم تلبث أن استقلت بالتأليف المفرد مع بداية القرن الرابع الهجري.

2_ الطور الثاني: جهود العلماء في القرنين الرابع والخامس الهجري:

1 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص57.

2 المرجع نفسه، ص57.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص58.

4 عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص19.

5 ينظر: عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص61.

تمثل هذه الفترة الزمنية من بداية القرن الرابع الهجري إلى غاية نهاية القرن الخامس الهجري، العصر الذهبي للإعجاز القرآني، وذلك لما حفلت به من دراسات ومؤلفات في هذا المجال، إذ بدأ الكلام عن الإعجاز في هذا القرن يأخذ طابع التعقيد والتنظيم والترتيب¹. وإن كان القرن الثالث الهجري مثل مرحلة التأسيس لعلم الإعجاز القرآني، فإن هذه الفترة من القرن الرابع والخامس الهجري تمثل مرحلة النضج، وذلك لتوفر الوعي بعلم الإعجاز وتصوره النظري والتطبيقي لدى عدد كبير من العلماء.

ومن بين هؤلاء العلماء الذين برزوا في هذه المرحلة علي بن عيسى الرماني (ت386هـ) الذي تطرق إلى الإعجاز بصورة واضحة في كتابه "النكت في إعجاز القرآن"، وقد ذكر الرافعي أن كتاب النكت للرماني ثالث كتاب يناصر قضية الإعجاز القرآني من ناحية النظم والأسلوب بعد الجاحظ والواسطي². وربما كتاب "النكت في إعجاز القرآن" هو أول كتاب يصل إلينا بصورة كاملة عن الإعجاز القرآني عنواناً ومضموناً على خلاف كتابي الجاحظ والواسطي اللذين فقدوا ولم يصل منهما إلا إشارات في كتب ومصادر أخرى فهذا الكتاب هو أول دراسة فنية ذات وحدة متماسكة فتحت الباب بعد ذلك لدراسات أوسع وأشمل وأعمق³.

وقد جعل الرماني رسالته هذه دراسة تحليلية للإعجاز الذي حصره في الجانب البلاغي، إذ يرى بأن "البلاغة على ثلاث طبقات، منها ماهو في أعلى طبقة، وأدنى طبقة، ومنها ماهو في الوسائط بين أعلى طبقة، وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن..."⁴ وبهذا يكون الرماني أول من تكلم بعبارة صريحة عن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وقال بالبلاغة القرآنية، إذ كان للمباحث البلاغية في رسالته "أكبر الأثر في البحوث البلاغية على مر الأزمان، كما كانت مصدر يستقي منه كل العلماء الذين أتوا بعده، وعنوا بالبلاغة العربية عامة، وبلاغات القرآن خاصة."⁵

1 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص83.

2 ينظر: مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص152.

3 فتحي أحمد عامر: "بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ"، الإسكندرية، منشأة المعارف، د ط، ص112.

4 الرماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص75.

5 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص113-114.

غير أنّ الرماني يبدو متناقضا في رأيه القائل بالإعجاز البلاغي، فتارة يقول بالإعجاز البلاغي وتارة يقول بالصرفة ويجعلها وجها من وجوه الإعجاز القرآني، "وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة."¹

ومع ذلك فإنّ الرماني قد فتح الباب على مصرعيه أمام العلماء والدّارسين، فكان محور دراسات كثيرة أتت بعده، لأنّ رسالته تعد من أفضل وأسبق الرسائل في بيان إعجاز القرآن الكريم.²

ومن أتوا بعد الرماني وكانت له بصمة رائعة في الإعجاز القرآني معاصره الخطابي (ت388هـ)، وذلك في رسالته "بيان إعجاز القرآن" التي تعد من أول الرسائل المؤلفة في الإعجاز وأفضلها بعد رسالة النكت في إعجاز القرآن للرماني.³

والملاحظ من هذه الرسالة أنّ الخطابي قد اتفق مع ما ذهب إليه الرماني في قوله بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، إذ يقول في ذلك: "القرآن صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمنا أصح المعاني..."⁴

غير أنّه خالفه في قوله بالإعجاز بالصرفة، يقول في ذلك: "والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة"⁵، فهو يرفض القول بالصرفة ولعل سبب هذا الخلاف بينه وبين الرماني راجع إلى اختلاف المذهب فالرماني كان معتزليا لذلك اختلط عليه الأمر، وذهب إلى القول بالإعجاز البلاغي أحيانا وبالصرفة أحيانا أخرى، لأنّ أغلب المعتزلة ذهبوا إلى القول بأنّ القرآن معجز بالصرفة، بينما الخطابي كان من أهل السنة والجماعة⁶، والتي تقول بالإعجاز البلاغي، ولنا في هذا كلام مفصل فيما سيأتي حديثه عن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

1 الرماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر السابق، ص110.

2 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص88.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص88.

4 الخطابي: "بيان إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص27.

5 المصدر نفسه، ص23.

6 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق، ص88.

وبهذا تكون رسالة "بيان إعجاز القرآن" أول مصنف في الإعجاز يصنفه إمام من أهل السنة¹، ويتبعه في ذلك أمثاله في المذهب كالباقلائي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

ويعد الإمام الباقلائي (ت403هـ) واحداً من أهم العلماء الذين تحدثوا عن الإعجاز القرآني وذلك في كتابه المشهور "إعجاز القرآن" الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة، وقد جمع فيه كثيراً من المباحث البلاغية، وسلك فيه أقرب الوسائل إلى كشف جوانب الإعجاز وتذوقه ووفى بكثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول، حتى عدوه الكتاب وحده في هذا الفن.²

ومعلوم أنّ أغلب العلماء الذين كتبوا في الإعجاز كانوا أهل كلام وجدل، ومما لا شك فيه أنّ أولى مبادرات الكتابة في الإعجاز كانت من قبل أصحاب الاتجاه الاعتزالي، وإذا كان النظام والجاحظ والرماني أول من كتبوا في الإعجاز القرآني من أهل المعتزلة، فإنّ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت403هـ) هو أول الأشاعرة السنيين الذين كتبوا في الإعجاز وذلك في كتابه إعجاز القرآن والذي يراه العلماء "أول كتب الباقلائي نشرها وأشهرها ذكراً وهو أعظم كتاب ألف في الإعجاز إلى اليوم."³

فقد وضع الباقلائي في هذا الكتاب مفهومه للإعجاز القرآني "وإذا كان العالمان اللذان سبقاه قد ألفا رسالتين موجزتين في إعجاز القرآن-الرماني والخطابي- فإنّ الباقلائي هو أول من ألف كتاباً شاملاً في إعجاز القرآن."⁴

وكتاب إعجاز القرآن كما هو واضح من عنوانه أنّه كتاب يهتم بقضايا الإعجاز القرآني، إذ يرى الباقلائي بأنّ القرآن الكريم هو الكتاب السماوي المعجز الذي أعجز الإنس والجن، والعرب الأوليين والمتأخرين على مرّ العصور.⁵ وإعجازه في حسن نظمه وبيانه، "فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على

1 محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء"، مرجع سابق، ص426.

2 مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب متو: "الواضح في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص187.

3 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص205.

4 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص91.

5 ينظر: الباقلائي: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص381.

اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف...¹

فالباقلائي من خلال قوله هذا يجعل من البيان وجها للإعجاز القرآني .

وعلى الرغم من المحاسن التي نوه بها العلماء عن فضل كتاب إعجاز القرآن، فإن البعض الآخر أشار إلى مآخذة وعيوبه، من هؤلاء مصطفى صادق الرافعي الذي قال: "أن كتاب الباقلائي وإن كان فيه الجيد الكثير، وكان الرجل قد هدّبه وصفاه وتصنّع له، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره، ولم يتحاش وجها من التأليف لم يرضه من سواه، وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ: "لم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"، فإن مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام، وإلى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول، ونوع آخر من فنونه، وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر، ذهبت بأكثره وغمرت جملته، وعدّها في محاسنه وهي من عيوبه"².

كما انتقدت الدكتورة عائشة بنت الشاطئ الإمام الباقلائي وأشارت إلى مآخذ كتابه "إعجاز القرآن" ويظهر ذلك في قولها هذا: "وجاء الباقلائي في أواخر القرن الرابع، فقدم كتابه المشهور في "إعجاز القرآن" وليس دراسة قرآنية خالصة للإعجاز كما يفهم من عنوانه، وكما تعد مقدمته، بل هي أقرب إلى الجدل الكلامي والمذهبي، والنقد الأدبي لنصوص طوال من الشعر والنثر."³

ومع هذا يظل كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني ثمرة جهد طيب أسهم في إثراء الحقل الإعجازي، ومصدرا من المصادر البلاغية التي أسهمت في تحديد مسار البلاغة القرآنية.

ومن اللفتات الطيبة التي قام بها علماء هذا العصر حول إعجاز القرآن الكريم، محاولة القاضي عبد الجبار الهمداني (ت415هـ) الذي خصص جزءا من كتابه الشهير -المعني في أبواب التوحيد والعدل - لإعجاز القرآن الكريم.⁴

¹ المصدر نفسه، ص419.

² مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص152.

³ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: "الإعجاز البياني للقرآن"، مرجع سابق، ص110.

⁴ كان حديثه عن إعجاز القرآن في الجزء السادس عشر من كتابه المعني.

فقد كان القاضي عبد الجبار من العلماء الأوائل الذين تطرقوا إلى الإعجاز القرآني ودرسوه دراسة جادة، مثله في ذلك مثل أقرانه السالفين أمثال: الرماني والخطابي والباقلاني "حتى عدّه بعض الباحثين صاحب المدرسة الثانية في الإعجاز البلاغي بعد الرماني"¹.

غير أنّ القاضي عبد الجبار ركز على فصاحة القرآن، وجعل ذلك مناط الإعجاز القرآني، إذ يقول: "ولذلك لا يصح عندنا -يعني المعتزلة- أن يكون اختصاص القرآن بطريقة من النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى"².

يلاحظ من هذا القول أنّ القاضي عبد الجبار جعل من فصاحة القرآن فصاحة متفردة عن سواها، "فالفصاحة التي انفرد بها القرآن تقوم على جزالة اللفظ وحسن المعنى أولاً"³.

كما يرى بأنّ الفصاحة هي أساس بلاغة الكلام، والأمر المعول عليه، "ولا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم، على طريقة مخصوصة..."⁴.

وبعد الاطلاع على الجزء الذي خصصه القاضي عبد الجبار لإعجاز القرآن يلاحظ بأنّه جعل من الفصاحة محور الإعجاز القرآني مستبعدا البلاغة كمصطلح فقط، فهو من الذين يجعلون الفصاحة والبلاغة مفهوما واحدا، ففصاحة القرآن هي بلاغته والعكس صحيح، والدليل على صحة ذلك ما يقوله: "واعلم أن التحدي وإن كان قد يصح بقدر من الفصاحة والبلاغة، فمتى اختص ملك قدر عظيم في الفصاحة بطريقة من النظم خارجة عن العادة يكون وجه الإعجاز فيه أظهر وأبين"⁵.

وإن كان قد قال بالفصاحة وعدّها وجهها لإعجاز القرآن في عدة مواضع من كتابه، فهذا هو هنا يجمع بينها وبين البلاغة ويجعلهما مناط إعجاز القرآن الكريم، يقول: "واعلم أن القرآن حجة من ثلاثة أوجه، فكل

1 محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن البياني بين الإمام السيوطي والعلماء"، مرجع سابق، ص 613.

2 القاضي عبد الجبار الهمداني: "المغني في أبواب التوحيد و العدل"، مصدر سابق، ج 16، ص 298.

3 عبد الفتاح لاشين: "بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار"، مرجع سابق، ص 469.

4 القاضي عبد الجبار، "المصدر السابق"، ج 16، ص 199.

5 المصدر نفسه، ص 224.

سورة منه حجة من طريق الفصاحة والبلاغة، وهو حجة لما فيه من الغيوب، وهو حجة لما فيه من التنبيه على دلائل العقول.¹

ولو كان يعتقد أنّ البلاغة غير الفصاحة لكان قال بأربعة أوجه، باعتبار أن البلاغة وجه، والفصاحة وجه آخر لكن الملاحظ أنّه جمع بينهما وجعلهما وجهًا واحدًا.

وخلاصة الإعجاز عند القاضي عبد الجبار استقر على الفصاحة التي تظهر في الكلام بالضم، إذ يقول بأن الفصاحة "هي جزالة اللفظ وحسن المعنى ولا تظهر هذه الفصاحة في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، وهذه الصفة قد تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي لا مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، ليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، فعلى هذا الوجه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها."²

وقد ذكر الدكتور فضل عباس أنّ الفصاحة التي قال بها القاضي عبد الجبار لا تخرج عن النظم الذي قال به الإمام عبد القاهر الجرجاني بعده.³

فالقاضي عبد الجبار برؤيته هذه للإعجاز القرآني، كان الهادي للإمام لعبد القاهر، وتلك النظرة كانت المنارة التي اهتدى بها، وأخذ منها فكرته في تأسيس نظرية النظم الذي يقوم على معاني النحو.⁴ فالنظم الذي قال به عبد القاهر الجرجاني هو نفسه الضم عند القاضي عبد الجبار، وإن اختلفت التسمية الاصطلاحية، "وقد كان عبد الجبار في استطاعته متابعة فكرته تلك حتى تظهر بالصورة التي ظهرت عند عبد القاهر أو تكاد، لولا أنّه شغل بقضايا مذهبه الكلامية التي كرس جهده وحياته لها"⁵.

القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني: "تثبيت دلائل النبوة"، حققه وقدم عليه: الدكتور عبد الكريم عثمان، لبنان، بيروت، دار العربية، د ط، ص 86.

2 القاضي عبد الجبار: "المغني في أبواب العدل والتوحيد"، مصدر سابق، ص 199.

3 فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "إعجاز القرآن الكريم"، الأردن، عمان، دار الفرقان، د ط، 1991م، ص 64.

4 ينظر: عبد الفتاح لاشين: "بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار"، مرجع سابق، ص 484.

5 المرجع نفسه، ص 484.

وحتى وإن كان عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) قد تأثر بالفعل بالقاضي عبد الجبار واقتبس منه فكرة النظم وأسس عليها مباحثه البلاغية، إلا أنّ عبد القاهر الجرجاني اسم اقترن بالبلاغة واقتترنت به، وكأَنَّها لم تكن قبله، وإنما ولدت على يده، فما هي الإسهامات البلاغية لهذا العالم الجليل؟ وما هي بصمته في ميدان الإعجاز القرآني؟

يشكل عبد القاهر الجرجاني نقطة الأساس في مسيرة البحث الإعجازي للقرآن الكريم، وذلك لجهوده الجبارة التي بذلها في هذا الميدان، فقد "اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يختلف الناس في مواهبهم وقدرهم، ففي مختلف العصور نجد من الناس من هيا الله لهم وسائل الإبداع فهم يسبقون غيرهم، مما يحمل أبناء عصر كل منهم على الاعتراف لهؤلاء، ولقد كان عبد القاهر -رحمه الله- من هذه الصفوة الذين برزوا، فكان ما أنتجه فكره وسطره يراعه إبداعا اعترف به المصنفون، وما أبعد الفرق بين الذاكرة الحافظة التي تحفظ أقوال السابقين، وبين العقلية المبدعة المفكرة التي تفيد من السابقين ولكنها تبرز جديدا يكون مشار الإعجاب"¹،

فبعد القاهر الجرجاني هو العبقرية الفذة التي وضعت أصول علم البيان العربي بصفة عامة، والبيان القرآني بصفة خاصة، وذلك من خلال مؤلفاته الثلاث الشهيرة وهي: "دلائل الإعجاز"، "الرسالة الشافية"، "أسرار البلاغة في علم البيان"².

ومما لا شك فيه أنّ كتاب "دلائل الإعجاز"، هو من أهم كتب عبد القاهر الجرجاني التي لقيت عناية فائقة واهتماما بالغا من قبل الدارسين الذين يعنون بالدراسات الإعجازية للقرآن الكريم، لأنّه كتاب وثيق الصلة بإعجاز القرآن الكريم، ويظهر ذلك من خلال عنوانه.

فقد وضع عبد القاهر الجرجاني في كتابه هذا -دلائل الإعجاز- فهمه للإعجاز القرآني فهما خاصا، كما أنّه عرض فيه نظريته في الإعجاز "بطريقة تغاير ما كتبه العلماء السابقون، إذ يظهر مفهومه

¹ فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "إعجاز القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص65.

² يقول بأن هناك مؤلفات أخرى للجرجاني هي: المقتضب في شرح كتاب الواسطي في الإعجاز، والمعتضد في شرح كتاب الواسطي كذلك، غير أنّهما مفقودين.

للإعجاز في صورة كلامية مركزة شارحا إياها من زوايا مختلفة، وذلك ليقنع قارئه بأن الإعجاز القرآني، إنما يظهر في النظم، والنظم وحده.¹

يلاحظ من هذا القول أنّ الامتياز الذي تحقق للجرجاني أنّه أفاد مما سبق فجمع آراء سابقيه، وجانس بينها لتظهر نظريته بشكل يبدو أكثر ترابطا وأشد تأثيرا في لاحقيه، فأقرّ بأنّ النظم هو وجه الإعجاز بدون منازع.

ويعرفه قائلا: "إعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها."²

فالنظم عند عبد القاهر الجرجاني هو مناط الإعجاز القرآني والتّحدي الرّباني، والتّفاضل المتباعد بين بلاغة كلام ربّ البرية، وبلاغة بلغاء العرب، يقول موضحا ذلك: "أنا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا: لولا أنّهم حين سمعوا القرآن، وحين تحدوا إلى معارضته سمعوا كلاما لم يسمعوا قط مثله، وأنهم رازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبا منه لكان مجالا أن يدعوا معارضته وقد تحدوا إليه، وفرعوا فيه وطولبوا به..."³

ثمّ يواصل قائلا: "فخبرونا عنهم، عماذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلت (عن الألفاظ) فماذا أعجزهم من اللفظ، أم ما بهرهم منه؟ فقلنا: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها... وبهرهم أنّهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والثّماما، واتقاناً وإحكاما، لم يدع في نفسه بليغ منهم، ولو

1 أحمد جمال العمري: "المباحث في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص 229.

2 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص 81.

3 المصدر نفسه، ص 38.

حك بيا فوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تقول¹.

يرى عبد القاهر الجرجاني أنّ إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه العجيب، وتأليفه البديع، على نمط لم يعهد عند العرب، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله، وهم فرسان البلاغة، وأرباب الفصاحة. إذن وبناء على نظرية النظم فقد أضاف الجرجاني وجهها جديدا للإعجاز القرآني وهو الوجه النحوي بعد الوجه البلاغي، ويقول في هذا:

إني أقول مقالا لست أخفيه ولست أوهب خصما إن بدأ فيه
ما من سبيل إلى إثبات معجزة في النظم إلا بما أصبحت أبدية
فما للنظم كلام أنت ناظمه معنى سوى حكم إعراب تجزيه
إلى أن يقول:

وقد علمنا بأن النظم ليس سوى حكم من النحو نمضي في توحيه²
وهكذا تمثل النظم عنده في علاقته بالإعجاز وتطبيقه لقواعد النحو.³

ومما لا شك فيه أنّ عبد القاهر الجرجاني أراد بنظريته هذه- نظرية النظم- أن يرد على من قالوا باللفظ وانتصروا له على حساب المعنى، وجعلوا البلاغة مقصورة على اللفظ دون المعنى، وعكسهم من انتصروا للمعنى على حساب اللفظ وجعلوا البلاغة محصورة في المعنى دون اللفظ⁴. فجمع عبد القاهر بين الفريقين، ونادى باعتماد قيمة النظم التي تجمع بين اللفظ والمعنى، وتضيف لهما النظم، وتجعل الجميع عناصر أساسية في البلاغة⁵.

وجملة القول أنّ النظم عند عبد القاهر الجرجاني ما هو إلاّ علاقة الكلام ببعضه ببعض، وجعل بعضه بسبب من بعض، فلا يستطيع أي شخص أن يقول بأنّ هذه اللفظة أو الجملة فصيحة إلاّ إذا عرف مكانها

1 المصدر نفسه، ص39.

2 المصدر نفسه، ص19-20.

3 صالح بلعيد: "نظرية النظم"، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر، د ط، 2000م، ص105.

4 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص94.

5 ينظر: المرجع نفسه، ص94.

في النظم،" وبهذا قد حول البلاغة القرآنية والجمال في القرآن إلى مرد آخر غير هذا الذي ألفه الناس، وتحدث عنه علماءهم أنه قد أرجع هذا كله إلى المعاني، نعم معاني النحو ولكن ليس المقصود بالنحو هنا معناه التقليدي الموروث، وهو الإعراب بمعنى ضبط أواخر الكلمات وإنما معناه عنده أعم من هذا وأشمل¹. فهو طريقة في تآلف الحروف، وتناسق الأصوات ونظم العبارة وصوغ الفكرة، وبناء الأسلوب بواسطة النظم الذي تعود إليه مزية الكلام وبلاغته، وعليه كان إعجاز القرآن في نظمه.

هذا هو محور بحث الجرجاني في إبراز وجه الإعجاز القرآني، كما وضح في دلائل الإعجاز، وهو نفسه الذي دار حوله لتأكيد وقوع هذا الإعجاز وإثباته في رسالته الشافية² فقد بين كذلك في هذه الرسالة عجز العرب أمام بلاغة القرآن الكريم يقول: "وهذه جملة من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فانت للقوى البشرية، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين"³.

كما أنكروا مزاعم القائلين بإعجاز القرآن الكريم بالصّرفة قائلاً: "وفي سياق آية التّحدي ما يدل على فساد هذا القول، وذلك أنه لا يقال عن الشيء يمنع الإنسان بعد القدرة عليه، وبعد أن كان يكثر مثله منه: إني قد جئتكم بما لا تقدرن على مثله ولو احتشدتم له، ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتم فيه" وإنما يقال: "إني أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأمنعكم إياه، وأن أفحكمكم عن القول البليغ، وأعدمكم اللفظ الشريف" وما شاكل هذا.⁴

ومن خلال معارضته للقائلين بالصّرفة أثبت بأنّ إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه، وأنّ مناط التّحدي الرّباني كان في هذا النّظم: "فإن التّحدي كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا ومن المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف."⁵

1 حفي محمد شرف: "إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق"، مرجع سابق، ص100.

2 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني" مرجع سابق، ص231.

3 عبد القاهر الجرجاني: "الرسالة الشافية"، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر، دار

المعارف، ط2، 1968م، ص117.

4 المصدر نفسه، ص149.

5 المصدر نفسه، ص141.

هذه جهود عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" و"الرسالة الشافية" على غرار كتاب "أسرار البلاغة" الذي لم ينفرد بالبحث والدراسة على اعتبار أنه لم يتحدث فيه عبد القاهر الجرجاني على الإعجاز القرآني مثلما تحدثنا في الكتابين السالفين الذكر.

وبناء على هذه الجهود الجبارة التي قام بها الإمام عبد القاهر الجرجاني في حقل الإعجاز القرآني، يمكن القول بأنّ الإعجاز القرآني بلغ مرحلة النضج، وبينت معالمه وتأصلت قواعده على يد هذا العالم الجليل. ولا يمكننا أن نغادر القرن الخامس الهجري دون أن نشير إلى تلك اللفتة الطيبة التي قام بها العالم الجليل محمود بن محمد الزمخشري (ت538هـ) من خلال كتابه الكشاف الذي يعد كتاباً في التفسير أكثر مما هو كتاب في البلاغة والإعجاز.

ومع هذا فقد وجدنا في تفسيره هذا أنّه يعنى بالجانب التحليلي والتطبيقي لإعجاز القرآن الكريم: "فالإعجاز عنده قائم على المعاني من تعريف وتنكير وتقديم وتأخير ثم على ما يتصل بعلم البيان".¹ فقد قسم الزمخشري في تفسيره هذا البلاغة إلى معان وبيان، موجهاً عنايته بالبلاغة القرآنية ومبحث إعجاز القرآن²، مثبتاً أنّ وجه الإعجاز يكمن في نظمه، يقول في ذلك: "النظم هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر".³

يظهر من خلال هذا القول أنّ الزمخشري حذا حذو عبد القاهر الجرجاني في قوله بأنّ وجه الإعجاز يكمن في النظم القرآني الذي يفوق أيّ نظم آخر من نظوم البشر، وذلك لما يحويه من أسرار جمالية⁴، يقول: "وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمائها"⁵.

1 نعيم الحمصي: "فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر"، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1400هـ - 1980م، ص92-93.

محمد رفعت أحمد زنجير: "مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن"، سلسلة الدراسات القرآنية، ع2، دبي، ط1، 1428هـ - 2007م، ص117.

أبو القاسم جار الله الزمخشري: "تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شي، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ط3، 1430_2009، ص24.

4 ينظر، أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص154.

5 الزمخشري: الكشاف، مصدر سابق، ص302.

لقد تأثر الزمخشري بعبد القاهر الجرجاني وبنى رؤيته للإعجاز القرآني على ضوء نظريته في النظم، يقول الدكتور شوقي ضيف: "وعلى أضواء مباحث عبد القاهر وقواعده التي أصلها في علمي المعاني والبيان مضى الزمخشري يفسر القرآن الكريم في كتابه الكشاف مطبقا تطبيقا دقيقا على آياته"¹.

إلا أنّ الزمخشري وإن كان قد تأثر بعبد القاهر الجرجاني في قوله بالنظم القرآني في وجه الإعجاز، غير أنّه أضاف إلى ذلك شيئا آخر وهو وجه الإعجاز في الإخبار بالغيوب، ويظهر هذا في قوله: بأنّ "صدق الإخبار عن الغيوب معجزة."²

وهذا ما لم يذهب إليه عبد القاهر الجرجاني، بل لم يعترف به كوجه إعجازي للقرآن الكريم، فهو خصّ النظم عن سواه وجها للإعجاز القرآني، "وإذا كان الزمخشري قد طبق كثيرا مما قرره عبد القاهر الجرجاني فقد أضاف أصولا بلاغية هامة لم يعرض لها عبد القاهر ونمى كثيرا من الأصول السابقة وحرر كثيرا من المسائل"³.

يستنتج من هذا القول بأنّ الزمخشري طبق كثيرا من الأصول التي استعرضها عبد القاهر، لكنه أضاف إليها أصولا بلاغية هامة سلك فيها منهج التطبيق وهذا ما لم يفعله عبد القاهر الجرجاني الذي اكتفى بالتنظير فقط.

ومع هذا لا يمكن إنكار فضل عبد القاهر الجرجاني على الزمخشري، فظهور كتابه الكشاف كان انطلاقا من خلفية الدلائل والأسرار، فمن الواضح أنّ بلاغة الكشاف كانت نهاية مرحلة متميزة في الدراسات الإعجازية البلاغية للقرآن الكريم، وامتدادا لدراسة عبد القاهر الجرجاني.⁴

¹ شوقي ضيف: "البلاغة وتطور وتاريخ"، مصر، دار المعارف، ط9، د ت، ص373.

² الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص385.

³ محمد حسين أبو موسى: "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية"، القاهرة، دار الفكر العربي، ط، د ت، ص5.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص5.

وكختام لهذا الطّور يمكن القول بأنّ هذه المرحلة تمثل مرحلة تأسيس ونضج للإعجاز القرآني، وذلك راجع لتوفر الوعي بعلم الإعجاز القرآني وتصوره النظري والتّطبيقي لدى عدد كبير من العلماء.

3_ الطّور الثالث: من القرن السّادس إلى القرن الثاني عشر الهجري.

مرت الدراسات الإعجازية بعدة مراحل، وحظيت بعناية العلماء على مرّ العصور واختلاف الأزمان، وذلك لارتباطها الوثيق بكتاب الله تعالى.

وكان عبد القاهر الجرجاني محور هذه الدّراسات وأصل استوائها واستقامتها فمثلت جهوده مرحلة الازدهار للدّرس الإعجازي، وما إن انقضى عهد عبد القاهر الجرجاني حتى خفت صوتها، وخمد ضوءها، وجفت غصونها، وعلى هذا الأساس أطلق الدارسون على هذه الفترة بفترة الجمود، وهذا الجمود الذي شمل ملامح الإبداع الفكري والأدبي بصفة عامة¹، والإعجاز القرآني بصفة خاصة، وذلك لعدة عوامل وأسباب ل يتسع المقام لذكرها.

فمع بداية القرن السّادس الهجري إلى القرن الثاني عشر للهجرة تقريباً، أصبح البحث في الحقل الإعجازي مجرد جمع وشرح أو إعادة ترتيب وتقسيم لمؤلفات سابقة، وكان كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني محط أنظار هؤلاء العلماء ظناً منهم "أن محاولة الجرجاني في دلائل الإعجاز تحتاج إلى إعادة ترتيب وتحرير وتهذيب."²

وسنذكر أهم المؤلفات التي ألفت في هذا العصر محاولين تتبع السّمات البارزة التي وسمت بها في البحث الإعجازي، ونعرضها على سبيل المثال لا الحصر.

فقد كان كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض (ت544هـ) من أولى المبادرات التي اعتمدت على جمع الآراء التي قيلت في الإعجاز القرآني لدى

¹ ينظر: شوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ"، مرجع سابق، ص272.

² عائشة عبد الرحمن: "الإعجاز البياني للقرآن مسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص129.

العلماء السابقين، وكانت نظرتهم للإعجاز القرآني من الجانب البياني البلاغي، حيث يرى بأن إعجاز القرآن يكمن في حسن تأليفه، والتثام كلمه، وفصاحته، ووجهه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، كما يكمن إعجازه في صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب لأساليب كلام العرب، ومنهج نظمها ونثرها¹، يقول في هذا: "والإعجاز بكل واحد من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد خارج عن قدرتها، مابين لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحد من أهل التحقيق."²

وعبارة أهل التحقيق إشارة صريحة منه بأن دراسته للإعجاز لم تكن دراسة جديدة للموضوع، وإنما مجرد جمع لآراء العلماء السابقين، وهذا ما يبين صدق أمانته العلمية. كما عدّ الإخبار عن الأمم الماضية والإخبار بالغيبات وجهها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، غير أنه عدّه إعجاز جزئي وليس كلياً³.

وبهذا "نتبين من رأي القاضي عياض في الإعجاز أنه لم يأت بجديد وإنما لخص تقريباً رأي الباقلاني..."⁴، والقاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني في القول بالإعجاز البلاغي. كما أقبل في هذه الفترة الإمام المتكلم فخر الدين الرازي (ت606هـ) متطرقاً إلى قضية الإعجاز القرآني في كتابه المشهور "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، غير أنه لم يضيف شيئاً سوى جمع وتكرار وتلخيص ما أتى

1 ينظر: القاضي عياض، "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"، تحقيق: علي محمد الجاوي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1404هـ - 1984م، ص358-369.

2 المصدر نفسه، ص372.

3 ينظر: القاضي عياض، "المصدر السابق"، ص375.

4 نعيم الحمصي: "فكرة إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص92.

به الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"¹، فهو يرى بأنّ عبد القاهر الجرجاني "أهمل رعاية ترتيب الفصول والأبواب، وأطنب في الكلام كل الإطناب."²

يلحظ من هذا القول أنّ الرازي انتقد عبد القاهر الجرجاني وعاب عليه عدم التّقسيم والتّرتيب في مؤلفيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، لكن مع ذلك اعترف له بالفضل والأستاذية، يقول: "ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين، التقطت منهما معاهد فوائدهما، ومقاصد فرائدهما وراعت الترتيب مع التهذيب، والتحرير مع التقرير، وضبطت أوابد الإجماليات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب عن الإطناب الممل، والاحتراز عن الاختصار المخل"³.

فالرازي يعترف بالفوائد والفرائد التي حوّاها كتابي عبد القاهر الجرجاني، وأنّه لم يضيف عليهما شيئاً سوى أنّه رتب مباحثهما، وقسم أبوابهما.

والمهم من هذا كله هو نظرة الرازي ورأيه في الإعجاز القرآني، الذي أفرد له فصلين في مقدمة كتابه "ورجح فيها أن إعجازه كان بسبب فصاحته وأثنى على علم الفصاحة وشرفه"⁴. فوجه الإعجاز عند الرازي يكمن في فصاحته، يقول في الفصل الأول من مقدمة كتابه "أن القرآن معجز وأن الإعجاز في فصاحته"⁵.

ومما لا شك فيه أنّ الفصاحة التي عدّها الرازي وجهاً من وجوه الإعجاز هي نفسها النّظم الذي قال به عبد القاهر الجرجاني، والدليل على صحة هذا الرأي مقاله في "... أن عجز العرب إنما كان عن المزايا التي ظهرت لهم في نظم القرآن والبدائع التي راعتهم من مبادئ الآيات ومقاطعها. وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة، وتنبيه وإعلام وتذكير وجب على العاقل أن يبحث عن تلك المزايا والبدائع ما هي؟ وكم هي؟ وكيف هي؟ ولا يمكن ذلك إلا بالبحث عن حقيقة المجاز، والحقيقة والاستعارة، والتشبيه، والتمثيل، وحقيقة النظم، والتقديم والتأخير، والإيجاز والحذف والوصل، والفصل، وسائر

1 ينظر: عبد الفتاح لاشين: "بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار" مرجع سابق، ص 728.

2 فخر الدين الرازي "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، مصدر سابق، ص 4.

3 المصدر نفسه، ص 4.

4 محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن الكريم بيت السيوطي والعلماء"، مرجع سابق، ص 193.

5 فخر الدين الرازي: "المصدر السابق"، ص 5.

وجوه المحاسن المعتبرة في النظم والنثر، وإذا ثبت ذلك كان العلم الباحث عن حقيقة الفصاحة والكاشف عن ماهيتها والمتفحص عن أقسامها...¹

وبهذا يمكن أن نحكم على جهد الرازي هذا في مجال الإعجاز القرآني بأنه تكرر لما جاء به الإمام عبد القاهر الجرجاني، فدوره لم يتعد الترتيب والتنظيم وإعادة صياغة فقط، لكن ومع هذا يبقى جهدا طيبا في خدمة كتاب الله عز وجل، لا يمكن إجحاده.

وحذا أبو يعقوب السكاكي (ت626هـ) في كتابه "مفتاح العلوم" حذو الإمام فخر الدين الرازي في النقل والجمع والتكرار، وما يهم من هذا الإمام كله هو بصمته في الدرس الإعجازي إذ "لم ينس الرجل في كتابه "مفتاح العلوم" الإدلاء برأيه في إعجاز القرآن، فهو يرى أن القرآن معجز بالنظم كما قال عبد القاهر الجرجاني في نظره لا يدرك إلا بالذوق، وطول خدمة علم البلاغة، وممارسة الكلام البليغ."²

إذن: يذهب السكاكي في كتابه مفتاح العلوم إلى القول "بأن القرآن معجز بالنظم على طريقة عبد القاهر"³، فهو لم يأت بالجديد سوى إعادة ترتيب وتقسيم تلك المباحث التي أتى بها عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم، ويقول السكاكي عن الإعجاز القرآني بأن "البلاغة طرفان: أعلى وأسفل، متباينان تباينا لا يترأى له نراهما، وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر، متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به... من أصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدا لإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن، تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحظة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق: طول خدمة هذين العلمين"⁴ ويقصد أبو يعقوب السكاكي بالعلمين، علم البلاغة وعلم الفصاحة من الناحية الإعجازية .

1 المصدر نفسه، ص7.

2 حنفي محمد شرف: "إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق"، مرجع سابق، ص123.

3 نعيم الحمصي: "فكرة إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص106.

أبو يعقوب السكاكي: "مفتاح العلوم"، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، لبنان، بيروت دار الكتب

العلمية، 1403هـ، 1983م، ص415-416.

كما تصدى السكاكي في كتابه هذا إلى هؤلاء الذين جعلوا الإعجاز القرآني في وجوه أخرى مثبتاً بأن الإعجاز منحصر في البلاغة والفصاحة يقول بأن: "وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك إلا هذا."¹

ومع أنّ عصر السكاكي كان عصر جمود وركون بالنسبة لقضية الإعجاز القرآني²، إلا أنه اهتدى إلى الطريقة الصحيحة في القول بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، غير أنّها ليست من بنات أفكاره، وإبداع عقله، وإيّاها هي نفس فكرة عبد القاهر الجرجاني في رأيه في الإعجاز القرآني.

"وتوارت قضية الإعجاز في الميدان البلاغي، في فيض الشروح والمختصرات والحواشي على (متن السكاكي)... فأنحصرت قضية الإعجاز في كتب علوم القرآن كالبرهان للزركشي والإتقان للسيوطي."³ وقبل أن نوجه حديثنا عن جهود كل من الزركشي والسيوطي في ميدان الإعجاز القرآني، لا بد من الإشارة إلى ذلك الجهد الذي قدمه يحيى بن حمزة العلوي (ت749هـ) حول الإعجاز القرآني من خلال كتابه "الطرّاز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز غير أنّه لم يضيف شيئاً سوى أنّه لخص مذاهب العلماء في الإعجاز، والوجه الذي اختاره للإعجاز يكمن في فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني، وجودة النظم وحسن السياق."⁴

ويرى بأنّ البلاغة هي الوسيلة التي يمكن بها معرفة أحوال الإعجاز القرآني فيقول: "هي علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز، لأن الإجماع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنّه لا سبيل إلى الإطلاع على معرفة حقائق الإعجاز وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلاّ بإدراك هذا العلم وإحكام أساسه."⁵

¹المصدر نفسه، ص417.

² ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص329.

³ عائشة عبد الرحمن: "الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص130.

⁴ ينظر: يحيى بن حمزة العلوي: "الطرّاز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز"، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت، المكتبة

العصرية، ط1، 1423هـ-2002م، ج1، ص224.

⁵ المصدر نفسه، ج1، ص16.

والشيء الملاحظ من هذا أنّ يحيى بن حمزة العلوي "شديد التأثر بعبد القاهر الجرجاني، ويرى أنه لم يأت في كل ما قدمه بجديد، ولكن يقدر له حسن تنظيمه للبحث، وطرقه له بصورة علمية منظمة شاملة، تغلب فيها روح العالم روح الأديب، وإن كانت لا تخلو من كثير من الجدل العقيم."¹

فيحيى بن حمزة العلوي لم يخالف أقرانه في البحث الإعجازي، فهو لم يضيف شيئاً سوى إعادة صياغة إبداعات القدامى وترتيبها وتقسيمها، فروح العصر التي كان يطبعها الجمود ويكتنفها الضعف والخمول تبدو جلية في كتابه الطراز الذي أفردته للدرس البلاغي على وجه العموم، والإعجازي على وجه الخصوص.

وللإعجاز القرآني أثر في "كتاب البرهان في علوم القرآن" فقد خصص الزركشي (794هـ) كتابه هذا لدراسة علوم القرآن المختلفة، وجعل لعلوم الإعجاز ومباحثه نصيباً في ذلك، "وهي مباحث جليلة القدر، كأن الزركشي رحمه الله تعالى انفرد بها من بين كتب علوم القرآن"²

فكتاب "البرهان في علوم القرآن" لم يكن كتاباً منفرداً للدرس الإعجازي وإنما كان هذا الأخير جزءاً من تلك العلوم القرآنية التي احتوى عليها، ولم يكن للزركشي رأيه الخاص في هذا الموضوع سوى أنه نقل أقوال العلماء وأورد آراءهم المختلفة في وجوه الإعجاز القرآني"³، من إعجاز بلاغي، ونظمي، والإخبار بالغيوب، والصرفة، يقول: "وهو قول أهل التحقيق، أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد على انفراده، فإنه جمع كلاً، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق."⁴

إذن: يلاحظ بأنّ عمل الزركشي في مجال الإعجاز القرآني لم يتعد حدود الجمع والتحصية.

كما يعد الإمام جلال الدين السيوطي (ت911هـ) واحد من هؤلاء الذين تناولوا قضية الإعجاز القرآني، وذلك في كتابين هما: "معتك الأقران في إعجاز القرآن" والآخر "الإتقان في علوم القرآن"، وإن كان

¹ نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص136.

² محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن الكريم بين السيوطي والعلماء"، مرجع سابق، ص148.

³ ينظر: نعيم الحمصي: "المرجع السابق"، ص153.

بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط3، 1404هـ، 1984م

⁴ ج2، ص106.

الأول أخص بالدّرس الإعجازي كما يظهر بالعنوان من الثّاني، وعلى هذا الأساس سنوضح دور السيوطي في الإعجاز القرآني من خلال كتابه "معترك القرآن في إعجاز القرآن"، إذ جعل حديثه عن الإعجاز القرآني في مقدمة كتابه¹، ثم ذكر أهم من صنف في هذا الموضوع من العلماء مبينا أوجه الإعجاز عندهم، والتّسمية تدل على ذلك "فكأنّ المعنى أنّ هذا الكتاب هو موضع تبادل الأفكار وتلاحم العقول والأنظار بين العلماء في وجوه الإعجاز."²

فالسّيوطي قد ذكر وجوه الإعجاز المختلفة فهو يرى بأنّ "الصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجاز القرآن."³ ومع أنّ السيوطي لم يأت بإضافة جديدة في الإعجاز القرآني إلّا أنّه في كتابه هذا لخص مسار الإعجاز القرآني تلخيصا جيدا، وكأنّه بعمله هذا أراد أن يبين لنا الجهود العلمية المبذولة على مرّ العصور في ميدان الإعجاز القرآني، وعناية العلماء بكتاب الله تعالى.

وبعصر السيوطي تنتهي جهود العلماء في دراسة الإعجاز القرآني كدراسات مختصة مستقلة، فلم تعد سوى شذرات متناثرة على ضوء كتب التّفسير مثل: أبي سعود في تفسيره وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والألوسي (ت1270هـ) في تفسيره روح المعاني.

والملاحظ على الجهود المبذولة في هذا الطّور لم تكن إبداعا بقدر ما كانت محاكاة وتقليدا نظرا للجمود الذي كان مسيطرا على العقول والنّفوس.

4_ الطّور الرابع: العصر الحديث والمعاصر.

ويمتد هذا الطّور من القرن الرابع عشر الهجري إلى وقتنا هذا، ولهذا التّاريخ (1213هـ-1789م) دلالة رمزية عند العرب والمسلمين فهو يمثل عصر التّهضة العربيّة، واستيقاظ العرب بعد سبات دام أكثر من ستة قرون.

¹ ينظر: جلال الدين السيوطي: "معترك الأقران في إعجاز القرآن"، ضبطه وصححه وكتبه فهارسه: أحمد شمس الدين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ-1988م، ج1، ص113.

² محمد موسى الشريف: "إعجاز القرآن الكريم بين السيوطي والعلماء"، مرجع سابق، ص279.

³ جلال الدين السيوطي: "المصدر السابق"، ج1، ص5.

ولم يكن الدرس الإعجازي بمعزل عن هذه النهضة وإمّا كان له حظ كبير من الجهد والبحث، فقد ظهرت كوكبة مميزة من العلماء والباحثين، والأدباء والبلاغيين الذين أقبلوا على القرآن، ووجهوا إليه نظراتهم وأصدروا في ذلك العديد من الكتب والدراسات، التي تحدثوا فيها عن وجوه الإعجاز القرآني، وحلّلوا فيها أساليب البيان فيه.¹

ومما لا شك فيه أنّ غرضهم من ذلك، هو الردّ على هؤلاء المستشرقين الذين طعنوا في القرآن الكريم، فمن المعلوم أنّ عصر النهضة تعاقب مع الحركة الاستعمارية التي شنتها أوروبا على البلاد العربية عامة، وهذه الحركة التي أرادت طمس الهوية الإسلامية، وتشويه الدين الإسلامي، وذلك بالطعن في القرآن الكريم، غير أنّها لم تتمكن من ذلك، بفضل نخبة من خيرة العلماء، حملوا على عاتقهم مسؤولية الحفاظ على القرآن الكريم.

وعلى ضوء هذا ظهرت دراسات جديدة على يد هؤلاء العلماء تتحدث عن القرآن وإعجازه، "فقد أُلّوا بالقرآن الكريم بعد دراسة واسعة وللثرائث القديم والفكر الحديث، ونظروا إلى الكتاب الكريم نظرة شاملة، فتعددت وجهات نظرهم، وهي وجهات نظر تعبر عن اجتهادات شخصية تضاف إلى جهود السابقين."²

يستنتج من هذا القول أنّ جهود المحدثين في الدرس الإعجازي انطلقت على خلفية جهود الأقدمين مع إضافات وتحليلات أسهمت بدور كبير "في حسن تذوق القرآن، والإعجاب بأسلوبه، وبيان سرّ الإعجاز فيه."³

ونظرا لكثرة المؤلفات التي ألفت في الإعجاز القرآني في هذا العصر، صعب علينا حصرها، كما أنّ المقام لم يتسع لذكرها جميعا، وعلى هذا سنذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر.

1- مصطفى صادق الرافعي (1356هـ-1937م): يعد الرافعي من أشهر الذين كتبوا في الإعجاز القرآني في العصر الحديث، وذلك في كتابه المشهور "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" فقد تطرق إلى

¹ صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 97.

² أحمد سيد محمد عمار: "نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم"، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 1، 1998م، ص 38.

³ صلاح عبد الفتاح الخالدي "المرجع السابق، ص 97.

قضية الإعجاز القرآني في جوانبها المتعددة، مستفيدا في ذلك من دراسات القدامى مع إضافات جديدة لأنه يرى أن أغلب هؤلاء الذين ألفوا في الإعجاز قديما لم يدركوا حقيقته ولم يوفوا بغرضه، يقول في ذلك: "على أن القوم من علمائنا-رحمهم الله- قد أكثروا من الكلام في إعجاز القرآن وجاءوا بقبائل من الرأي لونها فيها مذاهبهم ألوانا مختلفات وغير مختلفات بيد أنهم يبرون في ذلك عرضا على غير طريق، ويشتقون في الكلام ههنا وههنا من كل ما تترس به الألسنة في العدد والخصومة، وما يأخذ بعضه على بعض من مذاهبهم ونحلهم، وليس إلا ما تحصره هذه المقاييس من صناعة الحق وإلا أشكال من هذه التراكيب ثم فتنة متحاملة لا تقف عند غاية في اللجاج والعسر."¹

وقد قسم الرافعي كتابه هذا إلى قسمين: القسم الأول خصصه للإعجاز القرآني والقسم الثاني للبلاغة النبوية.

وما يهمننا من الكتاب قسمه الأول لما له علاقة بالإعجاز القرآني، والملاحظ على الرافعي في دراسته للإعجاز أنه لم يعرض مباشرة لمسألة الإعجاز إلا بعد أن عرض لقضايا تتعلق بالنص القرآني من ذكر: لتاريخه، وجمعه، وتدوينه وقراءته لأنه يرى بأن معرفة هذه الأمور عن القرآن الكريم هي السبيل إلى الوقوف عن بلاغته وإعجازه.²

وبعدما انتهى من العرض التاريخي لمسيرة القرآن الكريم من جمع وتدوين وقراءة، عرض فصلا للإعجاز القرآني بين فيه مذاهب القدماء وآرائهم حول الإعجاز في القرآن الكريم، ثم وضّح بعد ذلك رأيه في الإعجاز القرآني بقوله: "أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر واتضح الرؤية وما استخرجناه من القرآن نفسه... أن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه... فالقرآن معجز في تأريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه."³

¹ مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص26.

² المصدر نفسه، ص56.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص188.

ثم يمضي في بحثه ودراسته ليقول بأنّ الأسلوب القرآني هو مادة الإعجاز، ويذكر أبرز الخصائص التي انفرد بها الأسلوب القرآني.¹

وعلى الرغم من هذا الجهد الطيب الذي بذله هذا الرجل الذي نذر نفسه خدمة لكتاب الله تعالى، ووهب حياته للبحث في أسرار إعجازه إلاّ أنّه تعرض لانتقادات ومآخذ، يقول فضل عباس: "إن كتاب إعجاز القرآن للرافعي، كتاب ينبض بالحياة والعاطفة الصادقة ولكنه يغلب عليه الطابع النظري، وكنا نود أن يكثر فيه الرافعي من التطبيقات العلمية"²، لكن ما لبث أن أنصفه بقوله: "ولكن عذره في ذلك أنه كان عازماً أن يكتب كتاباً آخر وهو سر الإعجاز يفرد به خاصة بالتطبيقات العلمية، وقد كتب بعض فصول هذا الكتاب، ولكنه فاضت روحه إلى بارئه قبل أن يتمه."³

إذن كان للرافعي دور الريادة في درس الإعجاز القرآني في العصر الحديث، فقدم جهداً طيباً ودراسة مستفيضة فتح بها الباب على من أتى بعده من الدارسين.

2- عبد الله دراز (ت 1377هـ - 1958م): واحد من خيرة علماء الإسلام في العصر الحديث الذين تطرقوا إلى قضايا القرآن الكريم بصفة عامة، والجانب الإعجازي منه بصفة خاصة، وذلك في كتابه القيم: "النبأ العظيم - نظرات جديدة في القرآن"، إذ يعد عبد الله دراز من هؤلاء الذين أحسنوا تذوق الأسلوب القرآني، وأحسنوا الحديث عن القرآن وإعجازه، وقدموا في ذلك نظرات جديدة مفيدة.⁴ وكتابه هذا "النبأ العظيم - في الإعجاز هو من خير الكتب وأدقها وأعمقها، إن لم يكن خيرها وأدقها وأعمقها، ويأتي في الترتيب الزمني بعد كتاب الأستاذ الرافعي - رحمه الله -."⁵ وقد عدّد فيه معنى القرآن، وبينّ مصدره، ثم تحدث بعد ذلك عن جوهر القرآن الدال على مصدره الرّباني.⁶

1 فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "إعجاز القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 101.

2 المرجع نفسه، ص 101.

3 المرجع نفسه ص 101

4 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 97.

5 فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "المرجع السابق"، ص 102.

6 ينظر: عبد الله دراز، النبأ العظيم - نظرات جديدة في القرآن - قطر، الدوحة، دار الثقافة، ط 1405هـ - 1985م، ص 12-20.

وفي حديثه عن الإعجاز القرآني تكلم عن نواحي ثلاث: ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز الاصطلاحي التهديبي الاجتماعي، غير أنه وجه عنايته للإعجاز اللغوي، يقول في ذلك: "ولتكن عنايتنا بناحيته اللغوية لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً."¹ فبعد الله دراز يذهب إلى القول بأنّ القرآن الكريم معجزة لغوية ويرد في ذلك على الشبهات التي ألصقت به ويطلها²، ليثبت في الأخير بأنّ أسلوب القرآن هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية.³ هذه نظرة بسيطة، وإشارة لائحة لما كتبه الشيخ عبد الله دراز حول الإعجاز القرآني، وإن كان المقام يتسع لأطلنا التحليل لهذا الكتاب، لأنّه من أحسن ما كتب حول الإعجاز القرآني في العصر الحديث.

3- سيد قطب (ت1385هـ-1966م): لم يفرد سيد قطب كتاباً خاصاً في الإعجاز القرآني، غير أنّه أشار إلى ذلك في مؤلفاته، أشهرها "في ظلال القرآن"، و"التصوير الفني في القرآن".

أمّا فيما يخص كتابه "في ظلال القرآن"، فهو كتاب في التفسير اعتمد فيه على التحليل الموضوعي وقدم فيه نظرات موضوعية وبيانية لبعض الآيات، مع الوقوف على الخصائص العامة للقرآن⁴، متبعاً في ذلك منهج الأقدمين، لكن جاء بها في هيئة جديدة تناسب طبيعة العصر الحديث، كما تكلم فيه عن الإعجاز، وذلك عند تفسيره لآيات التحدي في القرآن⁵، يقول مثلاً وهو يفسر آية سورة البقرة: "القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف (أ ل م)... وهو في ذلك الكتاب المعجز الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله، برغم تحديه لهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جواباً."⁶

1 ينظر: عبد الله دراز، النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن الكريم، ص79.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص80-89.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص66-108.

4 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص98.

5 ينظر: نعيم الحمصي: "فكرة إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص343.

6 سيد قطب: "في ظلال القرآن"، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1972، ج1، ص38.

أمّا كتابه الثّاني "التّصوير الفني في القرآن"، فهو الكتاب الذي أفرد فيه حديثه عن الإعجاز القرآني بصراحة من خلال حديثه عن الجانب التّصويري للقرآن الكريم، فبكتابه هذا أسس "لنظرية خاصة في التعبير القرآني" هي التصوير... وجعلها أساس عدة دراسات... يجلل فيها البيان القرآني.¹

وقد بدأ حديثه عن سحر القرآن، وكيف أثر كلام الله عز وجل في العرب منذ اللحظة الأولى، مشيراً إلى أنّ منبع السّحر يكمن في نسق القرآن ذاته.²

ويرى سيد قطب "أنّ التّصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتمثلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية... فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعتبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن."³

كما عدّ التصوير الفني في القرآن جزءاً من الإعجاز البياني يقول: "التّصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وهو القاعدة الأولى فيه للبيان."⁴

وتحدث كذلك عن القصة في القرآن وقال بأنّ التصوير الفني من أبرز الخصائص الفنية التي اشتمل عليها الأسلوب القصصي في القرآن الكريم وأن ذلك وجهها من وجوه الإعجاز في القرآن، يقول: "وهكذا تتكشف للنّاظر في القرآن آفاق من التناسق والاتساق: فمن نظم فصيح إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخيل مجسم، إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الموسيقى، إلى افتتان في الإخراج... وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز."⁵

1 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص 98.

2 ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، القاهرة، دار الشروق، د ط، د ت، ص 11-19.

3 المصدر نفسه، ص 36-37.

4 المصدر نفسه، ص 70.

5 المرجع نفسه، ص 142.

وبهذا الجهد قد أسهم الشهيد العالم سيّد قطب بترك بصمة طيبة تحسب ضمن مسيرة الجهود الجبارة التي بذلها هؤلاء العلماء خدمة وتقرباً لكتاب الله عز وجل.

4- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء (ت1419هـ-1998م): تكلمت عائشة عبد الرحمن عن الإعجاز في القرآن الكريم في كتابها المعروف بـ: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق-دراسة لغوية وبيانية-"، واستهلت كتابها هذا بمقدمة بينت فيها أسباب ودوافع تأليفها لهذا الكتاب وقسمته إلى جزئين:

الجزء الأول خصصته للحديث عن الإعجاز البياني وجعلت منه مبحثين، الأول تحدث فيه عن مفهوم المعجزة، والجدل والتّحدي، وآيات المعاجزة، ووجوه الإعجاز البياني وختمته بجهود البلاغيين في الإعجاز، ولم تذكر هذه الجهود بقدر ما انتقدتها.¹

أمّا المبحث الثاني فقد أبدت فيه رأيها في الإعجاز الذي كان حول الإعجاز البياني، تقول: "ما من حرف في القرآن الكريم تأولوه زائداً أو قدّروه محذوفاً أو فسروه بجرف آخر، لا يتحدى بسرّه البياني كل محاولة لتأويله على غير الوجه الذي جاء به في البيان المعجز"².

فقد قالت عائشة عبد الرحمن بالإعجاز البياني وقدمت في ذلك نظراتها وتحليلاتها الرائعة عن سرّ الجمال القرآني.

أمّا الجزء الثاني من الكتاب فقد خصصته للحديث عن مسائل ابن الأزرق ولا يهمننا لأنه لا يمد بأي صلة لمحور بحثنا.

هذه مجموعة من الجهود التي قدمت في العصر الحديث حول الإعجاز القرآني وغيرها كثير أمّا فيما يتعلق بالجهود التي قدمت في العصر المعاصر فارتأينا أن نذكر جهد أحد الأعلام البارزين في هذا العصر وهو:

1- محمد سعيد رمضان البوطي (ت1434هـ-2013م): في كتابه "من روائع القرآن-تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل"، و"الكتاب عبارة عن تأملات علمية وأدبية سريعة في كتاب الله أراد

¹ ينظر: فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "إعجاز القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص136.

² عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص139.

من خلاله أن يوضح بعض ما ينطوي عليه هذا الكتاب من روعة البيان وإعجازه.¹ وقد تكلم البوطي عن الإعجاز في القسم الثاني من كتابه هذا، فبيّن بأنّ دليل الإعجاز يكمن في أنّه ينطوي على ما يقصر طوق البشر عنه.² ثمّ يعرض لأوجه مختلفة من الإعجاز ليرسى رأيه في الأخير على الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن الكريم.³

2- الدّراسات الجامعية الأكاديمية: هناك العديد من الدّراسات الجامعية الأكاديمية سواء في الماجستير

أو الدكتوراه قدم فيها أصحابها جهداً عظيماً حول الإعجاز القرآني منها:
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: رسالة دكتوراه لصاحبها عبد العظيم المطعني وطبع بعد ذلك في كتاب.

- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن رسالة دكتوراه لصاحبها عودة الله منيع القيسي.⁴

- الإعجاز البياني في القرآن الكريم- دراسة نظرية تطبيقية في الآيات المحكمات- رسالة دكتوراه لصاحبها عمار ساسي وطبع في كتاب.

- في إعجاز القرآن الكريم- دراسة الإعجاز البياني لبعض آيات الأحكام- رسالة ماجستير لصاحبها عمار ساسي.

وغيرها كثير فقد "مضى على بحث إعجاز القرآن أكثر منه اثني عشر قرناً هجرياً، وسيبقى يبحث في القرون التالية حتى قيام الساعة"⁵، فالقرآن الكريم كتاب لا تنفذ أسرارته ولا تنته أبحاثه، فقد كتب الله له الديمومة ليبقى البحث في الكشف عن عجائبه متواتراً عبر الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

1 عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص51.

2 ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن- تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، بيروت، مؤسسة الرسالة، د ط، 1420هـ-1990م، ص125.

3 المرجع نفسه، ص134.

4 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، مرجع سابق، ص101.

5 المرجع نفسه، ص8.

وأكد أنّ البحث في الإعجاز القرآني لم يكن عبثاً وإتّما كان عن قصد وهدف.

ب_ مقاصد الكتابة في الإعجاز القرآني وأهدافها

إنّ القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي أيد الله تعالى بها خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وسلم، والتي اقتضت المشيئة الربانية أن تكون معجزة لغوية بيانية من نفس جنس ما برع فيه القوم الذين نزلت فيهم، وهم العرب، أهل اللغة والفصاحة، وأرباب البلاغة والبيان، فوقفوا منذهلين أمام روعة نظمه، وجمال بلاغته.

إذ كان هذا البيان هدى لمن رقت حجب الغفلة عن قلوبهم فأمنوا، وقد كفر الكثيرون وعاندوا وهم أرباب القلوب الغليظة، وبدأت سلسلة من التحديات، وطلبوا آية ربانية أي معجزة بالمعنى الاصطلاحي تدل على صدق الرسول في دعواه، وأعلن الله تعالى أن آية محمد صلى الله عليه وسلم ما هي إلا الكتاب المبين.¹

قال الله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)².

ومن هذا المنطلق كان القرآن الكريم، كتاب الله الخالد، ومعجزته البيانية التي أرسل الله بها محمداً - صلى الله عليه وسلم - لهداية البشرية، وتحقيق مصالحها الدنيوية والدنيوية.³

فمن المعلوم أنّ الشريعة الإسلامية تقوم على مقاصد، ويقصد بالمقاصد، "الغايات التي تهدف إليها النصوص القرآنية."⁴

1 عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 83.

2 سورة العنكبوت، الآية 50-51.

رجاء بنت محمد عودة: "الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم"، الرياض، مكتبة العبيكان، ط1، 1424هـ -

3 2003م، ص 11.

4 ينظر، يوسف القرضاوي: "دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والجزئية"، مصر، القاهرة، دار الشروق، ط3، 2008م، ص 20.

أو "اسم الحكم التي تطلب من وراء تشريع الأحكام، سواء كانت مقتضية أم مخيرة إذ وراء كل حكم شرعه الله لعباده حكمة علمها من علمها، وجهلها من جهلها، لأن الله تعالى يتنزه أن يشرع شيئاً اعتباراً أو عبثاً، أو يشرعه مضاداً للحكمة"¹.

وقد حث الشارع الحكيم على التدبر في القرآن الكريم، قال الله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)².

وثمة علاقة مكتملة بين المقاصد والتدبر الذي دعا إليه الله تعالى، إذ بالتدبر نقف على الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد.³

ومن أسمى درجات التدبر في القرآن الكريم هو الوقوف على إعجازه، ومعرفة المقصد من السر الإعجازي الذي خص الله به كتابه الكريم الذي جعله منحصرًا في البلاغة والبيان إذ من هنا كان وجه من وجوه عظمة القرآن وهو أن يجمع بين البيان والإعجاز... فقد اجتمع في صلبه البلاغ المبين والإعجاز القائم مدى الدهر، وما ذلك إلا لأنه كتاب لم ينزل لهداية العرب خاصة، وإنما نزل لهداية البشرية كلها على عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد عصره وإلى أن تقوم الساعة... ولهذا كان القرآن الكريم نفسه بياناً ومعجزة في آن واحد، ولم تكن مادة إعجازه شيئاً واحداً بحيث لا تلائم إلا عصراً واحداً أو مجموعة من الأجيال بعينها، بل كانت مواد إعجازه كامنة في أطوائه، وكلما تقدم المنكرون الجاحدون في العلم المادي انكشف من وجوه إعجازه وجه يجمع ضلالات الكفر ويهدي إليه الآلاف المؤلفة من كل عصر وهو ما نشهده اليوم، وما ستشهده الأجيال غدا بإذن الله.⁴

لذا قد هيا الله لكتابه الكريم علماء يبحثون في علومه، ويتدبرون في أسرار إعجازه وبيانه على مرّ العصور واختلاف الأزمان، فقد تضافرت جهود العلماء في العناية به، وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة، تجلت في جمعه وتدوينه، وترتيبه وإعرابه، وتنوع آدائه، ووصف قراءته وقراءته... وأسباب نزوله إلى آخر ما

¹ المرجع نفسه، ص 20-21.

² سورة ص: الآية 29.

³ عبد الكريم حامدي: "مقاصد القرآن في تشريع الأحكام"، دب ن، دار ابن حزم، دط، 1429هـ، ص 29.

⁴ عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 84.

هنالك من موضوعات تنضوي في ثنايا هذه الموسوعة القرآنية، بيد أن أعلى هذه المباحث قدرا وأعظمها شأنًا بيان خصائصه التي كانت وحيا معجزا.¹

وأكيد أنّ بداية الاهتمام بالإعجاز القرآني كانت منذ عصر النبوة لكنها لم تستقل بدراسات، ولم تؤلف فيها كتباً، فالعرب آنذاك أدركوا هذا الإعجاز بفطرتهم السليمة، لكن بعد أن تقدم الزمن وانتشر الإسلام في جميع أرجاء المعمورة بفضل الفتوحات الإسلامية، واختلط العرب بالأعاجم الذين دخلوا في دين الله أفواجا، لم يعد إعجاز القرآن يدرك بالفطرة وإنما صار إدراكه يتطلب دراسة واعية ومستفيضة للغة العربية، وإحاطة بغريبها ومعرفة تامة بأساليب التعبير فيها لتنمو لدى من يريد التحدي لمعرفة الإعجاز ملكة تمكنه من إدراك هذه الناحية في القرآن العظيم فانتقل الإعجاز من مرحلة التذوق الفطري إلى مرحلة التذوق العلمي، الذي يجب أن تسبقه دراسة واسعة لأساليب اللغة العربية تؤهل صاحبها لإدراك ناحية الإعجاز في القرآن العظيم.²

وبناء على هذا فإنّ تأسيس أي علم من العلوم، يكون وراءه مقصد وهدف، والغاية من تأسيس علم الإعجاز القرآني والبحث في مباحثه هو الرد على أولئك الطّاعنين في القرآن الكريم، "ونفي ما أثاره هؤلاء الشعوبيون من شكوك وأباطيل."³

فقد اتجه علماء الإعجاز إلى الدّفاع عن القرآن الكريم انطلاقاً من بيان وإثبات صحة إعجازه ليكون ذلك مقدمة لإثبات صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فلقد كان مسار الدّرس الإعجازي رحلة بحث عن وجوه الإعجاز القرآني التي تسمح بإقناع أولئك الملحدّين والزّنادقة على مرّ العصور بإعجاز القرآن وتبطل أباطيلهم وافتراءاتهم الفاسقة عن القرآن الكريم.

ويستنتج من نشأة الدّرس الإعجازي وعناية العلماء المسلمين به أنّه كان من ورائه مقاصداً وأهدافاً، يمكن الإشارة إليها فيما يلي:

¹ رجاء بنت محمد عودة: "الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم"، مرجع سابق، ص 11-12.

² محمد السيد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"، مرجع سابق، ص 13.

³ المرجع نفسه، ص 13.

1- مقصد ديني: ويتمثل ذلك في خدمة القرآن الكريم، وإثبات إعجازه الذي تحدى الله به الثقلين من الإنس والجن أجمعين، فقد لاحظنا ونحن بصدد دراسة الإعجاز عبر مسيرته التاريخية، أنّ غرض هؤلاء العلماء من عصر النظام إلى محمد سعيد رمضان البوطي كان دفاعاً عن القرآن الكريم، ومحاولة إثبات أنه المعجزة الربانية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقاً له على دعواه، وإن اختلفت آراؤهم حول وجوه إعجازه. وكان هذا المقصد من أهم المقاصد التي دفعتهم إلى البحث والتأليف في الإعجاز القرآني، سواء قديماً في ردهم على هؤلاء الشّعوبيين، أو حديث في الرد على المستشرقين. بالإضافة إلى ذلك كان غرضهم من دراسة الإعجاز، فهم القرآن الكريم، واستنباط أحكامه الدنيوية والدنيوية.

ولأهمية الدرس الإعجازي في خدمة الدين الإسلامي، رأى بعض أهل الاختصاص أنه "ينبغي... أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتّصديق بوعدده ووعيدده إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جلّ اسمه".¹

2- مقصد حضاري: الملاحظ كذلك من دراسة العلماء للإعجاز القرآني أنّهم أرادوا بذلك الحفاظ على الهوية الحضارية الإسلامية، وهوية المسلمين القرآن الكريم، فقد تعرضت الأمة الإسلامية للكثير من المواقف التي حاول فيها هؤلاء الحاقدين طمس هويتها وذلك بدءاً بالطعن في دستورها الخالد وهو القرآن الكريم، لكن دائماً هناك شموعا خافتة تشع نورها عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم والكتاب المجيد، وأقوى وسيلة يتخذها هؤلاء الذين يحملون على عاتقهم مسؤولية الحفاظ على القرآن الكريم والهوية الحضارية الإسلامية هي إثبات إعجاز هذا الكتاب العظيم، ولعل أهم خاصية إعجازية فيه أنّه محفوظ على مرّ الأزمان، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).²

¹ ينظر: أحمد مطلوب، حسن البصير: "البلاغة والتطبيق"، جمهورية العراق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط2، 1420هـ-

1999م، ص14.

² سورة الحجر: الآية9.

3- مقصد تعليمي: وهو تعليم الناشئة وإطلاعها على مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم، لأنّ بفهم الإعجاز يمكن فهم "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع"¹.

كما أنّ المقصد التعليمي من دراسة العلماء للإعجاز القرآني هو الوقوف على مباحث علم البلاغة العربية بصفة عامة والقرآنية بصفة خاصة، إذ كان لهذه الدراسات الإعجازية دور في الوقوف على المباحث البلاغية، "فقد دعاهم البحث في الإعجاز إلى الخوض بالضرورة في البحوث البلاغية، فأخذوا يدرسون فنون البلاغة العربية كي يقفوا منها على سرّ الجمال في التعبير القرآني، وكشف النواحي التي من أجلها عجز العرب عن أن يأتوا بأقصر سورة."²

إذن: هذه إشارة تطرقنا إليها فيما يخص الغرض والمقصد الذي دفع هؤلاء العلماء إلى دراسة الإعجاز القرآني، غير أنّ المهم من هذا كله هو بيان مقصد الشارع سبحانه وتعالى في جعل القرآن الكريم كتابا معجزا، وجعل هذا الإعجاز في النظم والبلاغة والبيان. وأكد أنّ هؤلاء العلماء عندما غاصوا في أعماق الدرس الإعجازي فهموا مقصد الله من إعجاز كتابه الكريم.

ج- مقاصد الإعجاز القرآني:

إنّ لإعجاز القرآن الكريم مقاصد خاصة، أجلّها المهابة والمكانة الفريدة بين الكتب السماوية السابقة. كما أنّ نبرة التحدي التي وجهها الله للإنس والجن بقوله: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)³، ما كانت إلا عن غرض ومقصد هو عبادته سبحانه وتعالى، وإدراك جلال ربوبيته، قال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)⁴.

¹ محمد الطاهر بن عاشور: "مقاصد الشريعة الإسلامية"، تحقيق ومراجعة: الشيخ محمد الحبيب بن الحوجرة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د ط، 1425هـ-2004م، ج 2، ص 21.

² أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص 34.

³ سورة الإسراء: الآية 88

⁴ سورة الذاريات: الآية 56.

فبالوقوف على السر الإعجازي الذي حواه كتاب الله تعالى يفهم الإنسان غرضه في الحياة، والذي يتجلى في توحيد الله وعبادته لأنّ "عقيدة التوحيد القرآني هي أعلى المعارف التي ترقى الإنسان إلى أعلى ما خلق مستعداً له من الكمال الروحي والعقلي والمدني"¹.

وعلى الرغم من أنّ القرآن الكريم نزل معجزة لهؤلاء العرب الذين كانوا يغوصون في بحر الظلمات ويسيروا في دياجير الظلام والوثنية، بيد أنّ آية التحدي لم تقتصر على عصرهم وإنما هي متواصلة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلقد كان القرآن وما يزال وافيًا بحاجات البشر في الاقناع والتحدي²، فكلما فرح جيل بما عنده من العلم، يكشف في مقابل ذلك القرآن الكريم على سر من أسرار المدفونة في أعماق إعجازه.

وبهذا يظهر مقصد الله تعالى ومراده من جعل معجزة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة خالدة ليكون ذلك دليلاً على صدق الرسالة وعالميتها وأنّ التحدي بإعجازه موجهها إلى البشرية على مر العصور، وما هذا التحدي إلا إبراز الله لعظمته وجلال ألوهيته وربانيته.

ولا يمكن للبشر أن يدركوا حقيقة هذا التحدي إلا إذا أدركوا مراد الله تعالى من إعجاز القرآن الكريم. وبهذا "نقول إن مقاصد الإعجاز القرآني لا تخرج هي بدورها على أمرين أساسيين وضروريين تتفرع منهما أشياء كثيرة هما دفع المفسدة وجلب المصلحة"³.

والمبتدع للإعجاز القرآني يرى أنّه لا يخرج عن هذه القاعدة في دفع المفسد وجلب المنافع.

وبناء على هذا يمكن حصر هذه المقاصد فيما يلي:

1- حفظ القرآن الكريم من التحريف: لقد تولى الله سبحانه وتعالى حفظ آخر كتبه السماوية من التحريف، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)⁴.

1 محمد رشيد رضا: "الوحي المحمدي"، مرجع سابق، ص56.

2 ينظر: عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص84.

3 المرجع نفسه ص86.

4 سورة الحجر: الآية9.

"وحفظ القرآن الكريم من التحريف أحد أبرز وجوه إعجازه"¹، وذلك حتى لا يحدث له مثلما حدث للكتب السماوية الأخرى كال்தوراة والإنجيل، فالقرآن الكريم هو كتاب رسالة الخاتمة والشرعية العالمية فإذا تعرض للتحريف بالزيادة أو النقصان فأكيد سينتج عن ذلك فساد في العقيدة الإسلامية بل فساد البشرية جمعاء، "فالتحريف رأس الفساد"²، ودرباً لهذه المفسدة شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ كتابه الكريم من فوق سبع سماوات، فمنذ أكثر من أربعة عشر قرناً، ولا يزال القرآن الكريم محفوظاً من التبديل والتشويه رغم الافتراءات والأباطيل الموجهة إليه من قبل الأعداء والجاحدين، فقد صدق الله في وعده: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)³، يقول ابن القيم الجوزية: "قال قوم: إعجازه حفظ آياته من التبديل وصون كلماته من النقل والتحويل، ولا يستطيع أحد أن يتحيف منه سمطاً، ولا يزيده شكلاً ولا نقصاً، ولا يدخل فيه كلمة من غيره، ولا يخرج منه أخرى، ولا يبدل حرفاً بحرف، وذلك من آياته الكبرى فكم جهد أهل العناد في ذلك فما قدروا له وما استطاعوا وكم قصدوا تحريفه فأبى الله ذلك فأذعنوا له وأطاعوا."⁴

ويعد هذا المقصد من الإعجاز القرآني "أكبر مصلحة تتولد عنها مصالح كثيرة وأعظم نعمة على القرآن الكريم"⁵، إذ يحفظه تبقى الرسالة الإسلامية محروسة أبد الدهر، بالإضافة إلى حفظ اللسان العربي من الزوال باعتباره لسان القرآن الكريم، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)⁶. ومن هنا تتولد مصلحة أخرى وهي حفظ اللغة العربية، فستبقى اللغة العربية محفوظة حفظ القرآن الكريم.

2- تثبيت المؤمنين على التمسك بالقرآن الكريم مدى الدهر: فالقرآن الكريم هو نبراس الهداية ومفتاح النجاة، وسفينة الفلاح التي يسير على نهجها هؤلاء المؤمنون، وينير دربهم عندما يتيه أهل الظلال في دياجير الظلام، وما بث الله فيه من ذلك السر الإعجازي إلا ليثبت المؤمنين على نور الإيمان، ويغرق الكافرين

1 بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 193.

2 عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 87.

3 سورة الحجر: الآية 9.

4 ابن القيم الجوزية: "الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان"، مصدر سابق، ص 242.

5 عمار ساسي: "المرجع السابق"، ص 87.

6 سورة يوسف: الآية 2.

في بحر الظلمات" فالإعجاز على أية حال هو وسيلة إيمان ووسيلة ضلال¹، قال الله تعالى: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا² وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ³)

ولو حاولنا تطبيق قاعدة المقاصد لقلنا إنَّ مصلحة الإعجاز في هذا الأمر تتمثل في هداية البشر، ودرء المفسدة تكمن في دفع الكفر والظلال عنهم، وهذا ما قصده القرآن الكريم منذ بداية معركة التّحدي بين بلاغة القرآن الكريم و بلاغة هؤلاء العرب، إذ أراد الله سبحانه وتعالى أن يهديهم لعبادته وتوحيده وينير طريقهم في الدّنيا والآخرة ويدفع عنهم تلك الفتن من الجهل والكفر وعبادة الأصنام.

فالقرآن الكريم "مائدة يتغذى منها العقل والروح فتتخلق منها ملكات علوية، ووجدانيات رابانية، بها يسمو الإنسان ويعلو، وبها يرتفع على هذا الضعف الإنساني الكامن فيه وينتصر على هذه النزعات المندسّة في كيانه."³

3- إثبات عظمة الخالق: أراد الله تعالى من إعجاز القرآن الكريم أن يبرهن على عظمته ويبين ضعف البشر وعجزهم أمام قوته وجبروته⁴، قال الله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)⁵.

فمهما وصل الإنسان من قوة مادية ومعنوية، فهناك دائما قوة تضعفه وتخضعه لها، وهي قوة الخالق، ومهما أوتي من بلاغة وبيان، فهناك دائما بلاغة قرآنية تبهر أسماعهم وتجعلهم يحرون لها سجدا وبكيا. ومما لا شك فيه أنّ هذا المقصد هو من أعظم المقاصد التي أرادها الله من إعجاز كتابه الكريم.

4- أخذ العبرة والموعظة: وذلك في الإخبار عن الأمم البائدة، والأقوام الماضية، وما حدث لها من هلاك ودمار، وتوضيح الأسباب التي أدت بهم إلى ذلك لتكون عبرة لأولي الألباب، فهناك من العلماء من عدّ الإخبار عن الأمم السّابقة وجها من وجوه الإعجاز القرآني، كما سنوضح ذلك فيما سيأتي.

1 عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 84.

2 سورة البقرة: الآية 26.

3 عبد الكريم الخطيب: "الإعجاز في دراسات السابقين"، القاهرة، دار الفكر العربي، د ط، 1971م، ص 7.

4 ينظر: عمار ساسي: "المرجع السابق"، ص 87.

5 سورة الأنعام: الآية 18.

فهذه مجموعة من المقاصد التي أرادها الله من إعجاز كتابه الكريم، وغيرها كثير فكلما أمعنا النظر في إعجاز القرآن الكريم وجدنا مقاصد وأهدافا أرادها الله تعالى من ذلك الإعجاز، واكتفينا بهذه على سبيل المثال لا الحصر، فالإعجاز يمثل الكمال الرباني الذي من المستحيل أن تصل إليه الذات الإنسانية، فمهما ذكرنا من المقاصد والأهداف التي كان يرمي إليها الله سبحانه وتعالى من إعجاز القرآن إلا أن ذلك يبقى قيد التقصان والتقصير في حق كتاب الله تعالى لأن انقضاء الإعجاز يعني انطلاق أيادي التطاول على القرآن وفشل الدعوة ونهاية النبوة الخالدة وضلال البشرية وهلاكها.¹

وقبل أن نختم الكلام عن مقاصد الإعجاز القرآني لا بد من الإشارة إلى المقصد من جعل هذا الإعجاز مقتصرًا على الوجه البلاغي - كما يظن معظم العلماء -

فبعد الاستنباط والتتمعن ارتأينا أن المقصد من جعل القرآن الكريم مقتصرًا على الوجه البلاغي يكمن في الأمور الآتية:

- التّحدي وإثبات صدق الرسالة المحمدية: فقد اقتضت مشيئة الله عز وجل أن تكون معجزة محمد

صلى الله عليه وسلم معجزة بلاغية بيانية، وذلك لأنها نزلت قصدا في أمة عرفت بقوة بياها وروعة بلاغتها، فأراد الله تعالى أن يتحداهم ويقيم عليهم حجته القاطعة وبرهانه الساطع ببلاغة القرآن الكريم التي وقفوا منذهلين أمام روعتها وجمالها، فبعضهم أسلم وآمن، والبعض الآخر كفر وجحد علوا واستكبارا.

- تعليم الإنسان البيان: أكيد أنّ وراء إعجاز القرآن البياني هذا المقصد الهام الذي يكمن في تعليم

الإنسان البيان، والدليل على ذلك قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) ².

إذ بقراءة القرآن الكريم تستقيم ملكة الإنسان اللغوية، ويتعرف على خصائص البنية اللغوية العربية باعتبار القرآن الكريم هو لسان العربية وأصل بياها.

¹ ينظر: عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 86.

² سورة الرحمن: الآية 1-4.

3- الإعجاز البياني وسيلة لفهم أحكام الشريعة الإسلامية: فالله سبحانه وتعالى جعل لكل مقام

مقال، "فوراء كل آية من الآيات المحكمات حكم شرعي ووراء كل حكم مصلحة، ومع كل آية في القرآن الكريم مقام ومناسبة ومقتضى حال."¹

يستنتج من هذا أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لكل حكم شرعي مقامه المناسب وهذا هو "عين الإعجاز القرآني البياني، وهو أمر قد تعجز عنه قدرة البشر عبر الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها."² لكن هل بالفعل كان البيان هو وجه الإعجاز في القرآن الكريم، هذا ما سنوضحه في بيان أوجه الإعجاز القرآني.

¹ عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص98.

² المرجع نفسه، ص99.

ثالثاً: أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

إنّ القرآن الكريم هو المعجزة التي أيد الله بها نبيه وخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم، وضمن لها الاستمرار والخلود إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)¹. وبناء على هذا فقد أثبت سبحانه وتعالى في هذه المعجزة سرا إعجازيا تحدى به أولئك العرب خاصة والعالمين عامة، بل تعدى ذلك التحدي ولم يقتصر على الإنس وإنما تحدى حتى الجن، قال الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)².

هذا السر الإعجازي الذي عكف عليه العلماء منذ القدم -ق3هـ- إلى يومنا هذا باحثين ومنقبين فاختلقت آراؤهم حول الوجه الإعجازي للقرآن الكريم.

وقد لاحظنا أنّ قضية الإعجاز القرآني شغلت مساحة كبيرة في الفكر الإسلامي على مرّ العصور ولا تزال تشغله في عصرنا الحاضر، ولقد تدارسها كثير من العلماء كل حسب رأيه ووجهة نظره مع تدعيم ذلك بالحجة والبرهان، إذ أنّ معجزة القرآن الكريم تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته، فهي ظاهرة في نظمه ولغته، وأسلوبه وبلاغته، كما في إخباره عن قصص الأولين وهلاكهم وفي إنبائه بحوادث المستقبل وحكم التشريع وعلوم الكون وغيرها، فالقرآن الكريم كتاب الله العظيم، "فهو منبع العلوم ومنه تفجر أنهارها، أودع الله فيه شتى الفنون، وكل ذي فن يغرف ويستمد، وعليه يبني قواعد علمه ويعتمد."³

فإنّ للإعجاز القرآني في كل عصر وجه ينكشف للناس ودليل جديد على صدق معجزة محمد صلى الله عليه وسلم وحجة قاطعة على استمرارها، لذلك تعددت آراء العلماء المسلمين قداماً وهم ومحدثهم ومعاصريهم فيما يتعلق بالإعجاز القرآني، فقد فصّلوا في القضية وبيّنوا وأفاضوا القول عن ذلك، فبعضهم جعل الإعجاز القرآني في وجه واحد والبعض الآخر تعددت آراؤه وقدم أكثر من وجه.

¹ سورة الحجر: الآية 9.

² سورة الإسراء: الآية 88.

³ عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص 17.

ونظرا لإشكالية المسألة وتعقيدها ارتأينا أن نقف على أهم آراء العلماء البارزة حول أنواع الإعجاز القرآني لنصل في الأخير إلى الرأى الصواب والقول المشترك الذي اتفقت عليه تلك النخبة النيرة التي دقت في الدرس الإعجازي حتى توصلت إلى الوجه الإعجازي الذي وقع به التحدي الرباني.

أ_ أنواع الإعجاز القرآني:

شغلت قضية الإعجاز القرآني العلماء قديما وحديثا، وخصوصا فيما يتعلق بأنواعه ووجوهه، متسائلين عن الوجه الإعجازي للقرآن الكريم والذي تحدى الله به كفار قريش خصوصا في تلك الحقبة الزمنية والعالمين عموما على مرّ العصور واختلاف الأزمنة.

فجاءت دراساتهم في ذلك متعددة متشعبة، وآراؤهم بعضها متفق ومشارك وبعضها الآخر مختلف ومتباين، وسنذكر بعض أنواع الإعجاز القرآني على سبيل المثال لا الحصر، مركزين في ذلك على الوجه الإعجازي المتفق فيما بينهم.

1- الإعجاز بالصرف: وإن كان مردودا بالإجماع¹، فهناك من قال به وعده وجها من وجوه الإعجاز القرآني، خصوصا العلماء الأوائل كالنظام والرماني، وغيرهما من أهل المعتزلة عامة.

والمقصود بالصرف لغة: رد الشيء عن وجهه، صرفه يصرفه فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه، وقوله تعالى: (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَأُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)²، انصرفوا: أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه، وصرف الله قلوبهم أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم.

وصرفت الرجل عني فانصرف، والصرف أن تصرف إنسانا عن وجهه يريده إلى مصرف غير ذلك، وتصريف الرياح تحويلها من وجهه إلى وجهه، ومن حال إلى حال، وكذلك تصريف السيول والخيول والأموال والآيات.³

ينظر: سامي محمد هشام حريز: "نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا"، الأردن، عمان، دار الشروق للنشر

¹ والتوزيع، دط، 2006، ص31.

² سورة التوبة: الآية 127.

³ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب" مصدر سابق، ج8، ص228-229.

أما في الاصطلاح: فالمقصود بما "صرف الهمم عن المعارضة، أي أنّ الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن، وإن كان ذلك مقدورا لهم، لأنهم كانوا بلغاء بطبيعتهم، فصحاء بسليقتهم".¹ ويستنتج من فحوى هذا الكلام أنّ إعجاز القرآن ليس في روعة نظمه ولا في جمال بلاغته، ولا في سحر بيانه لأنهم يزعمون بأنّ هذه الأمور في مقدرة العرب الإتيان بمثلها، وإتّما إعجازه في صرف الله همم العرب عن مجارة القرآن الكريم بلاغة ونظما وبيانا.

وينسب قول إعجاز القرآن بالصّرفة بإجماع الدّارسين قديما وحديثا إلى شيخ المعتزلة إبراهيم النّظام (ت231هـ) بدليل قوله: "إن الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم".² يفهم من قول النّظام بأنّ القدرة على الإتيان بمثل القرآن أمر ممكن، ولكن الله صرف العرب عن ذلك. وهناك من الباحثين من أشار إلى شخصيات أخرى قالت بهذا الوجه في الإعجاز أمثال المرتضى وهو من الشّيعة قال: "معنى الصّرفة أن الله سلبهم العلوم... التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن".³

وأراد من ذلك أن يقول أنّ العرب البلغاء يقدرّون على مثل النظم والأسلوب القرآني⁴، لولا أنّ الله منعهم وصرّفهم عن ذلك.

كما عدّ الرماني (ت386هـ) الصّرفة أحد وجوه الإعجاز إذ يقول: "أما الصّرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز الذي يظهر منها للعقول".⁵

1 سامي محمد هشام حريز: "نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا"، مرجع سابق، ص32.

2 أبو الحسن الأشعري: "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" مرجع سابق، ج1، ص225.

3 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص144.

4 ينظر: المصدر نفسه، ص144.

5 الرماني: "النكت في إعجاز القرآن" مصدر سابق، ص110.

يظهر من قول الرّماني بأنّه لم يحصر الإعجاز كله في الصّرفة مثلما فعله أمثاله من علماء المعتزلة وإنّما اعتبر ذلك أحد وجوه الإعجاز التي حصرها في سبعة أوجه¹.

وبهذا يمكن القول بأنّ أبا إسحاق إبراهيم النظام "هو الذي بالغ في القول بالصّرفة حتى عرفت به."² وبمقولته هذه فتح الباب على مصراعيه أمام أقرانه ومن أتى بعده من علماء علم الكلام إلى البحث في الإعجاز إذ أنّ مقولة القول بالصّرفة "ثبتت أول نبت في رواق الفلسفة الكلامية، والنظام أول من جهر بها وأعلنها ودعا إليها ولاحي عنها كأنها مسألة من مسائل علم الكلام."³

فنظرية الصّرفة التي جهر بها النظام في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة كانت بمثابة الشرارة الأولى التي أثارت علماء الكلام للبحث بموضوعية ومنهجية في مسألة إعجاز القرآن الكريم، فأغلب الذين كتبوا بعد النظام في إعجاز القرآن جاءت كتاباتهم كرد فعل عنه وعن نظريته القائلة بالصّرفة محاولين في ذلك رفع الشبهة والدفاع عن القرآن الكريم.

وكان أول هؤلاء المعارضين لرأي النظام في قوله بالصّرفة تلميذه الجاحظ (ت255هـ) الذي عاب عنه ذلك وألف كتابا يناقضه فيه الرّأي سماه "بنظم القرآن"، غير أنّ الكتاب فقد كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ولم يصل منه إلاّ إشارات منثورة على ضوء مؤلفاته الأخرى، حيث يقول في كتابه خلق القرآن ضمن سلسلة رسائله: "فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه لحجة، وأنه تنزيل وليس برهان ولا دلالة."⁴ فعلى الرّغم من أنّ الجاحظ كان من أشد العلماء المتمسكين بالمذهب الاعتزالي بيد أنّه رفض نظرية الصّرفة التي قال بها شيخه النظام، ورأى بأنّ إعجاز القرآن يكمن في نظمه وبيانه وبلاغته وقد كشف عن

1 ينظر: المصدر نفسه، ص109.

2 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص145.

3 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص28.

4 الجاحظ: "رسائل الجاحظ - خلق القرآن -"، مصدر سابق، ص337.

ذلك في عدة مواضع من مؤلفاته أشهرها "البيان والتبيين" فهو يرى بأنّ "نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج".¹

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ الجاحظ أول من قال بالإعجاز البياني - ولنا مع ذلك وقفة فيما سيأتي ذكره - متصديا في ذلك للفكر النظامي القائل بالصّرفة، ومع ذلك وجدنا له بعض الآراء يلمّح فيها الإعجاز بالصّرفة، يقول: "ومثل ذلك ما رفع أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه".²

يستنتج من هذا أنّ الجاحظ كان مضطربا في آرائه فتارة يقول بالإعجاز بالنّظم، وتارة أخرى يقول بالإعجاز بالصّرفة "وإن كان قد أخفاها وأوماً إليها عن عرض".³

ومع ذلك فإنّ الجاحظ في قوله بالإعجاز بالصّرفة لم يكن قولاً صريحاً واضحاً وإنما جعل ذلك الصّرف والمنع ناتجاً عن التّحدي الرّباني بنظم القرآن، فرأيه لم يكن مثل رأي أستاذه النظام في القول بالصّرفة عامة، وجعلها الوجه الأساسي للإعجاز القرآني، وهذا ما أكده فضل إحسان عباس في قوله: "بأن مقولة الجاحظ في أن القرآن معجز من حيث الصّرفة... تختلف كثيراً عن تلك التي ذكرها أستاذه النظام من قبل، ولذا فهو يرد عليه في كتابه نظم القرآن فأساس نظرية الإعجاز، وعمود القول فيه بلاغته أولاً، أما القول بالصّرفة فإنما تأتي في المرتبة الثانية، فهو دليل يضاف إلى دليل عجز العرب عن محاكاة القرآن في أسلوبه ونظمه".⁴

وبهذا لا يمكن لأحد أن ينكر فضل الجاحظ في تصديده لرأي شيخه النظام القائل بالصّرفة. ولم يقتصر هذا التصدي على الجاحظ بل قامت طائفة كبيرة من علماء المسلمين معتزلة وسنة في وجه الفكر النّظامي رافضة قوله في الإعجاز بالصّرفة، ومن هؤلاء: الإمام الخطابي (ت388هـ) الذي يرى بأن

1 الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج1، ص383.

2 الجاحظ: "الحيوان"، مصدر سابق، ج4، ص31.

3 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص147.

4 فضل إحسان عباس وسناء فضل عباس: "إعجاز القرآن الكريم"، ص40.

إعجاز القرآن يعود إلى بلاغته وينكر الرأي القائل بالصرفة، يقوله: "وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة... والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة."¹

ويشاطره الرأي الإمام الباقلاني (ت403هـ) الذي رفض هو بدوره فكرة القول بالإعجاز بالصرفة ويرى أن هذا زعم باطل، وإنما إعجازه في نظمه البديع وبلاغته الفريدة العجيبة ويرد على زعمهم الباطل بقوله: "فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلا قلت: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادرا، وإنما يصرفه الله عنه ضربا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربا من المنع أو تقتصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراه الله من الدلالة ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى... على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه، ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه كان أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاهم لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنه لم يتحدوا إليه ولم تلزمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان."²

فقد أنكر الباقلاني الرأي القائل بالإعجاز بالصرفة وأبطله بطلانا نهائيا، مرجعا في ذلك الإعجاز إلى نظم القرآن وبلاغته.

ونفس الأمر ذهب إليه إمام الإعجاز وشيخ البلاغة القرآنية عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في رفضه لمذهب الصرفة إذ أفرد فصلا كاملا في رسالته الشافية خصصه للرد على القائلين بالصرفة وإبطال زعمهم هذا، إذ يقول: "اعلم أن الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه

1 الخطابي: "بيان إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص22-23.

2 الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص41-42.

على توهم أن التحدي كان إلى أن يعبر عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أطلق لهم وخيروا في المعاني كلها.¹

فعبد القاهر الجرجاني يرى بأنّ الرأي القائل بإعجاز القرآن بالصّرفة مححف في حق القرآن "لأن عذر القائل بالصّرفة أن كلامهم قبل أن تحدوا قد كان مثل نظم القرآن وموازيا له، وفي مبلغه من الفصاحة."² ومعنى هذا الكلام أنّ العرب قبل وقوع التّحدي كانوا قادرين على الإتيان بمثل نظم القرآن وبلاغته لولا أنّ الله منعهم من ذلك وسلبهم جودة اللفظ وشرف المعنى التي كانوا يتمتعون بها. وهذا ما أنكره عبد القاهر الجرجاني وقال عنه بأنه (قول في غاية البعد والتهافت)³. هذه مجموعة من آراء القدامى في إبطالهم لمذهب الصّرفة الذي جاء به أهل الفكر الاعتزالي النّظامي. وكما كان للقدامى دور في إنكار مذهب الصّرفة، كان للمحدثين والمعاصرين وأولي الاهتمام بالدّرس الإعجازي في العصر الحديث والمعاصر دور في ذلك، وارتأينا لضيق المقام أن نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر، لأنّ جميع العلماء الذين كانت لهم بصمة في الدّرس الإعجازي في العصر الحديث أنكروا الرّأي القائل بالإعجاز بالصّرفة.

ومن هؤلاء المعارضين لمذهب الصّرفة في العصر الحديث والمعاصر العلامة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي (ت1434هـ-2013م) إذ أشار في القسم الثاني من كتابه: "من روائع القرآن" إلى وجوه الإعجاز في القرآن الكريم مبطلا بذلك الوجه القائل بالصّرفة، ويقول في ذلك "ومما يبطّل ما ذكره من القول بالصّرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة- وإنما منع منها الصّرفة- لم يكن الكلام معجزا وإّما يكون المنع هو المعجز."⁴

¹ عبد القاهر الجرجاني: "الرّسالة الشّافية"، مصدر سابق، ص146.

² المصدر نفسه: ص147.

³ المصدر نفسه: ص149.

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي: "من روائع القرآن"، مرجع سابق، ص125-126.

وقال أيضا: "وإن أيسر ما يوضح فساد تفسير إعجاز القرآن بالصرفة، أن الواقع قد خالف ذلك، فلم يصرف الناس في الحقيقة عن الإقبال إلى تقليده ومجاراته، بل قام في التاريخ من حاول أن يعارض، وعارض وأتى بكلام زعم أنه قد حاكى به كلام الله عز وجل ولكنه جاء مردولا سمجا لا قيمة له."¹

وقبل أن نختتم الحديث عن مذهب الصّرفة وإنكاره من قبل العلماء قديما وحديثا، لا بد من الإشارة إلى شيء مهم، وهو أنّه على الرغم من بطلان هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني إلا أنّه له الفضل في نشأة الدّرس الإعجازي، فمقولة إبراهيم النّظام كان محاولة بسيطة فتحت باب البحث أمام من أتوا من بعده إلى الدّراسة والتّنقيب في كتاب الله عز وجل مهتدين في ذلك إلى بيان أسرار بلاغته وجمال نظمه وبديع بيانه.

2- الإعجاز الغيبي: ويسمى أيضا بالإعجاز الخبري وذلك لإخبار القرآن الكريم عن أمور غيبية مستقبلية.²

فمن دلائل إعجاز القرآن الباهرة إخبار الله تعالى في مواضع عديدة من كتابه الكريم عن أمور مستقبلية وإنباؤه قبل وقوعها.

وأول من أشار إلى هذا النوع من الإعجاز - حسب ما جاء في الكتب - هو إبراهيم النّظام الذي رأى بأنّ وجه الإعجاز "لما فيه من الإخبار عن الغيوب."³

كما قال بذلك الرّماني (ت386هـ)، إذ جعل الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية أحد وجوه الإعجاز.⁴

ونفس الأمر قال به الإمام الباقلاني (ت403هـ) في حديثه عن وجوه الإعجاز التي عدّها في ثلاثة أوجه، فقال بأنّ "أحدها: يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم

1. المصدر نفسه، ص126.

2 2 ينظر: عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص18.

3 عبد القاهر البغدادي: "الفرق بين الفرق"، مصدر سابق، ص129.

4 ينظر: الرماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص75.

إليه"¹. ومثل لذلك بقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)².

فهذه الآية الكريمة إخبار من الله تعالى بأن النصر حليف المسلمين وأن الله سيظهر دينه، وكان الصحابة رضي الله عنهم يستبشرون بهذا الوعد الرباني.³

ومواضع الإخبار عن الغيوب كثيرة في القرآن الكريم من بينها قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...)⁴

فقد وعد الله عباده الصالحين بالاستخلاف والتّمكين في الأرض، ويقصد عز وجل بعباده الصالحين، أمة الإسلام، هذه الأمة التي صدقها الله وعدّها فحظيت في سالف عهدّها بالتّمكين الحضاري الذي تقلبت في نعمه ونعيمه، فتمّ وعد الله حقاً، ومن أصدّق من الله قبيلاً، وإنّا لنأمل على يقين بأنّ الحضارة الإسلامية التي حظيت بالتّمكين في الأرض، لهي الحضارة نفسها التي ستحظى به مرة أخرى في رحلة إياب وتتوج بتاج الإسلام، فإنّ الله عز وجل لن يرث الأرض، ويفني ما عليها، قبل أن يمكن دينه الحق فيها ويستخلف عباده الصّالحين أرضه ويجعلهم شهداء على العالمين، وهذه سنة الله التي قضاهها في أمة الإسلام ووعدّه الذي وعد به عباده الصّالحين.

وبناء على هذا يمكن القول بأنّ التّمكين الحضاري الذي وعدّه الله به عباده الصّالحين، يعد سرا من الأسرار الغيبية للإعجاز القرآني.

ولم يقتصر الإعجاز الخبري على الإخبار بالأمر المستقبلية، وإنما يظهر كذلك هذا الوجه من الإعجاز في إخبار الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن أخبار الأمم السّالفة وقصص الأمم البائدة والقرون

1 الباقلائي: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص48.

2 سورة التوبة: الآية 33.

3 ينظر: الباقلائي: "المصدر السابق"، ص48.

4 سورة النور: الآية 55.

الماضية، وأخبار قصص الأنبياء مع أقوامهم¹، وما أكثر ذلك في القرآن الكريم، إذ نجد أنّ معظم النصوص القرآنية عبارة عن قصص، وذلك لتكون عبرة وموعظة للأمة الإسلامية تستقي منها كوثر التجربة، قال الله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)². "وقد حث ربّ العزة عز وجل على الاعتبار بآثار الأمم السابقة وأحوالهم، فذكر في كتابه الكريم كثيرا من أخبار الأنبياء والأمم والملوك الذين أخذت قصصهم شريحة كبيرة من آيات القرآن الكريم، مما يدل على الأهمية الكبيرة والأثر العظيم لهذا القصص، وهذه الأخبار."³

وإن كان بعض العلماء قد قالوا بهذا النوع من الإعجاز وعدوه وجها من وجوهه، فإنّ البعض أنكر ذلك محتجين في ذلك بأنّ هذا النوع من الإعجاز ليس الوجه العام الذي يتحقق في كل سورة فتقع به المعاجزة.⁴

معنى هذا أنّ الإخبار عن الغيوب المستقبلية أو الأخبار الماضية لم يرد في جميع مواضع القرآن الكريم حتى يقع به الإعجاز والتّحدي، وإثما ورد في بعض المواضع فقط، وعلى هذا لا يمكن عدّه وجها أساسيا للإعجاز القرآني، يقول القاضي عبد الجبار: "فأما من قال إنه صلى الله عليه وسلم إنما تحدى بالقرآن من حيث تضمن الإخبار عن الغيوب، فبعيد لأنه قد تحدى بمثل كل سورة من غير تخصيص، ولا يتضمن كل ذلك الإخبار عن الغيوب، ولأننا تعلم أنه تحدى بجملته لا ببعضه."⁵

يلاحظ من قول القاضي عبد الجبار أنّه رفض هذا الوجه من الإعجاز وأنكره لأنّه خاص ببعض المواضع في القرآن الكريم، بينما التحدي والإعجاز كان حاصلًا بمجمل القرآن الكريم.

¹ ينظر: عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز" مرجع سابق، ص 20.

² سورة هود: الآية 48.

³ إبراهيم محمد العلي: "الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية، ط 1، 1416هـ - 1995م، ص 7.

⁴ عائشة بنت الشاطيء: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص 92.

⁵ القاضي عبد الجبار: "المغني في أبواب التوحيد و العدل"، مصدر سابق، ج 16، ص 20.

3- الإعجاز التشريعي: "والمراد ما جاء به القرآن من هدى وإرشاد لكل ما يحتاجه الإنسان في جميع الميادين والأحوال."¹

فلقد تضمن القرآن الكريم تشريعات وأحكام ومناهج ومبادئ، شملت كافة مجالات الحياة، سواء في جانب العقيدة أو العبادات أو المعاملات أو النظم السياسية والاجتماعية.

والذين يقولون بهذا النوع من الإعجاز يرون بأن القرآن الكريم معجزة تشريعية جاء بها الله سبحانه وتعالى وبعث بها محمد صلى الله عليه وسلم لهداية البشرية وإخراجها من دياجير الظلمات إلى بريق الأنوار، يقول عز وجل: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ)²

فالله سبحانه وتعالى شرع لعباده في كتابه الحكيم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم يقول تعالى: (ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)³

ومن هنا تظهر حقيقة الإعجاز في الوجه التشريعي، إذ لا يمكن لأي من البشر الإتيان بمثل تشريعات القرآن وقوانينه التي سنّها الخالق عزّ وجلّ بخلقه في جميع شؤون حياتهم وجوانبها مما يكفل لهم تحقيق السعادة والخير في دنياهم وأخراهم، يقول في هذا الصدد محمد سعيد رمضان البوطي: إذا كانت المؤتمرات الفقهية الحديثة تجتمع من جميع أركان العالم في هذا العصر، فتقر بعظمة التشريع الإسلامي الذي يرجع إلى ما قبل أربعة عشر قرناً، وبأن النبي أمي، وبأن الأمة التي وجد فيها كانت بدوية تحتكم إلى الأعراف السائدة فأنت تدرك أن التشريع القرآني من أجل مظهر الإعجاز في هذا الكتاب العظيم.⁴

إذن: يرى محمد سعيد رمضان البوطي أنّ الإعجاز التشريعي من أهم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وذلك لما فيه من الأحكام والأنظمة التي سخرها الله تعالى لتحقيق مصالح عباده في كل زمان ومكان.

1 عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص 18.

2 سورة الإسراء: الآية 9.

3 سورة الأنعام: الآية 38.

4 ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي: "من روائع القرآن"، مرجع سابق، ص 154.

ومما يظهر حقيقة الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، هو تلكم الخصائص والأحكام التي يتميز بها التشريع الرباني، وتلك المقاصد التي يهدف إلى تحقيقها من خلال دفع المفسدة عن العباد وجلب المصلحة لهم، وهذا ما لم تستطع أن ترقى إليه التشريعات الوضعية لأنها من صنع البشر.

وعلى هذا الأساس ذهب بعض العلماء إلى القول بالإعجاز التشريعي، وأن أحكام القرآن الكريم وتشريعاته هي التي أدهشت العرب وأعجزتهم لأنهم وجدوا أنفسهم أمام تشريع كامل، ويعود ذلك ببساطة إلى أن التشريع هو وحي رب السماء.¹

ولم يكن هذا الوجه من الإعجاز موضع خلاف بين العلماء لأنهم "لم يستطيعوا فصل الأحكام والقيم والمثل القرآنية، عن النظم البليغ المعجز الذي نزلت به".²

بل إنَّ البيان القرآني هو الوسيلة الأساسية لفهم هذه الأحكام والنظم الشرعية، "ف وراء كل آية من الآيات المحكمات حكم شرعي ووراء كل حكم مصلحة، ومع كل آية في القرآن الكريم مقام ومناسبة ومقتضى حال".³

ومع ذلك نجد أن الإمام الخطابي التفت إلى هذا الأمر وقال بأنه "ليس بالأمر العام في كل سورة من سور القرآن الكريم، وقد كانت المعاجزة بسورة واحدة، ومعلوم بالضرورة أن سورة واحدة لا تجمع كل ما ذكره من أحكام القرآن ومعانيه ومثله وآدابه".⁴

والواضح من هذا الكلام أن الإمام الخطابي أراد أن يلتفت إلى شيء مهم وهو أن إعجاز القرآن يكمن في بلاغته المعجزة، فالله سبحانه وتعالى تحدى أرباب البلاغة بأن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن في بلاغتها وبيانها وليس في أحكامها وتشريعاتها.

4- الإعجاز العلمي: ويقصد به "ما ورد في القرآن من إشارات ودلالات على ما تم اكتشافه من حقائق

¹ ينظر المرجع نفسه، ص 154

² عائشة عبد الرحمن: "الإعجاز البياني للقرآن"، مرجع سابق، ص 90.

³ عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 98.

⁴ الخطابي: "بيان إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص 27.

علمية ونتائج مخبرية في الآفاق وفي الأنفس.¹

ولم يشسر لهذا لنوع من الإعجاز أيّ أحد من العلماء القدامى، وإثماً نجد أنّ أولى الإشارات كانت مع بداية القرن الرابع عشر الهجري، عندما ظهرت الثورة الصناعية وشهد العالم تقدماً وتطوراً علمياً، خصوصاً على مستوى العلوم التجريبية والكونية.²

فقد توجه كثير من العلماء المحدثين إلى استخراج الدّرر العلمية المكنونة في أسرار القرآن الكريم ليثبتوا لهؤلاء المخترعين أنّ اختراعاتهم هذه التي توصلوا إليها عن طريق علمهم الحديث، سبق وأن أشار إليها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

ومن العلماء الذين قالوا بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مصطفى الصادق الرافي (ت1350هـ-1937 م) إذ يقول: "وقد استخراج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية... ولعل متحققاً بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ولا يلتوي عليه أمر من أمره... لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من إنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها."³

ويلاحظ بأنّ القرآن ذاته يشير إلى هذا الجانب العلمي يقول الله تعالى: (سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)⁴.

فالقرآن الكريم - كما يقول محمد عبد العظيم الزرقاني - "حض على معرفة علوم الكون وصنائع العالم، وحث على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرها في الوجود."⁵

يقول تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)⁶.

1 عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص20.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص20.

3 مصطفى صادق الرافي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص127-128.

4 سورة فصلت: الآية 53.

5 محمد الزرقاني: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، مرجع سابق، ج1، ص29.

6 سورة الجاثية: الآية 13.

ويقول أيضا عز وجل: (قُلْ انظُرُوا ماذا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)¹.

فقد وجه الله تعالى خطاب التكليف هذا إلى ضرورة النظر في السماوات والأرض واكتشاف قوانين التسخير الكوني.

وعلى هذا الأساس "فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفروا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهّدوا في علم الكون."²

والمتدبر في القرآن الكريم يجد الكثير من النظريات العلمية التي طرحها العلم الحديث كشكل الأرض، وأسرار البحار، وعلم الجبال (الجيولوجيا الحديثة) وعلم النبات، وعلم الطب، ومراحل خلق الإنسان وغيرها من العلوم، فكل علم من العلوم الحديثة إلا ونجد الله سبحانه وتعالى أشار إليه في كتابه الكريم. وأردنا في هذا المقام أن نعقد مقارنة بين ما توصل إليه العلم الحديث من نظريات حول خلق الإنسان وبين ما أقر به القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)³.

فمع بداية القرن العشرين وبتطور الوسائل الطبية، توصل الطب الحديث إلى اكتشاف مراحل تكوين الجنين منذ أن يكون نطفة إلى أن يصبح مخلوقا ويخرج إلى هذا الوجود وهي:

1-نطفة 2-علقة 3-مضغة 4-عظاما 5-لحما 6-خلقا آخر.

فهذه المراحل التي أشار إليها الطب الحديث في تكوين الجنين تتوافق مع التقسيم الذي أشار إليه الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة، غير أنّ الطب الحديث يبقى عاجزا أمام عظمة القرآن الكريم، فالإعجاز الطبّي في القرآن يضيف مرحلة سابعة وهي أصل الخلق الإنساني، وهي عندما يكون هذا الإنسان طينا. 1-طينا 2-نطفة 3-علقة 4-مضغة 5-عظاما 6-لحما 7-خلقا آخر.

¹ سورة يونس: الآية 101.

² محمد الزرقاني: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، مرجع سابق، ج1، ص29.

³ سورة المؤمنون: الآية 12-14.

هذه المرحلة التي أغفلها الطب الحديث ولا يمكنه أن يصل إليها مهما وصلت به درجة العقل، لأنها سر من الأسرار الإعجازية التي تفرد بها رب البرية، فقد حسم القرآن الكريم قضية خلق الإنسان من سلالة من طين، في حين عجز الطب الحديث عن إثبات ذلك.¹

والمتتبع لمراحل خلق الإنسان كما عرضت في الآية الكريمة يرى بأن القرآن الكريم "في طريقة عرضه هذه كان موفقا كل التوفيق، بل كان معجزا أبهر الإعجاز."²

وهذه الحقائق العلمية التي أقرها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا وتوافقها مع الاكتشافات العلمية الحديثة لدليل قاطع على إعجاز القرآن الكريم، ومما يثبت ذلك "أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أُمي نشأ في أمة أمية جاهلة، لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها، ولا إلمام لها بكتبتها ومباحثها... فأني يكون لرجل أُمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم."³

ويقرر الله سبحانه وتعالى بحقيقة الإعجاز العلمي إذ يقول جلّ في علاه: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْتَلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)⁴.

ومن خلال هذا يستنتج بأن الحقائق العلمية المبنوثة في القرآن الكريم وسيلة يدرك من خلالها سر الإعجاز القرآني ويصير من خلالها نور الحق الإلهي.

وخلاصة حديثنا عن الإعجاز العلمي، هو أنّ القرن الرابع عشر هجري كان من أخصب العصور في معالجة هذا النوع من الإعجاز وذلك نتيجة تأثر المسلمين بالعلم المادي الحديث الذي ابتكرته الحضارة الأوروبية المادية، فأرادوا من خلال ذلك أن يثبتوا للغرب أن علمهم هذا واختراعاتهم التي توصلوا إليها، قد سبقهم إليها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، بالإضافة إلى أنّ علومهم هذه تبقى علوما وضعية

1 ينظر: فهد خليل زايد: "الإعجاز العلمي والبياني في القرآن الكريم"، الأردن، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط1، 1428هـ-2008م، ص94.

2 محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ج 1، ص30.

3 المرجع نفسه: ج1، ص30.

4 سورة العنكبوت: الآية 48-49.

ناقصة لأنها من صنع البشر بينما العلوم القرآنية هي علوم مكتملة لا يمكن لأي من البشر أن يرقى إلى درجتها مهما بلغ من العلم، لأنها من صنع الله تعالى، وهذا هو سر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

5- الإعجاز الحضاري: إنّ من خصائص هذا الدين الرباني ومقوماته الذاتية أنّه ينطوي على جميع عناصر الإحياء والنّهضة، هذه المقومات التي تمثل الثابت في تاريخ الأمة الإسلامية، لا تتغير لا بزمان ولا بمكان.

فقد بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أمة عربية، عرفت ببدونها وبساطة عيشها، وكلفه بتبليغ آخر رسائل السماء إلى الأرض، ليخرج هؤلاء العرب من دياجير الجهل والكفر إلى نور الهداية والحق. ومنذ ظهور المعجزة القرآنية بدأت تتشكل معالم الحضارة العربية الإسلامية، فقد شكلت كلمة أقرأ صدمة حضارية للعرب، هذه الكلمة التي بدأ إشعاعها في غار حراء بواد غير ذي زرع إلى أن عمّ أرجاء المعمورة وشيد على الأرض حضارة الإنسانية جمعاء.

ومن هذا المنطلق يظهر هذا النوع من الإعجاز القرآني، فعلى الرغم من أنّ العلماء لم يشيروا إلى هذا النوع من الإعجاز إلا أنّ "الإعجاز الحضاري هو الإعجاز الأعظم للقرآن الكريم، فلا نعلم كتابا صنع حضارة فوق الصحراء امتدت إلى شتى أرجاء العالم وأوجد أمة من عدم غير القرآن الكريم".¹

فالقرآن الكريم ليس كتاب عبادة فقط، بل هو كتاب يضم خير الدين والدنيا، يقول بديع الزمان النورسي معرّفا القرآن الكريم: "فإن قلت القرآن ما هو؟ قيل لك... هو مربّب للعالم الإنساني، وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية... وهو المرشد المهدي إلى ما خلق البشر له... وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية هو كتاب أمر ودعوة، وكما هو كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر".²

¹ www.nasri.net محمد رفعت زنجير: "الإعجاز الحضاري في القرآن الكريم"، مقال نشرته: دار ناشري للنشر الإلكتروني، 23 أبريل 2009م.

² بديع الزمان النورسي: "رسائل النور- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، تحقيق: إحسان قاسم الصالح، د ب ن، د ط، د ت، ص 22-

وأكد أنّ الإنسان العربي قبل نزول القرآن ليس هو بعد نزوله، فبمجرد سماع أولى آيات الذكر الحكيم لأن قلبه انجذب نحو سحر بيانه، وإن لم يبد ذلك في البداية وعاند استكباراً وطغياناً، لكن مهما طال عناده خضع أمام روعة القرآن وأسلم لربه سبحانه وتعالى، وصار يعرف مهمته في هذا الوجود، وأنّه خليفة الله في أرضه، قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)¹.

فوجد نفسه أمام مسؤولية عظمى أبت السماوات والأرض حمالها وطأطأت الجبال رؤوسها استحياء من ثقلها، قال الله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)²

فقد حمل الإنسان المسلم هذه الأمانة، فاستخلف الله في أرضه أحسن استخلاف وشيّد على الأرض أعظم حضارة عرفها التاريخ البشري، وهي الحضارة العربية الإسلامية، حضارة دستورها القرآن وقائدها خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن الكريم كتاب متكامل فهو "نور في الفكر، وكمال في النفس ونظافة في الجسم، وصلاح في العمل، ونظام يرفض الفوضى، ونشاط يجارب الكسل، وحياء مواراة في كل ميدان."³

أليست هذه معجزة كبرى للقرآن الكريم؟، فالقرآن المعجز صنع أمة المعجزات ولولا هذه الأمة القرآنية لما وصل العالم اليوم إلى ما وصل إليه من تقدم علمي، فالأمة العربية الإسلامية هي الأمة التي نعتها الحق تبارك وتعالى بقوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)⁴. كما أنّه جعل لهذه الأمة قيماً ثابتة لا تتغير لا بزمان ولا بمكان، ومن القيم الحضارية التي جاء بها القرآن الكريم:

– **الإيمان بالله**: مما لاشك فيه أنّ الإيمان بالله هو أول المقومات التي صنعت بها الأمة الإسلامية مجد حضارتها، والحضارة الإسلامية التي عمّ نورها ربوع الأرض راجع لإشراق نفوسها بالإيمان بالله.

¹ سورة البقرة: الآية 30.

² سورة الأحزاب: الآية 72.

³ محمد الغزالي: "جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج"، القاهرة، نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2005م، ص3.

⁴ سورة آل عمران: الآية 110.

- العلم: فالعلم هو مفتاح الحضارة، ووسيلة بنائها، وهو أول ما نزل من وحي السماء على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ¹.

ومن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قرونًا طوالًا تحمل للعالم حضارة جديدة وتقود للتمدن والرفي. ²

فالحضارة العربية الإسلامية هي التي حملت مشعل العلم للبشرية، "فليس من المغالاة في شيء أن نقول إن جميع ما أنتجه العقل الإسلامي طيلة عهود الحضارة الإسلامية يرجع أساسًا إلى القرآن الكريم." ³

- العمل الصالح: العمل قيمة من القيم الحضارية التي حرصت عليها الأمة الإسلامية في بناء حضارتها، وقد حث الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع في كتابه الكريم على العمل الصالح، قال تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ⁴.

فالعمل قيمة من القيم الحضارية العظمى، إذ مهما بلغت الأمم من موارد ومهما توفر لها من الإمكان لا تستطيع أن تنجز حضارة إذا لم تكن لأفرادها إرادة تعشق الإنجاز العملي.

- العمران: وهو عمارة الأرض بالعمل الصالح، قال الله تعالى: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) ⁵ فقد سخر الله الأرض للإنسان وجعله خليفته فيها وأمر بعمارها، هذا ما فقهه الرعيل الأول من المسلمين فشيّد على هذه الأرض حضارة إنسانية خدمت البشرية لقرون عديدة.

- الشمولية: فالقرآن الكريم كتاب شامل جمع بين العقيدة والعمل الصالح لكل زمان ومكان، قال تعالى: (

1 سورة العلق: الآية 1-5.

2 مالك بن نبي: "شروط النهضة"، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصابور شاهين، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط6، 1427هـ-2006م، ص

3 بغداد بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص181.

4 سورة التوبة: الآية 105.

5 سورة هود: الآية 61.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ¹ .
والشمولية في القرآن عنصر ثقة واطمئنان تركز إليه النفوس، فهي بؤرة تستنهض الطاقات الدفينة في بناء صروح الحضارة، فالقرآن الكريم "شمول يستوعب الزمن كله، ويستوعب كيان الإنسان كله."²
-الأمن: يقول الله تعالى: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)³ .

إذ لا يمكن لحضارة على وجه الأرض أن تعيش دون أن تستقر وتطمئن، وهذا ما حققه القرآن الكريم للحضارة الإسلامية فعاشت حياة آمنة مطمئنة.
-النظام السياسي: ومن الأنظمة السياسية:

*الحاكمية لله تعالى: أي أن مرجعية الحكم لله تعالى: (إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)⁴ .

*العدل والمساواة: العدل قاعدة شرعية، تقاس عليها كل علاقة بين الناس، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)⁵ .

*الشورى: هي عمود النظام السياسي للأمة الإسلامية، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)⁶

وقد ذكرنا هذه القيم على سبيل المثال لا الحصر، فإن القرآن الكريم يحمل الكثير من المقومات الحضارية والسبب التي تساعد على النهوض بالأمم، يوائن احتواء هذا القرآن على هذه القيم بشكل أساسي هو إنجاز

1 سورة الأنعام: الآية 38.

2 سليمان الخطيب: "أسس مفهوم الحضارة في الإسلام"، الجزائر، بن عكنون، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، دت، ص 137.

3 سورة قريش: الآية 4-5.

4 سورة يوسف: الآية 40.

5 سورة النساء: الآية 58.

6 سورة الشورى: الآية 38.

معجز لحد ذاته.¹

وإنّ هذه القيم لا تزال ثابتة، فالقرآن رسالة حضارية لكل البشر في القديم والحديث، فهو خطاب أزلي، فهذه القيم التي صنعت حضارة الأمم هي نفسها التي ستصنع حضارة الغد، يقول النورسي: "لأبرهن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها."²

ومعلوم أنّ الأمة الإسلامية أمام مسؤولية عظيمة، وهي مهمة الشهود الحضاري لقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).³

وإنّ لهذه المكانة التي منحها الله تعالى للأمة الإسلامية لمكانة عالية حقاً، بيد أنّها لا تقوم على الإدعاء بل على البلاغ ولا تقوم على البطالة والحمول بل على التضحية والجهاد، وتكمل المشوار الذي بدأه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتسير على خطاه، لتكون بالفعل رسالة عالمية صالحة لكل زمان ومكان.

ومن الأدلة والبراهين التي تثبت تأثير القرآن الحضاري في الإنسانية تأثيره في قيام الحضارة الأوروبية الحديثة⁴، وذلك بشهادة شاهد من أهلها، فالمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة تبين فضل الإسلام في قيام الحضارة الأوروبية، وتصرح بذلك في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب"⁵ قائلة: "لقد كان لظهور الإسلام وتوسعه عاملاً أنقذ الكنيسة من الانحدار، وأرغمها على إعداد نفسها لمواجهة تلك القوى المعادية دينياً، وفكرياً، ومادياً، ولعل أكبر دليل على هذا هو أن الغرب بقي في تأخره ثقافياً واقتصادياً طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام، ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً..."⁶

¹ ينظر: www.nashiri.net: محمد رفعت زنجير: "الإعجاز الحضاري في القرآن الكريم"، مصدر سابق.

² بديع الزمان النورسي: "كليات رسائل النور- الإيمان وتكامل الإنسان"، مرجع سابق، ص7.

³ سورة البقرة: الآية 143.

⁴ ينظر: بغداددي بلقاسم: "المعجزة القرآنية" مرجع سابق، ص177.

⁵ الكتاب أصل عنوانه شمس الله تسطع على الغرب، لكن عندما ترجم إلى اللغة العربية عنون بشمس العرب تسطع على الغرب.

زيغريد هونكة: "شمس العرب تسطع على الغرب"، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى

⁶ الخوري، بيروت، دار الجيل، ط8، 1418هـ-1993م، ص341

ومن بين الشّهادات التي قيلت عن فضل القرآن على النّهضة الأوربية شهادة المستشرق الألماني "دوتش" الذي قال: "لقد كان القرآن هو الحافز الذي دفع المسلمين إلى أوروبا ليكونوا بها سادة وملوكا، وليرفعوا منار الإنسانية في وقت كان الظلام مسيطرا في كل اتجاه، وبدافع القرآن رفع المسلمون لواء الحكمة، وخدموا العلم والمعرفة، وعلموا الفلسفة والطب والفلك وفن البناء في أسمى صوره إلى الغرب والشرق على السواء مما أتاح لنا أن نصل إلى النهضة العلمية الحديثة."¹

لقد كان القرآن الكريم الحافز الأكبر في صنع أوروبا لحضارتها، وهذا بشهادة أهلها فأين المسلمون من قرآهم الكريم؟ حتى يعودوا لموقعهم الحضاري بين الأمم؟
"إن المضمون الإلهي للقرآن الكريم هو المسؤول عن النهوض بالإنسان وهدايته إلى معرفة الخلق، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر."²

فالقرآن الكريم يحمل للأمة الإسلامية أعظم تربية حضارية سواء من خلال ذكره لمعالم الحضارة وأسسها، أو من خلال أسلوبه القصصي في ذكره لحضارات الأمم السابقة وعوامل نهوضها وأسباب سقوطها، وذلك لأخذ العبرة والموعظة، وكأن القرآن الكريم مدرسة حضارية تأخذ منها الأمة الإسلامية دروسها لتستأنف دورها الحضاري الذي أصبحت غائبة عنه لمدة طويلة يقول سوسه: "إن معجزة القرآن الكريم هي أكثر بروزا في عصرنا الحالي، عصر النور والعلم، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخرمول."³

وبهذا يكون للإعجاز الحضاري وجه في القرآن الكريم، وإن أغفل عنه العلماء والدارسون، ولم يولوه عناية مثلما اهتموا بوجوه الإعجاز الأخرى.

6- الإعجاز التّأثيري: ويسميه آخرون بالإعجاز التّفسي، "وهو عائد إلى ما للقرآن العظيم من سلطان وتأثير على القلوب وهيبة وجلال في النفوس."⁴

1 بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 187

2 النورسي: "إشارات الإعجاز"، مرجع سابق ص 100.

3 المرجع نفسه ص 280.

4 عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص 21.

فالإعجاز التأثيري يظهر من خلال أثر القرآن الكريم في نفوس مستمعيه ومن لذة وحلاوة وجمال تستسيغه، قال الله تعالى: (وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)¹

ويقول أيضا عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)².

وقد أشار إلى هذا النوع من الإعجاز عدد من العلماء وإن اختلفت التسمية بين الإعجاز التأثيري، والتفسي، والروحي، والقلبي، والدوقي، وكلها تصب في مضمون واحد، غير أن التسمية الأقرب إلى الصواب هي الإعجاز التأثيري.³

وكان أول من أشار إلى هذا الوجه من الإعجاز أبو سليمان الخطابي (ت388هـ) ونصّ على ذلك بقوله: "قلت في إعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك حيفة بالقلوب، وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن، منظوما ولا منشورا، إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحل بين النفس وبين مضمراها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا."⁴

¹ سورة الإسراء: الآية 82.

² سورة يونس: الآية 57.

³ ينظر: زياد عواد أبو حماد: "الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم"، مجلة جامعة دمشق، ع1، 2002م، ص357.

⁴ الخطابي: "بيان إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص70.

ويلاحظ من قول الخطابي هذا أنه تفسير لقوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ).¹

وإن كان الخطابي أول من أشار إلى هذا الوجه من الإعجاز في القرآن الكريم وأفرده بالبحث والدراسة، وهذا شيء يحمد عليه، لكن الظاهر أن أولى بواد هذا الوجه الإعجازي كانت منذ بداية نزول القرآن الكريم، فقد كان القرآن الكريم يترك أثره في نفس كل من سمعه، وأولهم النبي صلى الله عليه وسلم. فقد أثر القرآن الكريم في النبي صلى الله عليه وسلم تأثيراً بالغ وكفى سلوكه شاهداً على ذلك، فقد قالت عائشة رضي الله عنها عندما سألت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم: "قد كان خلقه القرآن."² والمتتبع لكتب السيرة يجد الكثير من المواقف التي تبرز تأثر النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم، "إذ كيف لا يتأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن -وعليه أنزل قد رأى الملائكة وعرج به إلى السماء وسمع صرير الأقدام، ورأى من آيات ربه ما رأى؟ فتأثره بالقرآن العظيم أمر لا يحتاج إلى دليل أو برهان."³

فإحساس النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن إحساس مميز، وتأثره تأثر مميز لا يدانيه أحد من البشر، وقد ظهر عليه هذا التأثير منذ أول وهلة سمع فيها كلام ربه سبحانه وتعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)⁴، فهلع إلى زوجته خديجة رضي الله عنها مفزوعاً خائفاً من شدة ما سمع.

كما حذا الصحابة رضي الله عنهم حذو النبي صلى الله عليه وسلم في تأثرهم بالقرآن الكريم، فقد كان للقرآن الكريم عظيم الأثر في نفوس هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لما كان يدخله على نفوسهم من

1 سورة الزمر: الآية 23.

مسلم بن الحجاج النيسابوري: "صحيح مسلم"، تشرف بخدمتها والعناية بها: أبو قتيبة نظر محمد الفارابي، الرياض، دار طيبة، رقم الحديث 1427هـ-2006م، رقم الحديث: 746، ص 336

3 ينظر: خالد محمد القضاة: "الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم"، بحث مقدم إلى كلية الشريعة السابع، جامعة الزرقاء الأهلية، 18-20 رجب 1426هـ، 23-25 آب 2005م، ص 19.

4 سورة العلق: الآية 1.

السكينة والطمأنينة من جهة لقوله تعالى: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)¹، والخشوع والخوف من جهة أخرى، حتى كان البعض منهم يقع مغشياً عليه من وقع ما سمع من الذكر الحكيم، يقول تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)².

فصلابة الجبل وقساوة حجارتها تتصدع من سماع القرآن، فكيف بقلوب عاشت في روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم تتعلم القرآن وتتلذذ بتلاوته، قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)³.

ولم يقتصر هذا التأثير القرآني على المؤمنين فقط، وإنما كان له بالغ الأثر على نفوس هؤلاء المشركين، وهناك الكثير من المواقف التي تروىها كتب السيرة النبوية عن انجذاب كفار قريش لسحر القرآن وجماله، من ذلك الأثر الذي خلقه القرآن في نفس أعتى المشركين وأشدّهم كرهاً للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو الوليد بن المغيرة عندما أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ عليه صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)⁴. فقال له أعد: فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الوليد قولته: والله إنه لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه.⁵ وما كان إصدار الوليد بن المغيرة هذا الحكم على القرآن إلا لفتونه بجماله وتسليمه بإعجازه. إذن: هذا مثال واحد من جملة اعترافات كثيرة لسادة قريش عن إعجابهم بالقرآن الكريم، ومع ذلك استكبروا وعاندوا.

1 سورة الرعد: الآية 28.

2 سورة الحشر: الآية 21.

3 سورة الحديد: الآية 16.

4 سورة النحل: الآية 90.

5 ينظر: ابن هشام: "سيرة ابن هشام"، مصدر سابق، ج 1، ص 294.

إنها روعة القرآن التي أثرت في نفوس أعدائه، فما بالك في نفوس أحبته وعاشت له وماتت دفاعاً عنه.

بل كان للقرآن أثر حتى على الجن، إذ لما سمعته لم تتمالك هذا التأثير، والدليل على ذلك قوله تعالى: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)¹ وكان الخطابي كما أوردنا ذلك سالفاً أول من أشار لهذا الوجه من الإعجاز وشاطره الرأي عدد كبير من العلماء سواء قديماً أكان ذلك قديماً أم حديثاً.

فمن هؤلاء الذين قالوا بالإعجاز التأثيري قديماً ولخوا إليه في دراساتهم القاضي عياض (ت544هـ) إذ يقول: "ومن وجوه إعجازه الروعة التي تلحق سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبية التي تعزيهم عند تلاوته لقوة حاله وأنافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورا، ويردون انقطاعه لكراحتهم له، وأما المؤمن فلا تزال روعته وهيبته إياه مع تلاوته تولد انجذاباً وتكسبه هشاشة ليميل قلبه إليه، وتصديقه به."²

وإلى ذات المعنى أشار الإمام ابن القيم الجوزية (ت751هـ) مبينا ما يقع في النفوس عند سماعها لآيات الذكر الحكيم، يقول: "ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبية، والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء كانت فاهمة لمعانيه، أو غير فاهمة، عالمة بما يحتويه، أو غير عالمة كافرة بما جاء به، أو مؤمنة."³

أراد ابن القيم الجوزية من خلال قوله هذا أن يوضح فكرة أنّ تأثير القرآن في البشر مؤمنهم وكافرهم تأثير فطري مجبول عليه البشر.

وكما أشار بعض العلماء القدامى إلى هذا الوجه من الإعجاز، أشار كذلك إليه المحدثين وأسهبوا في ذلك، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

¹ سورة الجن: الآية 1.

² القاضي عياض: "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"، مصدر سابق، ص529.

³ ابن القيم الجوزية: "الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان"، مصدر سابق، ص17.

الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (ت1356هـ-1937م) الذي أشار إلى تأثير القرآن على النفس الإنسانية، يقول: "وأعجب شيء في أمر هذا الحس الذي يتمثل في كلمات القرآن أنه لا يسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها، بل هو مقتصد في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفرد منه ولا يتخونها الملل، ولا تزال تبغي أكثر من حاجاتها في الترويح والإصغاء إليه والتصرف معه والانقياد له، وهو يسوغها من لذتها ويرفه عليها بأساليبه وطرقه في النظم والبيان."¹

أراد الرافعي من خلال قوله أن يبين التأثير الحسي للقرآن الكريم في نفوس البشر، وأنه لا يوجد كلام يترك أثرا بالغا على النفس مثل كلام الله عز وجل.

كما يعد سيد قطب (ت1385هـ-1966م) واحدا من هؤلاء الذين تكلموا عن تأثير القرآن الكريم، فقد بين كيف سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى، مقدما عن ذلك نماذج تبرهن عن مدى تأثير القرآن في نفوس كفار قريش، فذكر قصة إسلام عمر رضي الله عنه، وقصة سماع الوليد بن المغيرة لبعض آيات القرآن الكريم من الرسول صلى الله عليه وسلم.²

وقد أشار إلى أن هذا السحر والتأثير الذي يتركه القرآن في النفوس البشرية هو نوع من الإعجاز وإن لم يصرح عن ذلك بصريح العبارة، فقال: "يجب إذن أن نبحت عن منبع السحر في القرآن قبل التشريع المحكم، وقبل النبوة الغيبية وقبل العلوم الكونية، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله."³

يستنتج من هذا أن سيد قطب أراد أن يبين بأن العرب لم يتأثروا بتشريعات القرآن ولم ينبهروا بأخباره عن الغيبات بل بجماله وحسن إيقاعه الذي يطرب النفوس حين سماعها لتلاوته.

ونجد كذلك محاولة أخرى عن الإعجاز النفسي والتأثيري في العصر الحديث وهي محاولة الشيخ محمد الغزالي (ت1416هـ-1996م) الذي أفرد في كتابه "نظرات في القرآن" حديثا مفصلا عن الإعجاز في

¹ مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص223.

² ينظر: السيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص11-12.

³ المصدر نفسه: ص18.

القرآن، جاعلا الإعجاز التأثري النفسي واحدا من أهم وجوه الإعجاز، فتكلم عن مكانة الإعجاز التأثري وبين مدى تأثير القرآن في نفوس المؤمنين والكفار¹.

ويقول الشيخ الغزالي عن تأثير القرآن في النفوس: "فما أظن امراة سليم الفكر والضمير يتلو القرآن ويستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به."²

وخلاصة القول: فإن الإعجاز التأثري وجه من أوجه الإعجاز المتعددة التي ذكرها العلماء، وأن هذا التأثير الذي خلفه القرآن الكريم على النفوس والقلوب الأسماع لأكبر دليل على أن هذا القرآن كلام الله عز وجل الذي لا يرقى إليه أي كلام من كلام البشر، وهذا هو جوهر الإعجاز القرآني وسره المكنون الذي "حارت في كنهه الأبواب وعييت عن بلوغ أسبابه الفهوم، وهو عائد إلى ما للقرآن العظيم من سلطان وتأثير على القلوب وهيبة وجلال في النفوس"³

7- الإعجاز اللغوي: من المعلوم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين لقوله تعالى: (**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)⁴.**

وذلك ليكون معجزة يتحدى الله سبحانه وتعالى بها أمة العرب التي كانت مجبولة عن الفصاحة والبلاغة والبيان عن فطرة وسجية.

وجعل الله هذا التحدي على لسان رجل منهم، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، يقول جل في علاه: (**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)⁵.**

¹ ينظر: خالد محمد القضاة: "الإعجاز التأثري للقرآن الكريم"، مرجع سابق، ص13

² محمد الغزالي: "نظرات في القرآن"، مصر، نضمة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، يوليو 2005، ص124.

³ عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص21.

⁴ سورة الشعراء: الآية 192-195.

⁵ سورة الجمعة: الآية 2.

فوقف العرب عاجزين أمام ما سمعوا من روعة الأسلوب، وجمال البلاغة، خصوصاً وأنهم وجدوا أنفسهم أمام روعة لغة، كانوا قد درجوا عليها ونشؤوا على تعلم قواعدها، وتفننوا في أساليبها وبرعوا في بلاغتها، غير أنهم لا يسمون أمام ما سمعوا من لغة القرآن التي أدهشتهم ببلاغتها المتفردة وأسلوبها البياني المتميز. وعلى هذا الأساس اتفق أغلب الدارسين القدامى والمحدثين على أن الإعجاز القرآني يكمن في هذا الوجه اللغوي، مقربين بأن "الإعجاز في هذا القسم يتعلق بفصاحته وبلاغته التي امتاز بها عن كلام المخلوقين، ثم بنظمه العجيب وأسلوبه الغريب الذي حير أهل البلاغة والبيان، وهالهم أمره فاستسلموا لعظمة كلماته وسحر بيانه."¹

وأكبر دليل على أن الإعجاز اللغوي هو الوجه الأساسي الذي وقع به التحدي الرباني، هو حفظ اللسان العربي من الزوال، وبقاء اللغة العربية راسخة محفوظة حفظ القرآن الكريم، يقول الدكتور مناع القطان: "وتتابعت القرون لدى أهل العربية، وظل الإعجاز القرآني اللغوي راسخاً كالطود الشامخ، تذل أمامه الأعناق خاضعة، لا تفكر في أن تدانيه، فضلاً عن أن تساميه، لأنها أشد عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز، وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين."²

ومما لا شك فيه أن الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم يكمن في تلك البلاغة القرآنية التي لا يرقى إلى مكانتها وعلوها أي أحد كان من بلغاء البشر، قال الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)³

إذن: بعد هذه الوقفة مع أهم وجوه الإعجاز القرآني التي أشار إليها علماءنا الأجلاء، والتي ذكرنا بعضها على سبيل المثال لا الحصر لأنه لا تزال هناك أنواع أخرى: كالإعجاز العددي، والإعجاز الاجتماعي، فالقرآن الكريم بحر زاخر لا يمكن لأي كان أن يلم بجميع لآله المكنونة، وأسراره المدفونة، قال الله

¹ عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص 17.

² مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص 273.

³ سورة الإسراء: الآية 88 .

تعتالي: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾)¹.

يقول عبد الله دراز: "لعمري لعن كانت للقرآن في بلاغة تعبير معجزات وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، فلعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه هو معجزة المعجزة"².

فالقرآن الكريم يحوي من العلوم والمعارف والحقائق ما تعجز عنه القدرة البشرية.

غير أنه على الرغم من تعدد وجوه الإعجاز، إلا أنّ الإعجاز الذي اتفق عليه معظم العلماء هو الإعجاز اللغوي بوجه عام، والبلاغي منه بوجه خاص، ونحن نشاطرهم الرأي، لأنّ القرآن الكريم على الرغم من أنه كتاب هداية إلاّ أنّه لم يتحد العرب بأحكامه وتشريعاته، ولا بعلومه وغيبياته، بل تحداهم ببلاغته وحسن نظمه وبيانه.

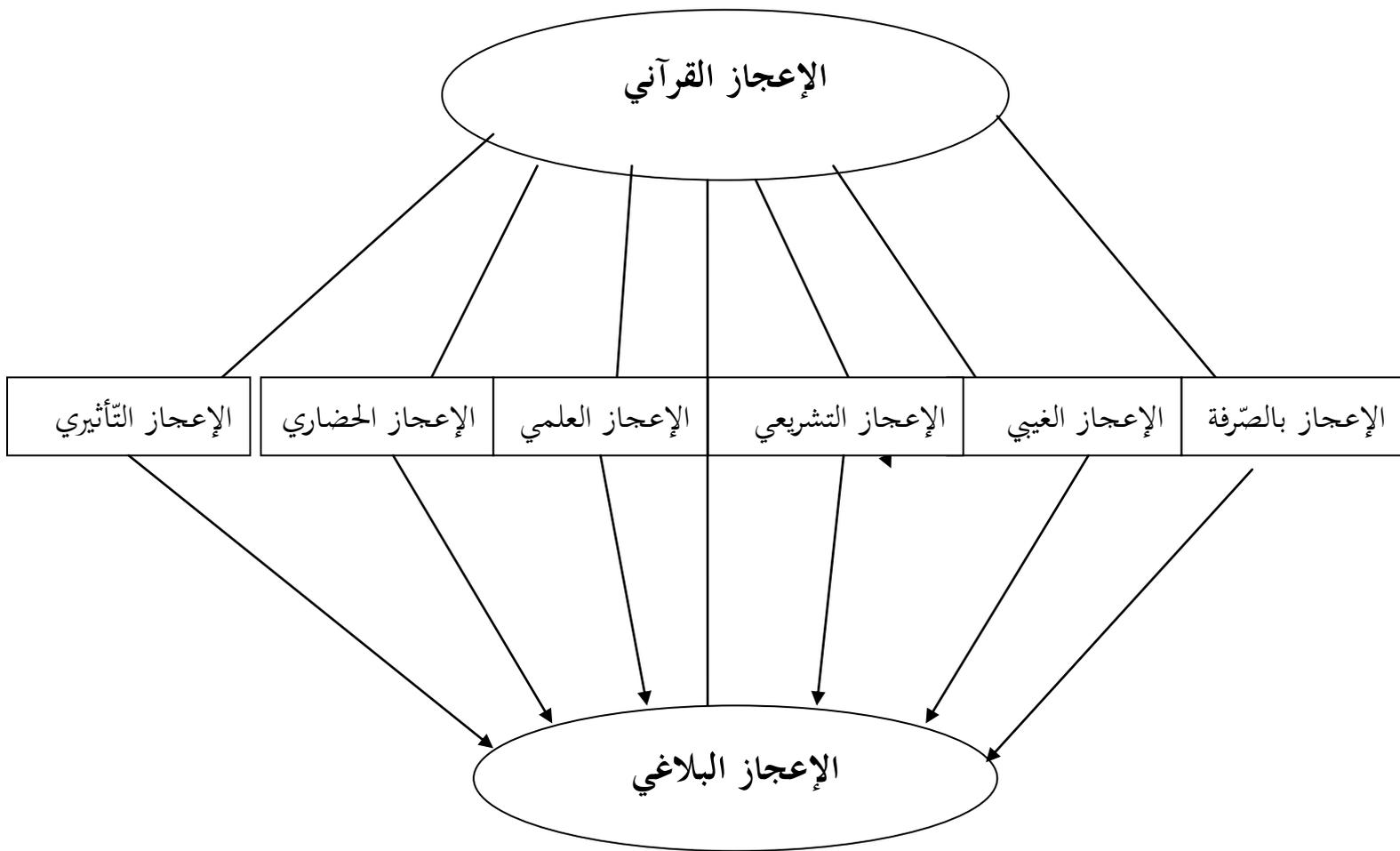
وإنّ جميع هذه الوجوه التي ذكرناها سواء التّشريعية أو الغيبية أو العلمية... إلخ، قد نجدّها في آية من الآيات أو سورة من سورته، لكن لا نجدّها في جميع القرآن الكريم، بينما البلاغة القرآنية نجدّها في حرفه، وفي كلمته، وفي جملة، وفي أسلوبه ونظمه، بل نجدّها في جميع القرآن الكريم جملة وتفصيلاً.

بالإضافة إلى هذا فإنّ الإعجاز البلاغي يخدم وجوه الإعجاز الأخرى ففي تشريعاته بلاغة، وفي إخباره عن قصص الأمم البائدة بلاغة، وفي أسلوبه التّأثيري بلاغة.

والشكل التّالي يوضح لنا ذلك:

¹ سورة الكهف: الآية 109.

² عبد الله دراز: "النبأ العظيم"، مصدر سابق، ص 211 .



كما يذهب بعض الدارسين إلى القول بأنّ أنواع الإعجاز، كالإعجاز التشريعي، والغيبي، والعلمي... إلخ، هي مضامين قرآنية، وليست وجهها للإعجاز.¹

¹ ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 113.

فالله سبحانه وتعالى لم يطلب من العرب أن يأتوا بمثل تشريعات القرآن ولا بمثل علومه، ولا بمثل قصصه وأخباره، وإنما يطلب منهم أن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن الكريم في بلاغتها وأسلوبها وبيانها، وهذا هو التحدي الذي كان ولا يزال متواصلاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى أن نقف في وجه العالم، ونتحداه لكن ليس بالعلم القرآني، وإنما بالبيان القرآني¹، وإن كان الغرب الأوروبي يزعم أنه يملك العلم، فالأمة العربية الإسلامية تملك البيان، وأيّ بيان إنه بيان ربّ البرية.

وهذا هو السرّ في إعجاز القرآن الكريم بيانه الذي حارت في كنهه العقول، وبلاغته التي أسرت القلوب، وركع لها الثقلين معلنا الانقياد والخضوع.

ولما كان الإعجاز البلاغي هو الوجه الذي اتفق عليه العلماء والدّارسون، ارتأينا أن نقف معه وقفة متأنية وأن نفرده بالدّراسة والتّمحيص محاولين قدر الإمكان أن نعرض أهم آراء العلماء لنصل إلى المفهوم الجامع المانع، والمبتغى الذي أراد الله سبحانه وتعالى من نزول آخر كتبه السّماوية على هذا الوجه.

ب- الإعجاز البلاغي وآراء العلماء فيه:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين ليكون حجة قاطعة على هؤلاء العرب، فأبهرتهم بلاغته، وأدهشتهم فصاحته.

ورغم إدراكهم بأنهم أمام لسان إلهي، وبلاغ ريبانية مستحيل الارتقاء إليها إلا أنهم عاندوا واستكبروا، وأبت نفوسهم الانقياد كفرانا وطغيانا.

فالقرآن الكريم هو آخر الكتب السّماوية، أنزله الله سبحانه وتعالى على خاتم الرسل والأنبياء محمد- صلى الله عليه وسلم- وفي نفس الوقت هو المعجزة التي أيده بها وجعلها برهاناً على صدق نبوته.

ولم تكن هذه المعجزة مادية كما جرت العادة في معجزات الأنبياء السابقين، بل معجزة لغوية بيانية، لأنّه من المعلوم أنّ كل نبي بعث إلى أمة من الأمم إلا وأيده الله بمعجزة من نفس جنس ما شاع بين هؤلاء القوم.

¹ ينظر: المرجع نفسه ص 113.

وكان الشائع بين قوم محمد-صلى الله عليه وسلم-المباراة القولية، والمناظرات البلاغية، والتنافس في البراعة والذلاقة والفصاحة، فمعلوم أن العرب كانوا عبدة البيان والبلاغة قبل أن يكونوا عبدة الأصنام والشرك، وقد سمعنا الكثير من القصص بأنه كان يستخف بأوثانهم، لكن لم نسمع البتة بأحد استخف ببيانهم أو استحقق بلاغتهم¹، لذلك أيدى الله تعالى بمعجزة قولية لغوية بلاغية من نفس جنس ما برع فيه قومه، لكنها تفوق بلاغة بلغائهم، ولا يمكن الارتقاء إليها ولو تكافل على ذلك الإنس والجن، قال الله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.)²

فقد بعث الله محمدا-صلى الله عليه وسلم-نبيا في أمة البيان والإعراب والفصاحة والبلاغة ولذلك كانت آيته الأولى آية بلاغية بيانية تنسجم وتتناسب مع البيان والبلاغة في الظاهر، ولكنها تفتقر عنها في الحقيقة والدرجة والمستوى³

وهنا يكمن سر الإعجاز القرآني في تلك البلاغة القرآنية التي أدهشت العرب وأعجزتهم عن الإتيان بمثلها، وهذا هو الوجه الخاص الذي اتفق عليه جلّ العلماء في دراساتهم للإعجاز القرآني، لكن ما هو المفهوم الذي قصده من وراء مصطلح الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم؟

1- مفهوم الإعجاز البلاغي: هو مركب إضافي مكون من كلمتين هما: الإعجاز والبلاغة، وسبق لنا فيما سلف ذكره تعريف كل من مصطلح الإعجاز ومصطلح البلاغة.

وعلى هذا الأساس يمكننا الآن أن نجتمع بين المصطلحين في تركيب واحد ونقول بأن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم يكمن في "بديع نظمه وعجيب تأليفه وسموه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الخلق عن الإتيان بمثله."⁴

¹ ينظر: محمود محمد شاكر: "مداخل إعجاز القرآن"، جدة، دار المدني، ط1، 1423هـ-2002م، ص188.

² سورة الإسراء: الآية 88.

³ صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص36.

⁴ محمود السيد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"، مرجع سابق، ص22.

فالإعجاز البلاغي هو تلك البلاغة القرآنية المتفردة في ألفاظها وأساليبها ومعانيها، والتي عجز العرب على الإتيان بمثلا رغم أنّها مستوحاة من لغتهم العربية التي درجوا عليها.

"ومن هنا فقد كان القرآن الكريم جامعا لفنون البلاغة، حاويا لأطراف البيان والفصاحة محكما في نظمه حتى أنك تحسب ألفاظه لجمالها وروعيتها منقادا لمعانيه، فإذا ما تغلغلت فيه وجدت معانيه منقادا لألفاظه فإذا ما رجعت البصر مرة ومرة فإنك ستظل مترددا بين انقياد معانيه لألفاظه وانقياد ألفاظه لمعانيه حتى تؤمن أخيرا بأنك تقرأ كلاما ليس من كلام البشر."¹

وهذا ما أدهش بلغاء العرب وأقام عليهم الحجة القاطعة والبرهان الساطع على وجه الخصوص، فالإعجاز البلاغي هو "الذي يختص بفهمه أولئك الذين عرفوا اللغة العربية نطقا وفهما، وتذوقوا بيانها وأساليبها في التعبير، ولا غرو فقد سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى، واستحوذ عليهم بنظمه البديع وتأليفه العجيب، وسموه في البلاغة إلى الحد الذي عجز الخلق عن الإتيان بمثله بل بسورة شبيهة به، رغم التحدي والتفريع، وبذلك قامت الحجة على العرب، وهم الذين يدركون هذا الوجه من الإعجاز، وقيام الحجة عليهم تقوم على سائر الناس."²

وبناء على هذا يمكن القول بأنّ الإعجاز البلاغي هو ذلك التعبير الرباني الفريد في علوه وسموه، والذي لا يمكن لأيّ من البشر الارتقاء إليه والإتيان بمثله، ولو كان أبلغ بلغاء العرب.

فالإعجاز البلاغي هو الإعجاز الذي وقع به التحدي الرباني لأرباب البلاغة والبيان وهذا ما اتفق عليه أهل العربية والدراسات القرآنية³، وإن اختلفت التسمية فبعضهم يطلق عليه اسم الإعجاز البياني، والبعض الآخر بالإعجاز اللغوي، والبعض الآخر بالإعجاز في نظم القرآن، والبعض الآخر بالإعجاز البلاغي.

ومع اختلاف التسمية فإن المقصد واحد، ونحن في بحثنا هذا نخبذ تسمية الإعجاز البلاغي ولنا في هذا الأمر شرح وتفصيل.

1 حفني محمد شرف: "إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق"، مرجع سابق، ص5.

2 مصطفى ديب البغا- محي الدين متو: "الواضح في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص163.

3 ينظر: عائشة عبد الرحمن: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص94.

فقد ذهب معظم الباحثين في الإعجاز القرآني إلى القول بالإعجاز البياني مفسرين سبب ذلك إلى أنّ البيان أعم من البلاغة، كما أنه من أسباب هذا الاختلاف في التسمية هو اضطراب دلالة المصطلح البلاغي عند العلماء، فتارة يستعمل بمصطلح البلاغة وتارة يستعمل بمصطلح البيان، هذا الأخير الذي أصبح فرعاً من فروع البلاغة.¹

وحتى وإن كانت هذه الدلالة الاصطلاحية مضطربة عند العلماء القدماء والتي اتضحت معالمها مع مرور الوقت، فأصبح علم البلاغة هو العلم العام الذي تندرج تحته ثلاث فروع وهي: علم المعاني، علم البيان، علم البديع، غير أننا نجد الكثير من الدراسات الحديثة والمعاصرة التي تقول بالإعجاز البياني ونادراً مصطلح الإعجاز البلاغي.

* مفهوم الإعجاز البياني:

أ- **البيان لغة:** من بين ما يبين منه الشيء من الدلالة وغيرها، والبيان: الفصاحة، كلام بين: فصيح، والبيان: الإفصاح، والبين من الرجال: الفصيح الظريف العالي الكلام، والبيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وأصله الكشف والظهور.²

ب- **البيان اصطلاحاً:** "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك القناع وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر، والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام "فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع."³

ونظراً لأهميته، قدسه الله عز وجل في كتابه الكريم، وفضل به بني آدم عن سائر مخلوقاته، قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾

¹ ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مرجع سابق، ص 77.

² ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 1، ص 283-284.

³ الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج 1، ص 76.

⁴ سورة الرحمن: الآية 1-4.

والبيان الذي يقصده الله عز وجل في هذه الآية الكريمة هو التَّنطق والكلام، "وهو من أظهر نعم الله على الإنسان، لأنه ضروري له ليعيش حياته ويحقق الخلافة على وجه الأرض."¹ فالنطق والكلام خاصية فضل الله به الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى، ولم تقتصر هذه الخاصية على بعض البشر وإنما عمتهم جميعاً، غير أنّ البيان كأسلوب لغوي جميل اختص الله به أمة العرب وجعل ذلك فيهم طبعاً وسجية، فقد عرف الإنسان العربي بملكته اللغوية، وتعبيره البياني الجميل فهو يشد الكلام شداً في نظمه أو نثره مستعملاً سحر الكلمة وحسن التعبير في إبلاغ المعنى إلى المتلقي بصدق. ولما كانت الرسالة الخاتمة رسالة موجهة إلى أولئك العرب على وجه الخصوص جعل الله عز وجل حجته عليهم حجة بيانية ناطقة وهي القرآن الكريم الذي جاء بأفصح الألفاظ وأدق المعاني وأحسن النظم.

ج- تعريف الإعجاز البياني: بناء على ما سبق يمكن تعريف الإعجاز البياني بأنه "إثبات عجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثل القرآن في بيانه قصد إظهار صدق الرسول في دعواه."² فالإعجاز البياني هو البيان الرباني الذي يعجز عن الخلق الإتيان بمثله.

وبعد هذه التوطئة، يمكن القول بأنّه سواء الإعجاز البياني أم الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم يشتركان في مفهوم واحد ودلالة لغوية واحدة، وهي أنّه كلام الله عز وجل الذي أعجز البشر عن الإتيان بمثل نظمه في سر اختيار اللفظ وموقعها في الجملة من حيث علاقتها مع غيرها وتناسقها في سياق محكم يطرب النفس بجرس موسيقى أخاذ.

ومع هذا يمكن القول بأنّ الإعجاز البلاغي هو الوجه الخاص للقرآن الكريم، لأنّ البيان جزء من تلك البلاغة القرآنية المتفردة على اعتبار أنّه فرع من فروعها، كما يمكن القول بأنّ بينهما عموم وخصوص فالبلاغة هي الوجه العام للإعجاز القرآني، والبيان جزء خاص من تلك البلاغة.

2- آراء العلماء في الإعجاز البلاغي:

لقد تعددت آراء العلماء حول وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، غير أنّ "الإعجاز البلاغي هو الذي ذهب إليه الأكثرون من علماء أهل النّظر، وسيطر على مباحث المتكلمين في الإعجاز، سواء منهم من

¹ صلاح عبد الفتاح الخالدي: "الإعجاز البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 119.

² عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 78.

جعلوه الوجه الذي يصح به التحدي بالسورة الواحدة من القرآن، ويفسر موقف العرب عصر المبعث من المعجزة والذين ذكروا مع إعجازه البلاغي غيره من الوجوه الأخرى التي لا مشاحة فيها، وإنما الخلاف في أن تنفصل عن إعجازه نظمه وبلاغته.¹

يلاحظ من خلال هذا القول بأنه لا خلاف في تعدد وجوه الإعجاز القرآني ما لم تمس جانبه البلاغي. وإنّ نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين في قوم بلغوا الغاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، وتحديه لهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل تعبيراته البلاغية الراقية، وأساليب بيانه الفائقة، وطرائق نظمه الفريدة من نوعها، ودلالات تراكيبه الفاعلة، تجعل المدخل الرئيسي للإعجاز القرآني هو المدخل البلاغي، لأنّه هو الوجه العام للقرآن الكريم فكما نجد الأسلوب البلاغي في طوال السور نجده كذلك في قصارها، في حين تظل الأنواع الأخرى مداخل ثانوية، لأنها تمثل الإعجاز في مواضع معدودة من القرآن الكريم ولا تشمل كله، ومع ذلك فالإعجاز البلاغي لا يستبعد أنواع الإعجاز الأخرى بل يوظفها كمواضيع ومضامين، ويستفيد منها في حدود ما تتطلبه الإبانة عن الخصائص البلاغية للقرآن الكريم.

وعلى هذا الأساس ذهب معظم العلماء والذين لهم اهتمام بالدّرس الإعجازي إلى القول بأنّ إعجاز القرآن ينتمي إلى المجال البلاغي، باعتباره إعجازاً ينشد التأثير والاستيلاء على النفوس لما يحتويه النصّ القرآني من جماليات الأسلوب في كافة مستوياته وأنساقه.

كما أنّه لا يخفى على أحد التّراث الضّخم للدراسات الإعجازية من كتب ورسائل، شارك فيها اللغويون والمتكلمون والبلاغيون والمفسرون والأديبون، والتي ابتدأت عندهم بمجرد فكرة موجزة إلى أن تطورت وأصبحت علماً قائماً بذاته فنشأ ما يعرف بعلم البلاغة القرآنية.

ويجمع الدارسون أنّ كتاب "بجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن مثنى (ت209هـ)²، كان أول محاولة تدون حول الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.³

1 عائشة عبد الرحمن: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص94.

2 هناك من يقول بأنه توفي (210هـ).

3 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص40.

وقد بدأ أبو عبيدة كتابه بمقدمة وضع فيها أصل اشتقاق كلمة قرآن، ثم عقد مقارنة بين أسلوب القرآن الكريم وأساليب العرب، ويقرر بأن القرآن الكريم يسير على طريقة العرب، ولا يكاد يخرج عن سننها من وجوه الإعراب والمعاني.¹

غير أن أبو عبيدة في كلامه هذا أخطأ، لأن أسلوب القرآن الكريم هو أسلوب فريد لا يمكن لأي أسلوب أن يضاهيه، وإن كان أسلوب أبلغ بلغاء العرب، ولو كان أسلوب القرآن الكريم يشبه أساليب العرب فكيف سيقع الإعجاز، وربما هذا الأمر الذي قال به أبو عبيدة في أن أسلوب القرآن لا يكاد يخرج عن أساليب العرب هو من باب الخلط وعدم اتضاح الرؤية، لأن الأمور في بدايتها تكون مختلطة ويغشاها السراب.

ثم أخذ أبو عبيدة يعرض بعد مقدمته لسور القرآن وآياته مفسراً لها مبيناً فيها المجاز الذي كان يقصد به العدول عن استعمال اللفظ أو الألفاظ عن المعنى البسيط إلى معنى آخر يمت إليه بصلة ما.²

يستنتج من هذا أن أبا عبيدة في كتابه هذا كان يعنى باستخراج المجاز الموجود في الآيات القرآنية لتسهيل عملية فهم المعاني القرآنية.³

بالإضافة إلى حديثه عن المجاز في القرآن الكريم، أشار كذلك إلى بعض المسائل البلاغية كالكناية والتشبيه والتمثيل.⁴

وخلاصة القول: فإن كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة يعد أول خطوة في الدراسات اللغوية البلاغية للقرآن الكريم⁵، وعلى الرغم من أنه لم يصرح بالدراسة إلى الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم إلا أنه أشار إليه من خلال دراسته لأساليب القرآن الكريم ومقابلتها بأساليب العرب، وبهذا هو بمثابة المرجع الأساس لمن جاء بعده من الدارسين أمثال الفراء وابن قتيبة.

ينظر: أبو عبيدة معمر بن مثنى التميمي: "مجاز القرآن"، عارضه وعلق عليه: محمد فؤاد سزكين، القاهرة، مكتبة

الخانجي، دط، دت، ج1، ص18-19.

2 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص42.

3 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، لبنان، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 1414هـ-1993م، ص589.

4 ينظر: أبو عبيدة: "مجاز القرآن"، مصدر سابق، ص128-73-269.

ينظر: محمد زغلول سلام: "أثر القرآن في تطور النقد العربي حتى القرن الرابع الهجري"، قدم له: محمد خلف الله أحمد، دب ن، مكتبة

الشباب، ط1، 2007م

فقد حذا الفراء (ت207هـ) حذو معاصره أبو عبيدة وألف كتابه معاني القرآن حول "الأسلوب القرآني، والبيان القرآني، وإن كان كتابه أقرب إلى موضوعات علم النحو، من موضوعات علوم البلاغة، بيد أن الفراء لم يغفل العناصر الجمالية التي تنطوي عليها الآيات.¹"

فكتاب الفراء وإن كان كتاب في اللغة والنحو إلا أنه لم يخل من المسائل البلاغية فقد وجدنا في كتابه الكثير من الإشارات البلاغية للقرآن الكريم²، إذ تحدث عن التشبيه، والكناية، والمجاز بنوعيه العقلي والمرسل، وخروج الاستفهام عن المعنى الحقيقي والتقديم التأخير³، وما إلى ذلك من العناصر البلاغية مستدلاً على ذلك بنماذج من القرآن الكريم.

وعليه فإن كتاب الفراء من اللبنة الأولى التي أسست لمسائل البلاغة القرآنية.

وعلى الرغم من الجهود الطيبة التي بذلها كل من أبي عبيدة والفراء في مجال الدراسات البلاغية القرآنية إلا أنها تبقى مجرد إشارات متناثرة يعتربها الاضطراب والغموض.

ومما لا شك فيه أن أول من قال بالإعجاز البلاغي وعدّه الوجه الاساسي للقرآن الكريم عالم اللغة الجليل وشيخها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت254هـ) الذي صبّ جلّ اهتمامه على بلاغة القرآن وعكف على استنباط أسرار البيان القرآني، وأفرد ذلك بدراسات مستقلة ككتاب "نظم القرآن"، الذي لم يصلنا منه إلا شذرات متناثرة على هوامش كتبه الأخرى والتي تبين بأن المفهوم الذي ذهب إليه الجاحظ في كتابه هذا عن الإعجاز القرآني تنحصر في الوجه البلاغي والبياني، يقول في الجاحظ عن كتابه هذا -نظم القرآن- مبيناً رأيه في الإعجاز القرآني: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن، لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات فإذا قرأها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة."⁴

1 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص50.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص51.

3 ينظر: الفراء: "معاني القرآن"، ج1، 23-31، ص117، 16، 73، 287، 231.

4 الجاحظ: "الحيوان"، مصدر سابق، ص76.

لكن للأسف لم يصل إلينا هذا الكتاب، ولو وصل لوجدنا فيه زادا علميا وفيما حول الدراسات البلاغية القرآنية¹.

وعلى غرار هذا الكتاب المفقود نجد كتباً أخرى للجاحظ تبين بأن رأيه حول الوجه الإعجازي للقرآن الكريم منحصر في الجانب البلاغي.

ويعد كتاب البيان والتبيين وهو آخر ما كتب الجاحظ قبل أن توافيه المنية من أهم كتبه التي بينت رأيه في الإعجاز البلاغي، إذ يقول عن القرآن الكريم بأن "نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج"². فأساس الإعجاز القرآني عند الجاحظ يكمن في حسن نظمه وتأليفه البلاغي، وقد استدل على ذلك بعرض مجموعة من المسائل البلاغية كالتشبيه والمجاز والإيجاز والاستعارة وغيرها، ليبين بأن القرآن معجز ببلاغته، وأن العرب عمزوا عن محاكاة القرآن في أسلوبه ونظمه.³

ومن الذين قالوا بالإعجاز البلاغي نجد العالم ابن قتيبة الدّينوري السّني (ت286هـ) الذي قال في مقدمة كتابه: "الحمد لله الذي نهب لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب... وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجه الأذان، وغضا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيب لا تنقضي عجائبه، ومفيد لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب، وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه."⁴ وهكذا فإعجاز القرآن عند ابن قتيبة حاصل في الوجه البلاغي لأنه يعود إلى تأليفه العجيب ونظمه البديع.

ومع هذه اللفات الطيبة التي قيلت حول الإعجاز البلاغي، والتي قدمتها نخبة من خيرة علماء البلاغة والدراسات القرآنية المتقدمة، إلا أنّ من أشهر الآراء التي قدمت حول الإعجاز البلاغي ما ذهب إليه كل من الرّماني والخطابي والإمام الباقلاني والجرجاني، والذين بفضل جهودهم الجبارة تأسس علم البلاغة القرآنية.

1 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص28.

2 الجاحظ: "البيان والتبيين"، ج1، مصدر سابق، ص383.

3 ينظر: فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص40.

4 ابن قتيبة: "تأويل مشكل القرآن"، مصدر سابق، ص3.

فالرّماني (ت384هـ) على الرّغم من ذكره لوجوه مختلفة للإعجاز القرآني إلا أنّ الوجه الغالب يكمن في الجانب البلاغي، ويذهب إلى القول بأنّ "البلاغة فهي على ثلاث طبقات منها ما هو في أعلى طبقة ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة، فما كان في أعلاها فهو معجز وهو بلاغة القرآن، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس."¹

يستنتج من قول الرّماني بأنّه يفرق بين بلاغة القرآن وبلاغة البشر، فيجعل البلاغة القرآنية في أعلى مرتبة وبلاغة البشر في أدنى مرتبة ليعين البون الشاسع بين كلام ربّ البرية عن كلام البشر.

كما أشار إلى المصطلحات البلاغية والتي حصرها في التالي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم، والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان²، وقام بتحليلها وتفسيرها مستشهدا في ذلك بشواهد من القرآن الكريم.

وعليه فإنّ رسالة النّكت لصاحبها الرّماني تعد من أهم مصادر الدّرس الإعجازي البلاغي للقرآن الكريم.

بالإضافة إلى الرّماني نجد كذلك معاصره أبو سليمان الخطابي (ت388هـ) الذي ذهب هو أيضا إلى جعل البلاغة وجها للإعجاز القرآني يقول في ذلك: "إن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، متضمنا أصح المعاني."³

فقد ربط الخطابي البلاغة بالإعجاز القرآني، وقال بأنّ أعلى مراتب البلاغة تكمن في القرآن الكريم وتلك فضيلة خصّ بها القرآن الكريم حتى يتعذر على البشر الإتيان بمثلها، وتكون آية بينة يؤيد بها الله نبيه صلى الله عليه وسلم⁴.

1 الرّماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص75.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص16.

3 الخطابي: "بيان إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص27.

4 ينظر: المصدر نفسه، ص13-14.

كما يعد الإمام الباقلاني (ت403هـ) واحداً من أشهر الذين أبدوا رأيهم في الإعجاز البلاغي وعدوه الوجه الأساسي للقرآن الكريم، فهو يرى بأن مدار الإعجاز يكمن في تلك البلاغة التي عجز عنها البشر، فالقرآن الكريم "بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه."¹ يظهر من هذا القول أنّ الإعجاز القرآني يكمن في ذلك الوجه البلاغي الذي أعجز الجن كما أعجز الإنس، أي أنّه "يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا."²

فقد اعتنى الباقلاني بتوضيح الوجه البلاغي للإعجاز القرآني وعرض في كتابه لكثير من المباحث البلاغية مستشهداً على ذلك بشواهد من القرآن الكريم تثبت صحة ما ذهب إليه في إبراز الفرق الشاسع بين بلاغة القرآن الكريم وبلاغة كلام البشر.

ومن الآراء التي قيلت حول الإعجاز البلاغي نجد رأي القاضي عبد الجبار (ت415هـ) هذا الأخير الذي جعل البلاغة وجهاً من وجوه الإعجاز، يقول: "واعلم أن التحدي وإن كان بقدر الفصاحة والبلاغة فمتى اختص ماله قدر عظيم في الفصاحة بطريقة من النظم خارجة عن العادة يكون وجه الإعجاز فيه أظهر وأبين وظهور عجز الغير عنه أكشف، فلما كان الأمر كذلك أجرى الله تعالى حال القرآن على مثله ليكون وجه الإعجاز فيه أبين يحصه الله تعالى بطريقة خارجة عن نظمهم ونثرهم، وبقدر من الرتبة في الفصاحة خارج عن عادتهم."³

يرى القاضي عبد الجبار أنّ البلاغة والفصاحة والنظم الموجود في القرآن الكريم هو الجانب الذي وقع به التحدي الرباني لأنّه من جنس ما برع فيه أولئك العرب غير أنّه لا يشبه طرق نظمهم ولا سنن نثرهم، فأعجزتهم بلاغته وأبهرتهم فصاحته وأعجبوا بنظمه الفريد الذي لا يمكنهم بلوغ مرتبته ولو اجتمعوا على ذلك مع شياطين شعرهم كما يزعمون ما استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة من سورة الكريمة.

¹ الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص35

² المصدر نفسه، ص38.

³ القاضي عبد الجبار: "المغني في أبواب العدل والتوحيد"، ج16، مصدر سابق، ص224.

ويعد أيضا الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) من أهم الذين تكلموا عن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، فدراساته لوحدها تشكل مدرسة البلاغة العربية، ومدار رأيه حول الإعجاز البلاغي ينحصر في النظم، فهو يرى بأنّ الله سبحانه وتعالى تحدى العرب "بأن يجيئوا في أي معنى من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف."¹

والنظم عنده يشمل النحو والبلاغة، يقول: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تحل بشيء منها."²

يرى عبد القاهر الجرجاني بأنّ الإعجاز البلاغي للقرآن يوجد في ذلك النظم المحكم، وأراد بذلك أن يربط بين علم النحو وعلم البلاغة، ويبين بأنّهما وجهان لعملة واحدة، إذ لا يمكن فصل علم النحو عن البلاغة والعكس صحيح.

فلا يمكن -حسب رأيه- أن تتحقق مزية البلاغة في الكلام إلاّ بقواعد علم النحو، وبهذا "قد حول البلاغة القرآنية والجمال في القرآن إلى مرد آخر غير هذا الذي ألفه الناس وتحدث عنه علماءهم، أنه قد أرجع هذا كله... إلى معاني النحو، ولكن ليس المقصود بالنحو هنا معناه التقليدي الموروث، وهو الإعراب بمعنى ضبط الكلمات وإنما معناه عنده أعم من هذا وأشمل"³، فهو طريقة في تآلف الحروف، وتناسق الأصوات، ونظم العبارة وصوغ الفكرة، وبناء الأسلوب بواسطة النظم الذي تعود إليه مزية الكلام وبلاغته، وعليه كان إعجاز القرآن في نظمه وليس في لفظه، لأن هذه الألفاظ القرآنية هي نفسها الألفاظ الشائعة عند العرب في دواوينهم وخطبهم، ولم يجدد القرآن في ذلك شيئا⁴، وإنما الإعجاز في سبكها وحسن ترتيبها على طريقة لم يعهدها العرب، يقول عبد القاهر الجرجاني في ذلك: "فخبرونا عنهم، عن ماذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلت: "عن

1 عبد القاهر الجرجاني: "الرسالة الشافية"، مصدر سابق، ص606.

2 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص81.

3 حفي محمد شرف: "إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق"، مرجع سابق، ص100.

4 ينظر: عبد الغني محمد سعد بركة: "الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره"، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1409هـ نص186.

الألفاظ "فماذا أعجزهم من اللفظ، أم أبهرهم منه؟ فقلت: أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها... ونظاما والثاماً، واتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حك بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول"¹.

إذن: مفهوم الإعجاز البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني يكمن في نظم القرآن العجيب وتأليفه البديع على نمط لم تعهده العرب، وعلى هذا لم يستطيعوا الإتيان بمثله.

ومع هذه الجهود الجبارة التي قام بها عبد القاهر الجرجاني في مجال الإعجاز البلاغي إلا أنها تبقى في الجانب النظري ولم تتعداه إلى الجانب التطبيقي إلا نادراً.

ولعل أنّ الزّمخشري (ت538هـ) وهو من المتأثرين بعبد القاهر الجرجاني طبق ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني نظرياً، فعلى الرغم من أن كتابه الكشاف كتاب في التفسير إلا أنه أشار على ضوئه إلى قضية الإعجاز القرآني، يقول عنه شوقي ضيف: "وعلى أضواء مباحث عبد القاهر وقواعده التي أصلها في علمي المعاني والبيان مضى الزّمخشري يفسر القرآن الكريم في كتابه الكشاف مطبقاً تطبيقاً دقيقاً على آياته."² فلقد اهتم الزّمخشري في تفسيره بالمباحث البلاغية: "والإعجاز عنده قائم على المعاني من تعريف وتنكير وتقديم وتأخير ثم على ما يتصل بعلم البيان."³

يظهر من هذا أنّ الزّمخشري قسم في تفسيره البلاغة إلى قسمين: معان وبيان، موجهاً عنايته بالبلاغة القرآنية ومبحث إعجاز القرآن⁴، مثبتاً في ذلك بأنّ النظم هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي.⁵

1 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص39.

2 شوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ"، مرجع سابق، ص373.

3 نعيم الحمصي: "فكرة إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص92-93.

4 محمد رفعت زنجير: "مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص117.

5 الزّمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص24.

يلاحظ من قول الزمخشري بأن الإعجاز القرآني يكمن في نظمه، فقد تأمل نظم القرآن وبحث في أسراره البلاغية ووقف على خصائصه المتفردة، فالإعجاز البلاغي عنده هو ذلك النظم الذي اختصت به بلاغة القرآن عن سواها من بلاغة البشر.

والدراس لكتاب الكشاف يجد نفسه أمام ثروة عظيمة في الجانب التطبيقي للبلاغة القرآنية. هذه مجموعة من أهم آراء العلماء القدامى في الإعجاز البلاغي ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر، لأنها تصب في صميم الموضوع وجوهره وغيرها كثير تجنّبها لما فيه من مداخل شائكة وأنواع متداخلة.

وكما كان للقدامى آراءهم في الإعجاز البلاغي، نجد كذلك المحدثين قد أبدوا رأيهم في ذلك، وعلى الرغم من تعدد وجوه الإعجاز عندهم إلا أنّ معظمهم ذهب إلى القول بالإعجاز البلاغي، ومن أشهر الباحثين المحدثين الذين قالوا بالإعجاز البلاغي نجد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب. فالأستاذ مصطفى صادق الرافعي (1937م) يرى بأنّ الإعجاز البلاغي يظهر في تلك الخصائص التي انفرد بها الأسلوب القرآني، إذ يرى بأنّ هذا الأسلوب: "هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً وهو الذي قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضرهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون."¹ كما يرى بأنّ سر الإعجاز يكمن في النظم القرآني الذي حدده في ثلاثة مظاهر:

1- الحروف وأصواتها.

2- الكلمات وحروفها.

3- الجمل وكلماتها.

فالتلاؤم والتناسق في النصّ القرآني هو الوجه الإعجازي للقرآن. "فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمكّن الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً."²

¹ مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص188.

² المصدر نفسه، ص211.

وخلاصة الإعجاز البلاغي عند مصطفى صادق الرافعي هو ذلك النظم المتناسق والأسلوب المتفرد "لأنه ليس وضعاً إنسانياً البتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد."¹

ويعد سيد قطب (ت1966هـ) كذلك واحداً من هؤلاء المحدثين الذين قالوا بالإعجاز البلاغي، وقد حذا في ذلك حذو الأستاذ الرافعي في قوله بأنّ سحر القرآن كامن في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه.²

فالأسلوب القرآني هو وجه الإعجاز البلاغي، كما يرى بأنّ "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة الحسية المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية..."³

وبيّن سيد قطب بأنّ خصائص التصوير الفني في القرآن تظهر في ثلاثة أمور:

1- التّخيل الحسي والتّجسيم.

2- التّناسق الفني.

3- الأسلوب القصصي.

ويلخص سيد قطب رأيه في الإعجاز البلاغي بقوله: "وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التّناسق والاتساق: فمن نظم فصيح إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخيل مجسم، إلى موسيقى منعمة، إلى اتساق في الأجزاء إلى تناسق في الإطار، إلى توافق موسيقي، إلى افتنان في الإخراج... وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز."⁴

¹ المصدر نفسه: ص203.

² سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص19.

³ المصدر نفسه: ص36.

⁴ المصدر نفسه: ص142.

فقد حدد سيد قطب من خلال قوله هذا عناصر البلاغة القرآنية التي تفرد بها كلام الله عز وجل عن غيره من كلام البشر.

وبهذا نخلص إلى أنّ مفهوم الإعجاز البلاغي عند سيد قطب هو ذلك الجانب الفني الموجود في القرآن الكريم من "إبداع في العرض، وجمال في التنسيق، وقوة في الأداء، وشيء من هذا كله لا يقتضي أنه يعتمد على الخيال والتلفيق و الاختراع."¹

هذه مجموعة من اجتهادات العلماء قديما وحديثا حول الإعجاز البلاغي ارتأينا ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر، وقد خرجنا من هذا بنتيجة مفادها أنّ الإعجاز البلاغي هو الوجه الذي فرض نفسه على السّاحة الإعجازية القرآنية منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا، وخير دليل على أنّ الإعجاز البلاغي هو الوجه الإعجازي للقرآن الكريم ما أورده أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بعثت بجوامع الكلم..."²

ويقصد صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم، تلك البلاغة القرآنية التي أيده الله سبحانه بها ليقيم بها الحجة على أولئك العرب الذين كانوا يملكون زمام البلاغة والبيان.

3- أهمية الإعجاز البلاغي: فرض الإعجاز البلاغي نفسه على ساحة الدّراسات اللغوية والقرآنية، فأتجهت عيون العلماء صوبه خدمة لكتاب الله تعالى، ومحاولين بذلك الوقوف على أسرار تلك البلاغة القرآنية المبتوثة في فحوى القرآن الكريم جملة وتفصيلا، "فقد دعاهم البحث في الإعجاز إلى الخوض بالضرورة في البحوث البلاغية، فأخذوا يدرسون فنون البلاغة العربية كي يقفوا منها على سر الجمال في التعبير القرآني، وكشف النواحي التي من أجلها عجز العرب عن أن يأتوا بأقصر سورة."³

فأهمية الإعجاز البلاغي تتمثل في ذلك السرّ الرباني الذي خصّ الله به بلاغة كتابه الكريم على وجه خاص إذ لا يمكن لأيّ بلاغة أن ترقى إلى رقي بلاغة القرآن الكريم، ففكرة الإعجاز البلاغي تعتمد على دراسة أساليب القرآن الكريم البيانية ومقابلتها بأساليب البلغاء، ثم استخلاص عناصر الجودة في الأولى

¹ المصدر نفسه: ص 259.

² محمد بن اسماعيل البخاري: "صحيح البخاري"، مصدر سابق، رقم الحديث: 7573، ص 421.

³ أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، مرجع سابق، ص 34.

ومواضع التقصير في الثانية ليظهر مقدار التمييز الحاصل في بلاغة القرآن الكريم على كلام بلغاء العرب الذين استوت لديهم ملكة البيان والبلاغة، فبفضل الإعجاز البلاغي يمكن تذوق بلاغة القرآن الكريم والوقوف على أسرارها.

وقد نوه الإمام الباقلاني بفضل الإعجاز البلاغي وأهميته فقال: "فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورفعه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بجره، وتضل دونه وصفه، ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض وتستولي به على الأمد، وتصل به إلى المقصد، وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر، وأقرب عليك الغامض، وأسهل عليك العسير، واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تظن لما فيه، وهو أدق من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر."¹

بين الإمام الباقلاني أهمية الإعجاز البلاغي وذكر شرف البحث فيه، وذلك لتشجيع العلماء ومن أتى بعده إلى مواصلة البحث والتنقيب في أسرار البلاغة القرآنية.

ويواصل قوله مبينا كيف أعجز القرآن العرب ببلاغته وأخرجهم من دياجير الظلمات إلى نور الهداية واليقين، فيقول: "ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض أنواره، وجلل الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقبل في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق، ممدود الإطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علو جلالته، أو يتفكر في حكمته... فانظر- إن شئت- إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف... وكل لفظ بديع واقع يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الإلهية."²

يستنتج من قول الإمام الباقلاني أنّ أهمية الإعجاز البلاغي تكمن فيما يلي:

-إخراج البشرية من ظلمات الكفر إلى نور الهداية.

-معرفة الله سبحانه وتعالى وبالتالي عبادته وتوحيده.

¹ الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص 279-280.

² المصدر نفسه: ص 283-284.

-إدراك أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل الذي لا يضاهيه أي كلام من كلام البشر.

-الإعجاز البلاغي يبين عظمة الله سبحانه وتعالى وجلال ربوبيته وألوهيته.

وبهذا فإنّ الإعجاز البلاغي وسيلة لإثبات حجة الله التي أيد الله بها نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم- ودليل على صدق رسالته على مدى الزمن، إذ أنّ معجزة البلاغة القرآنية التي تحدى بها الله سبحانه وتعالى أولئك العرب في سالف أزمانهم وأعجزهم على الإتيان ولو بسورة واحدة مثل سورة الكريمة لهي نفسها المعجزة التي نتحدى بها العالم المادي اليوم، لأنّ التحدي الرباني- "كان وما يزال بالبيان القرآني، ولذلك هو الوجه الوحيد في الإعجاز."¹

ومن خلال هذا نستخلص بأنّ أهمية الإعجاز البلاغي يمكن حصرها في ناحيتين:

أحدهما دينية: وتتمثل في أنّ الإعجاز البلاغي وسيلة إلى فهم القرآن الكريم، وإدراك عظمة الله سبحانه وتعالى، والرّد على الطّاعنين في القرآن الكريم، يقول أبو الهلال العسكري: "اعلم أن أحق العلوم بالتعلم وأولها بالحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة والفصاحة، الذي يعرف به إعجاز كتاب الله."² فقد أصبحت البلاغة بفضل قضية الإعجاز طريقاً للإيمان، ومن ثمّ أصبح تعلمها من أمور الدين.³ وأخرى علمية: تظهر من خلال دور الإعجاز البلاغي في تعويد مباحث البلاغة العربية بالإضافة إلى تذوق بلاغة القرآن الكريم، والوقوف على أسرارها، وإبراز الفرق الكبير بينها وبين بلاغة البشر، إذ كان البحث في الإعجاز البلاغي سبباً في لفت أنظار العلماء إلى الاهتمام بفنون القول، وتحديد عناصر علم البلاغة.⁴ وعلى هذا الأساس "فعلم إعجاز القرآن يضارع علم البلاغة"⁵، لأنّ علم البلاغة لم تقعد قواعده ولم تؤصل أصوله ومباحثه إلّا بعدما اتجهت عناية العلماء إلى البحث في الإعجاز البلاغي، والوقوف على أسرار البلاغة والبيان في كتاب ربّ البرية سبحانه وتعالى.

1 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص113.

2 أبو الهلال العسكري: "الصناعتين"، مصدر سابق، ص24.

3 ينظر: عبد العزيز عبد المعطي عرفة: "قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية"، مرجع سابق، ص796.

4 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص35.

5 محمود محمد شاكر: "مداخل إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص5.

ج- التحدي الرباني بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم:

إنّ التحدي بإعجاز القرآن أمر صريح لا خلاف فيه، فقد بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- نبياً ورسولاً إلى أمة البيان والفصاحة والبلاغة على وجه الخصوص، والبشرية عامة على وجه العموم، وأيده بكتابه الكريم ليكون حجة تدحض شركهم وأباطيلهم، "فتلا المصطفى عليه الصلاة والسلام، في قومه قريش ما تلقى من كلمات معجزته، فأمن بها من آمن بمجرد أن أصغى إليه، وعز على طواغيت الوثنية القرشية أن يسلموا بنبوة بشر مثلهم"¹، فراحوا يستهزؤون به ويسخرون من دعوته ويتهمونه بالسحر والكهنة والجنون، لكنهم كانوا في قرارة أنفسهم متيقنين بأنّ هذا الكلام ليس من كلام البشر، ومع ذلك عاندوا علواً واستكباراً ليس إلا، ومن هنا بدأ الجدل والتّحدي بين القرآن الكريم وكفار قريش.

فقد بدأ حزب المعارضة بزعمارة كفار قريش بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأمر تعجيزية ومعجزات مادية، وفي مقابل ذلك كان يرد عليهم القرآن الكريم متمسكاً بتحديه البلاغي وإعجازه البياني، مقيماً عليهم العجز في أن يأتوا بمثل نظم القرآن الكريم، واستمرت هذه المعارضة، لينتصر في الأخير الحق على الباطل، فسلم كفار قريش أمرهم، أظهروا عجزهم واستسلموا أمام عظمة القرآن الكريم وبلاغته. وفي القرآن الكريم آيات تبين معارضة قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ومطالبته بمعجزات مادية قصد تعجيزه من ذلك:

قوله تعالى: ((وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِلِّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا)²

¹ عائشة عبد الرحمن: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق"، مرجع سابق، ص 60.

² سورة الإسراء: الآية 90-93.

كما ورد عنهم كذلك ما ذهب إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا)¹

ومن الآيات التي تبين معارضتهم وجدالهم للنبي صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى)²

وكان غرض قريش من هذا التحدي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يضعوا من شأنه وينزلوه عن تلك
المنزلة التي حباها الله بها، بالإضافة إلى ذلك أنهم أرادوا أن يعرضوا الناس عن سماع القرآن الكريم نظرا للتأثير
الذي كان يتركه على نفوس سامعيه، ولم يكتفوا بذلك بل لجؤوا إلى السيف ليكون الفاصل بينهم وبين دعوة
محمد صلى الله عليه وسلم³، وشاء الله تعالى إلا أن يتم نوره، وينصر نبيه ويقيم الحجة على هؤلاء الكفار
بتحديهم ببلاغة القرآن الكريم.

1- تحدي الإنس والجن: إن أول تحد صريح من الله سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم يظهر في الآية
الثامنة والثماني من سورة الإسراء حيث يقول تعالى: (قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل
هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا)⁴

"وسورة الإسراء هي السورة الخمسون من السور التي نزلت بمكة، وكان نزولها في حادثة الإسراء، وكانت
هذه الحادثة قبل الهجرة بسنة، أي في السنة الثانية عشرة من البعثة، فتكون هي السنة التي اتخذ فيها التحدي
بالقرآن شكله الصريح، وكان هذا بعد أن نزل منه خمسون سورة وهو قدر صالح للتحدي في أول الأمر."⁵
وقد تحدى الله سبحانه وتعالى الثقلين من الإنس والجن على أن يأتوا بمثل كتابه الكريم، معنى هذا أنه لو
تناصر الإنس والجن على أن يأتوا بشبه القرآن الكريم في النظم والتأليف والبلاغة والبيان، فلم يستطيعوا

1 سورة الفرقان: الآية 7-8.

2 سورة القصص: الآية 48.

3 ينظر: أحمد أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مصر، نخضة مصر للطباعة والنشر، د ط، مارس 2004م، ص 44.

4 سورة الإسراء: الآية 88.

5 عبد المتعال الصعيدي: "دراسات إسلامية"، مصر، دار الفكر العربي، ط 1، د ت، ص 97.

ذلك، وهذا ما أدركه الجن، يقول تعالى: (قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)¹

فقد أدرك الجن إعجاز القرآن الكريم وسلموا بعجزهم أمام عظمته، واعترفوا بأن القرآن الكريم أعجوبة فريدة من نوعها، قال تعالى: (وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ)². ويقول أيضا: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ)³ في حين استكبر كفار قريش وعاندوا وعارضوا علوا وطغيانا، فجاءت نبرة التحدي الرباني صارخة في وجه أولئك العرب معلنة تعجزهم في جنس ما برعوا فيه.

2- تحدي بلغاء العرب: تحدى القرآن الكريم بلغاء العرب على أن يأتوا بمثل بلاغة القرآن الكريم ونظمه، واستدرجهم في ذلك عبر مراحل "بما يستدعيه المنطق من التحدي بالأصعب فالأسهل"⁴. وقد اختلف العلماء في ترتيب آيات التحدي، فير أن أكثر العلماء أجمعوا على هذا الترتيب الذي سنورده كالتالي⁵:

– **التحدي بالقرآن كله:** ويظهر ذلك في قوله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)⁶ وكذلك في قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)⁷

¹ سورة الجن: الآية 1-2.

² سورة الجن: الآية 12-13.

³ سورة الأحقاف: الآية 29.

⁴ نعيم الحمصي: "فكرة إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص 22.

⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص 21.

⁶ سورة الإسراء: الآية 88.

⁷ سورة الطور: الآية 33-34.

-التّحدي بعشر سور: قال الله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ¹

-التّحدي بسورة واحدة: ويظهر ذلك من خلال قوله عز وجل: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ²
وكذلك في قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ³

"وكان هذا آخر تحد ورد في القرآن، وقد اختتم بمثل ما ابتداء به من إعلان عجزهم صريحا عن الإتيان بمثل ما تحدوا به." ⁴

ولم نأخذ بعين الاعتبار التّرتيب الرّمزي في نزول هذه الآيات القرآنية لأنّ ما يهمنا منها هو التّحدي والمعاجزة التي بدأت من الأصعب فالأسهل ليكون ذلك دليل عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، ويستمر هذا الإعجاز في كتاب الله تعالى إلى قيام الساعة.

3-تحدي الغرب وموقف المستشرقين من القرآن الكريم: لقد أعجب القرآن العرب ببلاغته المتفردة وبيانه الخاص الفريد في أسلوبه وخصائصه، والإعجاز القرآني إعجاز عام يشمل البشرية جمعاء من عصر المبعث إلى يوم البعث.

وعلى الرغم من إدراك البشرية عظمة القرآن الكريم وأنّه لا يمكن لأيّ من البشر مجاراته ولو اجتمع على ذلك إنسهم وجنهم، إلا أنّهم لا يزالون يشككون في هذا القرآن الكريم ويطعنون فيه، ولا زلنا نشهد الشّبهات التي تلقى على القرآن الكريم من قبل الغرب بغرض التّشكيك فيه والظعن في مصداقيته وفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مقابل ذلك يواصل القرآن الكريم تحديه لهؤلاء المعاندين ويطعنهم بالحجة ببلاغته

¹ سورة هود: الآية 13-14.

² سورة يونس: الآية 38.

³ سورة البقرة: الآية 23.

⁴ عبد المتعال الصعيدي: "دراسات إسلامية"، مرجع سابق، ص 98.

وبيانه، وثبت لهم بأنه كلام الله عز وجل، قال الله تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)¹

وعلى هذا الأساس لا يمكننا أن نتحدى الغرب المادي اليوم بعلم القرآن الكريم وإنما نتحداه بالبيان القرآني²، ونقيم عليهم الحجة والبرهان بالبلاغة القرآنية، فالبيان القرآني الذي أعجز كفار قريش في بداية الدعوة الإسلامية، وهو نفسه الذي سيعجز كفار الغرب في عصرنا الحالي، ويعجز البشرية جمعاء إلى قيام الساعة.

وقد شهد الغرب أنفسهم بروعة الأسلوب القرآني، بعدما درسوا القرآن الكريم وتذوقوا بلاغته، والتمسوا سحر بيانه ومدى تأثيره على النفوس، يقول المستشرق البريطاني أنرولد: "إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار (alver) الإسباني الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى أن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به."³ ويقول أيضا المستشرق الفرنسي بلاشير: "لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المنزلة."⁴

بين بلاشير من خلال قوله هذا شيئا مهما يجب الالتفاتة إليه وهو أنّ القرآن الكريم معجز ببيانه العربي، وهذا ما تعجز عن أدائه اللغات الأخرى، إذ ينعدم ذلك الجمال وتلك الروعة في القرآن الكريم إذا ما تمت ترجمته إلى لغات أخرى، وهذا هو السر الإعجازي في نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، قال الله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)⁵.

1 سورة التوبة: الآية 32.

2 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 113.

3 عماد الدين خليل: "قالوا عن الإسلام"، الرياض، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط1، 1412هـ-1992م، ص 50.

4 المرجع نفسه: ص 52.

5 سورة فصلت: الآية 44.

ومن الذين اعترفوا أيضا بالإعجاز البلاغي الأمريكي فلاير إذ يقول "إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد، وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن، فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى."¹

هذه بعض شهادات مفكري الغرب حول إعجاز القرآن الكريم والتي اعترفوا فيها ببلاغة القرآن الكريم وأسلوبه المتفرد عن غيره من أساليب البشر.

وخلاصة القول: إن الإعجاز البلاغي الذي تحدى الله سبحانه وتعالى به أولئك العرب، وهم أهل الفصاحة والبلاغة- في بداية الدعوة الإسلامية-، هو نفسه الذي يطبق على سائر الأجيال عبر مختلف الأزمنة والعصور، وإن أعجزنا الغرب المادي اليوم بعلمه نعجزه نحن ببلاغتنا القرآنية، وبياننا الإلهي المقدس، وصدق مالك بن أنس رضي الله عنه حين قال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"²، فإذا كان أولها لم يصلح إلا بالبيان فأخرها كذلك لن يصلح إلا به."³

وعلى هذا الأساس يجب على المسلمين أن يقفوا على خصائص الأسلوب القرآني ويستنبطوا أسرار البلاغية ليثبتوا للبشرية بأنه أسلوب متفرد، وأنه الوجه الوحيد للتّحدي الرّباني، ويكون بذلك سلاحا إعجازيا تحمله الأمة الإسلامية في مواجهة الغرب الذي أعجزها سلاحه المادي.

¹ عماد الدين خليل: "قالوا عن الإسلام"، مرجع سابق، ص 58.

² القاضي عياض: "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى"، مصدر سابق، ج 2، ص 88.

³ محمود محمد شاكر: "مداخل إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص 191.

الفصل الثاني: الأسلوب القرآني وخصائصه

البلاغية

أولاً: مفهوم الأسلوب القرآني وأنواعه

ثانياً: خصائص الأسلوب القرآني

ثالثاً: الأسلوب القرآني وأثره في علم التفسير

الفصل الثاني : الأسلوب القرآني وخصائصه البلاغية

إنّ القرآن الكريم هو المورد الأصيل، والمثال النادر لكل درس لغوي بلاغي، وإعجازه على الوجه البلاغي هو الذي أسس لعلم البلاغة العربية ومباحثها.

فالقرآن الكريم هو كتاب البلاغة الإلهية المتفردة السامية، وذلك لما يحويه من مظاهر بلاغية وخصائص أسلوبية فريدة كامنة في كلّ جملة وتفصيلاً، ففي سياق الموضوعي بلاغة، وفي نسقه الفني بلاغة، وفي إيقاعه الموسيقي بلاغة، وهذا ما حارت في كنهه الأبواب والعقول، يقول سيد قطب: "إنّ في هذا القرآن سرا خاصا يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها... إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن."¹

ويرى سيد قطب بأنّه يصعب تحديد هذا السرّ الإعجازي المكنون في القرآن الكريم:

1- أهو العبارة ذاتها؟

2- أهو المعنى الكامن فيها؟

3- أهو الصور والظلال التي تشعها؟

4- أهو الإيقاع الموسيقي؟

5- أهي كلها مجتمعة؟

6- أم أنّها هي وشيء غير محدد؟².

ثمّ يواصل قوله بأنّ "ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً... ثم يأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله."³

فالقرآن الكريم على الرّغم من نزوله منجماً في ثلاث وعشرين سنة إلاّ أنّه ملتحم مع بعضه البعض تمام الالتحام، فنجد أنّ النّظم القرآني يأتي منسجماً مع السّياق، وفي نفس الوقت متناسقاً مع الإيقاع الموسيقي، ممّا يخلق جواً نفسياً مؤثراً في سامعيه.

¹ سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج6، ص3399.

² ينظر: المصدر نفسه، ص3399.

³ المصدر نفسه، ص3399.

وإنّ من يتأمل القرآن الكريم تأملاً دقيقاً، ويتدبره تدبراً عميقاً سيلمح فيه تلك الروح الواحدة والوحدة المتماسكة التي تربط أجزاءه ومواضيعه بكل جمال وروعة. وهذا التماسك في النسق والسياق هو ما سماه المعاصرون بالوحدة العضوية وعدّه القدماء وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، وسمّوه بعلم المناسبة.¹ ومن هذا المنطلق كان للأسلوب القرآني خصوصيته وتفردّه مما جعل العرب تعجز عن مجاراته والإتيان بمثله.

غير أنّ استقصاء هذه المزايا الأسلوبية التي تفرد بها كتاب الله تعالى، أمر صعب المنال. وحتى نتمكن من استجلاء تلك الخصائص، والكشف عن سر جمال الأسلوب القرآني وسبب إعجازه لا بد من إلقاء النظر على مفهوم الأسلوب.

¹ عده السيوطي الوجه الرابع من أوجه الإعجاز القرآني في كتابه معترك الأقران.

أولاً: مفهوم الأسلوب القرآني وأنواعه

لقد احتفى الدرس الأدبي العربي منذ القرن الثاني الهجري بدراسة الأسلوب وكان ذلك في مباحث الإعجاز القرآني التي استدعت بالضرورة ممن تعرضوا لتفسير القرآن الكريم أن يقفوا عن مدلول لفظة أسلوب، وذلك من خلال الموازنة بين أسلوب القرآن الكريم وغيره من أساليب العرب، متخذين ذلك وسيلة لإثبات وجه الإعجاز القرآني.¹

لكن هناك بعض الدراسات الحديثة تدعي أنّ نشأة الدراسات الأسلوبية هي من صنيع الغرب، وحتى نصل إلى المفهوم الجامع لكلمة أسلوب لابد من الوقوف على دلالتها عند كل من العرب والغرب وثبتت أسبقية البحث في ذلك للبلاغيين العرب.

أ- تعريف الأسلوب القرآني: الأسلوب القرآني أو أسلوب القرآن مركب إضافي مكون من كلمتين: الأسلوب والقرآن، وتحتاج كل منهما إلى تعريف، ولا داعي لتعريف القرآن لأنه سبق وأن ذكرنا تعريفه فيما أسلف، وعلى هذا الأساس يبقى فقط الوقوف على مفهوم الأسلوب لنصل في الأخير إلى تقديم تعريف جامع مانع عن الأسلوب القرآني.

1- التعريف اللغوي: لقد تعددت المعاني اللغوية لكلمة أسلوب، واختلفت دلالتها باختلاف استعمالاتها، ولعل أشهرها ما ذهب إليه ابن منظور في أن الأسلوب مشتق من مادة سلب، إذ يقال للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، كما قال: بأن الأسلوب: الطريق والوجه والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، والأسلوب: الطريق تأخذ فيه، والأسلوب: بالضم، الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي في أفانين منه، وإن أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبراً.²

إذن: يستنتج من تعريف ابن منظور: بأن الأسلوب يطلق على سطر النخيل وذلك لأنه يدل على الاستقامة والاستمرار والطول بالإضافة إلى أنّ الكلام يشبه السطر من النخيل، فنجد الكلمة تتلاءم مع أخرى لتكون لنا جملة، والجملة تتبعها الثانية فتواليها، فيتشكل لنا كلاماً مستقيم المعنى يؤدي غرضاً معيناً.

¹ ينظر محمد بلوحي: "الأسلوب بين التراث البلاغي العربي والأسلوبية الحديثة"، مجلة التراث العربي، اتحاد كتاب

العرب، ع95، رجب1425هـ، أيلول2004م، ص53.

² ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج3، ص314.

كما قال: بأنّ الأسلوب هو الطّريق، وذلك لأنّه طريق ووسيلة يوصل من خلالها المتكلم غرضه إلى المتلقي، والوجه والمذهب لأنّه يعبر عن مذهب المتكلم ووجهته.
 أمّا عن قوله بأنّ الأسلوب هو الفنّ لأنّ المتكلم يعبر من خلاله على أفكاره بطريقة فنية تعتمد على التّظم والتنسيق في تأدية المعنى بصورة رائعة.
 وهذا المعنى الأخير في أنّ الأسلوب هو طريقة المتكلم الفنية التي يعبر بها عن أغراضه، هو المعنى الأنسب والأقرب إلى المعاني الاصطلاحية.¹

2- التعريف الاصطلاحي: إنّ كلمة الأسلوب في المفهوم الاصطلاحي أعقد منها على المفهوم اللغوي وأحفله بالمناقشة والجدل، إذ تعددت آراء العلماء قديما وحديثا حول تحديد ماهية الأسلوب، وتنوعت تعريفاتهم بتنوع مجالاتهم واختصاصاتهم من ذلك:

***الأسلوب في اصطلاح الغربيين:** تعتمد أغلب الدّراسات الغربية في تعريفها لمفهوم الأسلوب على التعريف الذي قدمه الفرنسي الكونت جورج بوفون (1788م) من خلال مقال في الأسلوب *discours sur le style*²

وعرف فيه الأسلوب بقوله *le style est Lhomme même*، وقد تمت ترجمة هذا التعريف إلى اللغة العربية: يقول بوفون: "هذه الأشياء هي أشياء خارج الرجل، أما الأسلوب فهو الرجل ذاته، الأسلوب إذن لا يمكن أن يطير ولا أن ينتقل، ولا أن تتعاقبه الأيدي، فإذا كان الأسلوب راقيا ونبيلًا وساميا، فإن الكاتب سوف يعد كذلك في كل العصور."³

إنّ عبارة بوفون: -الأسلوب هو الرجل ذاته- فرضت نفسها على البحث الأسلوبي الغربي والعربي، وقد نظر إليها من زوايا عديدة، لذلك كان لزاما علينا الوقوف عليها.

يبدو أنّ مصطلح الأسلوب عند بوفون قد أجحف في حقه عندما ترجم إلى اللغة العربية، ونظر إليه نظرة جزئية ويظهر ذلك من خلال قول الدكتور محمد مندور الذي يقول: "وفي الأدب الموضوعي تتركز

¹ ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج2، ص239.

² ينظر: أحمد درويش: "النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي"، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998م، ص182.

³ المرجع نفسه، ص188.

شخصية الأديب وعبقريته المميزة فيما يسميه الأوربيون بالأسلوب (style) عندما نراهم يقولون: إن أسلوب الرجل هو الرجل نفسه.¹

غير أنّ هذا التعريف الذي قدمه محمد مندور عن الأسلوب ونسبه إلى بوفون "غير وارد عند بوفون ولا عند الأوربيين بهذا المعنى."²

وعلى هذا الأساس فالأصل الصحيح الذي قدم به بوفون مفهومه للأسلوب هو: "إن الأسلوب هو من الرجل نفسه (le style est de Lhomme lui même)."³

ويشير الباحثون إلى أنّ أصل كلمة أسلوب "style" في اللغة الأوربية مشتقة من الأصل اللاتيني "Stylus" ويعني الريشة⁴، ثمّ انتقل عن طريق المجاز إلى مفهومات تتعلق كلها بطريقة الكتابة فارتبط أولاً بطريقة الكتابة اليدوية دالاً على المخطوطات، ثم أخذ يطلق على التعبيرات اللغوية الأدبية.⁵ فكلما أسلوب في اللغة اللاتينية style هي بمعنى سلوك أو طريقة في الكتابة والكلام.

وبالإضافة إلى هذا هناك تعريفات أخرى عند الغربيين للأسلوب منها:

تعريف جورج مونان (george mounin) الذي يرى بأنّ مصطلح style يعني السمة اللسانية المميزة للنص أو لمجموعة من النصوص.⁶

وينظر بعض اللسانيين الأمريكيين من أمثال هيل "hill" إلى مصطلح style على اعتباره رسالة تمر عبر علاقة بين مجموعة عناصر لغوية فوق مستوى الجملة.⁷

ويقول أيضاً رومان رولاند⁸: "الأسلوب هو الروح (le style c'est l'am)."⁹

1 محمد عباس: "الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني"، دمشق، دار الفكر، ط1، 1999م، ص41.

2 المرجع نفسه: ص42.

3 المرجع نفسه: ص42.

4 ينظر: صلاح فضل: "علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته"، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1419هـ-1998م، ص93.

5 المرجع نفسه: ص93.

6 ينظر: مترجم عن. george mounin :dictionnaire de la linguistique ;paris ,2004 ,p308.

7 ينظر: فيلي سانديرس: "نحو نظرية أسلوبية لسانية"، ترجمة: خالد محمود جمعة، دمشق، دار الفكر، ط1، 2003م، ص962.

8 رومان رولاند أديب فرنسي (1866-1944م) حائز على جائزة نوبل للأدب سنة 1915م.

9 فيلي سانديرس: "المرجع السابق:، ص962.

ويتقارب هذا القول كثيرا مع قول شوبنهار¹، في أن "الأسلوب هو التعبير عن ملامح الروح."² وعرف بيروجيرو الأسلوب بقوله: "ليس ثمة شيء أحسن تعريفا من كلمة أسلوب، فالأسلوب طريقة في الكتابة، وهو من جهة أخرى، طريقة في الكتابة لكاتب من الكتاب، والجنس من الأجناس، ولعصر من العصور."³

هذه بعض معاني الأسلوب "le style" على ضوء مفاهيم الفكر الغربي، والتي على خلفيتها انبنى علم آخر وهو ما يعرف عندهم بالأسلوبية stylistique، ويعود تأسيس الأسلوبية إلى العالم اللساني السويسري شارل بالي (ت1947م)، معتمدا في ذلك على خلفية دراساته أستاذه فرديناند ديسوسير (ت1913م) لكنه تجاوز ما قال به أستاذه⁴، وعرف شارل بالي الأسلوبية بقوله: "تدرس الأسلوبية وقائع التعبير اللغوي من ناحية مضامينها الوجدانية، أي أنها تدرس تعبير الوقائع الحساسة المعبر عنها لغويا، كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساسة."⁵

ويستنتج من هذا أنّ الأسلوبية فرع من اللسانيات العامة التي أتى بها ديسوسير، وبهذا فالأسلوبية أو علم الأسلوب -طبقا للمفهوم الغربي- "هو دراسة التعبير عن الفكر من خلال اللغة."⁶ وخلاصة الحديث عن الأسلوب والأسلوبية في الفكر الغربي هي أنّ الأسلوب كلمة موعلة في التاريخ اللاتيني القديم وكانت تستعمل للدلالة على نمط القراءة والكتابة والتفكير، أمّا الأسلوبية فهي مصطلح حديث ظهرت بوارده مع لسانيات ديسوسير وتأسست مع شارل بالي، وهي علم يدرس الأسلوب في إطار لغوي.

1 شوبنهار (1788م-1860م) فيلسوف ألماني معروف بنزعته التشاؤمية.

2 فيلي سانديرس: "نحو نظرية أسلوبية لسانية"، مرجع سابق، ص962.

3 بيروجيرو: "الأسلوبية"، ترجمة: منذر عياشي، حلب، دار الحاسوب للطباعة، ط2، 1994م، ص9.

4 ينظر: موسى سامح رابعة: "الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها"، الكويت، دار الكندي، ط1، 2003م، ص9.

5 بيروجيرو: "الأسلوبية"، مصدر سابق ص54.

6 ينظر: نور الدين السد: "الأسلوبية وتحليل الخطاب -دراسة في النقد العربي الحديث"، الجزائر، دار هومه، 1998م، ج1، ص16.

وبهذا فأينما وجد الأسلوب واللغة وجدت الأسلوبية¹. وذلك لأنّ كلّ من "الأسلوب والأسلوبية (style and stylistic) متلازمان."²

هذه مجموعة من تعريفات الغربيين لمفهوم-الأسلوب والأسلوبية-ارتأينا ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر، لأنّ الحديث عنها مطول وواسع المجال، ومقامنا لا يسع لذلك. وإذا كان هؤلاء الغربيون يدعون أنّهم أول من أسس للدراسات الأسلوبية فإن مفهومهم هذا خاطيء، لأن العرب سبقهم إلى ذلك بعدة قرون، وكتب البلاغة والأدب والدراسات القرآنية والإعجازية خير إثبات على ذلك.

*الأسلوب في اصطلاح البلاغيين العرب:

طالما دارت كلمة "الأسلوب" في كتابات البلاغيين والأدباء العرب قدمائهم ومحدثيهم، وقد تعددت دلالاتها من ذلك :

نجد قول ابن قتيبة (ت276هـ): "إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه، وفهم مذهب العرب، وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات."³

والملاحظ أنّ الباقلاني (ت405هـ) أول من قال بلفظ الأسلوب، وذلك عند حديثه عن نظم القرآن المعجز فقال: "أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد."⁴ يستنتج من هذا بأنّ الباقلاني أشار إلى لفظ الأسلوب عند حديثه عن التباين بين أسلوب القرآن الكريم وأساليب العرب، غير أنّه لم يقدم أيّ مفهوم عن الأسلوب سوى التلميح الذي يظهر من خلال كلامه بأنه فهم بأنّ الأسلوب طريقة من الكلام، يختص بها كلام عن غيره من أنواع الكلام الأخرى.

¹ ينظر: علي حاجي خاني: "الأسلوب والأسلوبية وعناصر الأسلوب الأدبي من منظور القرآن الكريم"، مجلة إضاءات نقدية، الأردن، ع8، كانون الأول 2012م، ص84.

² عدنان علي رضا التحوي: "الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام"، د ب ن، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط1، دت، ص154.

³ ابن قتيبة: "تأويل مشكل القرآن"، مصدر سابق، ص12.

⁴ الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص52.

ولعل أنّ أول من استعمل لفظ الأسلوب وعرفه تعريفاً دقيقاً موجزاً الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) ، حيث قال: "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم وتقديره وتمييزه أنه يتدبّر الشاعر في معنى له وعرض أسلوباً، والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه."¹

فالأسلوب في مفهوم عبد القاهر الجرجاني هو ذلك النظم والترتيب في الكلام مما يعطيه رونقاً فنياً وحساً جمالياً و"ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها."²

وشبهه عبد القاهر الجرجاني نظم المؤلف وترتيبه لكلامه بالصّباغ الذي يتفنن بأصباغه في ترتيب الألوان التي تتولد عنها رسومات ونقوش.³

ومن عرفوا الأسلوب بصورة جلية واضحة ابن حازم القرطاجني (ت684هـ) ويظهر ذلك في قوله: "ولما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد، ومسائل منها تنتقى... وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات، والنقلة من بعضها إلى بعض، وبكيفية الإطراد في المعاني صورة وهيأة تسمى الأسلوب."⁴

كما ربط بين النظم والأسلوب فقال: "وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ... فالأسلوب هيأة تحصل عن التآليف المعنوية والنظم هيأة تحصل عن التآليف اللفظية."⁵

قد بين حازم القرطاجني مفهوم الأسلوب وحصره في التّأليف المعنوي، وربط بينه وبين النّظم هذا الأخير الذي حدده في الجانب اللفظي، فالكلام عنده يتكون من النّظم وهو تأليف الألفاظ، والأسلوب وهو تأليف المعاني.

1 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص468-469.

2 المصدر نفسه: ص81.

3 ينظر: المصدر نفسه: ص359.

4 حازم القرطاجني: "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، تقدّم وتحقيق: محمد لحبيب بن الخوجة، تونس، الدار العربية

للكتاب، ط3، 2008م، ص327.

5 المصدر نفسه: ص327.

بالإضافة إلى هذه التعريفات للأسلوب هناك محاولة طيبة للعلامة ابن خلدون (ت808هـ) إذ عرف الأسلوب في كتابه المقدمة بقوله: "ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصنعة -صناعة الشعر- وما يريدون بها إطلاقهم: فاعلم أنها عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها وبصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، فإن لكل فن من الكلام أساليب يختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة".¹

يستنتج من هذا النص المطول لابن خلدون أنّ الأسلوب -حسب رأيه- يشبه المنوال والقالب، وأنّ أصل الأسلوب هو تلك الصورة الذهنية التي ينسجها الخيال وتمتلئ بها النفس دون أن ينسى الظواهر الأخرى، من إعراب وبيان وعروض والتي تساهم في صقل تلك الصورة وإخراجها في شكل قالب أو منوال يفني بالمقصد والمطلب، ليختتم في الأخير بالإشارة إلى أنّ الأساليب تختلف باختلاف فنون الكلام.

هذه مجموعة من تعريفات القدماء للأسلوب، ومثلما كانت لهؤلاء بصمة في الدراسات الأسلوبية، نجد كذلك المحدثين تناولوا تعريف الأسلوب في دراساتهم وإن اختلفت آراؤهم وتباينت، ولعل مرد هذا الاختلاف عائد إلى طبيعة ثقافة كل واحد منهم، وطبيعة مصادرهم العلمية، فمنهم من عاد إلى التراث باحثا عن تعريفات لمفهوم الأسلوب، ومنهم من بحث عن دلالاته في المفاهيم الغربية، ومن الذين درسوا الأسلوب وعرفوه في العصر الحديث:

أشهرهم أحمد الشايب من خلال كتابه "الأسلوب" الذي قدم فيه تعريفات متنوعة عن الأسلوب منها: "إذا سمع الناس كلمة الأسلوب فهموا منها هذا العنصر اللفظي الذي يتألف من الكلمات فالجمل والعبارات، وربما قصره على الأدب وحده دون سواه من العلوم والفنون وهذا الفهم -على صحته- يعوزه

ابن خلدون: "المقدمة"، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار يعرب، ط1، 1425هـ -

2004م، ج-2، ص397

شيء من العمق والشمول ليكون أكثر انطباقاً على ما يجب أن يؤديه هذا اللفظ من معنى صحيح وذلك أن هذه الصورة اللفظية التي هي أول ما تلقى الكلام لا يمكن أن تحي مستقلة، وإنما يرجع الفضل في نظامها اللغوي الظاهر إلى نظام آخر معنوي انتظم وتألف في نفس الكاتب أو المؤلف فكان بذلك أسلوباً معنوياً، ثم تكون التأليف اللفظي على مثاله، وصار ثوبه الذي لبسه أو جسمه إذا كان المعنى هو الروح، ومعنى هذا أن الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة وهو يتكون من العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم...¹

أنكر أحمد الشايب في نضه هذا مزاعم القائلين بأنّ الأسلوب ينحصر في الجانب اللفظي، وقال بازواجية اللفظ والمعنى مشيراً إلى أنّ المعنى أسبق من اللفظ، لأنّ المعنى يتصور في الذهن أولاً ثم يعبر عنه ويخرج في صورة لفظية إما باللسان نطقاً أو القلم كتابة. وقد شبه أحمد الشايب الأسلوب بالشخصية فمثل اللفظ بالجسم والمعنى بالروح، وبهذا قد أشار إلى قضية جوهرية في الدرس اللغوي الأسلوبى الحديث وهي قضية اللغة والفكر.²

وعرفه كذلك بقوله: "فالأسلوب هو فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً تشبيهاً أو مجازاً أو كناية، تقريراً أو حكماً وأمثالاً، فإذا صح هذا الاستنباط كان للأسلوب معنى أوسع إذ يتجاوز هذا العنصر اللفظي فيشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع والتأثير."³

فأحمد الشايب احتذى حذو القدماء في تعريفه للأسلوب والدليل على ذلك ما قاله: "والذي يعيننا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ في معناه ناحية شكلية خاصة هي طريقة الأداء أو طريقة التعبير يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللغوية، ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم."⁴

1 أحمد الشايب: "الأسلوب-دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط8، 1411هـ-1991م، ص40.

2 ينظر: خير الدين سيب: "الأسلوب والأداء-دراسة صوتية تباينية في القراءات القرآنية-"، أطروحة دكتوراه دولة، إشراف: محمد عباس، تلمسان، جامعة أبي بكر بلقايد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها، 1424هـ-1425هـ-2003م-2004م، ص62.

3 أحمد الشايب: "الأسلوب"، مرجع سابق، ص41.

4 المرجع نفسه: ص44.

ومن الذين عرفوا الأسلوب كذلك في العصر الحديث بدرأوي زهران فقال: "أن الأسلوب style منذ القدم يلحظ في معناه ناحية شكلية خاصة، هي طريقة الأداء أو طريقة التعبير التي يسلكها المتكلم."¹ ويقول أيضا: "تطلق كلمة الأسلوب على العبارة اللغوية وتعني الجانب اللفظي وأنه في عرف دارسيه منذ أرسطو يبحث العبارات اللفظية أو اللغوية."²

يبدو بدرأوي زهران من خلال نصه أنه من أنصار المدرسة الشكلية التي تعنى باللفظ على حساب المعنى، وقد حصر الأسلوب في هذه الناحية الشكلية، فقال: "وذلك لأن الجانب الشكلي هو ما ينصرف إليه اللفظ على إطلاقه، فالعبارات الظاهرة هي التي تسنى أسلوبا لأنها دليله وناحيته الناطقة."³

كما أشار إلى مفهوم الأسلوب مصطفى أمين وعلى الجارم في كتابهما "البلاغة الواضحة مع دليلها" فقالا: "أنه المعنى الموضوع في ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه، وأنواع الأساليب ثلاثة: الأسلوب العلمي، الأسلوب الأدبي، والأسلوب الخطابي."⁴

بالإضافة إلى ذلك قد أشار الدارسون العرب إلى ما يعرف حديثا بعلم الأسلوب أو بالمفهوم الغربي "stylistique"، فالأسلوبية الحديثة ما هي إلا تلك البلاغة القديمة يقول صلاح فضل: "وعندما شب علم الأسلوب أصبح هو البلاغة الجديدة في دورها المزدوج كعلم للتعبير ونقد للأساليب الفردية."⁵

وبهذا فعلم الأسلوب ما هو إلا البلاغة في ثوبها الجديد، لأن البلاغة القديمة كانت تعنى برصد مكامن الجودة، وتحكم على الأقوال من خلال محسّناتها الجمالية، وهذا ما تدرسه اليوم الأسلوبية⁶، في الكشف عن الأبعاد الجمالية والفنية للخطاب الأدبي.

1 بدرأوي زهران: "أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث"، القاهرة، دار المعارف، د ط، د ت، ص 19.

2 المرجع نفسه: ص 19.

3 المرجع نفسه: ص 20.

4 علي الجارم ومصطفى أمين: "البلاغة الواضحة مع دليلها-البيان والمعاني والبديع-"، لبنان، بيروت، دار الفكر، ط 1، 2006م، ص 10.

5 صلاح فضل: "علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته"، مرجع سابق، ص 175.

6 ينظر: المرجع نفسه: ص 175-176.

ومن أشهر النقاد العرب الذين أشاروا إلى مفهوم الأسلوبية الناقد التونسي عبد السلام المسدي في كتاب له "الأسلوبية والأسلوب"، يقول: "إن الأسلوبية... علم تحليلي تجريدي يرمي إلى إدراك الموضوعية في حقل إنساني عبر منهج عقلائي يكشف البصمات التي تجعل السلوك اللساني ذا مفارقات عمودية."¹

ويرى المسدي بأن "الأسلوبية شأنها شأن البلاغة في التفكير الإنساني عامة."²

وبهذا نستخلص بأن الأسلوبية الحديثة هي نفسها البلاغة القديمة أو جزء منها أو كما يقال بأن الأسلوبية هي الوريثة الشرعية للبلاغة القديمة."³

فقد أشار البلاغيون العرب قديما إلى الدراسات الأسلوبية نظريا وتطبيقيا، فليست هذه المكتسبات في علم الأسلوب "مقصورة على تلك الروافد الغربية... وإنما تمتد الإفادة إلى مجال قديم بسطه عبد القاهر في دلائله وأسراره وهياً به لمنهج لغوي صحيح في فهم النص وتحليله وإدراك جماليات صياغته"⁴، إذ أن أسس نظرية النظم عند إمام البلاغة ومنجزاته التي حققها في حقل الدرس البلاغي مع أواخر القرن الرابع الهجري هي نفسها منجزات الأسلوبية الحديثة الآتية من الغرب."⁵

وخلاصة القول: فإنّ درس الأسلوب والأسلوبية أخذ حظا كبيرا في الدراسات العربية قديما وحديثا، وقد "تواضع المتأدبون وعلماء العربية على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك."⁶

ونحن من خلال ما مر بنا نقول: أنّ الأسلوب سمة فردية تعبر عن رأي صاحبها إما نطقا أو كتابة.

1 عبد السلام المسدي: "الأسلوبية والأسلوب"، تونس، الدار العربية للكتاب، ط3، 1982م، ص37.

2 المرجع نفسه: ص37.

3 محمد عبد المطلب: "البلاغة والأسلوبية"، لبنان، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1994م، ص259.

4 المرجع نفسه: ص380.

5 ينظر: المرجع نفسه، ص380.

6 محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، مرجع سابق، ج2، ص239.

وقد توجّهت عناية العرب المسلمين إلى الدّراسات الأسلوبية من خلال دراستهم لأسلوب القرآن الكريم، محاولين بذلك استنباط مكامن الإعجاز المخبّأة في كتاب الله تعالى والتي تفرد بها عن سواه من الأساليب الأخرى.

3- تعريف الأسلوب القرآني كمركب إضافي: لقد أجهّد العديد من البلاغيين والمهتمين بالدّراسات

القرآنية أنفسهم قديماً وحديثاً- في تحديد ماهية الأسلوب القرآني والوقوف على خصائصه البلاغية التي كانت مناط التّحدي الرّباني، إذ لا جدال في أنّ القرآن "كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء."¹

وبعد مسيرة من البحث توصّلوا إلى أنّ أسلوب القرآن الكريم "هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ولاغربة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص، فإنّ لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها."²

إنّ أسلوب القرآن الكريم أسلوب متفرد عن سواه من الأساليب لأنّه أسلوب إلهي، وهذا ما أشار إليه الباقلاني في قوله: "وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد."³

وهذه الميزة التّفردية لأسلوب القرآن الكريم هي مناط التّحدي الرّباني الذي أعجز أرباب البلاغة والبيان.

فعلى الرّغم من أنّ اللغة التي اصطفاه الله تعالى لكتابه الكريم هي لغتهم العربية التي درجوا عليها إلا أنّهم عجزوا أمام تلك الطريقة التعبيرية الفريدة التي صاغ الله بها كلامه، إذ أن الله سبحانه وتعالى اصطفى من ألفاظ اللغة العربية أفصحها وأيسرها على اللسان، وأسهلها على الأفهام وأمتعها للأذان، وأقواها تأثيراً على القلوب وأوفاهها تأدية للمعاني ثم ركبها تركيباً مرصوفاً محكم البنيان، لا يدانيه في نسجه كلام من البشر.

وقد سلك العلماء مسلك المقارنة في تمييز مدى التّفاوت بين أسلوب القرآن الكريم وأساليب العرب، وإنّ هذه المقارنة هي الأساس الذي بنيت عليه دراسة أساليب القرآن ومقابلتها بأساليب البلغاء، وتم من خلالها

1 عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، مصر، دار المعارف، ط7، دت، ج1، ص13.

2 محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، مرجع سابق، ج2، ص239.

3 الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص52.

استخلاص عناصر الجودة في الأولى وعناصر التّقصير في الثانية¹، يقول الباقلاني عن أسلوب القرآن الكريم: "فإذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة، وأنه معجز وهذه خصوصية ترجع الى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه"².

يستنتج من هذا أنّ القرآن الكريم انفرد بأسلوبه عن أساليب العرب وخرج عن المؤلف المتعارف بينهم "لأن كلام الله جلّ ثناؤه أعلى وأرفع من أن يضاهي أو يقابل أو يعارض به كلام، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام العليّ الأعلى خالق كل لغة ولسان"³، وصدق الله حين قال: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)⁴

ومن هذا "يخلص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنّه ليس وضعا إنسانيا البتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيه عن ذلك به في طريقته ونسقه ومعانيه... ولقد أحسنّ العرب بهذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه، لأنهم رأوا حسنا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة."⁵

إذن: أسلوب القرآن الكريم في أبسط تعريفاته: هو الأسلوب المتفرد الخارج عن عرف ما اعتادت عليه العرب.

ويمكن القول كذلك: هو الأسلوب الرّباني المتفرد في نسقه التّرتيبي وسياقه التّركيبي والذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

وقد تعددت أساليب القرآن الكريم، وتنوعت بتنوع المقام لتفي بالغرض والمقصد والمراد.

1 ينظر: محمد كريم الكواز: "الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم"، بنغازي، دار الكتب الوطنية، ط1، 1426هـ، ص135.

2 الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص52.

3 أبو الحسين ابن فارس: "الصاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها"، تحقيق: مصطفى الشومني، بيروت، مؤسسة بدران، 1382هـ -

1963م، ص41.

4 سورة النساء: الآية 82.

5 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص203.

ب- أنواع الأساليب في القرآن الكريم.

وظف القرآن الكريم أساليب شتى ونوع في استخدامها، وتفنن في عرضها، حسب سياق المقام، وذلك من أجل تحقيق أهداف ومقاصد يرمي إليها الشارع سبحانه وتعالى، إذ أنّ أساليب القرآن الكريم تتغير وتتبدل حسب الظروف والأوضاع، ومن هذه الأساليب ما يلي:

1- أسلوب التّريغ والتّرهيب في القرآن الكريم: معلوم لدينا أنّ القرآن الكريم كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب بلاغة وإعجاز، قال الله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)¹

وأسلوب التّريغ والتّرهيب من الأساليب البارزة في القرآن الكريم، ولا جدال في أنّه من أنجع الأساليب في الدّعوة، لاعتماده على عنصرَي الثّواب والعقاب.

والمقصود بالتّريغ في معناه اللغوي من رغب، يرغّب رغبة إذا حرص على الشيء وطمع فيه، والرّغبة السّؤال والطمع، وأرغبني في الشيء ورغبته: أعطاه ما رغب².

أمّا اصطلاحاً: "كل ما يشوق إلى الاستجابة، وقبول الحق والالتزام به والثبات عليه."³

وفي مقابل ذلك التّرهيب من رهب ورهب بالكسر، رهب الشيء خافه، الرّهبه الخوف والفرع.⁴

أمّا اصطلاحاً: التّرهيب "كل ما يخيف ويحذر من عدم الاستجابة، أو رفض هذا الحق أو عدم الالتزام به أو الثبات عليه."⁵

¹ سورة الزمر: الآية 23.

² ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج-3، ص91

³ عمر محمد عمر باحاذق: "أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني"، دمشق، بيروت، دار المأمون للتراث، ط1، 1414هـ-

1994م، ص128.

⁴ ينظر: ابن منظور: "المصدر السابق"، ج-3، ص131

⁵ عمر باحاذق: "المرجع السابق"، ص128

وقد حفل القرآن الكريم بكثير من المرغبات والمهبات، "ولئن دلت هذه الكثرة من آيات الترغيب والترهيب في كتاب الله الحكيم على شيء فإنما تدل على أهمية هذا الأسلوب ومنزلته على طريق الهداية والتوجيه."¹

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان كما خلق الجنة والنار، ويبيّن في كتابه العزيز الغاية التي من أجلها خلق الإنسان وهي عبادة الله وعمارة أرضه على الوجه الذي ارتضاه.

بالإضافة إلى ذلك بيّن لهم الحلال من الحرام، ورغبهم في الجنة ونعيمها ورهبهم من النار وعذابها، وكل ذلك بأسلوب قرآني يعتمد اللين والتشويق تارة، والزجر والتخويف تارة أخرى، يقول مصطفى صادق الرافعي عن أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم "ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار زاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإما أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعب من حمى القلوب."²

والترغيب يكون بشارة من الله عز وجل إلى عباده الصالحين وما أعد لهم من نعمة ونعيم في الدنيا والآخرة بينما الترهيب يكون زجر ووعد بالعذاب إلى عبدة الظلال والكفر.

ومن نماذج أسلوب الترغيب في القرآن:

- الوعد بالحياة الطيبة: قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)³

- الوعد بالنصر والتّمكن في الأرض: قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)⁴

1 المرجع نفسه:ص128.

2 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص30.

3 سورة النحل: الآية 97.

4 سورة النور: الآية 55.

-الوعد بالجنة والترغيب فيها: قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)¹

هذه بعض نماذج الترغيب في القرآن الكريم وغيرها كثير لا يحصى ولا يعد، أما عن أسلوب التهيب فمن نماذجه:

-الوعيد بالمعيشة الضنك: قال الله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)².

-الوعيد بالهلاك: قال الله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)³

-الوعيد بالنار والتهيب من عذابها: قال تعالى: (وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)⁴

يستنتج من مجموع ما تقدم أن أسلوب الترغيب والتهيب أسلوب قرآني متميز، وهو واضح وجلي على طول صفحات القرآن الكريم، وظاهر لمن يتبعه في آياته وموضوعاته، وما ذكرناه من أمثلة إنما هو قليل من كثير.

2-أسلوب الجدل والحوار في القرآن الكريم: يعد أسلوب الجدل والحوار من أبرز الأساليب البليغة التي وظفها القرآن الكريم في إقامة الحجة على وحدانية الله عز وجل، كما أن أسلوب الجدل والحوار من أهم الوسائل التي اتخذها الأنبياء والرسل في دعوة أقوامهم إلى عبادة الله تعالى.

والمقصود بالجدل في اللغة: من جدل: اشتدت خصومته، ورجل جدل ومجدال: شديد الجدال إذا كان قوي الخصام شديده، والجدل: اللدد من الخصومة، جادله: خاصمه، المجادلة: المخاصمة والقدرة عليها، جادلته

¹ سورة الكهف: الآية 107.

² سورة طه: الآية 124.

³ سورة القصص: الآية 58.

⁴ سورة الإنفاطار: الآية 14-15-16.

جدلاً، أي غلبته مقابلة الحجة بالحجة.¹

أمّا اصطلاحاً: "هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم."²

كما يقال بأنّ الجدل هو حوار يقوم على "إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال."³

والغرض من الجدل هو دحض رأي الخصم وتحقيق الغلبة عليه بإقامة الحجة والبرهان.

وقد أشار الله عز وجل في القرآن الكريم على أن الجدل فطرة فطر عليها الإنسان قال الله تعالى: (وَلَقَدْ

صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)⁴، أي خصومة ومنازعة.

وبعد تفصينا للفظ الجدل في القرآن الكريم، وجدناها وردت في تسعة وعشرين موضعاً، منها خمسة

وعشرون، ورد فيها الجدل مذموماً، والأربعة الأخرى، ذكر فيها الجدل محموداً، والمقام لا يسعنا لذكرها

جميعاً، وسنكتفي بالإشارة إلى المواضع التي ذكر فيها الجدل محموداً وهي:

- قال الله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لوطٍ)⁵.

- قال الله تعالى: (وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)⁶.

- قال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)⁷.

- قال تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ

اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)⁸.

يظهر من خلال هذا أنّ الله سبحانه وتعالى يأمر ويجبذ أن يكون الجدل عن طريق التّحاور بالحسنى، لما

فيه من دفع وتجنب للمنازعة والخصومة بين المتجادلين.

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج-1، ص391

² عمر محمد عمر باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص171.

³ محمد أبو زهرة: "تاريخ الجدل"، لبنان، بيروت، دار الفكر العربي، ط، د، ص5.

⁴ سورة الكهف: الآية 54.

⁵ سورة هود: الآية 74.

⁶ سورة النحل: الآية 125.

⁷ سورة العنكبوت: الآية 46.

⁸ سورة المجادلة: الآية 1.

ويقصد بالحوار لغة: من حور، والمحاورة: المجاورة، التحوار: التجاوب¹
أما اصطلاحاً: "نوع من الحديث بين شخصين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما، فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب"².
فإذا كان الجدل يقوم على الخصومة والتعصب، فالحوار يقوم على الرفق واللين، وقد وردت لفظة الحوار ثلاث مرات في القرآن الكريم وذلك فيما يلي:

- قال الله تعالى: (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا)³
- قال الله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)⁴.

وقدم لنا القرآن الكريم نماذج كثيرة عن أسلوب الحوار والجدل، وكان أول حوار في القرآن الكريم، حوار الله تعالى مع الملائكة، قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)⁵
وإن كان الله سبحانه وتعالى يدعو إلى الحوار والتحوار بالحسنى إلا أن الحوار الغالب في القرآن الكريم هو الحوار الجدلي لأنه قائم على الحجّة والبرهان، وخير دليل على ذلك حوار الأنبياء مع أقوامهم، فقد كان هذا الحوار يقوم على الحسنى من طرف الأنبياء والرسل عليهم السلام، بينما يقابل بالجدل والخصومة من طرف أقوامهم.

والإعجاز القرآني الذي هو محور دراستنا انبنى أساساً على جدال كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم. حيث أنه حين نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم، وبعدما أمره الله بالجهر بالدعوة وتبليغ رسالته، قال الله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)⁶، بدأ النبي صلى الله عليه وسلم

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج-2، ص182

² محمد راشد ديماس: "فنون الحوار والقناع"، د ب ن، دار ابن حزم، ط1، 1420هـ-1999م، ص11.

³ سورة الكهف: الآية 34.

⁴ سورة المجادلة: الآية 1.

⁵ سورة البقرة: الآية 30.

⁶ سورة الحجر: الآية 94.

بنشر دعوة الإسلام عن طريق الحوار بالحسنى، لكن كفار قريش قابلوا ذلك بالتصدي والجدل قصد تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا¹)

فقد حاول كفار قريش بأسلوبهم الجدلي دحض الدعوة المحمدية، غير أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعمل معهم أسلوب الحوار باللين والرفق، امثالاً لأمر ربه عز وجل: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)²

ومع أنّ الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالدعوة إليه عن طريق الحوار بالحسنى، لكن هذا لم يمنع من مجادلة القرآن لأولئك الكفار، بل تعدى ذلك الجدل القرآني إلى حد التعجيز.

فقد جادل القرآن الكريم كفار قريش، ويظهر ذلك من خلال تحدي الله تعالى لأولئك العرب أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، يقول تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)³

ويقول أيضاً عز وجل: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)⁴

وبهذا يتمثل الجدل القرآني في براهينه وأدلتها التي اشتمل عليها وساقها لهداية الكافرين وإلزام المعاندين في جميع ما هدف إليه من المقاصد والأهداف التي يريد تحقيقها وترسيخها في أذهان الناس في جميع أصول الشريعة وفروعها.⁵

1 سورة الإسراء: الآية 90-93.

2 سورة النحل: الآية 125.

3 سورة هود: الآية 13.

4 سورة البقرة: الآية 23-24.

5 زاهر عواض الأملعي: "مناهل الجدل في القرآن الكريم"، د ب ن، مطابع الفرزدق التجارية، د ط، ص 1-2.

وخلاصة القول: فإن أسلوب الحوار والجدل من أهم الأساليب الواردة في القرآن الكريم، إذ وقف القرآن الكريم بأسلوبه هذا موقف المجادل أمام ادعاءات قريش الباطلة وخصوماتهم الجاحدة، مؤيدا موقفه ببراهين وأدلة تعجيزية لهؤلاء الكافرين الذين وقفوا عاجزين أمام عظمة أسلوب القرآن الكريم جملة وتفصيلا.

3- أسلوب الحجاج في القرآن الكريم: لقد استعمل القرآن الكريم حججا وبراهين تثبت صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وفي نفس الوقت تبطل مزاعم كفار قريش.

والحجاج في اللغة من حجج، والحجة: البرهان، وقيل: الحجة مادفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جدل والتجاج: التخاصم.¹

ومن هذا المنظور كان الحجاج جزء من أسلوب الجدل، بل هناك من العلماء من يجعل الحجاج مرادفا للجدل، وقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى معنى الحجاج فقال: "معنى حاج خصم... ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب البرهان المصدق للدعوى مع أن حاج لا يستعمل غالبا إلا في معنى المخاصمة، وأن الأغلب أنه يفيد الخصام بالباطل."²

فعلى هذا يكون الحجاج: النزاع والخصام بواسطة الأدلة والبراهين.

وقد ورد لفظ الحجاج في القرآن الكريم في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)⁴.

يظهر من هذه الآية الكريمة أنّ أسلوب الحجاج كان الأسلوب الأنجع في إثبات سيدنا ابراهيم وجود الله للملك التمرود وإنهاء جدله بإقامة الحجة والبرهان.

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج2، ص28

² محمد الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج3، ص31-32.

يقال: بأنه الملك التمرود واختلف في أصله ونسبه، إلا أنّ الأرجح كما ورد في كتب التفسير أنّه النمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح³ ويقال بأنه أول طاغية جبار عرفته البشرية

⁴ سورة البقرة: الآية 258.

ويعد أسلوب الحجاج من أكثر أساليب البلاغة القرآنية، إذ اعتمد القرآن الكريم على إقناع المتلقي والتأثير فيه من خلال توظيفه الأساليب البلاغية الجميلة والصّور البيانية الفاتنة.¹ فحجج القرآن الكريم لم تكن حججا عقلية ولا براهين مادية، بل كانت بلاغية بيانية. ونظرا لأهمية هذا الأسلوب اعتمد عليه القرآن الكريم في ترسيخ مبادئ الحق وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، يقول أبو الوليد الباجي²: "وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنًا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا علم الصّحيح من السّقيم ولا المعوج من المستقيم."³

وخلاصة حديثنا عن أسلوب الحجاج في القرآن الكريم هو الإبانة والإبلاغ والإقناع، باستخدام الأدلة والبراهين القطعية لإثبات وحدانية الله عز وجل ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى إبطال مزاعم الكفر، وتزهيق الباطل وتحقيق الحق وإثباته.

4- أسلوب القسم في القرآن الكريم: نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين لهداية العرب خاصة، والبشرية عامة، فوقفوا منه مواقف متباينة، فبعضهم آمن وصدّق، وبعضهم عاند وخصم، وما كان من الله عز وجل إلا أن ينصر دينه ويتم نوره، مما استدعى ذلك استعمال أسلوب القسم كوسيلة لإقامة الحجة على أولئك الكافرين الجاحدين.

وبناء على هذا يعد أسلوب القسم من أكثر الأساليب استعمالا في القرآن الكريم. والقسم في اللغة: اليمين بالله تعالى، أقسم بالله واستقسمه به وقاسمه: حلف له، وتقاسم القوم: تحالفوا كما في قوله تعالى: (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ)⁴، أي طلب بعضهم القسم من بعض، واقتسموا: تحالفوا، وأقسمت حلفت⁵

1 ينظر: مدقن هاجر: "أليات تشكيل الخطاب الحجاجي بين نظرية البيان ونظرية البرهان"، مجلة الأثر

الجزائر، ورقلة، ع5، 2005م، ص173.

2 هو أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي القرطبي (403هـ-474هـ، فقيه مالكي ومحدث وقاضي وشاعر أندلسي.

3 أبو الوليد الباجي: "المنهاج في ترتيب الحجاج"، تحقيق: عبد المجيد التركي، المغرب، دار المغرب الإسلامي، ط-2، 1987، ص8

4 سورة النمل: الآية 49.

5 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 5، ص 258.

إذن: القسم هو الحلف أو اليمين بالله عز وجل.
 أما اصطلاحاً: فالقسم هو "تحقيق النبأ وتأكيده".¹
 وكذلك هو: "القول الذي يكون به فصل الأمور والقطع بها".²
 وعلى هذا فالقسم هو أسلوب توكيدي يلجأ إليه المتكلم ليكون دلالة على صدق كلامه.
 وقد تداول العرب القسم فيما بينهم منذ القدم، فكانوا يقسمون بألثتهم لتأكيد الخبر ودحض الشك
 والتدليس "فإن أخبر أحد أحداً، وأراد منه أن يصدقه وينقل عنه مضمون الخبر أو العهد أكدده
 وأتبعه بالقسم".³
 ولما كان القرآن الكريم حجة الله على خلقه وتأكيده على رسالته الخاتمة وإثباتاً لدينه الحنيف، جاء كتابه
 الكريم حافلاً بشتى أنواع القسم وذلك لإقامة الحجة على هؤلاء الكفار المعاندين وإبطال مزاعمهم، وقد
 نقل الإمام الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن قول الأستاذ أبو القاسم القشيري⁴، في حديثه عن
 القسم في القرآن، إذ يقول: "إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما
 بالشهادة وإما بالقسم فذكر تعالى النوعين حتى لا يبقى لهم حجة".⁵
 يفهم من هذا القول أنّ القسم الوارد في القرآن الكريم جاء لإقامة الحجة، وقطع طريق الجدل في وجه
 أولئك المعاندين من الكفار.

وقد تعددت أنواع القسم في القرآن الكريم فنجد أن الله تعالى أقسم بذاته المنزهة وأسمائه وصفاته الحسنی
 كما أقسم بآياته الكونية وكتابه الكريم، وكان أغلب ذلك القسم في فواتح السور القرآنية⁶، مثل قوله

1 عمر محمد عمر باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص 194.

2 علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي: "أسلوب القسم في القرآن الكريم-دراسة بلاغية" بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في
 البلاغة، إشراف: فتحي عبد القادر فريد، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، 1411هـ-1991م، ص 10.

3 عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز" مرجع سابق، ص 194.

4 أبو القاسم القشيري هو عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة المعروف بأبي القاسم القشيري (376هـ-465هـ)، إمام
 الصوفية، وصاحب الرسالة القشيرية في علم التصوف، فلقب بالقشيري نسبة إلى رسالته، كما يعد من كبار العلماء في الفقه والتفسير
 والحديث والأصول والأدب والشعر، ويلقب أيضاً بـ"زين الإسلام".

5 بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج 3، ص 41.

6 ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 179.

تعالى: (وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ)¹، وقوله عز وجل: (وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ)²، وقوله تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)³، وقوله تعالى: (وَالْعَصْرِ)⁴... إلخ.

وقد تتبّع الإمام الزركشي مواضع الاستفتاح بالقسم بمخلوقات الله وآياته الكونية، وحددها في خمسة عشر موضعاً⁵، ثم يرى بأنّ المواضع التي أقسم الله فيها بجلال ربوبيته تقع في سبعة مواضع من القرآن، والباقي، والباقي كله أقسم بمخلوقاته⁶، سواء كان في بداية السور القرآنية أم في وسطها أم في ختامها. ويتكون أسلوب القسم من جملتين: جملة القسم وجملة جوابه، أمّا عن عناصره حسب سياق القرآن الكريم فهي:

- المقسم: هو الله سبحانه وتعالى.

- المقسم به: هو الذات الإلهية العلياً أو صفة من صفاته الحسنى أو آية من آياته الكونية والخلقية.

- المقسم عليه: وهو المحدد في حملة جواب القسم، وهو كل ما أقسم الله عليه أو وقع عليه القسم.

- أدوات القسم: وأهمها: الباء، الواو، التاء⁷.

ومجمل القول: فإنّ أسلوب القسم من الأساليب القرآنية المهمة وذلك "للفت وتنبية الأبواب إلى جليل صنع الله المتجلي بالعظمة المتقدس بكمال الجلال ربّ العزة والجلال"⁸، كما أنّه الوسيلة الدالة على وجود الله وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والحجة الثابتة على استمرارية الرّسالة الخاتمة إلى يوم الدّين، والبرهان السّاطع في وجه أولئك المعاندين الجاحدين على اختلاف العصور والأمصار.

1 سورة الضحى: الآية 1-2.

2 سورة الفجر: الآية 1-2.

3 سورة الشمس: الآية 1.

4 سورة العصر: الآية 1.

5 ينظر: بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص179.

6 ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص43.

7 ينظر: عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص198.

8 المرجع نفسه: ص198.

5- أسلوب ضرب الأمثال في القرآن: حظيت الأمثال في القرآن الكريم حظاً لا بأس به، وقد لفت هذا الأسلوب عناية العلماء إليه منذ بواكير الدراسات الإعجازية التي عكفت على استنباط الدرر المكنونة في كتاب الله تعالى.

وعلى هذا الأساس ارتأينا أن نقف مع هذا النوع من الأسلوب القرآني، ووقفه عابرة لا متأنية، لأنّ المقام في هذا المقال يطول.

فإذا كان القسم أسلوب حجاجي يعتمد على تأكيد الكلام بالحجة والبرهان، فالأمثال أسلوب جمالي يعتمد على تأكيد الكلام بالمتعة والموعظة والتأثير في النفس والوجدان.

والمثل في اللغة: المثل والمثّل والمثيل: كالشبه والشبهه والشبيه، مثله شبيهه، والممثلة: التّسوية.¹
فالمثل من المماثلة، وهي المشابهة، قال الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)²، أي أنّ الله تعالى منزّه عن الشّبه، والمثل: الشيء الذي يضرب بالشيء مثلاً فيجعل مثله، والمثل: العبرة³
أما اصطلاحاً: فالمثل هو "تشبيه شيء بشيء وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد من المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر."⁴

هذا فيما يخص المثل أمّا عن ضرب الأمثال في القرآن فهذا معنى آخر يقصد به: "ما سيق في القرآن من حديث ومثل يتعلق بالمواعظ أو القصص أو أخبار الأمم الماضية،"⁵، يقول الله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)⁶

فقد ضرب القرآن الكريم أمثالا من أخبار الأمم البائدة والحضارات الغابرة وبين نتائجها وعواقبها.⁷ لتكون وعواقبها.⁷ لتكون عبرة لأولي الألباب من بعدهم .

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 6، ص 14-15 .

2 سورة الشورى: الآية 11.

3 ينظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج 6، ص 15

4 ابن قيم الجوزية: "الأمثال في القرآن الكريم"، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، لبنان، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط 2، 1430هـ -

1983م، ص 174.

5 عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص 208

6 سورة العنكبوت: الآية 43.

7 ينظر: عمر باحاذق: "المرجع السابق"، ص 208

وقد أفاض العلماء في ذكر أهمية هذا الأسلوب لماله من وقع على الأنفس وتربيتها، يقول الإمام الزركشي: "وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقدير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للفعل كنسبة المحسوس إلى الحد، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر، وعلى تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، قال الله تعالى: (وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ)¹، فامتد علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد."²

فالأمثال القرآنية هي أسلوب تربوي يصبو من خلاله الله تعالى إلى تربية عباده وهدايتهم عن طريق الموعظة والعبارة.

ويعدّ الشيخ محمد الغزالي ضرب الأمثال وجها من وجوه إعجاز القرآن إذ يقول في ذلك: "وعندي أن قدرا كبيرا من إعجاز القرآن يرجع إلى هذا ويشير إلى تنوع الأمثال -فما أظن أمرا سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به، والجواب: إنه من من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه، ثم هي وسيلة من وسائل التربية حيث عني المربون بالأمثال كطريق من طرق التربية."³

يستنتج من قول محمد الغزالي أنّ الأمثال في القرآن لها مقصدان: مقصد إعجازي بلاغي، والآخر تربوي توجيهي. "فهني مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم فهي تحرك المشاعر والأحاسيس لما تقدمه من ألوان الممثلات في صورة ملموسة، فتجذب النفوس للتفاعل معها، والاستفادة بما تقدمه من صور الهداية التي تغري بفعل الخير والعمل به، وكذلك تجنب الشر والابتعاد عنه."⁴

¹ سورة إبراهيم: الآية 45.

² بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص486-487.

³ محمد الغزالي: "نظرات في القرآن"، دب ن نخصة مصر للطباعة والنشر، ط6، يوليو 2005م، ص123.

⁴ عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص209.

وبهذا يمكن القول: "إنّ الأمثال القرآنية ليست مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية تربوية حققتها نتيجة لنبل المعنى وسمو الغرض، إضافة إلى الإعجاز البلاغي وتأثير الأداء."¹

وخلاصة القول: إنّ الأمثال القرآنية أسلوب من أساليب التربية القرآنية الهادفة التي تجمع بين النظم البلاغي المعجز الذي يؤثر في أعماق النفوس ويحرك المشاعر والقلوب، وبين الموعظة والإرشاد لترسيخ الهداية في النفوس، والفوز بفلاح الدنيا والآخرة.²

6- أسلوب القصة في القرآن: لم يحظ أسلوب من الأساليب التعبيرية في القرآن مثلما حظي الأسلوب القصصي، فالقرآن الكريم في معظمه عبارة عن قصص.

فقد قصّ علينا القرآن قصص الأنبياء والصالحين، كما قصّ في مقابل ذلك قصص الأمم البائدة وهلاك الفاسدين، وما ذلك إلاّ رصيذ للأمة الإسلامية قصد اتعاظها وأخذ الدّرس والعبرة من ذلك.

ولما كان للقصة هذا الجانب المهم في القرآن الكريم، لم نشأ الحديث عنها في هذا المقام، وأفردنا لها فصلا مستقلا في آخر بحثنا، وستتناوله بالدراسة النظرية والتطبيق متخذين سورة هود نموذجا لذلك.

إذن: هذه أهم الأساليب التعبيرية التي صاغها القرآن الكريم بطريقة استهوت الأنفس والقلوب، ودلت على إعجاز القرآن الكريم من ناحية وقومت سلوك الإنسانية وربتها تربية قويمة سليمة من ناحية أخرى، إذ أنها جمعت بين الإعجاز والهداية معا، وهذا ما لا يرقى إليه إلاّ أسلوب ربّ العالمين.

ج- أهمية الأسلوب القرآني في الدراسات الإعجازية البلاغية:

كان الهدف الأسمى من توجه عناية العلماء إلى دراسة أسلوب القرآن الكريم هو خدمة كتاب الله تعالى، وقد بين الإمام الزركشي فضل دراسة أساليب القرآن الكريم والوقوف على فنونه البليغة فقال: "اعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أدق من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون؟ وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز التنظيم المبين ما أودع من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما

¹ عبد الرحمن النحلاوي: "أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع"، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط2، 1408هـ-

1983م، ص294.

² ينظر: عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص211.

تضمنه في الحلاوة، وجلّله في رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ والمعنى، وشدّ بعضهم فزعم أن موضع صناعة البلاغة فيه إنما هو المعاني، فلم يعد الأساليب البليغة، والمحاسن اللفظية، والصحيح أنّ الموضوع مجموع المعاني والألفاظ إذ اللفظ مادة الكلام الذي منه يتألف، ومتى أخرجت الألفاظ عن أن تكون موضوعاً خرجت عن جملة الأقسام المعتمدة، إذ لا يمكن أن توجد إلا بها.¹

قد نوه الإمام بدر الدين الزركشي بفضل دراسة الأسلوب القرآني وبين شرفه وعظم مكانته، ودعا طلاب العلم إلى الإقبال على البحث في أسرار البلاغة القرآنية والتوسع في مجال الإعجاز البلاغي ومناهجه. ولعل قول الإمام الزركشي: بأنّ هذا "العلم قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، أراد من خلاله أن يبين تقصير العلماء والباحثين في دراسة أسلوب القرآن الكريم، لكن الجهود الجبارة للعلماء المسلمين منذ القرن الثالث الهجري إلى يومنا هذا تثبت عكس ما ذهب إليه الإمام الزركشي، وربما قال ذلك من باب تحفيز الهمم إلى النهوض بدراسة كتاب الله عز وجل واستنباط الأسرار الإعجازية الكامنة في أسلوبه المتفرد.

ومما لا شك فيه أنّ قول الزركشي هذا ينطبق بالفعل على عصرنا الحالي وما نشهده من هجر للقرآن وإهمال لدراسته وتدبره -إلا من رحم ربك- وصدق الرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة إذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء."² ومع هذا الهجر والغربة لكتاب الله تعالى في وسط المسلمين والمنوطين بمهمة خلافة رسالة الإسلام، نجد أنّه لا تزال هناك أقلاماً خافتة مسخرة مدادها في خدمة كتاب الله تعالى ونشر رسالة الإسلام وإثبات صدق نبوة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

وتعد دراسة الأسلوب القرآني والوقوف على أسرار الإعجازية أمراً ذو أهمية بالغة تكمن فيما يلي:

1- إثبات خصوصية الأسلوب القرآني وتفرد لآئنه أسلوب كلام الله عز وجل، قال الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)³

¹ بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج2، ص383.

² مسلم بن الحجاج النيسابوري: "صحيح مسلم"، مصدر سابق، رقم الحديث 370، ص116.

³ سورة الشورى: الآية 11.

- 2- إبراز القيم الجمالية والجوانب الفنية الإعجازية التي يتميز بها القرآن الكريم عن غيره من أساليب البشر.
- 3- تعد دراسة الأسلوب القرآني رافدا مهما ساهم في تأصيل مباحث البلاغة العربية بصفة عامة، والبلاغة القرآنية بصفة خاصة، حيث كان القرآن الكريم بأسلوبه المتفرد الباعث الأهم في إثارة الهمم للبحث الجاد في حقول البلاغة العربية، وقد أجمع العلماء على أنه بفضل القرآن الكريم نشأت علوم البلاغة التي أمدتها النص القرآني بفيض من الأمثلة البديعة في محاسن الكلام وبديع النظم.
- 4- نتج عن اهتمام العلماء بالأسلوب القرآني والتّظر فيه أن جعلوا منه المقياس البلاغي الأمثل في الحكم على الأساليب الأدبية والموازنة بينهما¹.
- 5- ساهم الأسلوب القرآني في تربية الذّوق البياني لدى الفرد من جهة، وهدايته إلى التّربية الإسلامية الصحيحة من جهة أخرى.
- 6- وتبقى أهمية الأسلوب القرآني كامنة في ذلك السرّ الإعجازي الذي جعل منه أسلوبا متفردا في خصائصه التي تحوي مكامن الكمال والجمال.

¹ ينظر: مازن المبارك: "الموجز في تاريخ البلاغة"، مرجع سابق، ص45.

ثانيا: خصائص الأسلوب القرآني

يتربع القرآن الكريم بأسلوبه المتفرد على عرش الأدبية العربية، فهو كتابها الأعظم ومعجزتها البلاغية الخالدة.

ولما كان القرآن الكريم يحمل في طياته أسلوبا متميزا متفردا أعجز أساطين البلاغة والبيان، توجهت عناية الدارسين إلى هذا المنبع الإعجازي يفتشون فيه عن مواطن الجمال وسر الإعجاز، فبعضهم رأى بأنّ جماله في نسقه وتنظيمه، والبعض الآخر قال في سياقه وتتابعه، والبعض الآخر قال في إيقاعه وتوافق فواصله، والبعض الآخر قال بجميعها متماسكة متلاحمة.

وبناء على هذا نستنتج بأنّ خصائص الأسلوب القرآني تنحصر في ثلاث مظاهر:

1- في النّسق الفني.

2- في الإيقاع الموسيقي.

3- في السّياق.

أ- النّسق الفني في القرآن

1- مفهوم النّسق:

* النّسق لغة: جاء في لسان العرب: النّسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء، وقد نسقه تنسيقا، ويرد مخففا: نسق الشيء ينسقه نسقا، ونسقه نظمه على السواء، وانتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسّقت، والتّحويون يسمون حروف العطف حروف النّسق، لأنّ الشيء إذا عطف عليه شيئا بعده جرى مجرى واحدا، وتغر نسق: إذا كانت الأسنان مستوية، ونسق الأسنان انتظامها في النبتة وحسن تركيبها، وخرز نسق أي منتظم، والتنسيق التنظيم، والنسق ما جاء من الكلام على نظام واحد، والكلام إذا كان مسجعا قيل له نسق حسن.¹

وبعد هذا التّفنيس الطويل الذي أخذه ابن منظور في تعريفه للنسق نستنتج بأنّ النّسق في أبسط معانيه اللغوية هو التّنظيم والتّرتيب والارتباط.

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج-6 -، ص179 .

*النسق اصطلاحاً: تعددت رؤى النقاد والبلاغيين حول مفهوم النسق ومن أوائل البلاغيين الذين تنبهوا إلى مصطلح النسق في دراساتهم ابن سنان الخفاجي (ت466هـ)، حيث نجده يقول: "ومن الصحة صحة النسق والنظم، وهو أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد الشاعر أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلق بالأول وغير منقطع عنه..."¹

إذن: النسق في مفهوم الخفاجي مائل في سلامة النظم.

ولعل من أحسن التعريفات وأدقها في مفهوم النسق ما قاله عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): "ونحن إذا تأملنا وجدنا الذي يكون في الألفاظ من تقديم شيء منها على شيء، إنما يقع في النفس أنه نسق إذا اعتبرنا ما توحي من معاني النحو في معانيها."²

إنّ المتأمل في نص عبد القاهر الجرجاني يرى بأنّ مفهوم النسق عنده هو النظم مع مراعاة قصد المتكلم "ذاك لأنه إنما يكون تقديم الشيء على الشيء نسقاً وترتيباً، لإذا كان ذلك التقديم قد كان لموجب أوجب أن يقدم هذا ويؤخر ذاك، فأما أن يكون مع عدم الموجب نسقاً فمحال، لأنه لو كان يكون تقديم اللفظ على اللفظ من غير أن يكون له موجب نسقاً، لكان ينبغي أن يكون توالي الألفاظ في النطق على أي وجه كان نسقاً."³

وخلاصة مفهوم النسق عند عبد القاهر الجرجاني هو ترتيب الألفاظ المتساندة ونظمها في سياق الكلام على أساس المبتغى المراد من لدن المتكلم.

كما توجهت عناية المتأخرين إلى مفهوم النسق فنجد سيد قطب (ت1966م)، يقول بأنّ: "ووظيفة الأديب حينئذ أن يهيئ للألفاظ نظماً ونسقاً وجواً يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال، وأن تتناسق ظلالها وإيقاعها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه، وألا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية، وألا يقيم اختياره للألفاظ على هذا الأساس وحده."⁴

1 ابن سنان الخفاجي: "سر الفصاحة"، مصدر سابق، ص268.

2 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص468.

3 المصدر نفسه، ص468.

4 سيد قطب: "النقد الأدبي أصوله ومناهجه"، القاهرة، دار الشروق، ط6، 1410هـ-1990م ص39.

وحاصل القول فإنّ النّسق في الأسلوب عموماً هو: أن يتم تنظيم الألفاظ وترتيب العبارات بحيث يكون الكلام متلائماً على طريقة واحدة ونظام واحد، متناسق النّظم، متناسب الفقرات، حسن الإيقاع. وهذه التعريفات للنّسق كلها على صعيد المفهوم الاصطلاحي العام، أمّا عن النّسق كمركب إضافي للقرآن الكريم، فللعلماء كذلك تعريفات ومفاهيم نوجزها في التالي:

***تعريف النّسق القرآني:** يعدّ النّسق القرآني أحد أهم خصائص الإعجاز في الأسلوب القرآني، حيث إنّ الأسلوب القرآني "يجري عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب ويقوم على طريقته التعبيرية على أساس مبادئ للمألوف من طرائقهم، بيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية معروفة وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرهما مبيّنة معروفة، والقرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيّعه، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك ولكنك مع ذلك تقرّأ بضع آيات منه فتتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته، بل يسري في صياغته، وتآلف كلماته وتجد في تركيب حروفه تنسيقاً عجيباً... بحيث يؤلف اجتماعها إلى بعض لحناً مطرباً... ومهما طفت بنظرك في جوانب كتاب الله تعالى ومختلف سورته وجدته مطبوعاً على هذا النّسق العجيب فمن أجل ذلك تحيّر العرب في أمره."¹

يستنتج من هذا: أنّ النّسق القرآني هو ذلك التّرتيب المنظم في تركيب الحروف وتآلف الكلمات مما ينتج عنه جرساً موسيقياً يطرب السّمع وتلتذ به الأنفس.

أو نقول: هو ذلك النّسق المتفرد الخارج عن مألوف العرب.

وهذا النّسق البديع هو الذي أعجز العرب وحير ألبابهم، يقول عبد القاهر الجرجاني: "إنّ التّحدي وقع في القرآن إلى أن يؤتى بمثله على جهة الابتداء، ماتعني به؟ أتعني أنّه يأتي في ألفاظ غير ألفاظ القرآن، بمثل التّرتيب والنّسق الذي تراه في ألفاظ القرآن."²

¹ محمود السيّد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"، مرجع سابق، ص 66.

² عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص 473.

ويعد عبد القاهر الجرجاني النسق أساس النظم القرآني وأصله، حيث يقول: "ونعود إل النسق فنقول: فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه لم يبق إلا أن يكون في النظم... وكنا قد علمنا أنّ ليس النظم شيئاً غير توحي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم."¹

فأصل الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني هو ذلك النسق المحكم المنظم لأنّه موجود في جميع القرآن الكريم جملة وتفصيلاً، بينما الأمور الأخرى كالأستعارة مثلاً، توجد في آيات معدودة من القرآن الكريم، وليس في كله.²

كما أشار ابن الأثير (ت630هـ) في فصل التّقديم والتّأخير في كتابه المثل السائر، إلى أنّ من أهم سمات الأسلوب القرآني نسقه، مقدماً على ذلك نماذج كثيرة منها قوله تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخْنَا مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)³

ويعقب ابن الأثير على هذا قائلاً: "والقمر قدرناه منازل"، ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام، فإنه قال: "الليل نسلخ منه النهار"، ثم قال: "والشمس تجري" فافتضى حسن النظم أن يقول "والقمر قدرناه"، ليكون الجميع على نسق واحد في النظم، ولو قال: "وقدرناه منازل لما كان بتلك الصورة في الحسن."⁴

لقد أبدع ابن الأثير في حديثه عن النسق القرآني، ولم يكتف بالتنظير مثلما فعل سابقه بل وضح مفهوم النسق القرآني بالدليل التطبيقي على آي القرآن الكريم.

ومن الذين تكلموا عن النسق القرآني نجد في العصر الحديث مصطفى صادق الرافعي (ت1356هـ-1937م) وذلك في سياق حديثه عن أسلوب القرآن، حيث قال: "فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل

¹ المصدر نفسه: ص391-392.

² ينظر: المصدر نفسه: ص391.

³ سورة يس: الآية 37-39.

⁴ ابن الأثير: "المثل السائر"، مصدر سابق، ج2، ص214.

في جملته- ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبه رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية وتحلف الملكة المستحكمة، ورأي بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه .¹

يبين الرافعي من خلال حديثه هذا أنّ النّسق الأسلوبي الذي تفرد به القرآن الكريم هو الذي أعجز بلغاء العرب، فوجدوا أنّ ألفاظهم التي درجوا عليها هي نفسها الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم، لكن نظمها بطريقة منسقة خارجة عن ما عهدوه وألفوه.

ومن خيرة الذين تكلموا عن النّسق في القرآن الكريم وأسهبوا في ذلك سيد قطب فهو يرى بأنّ ذلك النّسق الموجود في القرآن الكريم هو الذي أعجز العرب عن مجازاة القرآن الكريم، مشيراً إلى أنواع عديدة من النّسق منها: النّسق اللفظي والمعنوي والنّفسي.²

فعن حديثه عن نسق اللفظ يقول: "قد يستقل لفظ واحد لا عبارة كاملة يرسم صورة شاخصة- لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم الصورة ومن هذه خطوة أخرى في تناسق التصوير أبعد من الخطوة الأولى وأقرب إلى قمة جديدة في التناسق، خطوة يزيد من قيمتها أن لفظاً منفرداً هو الذي يرسم الصورة تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعاً."³

ويبرهن على ذلك بمثال من القرآن الكريم في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)⁴، حيث يقول: "تسمع الأذن كلمة "اتأقلمت"... فيتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل، إن في هذه الكلمة طناً على الأقل من الإثقال، ولو أنك قلت "تثاقلمت" لحف الجرس، وضاع الأثر المنشود، وتواردت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها."⁵

1 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة"، مصدر سابق، ص 189.

2 ينظر: سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص 88.

3 سيد قطب: "النقد الأدبي"، مرجع سابق، ص 40.

4 سورة التوبة: الآية 38.

5 سيد قطب: "النقد الأدبي" مرجع سابق، ص 40.

يشير سيد قطب إلى ذلك التناسق في ألفاظ القرآن الكريم من تناسق الحروف وحسن اختياراتها مما يخلف أثرا على نفس المتلقي. واختيار القرآن لألفاظه وتناسق حروفها، سر من أسرار الإعجاز القرآني، وسمى بعض الدارسين هذا الانسجام في الحروف واختيار الألفاظ بالإعجاز المعجمي¹. بالإضافة إلى ذلك يرى سيد قطب أنّ أعلى مراتب التناسق في القرآن الكريم موجودة في أسلوبه القصصي، إذ نجده يقول: "ثم نشير مجرد إشارة إل التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه، وانسجام في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء."² وبعد هذه التوطئة حول مفهوم التناسق القرآني نخلص إلى أنّ التناسق في الأسلوب القرآني هو ذلك التناسق المتفرد من ترتيب في الحروف واختيار الألفاظ وتنظيم للعبارات في سياق واحد يبلغ أرقى درجات البلاغة بإيقاع موسيقي يترك أثرا طيبا على النفس.

فالتناسق القرآني ذو نظام واحد فريد من نوعه إذ نجده متناسق النظم، متناسب الفقرات حسن الإيقاع. وهذا ما أعجز أساطين البلاغة وجهابذة البيان، وشهدوا على ذلك بأنفسهم، فقالوا: إنّه لحلاوة وإن عليه لطلاوة.

ومما لا شك فيه أنّ هذه الحلاوة والطلاوة تعود إل عناصر نسقه وتناسبها مع بعضها البعض.

2- عناصر التناسق القرآني:

تنبه البلاغيون منذ القدم إلى إعجاز النص القرآني، فوقفوا على تحليل جزئياته الداخلية ليثبتوا للبشرية بأنّ كل جزء من القرآن الكريم له من الأسرار الإعجازية مالا تحصى الأقسام ولا تعدد الأبواب. وكان البدء في الكشف عن أسرار إعجاز القرآن الكريم من أصغر جزئية فيه والمتمثلة في حروفه.

¹ ينظر: نوال يخلف: "الانسجام في القرآن الكريم سورة النور أمودجا"، أطروحة دكتوراه، إشراف: محمد العيد رتيمه، جامعة الجزائر، كلية الآداب

واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، 2006م-2007م، ص90.

² سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص89.

***الحروف وأصواتها في القرآن الكريم:** لكلمة الحرف معاني كثيرة في اللغة العربية وما يهمننا منها هو أنّ الحرف هو ذلك الرمز الكتابي الذي يتخذ وسيلة منظورة للتعبير عن صوت معين أو مجموعة من الأصوات لا يؤدي تبادلها في الكلمة على اختلاف المعنى.¹

إذن: الحرف هو ذلك الصّوت المنطوق والرّمز المكتوب، والذي يمثل أول وحدة لغوية في الكلام، حسب تقسيمات علماء النّحو واللغة، أمّا الصّوت يعرفه ابن جني بقوله: "عرض يخرج من النفس مستطيلاً متصلاً حتى تعرض له في الحلق والفم والشففتين مقاطع تشبه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها."²

فالصوت هو ذلك الجرس الناتج عن خروج الحروف من الفم أو هو تلك الحروف الناطقة. وقد حصر ابن جني حروف العربية في تسعة وعشرين حرفاً، فأولها الألف وآخرها الياء على المشهور من ترتيب حروف المعجم³، ومن خلال هذه الحروف تكون مخارج الصوت.

وهذا بصفة عامة مفهوم الحرف والصّوت، أمّا عن حروف القرآن الكريم وأصواتها، فقد بلغت قمة التّفرد والتّمييز، إذ نجد أنّ حروف القرآن الكريم أتت متناسقة متألّفة لا تنافر بينهما، فعلى الرّغم من اختلاف مخارجها إلا أنّها تتداخل أجراسها، وتتجاذب نغماتها وعلى قدر تناسبها في الامتزاج تكون حلاوة الإيقاع ورشاقة الصياغة.⁴

ومما لا شك فيه أنّ هذا الإيقاع الموسيقي إنّما هو عن تآلف الحروف وتلاؤمها بطريقة إعجازية استهوت كل نفس سواء هذه النّفس فهمت القرآن الكريم أم لم تفهمه.⁵

وخلاصة القول: فإنّ مرد التّأثير النّفسي في نفوس سامعيه يعود إلى ذلك التّناسب في الحروف وحسن تآلفها في نسيج صوتي لنظم الآيات مما ينتج عنه جمال إيقاعي تطرب له النّفس وتخشع له الأسماع.

1 رمضان عبد التّواب: "المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي"، مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، 1417هـ-1997م، ص84.

2 أبو الفتح عثمان بن جني: "سر صناعة الإعراب"، تحقيق وتعليق: أحمد فريد أحمد، القاهرة، المكتبة التوفيقية، دت، ج، ص19.

3 المصدر نفسه: ج1، ص49.

4 ينظر: أحمد أبو زيد: "التناسب البياني في القرآن"، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، دط، 1992م، ص292.

5 ينظر: مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص217.

ومع الأهمية الفائقة التي أعطاها القرآن الكريم للحروف وأصواتها، إلا أنه لا يمكن أن تكون هذه الحروف مؤدية للمعنى الإعجازي في استقلاليتها وإنما لابد أن تنظم في كلمات، ومنها في جمل وعبارات تركيبية.¹

***اللفظ في القرآن الكريم:** اتفق أغلب الدارسين أن تخير اللفظ القرآني أولى ميزات النص القرآني ويتبعه في ذلك نظمه في جملة ذات إيقاع موسيقي خلاب ناتج عن تلاؤم الحروف وتناسب مخارجها، مع معنى دلالي يهدف إلى غرض ومقصد مراد.

ومعلوم لدينا بأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، واختار من الألفاظ ما كان جاريا على ألسنتهم قال الله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)²، غير أنه صاغها بأسلوب متفرد، وتنظيم مختلف على ما ألفوه وعهدوه، وبعد اللفظ أصغر وحدة معجمية في سلسلة الكلام، فهو الصورة التي تتخذها مجموعة من الأصوات المتجاورة على أساس من التعلّق والتتابع.³

وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني حيث قال بأنّ اللفظ "هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق."⁴

ولعل الجاحظ هو أول من أثار قضية اللفظ في البلاغة إذ نجده يقول: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير."⁵

يفهم من هذا أن لفظ قيمة أعظم من المعنى، وذلك يعود لأسبقية اللفظ على المعنى، إذ لا يمكن الإفصاح عن المعنى إلا من خلال اللفظ.

1 ينظر: المصدر نفسه: ص219.

2 سورة الشعراء: الآية 192-195.

3 ينظر: خالد توفيق مزعل الحسناوي: "الأنساق الأسلوبية المهيمنة في السورة القرآنية-دراسة تطبيقية على السورة المكية"، أطروحة دكتوراه، إشراف: سيروان عبد الزهرة هاشم الجناحي، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1433هـ-2012م، ص60.

4 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص46.

5 الجاحظ: "الحيوان"، مصدر سابق، ص132.

وبناء على هذا نجد أنّ القرآن الكريم قد أولى للألفاظ عناية فائقة، فقد أبدع الحق تبارك وتعالى في اختيار ألفاظ كتابه الكريم وأحسن انتقائها، فنجدها متلائمة الحروف لا تنافر بينهما، متناسقة مع ما قبلها وبعدها، مناسبة للمعنى، يقول الّرافعي عن ألفاظ القرآن الكريم: "الفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها علماءها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب."¹

وهذا ما أدهش أرباب البلاغة والفصاحة، إذ على الرّغم من أنّهم كانوا أساطين في بلاغة القول كانت تأتي بعض ألفاظهم متنافرة، وبعضها الآخر غير مناسب للمقال، وذلك سر من أسرار الإعجاز القرآني حيث "تتجسد عظمة الاختيار القرآني ودقته في كونه عمود بلاغة القرآن، بحيث إذا أبدل اللفظ بغيره تبدل المعنى المقصود."²

والقارئ لكتاب الله تعالى المتمعن في ألفاظه يلمح ذلك السرّ الرباني في حسن اختيار الألفاظ وتوظيفها. بالإضافة إلى ذلك نجد أنّ ألفاظ القرآن الكريم جاءت على درجة عالية من الفصاحة³، ومعلوم لدينا بأن الفصاحة صفة مقصورة على الألفاظ ومن أهم شروطها: عدم تنافر الكلمات، وهذا ما لم نجده البتة في ألفاظ القرآن الكريم، فكل لفظ في القرآن الكريم أتى متآلف الحروف، متقارب المخارج بعيداً عن التّعقيد، وهذا ما أضفى عليها إيقاعاً موسيقياً ربّما أثر في النفوس وتسلسل إلى القلوب دون سبق إنذار. ومفاد القول: إنّ القرآن الكريم انطلق في تناسقه من أصغر وحدة معجمية، وبث فيها من الخبايا الإعجازية مالا تحصى الأقلام، إذ "لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصّرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض، ويساند ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي."⁴

1 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص30.

2 محمد كريم الكواز: "الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم"، مرجع سابق، ص279.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص285.

4 مصطفى صادق الرافعي: "المصدر السابق"، ص227.

وإنه لجدير بنا قبل أن نختم حديثنا عن اللفظ في القرآن الكريم، أن نشير إلى مراعاة القرآن الكريم صيغة الكلمة وبنيتها وفقا لإشاراتها الدلالية، وهذا ما تفتن إليه علماء اللغة بصفة عامة والمفسرون وأصحاب الدراسات القرآنية بصفة خاصة، فأرادوا من خلال ذلك الكشف عن أسباب التنوع في هيئات الألفاظ وصيغها.

وقد أطلقوا على هذا العدول في ألفاظ القرآن الكريم بعلم الصرف. ويقصد به "هو علم يبحث عن أبنية الكلمة العربية وصيغها وبيان حروفها من أصالة، أو زيادة، أو حذف، أو إعلال، أو إبدال إلى غير ذلك".¹

ويعد القرآن الكريم مصدرا لعلم الصرف وعماده، إذ نراه مثلما اعتنى بانتقاء الألفاظ وتخييرها، اهتم كذلك بانتقاء صيغها الصرفية لتناسب مع الدلالة.

والمتبع لألفاظ القرآن الكريم يلمس ذلك التنوع والتفنن في صيغها ومردده أنه "يعطي للكلمة مالا تعطيه كلمة أخرى بوزن معين وطريقة مبتكرة مما يضيف إلى معنى الكلمة معان ودلالات لا تتأني إلا من خلال الصيغة التي جاءت بها"²، ومثال ذلك قوله تعالى: (فَأَخَذْنَا هُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)³ فكلمة مقتدر أتت على وزن مفتعل، للدلالة على التفخيم وشدة أخذ الله وقوة غضبه، ولو أتت بصيغة قادر على وزن فاعل، فلن تؤدي الغرض المطلوب.⁴

ونفس الأمر بالنسبة لقوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)⁵ فإن كلمة غفارا على وزن فعلا أبلغ من غافرا على وزن فاعلا، فوزن فعلا يدل على الكثرة عكس فاعل.⁶ وهناك نماذج أخرى لا تحصى ولا تعد.

1 أيمن أمين عبد الغني: "الصرف الكافي"، مراجعة: عبده الراجحي، رشى طعيمة، القاهرة، دتر التوفيقية للتراث، د ط، د ت، ص 19.

2 ماجدة صلاح حسن: "العدول الصرفي في القرآن الكريم"، المجلة الجامعة، ع 11، 2009م، ص 17.

3 سورة القمر: الآية 42.

4 ينظر: ابن الأثير: "المثل السائر"، مصدر سابق، ج 2، ص 241.

5 سورة نوح: الآية 10.

6 ينظر: ابن الأثير: "المصدر السابق"، ج 2، ص 242.

وقد عقب ابن الأثير على هذا التنوع في صيغ الكلمات فقال: "اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد من أن يتضمن المعنى أكثر مما تضمنه أولاً، لأن الألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها."¹

إنّ القرآن الكريم قد نوع في الأوزان الصّرفية للكلمة، فحاء كل وزن مناسباً للمعنى متلائماً مع الدلالة المقصودة، وهذا التناسق الصّرفي الموجود في القرآن الكريم، يعدّ وجهاً من وجوه إعجازه الذي يمكن أن يطلق عليه مصطلح الإعجاز الصّرفي².

وبناء على هذا يمكن القول بأنّ الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم يكمن في تلك الصيغ الصّرفية التي تفرد بتوظيفها القرآن الكريم والتي لا يمكن أن ترقى إليها أيّ صيغة من نظم البشر وتألّفهم.

وخلاصة القول: فإنّ لألفاظ القرآن الكريم مظاهر إعجازية تكمن في جانبين هما:

***الإعجاز المعجمي**: والذي يظهر من خلال اختيار الألفاظ وحسن انتقائها.

***الإعجاز الصّرفي**: ويظهر في تنوعه لأوزان الألفاظ وتفننه في صيغها حسب ما يرتضيه المعنى ويلائمه.

وهذه المظاهر الإعجازية تولدت نتيجة الخصائص النسقية الكامنة في ألفاظ القرآن الكريم والتي تتمثل في:

- دقة الاختيار.

- التناسب اللفظي مع المعنى.

- الفصاحة.

- جمال الإيقاع الموسيقي.

- مراعاة البنية الصّرفية وتناسقها مع المعنى الدلالي.

ومع أهمية المفردة في القرآن الكريم إلا أنّها لا تكتمل بمفردها، ولا تدل على معناها فرادى إلا إذا دخلت

في سياق جملة تركيبية وتلاءمت مع ما قبلها وما بعدها.

***الجملة في القرآن الكريم**: إذا كان اللفظ أول مظهر من مظاهر تركيب النسق القرآني البليغ³، فإن

الجملة تمثل مظهره الثاني.

¹ المصدر نفسه: ج2، ص241.

² ينظر: نوال الحلف: "الانسجام في القرآن الكريم"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص93.

³ مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص220.

ويقصد بالجملة في اصطلاح علماء اللغة "كل إسناد بين فعل وفاعل، أو بين مبتدأ وخبر."¹ وبناء على هذا يستنتج بأن الجملة هي ذلك التركيب الإسنادي أو التركيب النسقي الذي يتألف من ركنين أساسيين هما المسند والمسند إليه، وما دونهما فهو فضلة.

-المسند إليه: المبتدأ- الفاعل.

-المسند: الخبر، الفعل².

وتمثل الجملة مظهرا من مظاهر الكلام فهي: "الصورة النفسية للتأليف الطبيعي."³ وذلك مما احتوى عليه كتاب الله تعالى، فالقرآن الكريم هو تأليف الله عز وجل وكلامه المنزه الذي لا يرقى إلى مثل تركيبه أحد من البشر، يقول الرافعي: "وإنما أطرده ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة"⁴، يقول الله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)⁵

و"ذلك خير ما توصف به الجملة القرآنية فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ أو أن تزيد فيها شيئا."⁶ والباحث في القرآن الكريم يجد بأن الجملة القرآنية تحدد بالآية القرآنية⁷، لأن الآية القرآنية ما هي إلا عبارة عن بنية تركيبية محكمة العناصر اسمية كانت أو فعلية.

وبهذا يمكن القول: بأن الجملة القرآنية هي الآية القرآنية المؤلفة من كلمات وحروف ذات أصوات يستريح لتألفها السمع، ويتكون من اجتماعها نظم نسقي جميل ينطوي على إيقاع موسيقي خلاب.

1 محمد حماسة عبد اللطيف: "بناء الجملة العربية"، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط، 2003م، ص29.

2 ينظر: فاضل صالح السامرائي: "الجملة العربية تأليفها وأقسامها"، د ب ن، دار الفكر ناشرون وموزعون، ط، 1428هـ-2007م، ص13.

3 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص236.

4 المصدر نفسه: ص237.

5 سورة هود: الآية 1.

6 أحمد أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص85.

7 ينظر: المرجع نفسه: ص85.

وقد وقف الكثير من العلماء قديما وحديثا عند الجملة القرآنية مستنبطين من ذلك وجها من أهم الوجوه الإعجازية التي تفرد بها النص القرآني، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بمصطلح الإعجاز التَّحوي¹، أو الإعجاز التركيبي.

ويقصد بالإعجاز التركيبي هي تلك التراكيب النحوية الفريدة التي تفرد بها القرآن الكريم عن غيرها من تراكيب البشر.

وهذا الإعجاز التركيبي هو ما اصطلح عليه عبد القاهر الجرجاني بمصطلح النَّظْم حيث نجده يقول: "فخبرونا عنهم، عما إذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ إن قلتم: عن الألفاظ فماذا أعجزهم من اللفظ أم ما بهرهم منه، فقلنا أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها..."²

إذن: فعبد القاهر الجرجاني يرى بأنَّ إعجاز القرآن يكمن في ذلك التناسق في النَّظْم و"ليس النَّظْم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها."³

فقد أراد عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم أن يبين العلاقة الوطيدة بين علم النحو والبلاغة، إذ لا يتخذ الكلام سمة بلاغية إلا إذا تألفت ألفاظه وانتظمت داخل نسق تركيبية.

ولهذا أعطى علماء اللغة صفة الفصاحة للكلمة المفردة بينما أعطوا صفة البلاغة للكلام أو الجملة.⁴ وجملة القول: إنَّ الجملة القرآنية هي جملة إعجازية ذات صياغة تركيبية متفردة.

ومن خصائص الجملة القرآنية:

- التلاؤم والاتساق بين كلماتها: "فالجملة في القرآن تجدها دائما مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح

1 ينظر: نوال بخلف: "الانسجام في القرآن الكريم"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص92.

2 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص39.

3 المصدر نفسه، ص81.

4 ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علم البلاغة"، مصدر سابق، ص5-14.

لتآلفها السَّمْع والصَّوْت والنَّطْق، ويتكون من تضامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع.¹
ومن أمثلة هذا التلاؤم: قوله تعالى: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ
عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)²

ففي الآية الكريمة يظهر تناسق الكلمات مع تآلف حروفها وتعاطف حركاتها، وهذا قليل من كثير من التماذج القرآنية التي تدل على تناسق جمل القرآن الكريم.

-الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى: فالعبارات والجمل القرآنية ذات معنى تام متكامل فلا نجد فيها اختصاراً مخلاً، ولا إطناباً مملاً، ولا ضعفاً دلالياً، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)³

فقد جمع الله مكارم الأخلاق في عبارات موجزة مختصرة، لكن هذا لم يقلل من شأنها الدلالي وإنما زادها فهماً واستيعاباً.

-إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس: فنجد أنّ الجمل القرآنية تدب بالروح والحركة مما ينتج عنه إقناع العقل وإمتاع العاطفة، ونماذج ذلك قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)⁴
ومما لا شك فيه أنّ القارئ لآيات الله تعالى الواقف على معانيها المجردة بمجرد قراءته لأولى آيات القرآن الكريم تنهياً له صورة حسية عن ذلك المعنى الذهني، فهو يرى صورة ذلك الإنسان وقد التف حول عنقه غل عريض مرتفع إلى ذقنه، وتحيط به مكان مغلق، وقد غشى الظلام بصره.⁵
وهذا ما يمثل ذروة الروعة التصويرية التي لا يمكن أن يلحق بها أيّا كان من كلام البشر.

1 محمد السيد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"، مرجع سابق، ص86.

2 سورة القمر: الآية 11-13.

3 سورة الأعراف: الآية 199.

4 سورة يس: الآية 8-9.

5 ينظر: مصطفى ديب البغا، محي الدين متو: "الواضح في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص167-168.

ولم يتوقف البلاغيون والباحثون في علم الإعجاز القرآني عند حدود هذه الجزئيات (الحروف وأصواتها، اللفظ، الجملة) واستنباط خصائصها النّسقية، بل تعدوها إلى النصّ القرآني ككلّ، إذ لم تتوقف الظاهرة النّسقية الإعجازية عند حدود الحرف أو اللفظ أو الجملة، بل تجاوزت نظم القرآن بصفة عامة.

***النّظم في القرن الكريم:** ويقصد بالنّظم في اللغة: التّأليف، نظمه ينظمه نظاما، فانّظم، ونظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السّلك ومنه نظمت الشّعْر ونظّمته: كل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض.¹

أمّا اصطلاحا: فقد اتفق البلاغيون وعلماء اللغة على أنّ النّظم هو: "تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني التّحو المتخيرة والموضوعة في أماكنها على الوجه الذي يقتضيه العقل."²

وقد ظهرت فكرة النّظم منذ بواكير الدّراسات الإعجازية، ونضجت وتأصلت معالمها مع إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) الذي جعل من هذا النّظم مناط الإعجاز القرآني والتّحدي والتفاضل بينه وبين كلام بلغاء العرب، حيث يعرفه قائلا: "اعلم أن ليس النّظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها."³

وقد توصل علماء البلاغة والإعجاز بعد طول مسيرة إلى أنّ نظم القرآن الكريم هو نظم مخصوص متفرد عن نظم كلام البشر، حيث أنّ القرآن الكريم "يجري على نسق بديع، خارج عن المعروف والمألوف من نظام كلام العرب، فهو لا تنطبق عليه قوافي الشعر، كما أنه ليس على سنن أسجاع النثر."⁴

فالأسلوب القرآني يظل جاريا على نسق واحد من السّموم والرّفعة، من جمال اللفظ ودقة الصّيغة وروعة التّركيب وعمق المعنى، رغم تنوع موضوعاته واختلافها، وهذا يمكن أن نسميه بالإعجاز النّصي على اعتبار أنّ القرآن الكريم نص متكامل.

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 6، ص 213 .

2 عبد العزيز معطي عرفة: "من بلاغة النظم العربي"، د ب ن، عالم الكتب، ط 2، 1984م، ص 7.

3 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص 81.

4 مصطفى ديب البغا، محي الدين متو: "الواضح في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص 165.

وإذا عدنا إلى كلمة القرآن في مفهومها اللغوي، وكنّا قد تطرقنا إلى ذلك سالفاً، وجدنا بأن بعض العلماء يرون بأن كلمة قرآن مشتقة من "قرنت الشيء بالشيء إذا ضمته إليه وسمي به عندهم لقرآن السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض".¹

وهناك من قال كذلك بأن القرآن وصف من القرء بمعنى الجمع²، والدليل على ذلك قوله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)³

ورأى البعض بأن لفظ القرآن مشتق من قرأ بمعنى تلا⁴، والتلاوة في اللغة تعني الاتباع والارتباط، وبنفس المعنى جاءت في القرآن الكريم، قال الله تعالى: (وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا)⁵

ويقول أيضاً عز وجل: (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)⁶، أي اتباعه بالعلم والعمل، وعلى العموم فإن التلاوة تعني الاتباع.⁷

وبناء على هذا نفهم بأن القرآن الكريم يؤكد بذاته على معنى التنسيق والنظم والترتيب المحكم جملة وتفصيلاً.

النسق القرآني: القرآن عامة ← السورة ← الآية ← اللفظ ← الحرف
أو عكس ذلك نجد:

النسق القرآني: الحرف ← اللفظ ← الآية ← السورة ← القرآن عامة

وعلى هذا الأساس لم يتوقف الدارسون لإعجاز القرآن الكريم عند حروفه أو ألفاظه وجمله، بل تعدوا ذلك إلى البحث في أسرار النص القرآني حيث وجدوا أنّ كل كلمة مكتملة للأخرى، وكل جملة مكتملة لجملة

1 عبد العزيز معطي عرفة: "قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية"، مرجع سابق، ص 22.

2 ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، مرجع سابق، ج 1، ص 17.

3 سورة القيامة: الآية 17-18.

4 ينظر: صبحي الصالح: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص 20.

5 سورة الشمس: الآية 2

6 سورة البقرة: الآية 121.

7 ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص 75.

أخرى على نظم بديع، ونسق متجانس، ومن أمثلة النظم في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)¹ وقد حلل عبد القاهر الجرجاني الآية الكريمة تحليلاً تفصيلياً، مبرزاً روعة الإعجاز وحسن النظم، حيث يقول: "...فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي تسمع، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضها ببعض، وإلا لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إل آخرها، وأن الفضل نتاج ما بينها، وحصل من مجموعها."²

إذن: فهذه الآية الكريمة نموذج واحد من بين نماذج عديدة في القرآن الكريم التي تبين نظم القرآن البديع ونسقه العجيب.

ومن هذا المنطلق فإنّ خصائص النظم القرآني تكمن في: ذلك الكلّ المجتمع بدءاً من تناسب الحروف إلى اختيار الألفاظ وتلاؤمها وصولاً إلى اتساقها في تراكيب ذات معانٍ دلالية.

وبهذا نستنتج بأنّ النظم القرآني نوعان:

- نظم جزئي: وهو الذي يشمل جزئيات الآية القرآنية أو السورة.

- نظم كلي: وهو الذي يظهر في جميع القرآن باعتباره نصاً عاماً.

ومن خصائصه:

- التّناسب والتّناسق بين عناصره (الحروف-الألفاظ-الجمل).

- الدّقة وحسن الاختيار.

- التّوافق والجرس الموسيقي الخلاب.

- الدّلالة على المعنى.

وخلاصة القول إنّ النظم القرآني هو ذلك النظم الإلهي المتفرد الخارج عن ما عهدته العرب وألفته من نظمها، ونجد طه حسين يشير إلى ذات المعنى بقوله: "...تعلمون أن القرآن ليس نثراً كما أنه ليس شعراً، إنما

¹ سورة هود: الآية 44.

² عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص 45.

هو قرآن ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم، ليس شعرا، وهذا واضح، فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا، لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة، فهو ليس شعرا ولا نثرا، ولكنه (كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)¹، فلنستطيع أن نقول إنه نثر، كما نص هو على أنه ليس شعرا، كان وحيدا في بابه، لم يكن قبله، ولم يكن بعده مثله.²

قد أشار طه حسين إلى أنّ النظم القرآني نظم مخصوص لا يشبهه لا شعر العرب ولا نثرهم، كما وضع بأنّ القرآن الكريم يسمى قرآنا وذلك فيه من قيود خاصة تضم بعضه إلى بعض.

فالنسق القرآني يظهر في نظم القرآن، وهذا ما عده العلماء الوجه الإعجازي للقرآن الكريم.

الإعجاز بالنظم = إعجاز حرفي (صوتي) ← إعجاز لفظي (معجمي + صرفي) ← إعجاز جملي (تركيب).
أو نقول:

النسق الإعجازي = نسق حرفي ← نسق لفظي ← نسق جملي.

وهذه الأنساق النظمية يتولد عنها ما يعرف بالنسق الدلالي فالنسق الدلالي: يكمن في تلك المضامين الدلالية التي يهدف إليها القرآن الكريم، أو هي مواضيع القرآن الكريم من إشارات علمية، وتشريعات، وقصص عن الأمم البائدة، ووعظ وإرشاد... إلخ
فقد رأى بعض الدارسين ذلك الانسجام الموجود في النص القرآني، فرغم التنوع في المواضيع لا يوجد تناقض أو تنافر.³

وهذا الانسجام في الدلالة هو ما سماه سيد قطب تناسق المعاني والأغراض حيث يقول: "ومنها ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض."⁴

1 سورة هود: الآية 1.

2 طه حسين: "من حديث الشعر والنثر"، مصر، دار المعارف، د ط، د ت، ص 25.

3 ينظر: نوال خلف: "الانسجام في القرآن الكريم"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص 94.

4 سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص 88.

ويعطي مثالا على ذلك حول قصص القرآن فيقول: "ثم نشير مجرد إشارة إلى التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء."¹

ومن الذين اهتموا بالانسجام الدلالي في القرآن الكريم واعتنوا بمراعاة سياقه علماء التفسير. وقبل أن نلج إلى الحديث عن السياق القرآني وخصائصه لا بد من أن نعد خصائص النسق القرآني ومميزاته.

3- خصائص النسق القرآني:

بعد دراستنا لعناصر النسق القرآني وتبعنا لمظاهر كل عنصر منه خلصنا إلى أن النسق القرآني، نسق خاص متفرد وذلك لاشتماله على خصائص ومميزات لا توجد في غيره من أنساق الكلام الأخرى. ويمكن حصر هذه الخصائص النسقية للقرآن الكريم فيما يلي:

- الترتيب والانسجام والتوازن.

- دقة الاختيار وحسن التوظيف.

- الايقاع والجرس الموسيقي الخلاب.

- الظل والخيال.

- التكامل والشمولية.

وهذه الخصائص المتداخلة في النسق القرآني، هي التي أعطت النص القرآني جمالية وهيبة ووقارا أعجز أساطين البلاغة وأرباب الفصاحة والبيان.

وعلى الرغم من أن النسق هو منبع السحر والأساس الذي انبنت عليه البلاغة القرآنية، إلا أنه لا يمكن لهذه العناصر النسقية أن تظهر وتتجلى روعة خصائصها إلا بورودها داخل السياق.

ب- خصائص السياق القرآني:

1- مفهوم السياق:

¹ المصدر نفسه: ص 89.

*السياق في اللغة: على رأي ابن منظور هو من مادة سوق، ساق الإبل يسوقها سوقا وسياقا وهو سائق وسواق، وقد انساقت وتساوقت الإبل تساقا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت، فهي متقاودة ومتساوقة والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضها ساق إليها الصّداق، والمهر سياقا وأساقه وإن كان دراهم ودنانير، لأن أصل الصّداق عند العرب: الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرّاهم والدّنانير ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد أي بعضهم على إثر بعض.¹

يفهم من هذا أنّ السّياق في مفهومه اللغوي - حسب رأي ابن منظور - يعني التّتابع والتّوالي والتّسلسل. وكذلك نجد الزّخشي ذهب إلى ذات المعنى في حديثه عن السّياق فالسّياق عنده مأخوذ من سوق حيث يقول: "ومن المجاز ساق الله إليه خيرا، وساق إليها المهر... وتساوقت الإبل تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساقاة إلى كذا وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده."²

يلاحظ بأنّ السّياق عند الزّخشي يقصد به أيضا: التّتابع بالإضافة إلى السّرد، والأصل في السّرد هو تتابع الحديث أو الأحداث.

وعلى العموم: فإنّ السّياق في معناه اللغوي مأخوذ من السّوق والتّساق، وقد أبدلت الواو ياء فقليل سياق وهو بمعنى: التّتابع والحدو والتّسلسل، وعليه اتفقت جميع معاجم اللغة.

أمّا عن السّياق في مفهومه الاصطلاحي: فقد تعددت الدّلالات الاصطلاحية لمصطلح السّياق، وراح كل واحد يعرفه على حسب تخصصه ومجاله المعرفي.

ومن التعريفات الاصطلاحية التي انتقيناها لمفهوم السّياق حسب الدّرس اللغوي تعريف الدكتور تمام حسان³، إذ نجده يقول: "المقصود بالسّياق التّوالي، ومن ثمّ ينظر إليه من ناحيتين: أولاهما تولي العناصر التي

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج3، ص 369.

² أبو القاسم محمود الزخشي: "أساس البلاغة"، تحقيق: محمد باسل عيون السود، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ - 1998م، ج1، ص484.

³ تمام حسان واحد من علماء اللغة في العصر الحديث ولد سنة 1918م بقرية الكرنك بمصر: حاصل على الماجستير والدكتوراه في اللغة العربية وآدابها له العديد من المؤلفات اللغوية والنحوية، من أشهرها كتاب اللغة العربية معناها ومبناها والذي خالف فيه أفكار النحوي الكبير سيوييه، توفي سنة 2011م.

يتحقق بها التركيب والسبب، والسياق من هذه الزاوية يسمى سياق النص، والثانية تولي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال، ومن هذه الناحية يسمى السياق سياق الموقف.¹ وعليه يفهم من قول تمام حسان أن السياق في مفهومه الاصطلاحي مأخوذ من المفهوم اللغوي وهو التوالي بمعنى التتابع، وهو عنده نوعان:

* سياق داخل النص: وهو توالي العناصر من حروف وألفاظ وجمل وتتابعها حتى تحقق نظاماً تركيبياً محكماً.

* سياق خارج النص: وهو توالي الأحداث المحيطة بالنص.

ويرى أغلب الباحثين المحدثين أن السياق كمصطلح ظهر مع نظرية فيرث (firth)² السياقية (contextual theory)³، إذ تعد هذه النظرية حجر الأساس في الدراسات السياقية الغربية، حيث اعتبر فيرث "المعنى مجموعة مركبة من العلاقات السياقية والصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية."⁴

فمفاد النظرية الفيرثية السياقية يقوم "على النظر إلى المعنى بوصفه وظيفة في سياق... وقد استخدم السياق في هذه النظرية بمفهوم واسع يشمل: السياق الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي، ولا يظهر المعنى المقصود للمتكلم إلا بمراعاة الوظيفة الدلالية للألفاظ المستخدمة."⁵ فدراسة المعنى عند فيرث تعني تلك التحليلات للسياقات والمواقف التي ترد فيها سواء أكان ذلك لغوياً أم غير لغوي.

1-linguistic context أو verbal context: ويراد به السياق اللغوي أو سياق النص.

1 تمام حسان: "مقالات في اللغة والأدب"، القاهرة، عالم الكتب، ط1، 2006م، ج2، ص65.

2 جون روبرت فيرث (1890م-1960م) هو لغوي بريطاني وعالم اللسانيات الاجتماعية الذي عرف بنظريته السياقية.

3 ردة الله بن ردة عبد الله بن ضيف الله الطلحي: "دلالة السياق"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية وآدابها، 1418هـ، ج1، ص158.

4 مترجم عن: Firth: papers in linguistic : oxford unisity press new york

toronto, 1957, p.19

5 يونس علي محمد محمد: "مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب"، ليبيا، دار الكتاب الجديد، ط1، 2004م، ص27-28.

2 the nom linguistic Context أو the nom linguistic context: ويراد به سياق الموقف أو السياق غير اللغوي¹، حيث يقول: "أعتقد أن الأصوات لا ينبغي أن تكون مفصولة نهائياً عن النظام الاجتماعي الذي توجد فيه، وهكذا فإن كل نصوص اللغات الحديثة المنطوقة يجب أن ينظر إليها على أساس أنها إنتاج أشخاص معينين في سياق شامل من خلال الموقف."²

يستنتج من نظرية فيرث أن السياق نوعان:

-السياق اللغوي (المقالي): وهي الوحدات الصوتية والصرفية والكلمات التي يتحقق بها التركيب، أي الوحدات اللغوية التي يتركب منها الكلام.

-السياق غير اللغوي (المقامي): وهو العوامل غير اللغوية، كالعوامل الاجتماعية والظروف والملابسات التي تحيط بالكلام أو النص اللغوي ويسمى أيضاً سياق الحال أو سياق الموقف.³

وقد ركز فيرث في نظريته السياقية على سياق الموقف وعدّه الأساس في فهم النص، وتبعه في ذلك ستيفن أولمان حيث يقول: "وكلمة (context) قد استعملت حديثاً في معانٍ مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يهم مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي، أي: النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، بأوسع معاني هذه العبارة، إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، والقطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهمية بالغة في هذا الشأن."⁴

1 ينظر: تمام حسان: "اللغة العربية معناها ومبناها"، المغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة، د ط، 1994م، ص 337.

2 مترجم عن: archibeld ahill :la linguistics,vois ofamerica forum lecture,july,1960,p251.

3 ينظر: عبد النعيم خليل: "السياق بين القدماء والمحدثين"، الاسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2007م، ص 279.

4 ستيفن أولمان: "دور الكلمة في اللغة"، ترجمة: كمال بشر، القاهرة، مكتبة الشباب، د ط، د ت، ص 57.

وعلى الرغم من صعوبة نظرية فيرث إلى أن أغلب اللغويين وعلماء اللسانيات تأثروا بها، وخصوصاً العرب المحدثون أمثال: تمام حسان، وكمال بشر، والدكتور محمد السعران، وفريد عوض حيدر، سالم خدادة وغيرهم، ويبدو ذلك جلياً في دراساتهم ومؤلفاتهم العلمية.¹

حيث نجد فريد عوض حيدر يعرف السياق على أنه "علاقة لغوية أو خارج نطاق اللغة يظهر فيها الحدث الكلامي."²

وبنفس المعنى نجده كذلك عند سالم خدادة إذ يقول: "السياق يعني الكلمات التي تسبق كلمة أو عبارة أو جملة والتي تساعد في بيان ما تعني هذه الكلمة أو العبارة أو الجملة وهو كذلك الظروف التي تحيط بالحدث والتي يجب مراعاته من خلالها."³

إذن: السياق في مفهوم العرب المحدثين نوعان:

- سياق مقامي.

- سياق مقالي.

وإن كان هؤلاء المحدثون قد تأثروا بالدراسات الغربية، فهذا لا يعني أن تراثنا العربي خال من الدراسات السياقية، بل على عكس ذلك تماماً.

فإن نظرية السياق التي أتى بها فيرث ما هي إلا نظرية النظم التي أتى بها عبد القاهر الجرجاني في أواخر القرن الرابع الهجري والدليل على ذلك قول أولمان بأن السياق هو "النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم"⁴، ويواصل قوله: "إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها والكتاب كله كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات."⁵

1 ينظر: محمد اسماعيل بصل، فاطمة بلة: "ملامح نظرية السياق في الدرس اللغوي الحديث"، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، إيران، جامعة سمنان، بالتعاون مع جامعة تشرين سوريا، ع18، 2014م، ص9.

2 نجم الدين قادر كريم الزنكي، "نظرية السياق - دراسة أصولية"، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2007م، ص52.

3 المرجع نفسه: ص52.

4 ستيفن أولمان: "دور الكلمة في اللغة"، مرجع سابق، ص57.

5 المصدر نفسه: ص57.

وهذا ما عرفته الدراسات البلاغية قديماً، وكذلك دراسات تفسير القرآن الكريم على اعتبار أنّ النصّ القرآني نص واحد يفسر بعضه بعضاً.¹

وهذا جوهر دراستنا للسياق أن نقف على علاقة السياق القرآني بالدّرس البلاغي العربي بصفة عامة والقرآني بصفة خاصة.

فقد حظيت كلمة السياق بمساحة شاسعة في التّراث العربي الإسلامي، حيث نجد أنّ هذه الكلمة تتردد كثيراً في الدراسات القرآنية والدراسات اللغوية الأدبية، وبالأخص عند:

-الأصوليين.

-البلاغيين واللغويين.

-المفسرين.²

ولعل ما يهمنا منها هو السياق عند البلاغيين وأهل التّفسير القرآني، وذلك لماله من علاقة يبحثنا.

***السياق عند البلاغيين:** انطلق البلاغيون في دراستهم لمفهوم السياق من العبارة المشهورة: لكل مقام مقال.

هذه العبارة التي لطالما تصادفنا بها منشورة على كتب الأدب والشعر أو على كتب اللغة والبلاغة، من ذلك قول الخطيئة³:

تحن عليّ هداك المليك فإنّ لكل مقام مقال⁴

وأشار إليها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين في موضعين:

الأول في الحديث الذي نقله عن ابن المقفع والذي يقول فيه: "إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي

يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد العدو." ¹ العدو.¹

1 ينظر: ردة الله بن ردة الطلحي: "دلالة السياق"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص 169.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 47.

3 قالها الخطيئة وهو يخاطب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

4 الخطيئة: "ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت"، دراسة وتبويب: مفيد محمد قميحة، لبنان، بيروت، دار الكتب

العلمية، ط 1، 1413هـ-1993م، ص 164.

والثاني في الحديث الذي نقله عن بشر بن المعتمر: "إنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال."²

يظهر من هذا أنّ نظرية فيرث التي ظهرت في العصر الحديث، قد تفتن إليها البلاغيون العرب منذ القرن الثاني للهجرة أمثال ابن المقفع، وبشر بن المعتمر وغيرهم.

إذن: لقد تناول البلاغيون مفهوم السياق انطلاقاً من المقولة المشهورة: لكل مقام مقال، وأسسوا على ذلك مفهومهم للبلاغة، حيث أنّ البلاغة: "هي الكلام الذي يصيب معناه بوضوح وسلامة مع خلوه من التلطف والفضول ومراعاته لمقتضى الحال."³

والمقصود بمقتضى الحال عند البلاغيين هو تلك السياقات المقامية، يقول أبو يعقوب السكاكي: "ولا يخف عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهئة يباين مقام التعزية... وجميع ذلك معلوم لكل لبيب... ثم إذا شرعت في الكلام فكلّ كلمة مع صاحبها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام... وارتفاع شأن الكلام من باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو ما نسميه مقتضى الحال."⁴

يفهم من قول أبو يعقوب السكاكي أنّ المقام هو نفسه السياق الذي تبناه الغربيون كمصطلح في العصر الحديث، كما يبيّن بأنّ السياق نوعان:

- سياق مقامي: وهو السياق المتعلق بمقامات الكلام، وهو ما يعرف اليوم في الدّراسات الغربية بـ "context situationnel".

- سياق مقالي: وهو الذي يرتبط بتنسيق الوحدات اللغوية داخل الكلام مع مراعاة ما ينتج عنها من دلالة، وهو ما يعرف في الدرس الغربي الحديث بـ: "cotexte linguistique أو context verbale" وبهذا فمقتضى الحال هو ذلك السياق المقامي المناسب الذي تورد وفقه العبارة.

1 الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج1، ص116.

2 المصدر نفسه: ص136.

3 مازن المبارك: "الموجز في تاريخ البلاغة"، مرجع سابق، ص18.

4 أبو يعقوب السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص256.

وبين المقام والمقال علاقة جوهرية طردية، فكما أنّ المقال دليل على المقام، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إل مفهوم السياق انطلاقاً من نظرية النّظم حيث يقول: "وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النّطق، وليس نظمها بمقتضى عن المعنى ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النّفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إل الشيء كيف جاء واتفق، ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك."¹

فقد أشار عبد القاهر الجرجاني في هذا المقتطف النصي إلى نوعين من النّظم:

- نظم الحروف: وهو تواليها في النّطق، وهنا إشارة منه إلى النّظم النّسقي.
 - نظم الكلم: وهو الذي يظهر من خلال تطابق الكلام مع مقتضيات الحال وهنا إشارة إلى النّظم السياقي.
- وعلى هذا النسق هو بنية النص والسياق هو دلالاته المعنوية.

وعلى هذا الأساس فإنّ مقولة "لكل مقام مقال" كانت جوهر الدّراسات البلاغية حيث عني البلاغيون بمراعاة أحوال المتكلم وظروف الخطاب، وعل أساسها عرفوا البلاغة.

ولم يعرف البلاغة أحد قط مثلما عرفها ابن المقفع (ت142هـ) حسب رأي إسحاق بن حسان بن قوهي²، حيث قال: سئل ابن المقفع ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج... فعامّة ما يكون في هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعاني، والإيجاز هو البلاغة... وليكن في صدر كلامك دليل عل حاجتك... فإنه لا خير في كلام لا يدل على معنك ولا بشير إلى مغزك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت، قال: فقيل له، فإن ملّ السّامع الإطالة التي ذكرت أنّها

¹ عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص49.

² هو إسحاق بن حسان بن قوهي الحميري، كان من أعاجم الفرس الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية العباسية، ازدهر شعره في عصر الرشيد والمأمون فمدحها، عرف بحسن إسلامه، وسلامة عقيدته، لكن هذا لم يمنعه من نزعتة الشعوبية في تفضيل الفرس على العرب.

حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو.¹

فقد حدد البلاغيون مقياس بلاغة الكلام حسب مناسبته ومراعاته لمقتضى الحال، يقول الخطيب القزويني (ت739هـ) عن ذلك: "وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يبين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد... وكذلك لكل كلمة مع صاحبها مقام... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار والمناسب وانحطاطه بعدم مطابقته وجملة القول: فإن النظرية السياقية التي ادعاها الغرب في العصر الحديث قد سبقهم إليها العرب منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً من خلال دراساتهم البلاغية بالتّظهير والتّطبيق، وجهودهم الجبارة ومؤلفاتهم العظيمة لخير دليل على ذلك، وإن اختلفت التسمية فالمعنى واحد.

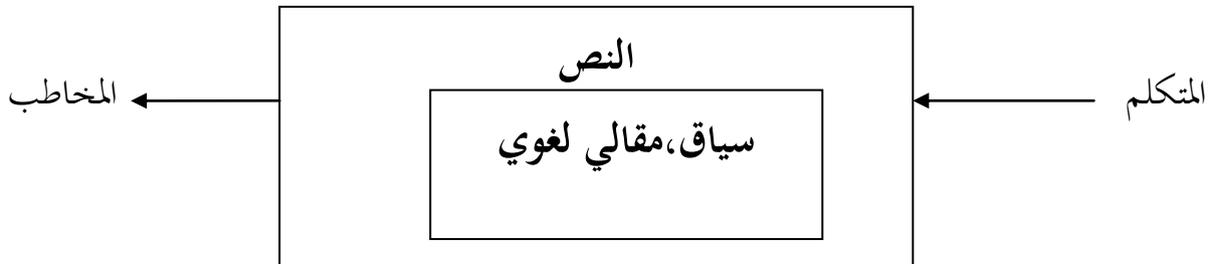
فالسّياق اللغوي: verbal context: هو ما يعرف عند البلاغيين العرب بالمقال.

والسّياق المقامي أو سياق الموقف: context of situation: هو ما يعرف عند البلاغيين العرب بالمقام.

فقد دعا هؤلاء البلاغيون إلى ضرورة تحقيق التّناسب والتّطابق داخل النّص وخارجه حتى يرقى إلى درجة البلاغة ويكتسب صفتها.

ومما لا شك فيه أنّ اهتمامهم بالسّياق يعود إلى القرآن الكريم، حيث دعتهم ضرورات إعجازه البلاغي إلى الوقوف على أجزائه اللغوية داخل النّص ومراعاة تلاؤم بعضها ببعض (السّياق اللغوي)، بالإضافة إلى (السّياق المقامي) ومراعاة المقام ومقتضيات الحال (غرض الآية أو السّورة) وتناسبها مع النّص.

سياق مقامي (ظروف الخطاب، أحوال المتكلم)



¹ الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج1، ص116، وكذلك: ابن رشيق: "العمدة"، مصدر سابق، ج1، ص420.

***السياق عند المفسرين:** لم تقف دراسة السياق في التراث العربي الإسلامي عند حدود الدرس البلاغي، بل لقيت حفاوة وإقبالا كبيرا في مجال الدراسات التفسيرية للقرآن الكريم، وذلك لصلته الوثيقة في فهم كتاب الله تعالى.

وإذا كان العلماء على اختلاف مشارهم قد أقبلوا على دراسة القرآن الكريم ووقفوا على خصائص أسلوبه الإعجازي: "فإنّ المفسرين كانوا الأكثر تناولا للقرآن الكريم بالبحث فيما يتعلق بكل ما تناوله الآخرون من قراء ولغويين وبلاغيين وفقهاء... وغيرهم."¹

ويعد علم التفسير من أهم العلوم التي اهتمت باستنباط خصائص الأسلوب القرآني، وراعت ذلك في فهم كتاب الله تعالى، باعتباره معجزة بلاغية بالدرجة الأولى.

ولعل من أهم الأمور التي راعاها المفسرون في تفسير كتاب الله تعالى قضية السياق، حيث كان المفسر لا يفسر الآيات القرآنية ويفهم دلالتها إلاّ باعتبار مراعاة سياقها الكلي، والدليل على ذلك ما روي عن مسلم بن يسار رحمه الله²، أنّه قال: "إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده."³ ويستنتج من قول مسلم بن يسار أنّه يقصد بمن يحدث عن الله المفسر الذي يفسر كلامه عزّ وجل، وقد نبهه إلى المنهاج القويم في التفسير وهو مراعاة السياق.

وبالفعل أنّ المفسرين قد أخذوا بهذا المنهاج القويم في تفسير القرآن الكريم، وراعوا السياق بنوعيه، سياق المقال وسياق المقام.

ولنا مع هذا وقفة فيما سيأتي من حديث عن الأسلوب القرآني وأثره في علم التفسير.

وبعد هذه الجولة مع مفهوم السياق في التراث العربي الإسلامي ومقارنة ذلك مع الدراسات الغربية

الحديثة، نصل إلى حصاد المهم، وهو مفهوم السياق باعتباره مركبا إضافيا إلى القرآن الكريم.

1 ردة الله بن ردة الطلحي: "دلالة السياق"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص 83.

2 مسلم بن يسار هو أبو عبد الله مولى بني أمية فقيه وناسك زاهد، من رجال الحديث سكن البصرة وكان إمامها مفتيها، توفي (108هـ)

3 أبو الفداء اسماعيل بن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، د ب ن، دار طيبة، ط 2، 1420هـ -

1999م، ج 1، ص 13.

***تعريف السياق القرآني:** لم يعرف العلماء القدامى السياق القرآني تعريفا اصطلاحيا صريحا وإنما أشاروا

إليه بمصطلحات دالة على مفهومه كالقرائن والأحوال ومراعاة أسباب النزول وعلم المناسبة.

ولعل أولى تعريفات السياق القرآني كمصطلح كانت في دراسات الباحثين والأكاديميين الجامعيين في العصر الحديث والمعاصر، من ذلك تعريف عبد الوهاب أبو صفية الحارثي في كتابه دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم حيث قال: "أمّا السياق القرآني، فإننا نقصد به أمرين:

1- الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها معاني القرآن، إلى جانب النظم الإعجازي، والأسلوب البياني الذي يشبه في جميع تعبيراته.

2- الآيات والمواضع التي تتشابه في موضوعها مع اختلاف يسير في طريقة سردها وترتيب كلماتها لمناسبة المقام، ولحكمة بلاغية تتصل بأغراض السورة.¹

وعرفه كذلك الدكتور المثني عبد الفتاح محمود فقال: "السياق القرآني تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال."²

وعرفت الدكتورة ماجدة صلاح حسن السياق القرآني بقولها: "السياق القرآني هو جزء من السياق بعمومه في معناه العام... وهو علاقة اللفظ مع ما قبله وما بعده من الآيات وما يكسبه من معنى في هذا الموضوع أو في موضع آخر، وسبب النزول والجو العام الذي نزلت فيه الآية."³

وخلاصة القول: فإنّ السياق القرآني هو تلك الأغراض الرّبانية التي انبنت عليها السّور والآيات القرآنية بعد انتظامها في أنساق لفظية وتركيبية.

والسياق القرآني نوعان:

- **سياق لغوي (مقالي):** ويظهر من خلال تلك القرائن اللغوية المنسجمة داخل النّص القرآني من ألفاظ وعبارات وتراكيب منسقة أدق تنسيق.

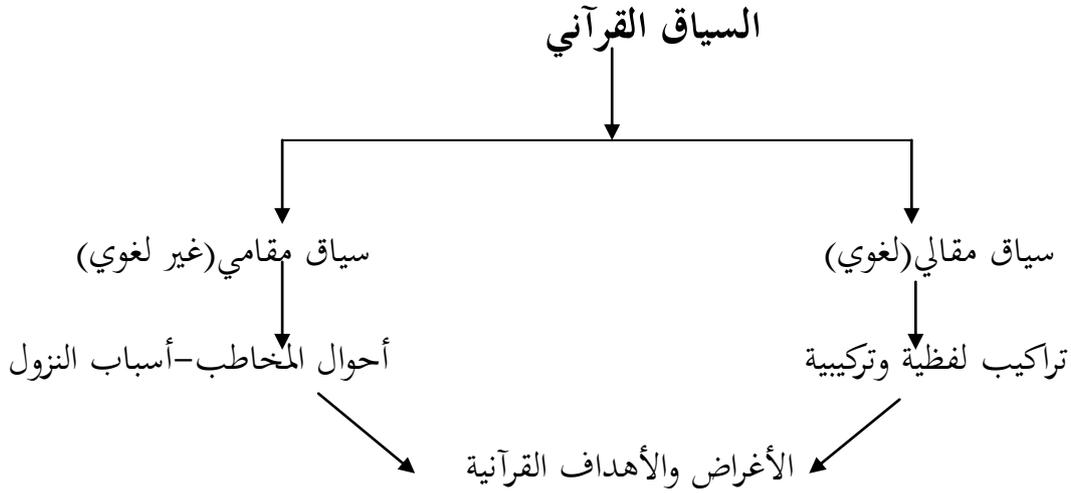
1 عبد الوهاب أبو صفية الحارثي: "دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم"، الأردن، عمان، دار عمار للنشر والتوزيع، ط1، 1409هـ، ص89.

المثني عبد الفتاح محمود محمود: "السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي"، أطروحة دكتوراه في تخصص التفسير وعلوم القرآن، إشراف: فضل

2 حسن عباس، الأردن، جامعة اليرموك، 3 ربيع الثاني 1426هـ - 12 أيار 2006م، ص14

3 ماجدة صلاح حسن: "السياق القرآني والدلالة المعجمية"، المجلة الجامعة، ع9، 2007م، ص2.

- سياق غير لغوي (مقامي، حالي): ويظهر من خلال القرائن المقامية والحالية من ظروف وملابسات خارجة عن النص القرآني كمرعاة أحوال المخاطب والجو العام للرسالة وأسباب النزول.



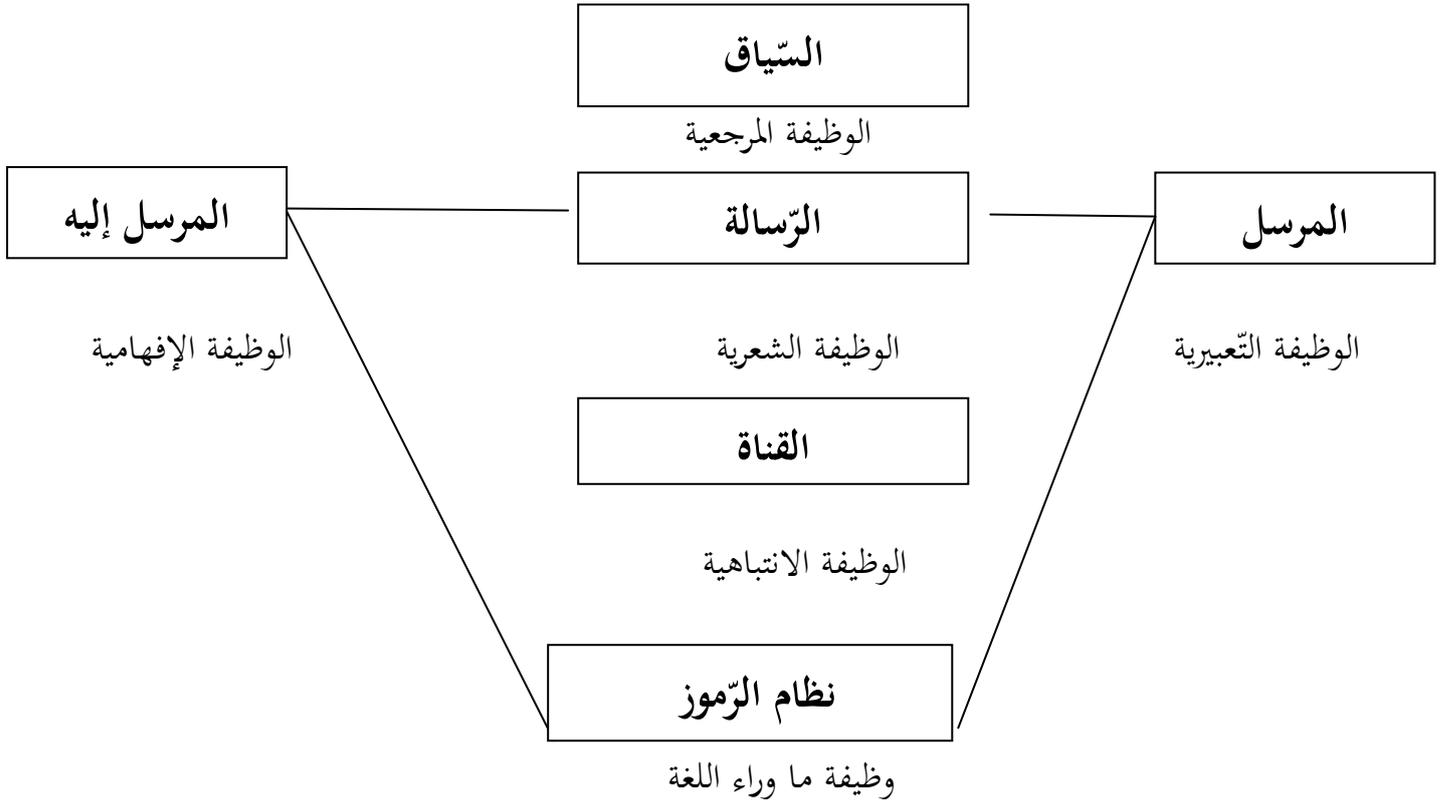
2- عناصر السياق القرآني :

اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة قولية، ورسالة عالمية، خاطب الله بها جميع خلقه إنسهم وجنهم، ومن المعلوم أنّ السياق القرآني يتجسد في هذه الرسالة الربانية المتفردة بخصائصها المعجزة بكمالها.

والظاهر أنّ السياق القرآني لا يقوم إلا على عناصر ومكونات، وقبل أن نحدد عناصر السياق القرآني، لا مانع من أن نعرض عناصر السياق بوجهه العام، حيث أنّ للسياق مكونات عديدة وعناصر مختلفة تدخل أثناء تفاعله في دورة خطابية معينة، وهذه المكونات والعناصر تختلف بحسب الأداءات وبحسب الأفراد وبحسب الزمان والمكان.¹

وكان العالم اللساني رومان جاكبسون قد حدد أهم العناصر الأساسية للسياق من خلال مخططه الذي وضعه للعملية السياقية.

¹ سعد بولنوار: "آليات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان للشنقيطي - تحديد المفاهيم النظرية" أطروحة دكتوراه العلوم في اللغة العربية وأدائها، إشراف: الدكتور لبوخ بوجملين، ورقلة جامعة قاصدي مرباح، كلية الآداب واللغة، قسم اللغة والأدب العربي، 2011م -



وبناء على مخطط جاكبسون يمكن استنتاج أهم عناصر السياق الأساسية وهي:

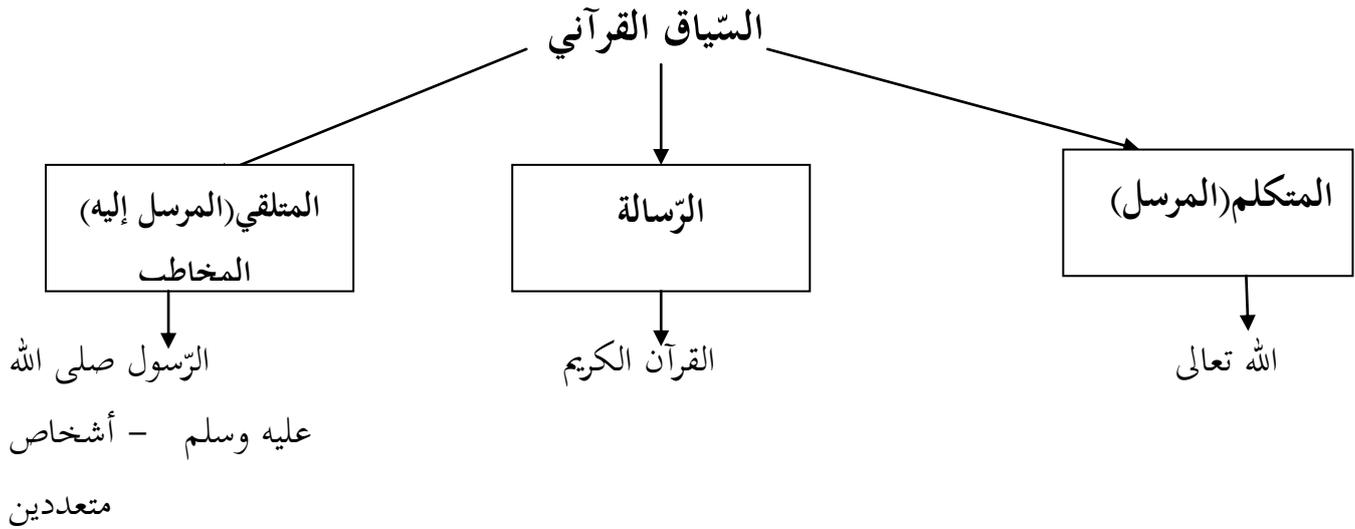
- المرسل: وهو المتكلم أو المرسل الذي يرسل الرسالة وتكون وظيفته، وظيفته تعبيرية انفعالية.
 - المرسل إليه: وهو المخاطب الموجهة له الرسالة، وتتولد عنه الوظيفة الإفهامية .
 - الرسالة: وهي الكلام المرسل من طرف المرسل إلى المرسل إليه، وتتولد عنها الوظيفة الشعرية الإنشائية.
 - القناة: وهي الصلة التي تولد الوظيفة الانتباهية، وهي التي تحرص على إبقاء التواصل بين المرسل والمرسل إليه.
 - نظام الرموز: وتسمى بوظيفة ما وراء اللغة، وهي التي تحرص على التفاهم والحوار بين المرسل والمرسل إليه.
 - السياق: والذي ينتج الوظيفة المرجعية، وهي الظروف المحيطة بالخطاب والمؤدية للإخبار.¹
- ويرى جاكبسون بأنّ الوظيفة المرجعية هي الوظيفة المتجهة نحو السياق.²
- وتعد هذه الوظيفة هي أساس العملية الاتصالية لأنها تفصح عن الغرض الذي جاءه لقصد الرسالة.

¹ ينظر: عبد السلام المسدي: "الأسلوبية والأسلوب"، مرجع سابق، ص 158-160.

² ينظر: رومان جاكبسون: "القضايا الشعرية"، مصدر سابق، ص 27.

وعلى هذا فإنّ السّياق ذو وظيفة مرجعية بالنّظر إلى السّامع (المرسل إليه) لأنّ من خلالها يقع له الفهم، وذو وظيفة تعبيرية بالنسبة إلى المتكلم (المرسل) الذي أحال السّياق إلى رموز مشتركة على اختلاف في درجة الوضوح.

وانطلاقاً من هذه العناصر يمكننا أن نحدد عناصر السّياق القرآني على النحو التّالي:



إذن عناصر السّياق القرآني هي:

- المرسل (المتكلم): الله تعالى

- المرسل إليه (المخاطب): وهو متعدد، وكان أول متلقي السّامع لخطاب الله تعالى، هو جبريل عليه السلام، ومنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، باعتباره المتلقي الثّاني، والمعني على الوجه المخصوص بالخطاب القرآني، ومنه إلى العرب بصفة خاصة، والعالمين بصفة عامة، بالإضافة إلى مخاطبين آخرين والمقام لا يتسع للشرح والتّفصيل عن ذلك.

- الرّسالة: القرآن الكريم، كلام الله عز وجل، والرّسالة القرآنية بدورها عناصر، وهذه العناصر هي:

* عناصر لغوية: وهي الألفاظ والتراكيب والقرائن اللغوية التي صيغ بها القرآن الكريم باعتباره معجزة قولية لغوية.

* عناصر غير لغوية: أحوال وظروف وملابسات نزول السور والآيات القرآنية: والأغراض التي سيقت لها، ومراعاة أحوال المخاطبين.

-القناة: بما أنّ القناة هي ذات وظيفة انتباهية وهي التي تحرص على إبقاء التّواصل بين المرسل والمرسل إليه حسب رأي جاكسون، فإنّ القناة في الرّسالة التّواصلية القرآنية بين الله سبحانه وتعالى وعباده يظهر من خلال بقاء هذه الرّسالة وديمومتها، فالقرآن الكريم هو رسالة الله الخالدة إلى عباده أجمعين على اختلاف العصور والأمكنة، وهذا التّواصل خالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فعلى الرّغم من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره المخاطب المعني بالقرآن الكريم إلى أنّ الرّسالة القرآنية لا تزال باقية متواصلة، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)¹

وكل قارئ لكتاب الله تعالى يحس منذ الوهلة الأولى أنّه المعني بهذا الخطاب وأنّ الله يخاطبه هو على وجه الخصوص.

-نظام الرّموز: رأينا بأنّ نظام الرّموز يقصد به ذلك التّفاهم والحوار الذي يكون بين المرسل والمرسل إليه، ونظام الرّموز في السّياق القرآني، لا يكون إلّا إذا أمعنا التّظر في القرآن الكريم وتدبرنا معانيه.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتّدبر في رسالته القرآنية، والتّأمل في معانيها، وبذلك نفهم مقصده عزّ وجل وغرضه من هذه الرّسالة الكريمة، قال الله تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)²، ويقول أيضا عزّ وجل: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)³ هذه جملة عناصر السّياق القرآني والتي تفردت عن سواها من عناصر الخطابات السّياقية الأخرى، وذلك يعود إلى مصدرها الإلهي المنزه عن المثل والشبه.

3-خصائص السّياق القرآني:

تميز السّياق القرآني بميزات وخصائص فريدة، جعلت منه سياقاً متفرداً عن باقي السّياقات الأخرى⁴، وهذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم ومخالفته لكلام البشر وأساليب خطاباتهم، ومن هذه الخصائص التي تفرّد بها السّياق القرآني ما يلي:

1 سورة الحجر: الآية 9.

2 سورة محمد: الآية 24.

3 سورة ص: الآية 29.

4 ينظر: المثني عبد الفتاح محمود: "السّياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص 64.

- دقة السّياق القرآني ومراعاة النّظم¹، في أداء المعنى المطلوب، حيث أنّ السّياق يرشد إلى الطريق الصحيح وإلى فهم مراد الله تعالى.
- ضبط السّياق القرآني لفهم المتلقي: فقد حدد السّياق القرآني مدلولات ألفاظه وقيدها بمعانيها للمتلقي، وبالتالي يفرض حاكميته وسلطته المطلقة على المتلقي.²
- السّياق القرآني هو سياق منتظم غير فوضوي قائم بذاته، معانيه واضحة المعالم، متصلة ببعضها البعض لا تقبل التّقطيع ولا التجزئ³، حيث أنّنا نلاحظ أنّ القرائن اللغوية تأتي ملائمة للقرائن المقامية.
- من خصائص السّياق القرآني تفردّه بعناصر خاصة، ويكفي أنّ ربّ العزة هو المرسل، والرّسالة هي كلامه عزّ وجل المنزه عن كلام البشر.
- السّياق القرآني سياق معجز: وآلية التّعجيز في السّياق القرآني متفردة بالخطاب القرآني دون سواه من خطابات البشر.⁴
- تجاوز السّياق القرآني المتلقي الأساسي محمد صلى الله عليه وسلم وتناسبه مع مختلف البيئات على مرّ العصور، حيث "إنّ مما يمنح للخطاب القرآني خصوصيته، وخصوصية السّياق فيه تجاوزه للواقع وللبيئة البدوية العربية التي تلقي فيها النّبي صلى الله عليه وسلم الرسالة السماوية المقدسة."⁵
- فالسّياق القرآني هو الذي جعل النّص القرآني نصا خالدا صالحا لكلّ زمان ومكان، وذلك من خلال مراعاته للظروف والأحوال.
- من خصائص السّياق القرآني تيسير الفهم، والمساعدة على التّأويل والاجتهاد، وهذا ما كانت ثمرته ولادة علم جديد عظيم الشّأن، وهو علم التّفسير.

1 ينظر: محمد كريم الكواز: "الأسلوب في الإعجاز البلاغي"، مرجع سابق، ص282.

2 ينظر: المثني عبد الفتاح محمود: "المصدر السابق"، ص64-65.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص65.

4 ينظر: المصدر نفسه، ص65.

5 ينظر: سعد بولنوار: "آليات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان للشنقيطي"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص202.

ثالثاً: الأسلوب البلاغي للقرآن الكريم وأثره في علم التفسير

من المعلوم أنّ القرآن الكريم هو كتاب الله المقدس الذي يحمل بين دفتيه مقومات الهداية الإلهية، وأسرار البلاغة الإعجازية التي انقاد لها الإنس والجن طوعاً وكرهاً، وركعت لعظمتها أرباب البلاغة وجهابذة البيان العربي تسليماً وانقياداً.

ولا يمكن لأيّ كان من البشر أن يدرك مكامن تلك الهداية الربانية، والبلاغة الإعجازية، إلاّ إذا سرح في رحاب سور القرآن الكريم وآياته متدبراً متأملاً وغاص في بحر فرائه العذب مستقراً مستنبطاً. ولم يحظ القرآن الكريم بالعناية والحفاوة مثلما عني به علم التفسير.

أ- مفهوم علم التفسير:

1 - التفسير في اللغة: مأخوذ من مادة فسّر، الفسر: البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر، ويفسر بالضم فسراً، وفسّره: أبانه، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، واستفسرته كذا أي سألته أن يفسره لي¹. يفهم من هذا بأنّ التفسير في اللغة بمعنى البيان والكشف والوضوح.

وقد وردت لفظة التفسير مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: (**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**)²، "أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلاّ أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم"³. والملاحظ من هذا أنّ القرآن الكريم وظّف لفظة التفسير بنفس المعنى اللغوي وهو الإبانة والتوضيح والإفصاح.

2- التفسير في الاصطلاح: تعددت اجتهادات العلماء المسلمين في مجال تفسير القرآن الكريم، وتنوعت تعريفاتهم.

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص129.

² سورة الفرقان: الآية 33.

³ أبو الفداء اسماعيل بن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج6، ص109.

ومن بين التعريفات الاصطلاحية لمفهوم التفسير تعريف أبو حيان الأندلسي (ت745هـ)¹، حيث يقول: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمت ذلك..."²

يشير أبو حيان الأندلسي من خلال تعريفه هذا إلى المضامين الشاملة لعلم التفسير والتي حصرها فيما يلي: علم القراءات، علم اللغة، علم الإعراب، علم البيان، علم البديع، معرفة الناسخ... إلخ³ ومن الذين عرفوا التفسير الإمام الزركشي (794هـ) ويظهر ذلك في قوله: "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ."⁴

ويظهر من تعريف الزركشي أنه لم يخالف تعريف سابقه للتفسير ولم يزد عليه شيئاً سوى تغيير في الصياغة التركيبية.

كما أورد السيوطي (ت911هـ) تعريفاً عن التفسير قال فيه: "التفسير كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه سواء أكانت معاني لغوية أو شرعية بالوضع أو بقرائن الأحوال ومعرفة المقام."⁵ لقد التفت السيوطي في تعريفه هذا إلى دور السياق وأهميته في فهم القرآن الكريم ومن الذين عرفوا التفسير في العصر الحديث الإمام محمد عبد العظيم الزرقاني (ت1367هـ-1948م) حيث قال: "والتفسير في الاصطلاح علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد

1 أبو حيان الغرناطي: هو العلامة محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أنير الدين المعروف بأبي حيان الغرناطي الأندلسي، فقيه ظاهري ولد في غرناطة سنة (654هـ)، كان أمة في العلم جامعاً للمعارف الإسلامية، عالماً باللغات الشرقية، توفي بالقاهرة سنة (745هـ) ودفن بها.

2 أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي: "البحر المحيط في التفسير"، دراسة وتحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود-الشيخ علي محمد لعرض، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ-1993م، ج1، ص121.

3 ينظر: المصدر نفسه: ص121.

4 بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص13.

5 جلال الدين السيوطي: "التجويد في علم التفسير"، تحقيق: فتحي عبد القادر فريد، الرياض، دار العلوم، ط1، 1402هـ، ص38.

الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.¹

بين الإمام الزرقاني بأنّ التفسير علم من العلوم القرآنية التي تمكّن الإنسان من الوقوف على معرفة مقاصد الله وأغراضه التي كان يهدف إليها من خلال أحكامه وتشريعاته، ويكون بتعريفه هذا قد فتح باب الاجتهاد على الناس لمعرفة تلك المقاصد في حدود ما تمنحه الطاقة الإنسانية.

3- أهمية علم التفسير:

كان القرآن الكريم ولا يزال قبلة العلماء على اختلاف مشاربهم، حيث إنّ صاحب كلّ ذي اختصاص عالما كان أو أديبا إلّا وجد ضالته في كتاب الله العظيم، فهو بحر الله الذي لا تنفذ أسرارته، ولا ترتوي الأنفس من فيضه الزّاحر يقول الله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)²

ولعل من أهم العلوم التي ارتوت من نبعه الصّافي علم التفسير لما له من صلة وثيقة به. فقد أقبل العلماء قديما وحديثا على تفسير كلام الله مستجيبين في ذلك لأمره عزوجل، حيث دعا سبحانه وتعالى عباده إلى التدبر في كتابه الكريم، وفهم كلامه المجيد حتى يقفوا على مقاصده وأغراضه، يقول عز وجل: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)³، ويقول أيضا عز وجل (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)⁴

ومما لا شك فيه أنّ النبي-صلى الله عليه وسلم- كان المفسر الأول لكتاب الله تعالى، ثمّ الصحابة والتابعين وتواليهم من سدنة القرآن وأهله إل يومنا هذا، مما خلف لنا خزانة تفسيرية تزخر بمختلف التفسيرات وما حصده عقول أولي الألباب في فهم كتاب الله تعالى.

1 محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ج2، ص6.

2 سورة الكهف: الآية 109.

3 سورة ص: الآية 29.

4 سورة محمد: الآية 24.

فلعلم التفسير أهمية عظمى في فهم كتاب الله تعالى وإدراك مقاصده على الوجه الصحيح، فهو فرض كفاية، حيث تعلمه "واجب على الأمة من حيث العموم، فلا يجوز أن تخلو أمة من عالم التفسير يعلم الأمة معاني كلام ربها."¹

وليس معنى هذا أنّ عامة الناس ساقط عنهم هذا الأمر، وإتّما كل واحد عليه أن يجتهد في فهم القرآن الكريم على قدر الاستطاعة حتى "يقيمون به فرائضهم ويعرفون به ربهم."²

وبناء على هذا فإنّ علم التفسير من أجلّ العلوم القرآنية قدرا وأعظمها شأنًا، وهو من أشدّ الضروريات التي تحتاج إليها الأمة العربية الإسلامية حتى تفهم كتاب الله تعالى على الوجه الصحيح، وخصوصا في عصرنا الحالي وما نشهده من هجمات أجنبية سبت ديننا وأهانت نبينا-صلى الله عليه وسلم- وندست قرآنا ودستور حياتنا الخالد، فما على الأمة الإسلامية اليوم إلا أن تقف على كتابها الكريم فهما وتدبرا وتفسيرا لتحمله نبراسا على مناكب الحياة المادية، وتنير به من جديد أرجاء المعمورة التي طغت عليها دياجير الكفر والعصيان، يقول محمد عبد العظيم الزرقاني: "نخضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة، ولا سهلة متيسرة، ولا رائعة مدهشة، إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم خالقه الحكيم، وبديهي أنّ العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد، والإمام بمبادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التي يحملها أسلوبه البارع المعجز، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن وهو ما نسميه بعلم التفسير خصوصا في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم."³

يظهر من هذا القول إشارة الزرقاني الصريحة إلى أهمية علم التفسير للنهوض بالأمة العربية الإسلامية من جديد واسترجاع مجدها الضائع، "فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس واعزاز العالم، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إل هذه الكنوز والذخائر

¹ مساعد بن سليمان الطيار: "فصول في اصول التفسير"، تقديم: محمد بن صالح الفوزان، الدمام، دار دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط3، 1420هـ-1999م، ص16.

² المرجع نفسه: ص16.

³ محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ج2، ص8.

مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، وتوافروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها.¹

ويرجع الشيخ محمد الزرقاني أسباب تخلف المسلمين في هذا العصر إلى سوء فهمهم للقرآن الكريم وتقصيرهم في تفسيره وتدبره حيث يقول: "وهنا تلمح السر في تأخر مسلمة هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايين الحفاظ بين ظهرائهم، وعلى رغم كثرة عددهم، واتساع بلادهم في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحاً مدهشاً كان وما زال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين... أجل إن السر في ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته."²

إذن: بفضل القرآن وتفسيره صنع المسلمون حضارة الأمم التي أدهشت العالم بمجدها وعظمتها، وبفضل القرآن وتفسيره وحسن تدبره سيصنع المسلمون من جديد حضارة الغد ويسترجعون كرسي أستاذيتهم في الشهادة الحضارية على الأمم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين."³

وخلاصة القول: فإن علم التفسير من أجل العلوم القرآنية قدراً وأوثقها صلة بالقرآن الكريم، وهو من أهم العلوم التي يجب على المتفقه في الدين أن يفقهها. وتكمن أهميته فيما يلي:

- حفظ القرآن الكريم وحسن فهمه وتدبره.
- معرفة مقاصد الله وأغراضه من خلال الكشف والإفصاح عن معاني السور والآيات.
- إدراك الأمة الإسلامية لغايتها في هذا الوجود وبالتالي تستأنف دورها الحضاري المنوطة في به الشهود الحضاري على الأمم.
- استنباط مكامن الإعجاز البلاغي والوقوف على براعة الأسلوب القرآني وحسن بيانه.

1 المرجع نفسه: ص9.

2 المرجع نفسه: ص9.

أحمد بن اسماعيل البوصيري: "تحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة"، تحقيق: أبي عبد الرحمن عادل بن سعد وأبي اسحاق السيد بن

3 اسماعيل، الرياض، مكتبة الرشيد، ط1، 1419هـ-1998م، ج1، ص190

ب- أثر الدرس البلاغي في فهم القرآن الكريم.

يعد القرآن الكريم المنبع العذب الصّافي الذي لا تكدره دلاء الكفر، والسراج المنير الذي لا تطفئه دياجير الجهل، حيث سيقى هذا الكتاب منبع العريّة وموردها الدّفاق الذي لا يجف سيله، وذلك لما يحويه من مكامن البلاغة الإعجازية التي تدفع كل إنسان عاقل مؤمن بكتاب الله تعالى إلى شحذ فكره لاستخراج لآلئ البيان واستنباط جواهر البلاغة.

فمن مزايا هذا الكتاب العظيم إعجازه البلاغي الذي تفرد به عن سائر الكتب السّمّوية، فانصرفت همم العلماء قديما وحديثا صوبه محاولين بذلك فهمه وتفسيره، فتعددت مناهج التّفسير واختلفت وإن كان المقصد والمراد واحد وهو خدمة كتاب الله تعالى.

1- طرق التّفسير ومناهجه:

تفاوت النَّاس في فهم القرآن الكريم، وتعددت تفاسير العلماء لكتاب الله تعالى، واختلفت مناهجهم وطرائقهم في ذلك قديما وحديثا.

ومما لا شك فيه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان المفسر الأول للقرآن الكريم ثم صحابته الكرام رضي الله عنهم ثم التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

وبطبيعة الحال إنّ النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيره لكتاب ربّه عزّ وجل كان يحتكم في ذلك إلى القرآن في حد ذاته ثم حذا حذوه صحابته الكرام في تفسيرهم لكتاب الله حيث كانوا يحتكمون إلى كلام الله أولا ثمّ كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا، ثمّ تعددت شعب التّفسير وتعددت نتيجة اجتهادات العلماء والمفسرين، ومن أشهر طرق التّفسير:

* التّفسير بالمأثور: ويقصد به: "ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصّحابة بيانا لمراد الله تعالى من كتابه".¹

ويعد التّفسير بالمأثور من أحسن أنواع التّفسير، يقول ابن كثير: "إنّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد يبسط في موضع آخر، فإن أعيك ذلك فعليك بالسنة فإنها

1 محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مصدر سابق، ج2، ص12.

شارحة للقرآن وموضحة له.¹

فقد أشار ابن كثير إلى أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، والأمثلة في القرآن كثيرة نأخذ على سبيل المثال قوله تعالى في سورة الدخان: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)²

حيث نجد القرآن الكريم يفسر لنا ويخبرنا بأن الليلة المباركة هي ليلة القدر³، ويظهر ذلك في قوله

تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)⁴

ويعد تفسير القرآن بالقرآن "من أبلغ التفسير."⁵

ويأتي في المرتبة الثانية تفسير القرآن بالسنة لأنه السنة تعد شارحة للقرآن الكريم كما قال ابن كثير، ومن

أمثلة ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه وتعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)⁶

ففسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك واستدل على ذلك بقوله تعالى: (إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ)⁷

وغيرها كثير من النماذج الموجودة في كتب السنة التي تبين تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن

الكريم.⁸

ويرى ابن كثير أنه إذا انعدم التفسير بالقرآن أو السنة فيجب الاحتكام إلى أقوال الصحابة الكرام حيث

إنه قال: "فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم

الصحيح والعمل الصالح."⁹

¹ ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج 1، ص 7

² سورة الدخان: الآية 3.

³ ينظر: ابن كثير: "المصدر السابق"، ج 7، ص 245.

⁴ سورة القدر: الآية 1.

⁵ مساعد بن سليمان الطيار: "فصول في اصول التفسير"، مرجع سابق، ص 22.

⁶ سورة الأنعام: الآية 83.

⁷ سورة لقمان: الآية 13.

⁸ ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ج 2، ص 13.

⁹ ابن كثير: "المصدر السابق"، ج 1، ص 7.

ويعد التفسير بالمأثور من التفاسير التي تراعي السياق بنوعيه: المقالي والمقامي، حيث يعتبر السياق أصلاً مهماً في تفسير كلام الله عز وجل كما أشرنا إلى ذلك فيما سلف من حديث عن السياق القرآني.

***التفسير بالرأي**: والمراد بالرأي الاجتهاد¹، أي التفسير بالاجتهاد حيث إن الاجتهاد والرأي، والاستنباط، والعقل، كلها مصطلحات تدل على مدلول واحد عند علماء علوم القرآن، وقد غلب مصطلح الرأي على هذه المصطلحات.²

ولما كان التفسير بالرأي يقوم على اجتهادات بشرية معرضة للغلط والخطأ، اشترط العلماء شروطاً في المفسر بالرأي أجملها الدكتور محمد حسين الذهبي في قوله: "وكثير من الصحابة كان يفسر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعني طريق الرأي والاجتهاد، مستعينا على ذلك بما يأتي: أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها. ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن. رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك."³

إذن: "فمن فسر القرآن برأيه أي: باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله، كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود، ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمداً عليها كان تفسيره ساقطاً مردولاً خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم."⁴

تبيّن لنا بأن أول شرط يشترط في المفسر بالرأي هو الدراية باللغة العربية على اعتبار أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين⁵ فمعرفة اللغة العربية وأسرارها تعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب."⁵

1 ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ص42.

2 مساعد بن سليمان الطيار: "فصول في أصول التفسير"، مرجع سابق، ص47.

3 محمد حسين الذهبي: "التفسير والمفسرون"، القاهرة، مكتبة وهبة، ط7، 2000م، ج1، ص45.

4 محمد عبد العظيم الزرقاني: "المرجع السابق"، ج2، ص42.

5 محمد حسين الذهبي: "التفسير والمفسرون"، مرجع سابق، ص45.

ثم يشترط بعد ذلك معرفة عادات العرب وأحوالهم بالإضافة إلى أحوال غيرهم ممن كانوا يسكنون شبه الجزيرة العربية كاليهود والنصارى وذلك للوقوف على أسباب النزول والظروف والملابسات التي أحاطت بالقرآن الكريم، والتي تعين المفسر على فهم آيات القرآن الكريم.¹

وهذا المنهج-التفسير بالرأي- كان صنيع عدد من المفسرين قديما وحديثا حيث راح كل مفسر إلى تفسير القرآن الكريم على حسب اهتماماته ومشاغله، فقد ولد لنا التفسير بالرأي تفاسير ذات قضايا عديدة، ولعل ما يهمنا نحن من هذا كله تلك التفاسير ذات القضايا البلاغية والبيانية.

2- التفسير البلاغي للقرآن الكريم:

تعددت تفاسير القرآن الكريم حسب اجتهادات المفسرين، واختلفت حسب التخصصات والاهتمامات، ومع ذلك فإنّ هناك قاسم مشترك بين جميعها يتمثل في اللغة، حيث إنّ جميع التفاسير استعانت باللغة كوسيلة لفهم معاني كلام الله عز وجل، فمن المعلوم أنّ القرآن الكريم هو المعجزة اللغوية التي أعجزت العرب وأسرت عقولهم.

وبما أنّ موضوعنا متعلق بالبلاغة القرآنية التي لا ترقى إليها أيّ بلاغة من بلاغات البشر، ارتأينا أن نقف على التفاسير التي راعت الجانب البلاغي في تفسير القرآن الكريم.

وقد وجدنا الكثير منها سواء كان ذلك قديما أم حديثا.

وإنّه لجدير بالمقام أن نقف على مفهوم التفسير البلاغي للقرآن الكريم، أو ما يعرف بالتفسير البياني على اصطلاح المحدثين.

وقد عرفه الدكتور فاضل صالح السامرائي بقوله: "وأما التفسير البياني فهو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني".²

ويرى بأن هذا النوع من التفسير "هو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من

¹ ينظر: المرجع نفسه، ص 45-46.

² فاضل صالح السامرائي: "على طريق التفسير البياني"، الإمارات العربية المتحدة، النشر العلمي جامعة الشارقة، دط، 1423هـ -

2002م، ج 1، ص 7.

الناحية الفنية كالقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير¹.

وعلى الرغم من أنّ المفسرين القدامى لم يطلقوا هذه التسمية على تفاسيرهم إلا أنّ هذا لم يمنع من أن متونها تثبت بأنّ هؤلاء المفسرين كانوا يسعون من خلال تفسيروهم لكتاب الله عز وجل إلى إبراز الجمال البياني الذي يظهر من خلال نظم الآيات وإدراك وجوه التناسق بين الألفاظ والكلمات وتناسبها مع دلالة السياق.

بل هذا المنهج في التفسير كانت بوارده ظاهرة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وأشهر من عرف عنه ذلك ترجمان القرآن وحبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه حيث كان يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغوياً مستنداً في ذلك على أشعار العرب لمعرفة الألفاظ والتراكيب الغامضة في القرآن الكريم وحذا حذوه في المنهج تلامذته كمجاهد وغيره.²

فقد فقه الرّعيّل الأول بأنّ المعجزة القرآنية معجزة بيانية "تجمع أموراً جمعتها النظم الفريد العجيب الحسن المخالف لأساليب العرب، والصور البيانية التي تؤلف أبداع تأليف بين أفصح الألفاظ الجزلة وأصح المعاني الحسنة."³

فاتجهت عنايتهم إلى فهم هذه الوجوه البيانية التي تفرد بها كتاب الله تعالى ثمّ تبعته طائفة من المسلمين عبر عصور مختلفة إلى يومنا هذا، مبحرة في تفسير القرآن الكريم من خلال استخراج واستنباط لآلي البيان والنظم البديع التي تفرد به كتاب الله الكريم.

3- أشهر الذين كتبوا في التفسير البلاغي:

تبنى هذا المنهج البياني كثير من المفسرين منذ بواكير الدراسات الإسلامية التي أقبلت على خدمة كتاب الله تعالى فهما وتدبرا وتوضيحا من ذلك:

- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ).

- معاني القرآن للفراء (ت207هـ).

¹ المرجع نفسه: ص7

² ينظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: "بحوث في أصول التفسير ومناهجه"، د ب ن، مكتبة التوبة، د ط، د ت، ص107.

³ المرجع نفسه: ص106.

- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت276هـ)

ولعل تفسير الكشاف للزمخشري (ت538هـ) من أهم التفسير التي أولت عناية للبلاغة والبيان في تفسير القرآن الكريم، حيث اعتنى الزمخشري في تفسيره على إظهار تلك الثروة البلاغية الماثرة في القرآن الكريم، والتي تعد أصل إعجازه، "وليس عجيباً أن يكون الكشاف... هو أول كتاب في التفسير الذي كشف لنا على سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا دقة المعنى الذي يفهم من التركيب اللفظي، كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع لا يتفق لغير الزمخشري إمام اللغة وسلطان المفسرين."¹

وهكذا كان للزمخشري الأسبقية في بلاغة التفسير، حيث كان المجلي المفسر للجانب البلاغي في القرآن الكريم، ثم تأثر به أغلب الذين جاؤوا بعده في حوضه على دقائق المعاني واهتمامه بالكشف عن مكامن الروعة البلاغية التي تفرد بها كتاب الله تعالى.

لكن على الرغم من عناية المفسرين بالجانب البلاغي في تفسير القرآن الكريم، وعلى كثرة التفسير التي تطرقت إلى هذا الأمر، إلا أننا لم نجد تفسيراً واحداً يحمل عنواناً بالتفسير البلاغي أو البياني إلا في العصر الحديث.²

وبهذا يمكن القول بأن التفسير البياني مصطلح حديث برز مع النهضة الأدبية الإسلامية في العصر الحديث، حيث أقبلت نخبة من خيرة العلماء على تبني هذا المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم تفسيراً لغوياً أدبياً أمثال:

- محمد الأمين المختار الشنقيطي (ت1393هـ-1974م) في تفسيره أضواء البيان .

- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ (ت1419هـ-1998م)، في تفسيرها المعنون بالتفسير البياني للقرآن الكريم.

- فاضل السامرائي في تفسيره على طريق التفسير البياني.

وغيرها من التفسير الأخرى التي اهتمت بالجانب البياني للقرآن الكريم كتفسير سيد قطب في ظلال القرآن، وارتأينا ذكر هذه التفسير لما تحمله من عناوين توضح بأنها فسرت القرآن من باب البياني والبلاغي الذي هو أصل الإعجاز القرآني.

¹ محمد حسين الذهبي: "التفسير والمفسرون"، مرجع سابق، ج1، ص313.

² ينظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: "بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مرجع سابق، ص107.

وقد دعا هؤلاء المفسرون إلى ضرورة التفسير البياني للقرآن الكريم والنهوض به، واشتروا في ذلك شروطاً نجملها في الآتي:

*التبحر في علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة باعتبار "أنّ العربية هي لغة القرآن فنلتمس الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطينا حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية، ثم نخلص للمح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما في القرآن من صيغ اللفظ، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة وسياقها العام في القرآن كله.¹

*من ضوابط التفسير البياني الاعتماد على التناول الموضوعي لما يراد فهمه من كتاب الإسلام ويبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس ويراعى ترتيبها وتناسبها.
*معرفة أسباب النزول وكل ما يحيط بالنص القرآني من ملابسات وأحوال²، ولنا مع هذا وقفة فيما سيأتي من حديث عن علم المناسبة.

وبهذه الشروط مجتمعة تتحقق بلاغية التفسير لكتاب الله عز وجل.

ج-علم المناسبة وعلاقته بالتفسير:

لقد أنزل الله عز وجل كتابه الكريم على النبي -صلى الله عليه وسلم- مفرقا منجما على مدى ثلاث وعشرين سنة، قال الله تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)³، وما ذلك إلاّ حكمة إلهية لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى.

وعلى الرغم من هذا التفريق في نزول القرآن الكريم إلاّ أنّنا نلاحظ التناسب والتوافق بين آيه وسوره الكرام، وهذا ما تنبه إليه علماءنا منذ بواكير الدراسات القرآنية والبلاغية، واصطلحوا عليه مصطلح علم المناسبة.

1 عائشة عبد الرحمن: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، مصدر سابق، ج1، ص11.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص12، وكذلك ينظر: فهد بن عبد الرحمن الرومي: "بحوث في أصول التفسير ومناهجه"، مرجع سابق، ص108.

3 سورة الإسراء: الآية 106

1-تعريف علم المناسبة: يعد علم المناسبة من أهم الموضوعات القرآنية وأشرفها، وعلى هذا فقد أولى له العلماء عناية فائقة محاولين بذلك كشف الستار عن ذلك السر الإعجازي الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في تناسب آي القرآن الكريم وسوره.

وقد قدّم الإمام الزركشي تعريفاً جامعاً مانعاً لمفهوم المناسبة في اللغة والاصطلاح حيث يقول: "واعلم أن المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلان، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل... وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء."¹ يظهر من تعريف الزركشي أنّ المناسبة في اللغة تعني الاتصال والارتباط والمقاربة. أمّا اصطلاحاً فهي علم يبين وجه الارتباط والترتيب في القرآن الكريم.

2-نشأة علم المناسبة: يرجع أغلب العلماء أن أول ظهور لعلم المناسبة كان على يد الشيخ أبو بكر النيسابوري (ت324هـ)² حيث كان يقول: "إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية على جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة، وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة."³ ثمّ أقبل من بعده العلماء باحثين عن سر التناسب في القرآن الكريم، وإن قل عددهم حسب مقاله الإمام الزركشي: "وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ومن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي وقال في تفسيره أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"⁴.

ولعل أشهر من كتب في هذا العلم الإمام المفسر برهان الدين البقاعي (ت880هـ)، حيث أفرد له كتاباً سماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ويقول فيه: "...وسميته "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" ويناسب أن يسمى "فتح الرحمن في تناسب أجزاء القرآن"، وأنسب الأسماء له ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان، وعلم المناسبات الأهم من مناسبات القرآن وغيره تعرف منه علل الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه، وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة

¹ بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص36.

² هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري، فقيه وحافظ وكان إمام الشافعية بالعراق توفي سنة 324هـ.

³ بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص36.

⁴ المصدر نفسه: ص36.

النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذاك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة وكانت نسبه إلى علم التفسير نسبة علم البيان من النحو.¹

لقد بين الإمام البقاعي أهمية علم المناسبة ولفت أنظارنا إلى أمر مهم وهو غاية دراستنا في أن علم المناسبة له دور في الوقوف على أسرار البلاغة القرآنية.

كما نجد جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، تكلم عن علم المناسبة وصنف ذلك كتاباً سماه "تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور"، بالإضافة إلى كتاب آخر مختصر على سابقه وهو "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع".

وقد بين الإمام السيوطي هدفه من تأليف الكتاب الأول فقال: "وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً في نوع خاص من هذه الأنواع، هو مناسبات ترتيب السور، ليكون عجالة لمريده، وبغية لمستفيده، وأكثره من نتاج فكري، وولاد نظري، لقلّة من تكلم في ذلك، أو خاض في هذه المسالك، وما كان فيه لغيري صرحت بعزوه إليه، ولا أذكر منه إلا ما استحسنت، ولا انتقاد عليه، وقد كنت أولاً سميت "نتائج الفكر في تناسب السور" لكونه من مستنتجات فكري... ثم عدّلته وسميته تناسق الدرر في تناسب السور."²

ويعدّ الإمام السيوطي علم المناسبة وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، حيث قال بأنّ "الوجه الرابع من وجوه إعجازه مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض، حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني."³

ومثلما كان لعلمائنا القدامى دور في إبراز أوجه التناسب في القرآن الكريم نجد كذلك تلك اللفتة الطيبة موجودة في دفات كتب ومصنفات علمائنا المحدثين وخصوصاً الذين تناولوا تفسير القرآن الكريم بمنهج بلاغي موضوعي أمثال سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن، والشيخ مصطفى المراغي في تفسيره، والشيخ

¹ برهان الدين البقاعي: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د ط، دت، ص 5-6.

² جلال الدين السيوطي: "تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور"، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1406هـ-1986م، ص 54-55.

³ جلال الدين السيوطي: "معترك الأقران، مصدر سابق، ج 1، ص 43.

الظاهر الجزائري، وإذا كان هؤلاء القدامى قد أطلقوا مصطلح علم المناسبة على ذلك التناصب الموجود في القرآن الكريم، فإنّ المحدثين اصطَلَحوا عليه مصطلح التفسير الموضوعي أو ما يعرف بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.¹

ويقصد بالتفسير الموضوعي هو التفسير الذي يهتم بالهدايات القرآنية ويحاول الكشف عنها من خلال السياق والسباق للآيات الكريمة، ومن خلال تتبع الكلمة واستعمالاتها، ومن خلال التعرف على المناسبات والروابط بين السور والآيات، وبين بدايات الآيات وفواصلها وافتتاحيات السور وخواتيمها.² وبناء على هذا فالمناسبة تعد عاملاً مهماً في تفسير القرآن الكريم والوقوف على أسرار إعجازه الكامنة في نسقه وسياقه، من خلال مراعاة التناصب والتلاؤم داخل النص القرآني وخارجه، بمعرفة مناسبة السورة وأسباب النزول وبهذا فقط يتحقق الكشف عن مراد الله تعالى في كتابه العزيز.³

3- أهمية علم المناسبة وعلاقته بالدراسات الإعجازية البلاغية:

يشكل علم المناسبة رابطاً وثيق الصلة بين علوم القرآن الكريم والدراسات البلاغية وذلك من خلال مراعاة المفسرين في تفسيرهم خصائص الأسلوب القرآني الذي يعد مادة البلاغة القرآنية وأساسها. فقد سبق وأن أشرنا إلى أنّ الإمام السيوطي عدّ علم المناسبة وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني ويعود ذلك إلى "مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني."⁴

وأشار الإمام السيوطي إلى أنّ الإمام فخر الدين الرازي (ت606هـ)، سبقه إلى هذا حيث قال: "بل إنّ الفخر الرّازي قال: من تأمل في لطائف نظم السّور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب

¹ ينظر: زهراء خالد سعد الله العبيدي: "بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم-دراسة منهجية مقارنة"، المجلة العالمية لبحوث القرآن، دب ن، د ع، دت، ص77.

مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، إعداد: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، جامعة الشارقة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، 1431هـ-2010م، ج1، ص2.

³ ينظر: خالد العبيدي: "بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي"، مصدر سابق، ص73.

⁴ جلال الدين السيوطي: "معترك الأقران"، مصدر سابق، ج1، ص43.

فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار.¹

إذن: فالتناسب في القرآن الكريم يعد وجها من وجوه إعجازه التي يجب أن يراعيها المفسر لكلام الله تعالى، يقول محمد عبد الله دراز: "إنّ السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويتراعى لجملة إلى غرض واحد، كما تتعلق الجملة بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية."²

ويرى الدارسون أنّ أولى بؤادر العناية بالمناسبة ظهرت في شكل تنبيهات بلاغية تنبه لها بعض الأعراب من خلال الرّبط بين سياق الآية، وما يتناوله مقطوعها، وعلاقته بخاتمها من حيث الدلالة.³

ومن أمثلة ذلك ما نقله الزّخشي (ت535هـ) في الكشاف حيث فسّر قوله تعالى: (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)⁴

قال "روي أن قارئاً قرأ (غفور رحيم) فسمعه أعرابي فأنكره، ولم يقرأ القرآن وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه."⁵

يلاحظ من هذا أنّ كلمة (غفور رحيم) تليق بمقام الإغراء وبالتالي هي غير مناسبة لمقام التّحذير والمناسب ما قاله تعالى: (إن الله عزيز حكيم).

وبهذا يستنتج أنّ الله تعالى جعل كلّ كلمة في مقامها المناسب، وهذا ما أسس عليه علماء البلاغة مقولتهم المشهورة لكل مقام مقال.

1 جلال الدين السيوطي: "تناسب الدرر في تناسب الآيات والسور"، مصدر سابق، ص21-22.

2 محمد عبد الله دراز: "النبا العظيم"، مصدر سابق، ص159.

3 ينظر: محمد عامر محمد: "أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني"، أطروحة دكتوراه، إشراف: د/كاظم أسد، جامعة الكوفة، كلية

الآداب، قسم اللغة العربية، 1432هـ-2001م، ص4.

4 سورة البقرة: الآية 209.

5 الزخشي: "الكشاف"، مصدر سابق، ج1، ص280.

وانبتت على ذلك مصطلحات بلاغية كالاتلاف ومراعاة النظير وتشابه الأطراف يقول الخطيب القزويني: "ومنه مراعاة النظير ويسمى التّناسب والاتلاف والتّوفيق... وهي أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه."¹

ويقول أيضا: "ومن مراعاة التّظير ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف وهو أن يتم الكلام بما يناسب أوله في المعنى."²

واستدل على ذلك بقوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)³ حيث نجده يعلق على هذا بقوله: "فإنّ اللطف يناسب مالا يدرك بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك شيئا، فإن من يدرك شيئا يكون خبيرا به."⁴

ولنا في هذا الأمر تفصيل فيما سيأتي من حديث عن علوم البلاغة ومصطلحاتها في دراستنا التطبيقية والتي ارتأيناها أن تكون من منظور سورة هود.

وخلاصة القول فإنّ علم المناسبة أوسع مما تكتب فيه هذه السطور، غير أنّ المقام لم يسعنا إلى التبحر في بحره الواسع العميق، وحسبنا أننا قد أخذنا بما يوفي غرضنا منه وهو الكشف عن تلك العلاقة الكامنة بينه وبين علم البلاغة القرآنية.

وخير ما نختم به حديثنا عن هذا الفصل هو أنّ موضوع الأسلوب القرآني من أمهات قضايا البلاغة القرآنية التي جسدت من خلال درسها مدى قدرة الإنسان العربي قديما إلى التّفطن لسر جمالية الخطاب القرآني وتفردته بميزات وخصائص منحته خصوصية متميزة عن الأسلوب البشري.

¹ الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص355.

² المصدر نفسه: ص356-357.

³ سورة الأنعام: الآية 103.

⁴ الخطيب القزويني: "المصدر السابق"، ص357.

الفصل الثالث: التفرد البلاغي للنص القرآني

وخصوصيته في الحضارة العربية الإسلامية

أولاً: تفرد البلاغة القرآنية عن البلاغات الأخرى

ثانياً: دور البلاغة القرآنية في التفاعل الحضاري

بين الأمم

ثالثاً: التفكير البلاغي فريضة إسلامية في الحضارة

العربية الإسلامية

الفصل الثالث التفرد البلاغي للنص القرآني وخصوصيته في الحضارة العربية الإسلامية

لكل حضارة مبادئ وأهداف تقوم عليها ولأجلها، والحضارة العربية الإسلامية شأنها في ذلك شأن الحضارات الأخرى، بيد أن لها مقومات خالدة لم تصل إليها أمة من الأمم، ولم تستطع حضارة من الحضارات أن تجاريها أو تماثلها، والشرف في ذلك يعود إلى ذلك القبس الإلهي التوراني .
فالقرآن الكريم هو خطاب الله الأزلي، ومعجزته الإلهية التي اقتضاها في أمة العرب تكريماً وتشريفاً قبل أن تكون تحدياً وإعجازاً حيث يقول سبحانه وتعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)¹

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم نزل في بداية الأمر تحدياً لهؤلاء العرب، إلا أنه لا يمكن لأي أحد أن ينكر حكمة الله وسره الرباني في اختيار العرب عن غيرهم من العالمين في حمل رسالته السماوية الخاتمة، والتي بها طويت آخر رسائل السماء إلى الأرض.

فقد كرم الله سبحانه وتعالى العرب وشرفهم بأن جعل لسانهم لغة لخطابه القرآني يقول الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)²

وبعد طول جدل وعناد ركعوا أمام إعجازه ورضخوا لروعة بلاغته وبيانه وأدركوا فضل اختيار الله لهم وتشريفهم عن سواهم بحمل رسالته الإلهية، وصناعة الحضارة الإنسانية التي تشهد على البشرية، يقول تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).³
فقد فقه الرعيل الأول بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم الدور المنوط وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم فراحوا يشيدون على الأرض حضارة راقية لم يصنع مثلها مثيل لا من قبل ولا من بعد، معتمدين في ذلك على القرآن الكريم باعتباره الدستور السماوي القويم الذي ينفع لخير الدنيا والآخرة.

1 سورة آل عمران: الآية 110.

2 سورة يوسف: الآية 2.

3 سورة البقرة: الآية 143.

ومنذ ذلك الحين أصبح القرآن الكريم يمثل هوية الأمة العربية الإسلامية وخصوصيتها الحضارية، وأصلها اللغوي الثابت الذي بفضل له لن ينتهي مدها، ولن ينطفئ نورها، ولن يخمد ذكرها، مما جعل العلماء المسلمين على اختلاف مشاربهم يقبلون على خدمة القرآن الكريم.

أولاً: تفرد البلاغة القرآنية عن البلاغات الأخرى:

مما لا شك فيه أنّ أهم خاصية ميزت القرآن الكريم وجعلت منه كتاباً متفرداً عن سواه من الكتب السماوية الأخرى، أو الكتب الوضعية البشرية هي بلاغته الإلهية والإعجازية، التي أعجزت الثقلين، وأضعفت أساطين البلاغة عن مجاراتها، يقول الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)¹، فكانت دليلاً قاطعاً، وشاهداً مقنعاً على صدق نبوة رسول العالمين وخاتم المرسلين - محمد صلى الله عليه وسلم -.

وهذه البلاغة القرآنية هي التي أعطت للحضارة العربية الإسلامية طابعها التفردى وخصوصيتها التي ميزتها عن حضارات الأمم الأخرى، فمن المعلوم أنّ "بلاغات الأمم صورة من صور رقيها وحضارتها، ثمّ إنّ متابعة أبنائها الباحثين لتبين أسرار نماذجها، ووجوه جمالها، والحكم لها أو عليها أثر من آثار اليقظة الفكرية والاهتمام العلمي".²

وإن كان الدرس البلاغي عند جميع الشعوب والأمم يأخذ معنى الدّوق والعلم فإنّه عند الأمة العربية الإسلامية يأخذ معنى الدّوق والعلم³ والدّين قبل كل ذلك.

فالبلاغة القرآنية لها قداستها المستنبطة من قدسية كتابها الكريم، ودينها الإسلامي الحنيف، وهذا ما لا نجد في بلاغة أيّ أمة من الأمم التي تدعي براعة البلاغة وسحر البيان.

أ- التفرد البلاغي للنص القرآني وخصائصه:

يمثل النصّ القرآني المثل الأعلى للأمة العربية الإسلامية، وأساسها الثّابت ودستور حياتها الخالد الذي لا يتغير ولا يتبدل، يقول الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)⁴ هذا النصّ القرآني الذي اتسم بالطابع البلاغي المعجز، مما جعل منه نصاً بلاغياً متفرداً. وما يجب علينا الإشارة إليه في هذا المقام هو الوقوف على معنى التفرد البلاغي.

¹ سورة الإسراء: الآية 88.

² محمد بركات حمدي أبو علي: "البلاغة عرض وتوجيه وتفسير"، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، 1403هـ-1983م، ص5.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص5.

⁴ سورة الحجر: الآية 9.

1- التفرد لغة: من فرد، والفرد: الله تعالى، إذ تفرد بالأمر دون خلقه، والفرد في صفات الله تعالى هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا مثل ولا ثاني، وفرد وانفرد به، وأفردته: عزلته.¹

والفرد الذي لا يختلط به غيره، فهو أعم من الوتر وأخص من الواحد، ويقال: في الله فرد تنبيهاً أنه بخلاف الأشياء كلها في الازدواج، وقيل معناه المستغني عما عداه.²

2- التفرد اصطلاحاً: للأسف لم نجد تعريفاً متفقاً عليه لمصطلح التفرد، ولعل أقرب مفهوم له هو الخصوصية والانحياز والتمايز عكس التعددية.³

وبناء على هذا يعني "التفرد: الخصوصية والتميز، فهو جملة الصفات والخصائص المادية والمعنوية التي تخص مجموعة بشرية لتكون عنوان اختلافها وتميزها عن بقية الخصوصيات."⁴

وعلى الرغم من أن بعض الباحثين ينكرون صفة التفرد في الحضارات، ويرون بأن ذلك وهم لأته- حسب رأيهم- لا بد من صدام الحضارات⁵، إلا أن الحضارة العربية الإسلامية حضارة متفردة وذات هوية خصوصية، والسبب يعود بطبيعة الحال إلى كتابها الكريم، ودستور حياتها المتميز الذي خصها الله سبحانه وتعالى به، وهو القرآن المجيد، يقول الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)⁶

وبما أن القرآن الكريم كتاب بلاغة وإعجاز بياني، تحدى الله به الثقلين إنسهم وجنهم، فأكد أن بلاغته هي بلاغة متفردة، ذات طابع خصوصي، تعود إلى خصوصية كتاب الله تعالى.

وعليه يمكننا تعريف التفرد البلاغي بأنه: تلك الخصوصية البلاغية الإعجازية أو التميز البلاغي الإعجازي الذي تميز به كتاب الله تعالى عن غيره من كتب البلاغة الوضعية.

¹ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص106-107.

² ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص375.

³ ينظر: محمد عمارة: "الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية"، القاهرة، نضمة مصر للطباعة، ط1، يناير 2003م، ص19.

⁴ الباحث مجهول: "مقال الخصوصية والكونية، تعريف ومعنى" www.jawhara soft.com

ينظر: ريسان عزيز: "وهم التفرد وحتمية الصدام- قراءة تحليلية في فكرة صدام الحضارات"، مجلة كلية الآداب، الجامعة

⁵ المستنصرية، ع96، ص492.

⁶ سورة يوسف: الآية 2.

أو يمكن القول أيضا: هو تلك الخصوصية البلاغية التي ميز الله سبحانه وتعالى بها آخر الكتب السماوية، وجعلها معجزة مؤيدة لخاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم، والتي تحدى بها أرباب البلاغة من العرب وأساطين بيانهم.

إذن: فالنص القرآني نص بلاغي فريد، نظرا لتفرده بخصائص تعجز النصوص الأخرى عن التمييز بها، سواء كانت هذه النصوص وضعية بشرية، أم سماوية كاللغة والإنجيل لأن هذين الأخيرين حرفا بطبيعة الحال ولم يصفهما الله عز وجل بالإعجاز ولم يجعلهما مناط التحدي مثلما جعل ذلك للقرآن الكريم¹، قال الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)²

3- خصائص البلاغة القرآنية:

سبق وأن وقفنا على مفهوم البلاغة القرآنية وتوصلنا إلى أنها هي البلاغة التي يعجز العرب على الإتيان بمثلها لأنها تقع في أعلى مراتب الكمال³، وذلك لتفردها بمجموعة من الخصائص والميزات التي يمكن ذكرها فيما يلي:

— **الربانية:** البلاغة القرآنية هي بلاغة ربانية تلفظ بها رب العزة جلّ في علاه فأتت في غاية الكمال، ومنتهى الحسن والجمال، والهيبة والجلال، فخشعت لعظمتها النفوس، واهتزت من قوتها الجبال والصخور، يقول الله تعالى: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)⁴

— **الإعجازية:** قد جاءت البلاغة القرآنية تحديا لهؤلاء العرب، وهم أهل البلاغة والبيان، فأعجزتهم عن الإتيان بمثلها، ولو بسورة واحدة، يقول الله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)⁵، مما جعل ذلك دليلا مقنعا على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

¹ ينظر: الباقلائي: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص44، وينظر أيضا ص395.

² سورة الإسراء: الآية88.

³ ينظر: تعريف البلاغة القرآنية في مدخل البحث، ص24

⁴ سورة الحشر: الآية21.

⁵ سورة يونس: الآية38.

-العربية: شاءت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يكون اللسان العربي هو لسان آخر كتبه السماوية، يقول الله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) ¹

لكن مع عربية البلاغة القرآنية عجز العرب عن مجاراتها والإتيان بمثلها. "ولا ريب أنّ القرآن لما جاء بهذا اللسان خارجاً عن سنن كلام الناس أخرج هذا اللسان نفسه عن سنن لغات الناس، وهذا الذي أحدثه القرآن في العربية ليس في غيرها من لغات الأرض، وما عرف تاريخ اللغات لغة عاشت في أفواه أجيال البشر عمراً مديداً كهذا اللسان." ²

فقد شرف الله سبحانه وتعالى العرب باختيار لغتهم لساناً لقرآنه الكريم، ووعدهم بحفظ هذا اللسان حفظه لكتابه الكريم، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ³

-الكمال والسّمو: من خصائص البلاغة القرآنية أنّها بلاغة سامية سمو القرآن الكريم وعالية علو صاحبها المتعالي الكريم جلّ في علاه، يقول أبو الحسن الحرالي: "بلاغة البيان تعلو على قدر علو المبين، فعلو بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه." ⁴

فالبلاغة القرآنية تقع في أعلى مراتب الحسن والبيان، وذلك لأنّها بلاغة إلهية إعجازية مرتبطة بالنص القرآني، وهذا ما استنبطه علماء البلاغة والإعجاز: أمثال الرماني والخطابي وغيرهما، الذين توصلوا إلى أعلى مراتب البلاغة هي بلاغة القرآن الكريم، وأدناها بلاغة البلغاء من البشر. ⁵

إذن: هذه هي أهم خصائص البلاغة القرآنية التي جعلت منها بلاغة متفردة اختصت بها الأمة العربية الإسلامية عن غيرها من الأمم والملل، والسبب يعود- بطبيعة الحال- إلى أنّها أمة القرآن الكريم.

¹ سورة الشعراء: الآية 193-195.

² محمد محمد أبو موسى: "الإعجاز البلاغي-دراسة تحليلية لتراث أهل العلم"، مصر، مكتبة وهبة، ط1، 1405هـ-1984م، ص12.

³ سورة الحجر: الآية 9.

⁴ أبو الحسن الحرالي: "رسالة مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل"، مصدر سابق، ص29.

⁵ ينظر: الرماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص75. وينظر: الخطابي: "بيان إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص26.

ب- أوجه التباين بين البلاغة القرآنية وبلاغة الكتب السماوية الأخرى:

خلق الله الإنسان واصطفاه من بين جميع خلقه ليكون خليفته في الأرض، قال الله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا¹).

"واختار الله عز وجل من بين خلقه، فريقا من البشر، ليكونوا نموذجا للكمال، وعنوانا للفضل، وحملة لمشعل النور والضياء وقادة لركب الحضارة الإنسانية على مدى الأزمان وكر الدهور... واصطفاهم المولى -جلت حكمته ليكونوا هداة ومصلحين فاخترهم على علمه، ورباهم على عينه، وشرفهم بأكمل الأوصاف، فجعلهم أئمة الدنيا والدين."²

فهؤلاء الأنبياء هم صفوة الله وخاصته الذين شرفهم "بالنبوة"، وأعطاهم الحكمة، ووزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامر الله عز وجل... ويجذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة."³

وكل نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا وبعثه الله بكتاب سماوي أوحاه إليه ليكون دستورا وشرعة إلى القوم المبعوث فيهم يؤمنون به ويتبعون منهجه وهده.

ومن الكتب السماوية التي ذكرها القرآن الكريم باعتباره آخرها والشاهد عليها هي:

- الزبور وهو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه داود عليه السلام يقول تعالى: (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا⁴)

- التوراة: وهو الكتاب الذي أنزل على سيدنا موسى عليه السلام، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ

¹ سورة الأحزاب: الآية 72.

محمد علي الصابوني: "النبوة والأنبياء-دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام ودعوتهم وأثرهم في تفسير مفاهيم البشر"، دمشق، مكتبة

² الغزالي، بيروت، مؤسسة مناهل العرفان، ط3، 1405هـ-1985م، ص15.

³ المرجع نفسه: ص15.

⁴ سورة الإسراء: الآية 55.

اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ¹

– الإنجيل: وهو الكتاب الذي أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام، يقول الله تعالى: (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)².

والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية وخاتمها والمهيمن عليها لما فيه من ميزة وخصوصية خصه الله بها عن غيره من كتبه السماوية الأخرى، قال الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)³

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: "المهيمن، فهو أمين وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدا وأميना وحاكما عليها كلها."⁴ وبما أن القرآن الكريم تميز بخصوصية متفردة عن باقي الكتب السماوية التي سبقته ارتأينا أن نعقد مقارنة بينه وبين الكتب السماوية الأخرى مركزين في ذلك على التوراة والإنجيل باعتبار أنهما من أديان التوحيد الثلاثة وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام.⁵

ومن هذا المنطلق سنحاول أن نقف على كل واحد من هذه الكتب السماوية لنصل في الأخير إلى إدراك الفرق بينها وبين القرآن الكريم.

1 سورة المائدة: الآية 44.

2 سورة المائدة: الآية 46.

3 سورة المائدة: الآية 48.

4 ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج3، ص128.

5 ينظر: موريس بوكاي: "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1996م، ص9.

1- التوراة: وهو الكتاب السماوي- باتفاق اليهود والمسلمين- الذي أنزله الله على نبيه موسى عليه السلام¹، وهو دستور الديانة اليهودية وكتاب شريعته المقدسة.

وتعني التوراة في اللغة العبرية اليهودية: الشريعة أو التعليم أو التوجيه².

وقد نزلت التوراة على سيدنا موسى عليه السلام بعد أن أهلك الله تعالى فرعون وأنجى موسى وبني إسرائيل، يقول الله تعالى: (**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)³

وهذا ما أكدته ابن كثير من خلال تفسيره لهذه الآية الكريمة قائلا: "يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وماله".⁴ وكان نزول التوراة على سيدنا موسى عليه السلام- حسب أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم- في السادس من شهر رمضان، فمن حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان".⁵

***محتويات التوراة وموضوعاته:**

تحتوي التوراة على خمسة أسفار⁶، وهي:

1- سفر كون الدنيا: ويسمى أيضا سفر التكوين⁷ ويروي تاريخ العالم، ابتداء من تكوين السماوات والأرض إلى استقرار أبناء يعقوب عليهم السلام في مصر.⁷

¹ ينظر: التوراة: ويكيبيديا- الموسوعة الحرة <http://an.wikipedia.org>

² ينظر: المصدر نفسه.

³ سورة القصص: الآية 43.

⁴ ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج6، ص239.

⁵ إبراهيم محمد العلي: "الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم السلام، مصدر سابق، رقم الحديث: 203، ص150.

⁶ الأسفار جمع سفر، وهو الكتاب أو الكتاب الكبير.

⁷ بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص197.

وما ورد في مقدمة هذا السفر ما يلي: "في الأول خلق الله السماوات والأرض، وكانت غير منظورة، وغير مستعدة، والظلمة فوق اللجة، وروح الله ترف فوق الماء، ليكون النور، وكان النور، ونظر الله أن النور حسن، وفصل الله بين النور وبين الظلمة."¹

2- سفر الخروج: "ويروي تاريخ بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها وتاريخهم في صحراء التيه إلى وفاة سيدنا موسى عليه السلام."²

وقد ابتدأ هذا السفر بما يلي: "وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر، مع يعقوب وجاء كل إنسان وبيته وأولادهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبلون، وبنيامين، ودان ونفتالي وجاد وأشير³، ولكن يوسف كان في مصر، ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل، وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيرا جدا وامتألت الأرض منهم."⁴

3- سفر اللاويين: "ومعظمه في العبادات، وفيما حرم عليهم من حيوانات وطيور، وفي الأضاحي والقربان."⁵

ويستهل هذا السفر بما يلي: "ودعا الرب موسى وكلمه من قبة الشهادة، وقال له كلم بني إسرائيل قل لهم: كل إنسان منكم إذا قرب للرب قربانا من البهائم، فلتكن قربانهم من الثيران والغنم..."⁶

4- سفر الإحصاء: ويسمى أيضا سفر العدد، ويشغل معظمه إحصائيات عن قبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم وبعض الأحكام في العبادات والمعاملات."⁷

1 التوراة ترجمة عربية، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، سوريا، لبنان، بيروت، دار قتيبة، ط1، 1428هـ-2007م، ص103.

2 بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص197.

3 هذه الأسماء هي أسماء أبناء يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف عليه السلام، وعددهم إحدى عشر، وهي الأسماء المذكورة حسب رواية التوراة، ولم نجد لهذه الأسماء وجود في القرآن الكريم، فقد اكتفى القرآن الكريم بذكر عددهم، يقول الله تعالى في سورة يوسف: (يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) وقد ذهب المفسرون إلى القول بأن أحد عشر كوكبا هم إخوة يوسف عليه السلام.

4 التوراة: مصدر سابق، ص203.

5 بغدادي بلقاسم: "المرجع السابق"، ص197.

6 التوراة: مصدر سابق، ص283.

7 بغدادي بلقاسم: "المرجع السابق"، ص197.

ومستهل هذا السفر هو: "كلام الرب موسى في بركة طور سيناء في قبة الزمان في اليوم الأول من الشهر الثاني من السنة الثانية من خروج بني إسرائيل من أرض مصر، وقال له: حذ حساب عـدد بني اسرائيل من رؤوسهم وقبائلهم وبيوت آبائهم، وعدة أسماء عددهم..."¹

5- سفر الاستثناء: ويسمى أيضا سفر التثنية، "ويحتوي معظمه على أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحرب والسياسة والاقتصاد والمعاملات والعبادات والعقوبات."²

وابتدأ هذا السفر بما يلي: "هذا القول الذي قاله موسى لبني اسرائيل كلهم وهم في عبر الأردن، في القفار في عربا، مقابل سوف، منتهى ما بين فاران وبين تفل ولبنان وحصروت وداهب، مسيرة أحد عشر يوما من حوريب إلى جبل ساعير إلى رقم حابا³، وكل ذلك في سنة أربعين في الشهر الحادي عشر، ففي أول يوم منه كلم موسى بني اسرائيل... قال: فارتحلوا إلى جبل الأمورانيين وادخلوه ومايليه إلى عربا، وإلى الطور، وإلى الأسفل واليمين... واعلموا أني أعطيتكم الأرض فادخلوها..."⁴

*التّوراة بين الوحي الإلهي والتّحريف:

مما لا شك فيه أنّ التّوراة كتاب سماوي منزل من عند الحق سبحانه وتعالى شأنه في ذلك شأن القرآن الكريم، إلا أنّ هناك أياد نجسة حرفت هذا الكتاب السّماوي وأدخلت إليه مغالطات ليست من كلام الله عز وجل.

ومن يطلع على التّوراة سيلمح للوهلة الأولى أنّ هذا الكلام ليس بكلام الله تعالى وذلك لما فيه من رداءة الأسلوب، وركاكة العبارات، ناهيك عن مغالطات دينية وأحكام لا تمد للشريعة الإلهية بأيّ صلة، وهذا ما بيّنه لنا القرآن الكريم الذي أكد بأنّه بالفعل التّوراة نزلت على موسى عليه السلام بوحي سماوي، لكن التّوراة الموجودة المتداولة قد دخل عليها التّبديل والتّحريف من طرف اليهود⁵، يقول الله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

1 التوراة: مصدر سابق، ص341.

2 بغداددي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص197.

فاران: يقصد بها في التوراة مكة المكرمة، حصروت هي إحدى قرى لبنان، حوريب، هو جبل موسى وحوريب هي منطقة صحراوية وهناك من يقول بأنّ حوريب هو نفسه جبل سيناء وهو الجبل المقدس عند بني اسرائيل.

4 التوراة: مصدر سابق، ص407.

5 مصطفى محمود: "التوراة"، ددن، دط، دت، ص14.

لَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ¹

وذهب ابن كثير في تفسير هذه الآية إلى أنّ المقصودين في الآية الكريمة هم اليهود الذين حرفوا التّوراة، وقد حكى عن ابن جرير أنّه قال: حدثنا المثنى، حدثنا ابراهيم بن عبد السلام بن صالح العشيّري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون". قال: "الويل جبل في النار وهو الذي أنزل في اليهود، لأنهم حرفوا التّوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحو منها ما يكرهون، ومحو اسم محمد صلى الله عليه وسلم من التّوراة، ولذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التّوراة، فقال: "فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون."²

ولو حاولنا أن نقارن بين ما جاء من قصص في التّوراة وبين ما ورد في القرآن الكريم لوجدنا بين ذلك بونا شاسعا، فمثلا في سفر التّكوين يروي لنا عن خلق الله سبحانه وتعالى للسموات والأرض، فتقول التّوراة عن ذلك: "وأكملت السماء والأرض وجميع زينتها، وكمل الله في اليوم السادس جميع أعماله، واستراح في اليوم السابع من جميع أعماله، وبارك الله اليوم السابع وقدسه من أجل أنه فيه استراح من كل أعماله التي ابتداء الله أن يصنع."³

بينما في القرآن الكريم تجد أجمل ما ينقض هذا الكلام، وينزه الله تعالى من كل دلالة: (أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُمْ بِخَلْقِهِنَّ بَقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ)⁴، فلم يكن الله سبحانه وتعالى بعد خلق السماوات والأرض بحاجة إلى الاستراحة.⁵

إذن شتان بين أسلوب القرآن الكريم وبين أسلوب التّوراة المحرفة، إذ يظهر من خلال قراءته أنّه ليس من كلام الله سبحانه وتعالى، وهذا فقط مثال عن أمثلة كثيرة.⁶

1 سورة البقرة: الآية 79.

2 ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج1، ص312.

3 التّوراة: مصدر سابق، سفر التّكوين، ص105.

4 سورة الأحقاف: الآية 33.

5 صائب عبد الحميد: "في مقارنة الأديان نظرة سريعة في التّوراة والإنجيل والقرآن"، سلسلة المعارف الإسلامية، مركز الرسالة، ع50، ص13.

6 من أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى المرجع السابق: في مقارنة الأديان، نظرة سريعة في التّوراة.

ومع هذا التحريف كان اليهود من قبل يعتقدون أنّ هذه المجموعة من الأسفار كلها وحي من الله، أمّا اليوم فالباحثون ينكرونها ويشككون في أمرها¹، وقد ذهب موريس بوكاي² إلى هذا الأمر من خلال تساؤله عن مؤلف كتاب العهد القديم لكن للأسف وجد بأنّ الكتاب المقدس يعود في أصله إلى تراث شعبي لا سند له إلاّ الذاكرة، والسبب بطبيعة الحال يعود إلى التحريف والتبديل الذي انجر عنه³، يقول الله تعالى: (فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)⁴

ويرى مؤرخو الأديان أنّ الذين قاموا بتحريف التوراة هم النساخ الذين نسخوه وبعض رجال الدين الذين فقدوا الإيمان⁵، يقول الله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)⁶

إذن: فالتوراة التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام ليست هي التوراة المتداولة بين أهل الديانة اليهودية، والقرآن الكريم شاهد على ذلك، يقول الله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)⁷

2- الإنجيل: وهو الكتاب السماوي- بشهادة القرآن الكريم- الذي أنزله الله تعالى على نبيه عيسى عليه السلام، يقول الله تعالى: (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا

1 ينظر: بغداددي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 197.

2 موريس بوكاي (يوليو 1920م- فبراير 1998) طبيب فرنسي نشأ على المسيحية الكاثوليكية وبعد دراسته للكتب المقدسة عند اليهود والمسلمين أسلم وألف كتابه الشهير: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم.

3 ينظر: موريس بوكاي: "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"، مصدر سابق، ص 21-24.

4 سورة المائدة: الآية 13.

5 ينظر: شريف سالم: "دلائل تحريف الكتاب المقدس"، دب ن، دط، دت، ج 1، ص 7.

6 سورة الجمعة: الآية 5.

7 سورة النحل: الآية 89.

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاَهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ¹

وهو دستور الديانة النصرانية وكتاب شريعته المسيحية المقدسة. والإنجيل كلمة معربة عن اليونانية "إيوانجيليون" وتعني البشارة السارة أو بشرى الخلاص أو الخبر المفرح، وبالمعنى نفسه نجد كذلك عند المسيحيين، فالإنجيل بالمفهوم الروحي الدني عندهم يعني البشارة بمجيء المسيح وتقديم نفسه فداء على الصليب نيابة عن الجنس البشري².

أما عن مفهومه في الدين الإسلامي فهو الكتاب السماوي الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه عيسى بن مريم عليه السلام وبعثه به إلى بني إسرائيل ليهديهم إلى سبيل الله المستقيم يقول الله تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ³)

وقد كان نزول الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام - حسب أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم - في الثالث عشرة من رمضان، فمن حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع عشرة مضت من رمضان وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان."⁴

وبعد تلقي عيسى عليه السلام الإنجيل من ربه قام "يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه في مجتمع يهودي دخلت فيه انحرافات كثيرة، وانحرافات وأباطيل، بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وكان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقسفت قلوبهم، وحرفوا شريعة الله وتلاعبوا بنصوص التوراة، وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي أقامهم عليه نبيهم فبعث الله إليهم عيسى بن

¹ سورة الحديد: الآية 27.

² ينظر: الإنجيل: ويكيبيديا الموسوعة الحرة <http://an.wikipedia.org>

³ سورة آل عمران: الآية 48-49.

⁴ إبراهيم محمد العلي: "الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"، مرجع سابق، ص 150.

مريم ليردهم إلى الجادة، ويصحح ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل، فقام صلوات الله عليه يبلغهم أوامر الله ويعلمهم ما أنزل عليه من أحكام تشريعية جديدة.¹

فالإنجيل هو امتداد للتوراة بنص القرآن الكريم، يقول الله تعالى: (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)²

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة "وقفينا أي: اتبعنا على آثارهم"، يعني أنبياء بني إسرائيل عليه السلام "بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة" أي مؤمنا بها حاكما بما فيها "وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور" أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات "ومصدقا لما بين يديه من التوراة" أي: متبعا لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما يبين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون... ولهذا كان المشهور... أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.³

وعليه نجد أنّ المسيحيين يجمعون بين التوراة والإنجيل ويسمون ذلك بالكتاب المقدس متخذين التوراة عهدا قديما والإنجيل عهدا جديدا.⁴

*محتويات الإنجيل وموضوعاته:

الإنجيل أو كما يعرف أيضا بالعهد الجديد، ليس كتابا واحدا، بل هو مجموعة من الأناجيل، معتمدة عند الأمة النصرانية وهي: إنجيل متى، -إنجيل مرقس- إنجيل لوقا- إنجيل يوحنا.⁵ وعليه "فإذا أطلق لفظ الإنجيل فالمراد به هذه الأناجيل الأربعة، على الرغم من وجود كتابات (أناجيل) أخرى⁶، تكشف عن الكثير من حقيقة الديانة المسيحية، لكن اتباع العهد الجديد لم يدعوا لها.⁷

1 محمد علي الصابوني: "النبوة والأنبياء"، مرجع سابق، ص208.

2 سورة المائدة: الآية 46.

3 ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج3، ص126.

4 ينظر: الكتاب المقدس، ترجمة العالم الجديد، اليابان، دط، فبراير 2010م، ص1.

5 ينظر: صائب عبد الحميد: "في مقارنة الأديان"، مرجع سابق، ص45.

6 الأناجيل الأخرى التي يتألف منها العهد الجديد هي: مجموعة رسائل بولس، مجموعة الرسائل الكاثوليكية، سفر أعمال الرسل، سفر رؤيا يوحنا.

7 صائب عبد الحميد: "المرجع السابق"، ص45.

1- إنجيل متى: "يحتل إنجيل متى بين الأناجيل الأربعة المكانة الأولى في نظام ترتيب أسفار العهد الجديد، وهي مكانة لها ما يبررها، فهذا الإنجيل امتداد للعهد القديم بشكل ما: فقد كتب ليثبت أن المسيح يكمل تاريخ بني إسرائيل"¹، حيث نجده "يستشهد دائما بفقرات من العهد القديم."² وللعلم فإن إنجيل متى نسبة إلى مؤلفه القديس متى وهو أحد حوارى المسيح عليه السلام على حد اعتبار المسيحيين ورجال الكنيسة.³

ويبدأ هذا الإنجيل بشجرة نسب المسيح إذ يجعل المسيح عليه السلام ينتسب إلى إبراهيم عليه السلام عن طريق داود عليه السلام⁴، فيقول: "كتاب تاريخ يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم: إبراهيم ولد اسحاق، واسحاق ولد يعقوب... ويسمى ولد داود الملك."⁵

2- إنجيل مرقس: "إنه أقصر الأناجيل الأربعة، وهو أيضا أقدمها، ولكنه ليس كتاب أحد الحواريين هو على أكثر تقدير كتاب حرره تلميذ لأحد الحواريين"⁶.

ويستهل هذا الإنجيل بالحديث عن بشارة المسيح -عليه السلام-، فيقول: "بداية البشارة عن يسوع المسيح... ها أنا مرسل أمام وجهك رسولي الذي يهيئ طريقك اسمعوا في البرية صارخ هيبوا طريق يهوه⁷، اجعلوا سبله مستقيمة."⁸

3- إنجيل لوقا: لوقا هو كتاب حوليات وروائي حقيقي، وأديب وثني آمن بالمسيحية وإنجيله هو عمل أدبي كتب بلغة يونانية كلاسيكية راقية تخلو من حواشي الكلام وبالتالي يختلف عن إنجيل متى ومرقس، وهو في أغلبه عبارة عن مجموعة من القصص.⁹

1 موريس بوكاي: "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"، مصدر سابق، ص 81.

2 المصدر نفسه، ص 81.

3 ينظر: صائب عبد الحميد: "في مقارنة الأديان- نظرة سريعة في التوراة والإنجيل والقرآن"، مرجع سابق، ص 46.

4 ينظر: موريس بوكاي: "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"، مصدر سابق، ص 82.

5 الكتاب المقدس، ترجمة العالم الجديد، مصدر سابق، ص 1432.

6 موريس بوكاي: "المصدر السابق"، ص 86.

7 يهوه: هو أحد أسماء الله تعالى المذكورة في الكتاب المقدس.

8 الكتاب المقدس: ترجمة العالم الجديد، مصدر سابق، ص 1485.

9 ينظر: موريس بوكاي: "المصدر السابق"، ص 90-91.

ويبتدئ إنجيل لوقا بما يلي: "إذ سعى كثيرون إلى تأليف رواية عن الوقائع المتيقنة كما سلمها إلينا الذين صاروا منذ البداية شهود عيان..."¹، ثم يواصل سرد القصص قائلًا: "كان في أيام هيردوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وزوجته من بنات هارون واسمها أليصابات، وكان كلاهما بارين أمام الله يسيران بلا لوم في جميع وصايا يهوه وشرائعه."²

يظهر السرد القصصي جليا في هذا الإنجيل، لكن ومع ذلك يبقى من باب الأسطورة والخرافة، وسنوضح ذلك في بيان الفرق بينه وبين قصص القرآن الكريم.

4- إنجيل يوحنا: يرى رجال الكنيسة أنّ إنجيل يوحنا يختلف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، ويقول عنه الأب روجي في كتابه "مقدمة إلى الإنجيل"³: "إنّه عالم آخر"⁴، "وهذا الإنجيل هو آخر الأناجيل الأربعة تدوينا"⁵، وهو إنجيل "مختلف تماما فهو يختلف في ترتيب وفي اختيار الموضوعات والتروايات والخطب، وبه اختلافات أسلوبية وجغرافية، وأخرى خاصة بالتعاقب الزمني للأحداث، بل إنّه يحتوي على اختلاف في الآفاق اللاهوتية."⁶

ويستفتح إنجيل يوحنا بما يلي: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة إلها، هذا كان في البدء عند الله، به وجد كل شيء وبغيره لم يوجد شيء."⁷

والملاحظ على إنجيل يوحنا أنّه يتحدث عن بداية خلق المسيح عليه السلام.

* الإنجيل بين الوحي الإلهي والتحريف:

بين لنا القرآن الكريم في أكثر من موضع بأنّ الإنجيل كتاب الله الذي أنزله على نبيه عيسى بن مريم عليه السلام، يقول الله تعالى: (ثُمَّ فَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ)⁸

1 الكتاب المقدس، مصدر سابق، ص 1519.

2 المصدر نفسه: ص 1519.

3 ينظر: موريس بوكاي: "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"، مصدر سابق، ص 92.

4 المصدر نفسه: ص 92.

5 صائب عبد الحميد: "في مقارنة الأديان"، مرجع سابق، ص 49.

6 موريس بوكاي: "المصدر نفسه"، ص 92.

7 الكتاب المقدس: "ترجمة العالم الجديد"، مصدر سابق، ص 1577.

8 سورة الحديد: الآية 27.

لكن ومع الأسف فقد تعرض هذا الكتاب السماوي إلى التحريف مثلما تعرض له سابقه التوراة وعبثت به أيدي الكفر والجهل، وذلك بشهادة القرآن الكريم، يقول عز وجل: (مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعُ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)¹، ويقول أيضا عز وجل: (وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)²

حيث "من المقطوع به أنّ الإنجيل الرّباني الذي أنزله الله على عبده ورسوله (عيسى بن مريم) غير هذه الأناجيل الموجودة لدى النصارى اليوم، فهذه الأناجيل دخل إليها التحريف والتبديل كما نص القرآن الكريم، وبين هذه الأناجيل اختلاف واضح، ثمّ إنّ الله عز وجل أنزل إنجيلا واحدا فكيف أصبحت أربع أناجيل."³

ولعل أكبر دليل على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قصص عن المسيح عليه السلام، وما تضمنته هذه الأناجيل من أحاديث ملفقة وأكاذيب مزورة.

فلنأخذ على سبيل المثال إنجيل متى الذي يتدأ بالحديث عن نسب المسيح عليه السلام حيث يقال فيه: "كتاب تاريخ يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم ولد اسحاق، واسحاق ولد يعقوب... ويسى ولد داود الملك... ويعقوب ولد يوسف زوج مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح."⁴

لقد تضمن هذا الإنجيل الكثير من المغالطات التي ينفىها القرآن الكريم، ويثبت عدم صحتها، فالقرآن الكريم قص علينا بالتفصيل قصة ولادة المسيح عليه السلام من السيدة مريم عليها السلام، يقول الله تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)⁵، ويقول أيضا عز وجل: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ

1 سورة النساء: الآية 46.

2 سورة آل عمران: الآية 78.

3 محمد علي الصابوني: "النبوة والأنبياء"، مرجع سابق، ص 215.

4 الكتاب المقدس، مصدر سابق، 1432.

5 سورة آل عمران: الآية 45.

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا¹.

ونفس الأمر بالنسبة للأنجيل الثلاثة الأخرى فجميعها احتوت على مثل هذه المغالطات فإنجيل لوقا يحكي عن قصة زكريا عليه السلام فيقول: (كان في أيام هيردوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا، وزوجته من بنات هارون واسمها أليصابات وكان كلاهما بارين أمام الله يسيران بلا لوم في جميع وصايا يهوه وشرائعه ولكن لم يكن لهما ولد، لأن أليصابات كانت عاقرا، وكان كلاهما متقدمين في أيامهما... فتراءى له ملك يهوه... فاضطرب زكريا حين رآه واستولى عليه الخوف فقال له الملك: لا تخف يا زكريا، لأنه قد استجيب تضرعك، وستلد لك زوجتك أليصابات ابنا.²

يظهر من خلال السرد القصصي لقصة زكريا عليه السلام أنها ليست سردا إلهيا وإنما هي من قبل السرد الوضعي والحكي البشري، والفرق يظهره القرآن الكريم من خلال سرده لقصة زكريا عليه السلام، يقول الله تعالى: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ آتِنِي غُلَامًا وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ³)

ويقول أيضا عز وجل: (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴿٧﴾ قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴿٨﴾ قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا⁴)

مما لا شك فيه أن الفرق يبدو جليا بين قصة زكريا عليه السلام في إنجيل لوقا، وبين قصته في القرآن الكريم التي تتلأأ بأنوار البلاغة وتنزين بأفانين الإعجاز البياني الذي أثار في نفوس القساوسة المسيحيين فأجهشوا بكاء وتصديقا بما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم⁵، وصدق الله عز

1 سورة النساء: الآية 171.

2 الكتاب المقدس، مصدر سابق، ص 1519.

3 سورة آل عمران: الآية 38-40.

4 سورة مريم: الآية 7-9.

5 بكاء النجاشي ملك الحبشة وكان من المسيحيين، عند سماعه لآيات من سور مريم.

وجل حين قال: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)¹

فشتان بين قصص الكتاب المقدس، وقصص القرآن الكريم، ولنا مع هذا الأخير وقفة متأنية في فصلنا الرابع نتحدث فيه عن خصائص القصة القرآنية وسماتها البلاغية المتفردة.

وخلاصة القول: فإنّ القرآن الكريم أثبت لنا عدم صحة هذه الأناجيل وأنها نسبت إلى المسيح عيسى عليه السلام بهتاناً وزوراً وإفكاً، يقول الله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)².

وبالإضافة إلى شهادة القرآن الكريم، -وكفى بذلك شهيدا- نجد شهادة المسيحيين أنفسهم على عدم صحة هذه الأناجيل، "فقد كان المسيحيون من قبل يعتبرون هذه الأناجيل موحى بمعانيها من الرب سبحانه، أما الدراسة النقدية الحديثة فلا تعتبرها كذلك"³، حيث يرى النقاد المسيحيين أنّ هذه الأناجيل كتبت بأقلام بشرية والدليل على ذلك تناقضها مع بعضها البعض وغلبة الخرافة والخيال الشعبي على موضوعاتها⁴، يقول الله تعالى: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) وهذا بالفعل ينطبق على الإنجيل الذي تم تحريف من طرف المسيحيين المتطرفين الخارجين عن دين الله سبحانه و تعالى.

3- القرآن الكريم وخصوصيته المتفردة بين الكتب السماوية: يعد القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وخاتمتها، أنزله الحق سبحانه وتعالى على خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا.

¹ سورة يوسف: الآية 3.

² سورة النساء: الآية 171.

³ بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 201.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 203. وينظر: موريس بوكاي: "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"، مصدر سابق، ص 102.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى كتابه هذا قدرا مقسوما في أمة العرب، يقول الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)¹

ولكن مع هذا التّكريم الذي خصهم به الحق عزّ وجل عارضوا الرّسول صلى الله عليه وسلم وأنكروا دعوته، فتحداهم وأعجزهم، يقول الله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)²

"ولم يذكر التاريخ أن أحدا قد أجاب على هذا التحدي"³، ولا استطاع أن يغير فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم شيئا أو يحرفه، والسبب يعود إلى أنّ الله عز وجل تواعد بحفظ آخر كتبه السماوية وحمايته من التّبديل والتّحريف، يقول الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)⁴

فالقرآن الكريم الذي يتلى علينا اليوم... هو نفسه ذلك القرآن الذي كان يتلى في عهد الرّسول صلى الله عليه وسلم، ومن أقوى الأدلة على ذلك النّسخ القرآنية المحفوظة... فهي لم تحافظ على النّص كما نزل بل حتى على الرّسم⁵ الذي كتبت به المصاحف الأولى.⁶

وهنا يختلف القرآن الكريم كلّ الاختلاف عن الكتب السماوية السابقة التي تعرضت لها أيادي الخبيث فلطختها بنجاستها، وحرفتها عن شرع الله، وأزالت عنها وقار الألوهية والقدسية الربانية، يقول الله تعالى: (مَّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)⁷

1 سورة يوسف: الآية 2.

2 سورة البقرة: الآية 23.

3 مالك بن نبي: "الظاهرة القرآنية"، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تقديم: محمد عبد الله درار، محمود محمد شاكر، سوريا، دمشق، دار

الفكر، ط4، 1420هـ-2000م، ص189.

4 سورة الحجر: الآية 9.

5 يقصد بذلك الرّسم العثماني، أو الخط العثماني وسمي بذلك نسبة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، لأنه كان أول من أمر بنسخ القرآن وتدوينه، ويذهب العلماء إلى القول بأنّ الرسم العثماني للقرآن توقيفي وهناك من أنكر ذلك، وعلى العموم فإنّ الرسم العثماني لا يزال متوارثا في الأمة العربية والإسلامية ولا زالت تعتمد عليه في كتابتها للمصحف.

6 بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص204.

7 سورة النساء: الآية 46.

وقد كان اطلاعنا¹ في تاريخ التوراة والإنجيل قد أثبت قضايا كثيرة للدهشة تؤكد تدخل الكتاب في تبديل بعض النصوص، وإلغاء نصوص أخرى، يل في وضع مواد كاملة ليست من وحي السماء ولا من حديث الأنبياء¹، يقول الله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)².

أما عن القرآن الكريم، فقد كان الأمر خلاف ذلك، حيث امتاز القرآن الكريم منذ البداية وعلى امتداد نزوله بمزية متفردة لم يحظ بها غيره من الكتب السماوية وهي مزية الحفظ.³

إذن: فإنّ للقرآن الكريم موقعا فريدا حباه الله - سبحانه وتعالى - به عن سائر الكتب السماوية الأخرى، حيث جعله مهيمنا عليها، شاهدا على ما تعرضت له من تحريف وتبديل ومصحاحا لذلك، يقول الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)⁴

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: "ومهيمننا عليها"، أي: عاليا فيها ومترفعا.⁵ فقد جمع القرآن الكريم محاسن ما قبله من الكتب السماوية، وزاده من الكمالات⁶ ما يكمل نقصانها ويصوّب ما وقع منها من تحريف وتبديل، يقول الله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)⁷

¹ صائب عبد الحميد: "في مقارنة الأديان" مرجع سابق، ص 79.

² سورة البقرة: الآية 79.

³ ينظر: صائب عبد الحميد: "المرجع السابق"، ص 79.

⁴ سورة المائدة: الآية 48.

⁵ أبي عبد الله بن أبي بكر القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان"، تحقيق: عبد الله بن عبد الحسن

التركي، لبنان، بيروت، دار الرسالة، ط 1، 1427هـ - 2006م، ج 8، ص 35.

⁶ ينظر: ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج 3، ص 128.

⁷ سورة المائدة: الآية 15.

بل إنّ بنزول القرآن الكريم انتهت صلاحية التّوراة والإنجيل، وانتهت صلاحية جميع الأمم بأمة القرآن الكريم، فالقرآن الكريم هو رسالة للعالمين سودهم وبيضهم عربهم وعجمهم، يهودهم ومسيحهم، يقول الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)¹

وبالإضافة إلى هذا الامتياز الذي امتاز به القرآن الكريم عن باقي الكتب السماوية، وهي تلك البلاغة الإعجازية التي دست بين سوره وآياته فزادته رونقا وجمالا تخشع له القلوب وتستهوئ سماعه الآذان. فالقرآن الكريم هو كتاب سماوي ومعجزة إلهية أيد الله تعالى به نبيه وخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن المعلوم أنّ كلّ نبي بعثه الله إلّا وأنزل معه كتاب يهدي به الناس ويأمرهم إلى اتباع شرعته ومنهاجه بالإضافة إلى ذلك يؤيده بمعجزة تكون برهانا ودليلا على صدق نبوته. وبطبيعة الحال - كما أسلفنا عن ذلك في فصلنا الأول من البحث - أنّ كلّ نبي إلّا وأيده الله بمعجزة من نفس ما برع فيه قومه، حيث أيد موسى عليه السّلام بالعصا السّحرية، لأنّ فرعون وملاه كانوا أهل سحر وشعوذة، وأيد عيسى عليه السّلام بإبراء الأكمه والأبرص لأنّ قومه كانوا أهل حكمة طيبة. وأيد خاتم الأنبياء والمرسلين - محمد صلى الله عليه وسلم - بمعجزة قولية لغوية لأنّ قومه كانوا أهل فصاحة لغوية وبلاغة وبيان.²

ولعل ما نود الإشارة إليه في هذا المقام هو ما رأيناه من خلاف بين الكتب السماوية الأخرى ومعجزات أنبيائها، وبين كتاب محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزته، حيث إنّ كتاب محمد صلى الله عليه وسلم كان في حد ذاته معجزة وتلك خصوصية اختص بها القرآن الكريم عن غيره من توراة موسى وإنجيل عيسى عليهما السّلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من الأنبياء نبي إلّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليه فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة."³

ومما لا شك فيه أنّ هذه الخصوصية هي التي شكلت نقطة الاختلاف بين القرآن الكريم وباقي الكتب السماوية الأخرى.

¹ سورة الأنبياء: الآية 107.

² ينظر: المعجزة القرآنية في الفصل الأول من البحث، ص 39.

³ محمد بن اسماعيل البخاري: "صحيح البخاري"، مصدر سابق، ج 3، رقم الحديث 7274، ص 422.

فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الخاتم، والمعجزة الإلهية الخالدة التي أعجزت الثقلين عن الإتيان بمثلها، يقول الله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)¹

فلطالما حاول أقحاح العرب وأرباب بلاغتها عناد القرآن الكريم وتقديم صياغة بلاغية مثله فعجزوا عن الإتيان بمثل ذلك، ولو بأقصر سورة منه، يقول الله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)².

وذلك ما لم يتسن للكتب السماوية الأخرى التي لعبت بها أيادي البشر فأعدمتها رونقها البلاغي، وجردها من جمال الأسلوب الإلهي، يقول الباقلاني: "فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالنوراة والإنجيل والصحف؟، قيل: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف."³

إذن: فالبلاغة الإعجازية التي اختص بها القرآن الكريم هي التي جعلت منه كتابا سماويا متفردا عن باقي الكتب السماوية الأخرى، حيث لم يسبق أن وصف الله عز وجل أحد كتبه السماوية السابقة بالوصف الذي وصف به القرآن الكريم، وهذا ما أكده الباقلاني في قوله: "وإن لم يكن معجزا لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأننا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن."⁴

فلم يتحد الله قوم موسى عليه السلام بالنوراة، بل تحداهم بالعصا السحرية، كما لم يتحد قوم عيسى عليه السلام بالإنجيل، بل تحداهم بإبراء الأكمه والأبرص.

لكن تحدى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن وجعله في نفس الوقت كتاب الهداية المنزل فيهم يق والجدول التالي يبين لنا أوجه التشابه والخلاف بين القرآن الكريم والنوراة والإنجيل.

¹ سورة الإسراء: الآية 88.

² سورة البقرة: الآية 23.

³ الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص 44

⁴ المصدر نفسه ص 44

الكتب السماوية (التوراة- الإنجيل- القرآن الكريم)	
أوجه التشابه	أوجه الاختلاف
<p>- جميعها كتب سماوية منزلة من عند الله عز وجل.</p> <p>- جميعها أنزلت على نبي من أنبياء الله المصطفين عن طريق وحي إلهي.</p> <p>- جميعها أنزلت لهداية البشر، وبيان الحق من الباطل.</p>	<p>- يختلف القرآن الكريم عن التوراة والإنجيل في أنه محفوظ من التبديل والتغيير، في حين أنّ التوراة والإنجيل تعرضا لذلك وصيغا بصياغة بشرية.</p> <p>- القرآن الكريم كتاب واحد ونسخة واحدة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، في حين أنّ التوراة والإنجيل تتعدد أسفارهما.</p> <p>- القرآن الكريم كتاب للعالمين جميعا في حين التوراة والإنجيل رسالة مقتصرة على اليهود والنصارى.</p> <p>- القرآن الكريم ذو أسلوب إلهي منزه وبلاغة ربانية سامية تستهوي القلوب والعقول، في حين التوراة والإنجيل أسلوبهما، أسلوب بشري طغت عليه الركافة والرداءة.</p> <p>- القرآن الكريم جمع بين كتاب الهداية السماوية وبين كونه معجزة إلهية أيد الله بها خاتم الأنبياء، في حين أنّ التوراة والإنجيل لم يتسن لهما ذلك، واقتصرا على كونهما كتابين سماويين فقط، ولم يكونا معجزة لنبينهما</p>

إذن فعلى الرغم من أنّ القرآن الكريم يتشابه في عدة نقاط مع التوراة والإنجيل لكن يحتفظ بصورته الخاصة¹، التي تكمن في البلاغة الإعجازية التي رقت لها قلوب بعض أهل الكتاب ودعمت لها أعينهم خشية وتصديقا، يقول الله تعالى: (... ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا

¹ ينظر: مالك بن نبي: "الظاهرة القرآنية"، مصدر سابق، ص 199.

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ¹

وخلاصة القول: فإنّ تفرد القرآن الكريم ببلاغته الإعجازية جعل من ذلك طابعا خصوصا تفردت به الأمة العربية الإسلامية عن باقي الأمم، وذلك على اعتبار أنّ القرآن الكريم نزل بلغتها العربية الفصحى، يقول الله تعالى: (وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) ²

ج- أوجه التباين بين البلاغة القرآنية وبلاغة الأمم الأخرى:

بعد نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، كما يقول عز وجل: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) ³، ويقول أيضا جل جلاله: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) ⁴، أصبح للغة العربية مسارا أدبيا آخر غير مسار أدبيتها الجاهلية، يقول الرافعي عن تأثير القرآن الكريم في اللغة: "نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معا، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرج منه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه أصفى اللغة من أكارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملاً من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها من خلال الإعجاز وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في قلب الأساليب وتحول التراكيب إلى التراكيب قد أظهر مظهرها لا يقضي العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته." ⁵

¹ سورة المائدة: الآية 82-83.

² سورة الشعراء: الآية 192-195.

³ سورة الشورى: الآية 7.

⁴ سورة الرعد: الآية 37.

⁵ مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مرجع سابق، ص 74.

فقد أجمع أهل العلم باللغة العربية وآدابها أنّ نزول القرآن الكريم بهذا اللسان العربي وإعجازه بنظمه وبلاغته أمر أدى ببلوغ العربية مرتبة عالية وجعل منها لغة إلهية، يستحيل التشابه بينها وبين غيرها من اللغات الأخرى.¹

لأنّه من لمعلوم أنّ بانتشار الإسلام في بقاع الأرض اختلطت ثقافات الأمم فيما بينها وبالأخص الثقافة اليونانية والفارسية.

وعلى إثر هذا سنحاول أن نطلع على آداب لغات بعض الأمم التي تداخلت مع الإسلام وتأثرت به، وذلك حتى نبين الفوارق بينهما وبين اللغة العربية، وسنركز في هذا الأمر بالأخص على الجانب البلاغي لأنه محور موضوعنا.

1- اليونانية وبلاغتها: تعد الحضارة اليونانية من أقدم الحضارات وأرقاها في تاريخ الإبداع البشري، وخصوصا فيما يتعلق بفن القول.

فقد عرف اليونانيون ببراعتهم الشعرية وأساليبهم الخطابية التي جعلت من أدبهم اليوناني أدبا عالميا لفترة من الزمن ليست بالقليلة، حيث يحتل الأدب اليوناني مكانا خاصا بين الآداب الأجنبية حسب ما ذهب إليه باورا في كتابه الأدب اليوناني القديم، إذ يقول: "أنّ الأدب اليوناني يسترعي الانتباه نظرا لأهميته الذاتية، لأنّ اليونانيين ابتكروا أنماطا معينة من الفنون الأدبية وبلغوا بها حد الكمال، وأنّ تجوا روائع لازالت تثير العجب والإعجاب... ففي شعر الملاحم، والشعر الغنائي، والشعر المسرحي، وفي النثر التاريخي والفلسفي والخطابي، حقق اليونانيون نتائج بلغ من كفايتها في الشكل وروعيتها في المضمون أن أعمالها غالبا ما تعتبر أمثلة للكمال، تحتذي بوصفها نماذج مثلى".²

ويرجع اليونانيون فضل نتاجهم الأدبي إلى شاعرهم الملحمي وأسطورهم الشهيرة هوميروس من خلال عمله الأدبي المتمثل في الإلياذة³، بالإضافة إلى أرسطو في كتابه الخطابة.

ويرى باروا أنّ أدباء اليونان كانوا يتميزون بفهم معين للغة واستعمالاتها مما جعل أدبهم متميزا شعرا ونثرا، فالشعر اليوناني "يتوصل إلى إحداث تأثيره عن طريق الاحتفاظ بالنغم المتصل للكلمات التي تختار

¹ ينظر: محمد محمد أبو موسى: "الإعجاز البلاغي"، مرجع سابق، ص 13.

² باورا: "الأدب اليوناني القديم"، ترجمة: محمد علي زيد وأحمد سلامة محمد، راجعه: محمد صقر خفاجة، مصر، القاهرة، دار سعيد، دط، دت، ص 1.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 13.

بسبب قوتها الخيالية، بينما يبلغ النثر اليوناني أثره عن طريق الإقناع والوضوح اللذين يعدان أساساً جوهرياً للبلاغة¹.

ولعل هذا التمييز في الأدب اليوناني، وخصوصاً ما يتعلق ببلاغته وبيانه جعل بعض البلاغيين العرب يتأثرون به، وقد ظهر البيان اليوناني في "الساحة العربية حين تولت الفلسفة مهمة التشريع للأدب، وظهر ذلك أول ما ظهر في كتاب "نقد الشعر" لقدماء²، حيث تأثر قدماء بفكر أرسطو وبلاغته في كتابيه البلاغة والمنطق، ولم يتوقف تأثر البلاغيين العرب عن قدماء بن جعفر بل امتد إلى آخرين أمثال: أبو الهلال العسكري، وابن المعتز بل حتى إلى عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة³.

ولكن ومع هذا التأثير اليوناني في بعض البلاغيين العرب، فإن الأغلبية حافظت على أصالة البلاغة العربية، والتي يعود مصدرها إلى القرآن الكريم.

فالبلاغة العربية نشأت في ظلال القرآن الكريم، وازدهرت على ضوء دراسات وأبحاث إعجازه.

2- الفارسية وبلاغتها: لم يعرف التاريخ الحضاري أمة بلغت ذروة التمدن والتقدم الحضاري، كالأمة الفارسية.

ففي الوقت الذي كان العرب لا تزال تسيطر عليهم البداوة والبساطة، كان الفرس حائزين على أعلى درجات العلم والتمدن.

وقد تمكن العرب المسلمون من خلال فتوحاتهم الإسلامية لبلاد فارس من الاطلاع على علومهم وآدابهم⁴.

ومما لا شك فيه أنّ الأدب الفارسي وجه من وجوه الحضارة الفارسية التي أثرت في الحضارة العربية الإسلامية، وقد أرجع الدكتور شوقي ضيف مرد تطور النثر والشعر في الأدب العربي في العصر العباسي إلى

1 المصدر نفسه: ص3.

2 شفيق السيد: "فن القول بين البلاغة العربية وأرسطو"، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2006م، ص189.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص189-203.

4 ينظر: إحسان صادق سعيد: "علوم البلاغة عند العرب والفرس - دراسة مقارنة"، دمشق، المستشارية الثقافية الإيرانية، ط1، 1421هـ -

200م، ص25.

كثير من الأدباء الفارسيين¹، ولا يزال تاريخ الأدب العربي شاهداً على ترجمة الأعمال الأدبية الفارسية إلى العربية، وخير مثال على ذلك كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع.²

بالإضافة إلى هذا فقد تجلّى التأثير الفارسي في الأدب العربي - حسب رأي إحسان سعيد - حتى في الجانب البلاغي وبالأخص في علم البديع.³

وإذا أمعنا النظر وحاولنا أن نبحت عن آثار المؤلفات البلاغية الفارسية في المؤلفات البلاغية العربية، وجدنا أن كتاب الوطواط⁴، كان الوحيد الذي خلف أثره فينا، ولا غرور في الأمر، فقد ذهب صيت مؤلفه بين الناس، ولم تأت لأيّ من مؤلفي البلاغة الفارسية شهرة كشهرته ولا ما هو قريب منها.⁵

ويجمع الباحثون والبلاغيون المتأخرون أنّ الإمام فخر الدّين الرّازي كان من أكثر البلاغيين العرب الذي تأثروا بالبلاغة الفارسية وخصوصاً بكتاب الوطواط، والمطلع على كتابه نهاية الإيجاز يدرك تماماً أنّ الرجل تأثر بالوطواط في مباحثه البلاغية، وخصوصاً فيما يتعلق بفنون البديع.⁶

كما تأثر به على غرار فخر الدّين الرّازي أيضاً السّكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" وزين الدّين الرّازي في كتابه روضة الفصاحة.⁷

وعموماً فإنّ أكثر ما غلب على البلاغة الفارسية، هو الجانب البديعي، هذا الأخير الذي ترك أثره على البلاغة العربية، حتى ظهر في الأدب العربي مع أواخر القرن السادس الهجري فن البديعيات⁸، الذي أفسد البلاغة العربية وجرها نحو العقم والتّعقيد والجمود، وأفقدتها ملكة الدّوق والجمال.⁹

1 ينظر: شوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ"، مرجع سابق، ص19.

2 المرجع نفسه: ص19.

3 ينظر: إحسان صادق سعيد: "المرجع نفسه"، ص205.

4 الوطواط هو رشيد الدين الوطواط شاعر وأديب فارسي من أهل بلخ (توفي 573هـ) وهو صاحب كتاب "حدائق السحر في دقائق الشعر".

5 إحسان صادق سعيد: "المرجع السابق"، ص214.

6 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص320. وينظر: شوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ"، مرجع سابق، ص286.

7 ينظر: إحسان صادق سعيد: "المرجع السابق"، ص222.

8 ينظر: المرجع نفسه: ص232.

9 ينظر: شوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ"، مرجع سابق، ص286.

وخلاصة القول: فإنّ تأثير البلاغة الفارسية في البلاغة العربية لم يكن في نطاق واسع، ذلك لأنّ البلاغة العربية تعتمد في مباحثها على القرآن الكريم، وبهذا فالبلاغة العربية هي بلاغة قرآنية، وشتان بينها وبين البلاغة الفارسية من فوارق واختلافات.

3- البلاغة الغربية الأوربية: يعود فضل ظهور الحضارة الغربية الأوربية في أواسط العالم المتحضر إلى الحضارة العربية الإسلامية، وإن كنا قد تكلمنا عن مدى تأثير العرب بحضارات الأمم السابقة كالحضارة اليونانية والحضارة الفارسية، فإنّ هذا لم يمنع من تأثير العرب المسلمين في غيرهم، وخصوصا في الغرب الأوربي، وشهادات المستشرقين خير دليل على ذلك.

فالنهضة التي عرفتها أوروبا في العصر الحديث كانت شرارتها قبس نوراني سطع عليها من الشرق العربي الإسلامي، "فالحضارات العربية هي التي أسلمت بدورها ميراث الحضارة الإغريقية مضافا إليه خلاصة الحضارة الإسلامية، أسلمت ذلك إلى الفكر الأوربي في العصور الوسطى لكي تقوده تلك الشعلة إلى مشارف عصر النهضة وعصور التنوير."¹

ومما لاشك فيه أنّ الأمم إذا أرادت التّهوض نحو البناء الحضاري أول شيء تقوم به هو إثبات هويتها الأدبية، ويكفي ونحن بصدد الحديث عن البلاغة الأوربية "أن نذكر أثر العرب في تعريف أوربا بواحد مثل "أرسطو" باعتباره الخيط الذي يصل... بين الحضارة الإغريقية من قبله ومن خلاله، الحضارة العربية الوسيطة، ثم الحضارة الأوربية الحديثة."²

وبناء على هذا فإنّ الدّراسات البلاغية الأوربية جاء ببعضها من المشرق العربي وبعضها الآخر من التّراث اليوناني.³

لكن أغلب الأوربيين أنكروا ذلك الفضل الذي قدمه العرب لهم، وراحوا ينظرون إلى بلاغتهم تحت مسمى آخر وهو الأسلوبية "stylistique"، معتمدين في ذلك على التّراث اليوناني باعتباره بلاغة قديمة، وأبحاثهم الحديثة باعتبارها بلاغة جديدة.

أمّا فيما يخص مضامين الدّرس البلاغي الأوربي يرى الدّكتور أحمد درويش بأنّه "لم يكن حقل هذه البلاغة عند الأوربيين، هو حقل الجمل والتّعبيرات الجزئية كما كان الشّأن في كثير من بحوث البلاغة

1 أحمد درويش: "النص البلاغي في التراث العربي الأوربي"، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 1998م، ص171.

2 المرجع نفسه: ص171.

3 ينظر: محمد عبد المطلب: "البلاغة والأسلوبية"، مرجع سابق، ص27.

العربية، ولكن كان الاهتمام يوجه أيضا إلى العمل في جنسه الأدبي الذي ينتمي إليه، وفق تناسق أجزاء القول بعضها مع البعض الآخر، حتى تتعاون في إحداث التأثير الذي ينشده مبدع العمل الأدبي، ومن هنا فقد استخلص من التراث البلاغي القديم قواعد الإقناع التي تركز على قواعد رئيسية من أهمها: الابتكار والترتيب والأسلوب والحدث، مع اختلاف مدارس التفكير البلاغي في التركيز على هذا العنصر أو ذاك في فترات التاريخ الأوروبي الوسيط والمعاصر.¹

وتتمثل هذه الأجناس الأدبية التي تعتمد عليها البلاغة الأوروبية في أجناس شعرية (الشعر الغنائي، الملحمي، الدرامي، التعليمي، الرعوي) وأخرى نثرية (الخطابي، التاريخي، التعليمي النثري، الروائي)²، وهذا هو التقسيم العام للأجناس الأدبية الذي أخذت به البلاغة الأوروبية الوسيطة واعتمدت فيه على البلاغة القديمة ظل بدوره يمثل الهيكل العام للإنتاج الأدبي حتى بداية القرن العشرين، وما زالت كثير من عناصره تمثل أجناسا أدبية حية حتى اليوم.³

وإنّ هذا القول الذي قدمه الدكتور أحمد درويش بخصوص البلاغة الأوروبية نجد أيضا الدكتور شوقي ضيف يشاطره الرأي قائلا: "من يقرن مباحث البلاغة العربية إلى مباحث البلاغة الغربية يلاحظ توا أن الغربيين عنوا في بلاغتهم بدراسة الأساليب والفنون الأدبية، بينما لم يكن يعنى هذا أسلافنا، إذا صبوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة."⁴

ولعل هذه الفوارق التي تنبه إليها البلاغيون والنقاد المحدثون، بين البلاغة العربية والبلاغة والأوربية هي التي دفعت البعض إلى تفضيل البلاغة الأوروبية على البلاغة العربية متناسين أو متجاهلين بذلك أن أصل البلاغة ومصدرها الأساسي هو البيئة العربية.

لذلك نحن نفند ما ذهب إليه كل من الدكتور أحمد درويش، والدكتور شوقي ضيف، إذ لا توجد أمة عرفت فن القول واكتسبت فصاحته وبلاغته فطريا مثل الأمة العربية، بالإضافة إلى ذلك فإنها تملك رصيذا بلاغيا لا يوجد عند أية أمة من الأمم، وهو القرآن الكريم، الكتاب السماوي الذي كرم الله به العرب على

¹ أحمد درويش: "النص البلاغي بين التراث العربي و الأوروبي"، مرجع سابق، ص172.

² ينظر: المرجع نفسه: ص173.

³ المرجع نفسه: ص173-174.

⁴ شوقي ضيف: "البلاغة تطور وتاريخ"، مرجع سابق، ص377.

وجه الخصوص وأودع فيه من الأسرار البلاغية مالا تبلغه أمة من الأمم، يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يِقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ).¹

وبناء على هذا فإنه من غير الممكن تصور البلاغة العربية بمعزل عن القرآن وخاصة أنّ البلاغة كانت معجزته الأولى، وبها وقع التحدي الإلهي، فقد "ولدت علوم البلاغة عند العرب لكي تخدم في البدء هدفا دينيا وتطور مباحثها على علماء الكلام والإعجاز القرآني وعلماء تفسير القرآن، واعتمدت شواهدا في كثير من الأحيان على الآيات القرآنية تحاول أن تستخلص منها قواعد التعبير الجميل ليستضيء به الأدب العربي".²

ومما لا شك فيه أنّ البلاغة القرآنية ميزة تفردت بها الحضارة العربية الإسلامية عن غيرها من حضارات الأمم العريقة، ولو حاولنا أن نكشف عن الفوارق بين بلاغة القرآن الكريم وبلاغات الأمم الوضعية لوجدنا البون شاسعا سواء أكان ذلك من حيث المصدر أم من حيث الموضوع.

* الفرق بين البلاغة القرآنية والبلاغات الأمم الأخرى

* من حيث المصدر:

تختلف البلاغة القرآنية عن البلاغات الأخرى في مصدرها الإلهي الذي يعود إلى الله سبحانه وتعالى، يقول الله تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)³

فالبلاغة القرآنية هي بلاغة إلهية في حين أنّ بلاغات الأمم الأخرى هي بلاغات وضعية من صنع البشر، وشتان بين الاثنين، وفي هذا يقول أبو الحسن الحرالي: "بلاغة البيان تعلو على قدر علو المبين، فعملو بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه"⁴، وبالتالي هي منزهة عن النقد والتبديل والتغيير عكس ما قد تعرض له النصوص البلاغية الأخرى.

كما أنّ البلاغة تعكس مستوى ثقافة صاحبها، وتعبّر عن رقي الأمم والحضارات، فإذا كان الإنسان واسع الثقافة جاءت بلاغته راقية وإن كان ضئيلا ظهر عكس ذلك⁵، فكيف ببلاغة صاحبها الله عز

1 سورة النحل: الآية 103.

2 أحمد درويش: "النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي"، مرجع سابق، ص 19.

3 سورة النساء: الآية 82.

4 أبو الحسن الحرالي: "رسالة مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل"، مصدر سابق، ص 29.

5 ينظر: بغدادادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 27.

وجل، يقول الله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ)¹.

وبهذا فالبلاغة القرآنية ذات مصدر إلهي: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)². ولا يمكن أن ترقى إليها أي بلاغة من صنيع البشر، يقول الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)³

* من حيث الموضوع:

هناك فرق آخر تتميز به البلاغة القرآنية عن البلاغات البشرية عند الأمم الأخرى، ويظهر ذلك الفرق في تفرد موضوعاتها التي أمت بكل الجزئيات، وخرجت عن النطاق المحدود لمعارف الإنسان وتصوراتها⁴، يقول الله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)⁵

وقد نبه مالك بن نبي إلى ذلك التفرد في موضوعات القرآن الكريم إذ قال: "إن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد، طبقاً لتعبير القرآن نفسه... فهو يبدأ حديثه من (ذروة الوجود المستودعة باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار) إلى (النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم)، وهو يقتضي أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس، وهو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد، ونحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة، ويرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتباراً".⁶

وهذا مالا يوجد في النصوص البشرية، "فالكلام البشري هو تعبير عن موضوع يشغل بال صاحبه كوصف ما يراه أو يحسه أو يخطر بباليه، أو ما يستنبطه من تأملاته، أو دراسته"⁷، وعليه فالفرق كبير بين ألوان المعارف التي تضمنها البلاغة القرآنية وبين التراث البلاغي عند الأمم. "فبينما نجد القرآن زاخراً بمعارف

1 سورة النجم: الآية 3-5.

2 سورة الشورى: الآية 11.

3 سورة الإسراء: الآية 88.

4 ينظر: بغدادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 53-54.

5 سورة الأنعام: الآية 38.

6 مالك بن نبي: "الظاهرة القرآنية"، مصدر سابق، ص 195.

7 بغدادي بلقاسم: "المرجع السابق"، ص 54.

متنوعة لا نجد فيها ما وصل إلينا من تراثهم أيّ معارف تستحق الذكر لا في الفلسفة، ولا في الأخلاق، ولا في التشريع، ولا في العلوم"¹، وحتى وإن كانت فشتان بينها وبين موضوعات القرآن الكريم، يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)².

وحاصل القول: فإنّ البلاغة القرآنية بلاغة متفردة في مصدرها وموضوعها، يقول الباقلاني: "فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله، وأعلاه وأبلغه وأسناه."³

وتلك ميزة تفردت بها الأمة العربية الإسلامية، واختصت بها حضارتها عن غيرها من الحضارات، لأنّها ببساطة حضارة القرآن الكريم.

¹ المرجع نفسه: ص51.

² سورة الكهف: الآية54.

³الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص426

ثاننا: البلاغة القرآنية ودورها في التفاعل الحضاري بين الأمم:

تحتل الحضارة العربية الإسلامية موقعا متميزا بين الحضارات، وذلك لقيامها على ركيزة القرآن الكريم، كتاب الله تعالى: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)¹ فقد بدأت قصة الحضارة العربية الإسلامية مع نزول أولى آيات الذكر الحكيم، فسطع نورها من غار مظلم موحش في واد غير ذي زرع، لينير أرجاء المعمورة وتستأنس وتستتير به الإنسانية على اختلاف أمصارها وعصورها، إذ لا يوجد "دينا سماويا من الأديان، ولا نظاما من الأنظمة فتح للإنسان مغاليق المدنية والحضارة وبصره طريق العلم والمعرفة، وعرفه حقائق الكون والحياة، كالذي فعلته الشريعة الإسلامية الغراء."²

فالحضارة الإسلامية هي حضارة الإنسانية التي تدين دين الإسلام الذي اختاره الله سبحانه وتعالى شرعة ومنهاجا لعباده، يقول الله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)³

بالإضافة إلى ذلك فالإسلام الذي جاء للإنسانية جمعاء، عبر العالم وأثار دياجير الظلام، وأزال آثار الوثنية الجاهلية بلسان العروبة، يقول الله تعالى: (وَأَنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)⁴.

ولهذا كان لزاما على جميع الأجناس الإنسانية التي دخلت دين الإسلام أن تتعلم لغته العربية، ومثلما أحبت الإنسانية القرآن الكريم أحبت أيضا عروبه، حيث افتخر جميعهم "بالعروبة القرآنية المهدية حبا وإيمانا، وصنعوا جميعا حضارة الإسلام تحت راية عروبة القرآن لا عروبة أبي جهل."⁵

وقبل أن نبين دور العربية القرآنية وبلاغتها في صناعة الحضارة العربية الإسلامية لا بد من تقديم مفهوم عن الحضارة العربية الإسلامية، هذا المصطلح الذي كثيرا ما تردد على صفحات بحثنا.

1 سورة فصلت: الآية 42.

2 عبد الله ناصح علوان: "الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية"، دب ن، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، دط، دت، ص 7.

3 سورة آل عمران: الآية 19.

4 سورة الشعراء: الآية 192-195.

5 عبد الحليم عويس: "إنسانيات الإنسان مبادئ شرعية... وتجارب واقعية"، الرياض، مكتبة العبيكان، ط1، 1427هـ-2006م، ص74.

أ- مفهوم الحضارة العربية الإسلامية

تسعى الأمم والمجتمعات البشرية منذ القدم إلى إعطاء صورة حضارية عن مجتمعاتها، والأمة العربية الإسلامية واحدة من الأمم التي سعت إلى ذلك، وبلغت درجة عالية من التّحضر، حتى ذاع صيت حضارتها مشارق الأرض ومغاربها.

فقد تأسست الحضارة العربية الإسلامية على خلفية دينية روحية، إذ من خصائص هذا الدين الإسلامي الذي بعث به خاتم الأنبياء محمد -صلى الله عليه وسلم- أنه يحتوي على جميع مقومات التّحضر والتّقدم والرّقي الذي يمكن للأمة العربية الإسلامية أن تشيد به على الأرض حضارة إنسانية وتقوم بمهمتها المنوطة بها في الشّهادة الحضارية على الأمم، يقول الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)¹.

وبناء على هذا سنتعرف أولاً على مفهوم الحضارة باعتبار الفردية في اللغة والاصطلاح، ثم باعتبارها مركبا إضافيا للعربية والإسلام.

1- الحضارة لغة: من التعريف اللغوي للحضارة ما ذهب إليه ابن منظور إلى القول بأنّها من الفعل حضر على وزن فعل، والحضور نقيض المغيب والغيبة، والحاضر: الحي العظيم، والقوم إذا حضروا الدار. وأيضا: حضر يحضر حضورا وحضارة، والحضر: خلاف البدو، والحضارة: الإقامة في الحضر على خلاف الإقامة في البادية.²

يستنتج من هذا أنّ المفهوم اللغوي للحضارة حسب رأي ابن منظور ذو وجهين:
* الحضور بمعنى الشّهود وهو نقيض المغيب أو الغياب، وكثيرا ما تردد هذا المعنى في القرآن الكريم في استعماله لمادة حضر³، من ذلك قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)⁴، أي إذا أتته وشهدها.
* الحضارة بمعنى التّقدم والرّقي بخلاف البداوة التي تعتمد على بساطة العيش.

¹ سورة البقرة: الآية 143.

² ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 2، ص 103.

³ ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص 122.

⁴ سورة البقرة: الآية 180.

2- الحضارة اصطلاحاً: لم يتفق الباحثون في التاريخ والاجتماع والفكر الحضاري على تعريف جامع

مانع للحضارة، وإنما اختلفت تعريفاتهم تبعاً لاختلاف عقائدهم ومذاهبهم.¹ ومع هذا الاختلاف يرى الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري أنّ التعريف الجامع المانع لمصطلح الحضارة: "هو أنها تعبير عن منظومة العقائد والقيم والمبادئ، وجماع النشاط البشري في شتى حقول الفكر والعلوم والآداب والفنون جميعاً، لافرق بين فن وآخر، وما يتولد عن ذلك من ميول ومشارب وأذواق تصوغ نمط السلوك، وأسلوب الحياة، ومنهجاً للتفكير، ومثالاً يحتذى ويقتدى به، ويسعى إليه."² مما يلاحظ على هذا القول أنّ الحضارة مصطلح شامل لهوية وخصوصية الأمم والمجتمعات الإنسانية، وعليه فالحضارة هي بطاقة تعريفية للمجتمع، أو هي مرآة تعكس صورته، ومن هذا الرأي كان لكلّ حضارة خصوصيتها التي تنفرد بها عن غيرها من الحضارة الأخرى.

3- الحضارة في المفهوم الإسلامي: هي مجموعة القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة، والخصائص

الإنسانية العليا التي ينفرد بها الإنسان عن الحيوان، وتكون دافعا له إلى تسخير ما خلق الله فيما أمر به، لأنّ إنسانية الإنسان هي قيمته العليا الدافعة وقانونه في نفسه ومجتمعه، فيجب أن تكون موضع النظر والاعتبار وتصرفه في المادة التي هي من نعم الله يجب أن يكون على شكل يحقق الإفادة والتّفع والهداية والشكر لوأهب هذا الفضل والإحسان، عندئذ يكون الإنسان متحضراً راقياً مشيداً لصرح من الاستقرار والسعادة والتقدم."³

فالحضارة في المفهوم الإسلامي ما هي "إلا ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة"⁴، والسعي إلى إعمار الأرض وتحقيق البشر لمبدأ الاستخلاف، يقول الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...)⁵

¹ ينظر: عبد العزيز بن عثمان التويجري: "خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل"، الرباط، منشورات المنظمة للتربية والعلوم والثقافة، ط2، 1436هـ-2015م، ص11.

² المرجع نفسه: ص11.

³ توفيق يوسف الواعي: "الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية"، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، ط2، 1425هـ-2004م، ص49-50.

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي: "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن"، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط3، 1998م، ص19.

⁵ سورة البقرة: الآية30.

ويقول أيضا عز وجل: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ)¹، والاستعمار معناه الاستخلاف والتّمكين الحضاري، وهذا ما فقّهه الجيل الأول من المسلمين بقيادة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، فأشادوا على الأرض حضارة عُرفت بالحضارة العربية الإسلامية.

وبناء على هذا فالحضارة العربية الإسلامية هي نتاج لتفاعل ثقافات الشعوب التي دخلت في الإسلام، سواء أكان ذلك إيمانا وتصديقا واعتقادا، أم انتماء وولاء وانتسابا، وهي خلاصة لتلاقح الثقافات والحضارات التي كانت قائمة في المناطق التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، ولانصهارها في بوتقة المبادئ والقيم والمثل التي جاء بها الإسلام هداية للناس كافة.²

كما يمكن القول: بأنّ الحضارة العربية الإسلامية هي العطاء والغطاء، عطاء الأمة العربية الإسلامية عبر العصور المتتالية في مجالات العلوم والآداب والفنون، وغطاؤها هو القرآن الكريم الذي يحفظ لها هويتها ويصون ذاتيتها، ويحمي قيمها، ويضمن استمرارها في التّجديد والإبداع، ويقي كيانها من الضياع.³ وما يستخلص من كلّ هذا هو أنّ الحضارة العربية الإسلامية لها ميزتها التي تفرّدت بها، وأكسبتها خصوصية بين الحضارات الأخرى، وهي أنّها حضارة القرآن الكريم.

ب- عربية القرآن الكريم ومدى مساهمتها في التفاعل الحضاري بين الأمم

إنّ الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة الإنسان العربي المسلم التي انطلقت بواعثها من شبه الجزيرة العربية لتصل إلى قصور هرقل وكسرى وتوحد الإنسانية تحت راية التّوحيد والعروبة، حيث كان لزاما على من اعتنق الإسلام أن يتقن اللغة العربية ويتعلم فصاحتها وبلاغتها، وذلك حتى يفهم آيات الذكر الحكيم التي أنزلت باللسان العربي الفصيح، يقول الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)⁴

وهذا ما كان بالفعل إذ التاريخ الأدبي يشهد على أنّ كثيرا من العجم الذين دخلوا الإسلام تعلموا اللغة العربية وبرعوا في إدراك بياها، وتفقهوا في إعجاز القرآن على ذلك الوجه، حتى "أصبحت العروبة عندهم روحا وفكرا وولاء مطلقا وجزء من العقيدة."⁵

¹سورة هود: الآية 61

²عبد العزيز عثمان التويجري: "خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل"، مرجع سابق، ص14.

³ينظر: المرجع نفسه: ص7.

⁴سورة يوسف: الآية2.

⁵عبد الحليم عويس: "إنسانيات الإسلام"، مرجع سابق، ص74.

فالإسلام صهر جمع الثقافات الإنسانية في بوتقة العروبة الإسلامية، هذه الثقافات التي تفاعلت فيما بينها فنتج عنها نتاج حضاري تمثل في الحضارة العربية الإسلامية.

إذن: فالحضارة العربية الإسلامية هي نتاج تفاعل حضاري دعا إليه الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ¹)

ولعل ما يجب علينا الإشارة إليه في هذا المقام هو الوقوف على مفهوم التفاعل الحضاري.

1- مفهوم التفاعل الحضاري: التفاعل الحضاري مصطلح حديث عرفته الساحة الفكرية الحضارية في الآونة الآخرة، وحبذنا أن نقتصر على مفهومه من المنظور الإسلامي فقط، وذلك حتى لا نشعب في موضوعه ونكتفي بماله صلة، بموضوع البحث، "فالتفاعل إذا في المنظور الإسلامي، هو عملية تدافع لا تنازع، وتجاوز لا تناحر، والتفاعل حياة، والتنازع فناء، والتفاعل الحضاري عندنا حوار دائم مطرد، ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للإنسانية قاطبة، ولا يسعى في الأرض بفساد."²

يفهم من هذا أنّ التفاعل الحضاري يستند في مفهوم الفكر الإنساني الحضاري إلى سنة التدافع الحضاري، التي تجلت في الخطاب القرآني في قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ³) .

وعليه فالتفاعل الحضاري هو عكس الصّراع الحضاري⁴، وهذا ما مثلته حضارة القرآن الكريم من دعوة إلى التعارف والتّحاور، عكس ما تمثله الحضارة الغربية اليوم من عنصرية وتفرقة البشر.

فالتعدد والاختلاف سنة الله في خلقه، وبدلاً من الصّراع والتفرقة بين فرقاء التعددية زكى الإسلام سبيل التدافع الحضاري، يقول الله تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ⁵) .

1 سورة الحجرات: الآية 13.

2 عبد العزيز بن عثمان التويجري: "الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي"، الرياض، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط2، 1436هـ-2015م، ص28.

3 سورة البقرة: الآية 251.

4 ينظر: عبد العزيز التويجري: "المرجع السابق"، ص28.

5 سورة فصلت: الآية 34.

ومن هنا نفهم بأنّ التدافع قيمة من قيم الحضارة العربية الإسلامية.¹

فالإسلام لم ينف مبدأ الانفتاح عن الآخر، ولم يمنع الآخر الاطلاع على الموروث الإسلامي، بل بالعكس دعا المسلمين إلى ذلك، يقول الله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)²، لأنه رسالة للعالمين عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم، يقول الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)³ إذن: فالتفاعل الحضاري هو مقوم من مقومات رسالة القرآن الكريم التي أسست للحضارة العربية الإسلامية.

2- أهمية التفاعل الحضاري بين الأمم: أكيد أنّ دعوة القرآن الكريم إلى التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب كان عن مقصد وهدف اقتضاه الشارع سبحانه وتعالى من ذلك، وبمكنا تعداد بعضها فيما يلي:

- الاطلاع على ثقافات الشعوب، وتبادل المعارف والعلوم النافعة فيما بينهم .
- تنمية روح الصداقة والتعاون والتضامن بين الشعوب، يقول الله تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)⁴.
- إزالة الفوارق والتّمييز العنصري بين البشر، يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)⁵
- السّعي إلى تحقيق سعادة الإنسانية وعمارة الأرض بالخير والمحبة، يقول الله تعالى: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)⁶

وهكذا يفتح التفاعل الحضاري "المجال واسعا أمام تفاهم المجتمعات ويؤدي إلى تقارب

1 ينظر: نادية مصطفى، سيف عبد الفتاح: "التدافع الحضاري"، موسوعة الحضارة الإسلامية، إشراف: محمد حمدي زقروق، القاهرة، المجلد الأعلى للشؤون الإسلامية، 1424هـ-2005م، ع4، ص439.

2 سورة الممتحنة: الآية 8.

3 سورة الأنبياء: الآية 107.

4 سورة المائدة: الآية 2.

5 سورة الحجرات: الآية 13.

6 سورة هود: الآية 61.

الثقافات، ويساهم في تلاقح الحضارات"¹، وهذا ما قامت على أساسه الحضارة العربية الإسلامية، التي أرست معالمها على مبدأ ثقافة الحوار والتفاعل مع الحضارات، فاقترنت "من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت بها، وصهرت حصيلة هذا كله في بوتقة التفاعل الحضاري، فكانت حضارة الإسلام ولا تزال مثالا لنادرا للتفاعل بين الحضارات."²

3- اللغة العربية مقوم من مقومات الحضارة العربية الإسلامية: تمثل اللغة العربية كيان الأمة العربية الإسلامية، وجوهر خصوصيتها الفكرية والحضارية، هذه اللغة التي اصطفها الله سبحانه وتعالى، لتنقل رسالة الإسلام إلى شعوب الأرض على اختلاف مشاربها.

فاللغة العربية هي لغة حضارة، وأي حضارة، حضارة القرآن الكريم، ومما لا شك فيه أن هذا التكريم الرباني للغة العربية جعل منها "لغة متفردة من بين لغات العالم، فلا تدانيها لغة أخرى في أصالتها ومرونتها وقدرتها وثرائها."³

فإن اللغة العربية تمتاز عن سائر اللغات بمكانة فريدة ومنزلة سامية، فهي لغة القرآن الكريم، ولسان الحضارة العربية الإسلامية، التي توارت على حوضها أمم كثيرة نهلّت من عذب فرائدها، واستلذت من رحيق بيانها الإلهي وبلاغتها الإعجازية المقدسة.

"فاللغة العربية هي العروة الوثقى التي تجمع بين الشعوب العربية والشعوب الإسلامية التي شاركت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية."⁴

وإنّ هذه المعاني السامية التي انفردت بها اللغة العربية، يعود فضلها إلى القرآن الكريم، الذي جعل منها لغة إعجازية ترقى إلى درجة الكمال الإلهي الذي يعجز عن مجاراته الثقلين من الإنس والجن.⁵

1 عبد العزيز التويجري: "الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي"، مرجع سابق، ص 26.

2 المرجع نفسه، ص 27.

3 عبد الحليم عويس: "الحضارة الإسلامية إبداع وآفاق المستقبل"، مرجع سابق، ص 51.

4 عبد العزيز بن عثمان التويجري: "اللغة العربية والعولمة"، د ب ن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - ط، 1429هـ - 2008م، ص 31.

5 ينظر: مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص 81.

ج- الدور البلاغي في الحضارة العربية الإسلامية:

إنّ خير ما بذلت فيه الجهود وصرفت له الهمم، وعكفت على خدمته النفوس، كتاب الله عز وجل لما فيه من درر كامنة وعجائب إعجازية زاخرة، يقول الله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا).¹

وقد كان لعلماء العربية وعلى رأسهم البلاغيون الحظ الأكبر في التبحر في كتاب الله تعالى، حيث كان لنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين أثر كبير على العربية وأهلها، إذ أصبحت منذ ذلك الحين لغة لها مكانتها، ولغة فكر حضاري وبلاغي أضاء المعمورة بنور الإعجاز القرآني.

فمن المعلوم أنّ القرآن الكريم هو "كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة، ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير".²

ولما كان القرآن الكريم معجزة بلاغية أدهشت أرباب البلاغة، وأساطين البيان العربي اتجهت عناية البلاغيين إلى البحث في ذلك النبع البلاغي القرآني الذي استهوى القلوب وأسر الألباب والعقول، ومحاولين بذلك إثبات تلك الخصوصية البلاغية التي تفرد بها كتاب الله تعالى عن غيره من بلاغة العالمين، قال الله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)³

ولعل تلك المسيرة التاريخية التي خاضها علماء البلاغة والإعجاز لأكثر دليل على الجهود البلاغية التي حفلت بها الحضارة العربية الإسلامية على مرّ قرونها إذ بفضل البحث في القرآن الكريم وبلاغته الإعجازية ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية وأينعت ثمارها في بقاع الأرض المختلفة، فهي لم تقتصر على البيئة العربية بل تعدتها إلى خراسان وجرجان وحوارزم⁴، وإن كان التاريخ الحضاري يشيد بعلوم العرب المسلمين، وهندستهم وطبهم... إلخ فإنّ مع هذه العلوم الكونية والعلمية، كانت أيضا هناك علوم قرآنية ولغوية وأدبية، أجّلها علم

¹ سورة الكهف: الآية 109.

² عائشة عبد الرحمن: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، مرجع سابق، ج1، ص13.

³ سورة الإسراء: الآية 88.

⁴ خراسان وجرجان وحوارزم مدن فارسية دخلها الإسلام عن طريق الفتوحات الإسلامية.

الإعجاز والبلاغة القرآنية، هذا الأخير الذي تفردت به الحضارة العربية عن سواها من حضارات الأمم والشعوب، والذي تضافرت على البحث فيه نخبة من علماء المسلمين على اختلاف مشاربهم. والتاريخ العربي الإسلامي لا ينكر فضل الآخر في هذا الجانب، وخصوصا الفرس، فقد كان الفرس من موالي العرب وأكثرهم اختلاطا بهم، دخلوا الإسلام، وأجادوا لغته العربية، وتفقهوا في القرآن الكريم واطلعوا على أسرار بلاغته الإعجازية، وكل ذلك "بمقياس الإسلام إذ العروبة القرآنية هي عروبة الفكر واللسان والعقل والوجدان، وأصبحت أعداد هؤلاء المتعربين في مجالات الإبداع أكثر من العرب"¹، وجهود الجرجاني والزمخشري والسكاكي أكبر دليل على ما قدمه الفرس من خدمة للقرآن الكريم وبلاغته.

1- البلاغة القرآنية مصدر من مصادر الحضارة العربية الإسلامية: من المعلوم أنّ القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام والمسلمين، شرّع الله فيه خير الدنيا والآخرة، وبثّ فيه من مكانم الإعجاز، ومحاسن الأسرار البلاغية ما تعجز عن تأليفه العقول البشرية، يقول الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)².

وإنّ تفرد القرآن الكريم بهذه الخاصية البلاغية، جعل الأمة العربية الإسلامية تتفرد هي بدورها بهذا العلم القرآني الذي خصها الله به عن العالمين، وأكسبها خصوصية متفردة عن الأمم والملل. وبما أنّ القرآن الكريم يمثل المصدر الأساسي من مصادر الحضارة العربية الإسلامية³، فإن بلاغته أيضا تعد أيضا مصدرا من مصادرها، والتّفقه فيها أمر ضروري للحفاظ على الخصوصية العربية الإسلامية.

2 جهود العلماء المسلمين في العناية بمباحث البلاغة القرآنية: مثلما اعتنى المسلمون بالقرآن الكريم، عبادة وتلاوة وحفظا وتدوينا، اعتنوا كذلك بالبحث والتدبر في فحوى سوره وآياته، فأقاموا حوله "سورا من العلوم التي تعيش عليه، وتستمد وجودها منه، وتضع مناهجها، وموضوع بحثها من بعد من أبعاده، وجانب من جوانبه."⁴

¹ عبد الحليم عويس: "الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل"، مرجع سابق، ص56.

² سورة الإسراء: الآية 88.

³ ينظر: عبد الحليم عويس: "المرجع السابق"، ص25.

⁴ المرجع نفسه: ص26.

ويعد علم البلاغة واحدا من أجلّ وأشرف العلوم القرآنية التي ولى لها المسلمون العناية الفائقة، وذلك لما لها من صلة وطيدة بكتاب الله تعالى الذي جاء كمعجزة بلاغية تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد كان الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم الدافع الأساسي الذي أثار همم المسلمين ودعاهم إلى البحث في معرفة أسرار تلك البلاغة الإلهية المقدسة التي أعجزت البشر عن مجاراتها.¹ ولعل تلك الرحلة البلاغية التي عاشها البلاغيون وعلماء الإعجاز مع القرآن الكريم وبلاغته منذ مطلع القرن الثاني الهجري إلى العصر الحديث والمعاصر لدليل كاف على أهمية علم البلاغة القرآنية في الفكر العربي الإسلامي.

وكنا قد عرضنا لتلك الجهود الجبارة في الفصل الأول من البحث²، لذلك لا داعي لإعادة ذلك، ونكتفي بالقول بأنه بالفعل كان للبلاغة القرآنية دور مهم في الحضارة العربية الإسلامية، وعناية المسلمين بها كانت خدمة عظيمة لكتاب الله تعالى، وإثباتا للخصوصية العربية الإسلامية.

1 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص34.

2 ينظر: الإعجاز القرآني عبر مسيرته التاريخية في الفصل الأول من البحث.

ثالثاً: التفكير البلاغي فريضة إسلامية في الحضارة العربية الإسلامية.

نشأت الحضارة العربية الإسلامية على دعائم القرآن الكريم، ولا يمكن لأي أحد أن ينكر مدى تأثير البيان الإلهي المقدس في النفوس العربية.

إذ بفضل القرآن الكريم صنع العرب حضارة من العدم، حضارة بدأت من واد غير ذي زرع لتعبر العالم وتكون حضارة إنسانية على اختلاف مشاربها وأجناسها.

فقد أحيا الله تعالى ببيانه الإلهي المعجز إنسانية الإنسان، قال الله تعالى: (أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...)¹

تلك الإنسانية التي أدركت مهمتها، وفقهت عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها فراحت تشيد على الأرض حضارة ركعت لها الأمم لقرون طويلة.

إذن: فقصة الحضارة العربية الإسلامية بدأت منذ نزول أولى آيات الذكر الحكيم، ولن تنتهي هذه القصة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وإن أسدل الستار على بعض مشاهدتها في عصرنا الزاهر، فهذا لا يعني أن حضارتنا انتهت وإنما لا تزال هناك نفوسا عاكفة على خدمة كتاب الله تعالى، همها الوحيد والأكبر هو النهوض بالأمة العربية الإسلامية، فعن مغيرة بن شعبه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)².

وإنّ البيان الإلهي الذي صنع به المسلمون حضارة الأمم هو نفسه الذي ستصنع به حضارة الغد. وقد سخر الله سبحانه وتعالى لكتابه الكريم عقولا بلاغية استهوت ببيانه، وعكفت على استنباط الدرر الإعجازية الكامنة فيه، ولعل تلك الرحلة القرآنية التي خاض غمارها علماء الإعجاز على مر العصور واختلاف الأزمان لأكبر دليل على الجهود المبذولة في خدمة البلاغة القرآنية.

وبناء على هذا فالأمة العربية الإسلامية لن تستعيد دورها الحضاري إلا إذا أصلحت تفكيرها البلاغي، وعادت إلى بيانها الخالد الذي تفردت به عن غيرها من الأمم.

¹ سورة الأنعام: الآية 122.

² مسلم بن الحجاج النيسابوري: "صحيح مسلم"، مصدر سابق، رقم الحديث 370، ص 116.

ولعل الدافع إلى بحثنا في هذا الموضوع هو ما تعانیه بلاغتنا القرآنية من جمود وضياع، أو بالأحرى ما يعانیه كتابنا الكريم من هجر كلي تلاوة وتدبرا، وصدق الله العظيم حين قال على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)¹

لذا سنحاول أن نقف في هذا الجزء من البحث لتكلم على ضرورة العودة إلى التفكير البلاغي في كتاب الله تعالى لنصنع حضارتنا الإسلامية من جديد، ويصدق فينا وعد الحق سبحانه وتعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...)²

أ- عناصر التفكير البلاغي في القرآن الكريم:

من المعلوم أن نشأة أي علم يكون عن مقصد وغرض، وخصوصا إذا ارتبط هذا العلم بكتاب الله تعالى، وبطبيعة الحال علم البلاغة القرآنية ليس بدعا من هذه العلوم، فهو علم نشأ للبحث عن أسرار الإعجاز التي بثها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، ومحاولة فهم تلك البلاغة المتفردة التي أعجزت الثقلين بسحرها وجمالها، كما أنه لا يتأسس علم من العلوم إلا على ركائز ودعائم تقيم أصوله وتجعل منه علما قائما بذاته.

ونظرا لأهمية علم البلاغة وشرف منزلته بين الله سبحانه وتعالى عناصر البلاغة القرآنية التي اقتصت بها الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، إذ يقول عز وجل: (الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)³.

وبناء على هذه الآية الكريمة تتبين لنا عناصر البلاغة القرآنية أو عناصر البيان القرآني المعجز⁴. وهي:

1- الإنسان: خلق الله الإنسان وكرمه عن سائر مخلوقاته بنعم لا تحصى ولا تعد، يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)⁵

1 سورة الفرقان: الآية 30.

2 سورة آل عمران: الآية 110.

3 سورة الرحمن: الآية 1-4.

4 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 119.

5 سورة الإسراء: الآية 70.

ومما لا شك فيه أنّ من أحسن نعم الله على الإنسان أن خصه بنعمة النطق والعقل، يقول سبحانه وتعالى: (الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ¹، والبيان المقصود في الآية الكرمة هو النطق واللغة والكلام.²

وأكد أنّ وراء هذا الامتياز والخصوصية التي اختص بها الإنسان، مقصد رباني، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، وإتّما خلقه من أجل مهمة ومسؤولية عظيمة طأطأت الجبال رؤوسها فراراً من حملها، وتناءت استحياء من ثقلها، ورجفت السماوات والأرض من هولها، يقول تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)³ هذه الأمانة التي تمثلت في خلافة الله تعالى في أرضه وعمارته⁴، قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)⁵، ويقول أيضاً جلّ في علاه: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)⁶

والم تأمل في آيات سورة الرحمن السالفة يتبين له ذلك المنهج التنسيقي الذي اتبعه الله سبحانه وتعالى في عرضه للنعم التي امتن بها على الإنسان ليحقق مهمته في الخلافة وعمارّة الأرض.

1- الخلق ← 2- تعليم القرآن ← 3- تعليم البيان = تحقيق الخلافة في الأرض.

يستنتج من هذا أنّ خلق الله للإنسان كان من أجل مهمة عظيمة، وهي خلافته في أرضه وعمارته، ولا يتحقق هذا الدور الرسالي للإنسان إلاّ بعلمين هما:

- علم القرآن

- علم البيان

1 سورة الرحمن: الآية 1-4.

2 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص 119، وكذلك: ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج 7، ص 489.

3 سورة الأحزاب: الآية 72.

4 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص 119.

5 سورة البقرة: الآية 30.

6 سورة هود: الآية 61.

ولعل لهذا السبب اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن تكون رسالته الخاتمة رسالة بيانية ناطقة، بل بعض المفسرين ذهبوا إلى القول بأنّ قوله تعالى: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)¹، يقصد بالإنسان هنا النبي صلى الله عليه وسلم، وعلمه البيان: أي علمه القرآن الذي فيه بيان كل شيء.²

إذن: فالنبي صلى الله عليه وسلم كان المتلقي الأول لهذا البيان الإلهي وبالتالي كان المسؤول الأول على تدبره وفهم تلك البلاغة القرآنية المعجزة التي كانت حجته في إعجاز قومه وإثبات نبوته، "ولعل في ابتداء نزول القرآن بقوله تعالى: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)³... إشارة إلى الطبيعة الإنسانية البيانية للإسلام."⁴

وبالفعل قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم تلك البلاغة القرآنية وتذوق سحر بيانها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت بجوامع الكلم...)⁵

فحديث النبي صلى الله عليه وسلم لدليل على إدراكه لمعجزته البلاغية التي خصه الله بها عن سواه من الرسل والأنبياء، والمطلع على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم سيلمح منذ الوهلة الأولى بأنها أتت في غاية الفصاحة والبلاغة، إذ لولا تفقه النبي صلى الله عليه وسلم وتعلمه للبيان لما جاءت أحاديثه الشريفة بهذه الدرجة العالية من البلاغة، يقول مصطفى صادق الرافعي عن البلاغة النبوية بأنها البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة.⁶

وبناء على هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم كان ذوقا للبلاغة القرآنية، ومطلعا على أسرار البيان الإلهي المقدس الذي كرمه الله به عن سائر العالمين، ونظرا لهذه البلاغة التي كان يتمتع بها صلى الله عليه وسلم وامتلاكه لحس بياني نجده صلى الله عليه وسلم يصدر أحكاما نقدية في البيان والبلاغة، فعن قبيصة قال

1 سورة الرحمن: الآية 3-4.

2 عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص 112.

3 سورة العلق: الآية 1-5.

4 صلاح عبد الفتاح الخالدي: "المرجع السابق"، ص 119.

5 محمد بن اسماعيل البخاري: "صحيح البخاري"، مصدر سابق، ج 3، رقم الحديث 7273، ص 421.

6 مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مرجع سابق، ص 279.

حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم قال: سمعت ابن عمر يقول: جاء رجلان من المشرق فخطبا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحر)¹.

يستنتج من هذا بأن تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان بتعليمه البيان لم يكن عبثاً، وإنما كان من وراءه مقصد وغاية، ولهذا العلم به والتفقه في أسراره واجب وفرض ديني.

2- البيان: امتن الله على الإنسان بأن علمه البيان، وخص لذلك كل أمة من بني آدم بلغة معينة، ولكنه اختار سبحانه وتعالى من بين جميع لغات البشر، لغة العرب، لتكون لغة لآخر كتبه السماوية، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)²

ومن المعروف عن العرب بلاغتهم وبراعتهم وحسن بياهم، لذا عندما أذن الله سبحانه وتعالى لآخر رسالاته بالنزول، اقتضى أن تكون هذه الرسالة رسالة لغوية بيانية من نفس جنس ما برع فيه أولئك العرب، لكن على درجة عالية من السمو البياني والإعجاز البلاغي، قال الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)³

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم نزل في بداية الأمر تحدياً لهؤلاء العرب، ومعجزة إلهية عن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لكن هناك سر إلهي وراء اختيار لغة العرب لنزول القرآن بها، هذا السر الإلهي المتمثل في مسؤولية الاستخلاف، وشرف الشهادة الحضارية الذي شرف الله به الأمة العربية الإسلامية، قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)⁴ إذن: فمنذ نزول القرآن الكريم أصبح اللغة العربية فضيلة بيانية إعجازية امتازت بها على سائر اللغات الأخرى⁵، بالإضافة إلى أنها نالت شرف الحفظ والخلود لحفظ هذا القرآن على مدى الدهور، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)⁶

1 محمد بن اسماعيل البخاري: "المصدر السابق، ج 2، رقم الحديث 5146، ص 573.

2 سورة يوسف: الآية 2.

3 سورة الإسراء: الآية 88.

4 سورة البقرة: الآية 143.

5 ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، مرجع سابق، ص 120.

6 سورة الحجر: الآية 9.

إنّ هذه المكانة التي منحها الله تعالى للأمة العربية الإسلامية لمكانة عالية حقاً، وهذا الشرف الذي شرف به سبحانه وتعالى لغتها لشرف عظيم، بيد أنّ ذلك لا يقوم على الإدعاء بل على المعرفة والبلاغ لكتاب الله تعالى.

3- المعرفة: يعد القرآن الكريم الأساس الأول للمعرفة الإسلامية، وقد حث الله سبحانه وتعالى عباده على تدبر كتابه الكريم، وجاءت هذه الدعوة الربانية في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)¹

فتدبر القرآن الكريم، والتفكر في معاني سوره وآياته واجب ديني، وفرض من فروض الكفاية التي فرضها الله سبحانه وتعالى على علماء الأمة الإسلامية وسدنة عقيدتها، ولعل من أعلى مباحث التدبر قدرا في القرآن الكريم، وأعظمها شأننا بيان خصائصه التي كانت وحيا معجزا، والتي أتاحت لأرباب البيان استنباط علم البلاغة مأخوذ من سحر بيانه، وروعة إعجازه التي لم يعهدوا لها نظيرا.²

وعلى هذا الأساس ربط الله سبحانه وتعالى بين تعلم القرآن الكريم وتعلم بيانه، حيث يقول سبحانه وتعالى: (الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)³.

إذن: فالمعرفة القرآنية معرفة بيانية بالدرجة الأولى، يقول أحد الباحثين: "نستطيع دراسة القرآن الكريم من زوايا مختلفة ولكنها جميعا يمكن أن تنتهي إلى قطبين أساسيين: اللغة والفكر، فالقرآن كتاب أدبي وعقدي في نفس الوقت، وبنفس الدرجة، فاعتباره كتابا أدبيا لغويا بلاغيا تتطلب دراسته دراية واسعة عميقة للغة العربية التي أنزل بها نصه الأصلي."⁴

يظهر من هذا أنّ أعلى درجات التدبر في القرآن الكريم هو الوقوف على أسرار إعجازه البياني، واستنباط جواهر تلك البلاغة الربانية.

وبما أنّ القرآن الكريم نزل في هؤلاء العرب ولبسأهم المبين، فأكيد أنّهم أول المعنيين بتدبر وفهم هذا الخطاب الإلهي، يقول الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)⁵، ويقول أيضا جل في علاه:

1 سورة ص: الآية 29.

2 ينظر: رجاء بنت محمد عودة: "الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم"، مرجع سابق، ص 12.

3 سورة الرحمن: الآية 1-4.

4 محمد بركات حمدي أبو علي: "الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية"، مرجع سابق، ص 9.

5 سورة يوسف: الآية 2.

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)¹، أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً جلياً، وبأفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها- يقصد اللغة العربية- وذلك حتى يفهمونه ويعلمون به أولئك العرب.²

وهذا ما فقهه الرعيل الأول بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم، فشيّدوا به حضارة عبرت التاريخ من بابه الواسع وغيرت مجرى الإنسانية وأخرجتها من دياجير الظلم والجهل إلى نور الهدى ونبراس الحق. وحتى تعود الأمة الإسلامية إلى عهدها الحضاري ما عليها إلا إصلاح مناهجها المعرفية والفكرية، وتحديد صلتها بالقرآن الكريم، وصياغة منهج جديد للتعامل معه وفق رؤية شاملة تقوم على فقه معرفي للنص القرآني بأبعاده الإعجازية البلاغية.

وعلى هذا الأساس لا بد من أبناء الأمة الإسلامية في عصرنا الزاهن، وخصوصاً الذين يحملون لواء الفكر البلاغي بصفة عامة والإعجازي بصفة خاصة أن يدركوا ضوابط التفكير البلاغي وشروطه في معرفة البيان القرآني.

ب- ضوابط التفكير البلاغي وشروطه في معرفة البيان القرآني:

يعد التفكير البلاغي فريضة إسلامية في الحضارة العربية الإسلامية، يقول أبو الهلال العسكري، "اعلم علمك الله الخير أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله عز وجل ثناؤه، علم البلاغة والفصاحة الذي يعرف به إعجاز كتاب الله."³

والتفكير البلاغي في الحضارة العربية الإسلامية هو تفكير يسعى إلى العرفان بخصوصيات البلاغة القرآنية ومدى تأثيرها في النفوس العربية التي رضخت رغم طول العناد واستكانت بعد معركة طويلة من التحدي والاستكبار.

وقد تحمل مسؤولية هذا التفكير نخبة من خيرة ما أنجبت الحضارة العربية الإسلامية من علماء أجلاء ومفكرون أفاضل، كان همهم الوحيد الكشف عن جلال الألوهية، وجمال الربوبية القائمة في معالم تلك البلاغة القرآنية الإعجازية.

¹ سورة الدخان: الآية 58.

² ينظر: ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج 7، ص 263.

³ أبو هلال العسكري: "الصناعتين"، مصدر سابق، ص 3

ولعل تلك الرحلة القرآنية التي سلكها علماء الإعجاز منذ القرن الثالث الهجري إلى مطلع القرن العشرين لأكبر دليل على الجهود الجبارة التي صرفت في خدمة بلاغة كتاب الله تعالى. غير أنه لا يخفى على أحد أنّ البحث في بلاغة القرآن الكريم أمر عظيم، فليس كل فقيه ببلاغة الناس يكون فقيها ببلاغة القرآن الكريم، وبالتالي يحتاج المفكر الباحث في بلاغة القرآن الكريم إلى ضوابط وشروط يحتكم إليها ومن ذلك ما يلي:

1- العلم بصفات الله تعالى: الأصل في البلاغة أنّها تراعي أحوال المتكلم، حيث إنّ الدرس البلاغي لا يكون بلاغيا إذا لم يتم التعرف على من تنسب إليه هذه البلاغة، فما بالك إذا كان هذا المتكلم هو ربّ العزة سبحانه وتعالى، ولعل القارئ للقرآن الكريم لا تغيب عنه تلك الصفات الحسنى التي عرف الله بها نفسه لعباده، من ذلك قوله في فاتحة كتابه الكريم: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَا لِكِ يَوْمَ الدِّينِ) ¹.

هكذا عرف الله سبحانه نفسه المنزهة لعباده بأنه: ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، والمتدبر في بلاغة النصوص القرآنية يجد ذلك الفيض من الرحمة الربانية الممزوجة بالمهابة والإجلال والرهبة. وعلى هذا الأساس لا يمكن للمتفقه في بلاغة القرآن أن يهمل معرفته بصفات الله عزّ وجل، لأنّ هذه الصفات الحسنى من شأنها أن تعين على فهم المعنى والمقصد القرآني.

2- العلم باللغة العربية ومراعاة خصائصها: من المعلوم أنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بعربية القرآن الكريم في عدة مواضع من كتابه الكريم ²، من ذلك قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) ³

فالقرآن الكريم -على رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن- "كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء" ⁴.

¹ سورة الفاتحة: الآية 1-4.

² حسب إحصائنا لمواضعها وجدناها وردت 11 مرة في القرآن الكريم.

³ سورة الشعراء: الآية 192-195.

⁴ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، مرجع سابق، ج1، ص13.

وعلى ضوء هذا لا بد للباحث في البلاغة القرآنية أن يكون مطلعاً على أسرار اللغة العربية متبحراً في علومها المختلفة من قواعد صرفية ونحوية... إلخ

3-مراعاة السياق المقامي والمقالى: سبق وأن تكلمنا فيما سلف عن مفهوم السياق بنوعيه -المقامي والمقالى- في القرآن الكريم.

حيث يعد السياق خاصية مهمة من خصائص الأسلوب القرآني، والتي يجب على الباحث في البلاغة القرآنية مراعاتها.

فالقرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة على النبي صلى الله عليه وسلم، بل نزل متفرقا منجما على مدار ثلاث عشرين سنة بدءاً بقوله تعالى: (: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)¹، وانتهاءً بقوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)²، وإن كان هناك خلاف في أول وآخر ما نزل من القرآن الكريم، وما ذكرناه كان على رأي الاعتبارات التي قدمها محمد الزرقاني في مناهل العرفان.³

وبناء على هذا الرأي- في أول وآخر ما نزل من القرآن الكريم- نلمح أمراً هاماً وهو أن مبدأ الوحي كان تعلم القراءة التي بها نبصر ونصل إلى المنتهى المقصود من القرآن الكريم، هو تقوى الله سبحانه وتعالى. وقد اتفق أغلب الدارسين والمفسرين لكتاب الله تعالى أن كل سورة على وجه العموم وكل آية على وجه الخصوص مناسبة لنزولها، وهذا ما يعرف في الدراسات القرآنية بأسباب النزول أو السياق المقامي، ويقصد "بسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال."⁴

وهذا ما حرص على معرفته علماء الإعجاز قديماً، حيث أنه من خلال معرفة أسباب النزول نستطيع أن نقف على معاني القرآن الكريم، يقول أبو إسحاق الشاطبي: "معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن والدليل على ذلك أمران: أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة

¹ سورة العلق: الآية 1.

² سورة البقرة: الآية 281.

³ ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ج1، ص77-80.

⁴ المرجع نفسه: ص89.

مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال المخاطب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع، إذ الكلام واحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك... ولا يدل على معناها المراد إلاّ الأمور الخارجية، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كلُّ حال ينقل، ولا كلُّ قرينة تقتزن بنفس الكلام المقرون، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب ولا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال، ونشأ عن هذا الوجه الوجه الثاني، وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع.¹

إذن فمراعاة أسباب النزول وسياقات المقام شرط ضروري في فهم بلاغة كتاب الله تعالى. غير أنّ هذا لا يكفي بل لا بد من مراعاة العلم بسياق المقال والوقوف على ذلك التناسق والتناسب بين الآيات والسور القرآنية مما جعل القرآن الكريم عقدا متناسقا لأجزاء، فعلى الرغم من نزوله منجما عبر فترات زمنية مفرقة، إلاّ أننا لم نلمح فيه اضطرابا ولا خللا ولا انقطاعا وانفصالا بين أجزائه ووحداته، وهذا ما أعجز أساطين البلاغة العربية.

وقد اعتنى علماؤنا الكرام بالسياق المقالي للقرآن الكريم وأقاموا على أساسه علم المناسبة، وسبق وأن تكلمنا فيما سلف عن علم المناسبة في القرآن الكريم، وبيّنا مفهومه ومكانته ودوره في فهم معاني القرآن الكريم، وعلى هذا لا داعي لإعادة الحديث عن ذلك، وسنكتفي بعرض ما قاله الإمام الزركشي عن فضل هذا العلم، حيث قال: "واعلم أنّ المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول... وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء."²

وهذا ما يجب على المتدبر في بلاغة القرآن مراعاته.

1 أبو إسحاق الشاطبي: "الموافقات"، تقدمت: فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط مصه وعلق عليه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، المملكة العربية السعودية، دار عفان للنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ-1997م، ج4، ص146.

2 بدر الدين الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص35-36.

4- العلم بمقاصد القرآن الكريم: وراء كل كلام مقاصدا وأغراضا يرمي إليها المتكلم ويسعى إلى تحقيقها، وكلام الله أصدق ما قيل، يقول الله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)¹. ففيه من المقاصد والأغراض ما لا تحصى الأقسام وتدرجه الألباب.

فالقرآن الكريم هو كلام الله الكامل الجامع النافع لخير الدنيا والآخرة، وقد أمر الله سبحانه عباده بالتدبر قصد الوقوف على "الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقا لمصالح العباد."² حيث إن كل آية في القرآن الكريم، بل كل كلمة فيه من ورائها مقصد إلهي وسر رباني، ومهمة الباحث في بلاغة رب البرية هو الكشف عن تلك المعاني القرآنية التي سيقف من خلالها على فوائد جمّة، وفرائد مشوقة، لم ترق إليها آية بلاغة من بلاغات البشر.

5- تكامل المعارف العربية والإسلامية: يجب على المفكر البلاغي المطلع على أسرار البيان القرآني أن يكون ملما بكل ما يمد إلى كتاب الله بصلة، بحيث تكون له رؤية شاملة عن العلوم والمعارف القرآنية كعلم التفسير، وعلوم القراءات القرآنية وغيرها من المعارف الأخرى، بالإضافة إلى الإحاطة الكلية بالنصوص القرآنية جملة وتفصيلا، يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)³

مما يستوجب الوعي يتكامل النص القرآني وكأنه كتلة واحدة متكاملة الأجزاء والمعارف. وعلى العموم فهذه جملة الضوابط التي يجب على المفكر البلاغي أن يلتزمها في الإحاطة بعلم البلاغة القرآنية، والكشف عن قدسية البيان القرآني ومقصديته في إصلاح البشر ومواكبة مصالحهم على اختلاف الأمصار والأزمان.

ج- تجديد التفكير البلاغي واجب ديني ومقصد شرعي:

إنّ الزمان لم يعقم، وإنّ الحياة لا تزال خصبة مثمرة، وإنّ العلم لم ينقطع عطاؤه بعد، وما يزال في أمة الإسلام خير كثير، إذ لا تزال هناك نخبة من العلماء والأدباء والبلاغيين يستطيعون التجديد

1 سورة النساء: الآية 122.

2 عبد الكريم حامدي: "مقاصد القرآن من تشريع الأحكام"، مرجع سابق، ص 29.

3 سورة الكهف: الآية 54.

والتطوير، والتّهوض بالإسلام من جديد، وذلك بترسيخ موروثه الحضاري وإثبات هويته اللغوية، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها).¹ ف عوامل التّجديد وعناوين التّهوض باقية في الأمة العربية الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإن تعطلت القافلة الإسلامية وتأخرت عن الرّكب الحضاري، فحتمًا ستأتي يقظة صحوة الخير المرجوة، ويشرع العامة والخاصة بنفض غبار الكسل عنهم، وتحريك همّهم في استئناف المشروع العتيق²، مشروع الشهود الحضاري، "فالمستقبل لنا لا علينا وأن حكمنا الذي انهار سيقوم مرة أخرى شامخًا عزيزًا"³، وذلك وعد الحق الصّمد الذي يقول في محكم تنزيله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)⁴

بيد أنّ هذا الوعد لن يتحقق إلّا إذا أدركت الأمة الإسلامية دورها في استئناف مشروعها الحضاري في الشّهادة على الإنسانية، يقول الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)⁵، وسعت إلى التّجديد والتّغيير، يقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)⁶

وإذا كان أول هذه الأمة صلح ببيائها المعجز فحتمًا آخرها لن يصلح إلا به⁷، لذا أول ما يجب على المسلمين تجديده في العصر الراهن هو العقل البلاغي، والنهوض بالبلاغة القرآنية من جديد. وبطبيعة الحال فإنّ التّجديد البلاغي يقوم على روافد ومقومات منها:

1 محمد ناصر الدين الألباني: "سلسلة الأحاديث الصحيحة"، مصدر سابق، ص 150

2 ينظر: محمد الغزالي: "الطريق من هنا"، القاهرة، دار الشروق، دط، دت، ص 63.

3 محمد الغزالي: "الدعوة الإسلامية في القرن الحالي"، القاهرة، دار الشروق، دط، دت، ص 177.

4 سورة النور: الآية 55.

5 سورة البقرة: الآية 143.

6 سورة الرعد: الآية 11.

7 ينظر: أبو فهر محمود شاكر: "مداخل إعجاز القرآن"، مرجع سابق، ص 191.

1- الاعتماد على التراث البلاغي القديم: للتفكير البلاغي في الحضارة العربية الإسلامية خصوصية متفردة، ليست لغيره من بلاغات الأمم الأخرى، والفضل يعود إلى القرآن الكريم فهو الزائد الثابت في تاريخ الأمة الإسلامية، لا يتغير لا بزمان ولا بمكان، وفي نفس الوقت صالح لكل زمان ومكان، فالتراث البلاغي العظيم الذي خلفه علماء الإعجاز عبر مسيرة تاريخية حافلة بالمجهودات الجبارة، لم يكن إلا عن دافع الوقوف على تلك البلاغة القرآنية التي أعجزت البشر بسحر بياها وجمال بديعها.

فالأمة الإسلامية تملك رصيда بلاغيا يهيؤها للنهوض من جديد واستكمال المشوار الذي بدأه الأسلاف في بيان تلك الخصوصية التي تفردت بها البلاغة القرآنية، واختصت بها الحضارة العربية الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى.

2- الاطلاع على بلاغة الآخر: تتفرد الحضارة العربية الإسلامية ببلاغتها القرآنية التي عدلت عن المؤلف وخرقت التقاليد البلاغية المعروفة.

وعلى الرغم من عدول البلاغة القرآنية عن البلاغات الأخرى، إلا أن هذا لا يمنع من الاطلاع على النتاج البلاغي للعقل الآخر، والإسلام نفسه دعا إلى معرفة الآخر والإطلاع على عقيدته، والعلم بأفكاره وتاريخه الحضاري، يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)¹.

والتاريخ الإسلامي يشهد على ذلك التبادل الحضاري بين الأمة العربية والإسلامية وغيرها من الأمم الأخرى كالفارسية واليونانية وغيرها.

وبناء على هذا فالعقل البلاغي المسلم لا يرفض العقل البلاغي الآخر بل يطلع عليه، ويقيم على إثره تلك الفوارق الشاسعة بين العقل البلاغي المسلم الذي عماده بلاغة قرآنية إعجازية لا تزيع عن الباطل، وبين بلاغة الآخر التي عمادها بلاغة بشرية معرضة للخلل والزلل.

فمعرفة الآخر بشكل عام هو السبيل الصحيح للتعامل معه، ومعرفة المداخل التي تمكنه من الشهادة عليه.²

¹ سورة الحجرات: الآية 13.

² ينظر: عمر عبيد حسنة: "الوراثة الحضارية"، دمشق، المكتب الإسلامي، ط1، 1424هـ-2003م، ص50.

3- الاطلاع على المعارف العربية والإسلامية الإنسانية: على المحدد البلاغي وحامل لواء التفكير

البلاغي في بيان البلاغة القرآنية، أن يكون لديه ملكة معرفية متكاملة، لاسيما القرآنية منها والعربية، لأنّ التّكامل والتداول بين العلوم والمعارف جد معين على تحقيق التّجديد البلاغي المثمر في بيان الوحي الإلهي المعجز.¹

بالإضافة إلى هذه التّوافد الأساسية يجب على المفكر والباحث في بلاغة القرآن أن يكون إنسانا تقيا، صاحب بدهة ودراية كئيسا فطنا، ملتزما بكمال اليقين، وتمام الأدب، لأنّ البحث في بلاغة القرآن أمر عظيم لا يهبه الله إلا لأهله وخاصته من العالمين، فعن سعيد بن عفير قال: حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال: قال حميد بن عبد الرحمن، سمعت معاوية خطيبا يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).²

ولا يوجد خير أحسن من التّفقه في بلاغة القرآن التي أعجزت الثّقيلين، وركع لعظمتها أساطين البلاغة طوعا وكرها.

وما على أبناء الأمة الإسلامية اليوم إلا أن يجددوا صلّتهم ببلاغة القرآن الكريم ويحملونها سلاحا إعجازيا في مواجهة الغرب الذي أعجزها بسلاحه المادي.

وبهذا فقط يجدر بالأمة الإسلامية أن تستأنف من جديد مسيرة الشّهود الحضاري، وتترع على عرش أستاذيتها الحضارية بين الأمم، قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)³

هذا التّشريف الذي جعله الله عز وجل قدرا مقسوما في الأمة الإسلامية، وقضاؤه الذي لا يتبدل، رفعت الأقالام وجفت الصحف، وصدق وعد الحق الصمد في أمة صدقت ما عاهدت الله عليه، إذا ما هي عادت إلى قرآنها الكريم، ودستور شريعته العظيم تستقي منه التّربية الحضارية وتستشرف به آفاق المستقبل المشرق.

¹ ينظر: طه عبد الرحمن: "تجديد المنهج في تقويم التراث"، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، ص89.

² محمد بن اسماعيل البخاري: "صحيح البخاري"، مصدر سابق، ج، 1 رقم الحديث 71، ص29.

³ سورة البقرة: الآية 143.

ولعل ما يحتوي عليه القرآن الكريم من أسلوب قصصي مشوق، لأعظم تربية حضارية للأمة العربية الإسلامية بغية الاتعاظ وأخذ العبرة، وإقامة معالم حضارية على أسس ربانية. وهذا ما ارتأينا الحديث عنه فيما هو آتي في محاولة منا لإبراز وجه من وجوه البلاغة القرآنية المعجزة، والمتمثل في ذلك الأسلوب القصصي المشوق الذي يعد ميزة بلاغية وتربية حضارية تفرد بها كتاب الله تعالى.

وقد اخترنا نموذجاً واحداً من نماذج كثيرة في القرآن الكريم، حيث يتمثل هذا النموذج في سورة هود عسى أن نجد فيها ضالتنا ونصل إلى مبتغانا.

الفصل الرابع: الأسلوب القصصي في القرآن

الكريم ميزة بلاغية وتربية حضارية

– دراسة موضوعية بلاغية لسورة هود–

أولاً: القصة والإعجاز القرآني

ثانياً: القصة ودورها في التربية الحضارية من منظور

سورة هود

ثالثاً: الخصائص البلاغية للقصة القرآنية من منظور

سورة هود

الفصل الرابع: الأسلوب القصصي في القرآن الكريم ميزة بلاغية وتربية حضارية

-دراسة موضوعية بلاغية لسورة هود-

كان القرآن الكريم ولا يزال معجزة الإسلام الخالدة التي أعجزت الثققلين من الإنس والجن وأبهرت أساطين البلاغة العربية من مصانع الخطباء وفحول الشعراء، وذلك لما في القرآن الكريم من روائع بلاغية ومكامن إعجازية تفرد بها عن سواه من الكتب السماوية الأخرى، أو كتب البلاغة الوضعية. والباحث في القرآن الكريم يلمح ذلك التنوع في أساليب القرآن الكريم، ويرى تعدد موضوعاته التي لا تحصى ولا تعد.

غير أنّ الأسلوب القصصي كان له الحظ الأكبر، حيث تعد القصة القرآنية من أهم الطرق والوسائل التي اعتمدها القرآن الكريم "لتغذية العقول، وتهذيب النفوس، والترويح المنشود، فهي تفتح في النفس البشرية مغالق الإلهام، عندما تعايش أنبياء الله ورسله في رحلتهم مع أقوامهم كي تأخذ عنهم، وتتعلم على أيديهم وتثبت معهم، فالقصة في القرآن باب من أبواب البيان القرآني العظيم، ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه من التوحيد والوعد والوعيد، والفضائل والأخلاق والسلوك والتشريع."¹

وبهذا فقد جمع القصص القرآني بين دفتيه التفرد الإعجازي البلاغي، والتهديب التربوي الرباني، وقد صدق الله عزّ وجل حين قال في محكم تنزيله: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)²

إذن: فالقصة القرآنية نموذج متفرد يجمع بين خصائص البلاغة الإعجازية والإصلاح والهداية التربوية، وذلك لما فيها من نماذج مليئة بالتجارب والدروس والعبر، مما يمكن أن يفيد أهل القرآن وأمة الإسلام المنوطة بمهمة الشهادة الحضارية، قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)³

ولعل ما تحويه سورة هود لأعظم تربية حضارية يقدمها القرآن الكريم في أسلوب قصصي بلاغي مشوق للأمة العربية الإسلامية بغية الاتعاظ والعبرة، وإقامة معالم حضارية على أسس ربانية.

1 سعيد عطية علي مطاوع: "الإعجاز القصصي في القرآن"، القاهرة، دار الآفاق، ط1، 2006م، ص7.

2 سورة يوسف: الآية 111.

3 سورة البقرة: الآية 143.

أولاً: القصة والاعجاز القرآني

تعد القصة نمط من أنماط التعبير التي اعتمدها القرآن الكريم في عرضه للتجربة البشرية من لدن آدم عليه السلام إلى الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم وفق منهج بلاغي وأسلوب إعجازي مشوق. غير أننا ارتأينا قبل أن نقف على النموذج القصصي الذي وقع اختيارنا عليه،-والذي تمثل في التجربة القصصية التي احتوتها سورة هود، ونستنبط من خلالها القيم الموضوعية التربوية والخصائص البلاغية الإعجازية -، أن نبين مفهوم القصة القرآنية ونتعرف على خصائصها، ونفقه مقاصدها وأغراضها.

أ- مفهوم القصة القرآنية:

القصة القرآنية مركب إضافي مكون من كلمتين هما: القصة والقرآن، وسبق لنا وأن عرفنا القرآن لذا سنقتصر على مفهوم القصة في اللغة والاصطلاح ثم نعطي مفهومها جامعاً للقصة القرآنية.

1- القصة في اللغة: مأخوذة من مادة قصص، قص آثارهم يقصها قصاً، وقصص وتقصصها، تتبعها بالليل، واقتص أثره: تتبعه.

والقصة أيضاً: الخبر، قصّ عليّ خبره يقصه قصاً وقصص: أوردته، والقصص: الخبر المقصوص¹. إذن: فالقصة في المفهوم اللغوي تحمل دلالتين هما: التتبع والخبر، وبنفس المعنيين وردت في القرآن الكريم حسب ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني في حديثه عن مادة قصص في القرآن الكريم، إذ قال: "قصص: القصد تتبع الأثر، يقال قصصت أثره والقصص: الأثر"²، واستدل على ذلك بقوله تعالى: (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)³، أيضاً قوله تعالى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)⁴.

وكذلك قال: "والقصص الأخبار المتتبعة"⁵، ودليله في القرآن الكريم قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)⁶، وأيضاً قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)⁷.

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص270.

2 الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص404.

3 سورة الكهف: الآية64.

4 سورة القصص: الآية11.

5 الراغب الأصفهاني: "المصدر السابق"، ص440.

6 سورة آل عمران: الآية62.

7 سورة يوسف: الآية3.

وأيضاً قوله عز وجل: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ¹، ومنه أيضاً قوله تعالى: (... فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ)²

ولعل القصة بمعنى الخبر هو ما تواضع عليه علماء العربية والدراسات القرآنية في مفاهيمهم الاصطلاحية للقصة بصفة عامة، والقرآنية منها بصفة خاصة.

2- القصة في الاصطلاح: يراد بالقصة في المفهوم الاصطلاحي: "ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة

تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود، ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع أو وقعت للبطل، ولكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي فقدم بعضها وأخر آخر وذكر بعضها وحذف آخر أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع أو بولغ في التصوير إلى الحد الذي يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة وتجعلها من الأشخاص الخياليين.³

وبعبارة أبسط فإنّ القصة هي "حكاية تسلسل أحداثها في حلقات كحلقات فقرات الظهر، ويتضمن تطور الأحداث في زمن متتابع، يلعب أبطالها أدوارها على مسرح البيئة أو الوسط."⁴

فهل ينطبق هذا التعريف على القصة القرآنية أم يختلف عنه هذا ما سنكتشفه من خلال عرضنا لمفهوم القصة في القرآن الكريم.

3- تعريف القصة القرآنية: لعلّ التعريف الجامع المانع للقصة القرآنية ما قاله الشيخ الدكتور مناع

القطان: "قصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه."⁵

كما عرف سيد قطب القصة القرآنية مشيراً إلى البون الشاسع بينها وبين القصة الأدبية فقال: "القصة في القرآن ليست عاملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطرق عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن في القصة الفنية

1 سورة يوسف: الآية 111.

2 سورة القصص: الآية 25.

3 محمد أحمد خلف الله: "الفن القصصي في القرآن"، شرح وتعليق: خليل عبد الكريم، لندن، بيروت، القاهرة، سينا للنشر، الانتشار

العربي، ط4، 1999م، ص152.

4 محمد زغلول سلام: "النقد العربي الحديث - أصوله واتجاهات رواده"، الإسكندرية، منشأة المعارف، دط، دت، ص108.

5 مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص300.

الحرّة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق-إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائل إبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها.¹ فقد بين سيد قطب بأنّ القصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه، وسير حوادثه كما هو الحال في القصة الأدبية الفنية، وإنما هي وسيلة من وسائل التربية الدينية "اتبعتها القرآن الكريم في تأديب النفوس، وسياسة الجماعات، والمحاورات النابضة التي أثبتتها هي معالم خالدة لضبط الحقيقة التاريخية وتوليد العبرة منها."²

بالإضافة إلى هذا فإنّ القصة الأدبية تتناوب بين الواقع والخيال، الجد والهزل، وهذا مالا نجد في القصة القرآنية إذ "لا مجال للخيال هنا إنما القصة القرآنية واقع، ولا مجال للهزل في جد محض، نعم تلوح أمارات البسمة ونسمات المرح والفرح خلال أجوائها لكنها جادة في غايتها إلى حيث الزمان والمكان البعيدين ولكنها واقعية كل الواقعية حقيقة كل الحقيقة، لا يداخلها الكذب أو الزور ولا تقارف في الإفك أو البهتان."³

وبطبيعة الحال فإنّ مرد هذا الفرق يعود إلى ذلك المصدر الإلهي الذي قال عنه سبحانه وتعالى: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)⁴

ولكن على الرغم من أنّ القصة القرآنية لها ميزتها التي تفرقت بها عن القصص الأدبية الوضعية إلا أنّ هذا "لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها."⁵

يقول عن هذا سيد قطب: "إنه كان من أثر هذا الخضوع-يقصد الخضوع الديني- بروز خصائص فنية بعينها تحسب في الرّصيد الفني للقصة في عالم الفنون الطليق."⁶

فالقصص القرآني-حسب رأي سيد قطب-"يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية.

1 سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص143.

2 محمد الغزالي: "نظرات في القرآن"، مرجع سابق، ص98.

3 أحمد الجوهري عبد الجواد: "القصة في القرآن"، بحث مقدم في مادة علوم القرآن، بإشراف الدكتور: عبد الرحمن محمد علي عويس، الجامعة الأمريكية، قسم أصول الدين، شبكة الألوكة، ص7.

4 سورة فصلت: الآية 42.

5 سيد قطب: "المصدر السابق"، ص171.

6 المصدر نفسه، ص171.

بهذا فإنّ القصة القرآنية تبلغ درجة الإعجاز البياني الذي تحدى الله به الإنس والجن فقال سبحانه وتعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)¹

فهي "بيان معجز للإنس والجن وسائر العقلاء البلغاء فالإتيان بقصة من قصص القرآن الكريم لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويتضح لنا ذلك القصور البشري في أنّ الأديب منهم أو الشاعر يضع خطبة أو مقالة أو أقصوصة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقح فيها وهو غير راض عنها، ثمّ تعطى لأحد غيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبدل فيها وينقح، وعلى الرغم من كل ذلك تبقى فيها مواضع تحتاج لإعادة النظر والتبديل، أما القصة القرآنية فلو نزعنا مشهدها أو تعبيرها أو حتى لفظة، ثم استدعي الأدباء المفكرون لما وجدوا أحسن منها، رغم ما هم فيه من براعة وسلامة الذوق وجودة القريحة"²، يقول الله سبحانه وتعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ)³

ومما لا شك فيه أنّ القصة القرآنية تتفرد بخصائص وعناصر فريدة أكسبتها خصوصيتها المتفردة عن سواها من التعبيرات القصصية الأخرى.

ب- خصائص القصة القرآنية:

من المعلوم أنّ القرآن الكريم هو كتاب العربية الأكبر ومصدر آدابها وجامع فنونها وعلومها، وما ورد فيه من أسلوب قصصي لأكثر دليل على القصة عند العرب منذ العصر الإسلامي، بل كانوا يعرفون ذلك منذ جاهليتهم إذ لولا معرفتهم بذلك ما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم -صلى الله عليه وسلم- أن يقصص على مسامع العرب القصص البناءة الهادفة التي توقظ عقولهم من سباتها، وتلين قلوبهم من قسوتها لما فيها

¹ سورة الإسراء: الآية 88.

² سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي في القرآن"، مرجع سابق، ص 7.

³ سورة يوسف: الآية 3.

من العبر والعظات¹، يقول الله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)².

وهذا أكبر رد على مزاعم من يدعون بأنّ منبت القصة عند العرب هو الثقافة الغربية.³
إذن: فالفن القصصي وإن عرفته العرب منذ جاهليتها إلاّ أنّه اكتسب أصالته واتضحت معالمه مع القرآن الكريم شأنه في ذلك شأن الفنون العربية بصفة عامة، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)⁴

ولما كان للفن القصصي الحظ الأكبر من عريية القرآن الكريم وصلة وطيدة ببلاغته الإعجازية أتبع ذلك بقوله سبحانه وتعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ)⁵.

يقول الطاهر بن عاشور عن هذه الآية الكريمة أنّها "تنزل من جملة: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)منزلة بدل الاشتمال لأن أحسن القصص مما يشتمل عليه إنزال القرآن"،⁶ وهو "أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه وبما يتضمنه من العبر والحكم، فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن."⁷

1 ينظر: محمد عبد الله عبده دبور: "أسس بناء القصة من القرآن الكريم-دراسة أدبية نقدية"، رسالة مقدمة لنيل درجة العلمية(الدكتوراه في الأدب والنقد)، إشراف الأستاذ الدكتور: فتحي محمد أبو عيسى، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم الأدب والنقد، 1417هـ-1996م، ص3.

2 سورة الأعراف: الآية 175-176.

3 ينظر: سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي في القرآن"، مرجع سابق، ص18.

4 سورة يوسف: الآية 2.

5 سورة يوسف: الآية 3.

6 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص203.

7 المصدر نفسه: ج12، ص203-204.

وبما أنّ القرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجل المنزه عن الشّبه البشري، والمحفوظ من التّبديل والتّحريف، فحتمًا ما ورد فيه من قصص عن الأنبياء والرّسل والحضارات والأمم البائدة كان بمنهجية متفردة وطريقة لها خصوصيتها المميزة.

1- عناصر القصة القرآنية: لا يمكن لأيّ قصة أن تحقق غايتها وهدفها إلا إذا توفرت على عناصر تساهم في تأسيس بنيتها ورفع معالمها.

والقصة القرآنية وإن كانت متفردة بخصوصيتها، إلا أنّها لا تكاد تخرج عن عناصر القصة المعروفة وهي:

***الحدث:** يعد الحدث العنصر الأساسي والهام، وهو الذي تبنى عليه القصة، ويعرّف على أنّه "جوهر الفعل القصصي وإطاره الموضوعي والفني، وهو علاقة الاستقطاب والدفْع الذي تتحرك عبرها الشخصية أو شخصيات القصة ضمن شروط السياق الزماني والمكاني ذلك لأنّ الحدث سواء كان معقولا أو خارقا إنما يشترط إطارا ظرفيا يؤقت لوقوعه ويحدد الأرضية والفواعل التي هيأته أو صاحبته أو تقاطعت معه مباشرة أو بالتبعية على نحو فني يتجسد فيه العمل القصصي".¹

وكلّ حدث قصصي يتسلسل وفق مراحل ثلاث: مقدمة، العقدة، والحل، وتسير الأحداث من بداية القصة حتى نهايتها بأسلوب فني أدبي بديع.²

والحدث في القصص القرآني له ميزته وخاصيته التي تفرد بها، حيث يظهر في صورة حوار ومعجزات يجريها على أيدي الرّسل، أو يحدثها في الكون.³

وهذه الميزة في الحدث القصصي للقرآن الكريم تجعله يبدو وللوهلة الأولى أنّه قصص خيالي خارج عن المؤلف، لكن مصدره الإلهي يثبت واقعيته وصحته.⁴

وبهذا فهو مخالف للحدث في القصص الوضعي البشري الذي تغلب عليه الأسطورة والخيال.

كما أنّ الحدث القصصي في القرآن يبنى على غايات وأهداف تتماشى مع الغاية السّامية للقرآن الكريم في أخذ العبرة والموعظة بغية التّربية والتّهديب.⁵

1 سليمان عشراي: "الخطاب القرآني"، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 1998م، ص 67.

2 ينظر: ماجد زكي الجلاد: "تعلم القيم وتعليمها"، عمان، دار المسيرة، ط 3، 1430هـ-2010م، ص 123.

3 ينظر: محمد خلف الله: "الفن القصصي في القرآن"، مرجع سابق، ص 311.

4 ينظر: المرجع نفسه، ص 311.

5 ينظر: عبد الكريم الخطيب: "القصص القرآني في منظوقه ومفهومه"، لبنان، بيروت، دار الفكر، دط، 1965م، ص 45.

***الشخصيات:** تعد الشخصيات أهم عناصر القصة وركنها الأساسي، إذ لا توجد قصة دون شخصيات، وهذا ما يتجلى في القصص القرآني، إذ لا نجد قصة قرآنية تخلو من الشخص، فهم الذين يفعلون الأحداث ويتلقونها ويتفاعلون معها، وهم الذين يتخاطبون فيما بينهم، وكما أن القصة لا تخلو خلوا تماما من عنصر الحدث لا يمكن أن تخلو-أيضا- من عنصر الشخصية.¹

وقد تعددت شخصيات القصة القرآنية وتنوعت بين أناسي وحيوانات، ومخلوقات خفية كالملائكة والجن²، وفي كل قصة من قصص القرآن... نجد شخصا أو أشخاصا يقومون بدور رئيس فيها، إلى جانب شخصيات أخرى ذات دور أو أدوار ثانوية، يقوم بينهم جميعا رباط يوحد اتجاه القصة ويتضافر على ثمار حركتها، وعلى دعم الفكرة أو الأفكار الجوهرية فيها.³

والملاحظ لشخصيات القصة القرآنية يرى بأنها صورت تصويرا فنيا بشكل مقنع يناسب الغرض ويتفاعل مع الدور الرسالي الذي انبنى عليه موضوع القصة.⁴

***الإطار الزمني:** يعد الزمان أحد العناصر الأساسية التي يبنى عليها النص القصصي، حيث له "مكانه الملحوظ دائما في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها وإيضاحها وخروج الحدث القصصي عن حدود الزمن ومن قيوده يجعله في عزلة عن الحياة وفي انقطاع عن الروافد التي يتغذى بها.⁵

وكان للزمن حضوره في القصة القرآنية، إذ أمسكت هذه الأخيرة بالخيط الزمني في الربط بين جزئيات أحداثها حتى تصل إلى الهدف المنشود، غير أن الملاحظ على الزمن في القصص القرآني أنه ذو طابع إعجازي يتراوح بين الزمن الغابر والزمن المستقبل المجهول، وتحديدده يكون "على أساس انتقائي، مرتبط بالهدف وهو العبرة دون اقتصار على مجرد المعرفة"⁶، فالليل والنهار، والإصباح والليلولة والعشي وأي إطار زمني وظفه القصص القرآني كان لغاية إعجازية تتماشى وسياق القصة المعروضة.

***الإطار المكاني:** يمثل المكان عنصرا مهما في بناء النص القصصي، فهو الإطار الذي يحوي الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات.

1 ينظر: محمد عبد الله دبور: "أسس بناء القصة في القرآن"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص 168.

2 ينظر: محمد خلف الله: "الفن القصصي في القرآن"، مرجع سابق، ص 287.

3 سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي في القرآن"، مرجع سابق، ص 96.

4 ينظر: المرجع نفسه، ص 96.

5 عبد الكريم الخطيب: "القصص القرآني"، مرجع سابق، ص 85.

6 سعيد مطاوع: "المرجع السابق"، ص 80.

وقد راعت القصة القرآنية هذا العنصر القصصي المهم ونوعت في توظيفه فذكرت: "أسماء الأمصار(مصر، سيناء، الطور، حنين، بدر) أو الأماكن المعلومة أو التي اكتسبت علميتها من خلال إثبات السياق القرآني لها، مثل سدرة المنتهى، الكهف في قصة أصحاب الكهف"¹، ولم تخص "الأدبية القرآنية المكان من حيث هو حيز مادي أو فضاء فيزيقي مائل أو متخيل بتنويها إلا لكونه أحد الموضوعات الأساسية التي ارتكز حولها الخطاب القرآني سواء وهو يبيّن مجلياته الحسية بوصف مظاهر العظمة المادية المتجلية فيه أو وهو يستدل بآثار ذلك الكون الحسي على ألوهية الخالق رب العالمين."² وبهذا جاء توظيف المكان في القصة القرآنية لمقاصد وغايات متناسبة مع المقصد العام للخطاب القرآني .

كما أنّ توظيف المكان في القصة القرآنية عرض بأسلوب متفرد ذو طابع إعجازي يذكر فيه تارة ويعدل عنه تارة أخرى، "فالقرآن الكريم لم يلتفت لذكر المكان في القصة إلا إذا كان له وضع خاص يؤثر في سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد نفسية وروحية تفتقدها القصة."³ وبطبيعة الحال فإنّ ذكر المكان في القصة القرآنية أو تجاهله كان بتحكم إلهي يسيره ويوزعه وفق خطة إعجازية تساهم في إيضاح المغزى وإيصال الهدف الدّيني المنشود.

***السرد**: يعد السرد العنصر الأهم في الفن القصصي والنمط الأنسب له، فهو "الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق قناة الراوي والمروي له، وما يخضع له من مؤثرات بعضها متعلق بالراوي والمروي له، والبعض الآخر متعلق بالقصة ذاتها."⁴

ويختلف السرد القرآني عن السرد الوضعي لأنّه ذو مرجعية إلهية تهدف إلى الكشف عن عقيدة التوحيد للمتلقّي، بينما مرجعية السرد في الخطاب السردّي الأدبي فتنبثق من الذات الإنسانية ومشاعرها من خلال صور الإبداع.⁵

1 سليمان عشراقي: "الخطاب القرآني"، مرجع سابق، ص 147.

2 المرجع نفسه: ص 147.

3 سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي في القرآن"، مرجع سابق، ص 83.

4 حميد حميداني: "بنية النص السردّي من منظور النقد الأدبي"، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط3، 2003م، ص 45.

5 ينظر: فاطمة الطبال بركة: "النظرية الألسنية عند رومان جاكسون"، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

والتوزيع، بيروت، ط1، 1993م، ص 67.

إذن: فالسرد القرآني هو سرد متفرد يقتزن بالإعجاز القرآني، الخاضع لقدرة الله تعالى، والقائم على تبليغ الغرض الدّيني.

ولعل أهم سمة ميزت السرد القرآني وجعلته متفردا هو أنّ السارد هو الله سبحانه وتعالى، الذي سرد علينا في آخر كتبه السماوية قصة الحياة منذ خلق آدم عليه السلام إلى آخر بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، بل ولم يقف سبحانه وتعالى عند حدود هذا السرد، بل تعداه إلى سرد ما بعد الحياة الدّنيا من سرد لأهل الجنة وجزائهم وأهل النار وعقابهم، وكل ذلك بأسلوب بلاغي معجز لا ترقى إليه أي قصة من قصص البشر الوضعية.

***الحوار:** سبق وأن أشرنا في صفحات سالفة من بحثنا إلى أنّ الحوار من أهم الأساليب التي اعتمدها القرآن الكريم، والحوار هو "نوع من الحديث بين شخصين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما، فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب."¹ ويعد الحوار عنصرا فعالا في البناء القصصي، فهو الذي يبعث الروح والحركة في القصة ويؤدي إلى الكشف عن المغزى والعبرة.

ومما لا شك في أنّ القصة القرآنية استعملت الحوار "في دقة وحساسية لإحياء مشاهد القصص أو تصوير انفعالات الأشخاص"²، وذلك لما فيه من "أسلوب اللاعنّف، وطريقة اللين لأنّ القصة القرآنية مرتبطة بالخط القرآني الكبير، وهو الدّعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الحق."³

ولهذا "كان للحوار القصصي في القرآن شأوا بعيدا جدا في إحياء المشاهد التي ضم عليها الحدث القصصي، وفي إقدارها على التأثير بالكلمة في تصوير رائع مليئ بالحركة."⁴

والملاحظ في القصة القرآنية يلمح أنّ الحوار القرآني أسهم إسهاما فعالا في رسم معالم شخصيتها والتعبير عن خواطرهم وآرائهم ومواقفهم تعبيرا صادقا لا تحريف فيه ولا اختلال.⁵

بالإضافة إلى هذا فإنّ الغرض من توظيف الحوار في القصص القرآني هو غرض ديني تربوي يهدف إلى الهداية والتّوجيه.¹

1 محمد راشد ديماس: "فنون الحوار والقناع"، مرجع سابق، ص11.

2 سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي"، مرجع سابق، ص112.

3 المرجع نفسه: ص112.

4 المرجع نفسه: ص118.

5 ينظر: محمد عبد الله دبور: "أسس بناء القصصي في القرآن"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص223.

وخلاصة القول فإنّ القرآن الكريم وزع عنصر السرد والحوار على قصصه توزيعاً نظامياً حيث "كل عنصر من العنصرين يأتي في مكانه المناسب تماماً في القصة القرآنية، فالحوار يأتي حيث يجمل أن يكون العرض حوارياً، والسرد يأتي حين يجمل أن يكون تقديم الحدث أو الشخصية سرداً روائياً، ولا يجوز أن يستبدل أي من العنصرين في مكانه بالعنصر الآخر، وفي القصة القرآنية نجد الانتقال من السرد إلى الحوار أو العكس يكون طبيعياً حتى إن القارئ ربما لا يدرك هذا الانتقال."²

كما أنّ الملاحظ على بعض القصص القرآنية أنّها انبنت على عنصر السرد وحده دون الحوار وإن كانت الأغلبية قد قامت على المزاجية بينهما.³

***الحبكة:** هي في أصلها اللغوي من الحبك وهو الشّد، والحبوك ما أجيد عمله، حباك الثوب يحبكه حبكاً: أجاد نسجه وحسن أثر الصنعة فيه، والحبكة: الحبل يشد به في الوسطن والتّحبيك: التّوثيق.⁴

أمّا في معناها الاصطلاحي: "الحبكة سياق الأحداث والأعمال وترابطها لتؤدي إلى خاتمة، وقد تركز الحبكة على تصادم الأهواء والمشاعر، أو على أحداث خارجية، وهي في رأي الكثرة من نقاد الفن ضرورية في المسرحية والحكاية والقصة والأقصوصة لإثارة المشاهد أو السامع واندماجه مع الشخصيات الواقعية أو الرمزية المتحركة أو المفكرة"⁵.

فالحبكة هي عنصر فني من عناصر القصة يساهم في ترتيب حوادثها وسردها وتطويرها، فهي التي تضمن تسلسل الأحداث بحيث أن سابقها مستدرج للاحقها.

وكان لهذا العنصر القصصي تفرد في القصة القرآنية، حيث جاء توظيف الحبكة في القصص القرآني توظيفاً متفرداً ومختلفاً عن توظيفه في السرد البشري، والمتأمل في القصص القرآني سيلمح فيه تلك الروح الواحدة والوحدة المتماسكة التي تربط أجزاءه وموضوعه بكل جمال وروعة.

1 ينظر: عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص 119.

2 ينظر: محمد عبد الله دبور: "أسس بناء القصص في القرآن"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص 216.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 215.

4 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 2، ص 407-408.

5 جبور عبد النور: "المعجم الأدبي"، بيروت، دار العلم للملايين، ط 2، 1984م، ص 91.

وقد أشار سيد قطب إلى أن أعلى مراتب التناسق في القرآن الكريم موجودة في أسلوبه القصصي، حيث يظهر "التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه، وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء."¹

ويعود الفضل في هذا التناسق الفني للقصص القرآني إلى الحكمة، لأنها هي التي تساهم في عرض أحداث القصة عرضاً دقيقاً ومتناسقاً ومتناسباً مع الهدف الذي يصبو إليه موضوعها.

كما أن الحكمة تصل إلى سمو عملها الفني مع تأزم الأحداث وتعقدتها لتعقب بعد ذلك بفسحة من الانفراج والانشراح، وهذا ما يسمى بعنصر البناء في العمل القصصي.

***البناء: (العقدة والحل):** إن البناء القصصي يبنى على عنصرين مهمين هما العقد والحل، فالعقدة هي البداية التي تفترض النمو في الحدث، والوسط الذي يفترض الحدث السابق والحدث اللاحق معاً، والنهاية (الحل) التي تتطلب الحوادث السابقة ولكنها لا تتطلب حدثاً لاحقاً.² وكان لهذين العنصرين حضورهما في القصة القرآنية بطبيعة الحال.

***التشويق:** هو ذلك الأثر الفني الذي يدفع القارئ إلى الاستمرار في متابعة أحداث القصة حتى النهاية.³ ويعد التشويق عنصراً هاماً في القصة القرآنية، بل تلك سمة بارزة في القرآن كلية، ووجه من وجوه إعجازه، حيث إن للقرآن الكريم قوة تأثيرية تدفع بقرائه أو سامعه إلى المواصلة والاستمرار، يقول ابن القيم الجوزية عن أثر القرآن الكريم في النفوس: "ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة، والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع، وتميل عليه بالحنين والطباع، سواء كانت فاهمة لمعانيه، أو غير فاهمة، عاملة بما يحتويه أو غير عاملة، كافرة بما جاء فيه أو مؤمنة."⁴

وللتشويق القصصي في القرآن الكريم الأثر البالغ في تحريك النفوس وانجذاب القلوب إلى أن يصل بها إلى الهدف المنشود في أخذ العبرة والاستفادة من التجربة القصصية المعروضة.

هذه هي أهم عناصر القصة التي حددتها الدراسات النقدية، والتي نجدها -بطبيعة الحال- متوفرة في القصة القرآنية لكن بطريقة إعجازية متفردة لأن مصدرها مصدر إلهي مقدس.

1 سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص 89.

2 سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي"، مرجع سابق، ص 28.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص 29.

4 ابن القيم الجوزية: "الفوائد المشوق"، مصدر سابق، ص 17.

2-أنواع القصة القرآنية وأشكالها: جاءت القصة القرآنية بأشكال متعددة وأنواع مختلفة لاعتبارات عدة.

وقد حصر الدكتور مناع القطان القصة القرآنية في ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: قصص الأنبياء والمرسلين وما حدث لهم مع أقوامهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها.
 - النوع الثاني: القصص القرآنية المتعلقة بحوادث الأمم الغابرة، والحضارات البائدة، وأخبار عن أشخاص صالحين أو فاسدين.
 - النوع الثالث: قصص متعلقة بالحوادث التي وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كقصة الإسراء والمعراج، وسرد لغزوات النبي صلى الله عليه وسلم.¹
- يظهر من هذا التقسيم الذي وضعه الدكتور مناع القطان لأنواع القصة أنه كان على أساس الموضوع والقضية المعالجة.

كما يمكن حصر أنواع القصة بحسب موضوعها تحت مسميات ثلاث وهي:

1/2- القصة التاريخية: وهي التي تقص علينا وقائع تاريخية لماضي الإنسانية بهدف التربية وأخذ العبرة والموعظة.²

وتعد القصة التاريخية في القرآن الكريم مصدرا من مصادر المعرفة القرآنية وأصلا من أصول البناء الحضاري، تستقي منها الأمة الإسلامية التجربة في معرفة عوامل السقوط الحضاري ومقومات النهوض والبناء، فالقرآن الكريم كان في أغلب قصصه "دائب الإشارة إلى الأمم الخالية، داعيا إلى الاعتبار بتجارب البشر في ماضيهم وفي حاضرهم"³، يقول سبحانه وتعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)⁴

فالقصة التاريخية في القرآن الكريم بينت دور السنن الإلهية في بناء الحضارات وسقوطها⁵، وأهدت للأمة الإسلامية خلاصة التجربة الحضارية للأمم الماضية بغية أخذ العظة والعبرة.

1 ينظر: مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص301.

2 ينظر: سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي"، مرجع سابق، ص50.

3 المرجع نفسه: ص43.

4 سورة آل عمران: الآية137.

5 السنن الإلهية هي الطريقة المطردة الجارية النافذة التي قدرها الله في الكون والحياة والإنسان، وهي بمثابة نوايس ثابتة قضاها الله كما أن على أساسها ترتفع وتنخفض المجتمعات على أساسها يكافئ الله ويعاقب.

2/2- القصة الواقعية: "وهي التي تعرض أنموذجا لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج."¹

ومن نماذجها قصة ابني آدم قبيل وهبيل الواردة في سورة المائدة في قوله تعالى: (وَإِنلُ عَلَيْهِم نَبأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَن أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)²

فقد صورت لنا هذه القصة -رغم قصرها- نموذجا واقعيًا للصراع بين الخير والشر بين بني البشر.³

2/3- القصة التمثيلية: "وهي نوع من أنواع المثل في القرآن الكريم يطلق عليه المثل القياسي، وهو سرد قصصي أو وصفي، يتعاطى أحد أمرين، فهو: إما يصور أنموذجا من السلوك الإنساني بقصد التأديب أو التمثيل، والتوضيح، وإما أن يحسم مبدأ يتعلق بملكوت الله ومخلوقاته"⁴.

والقصة التمثيلية أو ضرب الأمثال أسلوب من الأساليب القصصية الجمالية التي اعتمدها القرآن الكريم في التوجيه والتربية وأخذ العبرة.

وعليه فالقصة التمثيلية هي "ماسيق في القرآن من حديث ومثل يتعلق بالمواعظ أو القصص أو أخبار الأمم الماضية، كل هذه الأمثال المضروبة إنما عني بها نتيجتها وعاقبتها وهي ما حاق بالأمم الغابرة ممن سبقت أخبارهم وضربت بهم الأمثال ونتيجة ذلك ما نزل بهم من عذاب"⁵، يقول الله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)⁶

1 ينظر: سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي" مرجع سابق، ص50.

2 سورة المائدة: الآية 27-31.

3 ينظر: سعيد مطاوع: "المرجع السابق"، ص50.

4 المرجع نفسه، ص53.

5 عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص208.

6 سورة العنكبوت: الآية 43.

ومن نماذجها قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف¹، يقول الله سبحانه وتعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)²

هذا فيما يخص أنواع القصة، أما عن أشكالها، فقد تم تقسيم القصة القرآنية من حيث البنية الشكلية- حسب ما ذهب إليه الدكتور سليمان عشراقي- إلى قسمين:

1- القصة المغلقة (المكتملة): يعرفها الدكتور سليمان عشراقي بقوله: "القصة المغلقة أو المكتملة: ونقصد بها القصة التي استقل بها موطن قرآني واحد في سورة قرآنية فريدة، ولم يتكرر سياقها السردية خارج ذلك الموطن."³

ومن نماذجها هذا الشكل القصصي: قصة يوسف عليه السلام، قصة أصحاب الكهف، قصة سليمان عليه السلام، ومملكة سبأ، وقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف.⁴

¹ ينظر: سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي" مرجع سابق، ص54.

² سورة الكهف: الآية 32-44.

³ سليمان عشراقي: "الخطاب القرآني"، مرجع سابق، ص69.

⁴ ينظر: المرجع نفسه: ص70.

2- القصة المفتوحة: وهي عكس القصة المغلقة، وعرفها الدكتور سليمان عشارتي بقوله: "ونقصد بذلك السياق السردي المتعلق بسيرة نبي أو رسول، والمتواتر في أكثر من سورة، وبتنويغات إخبارية وسردية تجدد كثيرا أو قليلا من سياق لآخر، سواء على مستوى الشكل الخطابي أو من حيث الإفادات التي يحملها."¹ وباختصار فإنّ الشّكل المغلق للقصة القرآنية يتمثل في تلك القصص التي ترد في مواضع متعددة يقتضيها السياق.

3- مميزات القصة القرآنية: أجمع البلاغيون وأهل الدراسات القرآنية أنّ القصص القرآني قصص تفرد بخصائص سردية ميزته من أنواع الخطابات السردية الأخرى، فقد "حضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريق عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينية، وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات معينة"²، يمكن إجمالها فيما يلي:

* **الربّانية:** فالقصص القرآني يتفرد بمصدره الإلهي، فهو كلام الله عز وجل لا يأتيه باطل ولا يلحقه تغيير ولا تحريف، فهو محفوظ ثابت إلى قيام الساعة، يقول الله سبحانه وتعالى: (... **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**)³، ويقول أيضا عز وجل: (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**)⁴، وبالتالي هو عكس القصص الوضعي الذي هو من صنع البشر.

ولعل الربّانية هي أهم سمة ميزت القصة القرآنية، إذ يكفي فيها أنّ السارد هو الله سبحانه وتعالى، يقول الله تعالى عن ذاته المنزهة: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**)⁵

* **الواقعية:** إنّ القصص القرآني هو قصص واقعي يعتمد الحق والصدق في تسجيل وقائعه وأحداثه⁶، وبهذا فهو "غير أكاذيب القصص المخرفين، وهو لا يخضع من حيث قيمته الفنية لمقاييس الهوى والخيال الجامح والأكاذيب المفرطة."⁷

1 المرجع نفسه:ص70.

2 سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص143.

3 سورة فصلت: الآية 41-42.

4 سورة الحجر: الآية 9.

5 سورة الشورى: الآية 11.

6 ينظر: عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص224.

7 المرجع نفسه:ص227.

فالقرآن الكريم هو كلام الحق- سبحانه وتعالى- "لا يتحدث عن أساطير ولا يحكي خيالات أو بنات أفكار لا صحة لها ولا علاقة لها بالواقع، بل كل القصص التي حكاها لنا القرآن الكريم قد حدثت فعلا وبأشهر أبطالها أحداثها على أرض الحياة، وفي دنيا الناس."¹

ويؤكد الله عزّ وجل صدق واقعية قصصه، فيقول جل في علاه: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)²

***الشمولية:** فقصص القرآن الكريم شاملة في موضوعاتها، حيث شملت جانب العقيدة والعبادات وآداب ومعاملات اجتماعية واقتصادية وسياسية وتربوية وحضارية، يقول الله تعالى: (... ما فرطنا في الكتاب من شيء)³.

***الغرض الديني الهادف:** إن "القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه- كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق- إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها"⁴، عن طريق التربية والتّهديب فالقصص "من أنجع الطرق التي اتبعها القرآن الكريم في تأديب النفوس، وسياسة الجماعات، والمحاورات النابضة التي أثبتتها هي معالم خالدة لضبط الحقيقة وتوليد العبرة منها."⁵

***التفرد الفني المعجز:** لقد اعتمدت القصة القرآنية في تحقيق غرضها الديني على مجموعة من الخصائص الفنية، حيث إنّ خضوع القصة للغرض الديني، لم يمنع من بروز الخصائص الفنية في عرضها.⁶ لكن بطبيعة الحال كان لهذه الخصائص الفنية في القصة القرآنية خصوصيتها المنفردة على خلاف الخصائص الفنية للقصة الوضعية، ويعود ذلك- كما يقول سبحانه وتعالى- إلى (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ

1 أحمد الجوهري عبد الجواد: "القصة في القرآن الكريم"، شبكة الألوكة، مرجع سابق، ص18.

2 سورة يوسف: الآية 111.

3 سورة الأنعام: الآية 38.

4 سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص143.

5 محمد الغزالي: "نظرات في القرآن"، مصدر سابق، ص98.

سيد قطب: "المصدر السابق"، ص171.

شَيْءٌ¹

ولعل السّمة الفنية المميزة للقصة القرآنية أسلوبها البلاغي المعجز، يقول سليمان عشارتي: "إن هذه القصص-وهي تساق ضمن نصوص القرآن-اصطبغت بخصائص نابعة من أدبية التبليغ القرآني من حيث القوة البيانية والانسجام التعبيري والملاءمة الموضوعية ضمن الأغراض العامة للسياق الذي وردت فيه."² فهي باب من أبواب البيان القرآني المعجز الذي أعجز الإنس والجن بمجاراته، يقول تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)³ ومما يميز القصة الفنية في القرآن الكريم تنوع طريقة العرض وذلك "تبعاً لتنوع الأغراض، واختلفت الوسائل البيانية تبعاً لتنوع الطرائق"⁴.

وتعد هذه الخاصية من أهم خصائص الأسلوب القرآني بصفة عامة، حيث أعطى القرآن الكريم لكلِّ مقام حقه، وسبق وأن أشرنا إلى هذا عند حديثنا عن مصطلح السّياق القرآني هذا الأخير الذي يراعي النّظم البلاغي في أداء المعنى المطلوب.⁵

وهذا ما توفر في سرد القصص القرآني حيث أتت طريقة العرض السّردي مناسبة للمقام والغرض. بالإضافة إلى هذا فالقصة القرآنية تتميز بحسن عرضها التّصويري الذي أبدعت فيه الريشة المعجزة برسم مشاهد تصويرية ملؤها الحيوية والحركة، هذه الريشة المبدعة التي "مامست جامداً إلا نبض الحياة، ولا عرضت مألوفاً إلا بداً جديداً، وتلك معجزة ساحرة"⁶، تفردت بها القصة القرآنية التي أثرت في النفوس واستهوت القلوب وأعجزت أساطين البلاغة والبيان، يقول سيد قطب: "إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، والقاعدة الأولى فيه للبيان... إنه يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، كما يعبر بها عن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية

1 سورة النمل: الآية 88.

2 سليمان عشارتي: "الخطاب القرآني"، مرجع سابق، ص 67.

3 سورة يوسف: الآية 3.

4 سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي"، مرجع سابق، ص 181.

5 ينظر: محمد كريم الكواز: "الأسلوب في الإعجاز البلاغي"، مرجع سابق، ص 282.

6 سيد قطب: "التصور الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص 251.

لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها عناصر التخيل.¹ والخيال الذي قصده سيد قطب ليس الخيال البشري المعتمد على الخرافة والأسطورة، وإنما هو الخيال الإلهي المعجز الذي وظفه الله سبحانه وتعالى في تعابيره القرآنية بهدف تحريك النفوس والانفعالات الوجدانية.

فالقصة القرآنية في عرض صورها ومشاهدها جمعت بين الغرض الدّيني والغرض الفني، حيث جعلت "الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني."²

***التكرار الهادف:** يعد التكرار من الظواهر الفنية الجلية في القصص القرآني، حيث نجد القصة الواحدة تتكرر في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومع هذا التكرار "ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى."³

وتلك أعلى مراتب البلاغة القرآنية التي وصلت إليها القصة القرآنية في إبراز المعنى الواحد بصورة مختلفة في حين عجز العرب عن الإتيان بمثل نموذج واحد من نماذج القرآن الكريم⁴، يقول الله تعالى متحدياً بلغاء العرب: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)⁵.

كما أنّ هذا التكرار القصصي في القرآن الكريم لم يكن عبثاً، وإنما كان له أغراضه الهادفة فالتكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام.⁶

1 المصدر نفسه:ص71.

2 المصدر نفسه:ص143.

3 مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص302.

4 ينظر: المرجع نفسه:ص302.

5 سورة البقرة: الآية23.

6 مناع القطان: "المرجع السابق"، ص302.

وأغلب ما ورد من تكرار في القرآن الكريم كان من قصص الأنبياء والمرسلين¹، ولعل الغرض من ذلك هو توضيح الصِّراع المستمر بين الحق والباطل من جهة²، وتثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى، يقول الله تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)³.

*الإيجاز: فمن خصائص الأسلوب القصصي في القرآن الكريم الميل إلى الإيجاز والدقة في العرض، حيث نجد القرآن الكريم يعرض علينا قصص الأمم البائدة، والحضارات الغابرة، وما وقع من صراع بين الأنبياء-عليهم السلام- وأقوامهم، وكل ذلك بإيجاز واختصار من غير اخلال بالتركيب والمعنى⁴.

*التناسق الفني: تميزت القصة القرآنية بتناسق عناصرها بدءاً من اللفظ المنظم، والعبارة المرتبة على طريقة واحدة ونظام واحد، متناسق النظم متناسب الفقرات، حسن الايقاع، ويرى سيد قطب أن أعلى مراتب التناسق الفني في القرآن الكريم موجودة في أسلوبه القصصي، وذلك لما فيه من التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها وانسجام مع السياق والغرض الديني⁵.

فقد برع القرآن الكريم في عرض قصصه بطريقة نسقية فريدة، حيث كل لفظة وضعت في مكانها المناسب بغية تحقيق الغرض المنشود، فلا نجد كلمة في غير موضعها الأصلي بل كل متناسق مع بعضه البعض، بالإضافة إلى ذلك فعلى الرغم من التنوع في المواضيع لا يوجد تناقض ولا تنافر⁶، فالقرآن الكريم وهو ينتقل في عرض قصصه من غرض إلى غرض ومن معنى إلى معنى من غير أن يستعمل شيئاً من هذه الأساليب وإنما يأتي الكلام فيه وبعضه يستدعي بعضاً، فآخر الآية أو الجملة يطلب ما يليها ويستدعيه فيأتي وفقاً له وينتج من ذلك إحكام الاتصال وشدة التداخل مما لا يشعر معه بفرجة انتقال، وهو من أظهر الخصائص⁷، التي امتاز بها الأسلوب القصصي للقرآن الكريم.

1 تعد قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون من أكثر القصص المكررة في القرآن الكريم.

2 ينظر: مناع القطان: "المرجع السابق"، ص303.

3 سورة هود: الآية 120.

4 ينظر: محمود السيد حسين مصطفى: "الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية"، تقديم: حسن عون، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط1، 1971م، ص78.

5 ينظر: سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص89.

6 ينظر: نوال يخلف: "الانسجام في القرآن الكريم"، أطروحة دكتوراه، مصدر سابق، ص94.

7 محمود السيد مصطفى: "المرجع السابق"، ص83.

إذن: فالقصة القرآنية تفردت بخصائصها الفنية من "إبداع في العرض، وجمال في التنسيق، وقوة في الأداء، وشيئ من هذا كله لا يقتضي أنه يعتمد على الخيال والتلفيق والاختراع".¹ مما جعل منها قصة معجزة لا يمكن لأي من البشر النظم على منوالها، وهذا ما أكده الإمام الباقر حيث قال بأن القرآن الكريم أتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، ولهذا قال: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)²، ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم³. لكن ومع هذا التفرد البلاغي والإعجاز الفني الذي اتسمت به القصة القرآنية في أسلوبها وطريقة عرضها وآدائها، فهي لا تخرج-بطبيعية الحال-عن الغرض الدنيوي والمقصد الإلهي الذي جاء به القرآن الكريم في التربية والهداية والتوجيه.⁴

ج- أغراض القصة القرآنية:

من المعلوم أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية التي طوى بها الله سبحانه وتعالى رسائل السماء إلى الأرض، فكان فيه عرض لأخبار الأولين والآخرين، وسرد لقصص الأمم البائدة والحضارات الغابرة، وما حدث للأنبياء والمرسلين مع أقوامهم من صراع بين الحق والباطل. وكل ذلك كان عن مقصد وحكمة إلهية منشودة، حيث "لم يكن هذا القصص الواعي المحكم سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة يتسلى بها السامعون ثم يغفلون عن حكايتها أو يتعظون، لأن هذا القصص كان تاريخاً لسير الدعوة الدينية في الحياة، وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة؟ وما العقبات التي اعترضتها، وهل وقفت عندها، أو تغلبت عليها، وما صنع الأنبياء بإزائها، وكيف قبلت الأمم المدعوة رسالات الله أو صدت عنها، وبم انتهى الصراع بين الغي والرشد؟"⁵، وصدق الله عز وجل حين قال: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)⁶.

وعليه فالقصة القرآنية وسيلة من وسائل الدعوة، تهدف إلى غايات وأغراض نجملها في الآتي:

1 ينظر: سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن مصدر سابق، ص 259.

2 سورة الطور: الآية 34.

3 الباقراني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص 288.

4 ينظر: عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص 242.

5 محمد الغزالي: "نظرات في القرآن"، مرجع سابق، ص 95.

6 سورة يوسف: الآية 111.

1- إثبات وحدانية الله عز وجل: فقد سرد الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الكثير من قصص الأنبياء والمرسلين، وذلك بغرض بيان أصول شرائعهم القائمة على مبدأ واحد منذ آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وهو وحدانية الله سبحانه وتعالى¹، قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)²

2- تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وقلوب الأمة المحمدية على دين الله تعالى، وذلك بذكر نماذج قصصية عن الأنبياء السابقين وأقوامهم وما وقع معهم من انتصار للحق وخذلان للباطل³، قال الله تعالى: (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)⁴.

3- ذكر أخبار الأنبياء السابقين تخليدا لدعوتهم، وتصديقا وإيمانا بهم⁵، قال الله تعالى: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)⁶

4- مؤازرة النبي صلى الله عليه وسلم وإمداده بالمعجزات⁷: فقد مثلت القصة القرآنية وجها من وجوه الإعجاز الغيبي، إذ نجد معظم النصوص القرآنية هي عبارة عن قصص عن الأمم السالفة والقرون الماضية⁸، وذلك لتكون صدقا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى أنها تمثل رصيذا من الدروس والتجارب للأمة العربية الإسلامية تستقي منها كوثر التجربة والموعظة، قال الله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)⁹.

1 ينظر: مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مصدر سابق، ص301.

2 سورة الأنعام: الآية25.

3 ينظر: مناع القطان: "المرجع السابق"، ص301.

4 سورة هود: الآية120.

5 ينظر: مناع القطان: "المرجع السابق"، ص302.

6 سورة النساء: الآية164-165.

7 ينظر: سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي"، مرجع سابق، ص126.

8 ينظر: عبد العزيز السحيباني: "جوامع الكلم وشواهد الإعجاز"، مرجع سابق، ص20.

9 سورة هود: الآية49.

5-التربية والتهديب: تعد القصة القرآنية منهجا تربويا قويا، فهي مع بلاغة أسلوبها المعجز ودقة المعاني وصدقها، نجدها ترمي إلى أهداف تربوية واضحة، فهي "لون من ألوان الهداية في هذا الكتاب المعجز، وهي الحق كل الحق، والصدق كل الصدق في تسجيل الوقائع والأحداث، كما أنها منبع إشعاع فياض في تقويم النفس البشرية"¹، وتوجيهها إلى الهداية والطريق المستقيم، فحوادثها وشخصياتها وإن كانت في زمن غابر فهي صالحة لكل زمان ومكان، ومن المحتمل أن تتكرر تجربتها مرة أخرى على أيّ مصر من الأمصار وفي أيّ عصر من العصور، قال الله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)²

وعليه يعد القصص القرآني "تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم وتمدهم بزاد تهذيبي، من سيرة النبيين، وأخبار الماضيين، وسنة الله في حياة المجتمعات وأحوال الأمم."³

6-العبرة والموعظة الحضارية: لقد سرد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم "للتجربة البشرية من لدن آدم عليه السلام إلى الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم من خلال القصص القرآني بما يمكن أن نطلق عليه الشهود التاريخي لرحلة البشرية، ليكون ذلك رصيذا لا بد منه للأمة الوارثة التي انتهت إليها القيادة الدينية، لتعبر بها وتبني عليه ما يمكن أن نطلق عليه الشهود الحضاري."⁴

فالأمة العربية الإسلامية لها من تجارب الأمم السابقة ما يسمح لها بأخذ الدروس والعبر، وكأنّ القرآن الكريم مدرسة حضارية ومنهجها قصصه القرآني لما يحتويه من جملة من سنن الله الكونية في قيام الأمم وفنائها⁵، يقول الله تعالى: (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)⁶

لذا يجب على الأمة العربية الإسلامية أن تكون على وعي بالقصص القرآني، وتفقه ما تضمنته هذه القصص من مقدمات ونتائج يبني عليها نهوض أو سقوط حضارة أو أمة من الأمم، وذلك حتى تستأنف دورها في الشهود الحضاري التي أصبحت غائبة عنه دهرا من الزمن، وهي المكلفة به عن سواها من

1 عمر محمد باحاذق: "أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز"، مرجع سابق، ص224.

2 سورة آل عمران: الآية 140.

3 مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص305.

4 محمد الغزالي: "كيف نتعامل مع القرآن"، مدرسة أجراها الأستاذ: عمر عبيد حسنة، مصر، نَهضة مصر للطباعة والنشر، ط7، يوليو

2005م، ص216.

5 ينظر: محمد الغزالي: "نظرات في القرآن"، مرجع سابق، ص100.

6 سورة الأعراف: الآية 101.

الأمم، قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)¹.

وحاصل ما سلف، فإنّ القصة القرآنية هي كلام الله المعجز من حيث النظم والبلاغة المشتمل على أخبار الأمم السابقة والحضارات الغابرة وأنبياء الأنبياء والمرسلين وما وقع لهم مع أقوامهم، قصد العبرة والموعظة والتربية والتوجيه. فالقصص القرآني ذو مرجعية إلهية جمع بين دفتيه التفرد الإعجازي البلاغي والتربية الدينية القويمة بهدف إصلاح الأمة العربية الإسلامية، لتتمكن من بناء الحضارة القرآنية الشاهدة.

وهذا آخر ما نختم به حديثنا النظري عن القرآن وبلاغته الإعجازية لتتوقف مع الدراسة التطبيقية، والتي ارتأينا أن تكون في ظلال سورة هود، والتي دفعنا إليها دوافع شخصية سبق وأن كشفنا عنها في مقدمة بحثنا بالإضافة إلى دوافع موضوعية لها صلة بالموضوع، والتي تعود إلى ما تضمنته سورة هود من أسلوب قصصي جمع بين خصائص البلاغة الإعجازية والتربية الحضارية القويمة وبناء على ذلك سنحاول الكشف عن ما أوردته سورة هود من مواضيع قصصية هذا من جهة، والكشف عن جانب من جوانب إعجازها البلاغي من جهة أخرى.

ثانيا: القصة ودورها في التربية الحضارية من منظور سورة هود:

لقد قص القرآن الكريم علينا أنبياء أقوام كانوا قبلنا سكنوا الأرض وعمروها وأنشؤوا عليها حضارات عريقة لا يزال التاريخ الحضاري شاهدا على آثارها، وذلك لما كانوا يتمتعون به من قوة وبأس شديد، وملك وإمكانيات مادية، لكنهم كذبوا المرسلين، وعتوا في الأرض كفرا وطغيانا فكان جزاؤهم الخسران المبين.

وسورة هود واحدة من بين السور القرآنية التي نفخ-الله سبحانه وتعالى- فيها روح حياة القرون الهامدة، والحضارات البائدة لتكون عبرة للأمة الوارثة-أمة القرآن الكريم- المنوطة بالشهادة الحضارية على الأمم والملل، قال الله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)².

أ-مقدمات في سورة هود:

سورة هود واحدة من سور القرآن الكريم التي نزلت وحيا على النبي صلى الله عليه وسلم، وأضاءت السبيل لأهل القرآن لما فيها من أصول العقيدة وأنوار الهداية.

¹ سورة البقرة: الآية 143.

² سورة هود: الآية 116.

1-تسميتها وترتيبها:

*تسميتها:وردت سورة هود بهذه التسمية في جميع المصاحف،وكتب التفسير،والسنة،ولم تعرف باسم آخر غير هذا.¹

وقد وردت بهذه التسمية أيضا في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم،من ذلك ما ورد في حديث ابن عباس-رضي الله عنه-قال:قال أبو بكر رضي الله عنه:(شيبني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت)²

وفي رواية أخرى حسب ما جاء في مسند أبي يعلى-قال:(حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير،حدثنا محمد بن بشر،حدثنا علي بن صالح بن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال:قالوا:يا رسول الله قد شبت،قال:"شيبني هود وأخواتها")³

ويرى الطاهر بن عاشور أنّ سبب تسميتها باسم النبي هود عليه السلام يعود إلى تكرار اسمه -عليه السلام-فيها خمس مرات وقصته مع قومه،ولأنّه حكى فيها عن قصته مع قومه عاد⁴ أكثر وأطول مما حكى عنه في غيرها من سور القرآن⁵،كما أنّها وضحت بأنّ قوم عاد هم قومه عليه السلام قال الله تعالى:(ألا بعداً لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ)⁶

وذكر محمد علي الصابوني سبب تسميتها فقال:"سميت السورة الكريمة باسمه،تخليدا لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله،فقد أرسله الله تعالى إلى قوم"عاد"الطغاة المتجبرين الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا:من

1 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج11، ص311.

2 الإمام الحافظ أبو عيسى الترميذي: "سنن الترميذي"، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب12، رقم الحديث3297، ص744.

3 الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي: "مسند أبو يعلى الموصلي"، تحقيق: حسين سالم أسد، دمشق، دار المأمون، 1404هـ-

1984م، ج2، رقم الحديث880.

عاد هم قوم من قبائل العرب سكنوا شبه الجزيرة العربية، وبالضبط في منطقة الأحقاف بين اليمن وعمان، كانوا من عبدة الأوثان فبعث الله لهم هودا عليه السلام يبلغهم رسالة التوحيد فكذبوه وطغوا وعتوا عن أمر فكان مصيرهم ربحا صرصر اعاتية. وذكرت قصتهم في عدة مواضع في القرآن الكريم من ذلك سورة الأحقاف، سورة الحاقة، لكن السورة التي قصت قصتهم بشكل مفصل كانت سورة هود التي

⁴أخذت اسم نبيهم هود عليه السلام(ينظر ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

⁵ ينظر: الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج11، ص311.

⁶ سورة هود: الآية60.

أشد منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين.¹

***ترتيبها الزمني والمصحفي:** وفيما يخص ترتيبها الزمني في النزول، يقول صاحب التحرير والتنوير: أن سورة هود نزلت "بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف، وقد عدت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور."² ويبقى رأياً آخر لابن عطية يرى فيه هذا الأخير بأنّ سورة هود نزلت قبل سورة يونس ودليله على ذلك هو أنّ التحدي في سورة هود وقع بعشرسور، يقول تعالى: (**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**)³، بينما في سورة يونس وقع التحدي بسورة واحدة⁴، يقول الله تعالى: (**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**)⁵.

وربما ترتيب ابن عطية هذا كان ترتيباً وفق مراحل التحدي الإلهي الذي تحدى الله به العرب وأعجزهم على الإتيان بمثل كلامه الكريم.

أمّا عن ترتيبها في المصحف فسورة هود هي السورة الحادية عشرة، وتقع بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف.

وبناء على هذا فقد توافقت ترتيبها في المصحف مع ترتيب نزولها.

***عددها:** اختلف في عدد آيات سورة هود ونقل الطاهر بن عاشور هذا الاختلاف فقال: "وقد عدت آياتها مائة واحدى وعشرين في العدد المدني الأخير وكانت آياتها معدودة في المدني الأول مائة واثنين وعشرين، وهي كذلك في عدد أهل الشام، وفي عدد أهل البصرة وأهل الكوفة مائة وثلاثون وعشرون."⁶ ولعل الرأي الأخير القائل بأنّ عددها هو مائة وثلاثون وعشرون (123) هو الأرجح لأنّه هو العدد الذي يوافق مصاحف الرسم العثماني المتداولة بيننا اليوم.

1 محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص5.

2 الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج11، ص312.

3 سورة هود: الآية13.

4 ينظر: الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج11، ص312.

5 سورة يونس: الآية38.

6 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج11، ص312.

2-مكان نزولها وسببه:

*مكان النزول: سورة هود هي من السور المكية¹.

وذلك باتفاق جمهور المفسرين²، وإن ذهب البعض إلى القول بما قال به ابن عباس وابن الزبير وقتادة في أنّ سورة هود هي سورة مكية إلا آية واحدة منها مدنية³ وهي قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)⁴.

كما قال ابن عطية هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة⁵، وهي قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ)⁶، وقوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)⁷، وقوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)⁸.

وعموماً فإنّ الرّأي الأرجح هو أنّ سورة هود كلها مكية⁹، لما تضمنته من خصائص للقرآن المكي من حديث عن قصص الأنبياء والمرسلين وأخبار الأمم السابقة.¹⁰

*سبب نزولها: تعود وقائع سورة هود إلى فترات عصيبة شهدتها تاريخ الدعوة الإسلامية بمكة المكرمة، ولحظات حرجة مر بها النبي صلى الله عليه وسلم.

1 السورة المكية أو القرآن المكي هو ما نزل بمكة، وعكسه القرآن المدني وهو ما نزل بالمدينة، وهناك من يقول بأن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة وأشهر الأقوال وأرجحها أن القرآن المكي ما نزل قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وإن كان نزوله بمكة، والإمام بهذا الأمر علم له ضوابطه ومنهجه التي عنيت به كتب الدراسات القرآنية ومصادر علوم القرآن.

2 ينظر: ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج4، ص303، وينظر: محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص5.

3 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير مصدر لسابق، ج11، ص311.

4 سورة هود: الآية 114.

5 ينظر: الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج11، ص312.

6 سورة هود: الآية 12.

7 سورة هود: الآية 17.

8 سورة هود: الآية 114.

9 ينظر: الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج11، ص312.

10 ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ج2، ص162.

فقد نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبي طالب وكذلك وفاة زوجته خديجة بنت خويلد-رضي الله عنها-وكلاهما كان يمثلان السند للنبي صلى الله عليه وسلم، فعمه أبو طالب كان يمثل له الحصن المنيع الذي يحصنه من هجمات كفار قريش، وزوجته خديجة-رضي الله عنها- كانت الصدر الرحيب الذي يلجأ إليه وقت الضيق، وبفقدانهما عظمت المصيبة على النبي صلى الله عليه وسلم واشتد ضيقه حتى سمي هذا العام بعام الحزن.

ومما زاد شدة حزنه صلى الله عليه وسلم حادثة الإسراء وما وقع جراءها من استهزاء وسخرية كفار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم واشتداد الحرب عليه وتوقف الناس على الدخول في الإسلام. وفي هذه الفترات العصبية نزلت سورة هود بنفحاتها الطيبة لتكون بردا وسلاما على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيتا له، وذلك لما فيها من عرض لقصص الأنبياء والمرسلين وما وقع لهم من بلاء وما تعرضوا له من مصائب ونكران من أقوامهم¹.

وبهذا فقد نزلت سورة هود لتبين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أن ما تعرض له هو سنة الله في جميع أنبيائه ورسله عليهم السلام.

إذن هذا فيما يخص الجو العام الذي نزلت فيه سورة هود، وبالإضافة إلى هذا وجدنا سببا لنزول بعض آيات من سورة هود، من ذلك قوله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)²

فقد نزلت هذه الآية "في الأحنس بن شريق، وكان رجلا حلوا الكلام، حلوا المنظر يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجب، ويطوي بقلبه ما يكره، وقال الكلبي: كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فيظهر له أمرا يسره، ويضمّر في قلبه خلاف ما يظهر فأنزل الله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ)³، يقول: يكمنون ما في صدورهم من العداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم."⁴

1 ينظر: سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج4، ص1840-1841

2 سورة هود: الآية5.

3 سورة هود: الآية5.

4 أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي: "أسباب نزول القرآن"، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، لبنان، بيروت، دار الكتب

العلمية، ط1، 1411هـ-1991م، ص271.

أيضا قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)¹.

فسبب هذه الآية كما رواه الإمام البخاري في باب-الصلاة والكفارة-قال: "حدثنا قتيبة قال: حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن سعود أن رجلا أصاب امرأة قبله فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله عز وجل: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: لجميع أمي كلهم."²

3-فضلها وشرفها: مما ذكر في فضل سورة هود ماقاله أبو محمد الدارمي عن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأوا سورة هود يوم الجمعة)³

فلفضلها رغب النبي صلى الله عليه وسلم في قراءتها يوم الجمعة، وذلك لما فيها ذكر للأمم، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظات البطش بأعدائه، فلو ماتوا من الفرع لحق لهم، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه تطفب بهم في تلك الأحيان حتى يقرؤوا كلامه"⁴.

ولعظم هذه السورة جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شئت، قال: (شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت).⁵ وقال يزيد بن أبان: رأيت رسول الله عليه وسلم في منامي، فقرأت عليه سورة هود فلما ختمتها، قال: (يا يزيد، هذه القراءة، فأين البكاء).⁶

وسورة هود وإن شيتت النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنها سلت قلبه وثبتت فؤاده لما حوته من سرد لقصص الأنبياء والمرسلين وما حدث لهم من بلاء عظيم، وصدّ ونكران من أقوامهم، وكل ذلك جاء

1 سورة هود: الآية 114.

2 محمد أبو إسماعيل البخاري: "صحيح البخاري"، مصدر سابق، ج1، رقم الحديث، ص526، ص126. وينظر الواحدي: المصدر السابق، ص272.

3 القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"، مصدر سابق، ج11، ص62.

4 المصدر نفسه: ج11، ص64.

5 الترميذي: "سنن الترميذي" - كتاب تفسير القرآن -، مصدر سابق، باب: 12، رقم الحديث 3297، ص744.

6 القرطبي: "المصدر السابق"، ج11، ص64.

بأسلوب قصصي مشوق جمع بين طياته أصول التربية الحضارية الإسلامية الصحيحة وأفانين من التفرد البلاغي المعجز.

ب- موضوعات سورة هود ومقاصدها:

إنّ القرآن الكريم بما فيه جملة وتفصيلا أنزل لهداية البشرية وتوجيهها إلى الطريق المستقيم الذي شرعه الله لعباده منذ خلق آدم عليه السلام إلى قيام الساعة.

ومع هذه الشمولية في كتاب الله تعالى إلا أننا نجد أن كل سورة من سور القرآن الكريم عاجلت موضوعا معيناً.

1-الموضوع العام لسورة هود ومقاطعها الفرعية:

***الموضوع العام للسورة:** "يدور محور سورة هود حول قضية الألوهية، وتثبيت العقيدة في قلوب المدعوين ولذلك كثر الحوار بين الرسل وأقوامهم لتثبيت هذه الحقيقة"¹، كما تحدثت "عن حقائق العقيدة، وحركتها عبر التاريخ، ثم بينت في خواتيمها التعقيبات والتعليقات المبنية على سياق السورة من المقدمة ومن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته."²

ويرى سيد قطب "أنّ موضوعاتها التي تقرها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة، وموقف مشركي قريش منها، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والقلّة المسلمة معه، والعلاج القرآني الرباني لهذه الآثار."³

فالقضية العامة التي طرحتها سورة هود هي في معظمها عرض لباقة منوعة من قصص الأنبياء والمرسلين وموقف أقوامهم من دعوتهم.

***المقاطع الفرعية لسورة هود**⁴: تتضمن سورة هود ثلاث مقاطع رئيسية عرضت للعقيدة من حيث حقائقها، وحركتها في التاريخ، والتعقيب على الحركة في السورة⁵.

1 مصطفى مسلم ونخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، مرجع سابق، ج3، ص446.

2 المرجع نفسه: ص446.

3 سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج4، ص1839.

4 اعتمدت في تحديد مقاطع سورة هود على التقسيم الذي ذهب إليه مصطفى مسلم ونخبة من علماء التفسير في مصنفهم: "التفسير

الموضوعي لسور القرآن الكريم"، مرجع سابق، ج3، ص449.

5 ينظر: مصطفى مسلم: "المرجع السابق"، ج3، ص449.

وتتمثل هذه القطاعات الثلاثة التي اشتملت عليها السورة فيما يلي:

القطاع الأول: (من الآية 1 إلى الآية 24) وقد اشتمل هذا القطاع على حقائق العقيدة¹، ويمثل المقدمة-التي

يتوسط بينها وبين التعقيب وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية².

إذ استهل الله سبحانه وتعالى السورة الكريمة بحروف إعجازية إشارة منه في ذلك إلى إعجاز القرآن الكريم³، الذي لو اجتمعت قبائل الإنس والجن على الإتيان بمثله ما استطاعوا ذلك، ثم تبع ذلك "بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم الذي لا يخفى عليه خافية من مصالح العباد"⁴، ثم عرفت السورة بعد ذلك لعناصر الدعوة الإسلامية والمتمثلة في الدعوة إلى عبودية الله وحده لا شريك له عن طريق تقديم مجموعة من الحجج والبراهين العقلية المقنعة، والموازنة بين الفريقين: فريق الهدى والإيمان، وفريق الضلال والكفر.⁵

كما توقفت سورة هود في هذا المقطع وقفه مع النبي صلى الله عليه وسلم لتسليية وتثبيت فؤاده⁶، على مواصلة دعوته إلى الله بعد أن ضاق صدره من قومه ومالقيه منهم من صد وإعراض وتكذيب، ثم يأتي بعد ذلك التأييد من الله بأن يتحداهم بالإتيان بمثل عشر سور من القرآن الكريم فيقع منهم العجز ليكون ذلك دليلاً على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.⁷

ليختتم هذا المقطع في الأخير ببيان الفرق الهائل بين المؤمنين والكافرين وضرب مثلاً لكل منهما حيث مثل الله عز وجل لفريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع⁸، وشتان ما بين الفريقين من اختلاف.

1 ينظر: المرجع نفسه: ص 449.

2 سيد قطب: "في ظلال القرآن"، ج 4، ص 1850، ومصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي"، مرجع سابق، ج 3، ص 449.

3 ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 4.

4 المصدر نفسه: ص 5.

5 ينظر: المصدر نفسه: ص 5.

6 ينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي"، مرجع سابق، ج 3، ص 454.

7 ينظر: ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج 4، ص 310. وينظر: مصطفى مسلم: المرجع السابق، ج 3، ص 455.

8 ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 5. وينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن

الكريم"، مرجع سابق، ج 3، ص 458.

القطاع الثاني: (من الآية 25 إلى الآية 99) وقد اشتمل هذا القطاع في سورة هود على توضيح حركة حقائق العقيدة عبر التاريخ¹، وذلك بعرض سلسلة من قصص الأنبياء والمرسلين من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمد عليه الصلاة والسلام لتقرير حقائق العقيدة الإسلامية الواحدة²، والمتمثلة في: "الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية له وحده بلا منازع، والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ، مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء، وإنما الجزاء يكون في الآخرة، وأن الحرية والاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء."³

والتأمل في سورة هود يرى بأن قوامها وجوهر مضمونها هو ما احتوته من قصص الأنبياء والمرسلين والذي تم عرضه وفق خط تاريخي يذكر التاليين بمصير السالفين⁴.

ويمكننا أن نمثل لهذه القصص التي عرضتها سورة هود بالشكل التالي:



¹ ينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي" مرجع سابق، ج3، ص459.

² ينظر: سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج4، ص1841.

³ المصدر نفسه: ج4، ص1841.

⁴ ينظر: مصطفى مسلم: "المرجع السابق"، ج3، ص459.

وقد ربط بين قصص هذا المقطع خيط موضوعي واحد تمثل في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل والنهي عن

الشرك، والدليل على ذلك أنّ جميعهم دعوا إلى أصل واحد¹، تمثل في قوله تعالى: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)²، فالله سبحانه وتعالى أراد من خلال هذا العرض القصصي أن يبين لمشركي قريش بأنّ دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولاً غير مسبوق، بل قد قالها قبله نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم عليهم السلام³، وأنّ جميعهم عليهم السلام تعرضوا إلى ما يتعرض له محمد صلى الله عليه وسلم من تكذيب وإعراض وسخرية فكان العاقبة نصر من الله لأنبيائه وأتباعهم من المؤمنين، وهلاك وتدمير أهل الشرك والجاحود⁴.

القطاع الثالث: (من الآية 100 إلى الآية 123) مثل هذا المقطع خاتمة سورة هود، واشتمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة، مبيّنة على ما سبق في سياق السورة من المقدمة ومن القصص، وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك.⁵

يقول صاحب صفوة التفاسير: "وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذّبين في العصور السالفة، ولتثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام أمام تلك الشدائد والأهوال"⁶، يقول الله تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)⁷.

وماخرج به نحن من هذا كلّهُ هو أنّ الغرض من هذا العرض القصصي الذي تضمنته سورة هود هو بيان سنة الله في رسله وأنبيائه وما تعرضوا له من نكران وجحود من أقوامهم، بالإضافة إلى بيان مصير هؤلاء المشركين الجاحدين من هلاك في الدنّيا وخسران مبين في الآخرة، وذلك تسليّة لقلب خاتم الأنبياء والمرسلين-محمد صلى الله عليه وسلم-من جهة، واتعاظ قومه وأخذهم للعبرة من جهة أخرى.

1 ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص467.

2 سورة هود: الآية 50-61-84.

3 ينظر: سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج4، ص1841.

4 ينظر: المصدر نفسه: ج4، ص1841.

5 المصدر نفسه: ج4، ص1841.

6 محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص6.

7 سورة هود: الآية 120.

2- المناسبات في سورة هود: يعد التناسب سمة جلييلة، وميزة إعجازية تفرد بها كلام الله عزّ وجل، وهذا ما تنبه إليه علماءنا الأفاضل وأسسوا على خلفيته علما قرآنيا سموه بعلم المناسبة، وسبق أن تكلمنا عن هذا في الجانب النظري من بحثنا.¹

فكلُّ سورة من سور القرآن الكريم تمثل وحدة موضوعية لها ارتباط مع محورها وموضوعاتها المتناولة فيها، كما لها صلة بافتتاحيتها وخاتمتها ناهيك عن الصلة التي تربط بين ما قبلها وما بعدها.

وسورة هود ليست بدعا عن سور القرآن الكريم، فهي أيضا لها مناسباتها والمتمثلة في الآتي:

*** المناسبة بين اسم السورة ومحورها:** يقول مصطفى مسلم وآخرون بأنّ "في اسم السورة (هود) التي تحمل اسم النبي هود عليه السلام صلة وطيدة بمحور السورة لأن قصة هود عليه السلام جاءت في هذه السورة مفصلة ومبينة منهجه في الدعوة مع قومه عاد وما جرى بينه وبين قومه من حوار لتثبيت العقيدة في قلوبهم، وهو ما يتفق وأسلوب الأنبياء جميعا في البشارة والندارة في دعوتهم إلى الله تعالى".²

وسبق وأنّ وضحنا أنّ وجه تسمية سورة هود بهذا الاسم يعود إلى تكرار اسمه عليه السلام فيها خمس مرات، ولأنّ ما حكى فيها عنه وعن جهوده الجبارة في دعوة قومه إلى الله كان أطول مما حكى عنه في مواضع أخرى من القرآن الكريم³، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم "عاد" العتاة المتجبرين، الذين اغتروا لقوة أجسامهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرر العاتية، وقد أسهبت الآيات⁴ في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين.⁵

*** المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:** من بين المناسبات التي عني بها القرآن الكريم التناسب والتناسق بين فاتحة السورة القرآنية وخاتمتها.

1 ينظر: علم المناسبة وعلاقته بالتفسير في الفصل الثاني من الرسالة ص 231

2 مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، ج 3، ص 447.

3 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 11، ص 311. وينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 5.

4 والآيات التي عرضت لقصة هود مع قومه في السورة كانت من الآية 50 إلى 60.

5 محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 5.

وهذا ما وجدناه أيضا في سورة هود، حيث إنَّ مناسبة افتتاحية السّورة بخاتمتها تعجب الناظر، وتبهر السّامع، فقد ختمت السّورة بقوله تعالى: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)¹، وهذا الاختتام يتفق تماما مع بدء السورة الكريمة بقوله تعالى: (الرِّيبَاتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)². "فحري بمن يؤمن بأنّ الله تعالى وحده يرجع إليه الأمر كله أن يستجيب لما فيه في كتاب الله تعالى من أحكام مفصلة فيها البشارة والندارة لكل الناس".³

إذن: كان أول سورة هود هو الدّعوة إلى عبادة الله تعالى، ونفسه كان ختامها، "وهكذا تختتم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية، بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوبة إليه وحده، والرجعة إليه في نهاية المطاف، وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون، وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام والتناسق بين القصص والسياق بكمال النظرة والفكرة والاتجاه في هذا القرآن".⁴

ويعد هذا التّناسب بين فاتحة السّورة وخاتمتها وجها من أوجه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وقد اصطّح عليه بلاغيا بمصطلح حسن الابتداء وحسن الانتهاء⁵. وتم إدراج ذلك ضمن المحسنات البديعية، ولنا مع ذلك وقفة فيما هو آتي من حديث عن علم البديع في سورة هود.

* مناسبة سورة هود لما قبلها وما بعدها: تتوسط سورة هود في التّرتيب المصحفي للقرآن الكريم بين سورتي يونس ويوسف، وبطبيعة الحال يوجد بين السّور الثّلاث اتصال وتناسب.

فبعد أن انتهت سورة يونس بقوله تعالى: (وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)⁶، موجهها من خلالها الله- سبحانه وتعالى- خطابه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم- وأمرا إياه بأن يتبع الوحي الذي نزل عليه تأتي مباشرة بعدها سورة هود مستهلة حديثها ببيان أصل هذا الوحي الذي

1 سورة هود: الآية 123.

2 سورة هود: الآية 1-2.

3 مصطفى مسلم: "المرجع السابق"، ج3، ص447.

4 سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج4، ص1934.

5 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق، ص21، ص192.

6 سورة يونس: الآية 109.

نزله عليه الله تعالى بالكتاب المحكم المفصل¹، يقول الله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)².

بالإضافة إلى هذا فإن وجه الاتصال بين سورتي يونس وهود يظهر من التوافق المضموني، حيث كلتا السورتين تطرقتا إلى موضوع واحد وهو القصص، وهذا ما أشار إليه سيد قطب في قوله: "نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضا... والعجيب أن هناك شبهة كبيرة بين هاتين السورتين وهاتين الموضوعين، وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك."³

ولعل وجه الاختلاف بينهما يكمن فقط في أن سورة يونس عرضت لهذا القصص بعرض مجمل بينما سورة هود فصلت في ذلك حتى عُدَّ القصص فيها هو جسم السورة.⁴

وقد اختتمت سورة هود ببيان قصد الشارع- سبحانه وتعالى- من هذا الاستعراض القصصي بقوله تعالى: (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)⁵. وذلك تثبيتا لقلب النبي صلى الله عليه وإخباره بأن ما تعرض له فقد تعرض له من قبل جميع أنبياء الله ورسله عليهم السلام⁶، وأن في هذا العرض القصصي "المواعظ والمذكرات التي تصقل أصحاب القلب النيرة، أما غيرهم من الذين لا يؤمنون بهاتيك المواعظ والمذكرات... الأيام كفيلة بكشف كل ما هو آت وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"⁷ وذلك حين يعودون إلى عالم الغيب والشهادة ومن بيده مفاتيح الأمور كلها فيوفي كل منهما حقه وينال جزاءه.⁸

1 ينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، مرجع سابق، ج3، ص447.

2 سورة هود: الآية 1-2.

3 سيد قطب: "المصدر السابق"، ج4، ص1834.

4 ينظر: المصدر نفسه: ج4، ص1834.

5 سورة هود: الآية 120-123.

6 ينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن"، مرجع سابق، ج3، ص501.

7 المرجع نفسه: ج3، ص501.

8 ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص501.

وبعد ختام سورة هود تعقبها سورة يوسف مفتحة بقول الحق سبحانه وتعالى: (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴿٢﴾ نحن نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)¹

والتناسب يبدو جليا بين السورتين حيث أنّ كلا منهما اشتمل على بيان الهدف من القصص القرآني، فمثلا ختم الله سورة هود ببيان الغرض من القصص القرآني هو تثبيت قلب النبي-صلى الله عليه وسلم- وبيّن أيضا مهمة الأنبياء والمرسلين والتي تكمن في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الشرك به، جاءت أيضا افتتاحية سورة يوسف عليه السلام بالتركيز على الوجدانية من خلال أحسن القصص، قصة يوسف عليه السلام، وحسن توكل يعقوب ويوسف عليهما السلام على الله كما توكل هود عليه السلام من قبل.²

بالإضافة إلى ذلك فقد "تم التأكيد في سورة هود عليه السلام على أنّ كتاب الله محكم، وأنه من عند الله، ووجوب الإيمان بالتوحيد الخالص، وذكر دعوة مجموعة من الرسل كهود وصالح ونوح ولوط وشعيب وموسى وهارون وكلهم دعوا أقوامهم للتوحيد الخالص، وذكر عاقبة كفر أقوامهم وتكذيبهم، فناسب أن يتم ذلك بذكر قصة يوسف عليه السلام من خلال قصته الكاملة."³

وخلاصة ما نخرج به من أوجه المناسبة بين سورة هود وما قبلها وبعدها هو أنّ جيمعها اشتركت فيما يلي:

- التسمية: فقد سميت السور الثلاث بأسماء أنبياء الله: يونس-هود-يوسف عليهم السلام.
- البدء بالأحرف الإعجازية المقطعة: "الر"⁴ ثم يلي ذلك وصف الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، مرة بالحكيم وذلك في سورة يونس، يقول الله تعالى: (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)⁵، ومرة

¹ سورة يوسف: الآية 1-3.

² مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، مرجع سابق، ج3، ص506.

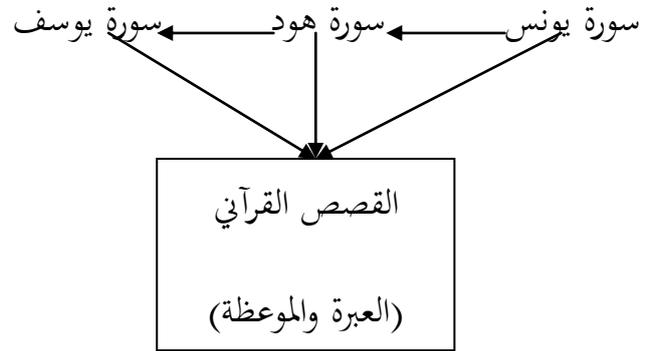
³ المرجع نفسه: ج3، ص506

⁴ سورة يونس: الآية 1، سورة هود: الآية 1، سورة يوسف: الآية 1.

⁵ سورة يونس: الآية 1.

بالمحكم المفصل وذلكفي سورة هودنيقول الله تعالى:(... كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ...)¹،ومرة بالمبين في سورة يوسف يقول تعالى:(... تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ...)²

-بيان الفائدة من القصص القرآني،حيث جميعها اشتملت على الحديث عن قصص الأنبياء والمرسلين. وبهذا التناسب يظهر لنا التداخل بين سور القرآن الكريم وأن كل سورة منه تكمل الاخرى وهذا وجه من أوجه الإعجاز القرآني،وهذا ماتحقق في سورة هود وعلاقتها بما قبلها وما بعدها. والشكل التالي يبين وجه العلاقة بينهم:



3-خصائص السياق القرآني في سورة هود:

سبق وأن تحدثنا آنفا عن السياق القرآني وأشرنا إلى خصائصه الإعجازية التي جعلت منه سياقاً متفرداً عن السياقات النصية الأخرى.

وسورة هود لا تكاد تخرج في سياقها عن هذا الطابع التفردي الذي تميز به السياق القرآني بصفة عامة سواء من خلال:

-السياق اللغوي(المقالبي):والذي يظهر في ذلك التناسق والتناسب بين القرائن اللغوية داخل السورة،إذ على الرغم من تعدد مضامين قطاعات سورة هود- كما أشرنا سالفاً-إلا أنّها "بجملتها تتعاون،وتتناسق في تقرير الحقائق الإعتقادية التي يستهدفها سياق السورة كله،وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته،وطريقة تناوله لهذه الحقائق،وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه."³

وسورة هود وإن تعددت موضوعاتها إلا أنّ الاستعراض القصصي للمسيرة التاريخية التي خاضها الأنبياء والمرسلون في الدعوة إلى الله شغلت الحيز الأكبر في سياق السورة.

1 سورة هود: الآية 1.

2 سورة يوسف: الآية 1.

3 سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج 4، ص 1844.

فعلى الرغم من تعدد الأمكنة واختلاف الأزمنة التي عاش فيها هؤلاء الأنبياء إلا أنها أتت في حلقة متناسقة متناسبة مع بعضها البعض في تأدية الغرض العام الذي انبنت عليه السورة.

-**السياق غير اللغوي:** (المقامي، الحالي): والذي يظهر في تلك القرائن المقامية والحالية من ظروف وملابسات خارجة عن النص القرآني كمرعاة أحوال المخاطب والجو العام للسورة وأسباب النزول.

ولسورة هود سياقها الخارجي والذي يعود إلى تلك الظروف والملابسات التي استوجبت ضرورة نزولها، حيث ارتبط سبب النزول بتلك الفترة العصيبة التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بمكة المكرمة وما تعرضوا له من أذى وسخرية من قبل كفار قريش ولا سيما بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، ومما زاد الطين بلة حادثة الإسراء والمعراج وغرابتها التي زادت كفار قريش تعنتا وتكديبا للنبي صلى الله عليه وسلم.¹

وفي هذه الظروف الصعبة التي كان يمر بها النبي صلى الله عليه وسلم نزلت سورة هود بعرض لقصص الأنبياء والمرسلين وما تعرضوا لهم من مواقف الإعراض والسخرية والاستهزاء من قبل أقوامهم، تسلية لقلبه صلى الله عليه وسلم، وتثبيتاً له على مواصلة دعوته التي كلف بها.²

بالإضافة إلى ذلك كان هذا الغرض القصصي الذي تضمنته سورة هود بهدف أخذ الأمة العربية الإسلامية للموعظة والعبرة من مصير تكذيب الأقسام المتجبرة لرسول الله وأنبيائه عليهم السلام. وهذا الأمر لم يقتصر على زمن النبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل باقى في أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالقرآن الكريم هو دستور حياة صالح لكل زمان ومكان .

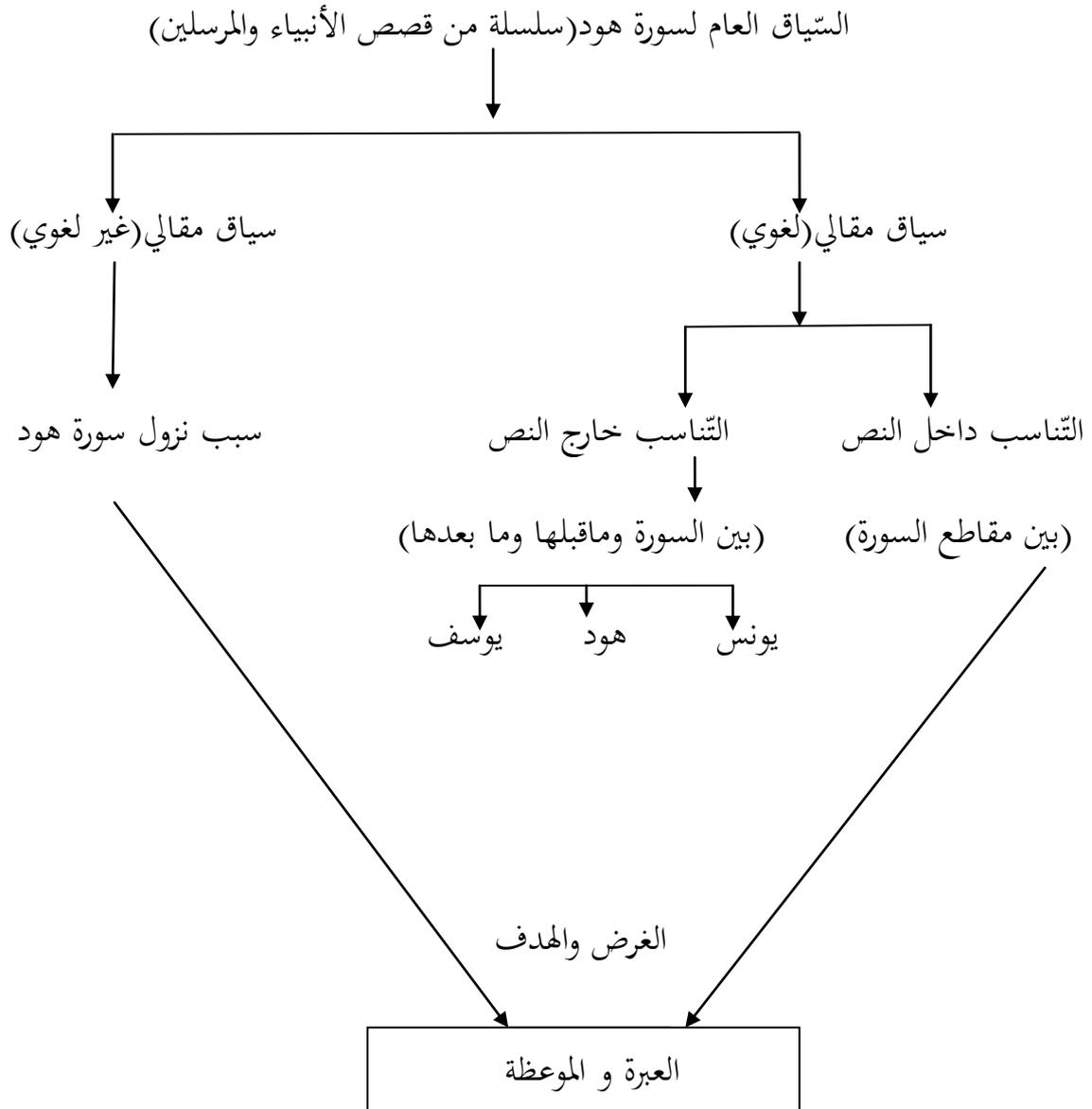
وسورة هود وإن نزلت تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن في سياقها العام رسالة سماوية للأمة العربية الإسلامية بأن تؤمن وتقتدي "بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم نجوم الهدى، ومصابيح الدجى، وجوامع العلوم والحكم، وينايع الفضائل، ومعادين الخيرات، وشآبيب الرحمات فعلى كل مسلم أن يعنى بدراسة العصر، وما يشهده من غربة في أحوال المسلمين، وفرقة بين دعاة الحق، مع تسلط الأعداء، وكيد الأدعياء، واختلاط المفاهيم، وتحبط في بعض المناهج ما بين يائس ومداهن، ومتعجل ومتعصب من هنا تبرز أهمية دراسة حياة الأنبياء جميعاً، فالدراسة المتجردة الواعية لهذه الحياة الحافلة المباركة: حصن مكين، ومنار

1 ينظر: سيد قطب: المصدر نفسه، ج4، ص1840، وينظر: محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص5.

2 ينظر: المصدران نفسهما: ج4، ص1841. ج2، ص5.

للسالكين، ومبعث إلى الوحدة والاعتصام بجبل الله المتين واتباع صراطه المستقيم، ومنطلق إلى النصر والتمكين.¹

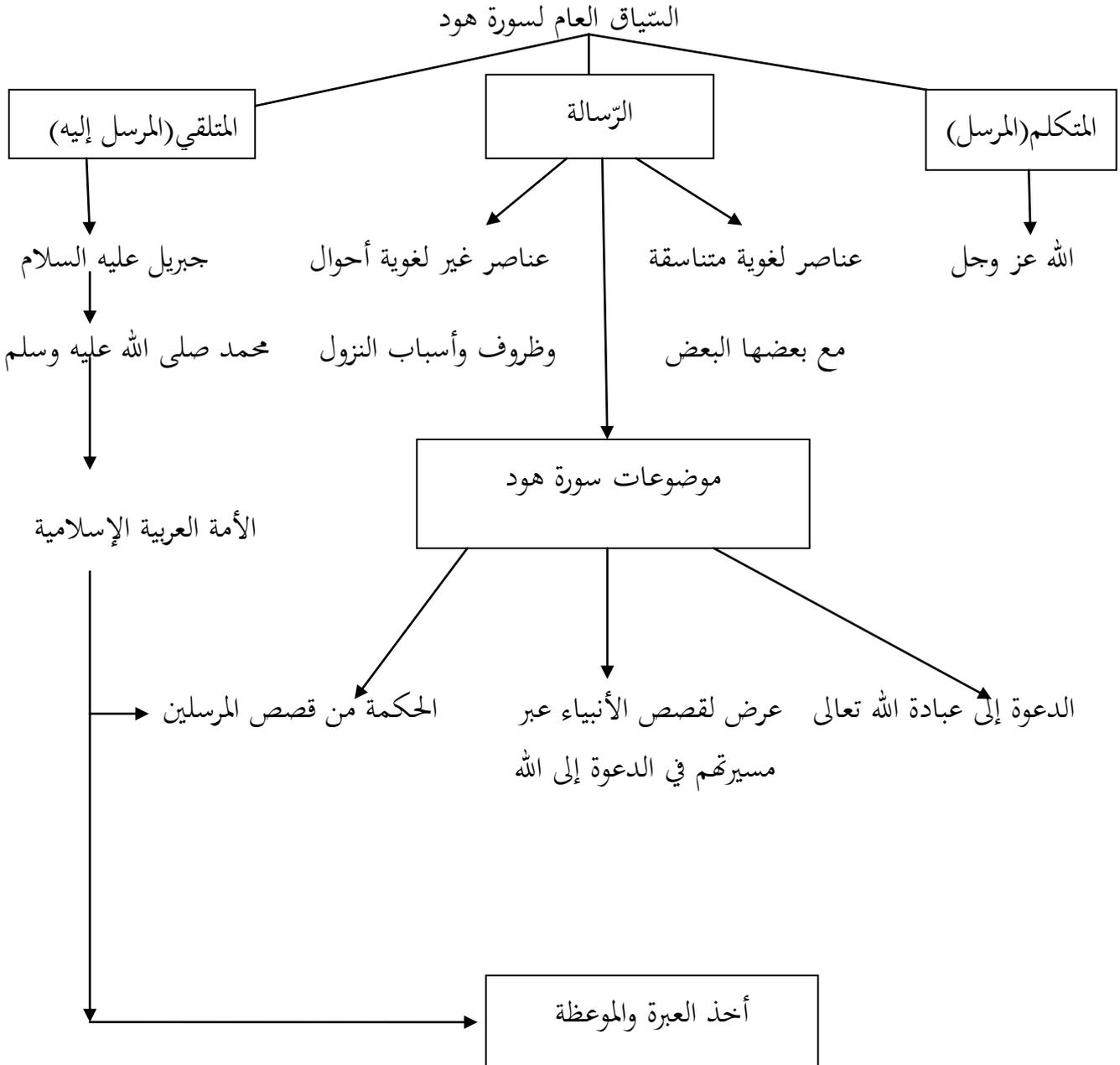
إذن: فسورة هود تضمنت السياق بنوعيه المقامي والمقالي، والشكل التالي يلخص لنا ما قلناه:



¹ مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، مرجع سابق، ج3، ص502.

ومما يتطلب علينا مراعاته أيضا في هذا الجانب هو الإشارة إلى عناصر السياق القرآني التي تضمنها سورة هود.

وقد سبق وأن تطرقنا إلى عناصر السياق القرآني في الجانب النظري من البحث، وأشرنا إلى أهم عناصر متفردة¹، وتلك العناصر هي نفسها الموجودة في سورة هود والمتمثلة في الشكل التالي:



¹ ينظر: خصائص السياق القرآني في الفصل الثاني من الرسالة.

وخلاصة القول: فإنّ سورة هود مثلت نموذجاً رائعاً للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، والتي شكلتها تلك السلسلة من قصص الأنبياء والمرسلين حيث تم استعراضها تباعاً كأنها لوحات... في عرض واحد متتابع، وليس بينها من فاصل إلا قول معلق: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا)¹ - (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)²، إلخ. كل ذلك بما تضمنه من وسائل... من أجل إخراج السورة متكاملة في صورة عرض متكامل لأهم المراحل في تاريخ البشرية وأخطرها، وأصدقها حديثاً.³

كما تجسدت الوحدة الموضوعية في سورة هود من خلال بيان المصير الموحد والحال المشترك بين جميع الأنبياء والمرسلين في الدّعوة إلى الله سبحانه وتعالى من لدن نوح عليه السّلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، مما جعل من السّورة "بناءً متكاملًا تنتظمه وحدة عضوية من نوع فريد"⁴ تضيف على المتلقي سامعاً كان أو قارئاً متعة وتشويقاً وإثارة، وصدق الله عز وجل حين قال: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)⁵.

فقد جاءت السّورة متناسقة مع سياقها متناسبة مع جوها وموضوعها متوافية مع أهدافها الرّامية إلى التّربية والتّهذيب بأسلوب بلاغي إعجازي حارت في كنهه العقول البشرية على مر عصورها.

ج-أصول التّربية الحضارية من خلال القصص القرآني لسورة هود:

القرآن الكريم كتاب هداية وتربية قبل أن يكون كتاب إعجاز وبلاغة، وإن تحدى العرب ببيانه المعجز فإنّه نزل فيهم هادياً ومهدباً.

فقد جاءت الرّسالة المحمدية الخاتمة منهاجاً لتربية الإنسان وتقويمه على أصول وقيم سليمة، وإن كانت المدنية الغربية تدعي التّربية السّليمة من خلال تنظيماتها الاجتماعية ومناهجها التّربوية، فإنّ القرآن الكريم قد سبقها إلى ذلك بأربعة عشر قرناً وما يزيد.

ولم يجد القرآن الكريم أسلوباً ينقذ البشرية من مجاهل التخبط ويخرجها من دياجير الظلام مثلما وجد أسلوب القصة، وذلك لأنّ "القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف وتنفذ إلى النّفس البشرية بسهولة

1 سورة هود: الآية 50.

2 سورة هود: الآية 61.

3 كاظم الظاهري: "بدائع الإضممار القصصي في القرآن الكريم"، د ب ن، ط1، 1412هـ-1991م، ص261.

4 المرجع نفسه: ص253.

5 سورة يوسف: الآية 3.

ويسر، وتستترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكل ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير والثمار¹، اليانعة بالمواعظ والدروس التربوية.

ذلك القصص القرآني الذي قصه الحق سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فأخذ منه العبرة واستقى منه كوثر التجربة والتربية، وأسس به حضارة إسلامية ملأ نورها آفاق الأرض.

ومما لا شك فيه أنّ هذه التربية الحضارية التي عرضها القرآن الكريم من خلال قصصه لم تقف عند شخص النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عند فترة الدعوة الإسلامية، بل هي باقية بقاء كتاب الله تعالى.

فقد مات صلى الله عليه وسلم لكن لم تمت رسالته الإنسانية ولا سيرته الزكية فالإسلام رسالة عالمية صالحة لكل زمان ومكان، يقول الشيخ محمد الغزالي: "إنّ الله ربّي محمد ليربّي به العرب وربّي العرب ليربّي بهم الناس كافة."²

وعليه فحتى تتمكن الأمة الإسلامية من بناء حضارتها الإسلامية من جديد-وهذا واجب ملقى على عاتقها- لا بد لها من العودة إلى دستورها القرآني الخالد تنهل منه دروس التربية الحضارية الصحيحة.

فالقرآن الكريم يعين المسلم ليقوم بدوره في الشهود الحضاري على أكمل وجه مصداقا بقوله عزّ وجل:
(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)³، وذلك بتقديم له أقصى حد من الوقائع الماضية والتجارب السابقة⁴ بأسلوب قصصي مشوق.

ولعل ما تضمنته سورة هود من عرض لسيرة الأنبياء العطرة وحضارات أقوامهم البائدة لأعظم تربية حضارية للأمة الإسلامية الشاهدة.

لكن من الواجب علينا قبل أن نلج إلى استنباط أصول التربية الحضارية التي رسمتها لنا قصص سورة هود أن نقف عن المنهج القصصي فيها والعناصر التي انبنت عليها.

1- القصة وعناصرها في سورة هود: لقد عرضت سورة هود لمجموعة متنوعة من قصص الأنبياء والمرسلين بأسلوب مشوق لا يكاد يخرج عن منهج القصص القرآني في إطاره العام، حيث اشتملت تلك القصص على جميع مقومات القصة القرآنية من عناصر وخصائص وأغراض.

¹ مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص305.

² محمد الغزالي: "من مقالات الشيخ الغزالي"، مصدر سابق، ص184.

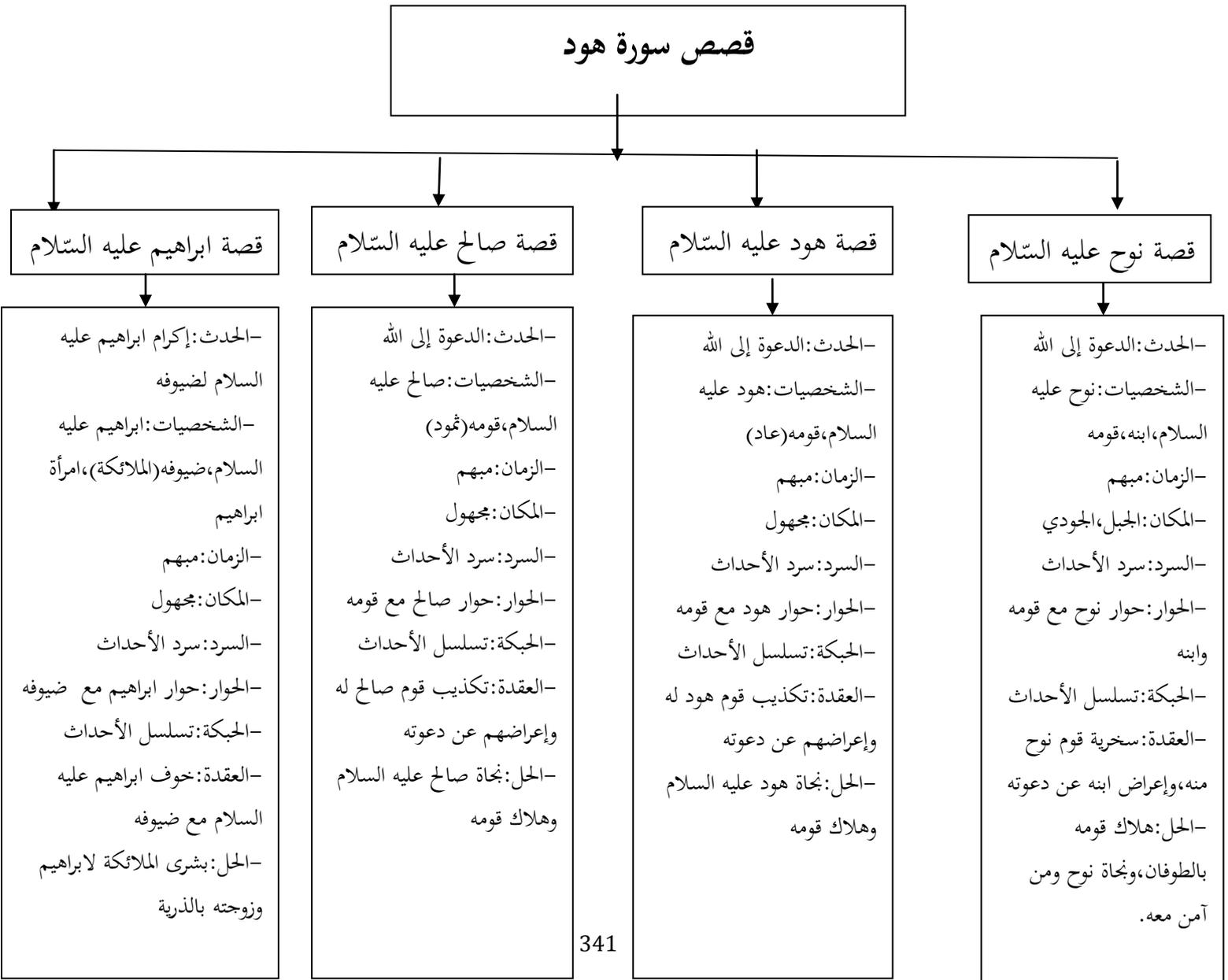
³ سورة البقرة: الآية143.

⁴ ينظر: مالك بن نبي: "فكرة كمنويلث إسلامي"، ترجمة الطيب الشريف، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط9، 1430هـ-2009م، ص72.

والقصص التي سردت في هذه السورة تمثلت في التالي:

- قصة نوح عليه السلام مع قومه.
- قصة هود عليه السلام مع قومه
- قصة صالح عليه السلام مع قومه
- قصة ابراهيم عليه السلام مع ضيوفه
- قصة لوط عليه السلام مع قومه
- قصة شعيب عليه السلام مع قومه
- قصة موسى عليه السلام مع فرعون

والشكل التالي يوضح لنا عناصر القصص في سورة هود:





***نوع القصص المعروضة في سورة هود:** شملت سورة هود جميع أنواع القصص، فهي نموذج لقصص الأنبياء والمرسلين وما حدث لهم مع أقوامهم والمعجزات التي أيدهم الله بها¹، بدءاً بنوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما نجد أيضاً اشتغالها على قصص الأمم الغابرة، والحضارة البائدة²، كحضارة عاد قوم هود عليه السلام، يقول الله تعالى: (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ

1 ينظر: مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص301.

2 ينظر: المرجع نفسه: ص301.

هود¹ (هُودٌ) . وحضارة ثمود قوم صالح عليه السلام، يقول الله تعالى: (كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ)² .

بالإضافة إلى ذلك مثلت قصص هود نموذجاً للقصة التاريخية وذلك من خلال عرضها لوقائع تاريخية لماضي الإنسانية بهدف التربية وأخذ العبرة والموعظة.³ وهذا ما سنوضحه فيما هو آتي:

2- مفهوم التربية الحضارية من منظور القرآن الكريم: من مميزات الدين الإسلامي أنه تفرد بكتاب كريم يجمع بين دفتيه محاسن الكلام الإلهي المعجز وبمجامع الكلام الرباني المنزه، يقول الله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)⁴ .

فقد شرع الله سبحانه وتعالى فيه ما ينفع الإنسان في دينه ودينه، وبث فيه من أصول التربية السامية والقيم النبيلة ما يعينه على بناء مدينته الفاضلة.

فالقرآن الكريم منهج تربوي، بفضلله أخرج محمد-صلى الله عليه وسلم-العرب من جاهليتهم واقتلع من نفوسهم جذور الحمية والعصبية فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس يقول الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)⁵ .

فالأمة العربية الإسلامية قادت الأمم وسارت بالعالم نحو الحضرة والرقى دهرًا من الزمن، وذلك لما تكمله من أصول التربية الحضارية المستمدة من مصدرها المتفرد بجلال الألوهية وعظم الربوبية.

وإن كانت الأمة العربية الإسلامية تخلفت في عصرها الزاهن عن الركب الحضاري وتراجعت عن مسؤوليتها المنوطة بها في الشهادة الحضارية على الأمم ماعليها إلا العودة إلى القرآن الكريم تستقي منه أصول التربية الحضارية التي تبعثها مجددًا في النهوض بمهمتها، قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)⁶

1 سورة هود: الآية 59-60.

2 سورة هود: الآية 68.

3 ينظر: سعيد مطاوع: "الإعجاز القصصي"، مرجع سابق، ص 50.

4 سورة الأنعام: الآية 38.

5 سورة آل عمران: الآية 110.

6 سورة البقرة: الآية 143.

ولعل ما يجب الالتفاتة إليه هو إعطاء مفهوم للتربية بصفة عامة والحضارية منها على وجه الخصوص ومعرفة أصولها من منظور القرآن الكريم.

***التربية لغة:** من ربى: وهو حفظ الشيء ورعايته، يقال: ربى ولده ورببه تربيا بمعنى رباه، فالتربية تتطلب الحفظ والرعاية للولد، ويقال: ترببه وارثبه ورباه تربية وترباه بمعنى: أحسن القيام عليه. ومنه أيضا: ربأ: ربأت الأرض إذا ارتفعت، وربأ الشيء إذا حارسه وراقبه.¹

***التربية اصطلاحا:** التربية بمفهومها الاصطلاحي العام هي "عملية نمو واكتساب للخبرة وتغيير مرغوب فيه في سلوك الفرد والجماعة عن طريق تفاعل الفرد مع الكائنات والأشياء المحيطة به ومع البيئة التي يعيش فيها"².

***التربية في المفهوم الإسلامي:** هي "تنشئة الإنسان شيئا فشيئا في جميع جوانبه ابتغاء سعادة الدارين وفق المنهج الإسلامي."³

ويعرف مقدار يالجن التربية الإسلامية بقوله: "هي علم إعداد الإنسان المسلم للحياة الدنيا والآخرة إعدادا متكاملا من جميع نواحيه المختلفة من الناحية الصحية والعقلية والعلمية والروحية والأخلاقية والاجتماعية والإدارية والإبداعية والاقتصادية والسياسية في ضوء المبادئ التي جاء بها الإسلام وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي تتفق معها."⁴

وما يستنتج مما سبق-سواء فيما يخص التعريف اللغوي أو الاصطلاحي-هو أن التربية هي التنشئة والعناية في كل الجوانب.

هذا فيما يخص التربية بصفة عامة سواء في المفهوم العام أم في المفهوم الإسلامي، أما عن التربية الحضارية فلها مفهومها الخاص.

***تعريف التربية الحضارية:** هي "وسيلة لبناء خير فرد وخير مجتمع وخير دولة وخير حضارة إنسانية لأن من أهم وظائفها إزالة الشرور من النفوس بحيث يسارعون إلى الخيرات ويكافحون الشرور والمفاسد."⁵

ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج3، ص 29-30

² عمر التومي الشيباني: "فلسفة التربية الإسلامية"، ليبيا، طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1395هـ-1975م، ص39.

³ خالد بن أحمد الحازمي: "أصول التربية الإسلامية"، السعودية، دار عالم الكتب، ط1، 1420هـ-2000م، ص19.

⁴ مقدار يالجن: "التربية الأخلاقية الإسلامية"، الرياض، دار الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1423هـ-2002م، ص59.

⁵ المرجع نفسه: ص5

وأيضاً التربية الحضارية: "هي تلك التي تظهر بصورة واضحة في بناء الفرد والمجتمع والحضارة أو المدنية الإنسانية."¹

يستنتج من هذا أنّ المقصود بالتربية الحضارية تنشئة الأجيال الصاعدة، وإعدادهم، وتنمية قدراتهم، واستعدادهم، وتشكيلهم حضارياً، وفقاً لمفهوم الحضارة الإسلامية.

أو بعبارة مختصرة هي إعداد المسلم إعداداً حضارياً في ضوء التفكير الحضاري في الإسلام. إذن: فإنّ للتربية الأخلاقية دور في صناعة الحضارة، وهذا ما أشار إليه مقداد يالجن قائلاً: "فيما يتعلق في بناء الحضارة فإنّ هذه التربية تقدم للحضارة خدمتين جليلتين، الأولى: حفظها من الانهيار، والثانية تقدم الحضارة، لأنّ التربية تنزع من النفوس الشر الذي هو أكبر عامل لهدم الحضارات، وأهم هذه الشرور الهدامة العدوان والتسلط على الناس واستغلال أموال الناس وأعمالهم."²

ومما لا شك فيه أنّ أعظم تربية حضارية قدمها القرآن الكريم لإنسان الحضارة الإسلامية كانت في قصصه، حيث يعد القصص القرآني تربة خصبة تساعد الأمة الإسلامية على النجاح في مهمتها الحضارية وتمدها بزاد تهذيبي من سيرة النبيين، وأخبار الماضين، وسنة الله في حياة المجتمعات، وأحوال الأمم.³

هذه التربية الحضارية هي التي سار على هديها وتعاليمها المسلمون الأوائل فأسسوا حضارة من أرقى الحضارات وأعظمها، ظلت مشاعل منيرة لمدة طويلة اهتدى بنورها من يدعي اليوم أنّه أهل لها.

وحتى تستأنف الأمة العربية الإسلامية دورها الحضاري مجدداً ما عليها إلا العودة إلى كتابها الكريم تستنبط منه أصول التربية الحضارية المعروضة من خلال قصصه القرآني.

وسورة هود لما فيها من قصص نموذج رائع لأصول التربية الحضارية التي يمكنها أن تعين الأمة العربية الإسلامية على النهوض مجدداً لاستكمال مشوارها الحضاري وتبليغ مسؤوليتها المنوطة بها في الشهادة على الأمم.

3- قيم التربية الحضارية في قصص سورة هود: الواعي للقصص القرآني وما تضمنته هذا

القصص من مقدمات ونتائج ينبني عليها نهوض أو سقوط حضارة أو أمة من الأمم، ذلك أنّ التربية القرآنية

¹المرجع نفسه:ص133

²المرجع نفسه:ص135

³ ينظر: مناع القطان: "مباحث في علوم القرآن"، مرجع سابق، ص305.

وتوجهاتها تؤكد أنّ هناك قوانين و سنن تحكم حركة التاريخ الحضاري والاجتماع البشري لا تختلف ولا تحابي أحدا، قال الله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)¹

لذلك جاء الخطاب القرآني بسرده القصصي إلى الأمة الخاتمة يدعوها إلى السير في الأرض والتبصر بالعواقب والمآلات التي انتهت إليها الحضارات البشرية البائدة.

فللقصة القرآنية الأثر الفعال في غرس القيم الحضارية الإسلامية وإعداد الفرد المسلم إعدادا صالحا، فهي وسيلة هامة تربي الإنسان عقائديا وتشريعيا وأخلاقيا وعقليا وجسميا، ويؤكد العلماء على أنّ التربية لا تنجح بدون أن تراعي القيم.

والمقصود بالقيم التربوية-حسب ما ساقه بعض علماء التربية الإسلامية-هي "مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل مع المجتمع والتوافق مع أعضائه وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة الإسلامية."²

ومما لا شك فيه أنّ هذه القيم التربوية هي "قيم إنسانية عالمية، عالمية الشريعة الإسلامية، فقيم الإسلام التي تضمنتها رسالة الأنبياء والرسل كافة وختمها محمد صلى الله عليه وسلم ليست للمسلمين بخصوصهم وإنما هي منفتحة على سائر الأمم والشعوب، حيث لا يختلف اثنان أن العدل حسن والظلم سيئ، وأن الصدق جميل والكذب قبيح، والسخاء والبذل مطلوبان، والبخل والشح مكروهان مهما اختلفت الأمم وتباينت في ثقافتها فتلك القيم وأضدادها قيم عالمية هي أصل الفطرة التي جاء بها الإسلام العالمي."³

يقول الله سبحانه وتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)⁴.

أما عن أنواع القيم فقد قسمها العلماء باعتبار عدّة أشهرها ما كان على أساس النظرة الإسلامية للإنسان-وهذا ما يهمننا في هذا المقام ويفي بغرض بحثنا حيث حصروها في أقسام ثلاثة هي:

- 1-قيم متصلة بعلاقة الإنسان بربه
- 2-قيم متصلة بعلاقة الإنسان بنفسه
- 3-قيم متصلة بعلاقة الإنسان مع الآخرين

¹سورة آل عمران: الآية 104

² جابر قميحة: "المدخل إلى القيم الإسلامية في دراسات الحضارة الإسلامية"، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، دط، 1985م، ص40.

³ قاسم محمد محمود خزعلي: "القيم التربوية في ضوء الرؤية القرآنية والحديث النبوي الشريف"، مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات، 5، أيلول، 2011م، ع25، ص71.

⁴ سورة الأنبياء: الآية 107.

وهذه القيم بدورها تنحصر في ستة أبعاد هي:

- 1- البعد الروحي: ويشمل التوحيد، الصلاة، التقوى، الخشية، الرجاء
- 2- البعد البيولوجي: ويشمل رعاية الجسم، عمران الحياة، السعي في الأرض لكسب الرزق.
- 3- البعد العقلي المعرفي: ويشمل مسؤولية التفكير والتدبر في ملكوت الله.
- 4- البعد السلوكي الأخلاقي: ويشمل القيم الخلقية (الإحسان، الأمانة، الصدق... إلخ).
- 5- البعد العاطفي الانفعالي: ويشمل المحبة، الرضا، الأمل، الاعتدال.
- 6- البعد الاجتماعي العام والخاص: ويشمل الأخوة، الدعوة إلى الخير، المعاملة الحسنة، التعاون، المسؤولية الاجتماعية¹.

ومما لا شك فيه أن هذه القيم التي وضحتها القرآن الكريم من خلال عرضه لقصص الأنبياء لا تكاد تخرج عن إطار مقاصد الشريعة الإسلامية المبنية على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد²، يقول الله تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)³

وبناء على هذه القاعدة وحسب ما ذهب إليه الشاطبي فإن القيم التربوية تنحصر فيما يلي:

أ- القيم الضرورية: وهي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تخر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهاجر وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين⁴.

وتعد هذه القيم جامعة للعبادات والمعاملات والتشريعات والأخلاق، ومجموعها منحصر في خمس ضروريات وهي: "حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا: إنها مراعاة في كل ملة"⁵.

1 ينظر: عبد الحميد الهاشمي وفاروق عبد السلام: "البناء القيمي للشخصية كما ورد في القرآن الكريم"، بحوث مقدمة لدعوة خبراء أسس التربية، مكة المكرمة، 1400هـ، ص13.

2 ينظر: الشاطبي: "الموافقات"، مصدر سابق، ج2، ص12.

3 سورة النساء: الآية165.

4 ينظر: الشاطبي: "الموافقات"، مصدر سابق، ج2، ص19.

5 المصدر نفسه: ج2، ص20.

ب-القيم الحاجية: "معناها أنّها مفتقر إليها من حيث التّوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين في الجملة الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة."¹

وبهذا فهي قيم جاء بها الإسلام وشجع على ممارستها وبدونها يعيش الإنسان في حرج ومشقة، ويهدد المجتمع بالفساد وانتشار المظالم.

ج-القيم التحسينية: معناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب المذنبات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق."²

وهذه القيم التي يجب مراعاتها في إطارين:

الإطار الإيجابي: ويتمثل ذلك في تطبيق القواعد الأساسية التي تعمل على قيامها وثباتها وترسيخ أركانها. الإطار السلبي: ويتمثل في ترك ما يؤدي إلى انعدامها واختلالها.

وبهذا تصبح القيم من الناحية الإيجابية تحديد لما ينبغي أن يكون، ومن الناحية السلبية تحديد لما يجب فعله.³

وبناء على سبق سنحاول أن نستنبط قيم التربية الحضارية في قصص سورة هود، وذلك من خلال تحديدها والوقوف عليها من الجانب الإيجابي والسلبي وبيان مدى دورها في إصلاح الأمة العربية الإسلامية، خصوصاً في هذا العصر الذي انعدمت فيه القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي.

1/3-القيم الضرورية: على الرّغم من تعدد موضوعات قصص سورة هود إلا أنّ به جميعها اشتركت في أمر واحد تمثل في الدّعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وعدم الشّرك به، فكلمة التّوحيد التي بُعث بها محمد صلى الله عليه وسلم إلى قومه ليخرجهم من دياجير الجهل والظلمات إلى نور الهداية والإيمان قال الله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)⁴، هي نفسها التي بعث بها من قبل نوح عليه السّلام وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السّلام.

¹ المصدر نفسه: ج2، ص21.

² المصدر نفسه: ج2، ص22.

³ ينظر: فهيم محمد علوان: "القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي"، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1989م، ص100.

⁴ سورة هود: الآية 1-2.

فالإيمان هو أساس العقيدة الإسلامية الصحيحة، والأساس الذي تبني عليه الحضارة الرائدة، فالإنسان عندما يصدق "بوجود الله وأنه متصف بصفات الكمال منزّه عن صفات النقص"¹، سيعلم حتماً وظيفته في هذه الأرض وهي خلافة الله وإعمار أرضه، قال الله تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)². فالإنسان هو صانع الحضارة وبانيها، وهو محل الخطاب الرباني، يقول الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)³. ومن أجل سعادته أرسل الله الرسل لتحمل إليه كتب الهداية والإيمان، ليرسي دعائم الحق والعدل في الدنيا ويبيّن حضارة يعيش في ظلها بهناء وسعادة.

وإنّ سورة هود من خلال قصصها لمنهج حكيم في تربية إنسان حضارة القرآن وتحضيره لهذا الدور الجليل والمهمة العظيمة في حمل الأمانة ورفع راية الشهادة على البشرية ونشر شرعة الحضارة على سارية الإيمان بالله والعقيدة الصحيحة.

فحتى تسدّ الأمة الإسلامية الفراغ الحضاري الذي تعيشه في الوقت الراهن، وهي صاحبة الشهود الحضاري يجب أن تكون لدى أبنائها نفوس مهیئة حضارياً بروح الإيمان، وتؤمن بقداسة الوجود الإلهي وتسعى إلى إعمار الأرض وتشيد حضارة إيمانية يقول مالك بن نبي: "إذا أتى المسلم هكذا على صورة الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة، وهو بعد السماء، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة."⁴

فقيمة الإيمان هي أساس قيم قصص سورة هود فيها من حفظ لدين الله تعالى واستمرارية لرسالته في الأرض، ومنه تنبع بقية القيم الأخرى، فإذا كان الإيمان أساس بناء الحضارة، فالكفر والجمود أساس هدمها.

3/2- القيم الحاجية: عالج قصص سورة هود قضايا اجتماعية وأخلاقية وسياسية لها دور فعال في غرس وتأسيس القيم الإسلامية في نفسية المسلمين، وهي قيم حاجية يحتاجها المسلم لإصلاح نفسه ومجتمعه وبناء حضارته، وقد تمثلت هذه القيم فيما يلي:

-النهي عن الفاحشة: لقد حرم الله تعالى على عباده الفواحش، ونهاهم عن فعل المنكرات والمعاصي، قال الله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ

1 سليمان الخطيب: "أسس مفهوم الحضارة في الإسلام"، الجزائر، بن عكنون، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، دت، ص120.

2 سورة هود: الآية 61.

3 سورة البقرة: الآية 30.

4 مالك بن نبي: "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين"، مصدر سابق، ص40.

ما لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ¹، لأن ذلك سبب في هلاك الأمم وموت الحضارات، وهذا ما مثلته لنا سورة هود من خلال قصة لوط عليه السلام مع قومه الذين عرفوا بنزعتهم الحيوانية وشذوذهم الجنسي الذي أفقدهم القيم الخلقية وأنساهم الحياء والخجل، فكانت عاقبتهم الخسران والهلاك²، قال الله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ³ .

ولعل ما تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم من تراجع حضاري، يعود بلا شك إلى انتشار الفاحشة والمنكرات في أوساط المجتمع العربي الإسلامي.

ومن خلال قصة لوط عليه السلام يضرب القرآن الكريم للأمة الواعية مثلا يعد أنموذجا مثاليا تقتدي به وتأخذ العبرة لعلها تهتدي من جديد، وتخرج من مستنقع الفواحش لتكون بالفعل كما قال عز وجل: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ⁴)

-التهي عن الفساد والظلم: يعد الفساد عائقا من عوائق قيام الحضارات، وسببا في انهيارها، وإذا طغى على النفس الإنسانية جعلها تنسى رسالتها في الحياة.

وقد بينت لنا سورة هود هذه القيمة السلبية من خلال قصة شعيب عليه السلام مع قومه، يقول الله تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ

1 سورة الأعراف: الآية 33.

2 ينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، مرجع سابق، ج 3، ص 480.

3 سورة هود: الآية 77-83.

4 سورة آل عمران: الآية 110.

وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نوحٍ أَوْ قَوْمَ هودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمودُ¹.

هؤلاء القوم- وهم أهل مدين- الذين عرفوا بفساد معاملاتهم التجارية من تطيف وغش في الميزان²، فكان هذا العمل السوس الذي ينخر في عظام أولئك القوم³ وسببا في هلاكهم.

وعموما فإن قصة شعيب عليه السلام مع قومه بينت لنا قيمة مهمة هي قيمة الأمانة في المعاملة⁴، وهذا ما تحتاجه الأمة العربية الإسلامية فما شقت الحضارة الإسلامية وتعثرت في طريق تحقيق الشهود إلا بسبب فساد معاملاتهما، وما هي اليوم من قوم شعيب عليه السلام بعيد، لذا يجب عليها أن تقتدي من هذه القصة وتحسن معاملاتهما وتتسم بالأمانة حتى تعود إلى قلب فاعليته الحضارية من جديد.

3- القيم التحسينية: من القضايا التي تناولها القصص القرآني من خلال سورة هود قضايا أخلاقية واجتماعية، وهذه القيم التحسينية تساهم في تزيين الحياة، وتحقيق السعادة للفرد والمجتمع، يقول الله تعالى: (قُلْ

¹ سورة هود: الآية 84-95.

² ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 12، ص 136. وينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن

الكريم"، مرجع سابق، ج 3، ص 482.

³ مصطفى مسلم: "المرجع السابق"، ج 3، ص 482.

⁴ ينظر: المرجع نفسه: ج 3، ص 481.

مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ¹.

ومن القيم التحسينية التي رسختها سورة هود في قصصها مايلي:

- ذكر الله: يعد "الذكر من أجل العبادات لما له من قيم تعبدية، يعظم أجره وثوابه، رغم سهولته ويسره وخفته، وله قيمة حضارية لما يمثله من حضور دائم ويقظة دائمة، تثمر الوعي الحضاري بقيمة الإحسان في عبادة الإنسان لربه، فيعبد الله كأنه يراه، فيكون قلبه حاضرا على الدوام، ذاكرا الله بقلبه ولسانه معا"².

وقد وردت تربية الذكر في قصص سورة هود، وذلك في قصة نوح عليه السلام، يقول الله تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)³.

- الصبر: إنَّ الصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه وديناه، خصوصا في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وقصص الأنبياء والمرسلين خير مثال على ذلك، يقول الله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)⁴.

إنَّ سورة هود قد مثلت لنا صبر الأنبياء والمرسلين على أذى أقوامهم، وإنَّ في صبرهم "لعبرة للبشرية كلها، وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة."⁵

فالصبر درس حضاري للداعية المسلم خصوصا في هذا العصر الذي تشهد فيه الأمة العربية الإسلامية ويلات من الظلم والأذى من طرف أهل الشرك والكفر.

- أدب الضيافة: من محاسن الإسلام الدعوة إلى إكرام الضيف، هذا ما أكده القرآن الكريم من خلال عرضه لقصة إبراهيم عليه السلام في سورة هود، يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَدْ لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)⁶.

1 سورة الأعراف: الآية 32.

2 منى عبد الله حسن داوود: "منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني"، رسالة دكتوراه، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الدعوة والإعلام، 1417هـ، ص 97.

3 سورة هود: الآية 41.

4 سورة الأحقاف: الآية 35.

5 سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج 4، ص 2392.

6 سورة هود: الآية 69.

ففي هذه الآية الكريمة تتجلى لنا قيمة تربية وأدب من آداب الإسلام وهو كرم الضيافة والابتداء بالسلام على الآخرين¹.

لذا يجيب على الداعية المسلم في العصر الحالي أن يكون حضاريا ويتجلى بهذه القيمة ويعامل الآخر بمعاملة الإسلام، حتى يكون نموذجا يقتدى به، يقول الله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)².

-أدب الحوار: سبق وأن أشرنا سابقا إلى أن الحوار أسلوب من أساليب القرآن البلاغية، وعنصر أساسي في بناء القصة، وهو بالإضافة إلى ذلك أسلوب ناجع في الدعوة إلى الله تعالى، يقول الله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)³.

والمستقرئ لآيات سورة هود يلاحظ تلك القيمة الحضارية التي استعملها أنبياء الله تعالى في دعوة أقوامهم بدءا من نوح عليه السلام إلى خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد دارت جل حواراتهم حول الأمر بعبادة الله، والنهي عن عبادة غيره، والدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وتجنب المفاسد والرذائل. ومما لا شك فيه أن ما يعيشه العالم اليوم من صراع حضاري يعود بطبيعة الحال إلى انعدام لغة الحوار، لذا يجب على الفرد المسلم أن يقتدي بسيرة الأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله عز وجل، ويكون أسلوبه في ذلك أسلوبا حواريا يجمع بين الموعظة الحسنة والحجة المقنعة.

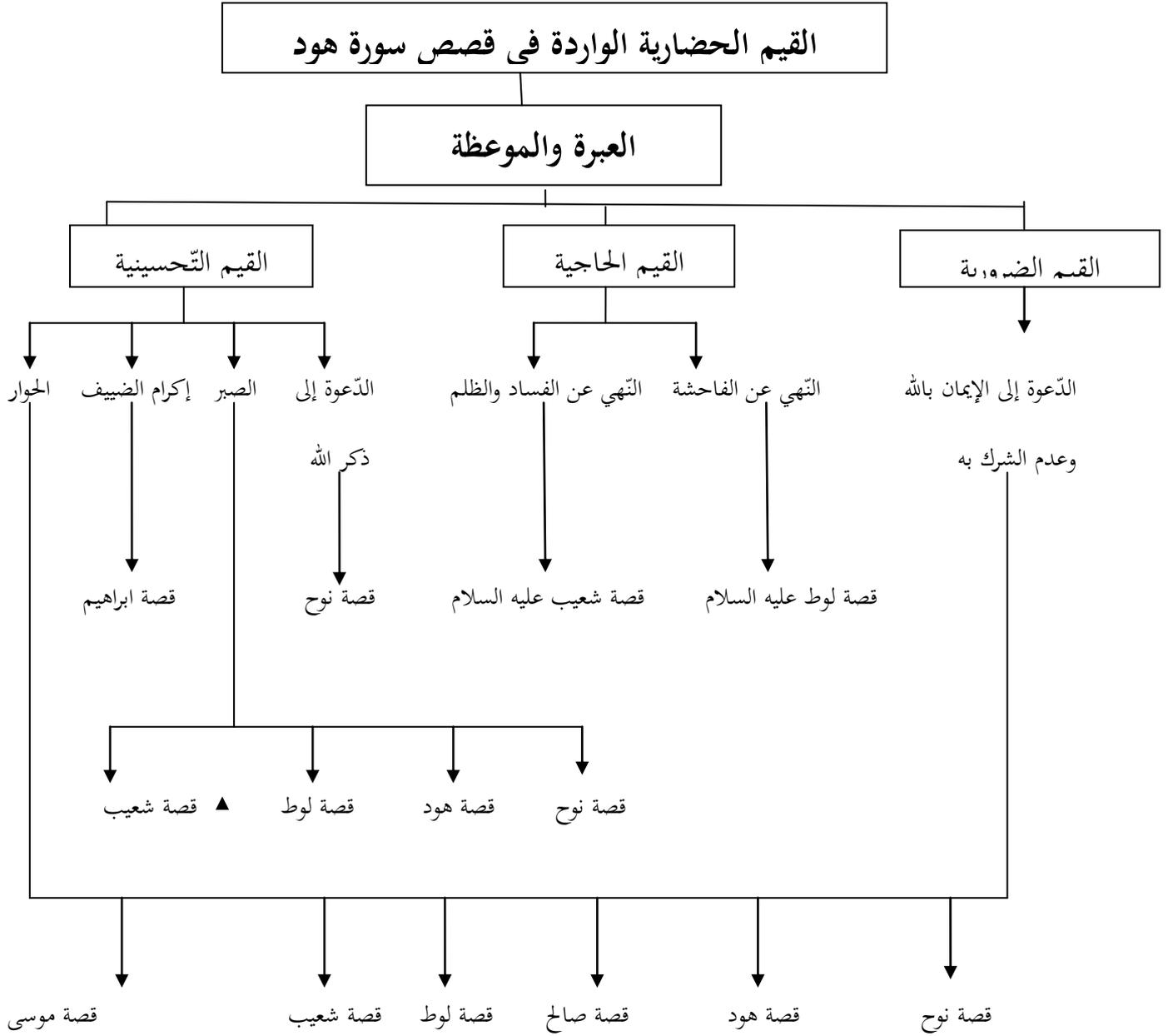
وخلاصة القول: فإن هذه القيم التي وردت في قصص سورة هود لها انعكاساتها التربوية التي تهذب الفرد وتقوم سلوكه، وهذه هي الغاية من القصص القرآني الذي يجب أن تتخذه الأمة الإسلامية نهراسا تستضي به، وتهتدي بهديه، وتسير على نهجه، وتجعل منه قدوة في جميع تصرفاتها وأعمالها، وخصوصا الجانب الحضاري منها

والشكل التالي يوضح لنا باختصار القيم التربوية التي اشتملت عليها قصص سورة هود:

¹ ينظر: مصطفى مسلم: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، مرجع سابق، ج"3، ص479

² سورة الممتحنة: الآية 8.

³ سورة النحل: الآية 123.



إنّ هذا التّوجيه التّربوي الذي قدمته سورة هود من خلال قصصها، لرصيد كافي للأمة العربية الإسلامية أن تنبعث من جديد، فما أحوج طلائع البعث الإسلامي في العصر الحالي، وهي تواجه مثل تلك الحال التي

عاشها أنبياء الله عليهم السلام من لدن نوح عليه السلام إلى التدبر في فحوى قصص سورة هود حتى تصمد في وجه من يستهزأ بها ويشن عليها حملات من التعذيب والأذى.¹

ومع هذه التربية الحضارية التي قدمتها سورة هود من خلال عرضها القصصي نجد في مقابل ذلك تزيينها بأفانين البلاغة وروائع البيان الإلهي الذي أعجز أساطين البلاغة قديما وحديثا، وحافظ للأمة العربية الإسلامية على خصوصيتها المتفردة بها عن سائر الملل والنحل.

¹ ينظر: سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مصدر سابق، ج4، ص1865.

ثالثاً: الخصائص البلاغية للقصة القرآنية من منظور سورة هود:

إنّ خير ما بذلت فيه الجهود، وصرفت له الهمم، وعكفت على خدمته النفوس كتاب الله عزّ وجلّ لما فيه من درر كامنة وعجائب إعجازية زاخرة، قال الله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا¹)

ولقد كان لعلماء العربية وعلى رأسهم البلاغيون الحظ الأكبر في التبحر في كتاب الله تعالى، حيث كان لنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين أثر كبير على العربية وأهلها، إذ أصبحت منذ ذلك الحين لغة لها مكانة فريدة ومنزلة سامية، فهي لغة القرآن، ولسان النبوة، ولغة فكر بلاغي أضاء المعمورة بنور الإعجاز القرآني. ومن المعلوم أنّ القرآن الكريم هو "كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء."²

ولما كان القرآن الكريم معجزة بلاغية أدهشت أرباب البلاغة وأساطين البيان العربي، اتجهت عناية البلاغيين إلى البحث في ذلك النبع البلاغي الذي استهوى القلوب وأسر الأبواب والعقول، محاولين بذلك إثبات تلك الخصوصية البلاغية التي تفرّد بها كتاب الله تعالى عن غيره من بلاغة العالمين، قال الله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا³)

إذن: "فلقد كان البحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سبيلاً وطريقاً للوقوف على البلاغة العربية بعلومها المختلفة، فقد دعاهم البحث في الإعجاز إلى الخوض بالضرورة في البحوث البلاغية، فأخذوا يدرسون فنون البلاغة العربية كي يقفوا منها على سر الجمال في التعبير القرآني، وكشف النواحي التي من أجلها عجز العرب عن أن يأتوا بأقصر سورة."⁴

1 سورة الكهف: الآية 109.

2 عائشة عبد الرحمن: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، مرجع سابق، ج 1، ص 13.

3 سورة الإسراء: الآية 88.

4 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص 34.

وبعد طول بحث وتدبر توصل البلاغيون وعلماء الإعجاز إلى أنّ البلاغة القرآنية هي تلك البلاغة الإلهية التي عجز الخلق عن الإتيان بمثليها¹.

وكنا قد أسهبنا في الحديث عن هذا فيما سلف ذكره من كلام عن الإعجاز القرآني. وقد اتخذ هؤلاء البلاغيون آيات القرآن الكريم الشاهد البلاغي الرفيع في الكشف عن جمال التعبير القرآني وروعة البلاغة القرآنية وأسرارها الإعجازية، وذلك من خلال حصرها في ثلاثة علوم فرعية تمثلت فيما يلي:

-علم المعاني

-علم البيان

-علم البديع².

ونحن حسبنا في هذا المقام أن نقف على كل واحد من هذه العلوم البلاغية الثلاث ونستقرأ شواهدنا على ضوء سورة هود.

أ: علم المعاني من منظور سورة هود:

اتخذ أغلب الباحثين البلاغيين-وخصوصا المتأخرين منهم-علم المعاني ومصطلحاته وجهتهم الأولى في دراستهم لعلوم البلاغة الثلاثة.

وارتأينا نحن في هذا المقام أن نخذو حذوهم من باب الترتيب والتنظيم لا أكثر لأن كل فرع من فروع البلاغة إلاّ وله من المكانة والرفعة ما يجعله في الصدارة.

وعلم المعاني علم قيم لا يعرف مكانته إلاّ من عرف معنى البلاغة والسّر الذي تبثه التسمية في هذا الفن، وأمّا من يجهل هذا السر ويظن أن البلاغة مجرد صناعة لفظية محضة، قوامها انتقاء الألفاظ الرقيقة أو الكلمات الفخمة فيرجى أن يعافى من علته ويقف على مكانة علم المعاني ورتبته.

1- مفهوم علم المعاني:

-**لغة:** كلمة معاني في اللغة من عنيّ بالشئ فهو معني به وأعنيته وعنيته بمعنى واحد، وقال بعض أهل اللغة: لا يقال عنيت بجمالك إلاّ على معنى قصدتها، وكذلك من قولك: عنيت الشئ أعنيه: إذا كنت قاصدا له، وعنيت بالقول كذا: أردت، ومعنى كل كلام مقصده³.

¹ ينظر: محمود السيد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"، مرجع سابق، ص22.

² ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص14. وأحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص16.

³ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج4، ص452

وبهذا فالمعاني جمع معنى وهي المقصود أو المفهوم المتواجد في عقول الناس المتصل بخواطرهم.
أما اصطلاحاً: "هو التعبير باللفظ عما يتصوره الذهن، أو هو الصورة الذهنية من حيث تقصد من اللفظ."¹

يظهر من هذا أنه من المستحيل على أي إنسان أن يكشف الغطاء من خاطر وضمير صاحبه ويعرف مراده إلا من خلال أساليب وتعابير الكلام، فهذه الأخيرة هي وحدها من يقرب الفهم، ويوصل المقصود "فعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة يكون ظهور المعنى."²

لذا يجب على المتكلم أن يحسن تصوير كلامه بأشكال مناسبة لأحوال المخاطبين فيجعل لكل موضوع أو جنس أدبي أو موقف معين كلام يناسبه، حيث يخلق لكل مقام مقالاً يليق به، وهذا ما كان شائعاً عند العرب وأكسبها صفة البلاغة، حيث أن العرب توجز إذا شكرت، وتطنب إذا مدحت، فالشكر حال يقتضي الإيجاز، والمدح حال يقتضي الإطناب"³

وهذا ما تواضع عليه علماء البلاغة باسم علم المعاني وعرفوه بأنه "أصول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له"⁴.

وينص موضوع علم المعاني على دراسة اللفظ العربي من حيث إفادة المعاني الثواني، ويقصد من هذه الأخيرة المعاني الثواني -أتم تلك الأغراض التي يساق لها الكلام ومنها جاء مقتضى الحال⁵، يقول الخطيب القزويني (ت739هـ) عن علم المعاني بأنه "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"⁶ ويعود فضل ظهور هذا العلم ونشأته إلى إمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي أصل لقواعده من خلال كتابه المشهور "دلائل الإعجاز" واستمد أصالته وركيزته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب الفصحاء⁷.

1 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص48.

2 المرجع نفسه: ص38.

3 محمد الطاهر اللادقي: "المبسط في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع"، بيروت، مكتبة صيدا، المكتبة العصرية، ط1، 1414هـ-

1993م، ص25.

4 أحمد الهاشمي: "المرجع السابق"، ص46.

5 ينظر: المرجع نفسه، ص47.

6 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص15.

7 ينظر: أحمد الهاشمي: "المرجع السابق"، ص46.

ولعل القرآن الكريم هو المصدر الأساس الذي اعتمده عبد القاهر الجرجاني في تأصيله لقواعد علم المعاني، وإن أكثر من الشواهد الشعرية، لأن غايته من هذا العلم كانت محاولة إبراز مكامن الإعجاز البلاغي التي حواها كتاب الله تعالى.

2- نظرية النظم ودورها في تأسيس علم المعاني: لقد انطلق عبد القاهر الجرجاني في تقييده لعلم المعاني على خلفية قواعد النحو العربي مؤسساً بذلك نظريته المشهورة بنظرية النظم حيث يقول: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تحل بشيء منها".¹ وهكذا تمثل النظم عند عبد القاهر الجرجاني فهو عنده ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه ومناهجه، وذلك بمراعاة انتحاء سبيل العرب في بنية ألفاظها وأساليبها والقرائن الأخرى كالمقام ومقتضى الحال وحالات الإعراب.

فمن خلال النظم استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يوفق بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى²، جاعلاً مدار علم المعاني مبنياً على قوانين النحو وأصوله، إذ يقول: "وإن قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو... ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض".³

لقد أكد عبد القاهر الجرجاني بأن العبرة ليست بمعرفة قواعد النحو فقط، بل فيما تقوم عليه من معان وأغراض، حيث نجده يقول: "في أن هذه المزاي في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تؤم"⁴. وفكرة النظم ماهي إلا عصارة فكر وتجربة استقاها عبد القاهر الجرجاني من سالفه وصقلها بموهبته الفريدة فأثمرت فرعاً باسقا من فروع علم البلاغة العربية ألا وهو علم المعاني.

فالإمام عبد القاهر الجرجاني لم ينف استفادته من سابقه ولم يدع أنه أول من ابتدع هذا الفن بل على العكس من ذلك صرح من استفادته من سابقه قائلاً: "وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن

1 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص 81.

2 ينظر: محمد عباس: "الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني"، مرجع سابق، ص 65.

3 عبد القاهر الجرجاني: "المصدر السابق"، ص 87.

4 المصدر نفسه: ص 87.

النظم، وتفخيم قدره والتنويه بذكره وإجماعهم أن لا فضل من عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ"¹، إلا أنه لم يكن مقلدا بقدر ما كان مبدعا.

وكان النظم الذي أشار إليه في كتابه "دلائل الإعجاز" مناط الإعجاز القرآني والتحدي الإلهي والتفاضل بين بلاغة القرآن الكريم وبلاغة بلغاء العرب، "فمن يقرأ الدلائل يشعر بمدى سيطرة المباحث النحوية والبلاغية على بيان الإعجاز في القرآن نفسه"².

وخير دليل على ذلك تفسيره للآية الكريمة في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)³.

حيث نجد يفسر الآية الكريمة تفسيرا تحليليا، مبرزا روعة الإعجاز التي تتجلى من خلال حسن النظم فيقول: "...فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلا لأنه يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقرها إلى آخرها وأن الفضل نتاج ما بينها وحصل من مجموعها."⁴

يظهر من خلال هذا أن عبد القاهر الجرجاني يؤكد أن فصاحة اللفظة لا تظهر إلا باعتبار مكانها من النظم، حيث يقول: "إن شككت فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية"⁵، ويمثل على ذلك بقوله: قل: (بلى واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها."⁶

فهو يرى بأن الكلمة تتخذ صفة الفصاحة بانضمامها إلى سياق الكلام، ثم يواصل تفسيره للآية على ضوء علم المعاني مشيرا إلى أن مبدأ الإعجاز والعظمة يتجلى في نداء الأرض وأمرها بالأداة (يا) دون غيرها مثل (أي) لأنها غير مناسبة مع المقام ولا يتحقق بذلك لا الحسن ولا الغرض.

1 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص 234.

2 محمد عباس: "الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني"، ص 65.

3 سورة هود: الآية 44.

4 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص 45.

5 المصدر نفسه: ص 45.

6 المصدر نفسه: ص 45.

كذلك إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال إبلي الماء، كما نادى الله سبحانه وتعالى الأرض وأمرها بما هو من شأنها ثم نادى في مقابل ذلك السماء وأمرها بما يلائمها، ثم قال: "وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة"فعل"الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر أمر وقدرة قادر وأكد ذلك بقوله تعالى: وقضي الأمر، ثم ذكر ماهو فائدة هذه الأمور وهو"استوت على الجودي"، حيث أضمر السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ليختم في الأخير سبحانه وتعالى بمقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة¹.

وبعد هذا التفسير نراه يعقب على ذلك بقوله: "أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلق باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب."²

يستخلص من قول عبد القاهر الجرجاني بأنّ جمال الكلمة ناتج عن تناسقها مع ما قبلها وما بعدها بالإضافة إلى ذلك تلاؤم معانيها وتواليها في الذهن بصورة منظمة مرتبة، وبهذا فقط تتحقق بلاغة الكلام.

إذن: بفضل عبد القاهر الجرجاني ونظريته في النظم استطاع علم المعاني أن يفرض نفسه على الساحة البلاغية بشكل عام والبلاغة الإعجازية بشكل خاص، بحيث أصبح ظاهر المعالم واضح الرؤية مقعد المصطلحات، وما كان على من أتى بعده إلى أن تحذو حذوه لا أقل. ولما كان القرآن الكريم مدار البحث البلاغي لما فيه من جودة السبك وحسن النظم تهافتت جهود البلاغيين على كتاب الله تعالى مبرزة تلك اللطائف والخصوصيات التي قصدها الله سبحانه وتعالى من كلامه الكريم والتي أتت متطابقة مع مقتضيات الأحوال.

وبناء على هذا يمكننا أن نعرف علم المعاني من منظور القرآن الكريم بأنه: علم بأصول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة كلام الله عز وجل لمقتضى الحال.

من هذا المنطلق سنحاول تتبع مباحث علم المعاني ونطبقها على ضوء ما ورد منها في سورة هود.

1 المصدر نفسه:ص46-45.

2 المصدر نفسه:ص46.

3-مصطلحات علم المعاني من منظور سورة هود:

من المعلوم أنّ علم المعاني نشأ في رحاب الدّراسات القرآنية شأنه في ذلك شأن الدّراسات البلاغية بصفة عامة،فالبلاغة العربية وإن كانت جاهلية المولد إلاّ أنّها نمت ونشأت في ظلال القرآن الكريم،تتفسيء بمعانيه الإعجازية وتستهدي بنور آياته البيانية.

وقد أقبل البلاغيون وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني على تدوين مصطلحات علم المعاني وتقعيد مباحثه،فمن خلاله أصبح علم المعاني ومصطلحاته من أهم أبواب البلاغة،وقد اتخذت هذه المصطلحات عمقا وسعة،وهيمنة على ساحة البلاغة العربية"لكونها تقوم على أساس تركيب الكلام على مستوى المفردة،أو الجملة،أو الجمل وسواء أكانت المفردات أركاننا أم متعلقات وسواء أكان الكلام خبريا أو إنشائيا،وسواء كانت الجمل اسمية أم فعلية."¹

والغرض من مباحث علم المعاني أنّ "من شأنها أن تبين لنا وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها،كما ترينا أن القول لا يكون بليغا كيفما كانت صورته حتى يلائم المقام الذي قيل فيه،ويناسب حال السامع الذي ألقى عليه."²

يتضح من خلال هذا أنّ علم المعاني لا يخرج عن قاعدة لكل مقام مقال³،وكلام الله عز وجل خير من راعى أحوال مخاطبيه وأتى وفق مقتضيات أحوال سامعيه وسبق وأن أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن السياق القرآني وكذلك في حديثنا عن علم المناسبة.

وحصر علماء البلاغة مباحث علم المعاني في الآتي:

-أحوال الإسناد الخبري والإنشائي.

-أحوال الطرفين(المسند والمسند إليه)والمتعلقات من المفعول وغيره من الفضلات.

-أحوال الجملة في ذاتها واستقلالها⁴.

1 محمد بن علي الصامل: "قضايا المصطلح البلاغي - كثرته وتعددته واشراكته وصياغته"،مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها،جمادي الأولى 1425هـ،ع30،ج18،ص351.

2 عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية علم المعاني"،لبنان،بيروت،دار النهضة العربية،ط1،1430هـ-2009م،ص37.

3 ينظر:فضل حسن عباس:"البلاغة فنونها وأفنانها- علم المعاني"-،د ب ن،دار الفرقان للنشر والتوزيع،ط2،1409هـ-1989م،ص88.

4 ينظر:عبد المتعال الصعيدي:"البلاغة العالية-علم المعاني"-،مصر،مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز،ط2،1411هـ-

1991م،ص41.

3/1- أحوال الإسناد الخبري والإنشائي في سورة هود:

يعد الإسناد بنوعيه الخبري والإنشائي منطلق الدراسة التي تتبعها علماء البلاغة في شرح علم المعاني والوقوف على مصطلحاته، وسنحاول من خلال هذه الدراسة أن نتقصى مواطن الخبر والإنشاء في سورة هود ونذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر، لكن قبل هذا لا بد من الإشارة إلى مفهوم كل من الخبر والإنشاء في مفهوم الدراسات العربية البلاغية.

3/1/1- الخبر وأغراضه من منظور سورة هود:

الخبر في اللغة: من خبر، ومن أسماء الله عز وجل الخبير، وخبرت بالأمر أي علمته والخبر: النبأ والجمع أخبار¹.

أما في اصطلاح البلاغيين: "الخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته"². معنى هذا أنّ الخبر كلام يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب، لكن يخرج عن هذه القاعدة الأخبار الواردة في القرآن الكريم، لأنّ كلام الله سبحانه وتعالى كله صادق ومنزه عن الكذب.

وبناء على هذا فالخبر من منظور القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل الذي يستوجب التصديق به. وما أكثر الأسلوب الخبري في القرآن الكريم من أخبار الله تعالى عن رسله وملائكته والجنة والنار، وإخبار عن الأمم البائدة... إلخ

كما ذهب البلاغيون إلى القول بأن صدق الخبر يعود إلى مطابقته لمقتضى الحال وكذبه يعود إلى مخالفته لمقتضى الحال³.

ولما كان كلام الله عز وجل كله مطابقاً لمقتضيات الأحوال استلزم ذلك صدق الأخبار الواردة فيه، وذلك باب من أبواب الإعجاز القرآني.

ومن المعلوم أنّ الخبر يرد من متكلم إلى متلقي، فأصل الخبر هو الكلام الصادر من المتكلم والذي يتلقاه المتلقي إمّا بالصدق أو الكذب.

وبناء على هذا يمكن أن نستخلص عناصر الخبر في القرآن الكريم على النحو التالي:

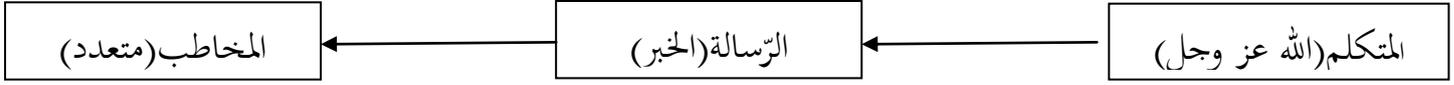
- المرسل: وهو المتكلم الذي يرسل الخبر، والمرسل في القرآن الكريم هو الله عز وجل.

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدّر سابق، ج2، ص 215-216

2 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص55.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص55.

- المرسل إليه: وهو المخاطب أو المتلقي، السامع الذي يتلقى الخبر، وهو متعدد في القرآن الكريم.
-الرّسالة: وهي مضمون الخبر الصادر من المتكلم-الله عز وجل-والخبر متعدد في القرآن الكريم¹.



وقد كان للأسلوب الخبري موقع في سورة هود بل كان "الأداة الرئيسية في قصص الأنبياء عليهم السلام، وفي تمهيدها وتعقيباتها"²، وتجسد الأسلوب الخبري في سورة هود من خلال محاورة الأنبياء لأقوامهم المنكرين لدعوتهم³ ومثال ذلك عن قوم نوح قوله تعالى: فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾⁴ وأيضاً الخبر الوارد على لسان ابن نوح الذي أنكر دعوة والده عليه السلام يقول الله تعالى: قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾⁵

أما عن الغرض من إلقاء المتكلم الخبر إلى المخاطب فيتلخص في أمرين:

أحدهما: إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة الخبرية إذا كان جاهلاً له، ويسمى هذا النوع ب: فائدة الخبر .

ثانيهما: إفادة المخاطب أن المتكلم عالم أيضاً بالخبر، ويسمى هذا النوع بلازم الفائدة.⁶

ويكون الخبر في هذه الحالة خبراً حقيقياً، لكن قد يخرج الخبر عن مقصده الحقيقي إلى أغراض بلاغية

يستدعيها المقام، وما أكثرها في سورة هود منها:

-التقرير: وذلك في قوله تعالى: "إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٤﴾"⁷

¹ ينظر: عيسى علي عاكوب وعلي سعد الشتيوي: "الكافي في علوم البلاغة العربية-معاني البيان-البديع"، د ب ن، الجامعة المفتوحة، ط، 1993م، ص73.

دخيل الله بن محمد الصحفي: "سورة هود عليه السلام دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة، إشراف: الدكتور عبد العظيم ابراهيم المطعني، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة أم القرى مكة

²المكرمة، كلية اللغة العربية، فرع البلاغة، 1413هـ_1993م، ص42

³ ينظر: المصدر نفسه، ص42

⁴ سورة هود: الآية 14

⁵ سورة هود: الآية 43

⁶ ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص56.

⁷ سورة هود: الآية 4

فالله سبحانه وتعالى يقرر في هذه الآية الكريمة بأن مصير العباد سيكون بالرجوع إليه يوم القيامة وأنه قادر على ذلك مثلما كان قادر على خلقهم أول مرة.¹

ويرى ابن كثير أن المقام هنا مقام تهريب وترغيب، تهريب لأعدائه الجاحدين بنعمه، وترغيب لأوليائه الصالحين.²

-**التهديد والوعيد:** ويظهر ذلك في مواطن كثير من السورة من ذلك قوله تعالى: "وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾"³

فقد تضمنت هذه الآية تهديدا كما تضمنت نصحا وإرشادا، وذلك لأن نوح عليه السلام أراد أن يخبر قومه بأن لافائدة من إنذاره ونصحه لهم إن أراد الله أن يغويهم ويدمرهم لأن الأمر بيده⁴، ففي هذا الخبر نصح لهم بأن يهتدوا، وتهديد لهم بقوة الله وقدرته على هلاكهم.

ويخرج الخبر إلى التهديد والوعيد أيضا في قوله تعالى: "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾"⁵

يظهر في هذه الآية الكريمة تهديد نوح عليه السلام لقومه ووعيده لهم وذلك عاقبة لتكذيبهم لدعوته عليه السلام.⁶

ومن الأساليب الخبرية التي أفادت التهديد والإنذار قوله تعالى: "...وَأُمَمٌ سَنَّتْهُمْ نُمُوتَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾"⁷

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: "يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾"⁸، ففي هذه الآية الكريمة يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن مصير فرعون⁹ وفي ذلك تهديد لكل طاغية متجبر.

¹ ينظر: ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج4، ص304

² ينظر: المصدر نفسه، ج4، ص304

³ سورة هود: الآية34

⁴ ينظر: ابن كثير: "المصدر السابق"، ج4، ص318

⁵ سورة هود: الآية39

⁶ ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص15

⁷ سورة هود: الآية48

⁸ سورة هود: الآية98

⁹ ينظر: ابن كثير: "المصدر السابق"، ج4، ص248

-التّهويل والتّخويف: من الأساليب الخبرية التي أفادت التّهويل والتّخويف في سورة هود قوله تعالى: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ " ¹

-البشارة والنّذارة: ويتمثل ذلك في قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾ " ²

ففي هذه الآية الكريمة يخبر الله سبحانه وتعالى عن شقاوة أهل النار والغرض من ذلك التّذير، كما يخبر في مقابل ذلك عن سعادة أهل الجنة والغرض من ذلك تبشير المؤمنين بما ينتظرهم من فرح وسرور في جنة الخلد.

-الامتنان: من المواضع التي أفاد فيها الخبر الامتنان قوله تعالى: "قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ... " ³ فالغرض من هذا الخبر هو إظهار فضل الله ومنتته على نوح عليه السلام وعلى من آمن معه من قومه.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: "تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ " ⁴

ففي هذه الآية الكريمة يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- بأنه تكرم عليه بقصص أخبار الأمم السالفة وذلك تسليية له و ليصبر على أذى المشركين ويبلغ الدّعوة الإسلامية كما بلغها جمع من الرّسل قبله. ⁵

-التّشيت والتّسليية: ومثال ذلك قوله تعالى: " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ " ⁶

يتبين من هذا الخبر أنّ الغرض منه هو تشيت وتسليية النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالته. ⁷

¹سورة هود: الآية 103

²سورة هود: الآية 106-108

³سورة هود: الآية 48

⁴سورة هود: الآية 49

⁵ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التّفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص17

⁶سورة هود: الآية 120

⁷ ينظر: محمد علي الصابوني: "المصدر السابق"، ج2، ص37

-الموعظة والاعتبار: من ذلك قوله تعالى: "كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾" ¹ ففي هذه الآية الكريمة يخبر الله سبحانه وتعالى بأن عاقبة أهل مدين كانت نفس عاقبة أهل ثمود وهي عاقبة كلّ الظالمين، والغرض من هذا الخبر هو أخذ العبرة والموعظة.

ومثال هذا أيضا يتجلى في قوله تعالى: "كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾" ²

ففي هذه الآية الكريمة خبر مفاده أخذ العبرة والموعظة، "أي مثال ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين يأخذ تعالى بعذابه الفجرة الظلمة" ³ جميعهم عل مر العصور.

-السّخرية: أفاد الخبر السّخرية في قوله تعالى: يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴿٣٨﴾" ⁴

مفاد هذا الخبر هو السّخرية والاستهزاء فقد أراد نوح عليه السلام أن يخبر هؤلاء الكافرين من قومه بأنه سيسخر منهم في المستقبل مثلما يسخرون منه الآن. ⁵

-الدعاء الإنابة: قد يخرج الخبر عن غرضه الحقيقي ويفيد الدعاء من ذلك في سورة هود قوله تعالى: "وَنَادَى نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾" ⁶

فمفاد الخبر في هذه الآية الكريمة هو الدّعاء والتّضرع، إذ تضرع نوح عليه السّلام إلى ربّه سبحانه وتعالى أن ينجي ابنه من الغرق. ⁷

ويظهر هذا الغرض من الخبر أيضا في سورة هود في قوله تعالى: "وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾" ⁸

ففي هذه الآية الكريمة يخبر شعيب عليه السلام بأن توفيقه بفضل الله عزوجل وأنه يعتمد ويتوكل عليه في جميع أموره ¹ والغرض من ذلك إظهار التضرع والإنابة لله عزوجل.

¹سورة هود: الآية 95

²سورة هود: الآية 102

³محمد علي الصابوني: "صفوة التّفاسير"، ج 2، ص 33

⁴سورة هود: الآية 38

⁵ينظر: محمد علي الصابوني: "المصدر السابق"، ج 2، ص 15

⁶سورة هود: الآية 45

⁷ينظر: محمد علي الصابوني: "المصدر السابق"، ج 2، ص 17

⁸سورة هود: الآية 88

هذه مجموعة من الأغراض البلاغية التي تستفاد من الخبر الوارد في سورة هود ذكرت على سبيل المثال لا الحصر وغيرها كثير.²

أضرب الخبر في سورة هود:

أمّا فيما يخص صنوف الخبر وطرق إلقائه، فقد صنفها البلاغيون إلى ثلاثة أضرب مراعين في ذلك مؤكّدات الخبر وملاءمتها مع مقتضيات الحال وهي:

*خالي الذهن ومستعد لتصديق الخبر وبالتالي لا يحتاج إلى مؤكّدات

*في حالة الشك والتردد وفي هذه الحالة لا بد من أن يكون الخبر مصحوباً بمؤكد واحد.

*منكراً ومكابراً وفي هذه الحالة يحتاج الخبر إلى أكثر من مؤكّد.³

وقد تواضع البلاغيون على تسمية هذه الأحوال بأضرب الخبر وهي كالتالي:

-الخبر الابتدائي: وهو الخبر الخالي من المؤكّدات، حيث لا يستدعي حال المخاطب تأكيد الخبر له، لأنّه

خالي الذهن من الحكم على الخبر بشك أو إنكار، وأمثله كثيرة في سورة هود نذكر بعضها على سبيل

المثال لا الحصر، من ذلك قوله تعالى: "الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾" ⁴،

وأيضاً قوله تعالى: "إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾" ⁵، وأيضاً قوله عزّوجل: "وَلِلَّهِ غَيْبُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾" ⁶

فالملاحظ على هذه الآيات أنّها خالية من أدوات التوكيد، وذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى يعلم أنّ

المخاطب خالي الذهن من الحكم على مضمون الخبر، وهناك الكثير من الأمثلة عن هذا الضرب من الخبر

في سورة هود وفي القرآن الكريم بصفة عامة .

-الخبر الطلبي: وهو الذي يكون فيه المخاطب متردداً في الحكم، فعندئذ يلقى إليه الخبر مؤكّداً بإحدى

أدوات التوكيد.

1 ينظر: محمد علي الصابوني: "المصدر السابق"، ج2، ص30

2 ينظر: عيسى علي عاكوب وعلي سعيد الشتوي: "الكافي في علوم البلاغة"، مرجع سابق، ص71-73.

3 ينظر: عبد القادر محمد مايو: "البلاغة العربية-الخبر والإنشاء"، حلب، دار القلم، ط، دت، ص5.

4 سورة هود: الآية1

5 سورة هود: الآية4

6 سورة هود: الآية 123

وأدوات التوكيد هي: إن، أن، لام الابتداء، أحرف القسم (الواو، الباء، التاء) نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، أحرف التنبيه (ألا، أما) أما الشرطية، قد، التكرار¹.

ومثال الخبر الطلبي في سورة هود قوله تعالى: "أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ" ﴿٢﴾² فقد أكد سبحانه وتعالى الخبر بأداة واحدة وهي "إن" التي تفيد التوكيد، وذلك تأكيداً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ" ﴿١٠٦﴾³ يظهر بأن الآية الكريمة أتت مؤكدة بمؤكد واحد وهو أما الشرطية، وغيرها كثير من الأمثلة الواردة في سورة هود والتي تمثل لنا نماذج رائعة عن الخبر الطلبي في القرآن الكريم بصفة عامة.

***الخبر الإنكاري:** وهو الذي يكون فيه المخاطب منكراً للحكم الذي ألقى إليه، مما يحتاج إلى تأكيده له بمؤكدين أو أكثر، ومن نماذج ذلك في سورة هود قوله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشَوْنَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) ﴿٥﴾⁴، فقد ورد الخبر في هذه الآية الكريمة مؤكداً بأكثر من أداة، وتمثلت هذه الأدوات في: ألا التنبيهية، إنّ وقد تكررت هاتين الأداتين مرتين في الآية الكريمة.

وكذلك قوله تعالى (وَلَئِن أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) ﴿٨﴾⁵

ففي الآية الكريمة ألقى الله سبحانه وتعالى خبره مؤكداً بأداتين هما: ألا التنبيهية ونون التوكيد الثقيلة والمتمثلة في الفعل "ليقولن" وأمثلة هذا الضرب من الخبر كثيرة في السورة والمقام لا يتسع لتقصيها جميعاً لذا نكتفي بما عرضناه على سبيل التمثيل لا الحصر.

وخلاصة القول: فإنّ الإسناد الخبري هو ضم كلمة أو ما يجري مجراها بحيث يفيد بأن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنها، وصدقه مطابقته للواقع وكذبه عدمه⁶.

1 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص58.

2 سورة هود: الآية 2

3 سورة هود: الآية 106

4 سورة هود: الآية 5.

5 سورة هود: الآية 8.

6 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص121.

وبناء عليه-الإسناد الخبري-أقام البلاغيون مباحث الخبر وأغراضه وأحواله وأضره¹، والمراد بأحوال الإسناد الخبري ما يلحق الخبر من تأكيد وعدمه، وكونه حقيقة أو مجازاً، وهذا ما عرضناه سالفاً. ومثلاً يتحقق الإسناد في الخبر فنقول جملة خبرية، يتحقق كذلك في الإنشاء فنقول جملة إنشائية.

3/1/2-الإنشاء وأغراضه من منظور سورة هود:

الإنشاء في اللغة من نشأ، أنشأ الله الخلق: ابتدأ خلقه، والإنشاء هو الابتداء أو الخلق والإبداء والإيجاد.² وقد وردت كلمة نشأ في القرآن الكريم عدة مرات بمعنى إيجاد الشيء من ذلك قوله تعالى: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)³، يقصد هو الذي خلقكم وأوجدكم، فالإنشاء هو الإيجاد المختص بالله.⁴

أما الإنشاء في اصطلاح البلاغيين -وهذا المهم- يقصد به "مالا يحتمل الصدق والكذب لذاته".⁵ وبهذا فالإنشاء هو عكس الخبر ومخالفه.

وينقسم الإنشاء باعتبار نوعيه إلى قسمين هما: الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي.

*الأساليب الإنشائية الطلبية في سورة هود:

- الأسلوب الإنشائي الطلبي: "هو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب"⁶. وحصر علماء البلاغة مباحث الإنشاء الطلبي في خمسة مباحث وهي: الأمر، النهي، الاستفهام، والتمني، والنداء.⁷

وكان لهذه مباحث الإنشاء الطلبي حضوراً جلياً في سورة هود، حيث تجلت جميعها وسنحاول أن نقف على هذه الأساليب ونمثل لها على ضوء ماورد منها في السورة .

1-الاستفهام في سورة هود: يعد أسلوب الاستفهام من الأساليب الإنشائية الطلبية التي حفل بها

النص القرآني.

1 ينظر: المرجع نفسه، ص121.

2 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 6، ص 142

3 سورة الملك: الآية 23.

4 ينظر: الراغب الإصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص494.

5 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص69.

6 المرجع نفسه: ص70.

7 ينظر: المرجع نفسه، ص 70.

والاستفهام في اللغة من فهم، الفهم: معرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء عقلته، وأفهمه الأمر وفهمه إياه: جعله يفهمه، واستفهمه سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيمًا.¹
أما اصطلاحاً: "هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وذلك بأداة من إحدى أدواته."²
وهناك من جعله مرادفاً للاستخبار مستدلين على ذلك بأن "الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه: إنه طلب خبر ما ليس عند وهو بمعنى الاستفهام أي طلب الفهم."³

وهناك من فزق بينهما فقال: "أن" الاستخبار ماسبق أولاً ولم يفهم حق الفهم فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً."⁴

غير أن المتداول عند علماء البلاغة هو مصطلح الاستفهام، وهو من الأساليب الإنشائية الواردة بكثرة في القرآن الكريم، والتي تنبه إليها البلاغيون منذ بواكر الدراسات البلاغية القرآنية مثل الفراء (ت207هـ) حيث أشار هذا الأخير في كتابه "معاني القرآن" إلى مسألة الاستفهام في القرآن الكريم⁵، وذلك في عدة مواضع من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا)⁶.

فقد بين الفراء الاستفهام الوارد في الآية الكريمة، وأشار إلى أن الغرض منه هو التوبيخ فقال: "والعرب تستفهم بالتوبيخ."⁷

ولم تتوقف مسألة الاستفهام في القرآن الكريم عند الفراء وإنما توالى عبر الزمن على كتب التفسير والبلاغة، فما من مصنف في البلاغة القرآنية إلا وقد لمح إلى ذلك.

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص168

2 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص78.

3 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص109.

4 المرجع نفسه: ص104.

5 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، ص55.

6 سورة الأحقاف: الآية20.

7 الفراء: "معاني القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص54.

ويعد كتاب دلائل الإعجاز لإمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) من المصنفات التي تناولت قضية الاستفهام، وإن تناولها بشكل عام إلا أنّ هذا لم يمنع من إشارته إلى بعض النكتات الاستفهامية في القرآن الكريم، وبالخصوص الاستفهام الإنكاري¹.

ولعل أهم دراسة مستفيضة عن الاستفهام في القرآن كانت لشيخ البلاغة القرآنية جبار الله الزمخشري (ت538هـ) حيث حصر أغراض الاستفهام في: التعجب، التجهيل، التويخ، التفخيم، التشويق، التقرير، الإنكار، وتتبع مواضع ذلك من خلال تفسيره آيات القرآن الكريم².

ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ)³.

حيث أشار إلى الاستفهام في عبارة: (أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ)، وعلق على ذلك بقوله: "الاستفهام في (أَنُؤْمِنُ) معناه الإنكار"⁴.

إذن: لقد اهتم البلاغيون منذ بواكر الدراسات البلاغية القرآنية بأسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، لكن ومع هذا الاهتمام إلا أنّها تبقى مجرد إشارات متناثرة على ضوء تفسيراتهم للقرآن الكريم. ومما لا شك فيه أن مباحث الاستفهام رست ورتبت في شكل قوعد منتظمة على يد الإمام السكاكي (ت626هـ) وتلميذه الخطيب القزويني (ت739هـ) مستندين في ذلك الآيات القرآنية شاهدا على آرائهم: يقول السكاكي: "الاستفهام كلمات موضوعة وهي: الهمزة، وأم، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، ومتى، وأيان بفتح الهمزة وكسرهما.. وهذه الكلمات ثلاثة أنواع: أحدهما: يختص طلب حصول التصور، وثانيهما: يختص طلب حصول التصديق، وثالثها لا يختص"⁵.

كما أعطى السكاكي عن كل ذلك مثالا مبينا بذلك الأغراض التي تخرج إليها الاستفهام.

1 ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص111-115.

2 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص181.

3 سورة البقرة: الآية 13.

4 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ج1، ص47.

5 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص308.

وبما كان تلميذه الخطيب القزويني منه ترتيباً، إذ تكلم عن الاستفهام وبين ألفاظه الموضوعية له وحصرها في التالي (الهمزة-هل-ما-من-أي-كم-كيف-أين-أنتي-متى-أيان)، مبينا معاني كل واحدة منها، ومستدلاً على ذلك بشواهد من القرآن الكريم.

وارتأينا أن نتوقف مع الخطيب القزويني في حديثه عن الاستفهام، لأن وجدنا فيه مطلب ضاللتنا، ومقصد غايتنا في حديثنا عن الاستفهام في القرآن الكريم، فستقصى منهجه في ذكر أدوات الاستفهام ومعانيها ونستدل على ذلك بأمثلة منها على ضوء سورة هود.

-الهمزة: وهي حرف استفهام يفيد طلب التصديق، وهي من أكثر أدوات الاستفهام توظيفاً في القرآن الكريم، ومن أمثلتها في سورة هود قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)¹.

وأيضاً قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُ فَمَا كَانُوا لَهُمْ أَعْيُنٌ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ ﴿٢٨﴾)²

وأيضاً قوله تعالى: (أَلَلْدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾)³

وتوجد غير هذه الأمثلة عن الاستفهام بالهمزة في السورة

-هل: والغرض منها طلب التصديق، ومن أمثلتها في سورة هود، قوله تعالى: (فَإِلَّامٍ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾)⁴.

وأيضاً قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)⁵

وقد وردت أداة الاستفهام "هل" في هذين الموضعين فقط من سورة هود.

وتعد الهمزة وهل من حروف الاستفهام، وما تبقى فهي عبارة عن أسماء وهي كما يلي:

¹سورة هود: الآية 17

²سورة هود : الآية 28

³سورة هود: الآية 72.

⁴سورة هود: الآية 14.

⁵سورة هود: الآية 24

- ما: وتفيد الشرح، ويسأل بها عن الجنس لغير العاقل، أي جنس الأشياء، وكذلك عن الصفات، ومن أمثلتها في سورة هود، قوله تعالى: (وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾)¹.

- من: هي للسؤال عن الجنس العاقل، أي من ذوي... مثل قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَإِنِّي مِّنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾)².

هذه هي أدوات الاستفهام التي تضمنتها سورة هود والتي أخذت فيها المهمة الحظ الأكبر من ذلك . وقبل أن ننهي كلامنا عن الاستفهام لابد من الإشارة إلى الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام وهذا هو أصل الدراسة البلاغية للأساليب الإنشائية.

فقد يخرج الاستفهام عن معانيه الأصلية إلى معان مجازية يفرضها المقام، وتفهم من سياق الكلام³، ومن نماذج ذلك في سورة هود ما يلي:

- الإنكار: مثل قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)⁴. يقول صاحب صفوة التفاسير في تفسير هذه الآية: أن قوله تعالى: "... هل يستويان مَثَلًا" استفهام إنكاري أي لا يستويان مثلاً فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضياءه كحال من يخبط في ظلمات الظلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة.⁵ ومن الاستفهام الإنكاري أيضا قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَإِنِّي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾)⁶ فقد اشتملت الآية الكريمة على استفهام إنكاري حيث أراد نوح عليه السلام من تساؤله أن يقول لقومه بأنه لا يكرههم على قبول الإيمان وهم منكرون له⁷.

1 سورة هود: الآية 8

2 سورة هود: الآية 63.

3 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 83.

4 سورة هود: الآية 24

5 محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 11

6 سورة هود: الآية 28.

7 محمد شعبان علوان، نعمان شعبان علوان: "من بلاغة القرآن، القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، دط، 1998م، ص 56

-التعجب: قد يخرج الاستفهام إلى التعجب مثل قوله تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾)¹

ويرى القرطبي وآخرون بأن الاستفهام في هذه الآية الكريمة دل على التعجب.²

-التقرير: يفيد الاستفهام التقرير، والمقصود بالاستفهام التقريري: "استفهامك عن ذلك الشيء أن يقر به الفاعل".³

ومن أمثله في سورة هود قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)⁴

وأيضاً قوله تعالى: (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾)⁵ يقول الشنقيطي: إن الاستفهام في هذه الآية "هو استفهام تقريري".⁶

-التكذيب والاستهزاء: مثل قوله تعالى: وَلَنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَحْسِبُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾)⁷

فالغرض من الاستفهام في قوله تعالى: "لِيَقُولُوا مَا يَحْسِبُهُ" الاستهزاء والسخرية، "أي ليقولوا استهزاء ما يمنع من النزول".⁸

-التهكم والسخرية: ومثاله في سورة هود قوله تعالى: قالوا يا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾)⁹

1سورة هود: الآية 72

ينظر: القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن الكريم"، مصدر سابق، ج 11، ص 169، وينظر: أبو حيان الأندلسي: البحر المحيظ"، مصدر سابق، ج 5، ص 241.

3ابن قيم الجوزية: "الفوائد المشوق"، مصدر سابق، ص 158

4سورة هود: الآية 17

5سورة هود: الآية 81

6محمد الأمين الشنقيطي: "معارج الصعود إلى التفسير في سورة هود"، جدة، دار المجتمع، ط 1، 1408هـ-1988م، ص 196

7سورة هود: الآية 8

8محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 8

9سورة هود: الآية 87

يظهر من هذه الآية الكريمة أنّ قوم شعيب عليه السّلام ردوا عليه بتساؤل القصد منه التّهكم والسّخرية، وهو في قوله تعالى: "أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ" فكان استفهامهم على سبيل التّهكم والاستهزاء والسّخرية.¹

التّوبيخ: وذلك في قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾²

ففي قوله تعالى: "أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ"، أراد شعيب عليه السّلام بهذا التساؤل توبيخ قومه الذين جعلوا رهطه أعزّ عندهم من الله عزّوجل.³

وخلاصة القول: إنّ أسلوب الاستفهام شغل حيزا كبيرا في سورة هود وذلك لأنّ مقاماتها تطلبت ذلك لما كان فيها من حوار بين الأنبياء وأقوامهم المنكرين لدعوتهم. بالإضافة إلى هذا فإنّ معظم مقامات العقيدة والدعوة في القرآن الكريم ترد بصيغ استفهامية لأغراض بلاغية متنوعة.

ومن المقامات التي تتطلب كثرة الاستفهام في القرآن الكريم:

-العقيدة والتّوجيه

-الحجاج والحوار

-الامتنان والشّكر

-البعث والحساب وذكر الجنة والنّار

-التّدبر والتّفكير.⁴

وبهذا يمكن القول بأنّ لأسلوب الاستفهام في القرآن الكريم سمة إعجازية بالغة الأثر في معرفة خواص تركيب الإلهي والكشف عن إحدى خبايا الإعجاز البلاغي، والتي تعطي للنص القرآني تفردا وأصالة ليست في غيره من النصوص البشرية الأخرى.

2- الأمر في سورة هود: من الأساليب الإنشائية الطّلبة التي حفل بها النصّ القرآني أسلوب الأمر.

¹ ينظر: أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط"، ج5، ص253، وينظر: القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"، ج11، ص193

² سورة هود: الآية92

³ ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التّفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص30

⁴ ينظر: المرجع نفسه: ص171-172.

ويقصد بالأمر في اللغة كما يقول صاحب لسان العرب: من أمر، والأمر معروف نقيض النهي، وتقول العرب، أمرتك أن تفعل وتنفعل وبأن تفعل، والجمع أوامر.¹
يستنتج من هذا أن الأمر في اللغة هو بمعنى طلب الفعل.

أمّا عن معاني الأمر في القرآن الكريم فقد وردت متعددة من ذلك أنّ الأمر: الشأن ويظهر ذلك في قوله تعالى: (وَالِيهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ)²، وكذلك الأمر بمعنى التكليف وطلب الفعل مثل قوله تعالى: (إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)³.

فالأمر في القرآن الكريم ورد بدلالات عدة، وقد أخذنا منها ما يهمنا في موضوعنا من أن الأمر هو التكليف وطلب الفعل.⁴

أمّا الأمر في اصطلاح البلاغيين فيقصد به: "طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام."⁵ وقد تنبعت طائفة من البلاغيين منذ القدم إلى هذا النوع من الأسلوب-أعني الأمر-واستنبطت أغراضه وأهدافه البلاغية التي اهتمت إليها بمراعاة السياقات القرآنية، حيث كان القرآن الكريم الشاهد البلاغي الذي انبنت عليه قواعد وأساليب البلاغة العربية.

ولعل الفراء(ت207هـ) كان أول البلاغيين التفاتاً إلى أسلوب الأمر في القرآن الكريم، إذ تفتن بحسه البلاغي إلى أنّ دلالات الأمر في القرآن الكريم تخرج إلى معان بلاغية أخرى، واستدل على ذلك في عدة مواضع من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)⁶، فيقول: "فمعناه-فيما نرى والله اعلم-أنه توبيخ أي ذق فإنك كريم كما زعمت، ولست كذلك"⁷. وغيرها من الأمثلة القرآنية المتناثرة على ضوء تفسيره.

كما نجد أبو عبيدة(ت210هـ) في كتابه مجاز القرآن قد تطرق إلى دلالات الأمر في القرآن الكريم، وذلك من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: (اعْمَلُوا مَا

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص104

2 سورة هود: الآية123.

3 سورة الصافات: الآية102.

4 ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص24-25.

5 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص184.

6 سورة الدخان: الآية49.

7 الفراء: "معاني القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص44.

شِئْتُمْ¹، فيقول أبو عبيدة: "لم يأمرهم بعمل الكفر وإنما هو توعّد"²، فالغرض من الأمر في هذا الجزء من الآية هو الوعيد والتّهديد.

ومما لا شك فيه أن الزمخشري (ت538هـ) قد أعطى للأمر في القرآن الكريم تفسيره لقوله تعالى: (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)³، فيقول: "فإن قلت ما الأمر؟ قلت هو طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمر به فقليل له أمر..."⁴

ومن خلال دراسة الزمخشري للأمر في القرآن الكريم لاحظ بأنّ له أغراضا بلاغية تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال منها: التّهمك، والاستهزاء، والإباحة وغيرها من الأغراض التي أشار إليها في تفسير آيات القرآن الكريم.

ومن نماذج ذلك تفسيره لقوله تعالى: (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)⁵. يقول بأن الغرض من الأمر في هذا المقام هو الإباحة⁶.

وأغلب التّفسير القرآنية التي تطرقت إلى البلاغة القرآنية التفتت إلى ظاهرة الأمر في القرآن الكريم، فلا نجد مصنفا من مصنفات التفسير والبلاغة إلّا وتطرقت لأسلوب الأمر.

وحسب دراسة البلاغيين المتأخرين نجد أنّ أسلوب الأمر تم إدراجه تحت مباحث علم المعاني، وكانت أول صورة واضحة لأسلوب الأمر كمصطلح بلاغي عند السكاكي (ت626هـ) الذي أدرجه تحت علم المعاني وجعله الباب الثالث من أبواب الطلب مبينا صيغته ودلالته⁷.

ثمّ تبعه في ذلك تلميذه الخطيب القزويني (ت739هـ) الذي عدّ الأمر نوعا من أنواع الإنشاء وفصل القول في ذكر صيغته المتعددة، إذ يقول: "ثمّ إنها- أعني صيغة الأمر- قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب

1 سورة فصلت: الآية 40.

2 أبو عبيدة: "مجاز القرآن"، مصدر سابق، ج2، ص197.

3 سورة البقرة: الآية 27.

4 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص69.

5 سورة المائدة: الآية 2.

6 ينظر: الزمخشري: "المصدر السابق"، ص277.

7 ينظر: السكاكي "مفتاح العلوم" مصدر سابق، ص318.

مناسبة المقام...¹

وذكر الخطيب القزويني هذه الصيغ التي يفرضها المقام من ذلك: الإباحة، التهديد، التعجيز، التسخير، الإهانة، الدعاء... إلخ² وعلى نفس المنهج سار من أتى بعد القزويني من البلاغيين إذ لم يضيفوا شيئاً على ذلك سوى شروحات أو تلخيصات.

وعلى العموم فإن صيغ الأمر في القرآن الكريم متعددة بتعدد المقامات، وحسب بعض الإحصائيات فإن مواضع الأمر في القرآن الكريم تصل إلى ثمانية وأربعين ثمان مائة وألف (1848) صيغة³، ما بين الحقيقي منها والمجازي وسنكتفي بذكر بعضها على ضوء سورة هود على سبيل الإيجاز والاختصار:

***صيغ الأمر الحقيقية من منظور سورة هود:** وتنحصر في أربع صيغ وهي:

1- فعل الأمر: ورد فعل الأمر كثيراً في سورة هود، من ذلك قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٢٣﴾)⁴، فقد ورد فعل الأمر في هذه الآية الكريمة مرتين، الأولى تمثل في الفعل: استغفروا، والثاني في الفعل: توبوا. وأفعال الأمر كثيرة في سورة هود لأن المقام مقام دعوة إلى الله مما يتطلب فعل الأمر الذي يقتضي القبول والالزام والخضوع.

وأكثر فعل أمر ورد في سورة هود تمثل في الفعل: "اعبدوا" هذه الصيغة الأمرية التي جعلها كل نبي لساناً لدعوته إلى الله تعالى من نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

كما أن الملاحظ أن فعل الأمر كان الصيغة الوحيدة المعروضة في سورة هود ولم تصادف الصيغ الأخرى المتمثلة في: فعل المضارع المجزوم بلام الأمر، المصدر النائب عن فعل الأمر، اسم فعل الأمر.⁵

***أغراض الأمر المجازية:** قد تخرج صيغ الأمر عن معناها الأصلي إلى معان أخرى مجازية يتطلبها المقام ومن ذلك:

1 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 147.

2 ينظر: المصدر نفسه: ص 147-149.

3 ينظر: محمد عبد الخالق عظيمية: "دراسات لأسلوب القرآن الكريم"، القاهرة، دار الحديث، دط، دت، ج 3، ص 465.

4 سورة هود: الآية 3.

5 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 71.

-النصح والإرشاد: مثل قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾)¹. ففي الأمر بالاستغفار والدعوة إلى التوبة غرض بلاغي القصد من النصح والإرشاد.

ونفس الغرض نجده أيضا في قوله تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾)².

وأیضا على لسان نبيه صالح عليه السلام يقول تعالى: (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾)³. كما يتجلى الأمر بالنصح والإرشاد في قوله تعالى : (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ...)⁴ ففي هذه الآية الكريمة ينصح شعيب عليه السلام قومه بأن يوفوا في الكيل والميزان، ويرى الزمخشري بأن الغرض من هذا الأمر هو الترغيب في الحسن المتمثل في العدل في الميزان.⁵

-التهديد والوعيد: شغل غرض الأمر بالتهديد حيزا واسعا في سورة هود ومن نماذج ذلك قوله تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام: (... تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾)⁶ فإن في قوله "تمتعوا" أمر الغرض منه التهديد والوعيد بعذاب الله تعالى.

ومثاله أيضا قوله تعالى : (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾)⁷ ففي هذه الآية أمر الغرض منه التهديد والوعيد.⁸

ولعل أغلب استعمالات الأمر للتهديد في القرآن الكريم تكون في مواطن الدعوة إلى إلا الله عزوجل.⁹ وغيرها من الأغراض البلاغية التي تفهم من سياق كلام الله عزوجل.¹⁰

1 سورة هود: الآية 3.

2 سورة هود: الآية 4

3 سورة هود: الآية 61.

4 سورة هود: الآية 85.

5 ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 493

6 سورة هود: الآية 65

7 سورة هود: الآية 93

8 ينظر: القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"، مصدر سابق، ج 11، ص 202

9 ينظر: دخيل الله الصحفي: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص 187

10 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 71-72.

-التعجيز: وذلك في قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَلْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾)¹

يقول الشنقيطي عن هذه الآية بأن صيغة الأمر في قوله تعالى: "... فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا ..." للتعجيز.²

كما نلمح هذا الغرض من الأمر في قوله تعالى: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾)³

فقوم نوح عليه السّلام من خلال قولهم: "... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ..." أرادوا تحديّه وتعجيزه.⁴

-التكريم: قد يخرج الأمر إلى غرض التّكريم ومثال ذلك قوله تعالى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾)⁵

فالغرض من الأمر في قوله تعالى "وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ..." تكريم من الله سبحانه وتعالى لنبية نوح عليه السّلام، ونجد نفس الغرض في قوله تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾)⁶ وأيضا في قوله تعالى: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ...) ⁷

فالأمر في الفعل "اركبوا" والفعل "اهبط" أمر حقيقي لكن ماأخرجه عن حقيقته هو ماورد بعدهما من تكريم الله سبحانه وتعالى لنبية نوح عليه السّلام وقومه الذين آمنوا معه.

-التثبیت والتسليّة: وتمثل ذلك في قوله تعالى: (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾)⁸

فالغرض من قوله تعالى: "وَاصْبِرْ ..." تسليّة لقلب النّبي صلى الله عليه وسلم وتثبیتا له لمواصلة الدّعوة. وخلاصة القول فإنّ أسلوب الأمر في القرآن الكريم له من الأسرار البلاغية والمكامن الإعجازية ما لا تحصه الأقلام وتدرّك كنهه الأبواب وماورد منه في سورة هود ما هو الأقليل من كثير.

¹سورة هود: الآية 13

²ينظر: الشنقيطي: "معارج الصعود إلى تفسير سورة هود"، مرجع سابق، ص 66

³سورة هود: الآية 32

⁴ينظر: دخيل الله الصحفي: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص 189

⁵سورة هود: الآية 37

⁶سورة هود: الآية 41

⁷سورة هود: الآية 48

⁸سورة هود: الآية 115

3- النهي في سورة هود: من المعلوم أن النهي خلاف الأمر، حيث يقول ابن منظور: نهي، النهي خلاف الأمر، نهاه ينهاه فأنهى وتناهى: كف¹.

وبناء على هذا فالنهي في اللغة يقصد به الكف والمنع.

وبنفس المعنى وردت في القرآن الكريم ومن أمثلتها قوله تعالى: (**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى**)²، أي الذي يمنع.

إذا كان الأمر هو طلب الفعل فإنّ النهي طلب المنع والتّرك يدل على ذلك قوله تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**)³، أي يحث على فعل الخير وهذا هو الأمر، ويزجر عن الشرّ وهذا هو النهي⁴.

ويقصد بالنهي حسب اصطلاح البلاغيين: "هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء."⁵

وللنهي صيغة واحدة تتمثل في المضارع المقرون بلا الناهية وهي (لا تفعل)⁶، ومن أمثلتها في سورة هود قوله تعالى: (**وَأَوْحِي إِلَىٰ نوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾**)⁷.

والفائدة من النهي هي المنع والتّحريم، ومن هذا المنطلق فإنّ النهي في القرآن الكريم هو ما حرّمه الله سبحانه تعالى وكف عباده عن فعله.

ومثلما اعتنى البلاغيون بأسلوب الأمر اعتنوا كذلك بخلافه النّهي وعدوه نوعاً من الإنشاء الطلبي.

وقد ركز البلاغيون في دراستهم لأسلوب النهي عن المعان البلاغية التي يخرج إليها مستدلين على ذلك بآيات من الذكر الحكيم.

ومن تلك اللفظات الطيبة لأسلوب النهي في القرآن الكريم نجد إلتفاتة الفراء (207هـ) الذي عالج موضوع النهي ويبيّن أغراضه البلاغية على ضوء تفسيره للقرآن الكريم، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (**رَبَّنَا اطْمِسْ**

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج6، ص 269

2 سورة العلق: الآية 9-10

3 سورة النحل: الآية 90

4 ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص 507

5 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق، ص 666

6 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 76 .

7 سورة هود: الآية 36.

عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ¹ فقال: "وقوله: "لا يؤمنوا" كل ذلك دعاء، كأنه قال اللهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم"².

فخرج النهي في هذا الموضع إلى دلالة الدعاء لأنَّ المقام تطلب ذلك. وبنفس المعنى فسرهما أبو عبيدة(ت210هـ) مبينا خروج النهي عن دلالاته الأصلية إلى دلالة الدعاء إذ يقول: "فلا يؤمنوا جزم لأنه دعاء عليهم أي فلا يؤمنن."³

كما نص شيخ البلاغة القرآنية الزمخشري (ت538هـ) على أنَّ النهي في القرآن الكريم يخرج عن دلالاته الأصلية إلى دلالات مجازية تفهم من سياق الكلام وارتأينا في هذا المقام أن نخطف نموذجا واحدا من نماذج كثيرة عن النهي في القرآن الكريم على ضوء تفسير الكشاف، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)⁴، حيث يقول: "قرئ ولا تسأل على النهي، فنهي عن السؤال عن أحوال الكفرة... وقيل معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب..."⁵

يستنتج أنَّ من أغراض النهي التعظيم والتَّهويل وغيرها كثير، ومن أراد الاستزادة فكتاب الكشاف للزمخشري خير ما توجه إليه الأنظار في معرفة بلاغة النهي القرآنية، بالإضافة إلى مصنفات أخرى في التفسير والبلاغة القرآنية.

حذا حذو الزمخشري كثير من البلاغيين المتأخرين الذين اهتموا إلى أسلوب النهي في القرآن الكريم أمثال أبو يعقوب السكاكي(ت626هـ) والخطيب القزويني(ت739هـ).

حيث عدَّ السكاكي أسلوب النهي نوعا من أنواع الأساليب الإنشائية مقارنة به في أسلوب الأمر، وبين أغراضه البلاغية التي تتوقف على القرائن والأحوال.⁶

وتبعه في ذلك الخطيب القزويني مع نوع من الاختصار والإيجاز، حيث اكتفى هذا الأخير بالإشارة فقط إلى أن النهي خلاف الأمر ويقصد به طلب الكف والترك-وهذا هو الأصل-مع خروجه إلى صيغ بلاغية

1سورة هود: الآية 42

2 الفراء: "معاني القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص477.

3 أبو عبيدة: "مجاز القرآن"، مصدر سابق، ج 1، ص281.

4 سورة البقرة: الآية 119.

5 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص94.

6 ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص320.

أخرى تفهم من سياق الكلام كالتهديد.¹

والواقف على البلاغة القرآنية يجدها حافلة بصيغ التّهي- وإن كانت أقل من الأمر-متنوعة بين الحقيقة والمجاز. وسنحاول تسليط الضوء على بعضها من منظور سورة هود.

-الأغراض البلاغية لأسلوب التّهي في سورة هود: الغرض الحقيقي من أسلوب التّهي هو التّحريم والمنع والتّرك. لكن قد يخرج عن هذا الغرض إلى أغراض بلاغية يستدعيها سياق المقام، وأساليب التّهي في سورة هود ليست بدعا من ذلك ومن الأغراض التي تضمنتها:

-التّصح والإرشاد: نحو قوله تعالى: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾)². يبدو الغرض جليا من نهي نوح ابنه عن البقاء مع الكافرين هو التّصح والإرشاد، ونصح الآباء للأبناء فطرة متأصلة فيهم والتي غالبا ماتكون بأسلوب التّهي.

-التّسلية والتّثبيت: وذلك في قوله تعالى: (وَأَوْحِيَ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)³ فالغرض من التّهي في قوله تعالى: "... فَلَا تَبْتَئِسْ..." فيه تسلية لنوح عليه السلام لما يتعرض له من سخرية واستهزاء من قومه⁴. ونفس الغرض يوجد أيضا في قوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لَوُطٍ ﴿٧٠﴾)⁵، فقول الملائكة لابراهيم عليه السلام: " لَا تَخَفْ" نهي الغرض منه تسليته وبث الطمأنينة في قلبه⁶.

-التّحذير: ومثاله قوله تعالى: (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾)⁷ ففي قوله تعالى: " وَلَا تَبْخَسُوا..." نهي عن النقصان في الميزان⁸ والغرض منه التحذير حيث أنّ شعيب عليه السلام يحذر قومه من التّطفيف في الميزان.

¹ ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص149.

² سورة هود: الآية42.

³ سورة هود: الآية36

⁴ ينظر: دخيل الله الصحفي: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص198

⁵ سورة هود: الآية70

⁶ ينظر: دخيل الله الصحفي: "المصدر السابق"، ص198

⁷ سورة هود: الآية85

⁸ ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص493

-**التهديد والوعيد:** ويظهر ذلك في قوله تعالى: (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾) ¹ فالنهي هنا في قوله تعالى: "لا تخاطبني..." "نهي غرضه التهديد والوعيد، فالله تعالى ينهي نبيه نوح عن طلبه من امهالهم لأنه سيغرقهم". ²

إذن: هذه بعض مواضع النهي وأغراضها البلاغية في سورة هود والتي بينت لنا جانب الإعجاز البلاغي في أسلوب النهي القرآني.

4- التمني في سورة هود: عدّ علماء البلاغة التمني أسلوباً من الأساليب الإنشائية الطلبية.

ويقصد بالتمني في اللغة-حسب رأي ابن منظور-أنه مشتق من مني، تمنيت الشيء أي أحببت أن يصير إلي، واشتهيت حصوله، والمنى: حديث النفس، وكذلك هو القدر. ³

وترددت هذه الكلمة في مواضع من القرآن الكريم بنفس المعنى اللغوي، من ذلك قوله تعالى: (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى) ⁴، وكذلك قوله تعالى: (فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ) ⁵.

فالتمني بمفهوم القرآن الكريم هو تلك الصورة الحاصلة في النفس من تخمين وظن. ⁶

أما التمني في اصطلاح البلاغيين "هو طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلاً، وإما لكونه ممكناً غير مطموع". ⁷

ولم يحظ أسلوب التمني بالقدر الكافي من الدراسة لدى علماء البلاغة،-وذلك لأسباب مجهولة-مثلما حظيت به الأساليب الإنشائية الأخرى.

ومع ذلك حاولنا أن نترصد بعض المصادر والمراجع التي تكلمت عن هذا الأسلوب أو أشارت إليه إما بطريقة مباشرة-وإن كانت قليلة أو تكاد تنعدم-أو على ضوء دراسات أخرى ككتب التفسير والنحو.

¹سورة هود: الآية 37

²ينظر: القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"، مصدر سابق، ج11، ص109

³ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج6، ص 101

⁴ سورة النجم: الآية 24.

⁵ سورة البقرة: الآية 94-95.

⁶ ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص476.

⁷ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص87.

ومما لا شك فيه أنّ تفسير الكشاف للزمخشري يعنى بمقصد كل باحث في البلاغة القرآنية إذ نجده يشير إلى أسلوب التّمني من خلال تفسيره للآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الصيغة الإنشائية، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)¹، فنقول: "ليتني كنت ترابا في هذا اليوم فلم أبعث (يقصد) الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره، حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين."²

إذن: فليت تدل على التّمني، وقد وردت في 14 موضعا في القرآن³، وهذا ما أجمع عليه علماء البلاغة حيث عدوها الصيغة الأصلية لأسلوب التّمني، وغيرها من الأدوات الأخرى فهي نائبة⁴، وهذا ما أشار إليه صاحب المفتاح، حيث قال بأنّ الكلمة الموضوعية للتّمني هي ليت وحدها، وأما لو وهل فهي مجرد أدوات نائبة⁵

وشارك السكاكي في رأيه هذا تلميذه القزويني (ت739هـ) الذي يرى هو كذلك بأن اللفظ الموضوع للتّمني هو ليت، وهو الأصل، بالإضافة إلى ألفاظ أخرى غير أصلية⁶، تخرج إلى أغراض بلاغية تفهم من سياق الكلام وهي:

-هل: نحو قوله تعالى: (فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا)⁷

-لو: نحو قوله تعالى: (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)⁸، أفادت الندم والتحسر.

-لعل: نحو قوله تعالى: (لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾)⁹ أسباب السّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى

وهذه الأخيرة -لعل- عدّها بعض البلاغيين من الأساليب الإنشائية الطليبية أمثال الخطيب القزويني¹⁰، وعدّها البعض الآخر من الأساليب الإنشائية غير الطليبية.

1 سورة النبأ: الآية 40.

2 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص1175، ينظر: محمد عظيمة: "دراسات لأسلوب القرآن الكريم"، مصدر سابق، ص703.

3 ينظر: محمد عظيمة: "المصدر نفسه"، ص703.

4 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق ص87.

5 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص307.

6 ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص135-136.

7 سورة الأعراف: الآية 53 .

8 سورة الشعراء: الآية 102.

9 سورة غافر: الآية 36-37.

10 ينظر: الخطيب القزويني: "المصدر السابق"، ص136.

أما عن التمني في سورة هود فلم نجد له إلا مثالا واحدا تمثل في قوله تعالى: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾)¹، فلوط عليه السلام يتمنى لو يملك قوة أو سندا حتى يستطيع دفع أذى قومه والتصدية لهم ولعملهم المنكر.²

5- النداء في سورة هود: من أهم الأساليب الإنشائية التي حفلت بها البلاغة القرآنية أسلوب النداء.

والنداء في اللغة من ندى: النداء: الصوت مثل الدعاء والرغاء، وقد ناداه مناداة ونداء، أي صاح به.³ وكثيرا ما ترددت هذه الكلمة في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً)⁴، وكذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)⁵.

وغيرها من المواضع الأخرى التي وظفت فيها هذه الكلمة لتدل جميعها على النداء بمعنى رفع الصوت وظهوره لغرض الدعاء أو التنبيه.⁶

ونظرا لأهمية هذا الأسلوب ودلالته البلاغية في القرآن الكريم حظي باهتمام جلّ البلاغيين وتواضعوا على تعريفه بقولهم: "النداء هو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب أنادي المنقول من الخبر إلى الإنشاء."⁷

وأدواته هي: الهمزة (أ-آ)، يا آي، أيا، وا، هيا، أي.⁸

غير أنّ القرآن الكريم في توظيفه للنداء لم يستخدم من أدواته سوى (يا)، وكثيرا ما يتخلى عنها فيأتي النداء مجردا من الأداة.⁹

¹سورة هود: الآية 80

²ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التفسير"، مصدر سابق، ج2، ص27

³ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج6، ص 165.

⁴ سورة البقرة: الآية 171 .

⁵ سورة الجمعة: الآية 9.

⁶ ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص486.

⁷ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص89.

⁸ ينظر: المرجع نفسه: ص89.

⁹ ينظر: أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص130.

ومن الأمثلة التي ورد فيها النداء بحرف الياء، قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ¹، وكذلك قوله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) ².

يظهر من هذا بأنه غالباً ما يلي الصيغة الندائية "يا" أمر أو نهي ³، وأكد أنّ وراء هذا سر إعجازي يكمن في أنّ الله سبحانه وتعالى ينادي عباده للفت انتباههم إما لأمر يأمرهم بفعله أو لنهي ينهاهم عن فعله. "ولعل السر في إثارة القرآن الكريم لحرف النداء (يا) دون غيره، لأنّ هذه الأداة تكون الوسيلة الطبيعية في النداء... ولأنّها أخف حروف النداء في النطق" ⁴

أما عن النداء المجرد من (يا) في القرآن الكريم، فهو كثير، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (إِذ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) ⁵، وتقديرها يارب.

وقد أشار الدكتور أحمد بدوي إلى أنّ أغلب حذف "يا" في القرآن الكريم يكون في مقام ذكر الربوبية أو الألوهية، فيقول: "ولا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادي مجرداً من حرف النداء، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه." ⁶

والظاهر كذلك أنّ كلمة "رب" هي من أكثر الكلمات التي يستعملها المؤمن في دعاء ربه ومناجاته، ولذلك تأتي مجردة من (يا) على سبيل التخفيف لأن الأصل هو يارب ⁷.

ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم وظف (يا) كحرف للنداء مع كلمة (رب) وذلك في موضعين الأول في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) ⁸. والثاني في قوله تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) ⁹.

1 سورة المدثر: الآية 1-2.

2 سورة المائدة: الآية 87.

3 ينظر: أحمد بدوي: "المرجع السابق"، ص 130.

4 عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط 1، 1413هـ-1992م، ج 2، ص 8.

5 سورة مريم: الآية 4.

6 أحمد بدوي: "المرجع السابق"، ص 130.

7 ينظر: عبد العظيم المطعني: "المرجع السابق"، ص 8.

8 سورة الزخرف: الآية 88.

9 سورة الفرقان: الآية 30.

ووما لا شك فيه أنّ البلاغيين قد تنبهوا إلى هذا السرّ الإعجازي في بلاغة النداء القرآنية، ولا يوجد من البلاغيين من وفاه حقه مثل الزمخشري، حيث يقول: "فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء... قلت لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وأسباب من المبالغة، لأن كل مانادى الله به عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعدده ووعيدده، واقتصاص أخبار الأمم الدارحة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه من أمور عظام وخطوب حسام، ومعان عليهم أن يتفطنوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقترضت الحال أن ينادوا بالأكد الأبلغ".¹

يلمح الزمخشري من خلال قوله هذا إلى الأغراض البلاغية للنداء في القرآن الكريم والتي ارتأينا أن نذكر بعضها منها على سبيل المثال لا الحصر وذلك من منظور سورة هود:

فقد حفلت سورة هود بأسلوب النداء وأغلبه كان نداء بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم، وكانت الآداة الغالبة هي: "يا" ولا يوجد غيرها ويظهر ذلك في عدة مواطن من السورة من ذلك قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾)² فقد كان نداء نوح عليه السلام لقومه بـ"يا"، وبنفس الآداة ناده قومه ويظهر ذلك في قوله تعالى:

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾)³

ونفس الآداة -يا- نادى بها هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام قومهم في دعوتهم إلى الله. ولعل ما يهم من دراسة النداء هو الكشف عن الغرض البلاغي منه، فمن المعلوم أنّ الغرض الحقيقي من النداء هو لفت الانتباه، لكن قديخرج عن هذا الغرض إلى أغراض مجازية تفرضها سياقات المقام. ومن الأغراض البلاغية التي تضمنتها نداءات سورة هود مايلي:

- الاستعطاف والتلطف: ويظهر ذلك في قوله تعالى: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾)⁴، ففي هذه الآية الكريمة يتمثل النداء في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: "... يا بُنَيَّ..."، وقد جاء بصيغة التصغير دلالة على حنان وشفقة الأبوة.

1 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص56.

2 سورة هود: الآية 28

3 سورة هود: الآية 28

4 سورة هود: الآية 42.

كما يظهر نداء الاستعطاف في دعوة الأنبياء لأقوامهم مثل نداء هود عليه السلام لقومه عاد يقول تعالى: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُرْدِكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾)¹

فقد كرر هود عليه السلام نداءه أكثر من مرة تذكيرا لهم على أنه منهم حتى يكسب ودهم واستعطافهم معه.²

-التعجب: قد يخرج النداء عن غرضه الأساسي ويفيد الدهشة والتعجب نحو قوله تعالى في سورة هود: (قَالَتِ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾)³

يظهر من نداء سارة زوجة ابراهيم عليه السلام والتعجب والدهشة لعظم ما سمعت من بشارتها بالولد ومما يؤكد تعجبها قوله تعالى: (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾)⁴

-التهكم والسخرية: من نداء التهكم والسخرية قوله تعالى: (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾)⁵، وأيضا قوله تعالى: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾)⁶، وأيضا قوله تعالى: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾)⁷

يلاحظ على هذه النداءات أنها أفادت تهكم وسخرية القوم الكافرين من أنبياء الله، ففي الآية الأولى وظف قوم صالح عليه السلام أداة النداء "يا" لإثارة انتباهه إلى تهكمهم وسخريتهم منه ومن دعوته، ونفس الأمر فعله أهل مدين مع نبيهم شعيب عليه السلام.

¹سورة هود: الآية 50-52

²ينظر: البقاعي: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، مصدر سابق، ج9، ص307

³سورة هود: الآية 72.

⁴سورة هود: الآية 73

⁵سورة هود: الآية 62

⁶سورة هود: الآية 87

⁷سورة هود: الآية 91

هذه أغلب الأساليب الإنشائية الطلبية التي ارتأينا ذكرها من منظور سورة هود وتقصي معانيها حسب آراء أهل البلاغة القرآنية.

*الأساليب الإنشائية غير الطلبية في سورة هود: هو عكس الإنشاء الطلبي ويقصد به "مالا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب."¹

ومن أهم صيغته: صيغ المدح والذم (نعم وبئس)، ألفاظ العقود، التعجب، والرجاء، ويذهب الدارسون إلى القول بأنه لا علاقة لهذه المباحث بعلم المعاني²، وأن أصل مباحثها الدراسات النحوية.

ولم تحفل سورة هود بصيغ الإنشاء غير الطلبي إلا بصيغة واحدة تمثلت في صيغة الذم بئس وذلك في ذمه لفرعون وملئه، يقول تعالى: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبئسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾)³

وفيما يخص صيغة المدح والذم نعم وبئس فقد وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وخصوصاً في مقامات الترغيب والترهيب في حين لم نجد توظيف ل: حبذا ولا حبذا، وهذا يعود لحكمة إلهية لم نعلمها. وخلاصة القول: فإن الله سبحانه وتعالى قد أودع في هذه الأساليب من البلاغة الإعجازية ما لا تحصى الأقسام وتعدده الأبواب، وأساليب الإنشاء في سورة هود ماهي إلاغرفة من بحر لا تنفذ أسرارها ولا تنتهي مكانته.

3/2 - أحوال الطرفين (المسند والمسند إليه) والمتعلقات من منظور سورة هود:

يشترط في كل إسناد تام توفر طرفين أو ركنين هما: المسند إليه والمسند، إذ يعد كل منهما أساس كل تركيب صحيح، ويقول في هذا الإمام عبد القاهر الجرجاني: "ومختصر كل أمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه."⁴

وقد اتفق النحاة والبلاغيون على أن الجملة العربية "لها ركنان: محكوم عليه، وهو المسند إليه، ومحكوم به، وهو المسند، وما زاد على ذلك... فهو قيد."⁵

1 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 69.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص 69.

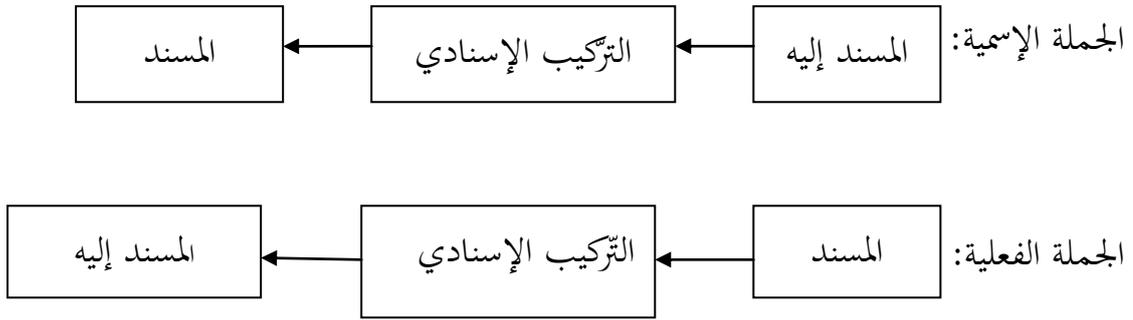
3 سورة هود: الآية 98.

4 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص 7.

5 عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية-علم المعاني"، مرجع سابق، ص 48.

بالإضافة إلى ذلك يشترط توفر النسبة بين طرفي الكلام، والنسبة هي الرابط الذي يربط بينهما¹، وهو ما يعرف بالإسناد.²

فالإسناد هو تلك العلاقة الخفية بين طرفي الجملة (المسند والمسند إليه)، حيث يعكس كل من المسند والمسند إليه مفهوم الجملة ويعملان على نقله إلى المتلقي بتشكيل صورة ذهنية تنتقل عن طريق تخير اللفظ، وباختصار فإن الإسناد هو الأمر المعنوي غير الملفوظ³، الناتج عن العلاقة بين المسند والمسند إليه، وما عدا ذلك فهي قيود أو زوائد وفضلات.



وسنحاول أن نقف على كل من المسند والمسند إليه وأحوال كل منهما، بالإضافة إلى أحوال المتعلقة، وكل هذا سيكون على ضوء نماذج من سورة هود.

فمن المعلوم أنّ القرآن الكريم هو كتاب العربية الأكبر ومثلها الأعلى⁴، وبالتالي نجد فيه نفس قواعدها مع خروج عن المؤلف من باب الإعجاز والبلاغة الربانية المتفردة في خصائص نظمها.

وأكد أنّ القرآن الكريم لا يكاد يخلو من أحوال المسند والمسند إليه، وفيه من النماذج المكونة، والأسرار البلاغية المدفونة ما لا يحصى، وسورة هود نموذج واحد من نماذج كثيرة عن البلاغة القرآنية وخصائصها النظامية المتفردة.

3/2/1- المسند إليه والمسند في سورة هود المسند في اللغة من سند، السند: ما ارتفع من الأرض

من قبل الجبل أو الوادي، والجمع أسناد، والمسند هو الجزء الأول من الجملة والمسند إليه هو الجزء الثاني من

¹ ينظر: عيسى علي عاكوب، علي سعيد الشتيوي: "الكافي في علوم البلاغة"، مرجع سابق، ص57.

² ينظر: عبد اللطيف شريف، زبير دراقي: "الإحاطة في علوم البلاغة"، الجزائر، بن عكنون، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2004م، ص21.

³ ينظر: ابن الناظم، بدر الدين بن مالك: "المصباح في المعاني والبيان والبدیع"، حققه: الدكتور حتى عبد الجليل يوسف، الحلمية الجديدة، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، دط، ص8.

⁴ ينظر: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، مرجع سابق، ج1، ص13.

الجملة¹، وهذا في الجملة الفعلية وعكسه ما كان جملة اسمية.

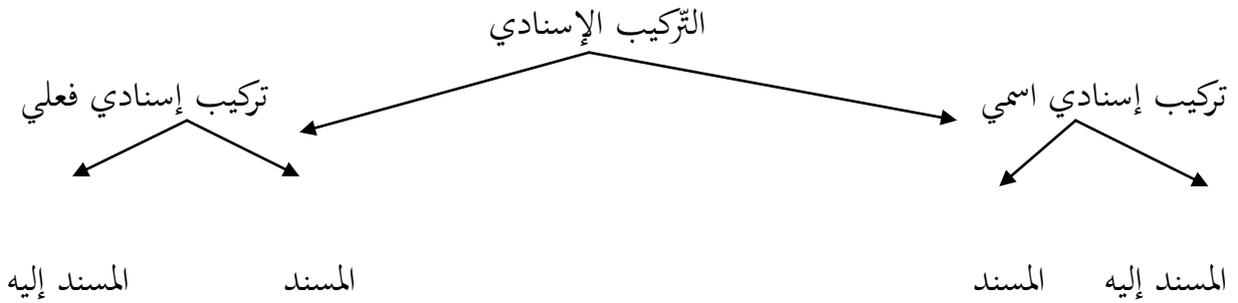
أما اصطلاحاً: فالمسند إليه "هو المحكوم عليه أو المخبر عنه"²

ومواضعه في الجملة هي: المبتدأ-الفاعل-نائب الفاعل-أسماء النواسخ.³

بينما المسند هو "المحكوم به أو المخبر به."⁴

ومواضعه في الجملة هي: خبر المبتدأ، الفعل التام، اسم الفعل، المبتدأ الوصف المستغني بمرفوعه عن

الخبر، وأخبار النواسخ، المصدر النائب عن الفعل.⁵



والقرآن الكريم في تركيبه الإسنادي ينطلق من الآية القرآنية، فما من آية قرآنية إلا وتتكون من مسند إليه ومسند إذا كانت اسمية، ومسند ومسند إليه إذا كانت فعلية، حيث إنّ "الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي فتصوره بألفاظها لتلقيه في النفس حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى ظاهراً فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه وإلا اختل وانهار."⁶

وسورة هود لا تخرج في تركيبها الإسنادي عن هذا الأمر، فهي أيضاً تتكون من مجموعة من الآيات القرآنية تتنوع بين الجمل الاسمية والفعلية.

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج3، ص 347 .

2 أحمد طلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص620.

3 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص99.

4 أحمد مطلوب: "المرجع السابق"، ص620.

5 ينظر: أحمد الهاشمي: "المرجع السابق"، ص131.

6 أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص85.

3/2/2-المتعلقات في سورة هود: المتعلقات وتسمى أيضا قيودا، والتقييد هو "ما يزداد على المسند

والمسند إليه شئ يتعلق بهما أو بأحدهما مما لو أغفل لفانت الفائدة المقصودة أو كان الحكم كاذبا"¹. ويكون التقييد بالتوابع-المفاعيل الخمسة-الحال والتمييز-النواسخ-أدوات الشرط والنفي-الجار والمجرور... إلخ²، وتعد هذه العناصر أقل أهمية من طرفي الجملة لأنها ثانوية.

ولهذه المتعلقات وجودها في سورة هود، لكن ما يهمننا في هذا المبحث البلاغي ليس طرفا الإسناد ولا المتعلقات بقدر ما تهمننا أحكام ذلك وأحواله من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وتعريف وتنكير، وإطلاق وتقييد.

3/2/3:أحوال الطرفين والمتعلقات في سورة هود: يلحق المسند والمسند إليه ومتعلقتهما في

الجملة القرآنية مجموعة من الأحوال-كما هو الشأن في أيّ جملة عربية-تفرضها المقامات الكلامية والأغراض البلاغية، وقد حصر علماء البلاغة هذه الأحوال في عدة أمور سنحاول تفصيلها على ضوء سورة هود.

***التقديم والتأخير:** أتى القرآن الكريم بنظم محكم، وبناء جيد السبك، حيث وضع كل لفظة في موضعها الصحيح، وإن اختلف الموقع، وهذا ما تنبه إليه علماء الإعجاز، والباحثين في البلاغة القرآنية، وأطلقوا عليه باب التقديم والتأخير.

والتقديم في اللغة من قدم، والمقدم من أسماء الله تعالى، وهو الذي يقدم الأشياء ويضعها في موضعها، فمن استحق التقديم قدمه³، وعكس التأخير من أحر والمؤخر والآخر من أسماء الله تعالى، وهو الذي يؤخر الأشياء ويضعها في موضعها⁴. ولما كان القرآن الكريم كلام الله عز وجل كان هو سبحانه وتعالى المسؤول فيه على التقديم والتأخير، وذلك لمقصد بلاغي وهدف إعجازي إقتضته المقامات.

أمّا اصطلاحا: فليس هناك خلاف عن المعنى اللغوي، فالتقديم: "من قدم أي وضعه أمام غيره، والتأخير نقيض ذلك"⁵.

1 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص141.

2 ينظر: المرجع نفسه: ص141.

3 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مرجع سابق، ج5، ص212.

4 ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص329

5 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص404.

وقد عدّ البلاغيون التّقديم والتّأخير من الأساليب البلاغية المهمة، التي إن أتت في الكلام دلت "على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق."¹ وكلام الله عز وجل أفصح ما سمعته الإنسانية، وأبلغ ما استهوته القلوب، وأعذب ما تذوقته النفوس. وكان الإمام عبد القاهر الجرجاني أحسن من تكلم في هذا الأمر، حيث أفرد له باباً كاملاً استهله ببيان فضل التّقديم والتّأخير في الكلام، فيقول: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بدیعة، ويفضي بك إلى لطيفة... تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شيئاً، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"².

وقد نهج البلاغيون في دراستهم لباب التّقديم والتّأخير منهجاً لا يكاد يخرج عن أمور ثلاثة هي: حقيقة التّقديم-أغراض التّقديم-أقسام التّقديم وموضوعاته، وهذان الأخيران هما المسيطران على البحث البلاغي³، يقول ابن الأثير أنّ التّقديم والتّأخير: "ضربان: الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أحر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى، والثاني: يختص بدرجة التّقدم في الذكر، لا اختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أحر بما يغير المعنى."⁴

والتّقديم والتّأخير في النّظم يكون للدلالة على غرض يقتضيه المقام ويفرضه السّياق. ونحن في هذا المقام إذ ندرس التّقديم والتّأخير في النّظم القرآني لنعرف أسرارها ونقف على مزاياها، ونحيط بأغراضه علينا أن ندرسه على الأساس الذي أشار إليه ابن الأثير، حيث ندرسه في نطاق الجملة القرآنية، فنتعرف على ما قُدم فيها وما أُخر، ونتعرف على الغرض البلاغي من ذلك.⁵ وسنحاول أن نقف على بعض مواطن التّقديم والتّأخير ونستكشف أسرارها البلاغية في نموذج واحد من نماذج القرآن الكريم وهو سورة هود، حيث أنّ هذه الأخيرة كغيرها من سور القرآن حتماً لا تخلو من أسلوب التّقديم والتّأخير.

1 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص233.

2 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص106.

3 ينظر: عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ص80.

4 ابن الأثير: "المثل السائر"، مصدر سابق، ج2، ص210.

5 ينظر: بسيوني عبد الفتاح قيود: "من بلاغة النّظم القرآني"، مرجع سابق، ص76.

من المعلوم أنّ الأصل في ترتيب الكلام في سياق جملة مفيدة، أن تأخذ كل لفظة موقعها الأصلي كتقديم الفعل على الفاعل، والفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال عليها¹، لكن كثيرا ما نجد عدولا عن هذا المقتضى.

وعلى العموم فإنّ فائدة التّقديم والتّأخير لا تكاد تخرج عن أمرين اثنين على اعتبار رأي عبد القاهر الجرجاني وهما:

1- تقديم على نية التّأخير: كتقديم الخبر على المبتدأ وما أكثر هذا الحكم في سورة هود، حيث نجد كثيرا ما تقدم الخبر على المبتدأ، نحو قوله تعالى: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾)²، فقد تقدّم الخبر شبه الجملة "إِلَى اللَّهِ" على المبتدأ "مَرْجِعُكُمْ"

ومثال هذا أيضا قوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)³. فالملاحظ أنّ الخبر "عَلَى اللَّهِ" تقدم على المبتدأ "رِزْقُهَا". وأكد أنّ هذا التقديم للخبر لم يكن عبثا وإنما كان عن مقصد، وهذا هو سر البلاغة القرآنية الذي سنحاول معرفته والكشف عنه.

2- تقديم لا على نية التّأخير: كتقديم المبتدأ على الخبر. وتقدم الفعل على الفاعل والمفعول به⁴، نحو قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ﴿٦٩﴾)⁵. فقد تقدم الفعل "جاءت" على الفاعل "رُسُلُنَا" والمفعول به "إِبْرَاهِيمَ" وذلك وفق الأصل في ترتيب الجملة الفعلية أمّا عن الأسرار البلاغية لأسلوب التقديم والتأخير في سورة هود فقد تمثلت في الآتي:

- **التّقديم بالشرف**: وذلك لشرف المقدم وعلو مرتبه⁶، وعلى هذا نجد في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، أن الله سبحانه وتعالى يقدم اسمه المنزه للدلالة على علوه وقدرته سبحانه وتعالى، وهذا ما وجدناه أيضا في سورة

1 ينظر: الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ص233.

2 سورة هود: الآية4

3 سورة الفاتحة: الآية5.

4 ينظر: عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص106-107.

5 سورة هود: الآية69

6 ينظر: أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص93.

هود من ذلك قوله عز وجل: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾) ¹، وأيضا قوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾) ².
فقد قدم الله سبحانه وتعالى في الآيتين الكريميتين ذاته المنزهة ليبين علو قدره وشرفه على عباده وأن أمورهم كل بيده.

ومن نماذج هذا التقديم أيضا قوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوْحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾) ³، فقد تقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم على قومه لشرفه وعلو منزلته عليهم.

-**التقديم بالزّمان**: تتقدم الكلمة في القرآن الكريم وفق ترتيب يقتضيه الزّمن، ومن نماذج التقديم وفق الزّمان في سورة هود قوله تعالى: (وَأَمْرًا تُهْدِيهِمْ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ فِيهَا لَهُمْ آلِهَةٌ وَلَهُمْ مَعْرَبُونَ ﴿٧١﴾) ⁴.
نلاحظ في هذه الآية الكريمة تقديم اسحاق على يعقوب عليهما السلام، وذلك لأنّ اسحاق هو ابن ابراهيم عليه السلام، أما يعقوب فهو ابن اسحاق فقد بشرت الملائكة سارة زوجة ابراهيم عليه السلام بالولد وولد الولد، أي ستنجب اسحاق عليه السلام واسحاق بدوره سينجب يعقوب عليهما السلام ⁵.

ومن نماذج التقديم الزمني قوله تعالى: "وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾" ⁶، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى القوم المنكرين الجاحدين بعبادته وفق ترتيب زمني لبعثة أنبيائه عليهم السلام، فقدم قوم نوح عليه السلام لأنّه أول نبي أرسله الله لهداية البشر، ثمّ أتبعه بذكر قوم هود عليه السلام، ثمّ قوم صالح عليه السلام، ثمّ قوم لوط.

-**التقديم بالمكان**: تتقدم الكلمة في القرآن الكريم وفق ترتيب تفرضه أولية المكان وأسبقيته نحو قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيُبْلِغَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾) ⁷

سورة هود: الآية 4

2 سورة هود: الآية 6

3 سورة هود: الآية 49

4 سورة هود: الآية 71.

5 ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التّفسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 24

6 سورة هود: الآية 89

7 سورة العنكبوت: الآية 64. *الحيوان: مصدر حي وأصله حيان، فقلبت الياء واوا لأن ذلك هو الأبلغ ومعناها دار الحياة الدائمة.

فقد تقدم ذكر السماوات على الأرض لأنها المكان الأول الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر الأرض باعتبارها المكان الثاني.

بالإضافة إلى هذا هناك أغراض أخرى تفرض التقديم كالتعظيم، التحقير، التفخيم ، التخويف... إلخ من ذلك تقدم أهل النار على أهل الجنة وذلك في قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴿١٠٨﴾) ¹

فقد قدم الله سبحانه وتعالى في هذا الموضع أهل النار على أهل الجنة، لأن من عادة النظم القرآني أن يقدم الجنة وأهلها على النار وأهلها، وما هذا التقديم لأهل النار في هذا الموضع إلا لغرض التخويف والتحذير. ²

"وهكذا يتجلى لنا أن وراء التقديم والتأخير في النظم القرآني أسراراً وأغراضاً، وأن تقديم اللفظ في موضع وتأخيره في موضع آخر، لا يكون إلا لغاية، ولمعنى يقصد إليه، وتلك الغايات والمعاني لا تظهر إلا لمن أنعم في النظم الكريم، وتأنى في الفهم والتدبر، وأحاط بالسياق ومقاماته، ووقف على المراد منه." ³

***الذکر والحذف:** الذکر في اللغة من ذکر: الحفظ للشيء تذكيره والذکر أيضا الشيء يجري على اللسان ⁴، وعكسه الحذف من حذف الشيء يحذفه حذفاً قطعاً من طرف، والحذف: الرمي عن جانب ⁵. أما اصطلاحاً: فالذکر "كل لفظ يدل على معنى في الكلام خليق بالذکر لتأدية المعنى المراد به." ⁶

ويعد أغلب البلاغيين الذکر ضرباً من الإطناب، ولم يلق منهم اهتماماً وعناية مثل نظيره الحذف لأنهم لم يروا فيه لطائف البلاغة ومزاياها ⁷، غير أن البعض منهم تطرق له أمثال السكاكي (ت626هـ) الذي عدّه من

¹سورة هود: الآية 105-108

²ينظر: ابن الأثير: "المثل السائر"، مصدر سابق، ج2، ص225

³ بسببوني عبد الفتاح فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص87.

⁴ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج2، ص464

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ج2، ص46

⁶ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص101.

⁷ ينظر: عبد المتعال الصعيدي: "البلاغة العالية-علم المعاني"، مرجع سابق، ص62.

أحوال الطرفين وبين مواضعه وأحواله.¹

وما يهمننا في هذا المقام هو بلاغة الدّكر في القرآن الكريم، وذلك لما فيه من الأسرار والخبائيا الإعجازية، فمن المعلوم أنه القرآن الكريم لا يذكر كلمة أو يحذفها إلا عن مقصد و غرض، يقول الله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)².

"ويذكر القرآن الكريم ما يذكره... عندما يكون في هذا الذكر تثبيت للمعنى وتوطيد له في النفس، ويكون في ذكره فضلا عن ذلك معان لا تستفاد إذا حذف."³

وقد تمّ توظيف الدّكر في سورة هود لأغراض بلاغية استدعها المقام، وهي أغراض يقتضيها في جميع مواضعه في القرآن الكريم.

ولعل هذه الأغراض تعود إلى مايلي:

- يذكر المسند والمسند إليه في الجملة لأتّهما الأصل ولا مقتضى للحذف، بحيث إذا حذف ذهب المعنى واختل⁴، وفي سورة هود نجد أنّ في جميع تراكيبها الاسنادية ذكر المسند والمسند إليه.

- تثبيت معنى الجملة واستقراره في النفس مع التناسق الخلاب نحو قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾)⁵

فقد ذكر الله عزوجل إحكامه لكتابه الكريم، ثمّ أتبعه بذكر تفصيله لهذا الكتاب المبين فيه للحلال والحرام، ثمّ ذكر بعد ذلك أنّ الغرض من تنزيل هذا الكتاب المحكم هو عبادته وحده عزوجل⁶، وكان الغرض من كل هذا الذكر هو استقرار معنى عبودية الله وحده سبحانه وتعالى وأنّه أنزل القرآن لهداية البشر إلى توحيده، بالإضافة إلى أنّ هذا الذكر خلق تناسقا موسيقيا، ولو حذف لكان العكس.⁷

1 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص 207.

2 سورة النجم: الآية 3-4.

3 أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص 95.

4 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق، ص 492.

5 سورة هود: الآية 1-2.

6 ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التّفسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 6.

7 ينظر: أحمد بدوي: "المرجع السابق"، ص 95.

-الرجبة في إطالة الكلام بغية النصح والإرشاد نحو قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾)¹

فالنصح والإرشاد تطلب أن يذكر الاستغفار والتوبة ويذكر فضل الله وعذابه.

هذه بعض الأغراض البلاغية للذكر فرضتها مقامات الكلام وغيرها كثير وذكرنا بعضها منها على سبيل التمثيل فقط.

أما عن مصطلح الحذف فهو كما أشرنا سالفًا عكس الذكر ويقصد به: "إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل."²

ويبقى لعبد القاهر الجرجاني فضل الحديث عن هذا الباب وإدراجه ضمن مباحث علم المعاني، حيث عقد بابا في كتابه دلائل الإعجاز سماه باب القول في الحذف استهله بقوله: "هو باب دقيق المسلك لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للفائدة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين."³

ومع إقرار الدارسين لفضل عبد القاهر الجرجاني في توضيح قواعد الحذف في الكلام إلا أن هذا لا يعني عدم وجود بوادر وإشارات للعلماء السابقين حول هذا الأسلوب من الإسقاط في الكلام.⁴

فها هو ذا الإمام الباقلاني (ت403هـ) يعده سرا من أسرار البلاغة القرآنية المعجزة فيقول: "والحذف أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب."⁵ وحصره في نوعين:

-حذف للتخفيف: نحو قوله تعالى: (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ⁶)، والتقدير أسأل أهل القرية.

1 سورة هود: الآية 3

2 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص102.

3 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص146

4 سبق وأن تكلم عنه: أبو الهلال العسكري، الأمدي، قدامة بن جعفر، هذا الأخير الذي عده أسلوب فاسد، وهو من العيوب، وتكلم عنه آخرون من النحاة والبلاغيين.

5 الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص397.

6 سورة يوسف: الآية 82.

-حذف الجواب: نحو قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)¹، والأصل: كأنه قيل: لكان هذا القرآن².

لكن مع جهود هؤلاء العلماء من نخاة و بلاغيين في باب الحذف إلا أنّ صنيع عبد القاهر الجرجاني في هذا الباب لم يسبق له مثل حيث نفث فيه روح الجمال وكشف من خلاله عن سحر البلاغة، فما كان على من أتى بعده إلا سلوك مسلكه أمثال الزمخشري (ت538هـ)³، الذي نجده من خلال تفسيره للآيات القرآنية يشير إلى أماكن الحذف، ومما قاله في بيان فضله: "وأما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف"⁴.

كما تكلم الخطيب القزويني (ت739هـ) عن الحذف وبين مواضعه وأغراضه التي تفرض المقامات⁵.

وبناء على هذا فإن الحذف أسلوب من أساليب البلاغة القرآنية ومن مواضعه في سورة هود:

-حذف المبتدأ: نحو قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ)⁶، فحذف المبتدأ والذي الأصل فيه هذا القرآن كتاب، فكتاب في إعرابها هي خبر لمبتدأ محذوف.

-حذف الفاعل: نحو قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾)⁷. فقد حذف الفاعل من هذه الآية الكريمة وتقدير هذا المحذوف هو الله سبحانه وتعالى لأنه هو الأمر والقادر على ذلك.

-حذف المفعول به: نحو قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾)⁸

فمفعول "أرأيتم" محذوف وتقديره "أرأيتم البينة من ربي إن كنتم عليها أنلزمكموها"⁹.

1 سورة الرعد: الآية 31.

2 ينظر: الباقلائي: "المصدر السابق"، ص 397.

3 ينظر: محمد حسين أبو موسى: "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري"، مرجع سابق، ص 113.

4 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 591.

5 ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 38.

6 سورة هود: الآية 1.

7 سورة هود، الآية 44

8 سورة هود: الآية 28.

9 ينظر: أبوحيان الأندلسي: "البحر المحيظ"، مصدر سابق، ج 5، ص 217

هذه بعض التّماذج عن أسلوب الحذف في سورة هود وغيرها كثير سواء في السّورة أم في القرآن الكريم بصفة عامة، ولو أن مقامنا يسع لاستنبطنا منها ما هو أكثر.

ولعل ما يهم من دراسة مباحث الحذف في البلاغة القرآنية هو الأغراض البلاغية التي تقتضيها، من ذلك يكون الحذف لغرض التّعظيم مثل قوله تعالى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾)¹ لم يصرح الله تعالى بأنه القائل والأمر للأرض والسماء واقتضى حذف ذلك لغرض التّفخيم والتّعظيم.

بالإضافة إلى ذلك هناك اعتبارات أخرى تفرضها المقامات المناسبة تستدعي الحذف في القرآن كطلب الإيجاز والاختصار، التنبية وإمعان الذهن لما فيه من إبهام، وإما لاعتبارات أخرى تفرضها المقامات المناسبة². وجملة القول فإن أسلوب الحذف أسلوب دقيق يعتمد فيه "القرآن على ذكاء قارئه فيحذف... ما يستطيع القارئ أن يدركه، لأن السياق يستلزمه ويستدعيه."³

***التّعريف والتّكثير**: التّعريف في اللغة من عرف، والتّعريف الإعلام وإنتشار الضالة، والمعروف ضد المنكر⁴، فالنكرة من نكر وهي خلاف المعرفة⁵.

أما اصطلاحاً: فالتعريف "هو إفادة السامع حكماً على أمر معلوم عنده بأمر آخر مثله بإحدى طرق التعريف"⁶.

وقد اتفق علماء البلاغة على أنّ التعريف شرط لا بد منه في المسند إليه، والسبب في ذلك لأنّه هو المحكوم عليه، والمحكوم عليه ينبغي أن يكون معلوماً ليكون الحكم مفيداً.⁷

¹سورة هود: الآية 44

² ينظر: الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ص 104-105، وكذلك: ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 38.

³ أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص 101.

⁴ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 4، ص 309

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ج 6، ص 25

⁶ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 108

⁷ ينظر: "المرجع نفسه، ص 108.

ويكون التعريف بالطرق التالية: الإضمار، العلمية، الإشارة، الموصولية، الألف واللام، الإضافة.¹ والقرآن الكريم في توظيفه لألوان المعارف لا يكاد يخرج عن هذه الطرق المشار إليها أعلاها، حيث وضع كل واحدة منها في موضعها الدقيق ومقامها المناسب²، وذلك لأغراض ومقاصد بلاغية تفهم من سياق الكلام.

وسورة هود ليست بدعا عن تعريفات القرآن الكريم، فقد تعدد تعريفاتها وتنوعت بين الإضمار والعلمية والألف واللام و من نماذجها مايلي:

-**التعريف بالإضمار:** وأكثر ما ورد منه كان في مقام تكلم الله عن ذاته، نحو قوله تعالى: (وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾)³، فالضمير هنا هو ضمير المتكلم نحن الذي يعود على الله سبحانه وتعالى لأنّ هو من يده تأخير العذاب. وكثيرا ماتكرر مثل هذا في السورة.

كما يوجد التعريف بالإضمار في مقام الخطاب نحو قوله تعالى: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾)⁴

أو مقام الغيبة⁵، نحو قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾)⁶.

-**التعريف بالعلمية:** نحو قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ﴿٨٩﴾)⁷

-**التعريف بأسماء الإشارة:** نحو قوله تعالى: (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)⁸

1 ينظر: المرجع نفسه، ص108. (وهناك من يضيف على هذه الطرق في التعريف طريقة التعريف بالنداء، ولم نشأ ذكرها لأن الأمر فيه خلاف).

2 ينظر: أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن" مرجع سابق، ص104.

3 سورة هود: الآية 8.

4 سورة هود الآية 32.

5 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق، ص382.

6 سورة هود: الآية 11.

7 سورة هود: الآية 89.

8 سورة هود: الآية 7.

وكثيرا ماجاء التعريف بالإشارة في سورة هود من ذلك أيضا قوله تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾)¹

وكما تمّ التعريف باسم الإشارة هذا كذلك هناك أسماء إشارة أخرى من ذلك قوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوْحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾)²، فقد كان التعريف في هذه الآية باسم الإشارة تلك والغرض من ذلك التعظيم لما في هذه القصص من مواظ وعبر، ونفس الأمر نجده مع اسم الإشارة ذلك في قوله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾)³

-التعريف بالأسماء الموصولة: كثيرا ماورد التعرف بالموصولية في القرآن الكريم وذلك لما فيه من أسرار بلاغية عجيبة⁴، وكان لهذا التعريف نصيب في سورة هود من أمثله قوله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشَوْنَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾)⁵، أي أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم الذي يسرون والذي يعلنون.

ومن نماذج ذلك أيضا قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ ﴿٨٩﴾)⁶، أي الذي أصاب قوم نوح وقوم هود وصالح ولوط سيصيبكم وفي التعريف بما الموصولية تهديد وو عيد بالعذاب.

-التعريف بالألف واللام: والتعريف بالألف واللام يكون إما بالألف واللام العهدية نحو قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۗ) ⁷، أو الألف واللام الجنسية، نحو قوله تعالى: (وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا

رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾) ⁸

1 سورة هود: الآية 72.

2 سورة هود: الآية 49.

3 سورة هود: الآية 100.

4 ينظر: دخيل الله الصحفي: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص 79.

5 سورة هود: الآية 5.

6 سورة هود: الآية 89.

7 سورة هود: الآية 7.

8 سورة هود: الآية 9.

-التعريف بالإضافة: قد وجد في سورة هود هذا النوع من التعريف وذلك في قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ...)¹. وأيضا قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ...)²

وأكد أنّ وراء كل طريقة من طرق التعريف أغراضا بلاغية تفهم من سياق الكلام كالتخصيص، التعظيم، التحقير، الإيجاز والتنبية... إلخ³

كما أجمع البلاغيون على أنّ نفس أحكام التعريف الخاص بالمسند إليه تكون كذلك في المسند وذلك بطبيعة الحال في الخبر ليس في الفعل، ويأتي المسند معرّفا لإفادة السامع إما حكما على أمر معلوم له بطريقة من طرق التعريف بأمر آخر معلوم له أو لإفادة قصره على المسند إليه⁴.

أمّا عن مصطلح التنكير فقد سبق وأن أشرنا بأنه عكس التعريف حيث يقصد "بالنكرة ما دل على شيء بعينه."⁵

وإذا كان للتعريف مقاماته وأغراضه البلاغية فكذلك للتنكير مقاماته وأغراضه البلاغية، بحيث لا يقل التنكير شيئا عن التعريف، يقول ابن الزملاكي: "وقد يظن ظان أن المعرفة أجلى فهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق وأن سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق خصوصا في موارد الوعد والوعيد والمدح والذم اللذين من شأنها التشييد، وعلة ذلك أن مطامح الفكر متعددة المصادر بتعدد الموارد، والنكرة متكررة الأشخاص يتقاذف الذهن من مطالعا إلى مغاربا... فيحصل في النفس لها فخامة وتكتسي منها وسامة، وهذا فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة فإنه لواحد بعينه يثبت الذهن عنده ويسكن إليه."⁶

وبناء على هذا "يؤتى المسند إليه نكرة لعدم علم المتكلم بجهة من جهات التعريف حقيقة أو إدعاء"⁷

ومن بلاغة التنكير في سورة هود مايلي:

1 سورة هود: الآية 65

2 سورة هود: الآية 69

3 ينظر: أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص 102-105. وينظر أيضا: بسيوني فيود: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص 38-41.

4 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 135.

5 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص 382.

6 المرجع نفسه: ص 384.

7 أحمد الهاشمي: المرجع السابق، ص 121.

-**التعظيم:** نحو قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾).¹ فجاءت كلمة كتاب نكرة دلالة على تعظيم القرآن الكريم وعلو شأنه.

-**التقليل:** نحو قوله تعالى: (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ...)²

-**التهويل:** نحو قوله تعالى: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾).³ فلفظة عذاب أتت نكرة للدلالة على التخويف التهويل.

بالإضافة إلى أغراض أخرى يفرضها المقام، وكما يُنكر المسند إليه يُنكر أيضا المسند إذا لم يكن هناك موجب لتعريفه.⁴

***الإطلاق والتقييد:** الإطلاق في اللغة من طلق، بمعنى الترك والإرسال.⁵ بينما التقييد خلاف الإطلاق من قيد، والقياد حبل تقاد به الدابة.⁶

أمّا عن معناهما في الاصطلاح هو أنّ الإطلاق "أن يقتصر في الجملة على ذكر المسند والمسند إليه"⁷، بينما التقييد هو أن يزداد على المسند والمسند إليه شئ يتعلق بهما أو بأحدهما مما لو أغفل لفانت الفائدة المقصودة أو كان الحكم كاذبا.⁸

وبموجب هذا أتى الإطلاق والتقييد في القرآن الكريم، حيث نلاحظ أنّه اكتفى في بعض الأحيان بذكر الطرفين-المسند والمسند إليه-وفي أحيان أخرى زاد عليهما بقيود مثل: النعت، البدل وعطف البيان، والمفاعيل الخمسة والحال، والتمييز، والنواسخ، وأدوات الشرط والنفي.⁹

وقد تعدد ذكر هذه القيود في كتاب الله تعالى، والمقام لا يسعنا للخوض في أمرها والتفصيل فيها جميعا.

1 سورة هود: الآية 1.

2 سورة التوبة: الآية 72.

3 سورة هود: الآية 39.

4 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 135.

5 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 4، ص 189-190.

6 ينظر: المصدر نفسه: ج 5، ص 372.

7 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 141.

8 المرجع نفسه: ص 141.

9 ينظر: المرجع نفسه: ص 141.

وعلى العموم فإن هذه "التوابع والقيود في النظم القرآني الكريم ورائها العديد من اللطائف والمزايا البلاغية التي تتجلى للناظر المتأمل، والمتدبر الواعي الذي أحسن النظر، وأحكم التدبير."¹ وحسبنا في هذا المقام أن نذكر بعضاً من نماذجها على ضوء سورة هود، فمن القيود التي تضمنتها سورة هود :

-الصِّفَة: وذلك في قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا...)².

فلفظة حسنا هي صفة لـ "متاعا" وكان الغرض منها بيان هذا المتاع تحفيزاً وترغيباً للإسراع في التوبة وطلب المغفرة ولوجاءت لفظة متاع مطلقاً لما تحقق ذلك .

-الحال: نحو قوله تعالى: (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾)³

يظهر من هذه الآية الكريمة أن القيد المذكور فيها يتمثل في لفظة "عوجا" وهي عبارة عن حال . ويوجد غير هذا كثير، وما المثالين المشار إليهما إلا على سبيل المثال لا الحصر، فالقرآن الكريم كتاب الله الذي لا تنفذ بدائعه، ولا تنقطع أسرارها ومكامنه.

3/3 أحوال الجملة في استقلالها من منظور سورة هود:

من أحوال الجملة في استقلالها نجد:

3/3-1: الإطناب والإيجاز والمساواة: وتعد هذه الثلاثة من أهم سمات الكلام البليغ بشرط أن تكون متناسبة مع المقام، فمثلاً لكل من الإيجاز والإطناب مقام يقتضيه، فإذا اقتضى المقام الإيجاز كان الإطناب عيباً، وإذا اقتضى الإطناب كان الإيجاز تقصيراً وإحلالاً⁴، ونفس الأمر مع المساواة التي تقتضي مقاما بين الإثنين.

وحسب رأي ابن منظور فإنّ الإطناب في اللغة: من طنّب، وأطنّب في الكلام: بالغ وطول ذيوله واجتهد، وكذلك أبعده.⁵

بينما الإيجاز من وجز الكلام وأوجز قل واختصر.⁶

1 بسيوني فيود: "من بلاغة القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص50.

2 سورة هود: الآية3.

3سورة هود : الآية 19

4 بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص274.

5 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج4، ص 198

6 ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص 487

في حين أن المساواة من سؤا، التسوية: العدل¹.

أما عن مفاهيمها في اصطلاح البلاغيين فنجد أنّ الإطناب يقصد به: "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة أو تأدية المعنى بعبارة زائدة لفائدة تقويته وتوكيده"².

ويعد الإطناب من أقدم الفنون البلاغية التي تكلم عنها أهل البلاغة، ومن أحسن مقاماته مقام المدح، والدليل على ذلك قول الجاحظ في أنّ "سهل بن هارون كان شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالخلاوة والفخامة وجودة اللهجة والطلاوة."³

ونجد أنّ الخطيب القزويني (ت739هـ) كان من أحسن البلاغيين الذين تكلموا عن الإطناب، حيث فصل في القول، ومن أنواعه واستدل عليه بشواهد كان أكثرها من القرآن الكريم⁴.

وعلى الرّغم من أنّ كلام الله عز وجل منزّه عن الزيادة، إلا أننا نجد هذا النمط من الإطناب في عدة مواضع في القرآن الكريم.

وبطبيعة الحال لا تخلو سورة هود من هذا الأسلوب ولها من نماذجه ما يدل على بلاغته الإعجازية المقدسة التي فرضتها مقامات الكلام الالهي المعجز.

وسنقف على هذه النماذج مستنديين في ذلك إلى ما أشار إليه الخطيب القزويني من أنواع الإطناب في البلاغة:

- **الإطناب بالإيضاح:** ويأتي الإطناب "بالإيضاح بعد الإبهام، ليرى المعنى في صورتين مختلفتين أو ليتمكن في النفس فضل تمكن، فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح... أو لتكتمل اللذة بالعلم به... أو لتفخيم الأمر وتعظيمه"⁵، نحو قوله تعالى: (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ

¹ ينظر: المصدر نفسه: ج11، ص521.

² عبد اللطيف شريف، زبير دراقي: "الإحاطة في علوم البلاغة"، مرجع سابق، ص100.

³ الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج1، ص91.

⁴ ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص196.

⁵ المصدر نفسه: ص196.

فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ ﴿١٠٨﴾ (١)

يلاحظ أنّ قول الله تعالى: (يوم يأت...) إلى غاية قوله تعالى: "عطاء غير مجذوذ" أنه إطناب من باب البيان والإيضاح لقوله تعالى (ومانؤخره لأجل معدود) ، وذلك لأنّ البيان إذا جاء بعد الإبهام كان أوقع في النفس لحيثه وهي متطلعة إليه منشغلة به بسبب الإبهام المتقدم، ولا يأتي ذلك إلا في الأمور المهمة التي تحتاج إلى تحقيق وتأكيد كما في الآية الكريمة. ²

-الإطناب بالاعتراض: "وهو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب"³، أي أن تكون هناك جملة اعتراضية زائدة لنكتة بلاغية نحو قوله تعالى: (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أم يقولون افتراه قل إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِّي إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾) ⁴.

فجملة "قل إن افتريته " هي جملة اعتراضية اعترضت قصة نوح عليه السلام مع قومه ⁵.

-الإطناب بالتكرار: وهو من أكثر أنواع الإطناب شيوعاً، وقد تناوله معظم البلاغيين ⁶، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾) ⁷.

فقد كرر الله سبحانه وتعالى كلمة عاد لتعظيم مقام به هؤلاء القوم، فالتكرار لا يكون إلا في الأمور العظيمة. ⁸

1 سورة هود: الآية 104-108.

2 بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص 383.

3 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 206.

4 سورة هود: الآية 34-36.

5 ينظر: البقاعي: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، مصدر سابق، ج 9، ص 529.

6 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص 139.

7 سورة هود: الآية 60.

8 ينظر: البقاعي: "المصدر السابق"، ج 3، ص 546.

وهناك أنواع أخرى من الإطناب، ونحن نكتفي بالإقتصار على هذه الثلاثة فقط على سبيل المثال لا الحصر.¹

ويأتي في مقابل الإطناب الإيجاز وهو أن يكون اللفظ أقل من المعنى مع الوفاء به وإلا كان إخلالا يفسد الكلام أو هو قلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني.²

ويعد أسلوب الإيجاز من أهم الأساليب البلاغية، بل هو البلاغة بذاتها، يقول أكتم بن صفى³: "البلاغة الإيجاز".⁴

ونظرا لأهمية الإيجاز شاع في أغلب مصنفات البلاغيين وعلماء الإعجاز، حيث عدّه البعض منهم وجها من وجوه الإعجاز في بلاغة القرآن الكريم، وكان الرماني(ت384هـ) أحسن من تكلم عن الإيجاز في القرآن الكريم، حيث جعل ذلك فاتحة لرسالة "النكت في إعجاز القرآن" وحصره في وجهين هما: إيجاز حذف، وإيجاز قصر.⁵

ولم يزد عليه من أتوا بعده إلا حذو طريقه في جعل الإيجاز من هذين النوعين.⁶ وأكد أن بلاغة القرآن الكريم لن تخلو من الإيجاز، حيث إنّ الله عز وجل قد وظف هذا اللون البلاغي في مقاماته التي اقتضت ذلك، وسنحاول أن نقف على هذين النوعين من الإيجاز ونستدل على ذلك بشواهد من سورة هود.

- إيجاز قصر: هو "تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف"⁷.

1 من أنواع الإطناب الأخرى: الإطناب بالبسط، الإطناب بالتكميل، الإطناب بالتذليل، الإطناب بالزيادة، الإطناب بذكر الخاص، الإطناب بالتوشيع... إلخ.

2 أحمد مطلوب: "المرجع السابق"، ص202.

3 أكتم بن صفى هو من أشهر الخطباء والحكماء في الجاهلية، من قبيلة تميم العربية.

4 عبد اللطيف شريقي، زبير دراقي: "الإحاطة في علوم البلاغة"، مرجع سابق، ص96.

5 ينظر: الرماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص76.

6 هناك من أضاف أنواعا أخرى للإيجاز مثل: إيجاز التقدير، الإيجاز الجامع.

7 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة" مرجع سابق، ص198.

ومن نماذجه في سورة هود قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)¹، فهذه الآية الكريمة مع قلة ألفاظها، جامعة لبيان حال أهل الكفر والإيمان في إيجاز واختصار.

وأيضاً قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾)²، إنّ هذه الآية الكريمة جمعت محاسن الإيجاز البلاغي، يقول السكاكي عن إيجازها معقبا: "ثمّ إذا بين المراد اختصر الكلام مع أقلعي احترازا عن الحشو المستغني عنه وهو الوجه في أن لم يقل: قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت، وياسماء أقلعي فأقلعت، واختير غيظ على غيظ المشدد لكونه أخصر، وقيل: الماء دون أن يقال: ماء طوفان السماء، وكذا الأمر دون أن يقال: أمر نوح وهو إيجاز ما كان الله وعد نوحا من أهلاك قومه، لقصد الاختصار."³

وأيضاً يظهر إيجاز القصر في هذه السورة في قوله تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)⁴، يلاحظ بأن كلمة استقم جمعت مكارم الأخلاق ومحاسن الأحكام والفضائل.

- إيجاز حذف: وهو ما "يكون بحذف شيء من العبارة لا يحل بالفهم مع قرينة تعين المحذوف"⁵.

وقد ورد إيجاز الحذف بكثرة في القرآن الكريم، وتعددت أنواعه، وكان في سورة هود نصيب من هذا النوع من الإيجاز وقد تمثل في:

- حذف حرف: نحو قوله تعالى: (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْعُدُ هَؤُلَاءِ...)⁶، أي فلا تكن، فحذف حرف النون.

- حذف كلمة: نحو قوله تعالى: (الرِّيبَاتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾)⁷، أي هذا كتاب فقد حذف المبتدأ وكتاب خبر لهذا المبتدأ المحذوف⁸.

1 سورة هود: الآية 24.

2 سورة هود: الآية 44.

3 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص 420.

4 سورة هود: الآية 112.

5 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 199.

6 سورة هود: الآية 109.

7 سورة هود: الآية 1.

8 ينظر: الزخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 476.

-حذف جملة: نحو قوله تعالى: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾)¹، هذه الآية الكريمة

عبارة عن جملة شرطية حذف جوابها والتقدير "لو أنّ لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد لبطشتم بكم"²، إذن الجملة المحذوفة هي جملة جواب الشرط.

وهذا الضرب الأخير من الإيجاز-أي إيجاز الحذف-صعب المنال، وذلك لما فيه من الأسرار البلاغية، والتي تتطلب بذل جهد لإدراكها³.

أما المساواة التي تجمع بين الإثنين-الإطناب والإيجاز-ويقصد بها "تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له، بأن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني"⁴.

فالمساواة هي الميزان الذي توزن به الألفاظ والمعاني فإن نقصت كانت إيجازاً وإن كثرت كانت إطناباً، وإن تساوت كانت مساواة.

وقد تنبه البلاغيون إلى هذا التّمط من تساوي الألفاظ مع المعاني في الكلام، لكن البعض عدّ هذا النوع إيجازاً والبعض الآخر عدّه إطناباً.⁵

وللمساواة مكانها في بلاغة سورة هود ،ومن من باب المساواة في سورة قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾)⁶.

نلمح في هذه الآية الكريمة روعة البلاغة التي تجسدت من خلال المساواة بين ألفاظ الآية القرآنية ومعانيها حيث أتت الألفاظ متساوية مع المعاني⁷.

3/3/2: الفصل والوصل: من أهم المباحث البلاغية-الفصل والوصل-حتى قيل "حد البلاغة معرفة الفصل والوصل"⁸.

1 سورة هود: الآية 80

2 ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التفسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 26.

3 ينظر: بغداددي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص 261.

4 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق ص 207.

5 من الذين عدوا المساواة نوعاً من الإيجاز الرماني، ومن الذين عدوها من باب الإطناب ابن قيم الجوزية.

6 سورة هود: الآية 44.

7 ينظر: عبد العظيم إبراهيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ج 2، ص 463

8 ابن القيم الجوزية: "الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان"، مصدر سابق، ص 182.

ويقصد بالفصل في معناه اللغوي، من فصل، والفصل: البون ما بين الشئيين، والفصل من الجسد موضع

الفصل، والفصل الحاجز بين الشئيين فصل بينهما، وفصلت الشئ فانفصل أي قطعه فانقطع¹، وخلافه الوصل، وصل الشئ بالشئ يصله وصلا وصلة ووصلة واتصل الشئ بالشئ: لم يتقطع².
أمّا في الاصطلاح فقد اصطلح البلاغيون على أنّ "الفصل في البلاغة أو الكلام ترك عطف بعض الجمل على بعض، والوصل عطفه بعضها على بعض".³

وقد وقف البلاغيون كثيرا عند بلاغة الفصل والوصل، ولعل خير من تكلم في هذا الباب إمام البلاغة وشيخها عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، إذ عقد بابا في دلائل الإعجاز سماه باب القول في الفصل والوصل، واستهله بقوله: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجئ بها منثورة، نستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة".⁴

ثمّ نهب منهجه من أتى بعده من البلاغيين، أمثال السكاكي، والخطيب القزويني هذا الأخير الذي قعد أبواب البلاغة ورتبها على نحو من التنظيم والتبويب، وحظيت عنده بلاغة الفصل والوصل بقسط من ذلك الترتيب، حيث تكلم عن مفهوم كل من الفصل والوصل، واستدل عليها بشواهد معظمها من القرآن الكريم.⁵
فقد كان للفصل والوصل مكانهما من البلاغة القرآنية، فالقرآن الكريم كلام الله الذي جمع جوامع الكلم، والتقت عنده مختلف أصناف البلاغة والبيان.

وعلى ضوء هذا سنحاول أن نذكر المواضع التي حددها البلاغيون للفصل والوصل، ونمثل على ذلك ببعض النماذج من سورة هود.

فالفصل على اعتبار البلاغيين يقع في مواضع الآتية و هي:

1- كمال الاتصال بين الجملتين: "حيث يكون هناك اتحاد تام وامتزاج معنوي، كأثهما أفرغا في قالب

¹ ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص 134.

² ينظر: المصدر نفسه، ج6، ص 449.

³ أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق، ص549.

⁴ عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص222.

⁵ ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص151.

واحد.¹

نحو قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾)²، فالآية مثلت كمال الاتصال، فجاءت الآية الثانية تفسير وشرحا للأولى³.

2- كمال الانقطاع: وهو أن يكون بين الجملتين تمام الخلاف والتباين، كاختلافهما في الخبرية والإنشائية، أو لا يكون بينهما مناسبة تقتضي الوصل، فوجب فصلهما نحو قوله تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾)⁴، يلاحظ بأنّ الجملة الثانية أتت مفصولة عن الأولى، وذلك لاختلافهما في الخبرية والإنشائية، فالأولى "... تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ" جملة إنشائية، بينما الثانية "ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ" جملة خبرية.

3- شبه كمال الاتصال: وذلك إذا كانت الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى، لوقوعها جوابا عن السؤال، فتفصل عنها لفصل السؤال عن الجواب، نحو قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾)⁵، فهنا جاءت الجملة الثانية جوابا للأولى و"كأنه قيل فماذا قال إبراهيم عليه السلام؟ فقيل: قَالَ سَلَامٌ"⁶

4- شبه كمال الانقطاع: وهو أن يكون بين الجملة الأولى والجملة الثالثة جملة ثانية متوسطة حائلة بينهما، فلو عطفت الثالثة على الأولى المناسبة لتوهم أنها معطوفة على المتوسطة فيترك العطف، دفعا للتوهم، نحو قوله تعالى: (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَن هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ... ﴿٧٦﴾)⁷ فقوله: " أَعْرِضْ عَن هَذَا" جملة متوسطة بين الأولى " يَا إِبْرَاهِيمُ" وبين "إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ"

هذه هي أهم مواطن الفصل التي ذكرها البلاغيون، في مقابل ذلك حددوا مواطن الوصل⁸، فيما يلي:

¹دخيل الله الصحفى: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص200

² سورة هود: الآية 25.

³ينظر: دخيل الله الصحفى: "المصدر السابق"، ص204

⁴ سورة هود: الآية 65

⁵ سورة هود: الآية 69

⁶أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق 251-552

⁷ سورة هود: الآية 76

⁸ هناك من يرى بأن الوصل لا يكون إلا بالواو، وهذا ما اتفق عليه أغلب البلاغيين، وهناك من أدخل جميع حروف العطف في هذا

الباب، وبيروا اقتصارهم على الواو لأن حروف العطف الأخرى تفيد منع الإشراف معاني أخرى، بينما الواو تفيد الجمع بين المتعاطفين فقط.

1- إذا اتفقت الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظاً ومعنى أو معنى فقط، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما، وكانت بينهما مناسبة تامة: نحو قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾)¹، يظهر بأن كلتا الجملتين خبريتان، ومثال الإنشائيتين قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾)².

2- إذا اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية وكان الفصل يوهم خلاف المقصود، ولا يوجد له شاهد في سورة هود.³

3- إذا كان للجملة الأولى محل من الإعراب وقصد إشراك الجملة الثانية لها في الإعراب نحو قوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابِ مُبِينٍ ﴿٦﴾)⁴.

ففي هذه الآية الكريمة تم عطف جملة: "وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا" على سابقتها واشتركت معها في الحكم الإعرابي والذي تمثل في محل خبر للمبتدأ دابة.⁵

هذه أهم مواضع الوصل التي اتفق عليها البلاغيون⁶، والتي اقتصرنا على ذكر بعض نماذجها في سورة هود.

وخلاصة القول فإن الفصل والوصل بين الجمل باب دقيق المسلك صعب المآخذ، يحتاج إلى وعي وطول ممارسة لطرق القول، وصياغات الكلام... ويزداد الأمر دقة وصعوبة، عندما يكون المطلوب هو دراسة الفصل والوصل بين الجمل في النظم القرآني المعجز⁷، فالفصل والوصل في القرآن الكريم سر من أسرار البلاغة القرآنية المعجزة والتي تتطلب إمعان النظر وإحكام العقل للوقوف على أغراضها ومعانيها.

1 سورة هود: الآية 23

2 سورة هود: الآية 52.

3 ينظر: دخيل الله الصحفي: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرار البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص 216.

4 سورة هود: الآية 6

5 دابة: اسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ.

6 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 181. وينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق، ص 553.

7 بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص 273.

3/3/3: أسلوب القصر: حظي مصطلح القصر باهتمام بالغ لدى علماء البلاغة والقصر في معناه اللغوي من قصر، والقصر: الغاية والحبس لأنك إذا بلغت الغاية حبستك¹.

فالقصر في اللغة: الحبس، ونفس المعنى ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى: (**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**)²، أي محبوسات في خيام من الدر على أزواجهن، معنى هذا أنهن مقصورات على أزواجهن³.
أما اصطلاحاً: فالقصر هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، أو هو إثبات الحكم لما يذكر في الكلام ونفيه عما عداه بإحدى الطرق⁴.

وقد تعددت تسميات البلاغين لهذه الطريقة من الكلام بين الحصر والتخصيص والقصر⁵، إلا أن هذه الأخيرة هي المتواضع عليها في الكتب البلاغية.

ونظراً لأهميته، فقد تناوله معظم البلاغيين في مصنفاتهم، وأشهرهم -بطبيعة الحال- إمام البلاغة، ومقعد قواعد علم المعاني، العلامة عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي أفرد باباً في كتابه دلائل الإعجاز سماه "فصل في مسائل إنما"، إذ تكلم من خلاله عن القصر وبين مواقعها، واستدل على ذلك بشواهد من القرآن الكريم⁶.

ثمّ هذا حدوه المتأخرون أمثال يعقوب السكاكي (ت626هـ) الذي جعل فصلاً في كتابه مفتاح العلوم تكلم فيه عن القصر مبيناً معناه وطرقه وأحكامه⁷، وتبعه في ذات المنهج تلميذه الخطيب القزويني (ت739هـ) الذي تكلم عن القصر وبين أنواعه وأدواته وطرقه⁸.

وطرق القصر كما اصطلاح عليها جمهور البلاغيين هي: النفي، والاستثناء، وإنما والتقديم والعطف بلا، وبل، ولكن⁹.

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص266

2 سورة الرحمن: الآية72.

3 ينظر: ابن منظور: "المصدر السابق"، ج5، ص266.

4 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص165.

5 ينظر: أحمد خليل: "المدخل إلى دراسة البلاغة العربية"، لبنان، بيروت، دار النهضة العربية، ط1968م، ص211.

6 ينظر: عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص328.

7 ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص288.

8 ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص122.

9 ينظر: بسويوني فيود: "من بلاغة النظم في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص185.

ولا تخلو بلاغة القرآن الكريم من أساليب القصر وطرقه، حيث وظف القرآن الكريم أسلوب القصر ونوع في طرقه.

فمن المعلوم أنّ للقصر أربعة طرق¹ -حسب رأي الجمهور- وسنحاول من خلال الآتي أن نعرض لهذه الطّرق من منظار ماورد منها في سورة هود

1- القصر بالنفي والاستثناء: "والأصل في القصر بالاستثناء من النفي أن يكون فيما يجمله المخاطب

أو يشك فيه... وقد يكون في أمر معلوم للمخاطب، ولكن ينزل منزلة المجهول عنده لاعتبار مناسب.² وتأتي هذه الطريقة من القصر بما وإلا وإن وإلا³، نحو قوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾)⁴

فقد جاء القصر في هذه الآية الكريمة بـ"ما وإلا" وذلك تأكيداً على أنّ رزق الخلائق بيد الله عزوجل ومقصود عليه. ونفس الأمر نجده في قوله تعالى: (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾)⁵، ومن نماذج القصر بـ"إن وإلا" قوله تعالى: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾)⁶

يلاحظ بأنّه تم توظيف أسلوب القصر بالاداة إن وإلا وذلك لقصر صفة الافتراء على قوم هود عليه السلام.

2- القصر بإنّما: "والأصل في القصر بإنّما أن يكون فيما شأنه ألا تجمله المخاطب... وقد يكون ما

تستعمل فيه إنّما مجهولاً للمخاطب ولكن ينزل منزلة المعلوم لادعاء ظهوره.⁷

1 هناك من يضيف على هذه الأربعة طرقاً أخرى كضمير الفصل، ومباحث تقديم المسند وتقديم المسند والمتعلقات، حتى صارت جميعها حوالي أربعة عشر طريقاً.

2 عبد المتعال الصعيدي: "البلاغة العالية-علم المعاني"-م، مرجع سابق، ص53.

3 ينظر: صباح عبيد دراز: "أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية"، مصر، مطبعة الأمانة، ط1، 1406هـ-1986م، ص148.

4 سورة هود: الآية6.

5 سورة هود: الآية56

6 سورة هود: الآية50

7 عبد المتعال الصعيدي: "المرجع سابق، ص54.

وهذا ما وجدناه عند عبد القاهر الجرجاني حيث يقول: "اعلم أن موضوع "إنما" على أن تجيء بـ مخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة."¹

وللقصر بإنما موضع في القرآن الكريم، وأكثر ماوردت فيه كانت في المواضع الهادئة لاستحضار الأحاسيس واستوعاب المواقف والافكار.²

ومن نماذج القصر بإنما في سورة هود قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾)³، وأيضا قوله تعالى: (فَإِذَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾)⁴

فالقصر هنا أفاد تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ففي الآية قصر النبوة على محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما جاء به من قرآن مقصور على الله فهو صاحبه سبحانه وتعالى.

وشواهد إنما كثيرة في سورة هود وفي القرآن الكريم بصفة عامة، والحديث عنها يطول، غير أن المقام قصير وعلى هذا نكتفي بما قاله عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أنه ليس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الحرف من دقائق."⁵

3- القصر بالعطف: ويكون بحروف العطف: لا، بل، لكن⁶، غير أن العطف بلا-حسب بعض الدراسات التي اطلعنا عليها- لم يرد في القرآن الكريم، أما فيما يخص بل ولكن فلها نماذج كثيرة، لكن في سورة هود لم نجد إلاّ مثالا واحدا عن قصر العطف ببل في حين لم نجد فيها العطف ولكن.

ومثال القصر ببل تمثل في قوله تعالى: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ

اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾)⁷

¹ عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص330.

² ينظر: دخيل الله الصحفي: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرار البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص149

³ سورة هود: الآية 12.

⁴ سورة هود: الآية 13

⁵ ينظر: عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص353.

⁶ ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص168.

⁷ سورة هود: الآية 27.

4-القصر بالتقديم: سبق وأن تكلمنا عن التقديم والتأخير في القرآن الكريم وما فيه من أسرار بلاغية وحكم إعجازية، وقد عد البلاغيون التقديم وجها من وجوه طرق القصر، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم، قوله تعالى: (**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾**)¹.
ويعد القصر بالتقديم أحسن طرق القصر لما فيه من بلاغة مرجع دلالتها الذوق السليم والفكر الصائب²، ونماذج ذلك في القرآن الكريم كثيرة.

أما عن أنواع القصر وتقسيماته، فقد تعددت لاعتبارات عدة³، أشهرها القصر باعتبار الحقيقة والواقع، فهذا الأخير هو الذي لقي اهتماما لدى علماء البلاغة، بينما التقسيمات الأخرى فلا علاقة للبلاغة بها.⁴
وبناء على هذا ينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع إلى قسمين هما:

1-قصر حقيقي: "وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع"⁵، نحو قوله تعالى: (**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾**)⁶، فالتوفيق مقتصور في الحقيقة والواقع على الله سبحانه وتعالى.

2-قصر إضافي: "وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين، لا لجميع ماعده"⁷، ومثال ذلك في سورة هود، قوله تعالى: (**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾**)⁸، فقد قصر قوم عاد على صفة الافتراء، أي اختصوا بها .

وخلاصة القول: فإن القصر في النظم القرآني تعدد، وكثرت استعمالات⁹ وتنوعت طرقه، وبين هذه الطرق فروق دقيقة، فدلالة التقديم على القصر تختلف عن دلالة النفي و الاستثناء تختلف عن دلالة إنفا وهكذا... ولكي يقف الدارس على تلك الفروق ويتجلى له ما وراء القصر في النظم القرآني من معان

1 سورة هود: الآية 88

2 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 169.

3 من تقسيمات القصر أيضا: قصر صفة على موصوف، وقصر الأفراد، قصر القلب، وقصر التعيين، وقصر موصوف على صفة.

4 ينظر: عبد المتعال الصعيدي: "البلاغة العالية-علم المعاني-"، مرجع سابق، ص 49.

5 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة" مرجع سابق، ص 170.

6 سورة هود: 88

7 أحمد الهاشمي: "جوار البلاغة" مرجع سابق، ص 170.

8 سورة هود: الآية 50.

وأغراض يجب عليه أن يستحضر فكره، وأن يهيء حواسه ويتدبر بوعي، ليحيط بالسياق الذي ورد فيه القصر، فعندئذ يتجلى له ما وراءه.¹

3/4- الأساليب الخارجة عن مقتضى الظاهر في سورة هود:

سبق وأن "عرفنا أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن لكل مقام مقالا، ولكل حال كلاما يناسبها ويلائمها، ومجيء الكلام مطابقا لمقتضى الحال وهو الأصل، وقد يخاف هذا الأصل فيأتي الكلام خارجا ومخالفا لما يقتضيه ظاهر الحال، وتلك المخالفة لا تكون إلا لأسرار ومقاصد يقصد إليها البلاغي"².

ومن الأساليب الخارجة عن مقتضى الظاهر، والتي عدها البلاغيون ضمن علم المعاني: الالتفات، التغليب، أسلوب الحكيم، القلب، التعبير عن المضارع بلفظ الماضي والعكس.³

ولهذه الأساليب مكانها في كتاب الله تعالى، فالقرآن الكريم هو المعجزة الإلهية التي حوت جميع فنون البلاغة ومباحثها على اختلاف أنواعها، وهذا ما سنوضحه في عجالة خلال حديثنا عن هذه الأساليب المخالفة لمقتضى الظاهر والكشف عن بعض نماذجها على ضوء آيات الذكر الحكيم من سورة هود.

3/4/1- الالتفات في سورة هود: الالتفات في اللغة من لفت وجهه عن القوم صرفه، والتفت إليه صرف

وجهه إليه، ويقال: لفت فلان عن رأيه، أي صرفته عنه.⁴

ونفس المعنى دلّ عليه القرآن الكريم، ففي قوله تعالى: (قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا)⁵، فمعنى تلفتنا أي تصرفنا⁶. أمّا اصطلاحاً: "الالتفات هو نقل الكلام من حالة التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى حالة أخرى لمقتضيات ومناسبات تظهر بالتأمل"⁷.

وقد تنبه البلاغيون منذ بواكير الدراسات البلاغية إلى هذا اللون البلاغي، وكانت أولى بؤاده في الدراسات التفسيرية للقرآن الكريم، حيث وقف جل البلاغيين والمفسرين على مواطن الالتفات في القرآن الكريم.

¹ بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص186.

² المرجع نفسه: ص152.

³ ينظر: أحمد الهاشمي: "المرجع السابق"، ص212-214، وكذلك بسيوني فيود: المرجع السابق، ص152.

⁴ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص508.

⁵ سورة يونس: الآية78.

⁶ ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص452.

⁷ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص212.

ولعل أول إشارة له كانت من قبل الفراء (ت207هـ) في كتابه معاني القرآن، حيث أشار إليه على ضوء بعض الآيات الكريمة، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ)¹، يقول: "رويت عن علي بن أبي طالب رحمه الله: "بل تحبون وتذرون"، بالتاء، وقرأها كثيرون بل يحبون بالياء، والقرآن يأتي على أن يخاطب المنزل عليهم أحيانا وحينما يجعلون كالغيب، كقوله: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَيْنَ بِيَهُم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ)²3.

وهذا مثال من أمثلة أخرى عن ظاهرة العدول والانصراف في القرآن الكريم، تنبه إليها الفراء، غير أن الملاحظ عليه أنه لم يصطلح على هذه الظاهرة بمصطلحها المعروف حاليا بالالتفات، كما لم يبرز جمالها وبلاغتها، واكتفى بذلك ببيان موطنها الذي وردت فيه.⁴

كما تنبه إلى هذه الظاهرة البلاغية-الالتفات-أبو عبيدة (ت210هـ)⁵، وأشار إلى أمثلته في القرآن الكريم، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)⁶، فقال عن هذا: "وما مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد."⁷

يلاحظ بأنّ أبو عبيدة تنبه إلى الالتفات في القرآن الكريم، وما أوردناه ماهو إلا مثال واحد من أمثلة كثيرة ذكرها أبو عبيدة، إلا أن الملاحظ عليه أنه لم يصرح به كمصطلح، واكتفى بعد هذه العملية في التحول بين أنماط الضمائر من المجاز.⁸

وعلى ذات المنهج سار من أتى بعد الفراء وأبي عبيدة، أمثال ابن قتيبة (ت276هـ)، والمبرد (ت286هـ) بحيث لم يضيفا شيئا ذا أهمية واكتفينا بالإشارة إلى مظاهر الالتفات

1 سورة القيامة: الآية 20-21.

2 سورة يونس: الآية 22.

3 الفراء: "معاني القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص212.

4 ينظر: حسن طبل: "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"، القاهرة، دار الفكر العربي، دط، 1418هـ-1998م، ص14.

5 وجدنا أن أغلب الباحثين أشاروا في كتبهم ودراساتهم إلى أن أبو عبيدة كان أول من تنبه إلى ظاهرة الالتفات في القرآن الكريم، متناسين بذلك فضل سابقه الفراء، وبعضهم جعل محاولة الفراء بعد أبي عبيدة، ونحن أشرنا إلى محاولة الفراء أولا بحكم الترتيب الزمني.

6 سورة القيامة الآية 33-34.

7 أبو عبيدة: "مجاز القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص11.

8 ينظر: مازن موفق صديق الخيرو: "الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني-الالتفات نموذجاً"، دمشق، مكتبة دار البيان، ط1، 1431هـ-

2010م، ص14.

وصوره على ضوء شواهد من القرآن الكريم والشعر العربي¹.

يستنتج من هذا أنّ أسلوب الالتفات لم تكن له في تلك الحقبة الزمنية رؤية اصطلاحية واضحة شأنه في ذلك شأن جميع المصطلحات البلاغية التي كانت مضطربة الدلالة، ولعل أول تعريف اصطلاحى له كان على يد ابن المعتز (ت296هـ) حيث عرفه قائلاً: "الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر."² وإن كان لابن المعتز الفضل في تعريف الالتفات تعريفاً اصطلاحياً واضحاً، إلا أن المؤخذ عليه هو أنه عد هذا الالتفات من باب محاسن الكلام وليس من باب علم المعاني.

وعلى العموم فإنّ مصطلح الالتفات من أكثر المصطلحات البلاغية اضطراباً وتذبذباً في مصنفات جلّ البلاغيين.³

ولعل ثبات هذا المصطلح وتقعيده يعود إلى أبي يعقوب السكاكي الذي أدرجه ضمن علم المعاني⁴، فقال: "واعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام من الحكاية إلى الغيبة لا يخص المسند إليه ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثها كل واحد منهما إلى الآخر ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني."⁵

هكذا استقر الالتفات على يدي السكاكي واندرج ضمن مباحث علم المعاني.

وأكد أنّ البلاغة القرآنية حافلة بهذا اللون البلاغي الذي يحوي في طياته الكثير من الأسرار الإعجازية، وسنحاول الوقوف على بعض نماذج الالتفات في سورة هود من خلال ذكرنا لأنواعه التي حصرها البلاغيون في التالي:

– الالتفات من التّكلم إلى الخطاب: ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه أنه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة⁶، لم نجد لهذا النوع مثالا في سورة هود.

1 ينظر: حسن طبل: "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"، مرجع سابق، ص15، وينظر كذلك: مازن تاخيرو: "الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني الالتفات نموذجاً"، مرجع سابق، ص14-15.

2 عبد الله بن المعتز: "البديع"، اعتنى بنشره: إغناطيوس كرتشوفسكي، بيروت، دار المسيرة، ط2، 1402هـ-1982م، ص58.

3 ينظر: حسن طبل: "المرجع السابق"، ص18.

4 ينظر: مازن الجيرو: "الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني"، مرجع سابق، ص18.

5 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص199.

6 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص315.

-الالتفات من المتكلم إلى الغيبة: "وجه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده السامع حضر أو غاب"¹، نحو قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾)²

يلاحظ بأن الآية ابتدأت بضمير المتكلم " فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا " ثم عدلت عن ذلك إلى الخطاب .

-الالتفات من الخطاب إلى التكلم: نحو قوله تعالى: (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾)³

فقد عدل في هذه الآية الكريمة من ضمير الخطاب "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ..." وهو أنتم إلى ضمير المتكلم أنا فقال: " إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ..."

-الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: نحو قوله تعالى: (وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)⁴

يلاحظ بأنه قد عدل من ضمير المخاطب وهو أنت في قوله تعالى: " وَلَئِن قُلْتَ " وأنتم في قوله تعالى: " إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ..." إلى ضمير الغائب هم في قوله تعالى: " لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..."

-الالتفات من الغيبة إلى التكلم: هو أن يبدأ السياق القرآني بضمير الغائب ثم يعدل عنه إلى ضمير المتكلم ، ولا يوجد لهذا النوع من الالتفات مكانه في سورة هود.

-الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: نحو قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾)⁵

فقد ابتدأت الآية بضمير الغائب " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ " ثم عدل عنه إلى ضمير المخاطب أنتم فقال: " فَأْتُوا بِعَشْرِ..."

1سورة هود: الآية90.

2 سورة هود: الآية66.

3 سورة هود: الآية90.

4 سورة هود: الآية7.

5 سورة هود: الآية13.

هذه أهم أنواع الالتفات التي أجمع عليها جمهور البلاغيين¹، لأننا وجدنا أنّ بعض البلاغيين أضافوا عن هذه الأنواع أنواعاً أخرى، وبعضهم ألغى بعضها مثل الإمام السيوطي الذي نفى وجود الالتفات من الخطاب إلى التكلم في القرآن.²

وخلاصة القول فإنّ أسلوب الالتفات من أهم الأساليب البلاغية وخصوصاً إذا ارتبطت هذه البلاغة بالقرآن الكريم مما يعطيها سراً إعجازياً تكمن فائدته في التفنن ونقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرااراً للسامع، وتجديداً لنشاطه وحفظاً لحاظه من الملل والضجر إذا استمر الأسلوب الواحد على سمعه كما قيل:

لا يصلح النفس إذا كانت مصلحة إلا التنقل من حال إلى حال³

يستنتج من هذا أن القرآن الكريم راعى نفسية قارئه، فنجد أن الله سبحانه وتعالى في خطابه لعباده عدل من حال إلى حال دفعا للضجر والسأم، وعليه فالقارئ لكتاب الله تعالى لا يمل ولا يسأم لما فيه من تفنن وتشويق في ذلك العدول والانصراف.

3/4/2-المخالفة في صيغ الأفعال في سورة هود⁴: فمن المعلوم أن "الفعل يدل على حدث وزمن، فالماضي يدل على وقوع الحدث في الزمن الماضي والمضارع يدل على وقوعه في الحال والاستقبال، فهو يفيد التجدد والحدوث، والأمر يقصد به: إنشاء الأفعال عليه كان هذا المجيء على وفق ما يقتضيه الظاهر، وإن خرجت عنه كانت خارجة على خلاف ما يقتضيه الظاهر."⁵

غير أنّ هذه الأفعال قد تخرج على خلاف المقتضى، وهذا ما تنبه إليه البلاغيون، حيث يرى الخطيب القزويني أنّ من خلاف المقتضى التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي أو التعبير عنه باسم الفاعل أو باسم المفعول.⁶

1 ينظر: الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص318، وينظر أيضاً: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص212-213.

2 ينظر: السيوطي: "الإتقان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج، ص.

3 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص314. كذلك بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص153.

4 ينظر: بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص175.

5 المرجع نفسه: ص175.

6 ينظر: الخطيب القزويني: "الايضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص80.

والشئى الذي لاحظناه في أغلب المصنفات البلاغية هو الاقتصار على ذكر التعبير عن المضارع بلفظ الماضي وعكسه¹، متناسين بذلك خروج المصدر أو المضارع بلفظ الأمر.² وعلى العموم فإنّ التّصوص القرآنية حفلت بهذه المخالفة في صيغ الأفعال، وذلك لأغراض ومقاصد اقتضاها المقام، وسنحاول ذكر بعضها على ما جاء منها في سورة هود.

*التعبير عن المضارع بلفظ الماضي: نحو قوله تعالى: (وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾)³، والأصل ولئن نؤخر عنهم العذاب، فخرج على مقتضى ظاهره فعبر عنه بلفظ الماضي والأصل المضارع .

*التعبير عن الماضي بلفظ المضارع: نحو قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾)⁴، الأصل في الفعل يجادلنا هو جادلنا، فعدل عن هذا الماضي إلى المضارع .

*التعبير عن المستقبل بلفظ اسم المفعول: نحو قوله تعالى: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾)⁵، أي سيجمعون.

*التعبير عن اسم المفعول بلفظ الفاعل: نحو قوله تعالى: (قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)⁶،

فاسم الفاعل عاصم أصله اسم مفعول معصوم⁷. أي لا معصوم من أمر الله.

3/4/3-وضع المظهر موضع المضمير وعكسه في سورة هود: "من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وضع الاسم المظهر موضع المضمير، وذلك عندما يذكر الاسم الظاهر ثم يراد إعادته في الكلام، فتلك الإعادة ينبغي أن تكون بالمضمير، حيث ذكر الاسم أولاً، وهذا الذكر يقتضي أن يعبر عنه

1 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص214.

2 ينظر: بسويوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص175.

3 سورة هود: الآية 8

4 سورة هود: الآية 74

5 سورة هود: الآية 103

6 سورة هود: الآية 43.

7 ينظر: أبو حيان الأندلسي: "تفسير البحر المحيط"، مصدر سابق، ج5، ص227

بعد ذلك بضميره عائداً عليه فإذا ما عبر عنه الإعادة بالاسم الظاهر، أي أعيد اسماً ظاهراً لا ضميراً، يكون الكلام قد خرج عن الأصل، وخالف ما يقتضيه الظاهر لسر من الأسرار.¹ وعكسه وضع المضمّر موضع المظهر، حيث إنّ الأصل في ضمير الغائب أن يذكر في الكلام مرجعه الذي يرجع إليه، وأن يكون هذا المرجع متقدماً لفظاً ورتبة أو في اللفظ دون الرتبة، أو في الرتبة دون اللفظ، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر في اللفظ والرتبة معاً... وقد يخرج الكلام على خلاف هذا الأصل، فيذكر ضمير الغائب ثم يفسر بمتأخر عنه لغرض بلاغي، ويكون ذلك وضعاً للضمير في موضع الاسم الظاهر.² وقد عدّ الخطيب القزويني (ت739هـ) وضع المضمّر موضع المظهر أو عكسه في وضع المظهر موضع المضمّر من أحوال المسند إليه الخارجة على خلاف مقتضى الظاهر، واستدل على ذلك بشواهد من القرآن الكريم.³

وبناء على هذا يظهر لنا بأن القرآن الكريم أتى في نظمه بوضع المظهر موضع المضمّر، ومن شواهد ذلك في سورة هود قوله تعالى: (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ... ٤)، ومقتضى الظاهر أن يقال: قد جاء أمرنا، فقد عبر الله سبحانه وتعالى بالإظهار بدلاً من الإظهار لإجلا شرف الربوبية وإشاعة هيمنتها على الضمائر.⁵

وتوجد أمثلة غير هذا مبثوثة في سورة هود والمقام لا يسع لعرضها جميعاً لذا نارتأينا أن نكتفي بواحد منها على سبيل المثال لا الحصر.

كما أتى كذلك بوضع المضمّر موضع الظاهر، نحو قوله تعالى: (إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴿٤﴾)⁶ يلاحظ في الآية الكريمة توظيف ضمير الشأن (هو) موضع الظاهر والأصل: "إلى الله مرجعكم والله على كل شيء قدير."

والمتقضي لمواضع وضع المضمّر موضع المظهر في القرآن الكريم يجد أنّ معظمها وردت في مقامات التوحيد والحث على النظر والتدبر كما هو الشأن في الآية السالفة، بالإضافة إلى التنبيه إلى خسران الكفار ومصيرهم

1 بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني" مرجع سابق، ص168.

2 المرجع نفسه: ص165.

3 ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص72-73.

4 سورة هود: الآية76.

5 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص124.

6 سورة هود: الآية4.

المخزي¹، ولعل الغرض من توظيف المضمّر مكان المظهر في القرآن الكريم لأجل تحريك النفس، وإثارة انتباهها، فتتطلع إلى إيضاح الإبهام، وتترقب مجيء التفصيل الذي أجمل في تلك الضمائر، وعندما يأتي الإيضاح والتفصيل تستقر به هذه المعاني في الأنفس، وتقع فيها ألطف موقع، لأنها جاءت والنفس مهياً لها، ومتطلعة ومتوقّبة².

وخلاصة القول: فإن الغرض البلاغي من تلك المخالفة في النظم القرآني هو تحريك الذهن، وإثارة الوجدان، حيث لم يعض النظم الكريم على نسق واحد، بل غير وخالف وكأنه بهذه المخالفة يلفت مخاطبيه، ويحرك وجدانهم وينبههم إلى عظم هذه الأمور الموجهة إليهم³.
وبطبيعة الحال فإن هذه المخالفة في النظم القرآني تمثل أحد وجوه إعجازه البلاغي.

4- أهمية علم المعاني في الدرس البلاغي القرآني:

مما لا شك فيه أنّ غاية علمائنا من البحث في ميدان البلاغة القرآنية بصفة عامة، وعلم المعاني بصفة خاصة لم تكن مقتصرة على التّقييد لقواعد ومباحث هذا العلم من خبر وإنشاء وإيجاز وإطناب... إلخ، وتواليها من مباحث علم المعاني، بقدر ما كانت تطمح إلى البحث في أسرار إعجاز كلام رب البرية، وما يحويه من لطائف بلاغية، ومعان إبداعية سامية.

وبهذا ففائدة علم المعاني في الدرس البلاغي القرآني تكمن في معرفة "إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خص الله به من جودة السبك وحسن الوصف وبراعة التركيب ولطف الإيجاز وما اشتمل عليه من سهولة التركيب، وجزالة كلماته، وعدوبة ألفاظه وسلامتها إلى غير ذلك من محاسنه التي أّعدت العرب عن مناهضته، وحات عقولهم أمام فصاحته وبلاغته"⁴.

كما يمكن القول بأنّ الأثر الذي يحدثه علم المعاني في بلاغة القرآن الكريم، يكمن في أمرين اثنين:

- بيان وجوب مطابقة كلام الله عز وجل لحال مخاطبيه وسامعيه، والوقوف على مواطن ذلك.
- بيان وجوب مخالفة كلام الله عز وجل لمقتضى الظاهر، والوقوف على مواطن ذلك مع إبراز مكان الإعجاز ومقاصد الخالق البارئ من ذلك.

¹ ينظر: بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص 167.

² المرجع نفسه: ص 167.

³ ينظر: المرجع نفسه: ص 179.

⁴ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 47.

ب-علم البيان من منظور سورة هود:

بما أنّ معظم علماء البلاغة-خصوصا المتأخرين-اتخذوا علم المعاني ومباحثه بوابتهم الأولى في دراساتهم البلاغية، فسيأتي حتما وبلا منازع علم البيان في المرتبة الثانية، ويدخل ميدان الدراسة بالشرح، وهذه المرتبة لا تقلل من قيمته بل على العكس تماما، فعلم البلاغة جميعها متساوية القدر والأهمية، والواحدة منها مكتملة للأخرى، وصنفت بهذا الشكل على سبيل التنظيم لا التفضيل.

وللبیان منزلة عظيمة في علم البلاغة العربية، فالكلام لا يستمد قيمته إلا من خلال البيان فبه يتجلى في أحسن صورة، وأبهى حلة، ولولاه لما فرضت العربية نفسها واشتهرت بين لغات الأمم. فعلم البيان علم جليل، ومقامه مقام عظيم بين أصناف علوم البلاغة، وخصوصا إذا ما ارتبط هذا البيان بكتاب الله تعالى ورسالته الخاتمة.

1- مفهوم علم البيان: سبق وأن أشرنا إلى أنّ البيان في اللغة من بين، ما بيّن به الشيء من الدلالة وغيرها، وبيان الشيء بيانا، اتضح، فهو بين، واستبان الشيء: ظهر، والبيان: الفصاحة واللسن، وكلام بين: فصيح، البين من الرجال: الفصيح الظريف العالي الكلام.¹

وكثيرا ما ترددت هذه الكلمة في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)²، وقوله أيضا عز وجل: (لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)³، وجميعها وردت بمعنى الكشف والإظهار⁴، إلا في قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)⁵، يقال: بأن البيان المذكور في هذه الآية الكريمة يقصد به التطق⁶.

وعلى العموم فإن النطق كذلك هو إفصاح وكشف اللسان عما يدور في النفس. أما اصطلاحا: "البيان اسم جامع لكل شيء يكشف لك القناع وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن

1 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص283-284.

2 سورة آل عمران: الآية138.

3 سورة النحل: الآية44.

4 ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص69.

5 سورة الرحمن: الآية1-4.

6 ينظر: ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج7، ص489.

مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام أو وضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"¹.

يظهر من هذا أن التعريف الاصطلاحي للبيان مرتبط أشد الارتباط بمعناه اللغوي فكلاهما يدلان على البيان بمعنى الكشف والإفهام والإيضاح.

ويتحقق البيان في الكلام، بحيث إذا وجد في التركيب تلذذ سماعه، وعذب نطقه، وسهل فهمه، وإن فقد ثقل التركيب على اللسان، ونفرت المسامع منه، كما ينفر المرء من الغريب"².

وهذا ما حظي به البيان القرآني، حتى اتسم بسمة الإعجاز، فالإعجاز البياني هو: "عجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثل القرآن في بيانه قصد إظهار صدق الرسول في دعواه"³.

فالبيان القرآني هو البيان الذي عجز العرب بصفة خاصة والحلق بصفة عامة عن الإتيان بمثله، لأنه ببساطة بيان إلهي مقدس.

وهذا ما سعى علماء الإعجاز والبلاغة إلى توضيحه وإبرازه من خلال دراستهم لإعجاز القرآن الكريم، وأسسوا على خلفيته ما اصطلاحوا عليه بعلم البيان، وعرفوه كالتالي: "أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق تختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة على نفس ذلك المعنى"⁴.

وينحصر موضوع علم البيان في الألفاظ العربية من حيث المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه⁵، وبما أن دراستنا هي دراسة قرآنية محظية يمكننا القول: بأن موضوع علم البيان القرآني يختص بتلك الألفاظ القرآنية المتمثلة في التشبيه، المجاز، الاستعارة، والكناية.

وتعود بوادر هذا العلم إلى أبي عبيد معمر بن مثنى (ت210هـ) الذي دوّن مسأله في كتابه المسمى "بمجاز القرآن"⁶، ثم حذا حذوه مجموعة غير قليلة من العلماء والبلاغيين الذين أصّلوا لعلم البيان، وأسسوا مبادئه وقعدوا قواعده ورتبوا أبوابه أمثال: الجاحظ (ت255هـ)، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، أبو يعقوب السكاكي (ت626هـ)، والخطيب القزويني (ت739هـ).

1 الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج1، ص76.

2 ينظر: محمد التونجي: "المعجم المفصل في الأدب"، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1419هـ-1999م، ج1، ص200.

3 عمار ساسي: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص78.

4 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص216.

5 ينظر: المرجع نفسه: ص217.

6 ينظر: المرجع نفسه: ص18.

2-مصطلحات علم البيان من منظور سورة هود:

ظهرت المصطلحات البلاغية على ضوء كتاب الله تعالى حيث "كان البحث عن وجوه الإعجاز سببا في لفت أنظار العلماء إلى فنون القول، وعناصر علوم البلاغة، فمن ثم اهتم بها العلماء... ودونوها وحللوها وفسروها، ودللو عليها لحاجتهم إليها، ومن ثم صنّفوا لها المصنّفات وتعقبوها بالتحليل التعليل والاستشهاد"¹. وتعد مصطلحات علم البيان واحدة من المصطلحات البلاغية التي حظيت باهتمام البلاغيين، بحيث قاموا بتفكيكها وتأصيلها وتنظيمها.

وقد حصر البلاغيون المتأخرون مصطلحات علم البيان في أربعة أبواب رئيسية تمثل طرق تأدية المعنى

وهي:

أولا: التشبيه

ثانيا: المجاز

ثالثا: الاستعارة

رابعا: الكناية².

ويجب أن تأخذ هذه المصطلحات على هذا النحو من الترتيب، والسبب في ذلك يعود إلى أن بعضها نازل من بعض، فتقدم البلاغيين التشبيه على المجاز لم يكن عبثا، وإنما من إبتداء الاستعارة التي هي مجاز عليه، وقدموا المجاز على الكناية لنزول معناها من معناه منزلة الجزء من الكل³.

كما قام الدكتور حسين اسماعيل عبد الرزاق في ألفية له بنظم هذه المصطلحات البيانية في قالب شعري موضحا سبب تقدم بعضها على بعض فيقول:

علم البيان يأتي في عجالة	من صور الوضوح في الدلالة
تشبيها أو مجازا أو كناية	وصورا أخرى بلا نهاية
دلالة اللفظ-إذن-مقصودة	لزوما أو تضمنا محموده
لكنما دلالة المطابقة	أخرجت التشبيه عمارا فقه
لكن أتى التشبيه في الصدارة	لأنه أساس الاستعارة

1 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص35.

2 ينظر: محمد بن علي الصامل: "فضايا المصطلح البلاغي"، مجلة جامعة أم القرى، مصدر سابق، ص335.

3 ينظر: ابن عبد الله شعيب: "البلاغة العربية الواضحة-علم البيان-"، الجزائر، عين ميله، دار الهدى، دط، ص5.

قبل الكناية المجاز وقد حيى منزلة المفرد من مركب"¹
بالإضافة إلى هذا فكل مصطلح من هذه المصطلحات البيانية يضم تحته أنواعا جزئية أخرى.
وبما أنّ دراستنا دراسة تطبيقية عن سورة هود سنحاول تتبع هذه الأساليب البيانية على ضوءها، محاولين
بذلك تقديم بعض النماذج عنها على سبيل المثال لا الحصر.

2/1: التشبيه في سورة هود:

التشبيه في اللغة من شبه، الشّبّه والشبيه: المثل، وأشبه الشيء: ماثله، وأشبهت فلان وشابته، واشتبته
عليه، وتشابه به، وأشبه كل واحد منهما صاحبه، والتشبيه: التمثيل²، وقد وردت بنفس المعنى في القرآن الكريم
من ذلك قوله تعالى: (وَأَتُوا بِهِ مَثَابَهَا)³، أي مماثلا، تماثل بعضه بعضا⁴.

أما اصطلاحا: فمن بين التعريفات الاصطلاحية للتشبيه قول الخطيب القزويني: "التشبيه الدلالة على
مشاركة أمر لآخر في معنى."⁵

وربما هذا التعريف الذي قدمه الخطيب القزويني للتشبيه هو تعريف مجمل يعتره نوع من
الغموض، والأوضح منه "التشبيه بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف
أو نحوها ملفوظة أو مقدرة، تقرب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه."⁶

ويتحقق التشبيه بتوفر أربعة أركان وهي:

- المشبه والمشبه: ويطلق عليهما طرفي التشبيه.

- أداة التشبيه: وهي الوسيلة الدالة عليه، كالكاف، وكأنّ، مثل، شبه، يضاها، يماثل، وقد تذكر أحيانا وتحذف
أحيانا أخرى.

- وجه الشّبّه: وهو القاسم المشترك بين المشبه، والمشبه به، ويكون أقوى في الأول.⁷

1 حسن إسماعيل عبد الرزاق: "الآئي التبيان في المعاني والبيان والبدیع"، القاهرة، الأزهر، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1405هـ-

1985م، ص61.

2 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج3، ص393

3 سورة البقرة: الآية25.

4 ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص254..

5 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص217

6 عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية - علم البيان -"، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دط، 1405هـ-1985م، ص62.

7 ينظر: ابن عبد الله شعيب: "البلاغة العربية الواضحة - علم البيان -"، مرجع سابق، ص9.

وأطلق البلاغيون على هذه العناصر الأربعة اسم الأركان، لأنها ما يتوقف عليها التشبيه، ولا يتحقق من دونها، إلا أن هناك عناصر إذا فقدت من التشبيه لا يختل البناء ولا يتضرر كوجه الشبه والأداة، بينما المشبه والمشبه به إذا فقد واحد منهما اختل البناء لأنهما عماد التشبيه والأساس الذي يقوم عليه¹.

وقد أشاد البلاغيون بأهمية التشبيه وفضله في علم البيان، يقول الدكتور حسن إسماعيل عبد الرزاق:

إلحاقك الأمر بأن آخر
في أي معنى كان التشبيه يرى
بشروط أن تأتي بالأداة
تقديرًا أو لفظًا بلا أداة
وشرف التشبيه في البيان
كشرف البيان في الإنسان²

ولا عجب أن يكون للتشبيه هذه المكانة من الشرف، فقد حفلت به النصوص القرآنية، إذ أن الله سبحانه وتعالى أكثر من توظيفه في كتابه الكريم.

وكان أول من تنبه إلى هذا اللون البياني علماء البلاغة القرآنية والإعجاز، ولعل أول من أشار إليه كان الفراء (ت207هـ) في كتابه معاني القرآن، وذلك من خلال توقفه عند بعض الآيات التي تتل بالتشبيه، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)³، فقال: "أراد بالوردة الغرس، الوردة تكون في الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، ويقال "إن الدهان الأديم الأحمر."⁴

كما تنبه معاصره أبو عبيدة (ت210هـ) إلى التشبيه في القرآن الكريم، لكنه كان عنده مضطرب الدلالة فأحيانًا يصطلح عليه الكناية وأحيانًا أخرى بمصطلح التمثيل⁵. ويظهر ذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ)⁶، قال: "كناية وتشبيه."⁷

1 ينظر: المرجع نفسه: ص10.

2 حسين إسماعيل عبد الرزاق: "لآلئ التبيان في المعاني والبدیع والبيان"، مرجع سابق، ص61.

3 سورة الرحمن: الآية37.

4 الفراء: "معاني القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص117.

5 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص45-46.

6 سورة البقرة: الآية223.

7 أبو عبيدة: "مجاز القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص73.

ويجمع أغلب الدارسين أن تأصيل فن التشبيه يعود وبلا منازع إلى أبي عباس المبرد (ت285هـ)¹، حيث عقد له بابا مستقلا في كتابه "الكامل"، سماه باب التشبيه ذكر فيه التشبيه بأنواعه عند القدماء والمحدثين وما يستحسن منه ويستقبح²، غير أنه ومع هذا الجهد الطيب الذي قام به إلا أنه لم يركز على تشبيهات القرآن الكريم بقدر ما اهتم بعرض التشبيهات الواردة في أشعار العرب.

ولعل العناية بالتشبيهات القرآنية ظهرت بشكل جلي مع الدراسات الإعجازية لدى علماء الإعجاز، من أمثال الرماني (ت386هـ) الذي خصص له بابا تكلم فيه عن بلاغة التشبيه في القرآن الكريم، ومن الأمثلة التي أوردها قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)³.

ويعقب عليها قائلا: "فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكن بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمان أشد ما حرص عليه وتعلق قلب به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأمد في النار... وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم عذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة."⁴

وشاطره الرأي الإمام الباقلاني (ت403هـ) حيث عد التشبيه في القرآن من باب التشبيه الحسن وقدم مثالا عن ذلك، وهو قوله تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)⁵ غير أن المآخذ عليه أنه صنف التشبيه في باب البديع ولم يجعله من باب البيان⁶.

ثم يأتي بعد ذلك إمام البلاغة والبيان عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) فأفرد لهذا الفن -التشبيه- زاوية خاصة وكبيرة في مصنفه الذي خصصه لعلم البيان، والمتمثل في كتاب "أسرار البلاغة في علم البيان، بحيث بين مفهوم التشبيه وحلله تحليلا مفصلا مبرزا صورته الجمالية وقيمته البلاغية مع ذكره لجميع أنواعه بالشرح

1 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص324.

2 ينظر: أبو عباس المبرد: "الكامل في اللغة والأدب"، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية، دط، ص339.

3 سورة النور: الآية39.

4 الرماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص82.

5 سورة الرحمن: الآية24.

6 ينظر: الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص112.

والتفسير مستدلاً على ذلك بشواهد قرآنية وشعرية¹، وكان التشبيه التمثيلي هو ما حظي عنده بقسط كبير من الدراسة، لأنه يرى بأنه من أكثر صور التشبيه وروداً في القرآن الكريم²، يقول: "التمثيل جاء في أعقاب المعاني كساها أبعه، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستشار لها من أقاصي الأفتدة صباية وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيهامحبة وشغفا."³

وهذا ما اشتملت عليه تشبيهات القرآن الكريم، حيث يقول الزمخشري (ت538هـ) في تفسيره لقوله تعالى: (**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**)⁴، "ولضرب الأمثال... شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه شاهد... ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله..."⁵.

وتكلم عن هذا الضرب من التشبيه شيخ البلاغة القرآنية في العصر الحديث سيد قطب (ت1966م) وسماه بالتصوير الفني في القرآن الكريم، حيث يقول: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحوادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة"⁶.

وعلى العموم فإنّ في "القرآن الكريم كثير من التشبيهات والتمثيلات الآسرة نجد القرآن يتخذ من هذا الفن التعبيري وسيلة من وسائل الكشف والإيضاح، والتهذيب والتربية، والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، والتزيين والتقبيح، القوة والضعف والهداية والضلال والتعظيم والتحقير... إلى آخر هذه الأغراض، والهدف الديني هو الطابع المسيطر على كل ما في القرآن من تشبيه وتمثيل."⁷

1 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص262.

2 ينظر: عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة في علم البيان"، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ-2001م، ص85.

3 المصدر نفسه: ص85.

4 سورة البقرة: الآية17.

5 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص50-51.

6 سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مرجع سابق، ص36.

7 عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ج2، ص205.

والمتتبع للتشبيهات المذكورة في القرآن يجدها لا تخرج عن الآتي:

-تشبيهات للمؤمنين

-تشبيهات للكافرين

-تشبيهات عن مظاهر قدرة الله وعظمته¹.

أما فيما يخص أنواع التشبيه المذكورة في القرآن الكريم، فقد قسم البلاغيون التشبيهات باعتبار عدة، والنماذج القرآنية للتشبيه الواردة في سورة هود لا تكاد تخرج عن هذه الاعتبارات لذلك سنحاول تفصيلها على ضوء هذه الاعتبارات.

أ-باعتبارات الأداة: قسم البلاغيون التشبيه باعتبار الأداة إلى المرسل ومؤكد.

*التشبيه المرسل: وهو ما ذكرت فيه أداة التشبيه، نحو قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)²

فقد شبه الله سبحانه وتعالى أهل النار بالإنسان الأعمى والأصم، وأهل الجنة بالسَّمِيعِ والبصير ووظف لذلك الأداة الكاف وبهذا هو تشبيه مرسل.

*التشبيه المؤكد: هو ما حذف منه الأداة، نحو قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)³

ففي هذه الآية الكريمة شبه الله تعالى التوراة وهو الكتاب المنزل على سيدنا موسى بالإمام الذي يجب اتباعه والافتداء به وكأن الله تعالى يريد أن يقول لعباده مثلما اتبع من قبل التوراة فيجب أيضا اتباع القرآن الكريم⁴، وبهذا فقد شبه الكتاب السماوي بالإمام ووجه الشبه يكمن في الافتداء

ويرى البلاغيون بأن التشبيه أبلغ في المؤكد بدلا من المرسل لما فيه من إيجاز، كما يسمى التشبيه المرسل مظهرا في حين يسمى المؤكد مضمرا⁵.

¹ ينظر: المرجع نفسه: ص205-206.

² سورة هود: الآية 24.

³ سورة هود: الآية 17.

⁴ ينظر: دخيل الله الصحفي: "سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية"، رسالة دكتوراه، مصدر سابق، ص236

⁵ ينظر: عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية علم البيان"، مرجع سابق، ص71.

ب- باعتبار وجه الشبه:

* التمثيلي وغير التمثيلي: فالتمثيلي هو ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين و وسبق أن أشرنا إلى أنه من أكثر التشبيهات ورودا في القرآن الكريم أمّا غير التمثيلي فهو على خلافه. ومن نماذج التشبيه التمثيلي في سورة هود قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)¹

يظهر في هذه الآية تشبيه الله تعالى فريق الكافرين بالأعمى الذي لا يبصر والأصم الذي لا يسمع، وتشبيه في مقابل ذلك فريق المؤمنين بالبصير الذي يبصر والسميع الذي يسمع وكانت وسيلة ذلك الأداة مثل والكاف، أمّا عن وجه الشبه فهو صورة منتزعة من متعدد الظلام، النور، الجهل، الإيمان.

-المجمل والمفصل: المجمل هو ما لم يذكر فيه وجه الشبه نحو قوله تعالى: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾)².

ففي هذه الآية الكريمة شبه الله عزوجل موج الطوفان بالجبل في علوه وارتفاعه³ لكن لم يذكر في ذلك وجه الشبه وبالتالي جاء التشبيه مجملا.

أمّا المفصل هو الذي يذكر فيه وجه الشبه وهذا نوع من التشبيه لم نجد له مثل في سورة هود. *هناك أنواع أخرى للتشبيه منها:

-التشبيه البليغ: وهو ما ذكر فيه الطرفين-المشبه والمشبه به- وحذف الوجه والأداة، وسبب تسميته بهذا الاسم يعود إلى أن حذف الوجه والأداة يوهم إحلال الطرفين وعدم تقابلهما، فيعلوا المشبه إلى مستوى المشبه به، مما يضيف على التركيب تخيلا ومبالغة⁴.

ويعد التشبيه البليغ من أوجز أنواع التشبيه وأبلغها، ومثال ذلك قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)⁵، ففي هذه الآية الكريمة شبه الله

¹ سورة البقرة: الآية 261.

² سورة هود: الآية 42.

³ ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 484.

⁴ ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص 326.

⁵ سورة هود: الآية 17.

تعالى - كما ذكرنا سابقا- كتاب موسى عليه السلام بالإمام واكتفى في ذلك بذكر طريقي التشبيه المشبه "كتاب موسى" والمشبه به "إماما"، واستغنى عن الأداة ووجه الشبه وذلك من باب التشبيه البليغ.

-التشبيه الضمني: وهو تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب.¹

ومن نماذج التشبيه الضمني في سورة هود-على سبيل المثال -قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾)²

فهذه الآية الكريمة تضمنت تشبيها ضمينا حيث شبه الله تعالى الذين أعرضوا عن الحق بالإنسان الذي لا يسمع ولا يبصر.

غير أنّ البلاغيين لو يولوا اهتماما لهذا التشبيه في القرآن الكريم، حيث نجد أغلب استشهاداتهم من الشعر العربي.

إذن: هذه مجموعة من أنواع التشبيه في القرآن التي تضمنتها سورة هود تفصيلا ذكر بعض أمثلتها على سبيل المثال لا الحصر، لأن المقام لا يسع لذكرها جميعها. ومما لا شك فيه أنّ التشبيه في القرآن الكريم ميزات وخصائص إعجازية تفرد بها عن غيره من كلام العرب من ذلك:

-أولى هذه الخصائص أنّ التشبيه القرآني تشبيه مستمد من الطبيعة حيث "يتخذ من الطبيعة وظواهرها من سحب وأمطار، ورعد وبرق، وبحور وأنهار، وزروع وأشجار... مادة حية في تشبيهاته وتمثيلاتة"³، مما جعل من الطبيعة طبيعة تشخيصية تدب فيها الحياة والروح.

-تشبيهات القرآن الكريم تشبيهات عامة غير مقيدة ببيئة وزمن معين عكس ما هو جار في تشبيهات العرب الذي تعد صورة مقتصرة على البيئة البدوية.⁴

وهذا دليل على أنّ القرآن الكريم رسالة خالدة صالحة لكل زمان ومكان، كما أنّها لا تقتصر على عالم

1 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص242.

2 سورة هود: الآية 20.

3 عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ص280.

4 ينظر: بغدادادي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص266.

الشهادة بل تتعداه إلى عالم الغيب، كتشبيه الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، وأهوال القيامة... إلخ¹
 -الدقة وحسن الاختيار في العلاقة بين المشبه والمشبه به²، بالإضافة إلى التناسب والتناسق مع الغرض، حيث نراه إذا كانت في مقام التهيب أتى بتشبيهات مناسبة لذلك الغرض والعكس صحيح، ويعد "الغرض الديني هو السمة الظاهرة في جميع تشبيهات القرآن وتمثيله وليس بينها ما يخلو من هذه السمة"³، حيث يتخذ من الأسلوب التشبيهي والتمثيلي وسيلة للبيان والتهديب، والتربية والإصلاح والمدح والذم، والإرشاد والتوجيه.⁴
 وخلاصة القول: فإنّ القرآن الكريم قد نهج نهجا متفردا في عرضه للتشبيه لم يسبق وأن عرفته العرب، فهو تشبيه ذو بلاغة قرآنية مستمدة من وحي إلهي مقدس.

2/2: المجاز في سورة هود:

المجاز في اللغة من جوز، جزت الطريق، وجزاز الموضوع جوازا ومجازا: سار فيه وسلكه، وجاوزت الموضوع جوازا بمعنى جزته، والمجاز والمجازة الموضوع.⁵
 أمّا عن معناها في القرآن الكريم، نجد قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)⁶، أي تجاوز جوزه وجميع ما ورد من لفظ جوز في القرآن يعني المكان ذهبت فيه⁷.
 أما اصطلاحا: "فالمجاز اسم للمكان الذي يجاز فيه... وحقيقته هي الانتقال من مكان إلى آخر"⁸
 ثم أخذ هذا المعنى واستعمل في اصطلاح البلاغيين للدلالة على: "اللفظ المستعمل في غير ماوضع له لعلاقة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي."⁹
 وقد جعل البلاغيون المجاز في مقابل الحقيقة، فإذا كان المجاز: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له فالحقيقة هي: "الكلمة المستعملة فيما وضعت له."¹⁰

1 ينظر: المرجع نفسه، ص 267.

2 ينظر: أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص 155.

3 عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ص 279.

4 المرجع نفسه، ص 279.

5 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب" مرجع سابق، ج 1، ص 486.

6 سورة البقرة: الآية 249.

7 ينظر: الراغب الأصفهاني: "المفردات في غريب القرآن"، مصدر سابق، ص 103.

8 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية"، مرجع سابق، ص 289.

9 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 251.

10 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 272.

ومما ينبغي التنويه إليه في هذا المقام أن كلا منهما سواء الحقيقة أو المجاز لهما أثر بلاغي في أداء المعنى، فالحقيقة إذا وضعت في مقامها أدت بلاغة وبيانا، أما إذا تطلب المقام مجازا فإن البلاغة حينها تكون في المجاز¹.

وبناء على هذا فإنّ "الحقيقة والمجاز وسيلتان من وسائل التعبير لا تغني إحداهما عن الأخرى في نقل المعنى أو رسم الصورة، فها هو القرآن الكريم حافل بأساليب الحقيقة، وفنون المجاز جنبا إلى جنب، ولو كان أحدهما أمتع للأسماع، أو أجمع للفكرة لاقتصر عليه دون الآخر."² إذن وعلى هذا الأساس يتضح لنا أنّ لكلّ من الحقيقة والمجاز مقامهما المناسب في القرآن الكريم، والجدير بالذكر -في هذه الدراسة- هو موقع المجاز في القرآن الكريم.

فقد حظيت النصوص القرآنية بالكثير من التعابير المجازية، وذلك لأغراض وأسرار إعجازية بلاغية تنبه إليها المفسرون والبلاغيون في حقبة مبكرة من الزمن، وإن أنكر البعض القول بالمجاز في القرآن الكريم³، مبررين بذلك رأيهم في أنه "من الأولى أن يعبر القرآن عن أهدافه تعبيرا مباشرا بدلا من هذا التجوز المهم في الدلالة، وإذا كان من المعلوم أن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة، فهل يمكن أن يوصف الله سبحانه -هو الذي لا يعجزه شيء- بذلك؟"⁴

غير أنّ هذا الرأي -باتفاق جمهور البلاغيين- باطل ولو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوه من التوكيد والحذف، وتشية القصص وغيره، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شرط الحسن⁵.

ولعل أول إشارة للمجاز في القرآن الكريم كانت من قبل أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ) حيث ألف في ذلك كتابا سماه مجاز القرآن، غير أنّه استعمله بدلالة مغايرة عن المعنى البلاغي المتداول عليه، فلم

1 ينظر: محمد بركات حمدي أبو علي: "البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل"، الأردن، عمان، دار البشير، ط1، 1412هـ - 1992م، ص28.

2 عبد الفتاح لاشين: "البيان في ضوء أساليب البيان"، القاهرة، دار الفكر العربي، ط1، 1418هـ - 1998م، ص282-283.

3 أصحاب المذهب الظاهري أمثال: داود بن علي الأصبهاني، وابن القاص وغيرهم من الظاهريين هم الذين قالوا بعدم وجود المجاز.

4 المرجع نفسه: ص133.

5 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج2، ص255.

يكن عنده مفهوم المجاز الذي هو بخلاف الحقيقة، بل كان مراده منه هو التوصل إلى فهم المعاني القرآنية وإبانتها وتفسيرها¹.

كما تطرق إلى موضوع المجاز الفراء (ت207هـ)، ولم يخالف رأي معاصره أبي عبيدة في مفهومه له². ويذهب معظم الدارسين إلى أنّ الجاحظ (ت255هـ) "أول باحث يعد المجاز مقابلاً للحقيقة-بالمعنى المعروف الآن- وليس بمعنى التفسير- كأبي عبيدة- وقد كانت دراسة الجاحظ للمجاز صورة صادقة للبحوث المعتزلة، فقد اختلف مع أهل الظاهر وأصحاب الحديث في المجاز، وخاض معهم بسببه المعارك، واتهمهم بالنقض في الإدراك وعدم الفهم، وقصر الإمام بدقائق الأسلوب القرآني"³.

فقد عقد الجاحظ في كتابه الحيوان باباً سماه "باب آخر في المجاز والتشبيه"، وقدم عن ذلك أمثلة عن المجاز في القرآن الكريم⁴، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا)⁵، فقد قال عن هذه الآية الكريمة "وهذا مجاز"⁶.

غير أن المأخذ على "الجاحظ في مفهومه للمجاز وتعريفه له لا يفرق بين أنواعه المختلفة فكله قد عدل عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فيه تحوير ومجاز"⁷.

وقد حذا ابن قتيبة (ت276هـ) حذو الجاحظ في مفهومه للمجاز، إذ نظر إليه نظرة بلاغية نوعاً ما فكان عنده المجاز مقابل الحقيقة، غير أن الملاحظ عليه أن نظرتة هذه كانت نظرة مضطربة، إذ جعل جميع أنواع البيان مندرجة تحت مصطلح المجاز، ولم يكتف بهذا بل زاد على ذلك مصطلحات علم المعاني، حيث نجده يقول: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول وما أخذها، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح"⁸.

1 ينظر: عبد الفتاح لاشين: "البيان في ضوء أساليب البيان"، مرجع سابق، ص129، وينظر أيضاً: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص589.

2 ينظر: المرجع نفسه: ص129.

3 ينظر: المرجع نفسه: ص129.

4 ينظر: الجاحظ: "الحيوان"، مصدر سابق، ج5، ص25.

5 سورة النساء: الآية10.

6 الجاحظ: المصدر السابق، ص25.

7 أحمد العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص97.

8 ابن قتيبة: "تأويل مشكل القرآن"، مصدر سابق، ص78-79.

كما يرى ابن قتيبة بأن القرآن الكريم لم يخرج عن إطار هذه المجازات، إذ يقول: "وبكل هذه المذاهب نزل القرآن."¹

يستنتج من كل هذا أنّ نظرة البلاغيين الأوائل إلى المجاز لم تكن نظرة دقيقة واضحة، بل كانت نظرة يكتنفها الغموض والشمولية الاضطراب.

ومما لا شك فيه أن المجاز مصطلح بلاغي أبدى نفسه بشكل رسمي على يد علامة البيان عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) شأنه في ذلك شأن المصطلحات البلاغية الأخرى، إذ لا يمكن لأي كان أن ينكر فضل عبد القاهر الجرجاني في تفعيد مباحث البلاغة العربية، وتحديد مفاهيم مصطلحاتها، والتي يعد المجاز واحدا منها، فقد عني عبد القاهر الجرجاني بفن المجاز وتكلم عنه في كتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وعرفه بقوله: "وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز."²

ويعرفه كذلك تعريفا آخر فيقول: "أما المجاز فقد عول الناس في حده على حديث النقل، وأن كل لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز."³

يستنتج من هذا أنّ عبد القاهر الجرجاني قد حدد مفهوم المجاز تحديدا مفاهيميا دقيقا كما تناوله من ناحيتين اثنتين هما: المجاز العقلي والمجاز المرسل موضعا بذلك علاقة كل منهما⁴.

ولم يصف من أتى من البلاغيين بعد عبد القاهر الجرجاني شيئا سوى سلوك مسلكه مع نوع من التّبويب والتنظيم أمثال الرازي والسكاكي والخطيب القزويني.

فها هو الرّازي (ت606هـ) يعقد فصلا للمجاز في كتابه نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز يقول فيه بأنّ "المجاز مفعّل من جاز الشيء إذا تعداه إذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا"⁵.

1 المصدر نفسه: ص79.

2 عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة"، مصدر سابق، ص351.

3 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص66.

4 ينظر: عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة"، مصدر سابق، ص414.

5 الرازي: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، مصدر سابق، ص46.

يظهر من هذا التعريف أنّ الرازي لم يضيف شيئاً عما قاله عبد القاهر الجرجاني عن المجاز، كما أن المطلع على مباحث المجاز في كتاب نهاية الإيجاز يلمح نوعاً من الشرح المطنب خصوصاً في ذكر أنواعه وتقسيماته.¹

أمّا عن السكاكي (ت626هـ) فربما كان أحسن من سابقه في التنظيم والاختصار، وحسن التحديد فعرف المجاز بقوله: "هو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق، استعمالاً في الغير، بالنسبة إلى نوع

حقيقتها، مع قرينة مانعة من إرادة معناها."²

وقسم السكاكي المجاز إلى قسمين فقال: "واعلم أن المجاز عند السلف من علماء هذا الفن قسمان: لغوي... عقلي"³.

وحذا حذوه تلميذه القزويني (ت739هـ) فقال بأنّ المجاز "هو ما استعمل فيما لم يكن موضوعاً له"⁴.
وحصره في ضربين هما: المجاز المرسل والاستعارة.⁵

كما تكلم القزويني عن مجاز آخر وهو المجاز العقلي غير أنّه لم يدرجه تحت مباحث علم البيان، وإنما وضعه ضمن مباحث علم المعاني، لما فيه من علاقة التركيب الإسنادي.⁶

لكن أغلب الدارسين يرون عدم صحة ما ذهب إليه القزويني، فالجواز العقلي أصل من المجاز ككل، ولا بد له أن يندرج ضمن مباحث علم البيان ولا ينفصل عنها.

وبناء على هذا فقد أجمع علماء البلاغة المتأخرون على أن المجاز قسمان هما:

-المجاز العقلي.

-المجاز اللغوي: هذا الأخير الذي حصروه في نوعين هما: المجاز المرسل والاستعارة⁷، غير أنّ البعض عدّ الاستعارة مبحثاً خاصاً منفصلاً عن المجاز، وهذا ما حبذناه وملنا إليه.

¹ ينظر: المصدر نفسه: ص47-49.

² السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص359.

³ المصدر نفسه: ص362.

⁴ الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص272.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص276.

⁶ المصدر نفسه: ص27-28.

⁷ ينظر: ابن عبد الله شعيب: "البلاغة العربية الواضحة-علم البيان"، مرجع سابق، ص55.

"ولم يكن المجاز القرآني بمنأى عن الإطار العام لتقسيم المجاز في البيان العربي، شأنه بذلك شأن الأركان البلاغية التي يقوم على أساسها الفن القولي، فقد استقطب القرآن الكريم شتى صنوفها ومختلف تقسيماتها، وحفلت سوره وآياته بأبرز ملامحها وأصدق مظاهرها، حتى عاد تقسيمها خاضعا لأحكام القرآن البلاغية، ولم يكن القرآن خاضعا لتلك التقسيمات في حال من الأحوال، لأنها مستمدة من هديه، وسائرة بركاب مسيرته البيانية المعجزة، وهكذا بالنسبة للمجاز فهو عند البلاغيين نوعان، لأنه في القرآن نوعان: مجاز لغوي ومجاز عقلي بغض النظر عن التفريعات الأخرى التي لا تتعدى حدود التقسيم العام، أو هي جزئيات تابعة لكلي المجاز باعتباره عقليا أو لغويا.¹

ومن هذا المنطلق سنحاول أن نقف على كل من المجاز العقلي والمجاز المرسل ونتعرف على علاقات كل منهما من منظور سورة هود.

***المجاز العقلي في سورة هود:** يقصد بالمجاز العقلي "إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ماهو له بتأول.²

وتعود تسمية هذا النوع من المجاز إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي جعل المجاز في ضربين أحدهما عقلي والآخر لغوي.³

ويسمى أيضا بالمجاز الإسنادي لتعلقه بالإسناد أو التركيب⁴، وسمي كذلك لأنه متلقى من جهة إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له.

"وللفعل ملابس شتى يلبس الفاعل، المفعول به، والمصدر، والزمان والمكان والسبب"⁵.

وعلى أساس هذه الملابس أسس البلاغيون علاقات المجاز العقلي، والتي شئنا أن نذكرها استنادا لما قاله الدكتور حسن عبد الرزاق في منظومته الشعرية لعلوم البلاغة، حيث قال:

"إذا أسند الفعل لغير الأصل	لصلة فهو مجاز عقلي
لكن بشرط أن ترى قرينة	معلنة مجازه ميينه
فكل ذا يلبس المفعولا	كعيشة راضية قـبولا

1 محمد حسين علي الصغير: "مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية"، لبنان، بيروت، دار المؤرخ، دط، دت، ص 69.

2 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 28.

3 ينظر: عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة"، مصدر سابق، ص 258.

4 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص 591.

5 الخطيب القزويني: "المصدر السابق"، ص 28.

وفاعلا في مثل سيل مفعم
ومصدرا في جد جدتهم همو
كذا زمانا، أو مكانا إذ ترى
صام النهار، وجرى النهار وجرى
وفي بني الأمير قصر الذهب
إذا أسندوا الفعل به للسبب¹

وبطبيعة الحال لا يعرف المجاز العقلي إلا "باعتبار طرفيه المسند والمسند إليه لأنه إنما يقع في الجملة، والجملة تعرف بالتركيب، ولا علاقة لذلك بالألفاظ ذاتها دون إسنادها².

وأكد أن للمجاز العقلي موقعه في القرآن الكريم، وخير دليل على ذلك ما وقع منه في سورة هود، فقد تجلت بعض علاقات المجاز العقلي في مواضع من سورة هود في ذلك:

1- الزمانية: هي ما بني فيها الفعل للفاعل وأسند إلى الزمان.³

وكانت العلاقة الزمانية أول نماذج المجاز العقلي في سورة هود، وذلك في قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)⁴

فالمجاز يظهر في قوله تعالى: (فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)، ويقصد باليوم الكبير يوم القيامة، ووصف هذا اليوم بالكبير كما وصف بالعظم والثقل.⁵

" والمراد بالكبير الكبير المعنوي، وهو شدة ما يقع فيه، أعني العذاب، فوصف اليوم بالكبير مجاز عقلي"⁶، علاقته الزمانية.

ونفس الأمر يظهر في قوله تعالى: (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)⁷، ففي وصف اليوم بالأليم مجاز عقلي علاقته الزمانية لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليما⁸.

-المفعولية: هي " ما بني للفاعل وأسند إلى المفعول به"¹

1 حسن عبد الرزاق: "الآلئ التبيان في المعاني والبديع والبيان"، مرجع سابق، ص27.

2 ينظر: محمد الصغير: "مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية"، مرجع سابق، ص123.

3 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص594.

4 سورة هود: الآية3.

5 ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص477.

6 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج11، ص319.

7 سورة هود: الآية26.

8 ينظر: الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج12، ص44.

ومما ورد عن هذه العلاقة في سورة هود، قوله تعالى: (قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)².

ففي قوله تعالى: "لا عاصم..." مجاز عقلي حيث يلاحظ أن عاصم مبني للفاعل وأسندت للمفعول مجازاً على سبيل العلاقة المفعولية وذلك لأن "عاصم بمعنى ذي عصمة... وذو عصمة مطلق على عاصم وعلى معصوم، والمراد به هنا المعصوم أو فاعل بمعنى مفعول، فيكون عاصم بمعنى معصوم، كما دافق بمعنى مدفوق."³

3- السببية: هي ما بني في الأصل للفاعل وأسند إلى السبب.⁴

وتتجلى هذه العلاقة في سورة هود في قوله تعالى: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)⁵.

ففي إسناد الأمر للصلاة مجاز عقلي علاقته السببية لأن الصلاة لا تأمر، وإنما هي سبب في ذلك أي تأمره بأن يحملهم على ترك ما يعبد آباؤهم، واستعملت في ذلك مجازاً لغرض التهكم والسخرية.⁶

وخلاصة ما نخرج به من حديثنا عن المجاز العقلي هو أنه على الرغم من أن سورة هود اقتضت على هذه العلاقات الثلاث من زمانية ومفعولية وسببية إلا أن غيرها من فاعلية، ومكانية ومصدرية موجود في مواضع أخرى من القرآن الكريم، فالجواز العقلي أسلوب بلاغي منتشر بكثرة في القرآن الكريم لما فيه من أصالة بلاغية وأسرار إعجازية كان الغرض منها التنقل بالذهن العربي إلى آفاق جديدة من التعبير الموحى والبيان المطلق متلائماً في ذلك مع الطبيعة الإنسانية وفطرتها النقية.⁷

ب- المجاز المرسل في سورة هود: يعد المجاز المرسل نوعاً من أنواع المجاز اللغوي، ويسمى أيضاً بالمجاز الإفرادي أو المفرد⁸، ويقصد به "الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة غير المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي"¹.

1 أحمد مطلوب: "المرجع السابق"، ص 594.

2 سورة هود: الآية 43.

3 أبو حيان الأندلسي: "تفسير البحر المحيط"، مصدر سابق، ج 5، ص 227.

4 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص 594.

5 سورة هود: الآية 87.

6 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 12، ص 141.

7 ينظر: محمد الصغير: "مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية"، ص 125-133.

8 ينظر: أحمد مطلوب: "المرجع السابق"، ص 595.

وسمي هذا النوع من المجاز مرسلًا لأنه مطلق من قيد علاقة المشابهة بخلاف الاستعارة المقيدة بذلك فهو يقوم على علاقات كثيرة²، أشهرها ما ذكره الدكتور حسين عبد الرزاق فقال:

له علاقات بدت كثيرة إليك منها هذه الشهيرة
السببيه، المسببيه ولازميه وملزوميه
جزئيه، كليه، حاله ماكان، ما يكون، أو آليه³

ونحن في هذا المقام⁴ في غنى عن القول بانتشار المجاز المرسل في القرآن، فذلك أمر لدلائله وشواهد في القرآن العظيم، والسبب في هذا الذبوع، وذلك الانتشار أن المجاز المرسل هو وسيلة العربية في إضافة المعاني الجديدة، وهو وسيلة اللغة في الإضاءة والتنوير، وهو طريق المبدعين في الإفاضة والبيان، وانتشار ذلك في القرآن درية لأهل اللغة من وجه، ودليل على الإعجاز البياني من وجه آخر.⁴

وسنحاول ذكر أشهر علاقات المجاز المرسل على ضوء ما ورد منها في سورة هود.

1- السببية: وهي العلاقة التي يطلق لفظ السبب ويراد المسبب.⁵

وقد وردت في قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)⁶.

فالتعبير المجازي يظهر في قوله تعالى: (ما كانوا يستطيعون السمع)، حيث يرى صاحب البرهان أن هذا مجاز من باب إيقاع السبب موقع المسبب⁷، فقد أطلق "اسم السميع على القبول... أي ما كانوا يستطيعون قبول ذلك والعمل به، لأن قبول الشيء مرتب على سماعه ومسبب عنه، ويجوز أن يكون نفي السمع لا بتغاء فائدته.⁸

1 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص252.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص252.

3 حسين عبد الرزاق: "الآلئ التبيان في المعاني والبديع والبيان"، مرجع سابق، ص79.

4 محمد الصغير: "مجاز القرآن-خصائصه الفنية وبلاغته العربية"، مرجع سابق، ص146.

5 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص596.

6 سورة هود: الآية20.

7 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج2، ص260.

8 المصدر نفسه: ص261.

وببساطة فإن "كلمة السمع" في الآية الكريمة مجاز مرسل علاقته السببية لأن الآية عبرت بالسبب وهو السمع، وأراد المسبب وهو القبول، ومن المعلوم أن السمع سبب القبول.

كما تظهر هذه العلاقة كذلك في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ...)¹

ويتمثل المجاز في هذه الآية في قوله تعالى: (وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي) لأن الحقيقة والأصل يامطر السماء²، فأطلق السبب وهو السماء وأريد المسبب وهو المطر.

ومثالها أيضا قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)³.

فالمجاز يتجلى في قوله تعالى: (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)، أي يرسل عليكم مطرا غزيرا⁴، وليس سماء، ولما كانت السماء سببا في المطر، أطلقت عليه من باب المجاز المرسل، والعلاقة هي السببية.

والمتبع للمقامات التي ذكرت فيها العلاقة السببية سواء في سورة هود أو في القرآن الكريم بصفة عامة يلمح بأنّ القصد من ذلك إظهار أهمية السبب وارتباطه القوي بالمسبب.⁵

2- المُسَبِّبِيَّة: وهي عكس العلاقة السببية حيث يذكر لفظ المُسَبَّب ويراد السَّبب.⁶

ومن أمثلتها في سورة هود قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)⁷

فالمجاز يظهر في كلمة "رحمة"، لأن المقصود بها النبوة والرسالة ولما فيها من الهداية كانت رحمة للخلق⁸، فقد ذكر المسبب وهو الرحمة وأريد به السبب وهو النبوة، وبالتالي فالعلاقة المجازية هي المسببية.

1 سورة هود: الآية 44.

2 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 318، وينظر أيضا: عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني"، مرجع سابق، ج 2، ص 462.

3 سورة هود: الآية 52.

4 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 12، ص 378.

5 ينظر: بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص 378.

6 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص 596.

7 سورة هود: الآية 63.

8 ينظر: أبو عبد الله القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1428هـ -

2006م، ج 11، ص 102.

ولعل التعبير بلفظ المسبب في القرآن الكريم يكون في المقامات التي تتطلب إظهار أهمية المسبب وارتباطه بالسبب.

3-الكلية: وهي "ما ذكر الكل وأريد الجزء"¹.

وقد تمثلت هذه العلاقة في سورة هود في قوله تعالى: (وَتِلْكَ آيَاتُ رُسُلِهِمْ وَعَصُوا رُسُلَهُ وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)²،

ففي قوله تعالى: (وَعَصُوا رُسُلَهُ)، تعبير مجازي لأن المراد به: "عصوا رسولهم هودا وفيه تفضيع لحالهم، وبين أن عصيائهم لجميع الرسل السابقين واللاحقين، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض"³. معنى هذا الكلام وبعبارة أبسط أن قوله تعالى: (وَعَصُوا رُسُلَهُ...) مجاز مرسل علاقته الكلية وذلك لأن كلمة رسله أطلقت بصفة الكل لكن الله سبحانه وتعالى أراد بها الجزء وهو الرسول هود عليه السلام لأنه هو الذي أرسل إلى قوم عاد.

4-الجزئية: هي عكس الكلية، فهي العلاقة التي يكون الجزء فيها مذكورا، ولكن المعنى المراد هو الكل.⁴ ومثالها في سورة هود، قوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)⁵

ويتجلى المجاز في هذه الآية الكريمة في كلمة "أعينكم"، فقد أطلق الجزء وهو الأعين وأريد الكل وهو الأنفس، وبالتالي العلاقة المجازية هي العلاقة الجزئية.

5-المحلية: وهي العلاقة التي يذكر فيها المحل ويراد بها الحال⁶، أو ما يحل به.

ومن نماذجها في سورة هود قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)⁷.

1 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص596.

2 سورة هود: الآية 59.

3 محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص25.

4 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص255.

5 سورة هود: الآية 31.

6 ينظر: أحمد مطلوب: "المرجع السابق"، ص596.

7 سورة هود: الآية 102.

فالتعبير المجازي يظهر في قوله تعالى: (أَخَذَ الْقَرْيَ)، لأنّ القرى لا تأخذ لأنّها محل ومكان، وإّما المراد

هو أخذ أهلها الظالمين المكذابين.¹

وبهذا ففي كلمة القرى مجاز مرسل علاقته المحلية لأنّه ذكر المحل-القرى- وأراد به أهله.

كما تظهر هذه العلاقة أيضا في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ)². ففي كلمة "القرى" مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المقصود بالقرى أهلها³.

6-الحالية: وهي عكس المحلية، وهي "ما ذكر لفظ الحال وأريد المحل"⁴.

ومن نماذجها التي استوقفنا في سورة هود قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)⁵.

ففي كلمة "مغفرة" مجاز مرسل علاقته الحالية لأنّ المقصود بالمغفرة الجنة⁶، ولما كانت المغفرة حال من أحوال أصحاب الجنة، ذكر الحال وهو المغفرة، وقصة المحل وهو الجنة.

7-اعتبار ما يكون: وهي عكس اعتبار ما كان⁷، وهي التي يعبر بها عن الشيء باعتبار ما سيؤول إليه⁸، أي هو النظر باعتبار ما سيأتي.

وقد وردت هذه العلاقة في سورة هود في قوله تعالى: (وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)⁹.

فالمجاز يظهر في قوله تعالى: (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ...) وهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، فالله سبحانه وتعالى بشر سارة زوجة ابراهيم عليه السلام ستلد ولدا اسمه اسحاق واسحاق بدوره سيولد ابنا اسمه

1 ينظر: محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص33.

2 سورة هود: الآية 103.

3 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص186.

4 أحمد مطلوب: "المرجع السابق"، ص596.

5 سورة هود: الآية 11.

6 ينظر: أبو حيان الأندلسي: "تفسير البحر المحيط"، مصدر سابق، ج5، ص207.

7 والمراد باعتبار ما كان هي العلاقة التي يعبر عن الشيء بصفته التي كان عليها في الماضي، ولم ترد هذه العلاقة المجازية في سورة هود.

8 ينظر: بسويوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص383.

9 سورة هود: الآية 71.

يعقوب وسيكونان نبين، أي بشرت بولد يكون نبيا ويلد نبيا¹، والنبوة لا تعطى للطفل أو الجنين في بطن أمه، وإنما عندما يبلغ أشده.

وبهذا فزوجة ابراهيم عليه السلام بشرت بولادة ابنها إسحاق وابنه يعقوب واللذان سيكونان نبين مستقبلا.

وبهذا فإنّ لهذه العلاقة-اعتبار ما سيكون-أثر إعجازي في القرآن الكريم يكمن في الإخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا الحق سبحانه وتعالى.

8- الآلية: "هي أن يعبر عن الشيء باسم آله التي يحصل بها"².

وقد تمثلت هذه العلاقة في سورة هود في قوله تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ³)، ففي هذه الآية الكريمة مجاز، وذلك في لفظي: (الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)، إذ المقصود لا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن، ولما كان الميزان والمكيال هو الآلة التي يقوم بها العدل في وزن حقوق الناس من غير يحسه ولا تطفيف فقد أطلق عليه من باب العلاقة الآلية للمجاز المرسل.

وهذا ما أكدته الشنقيطي في تفسيره للآية الكريمة، حيث قال: "والمراد بهما هنا المكيال والموزون من إطلاق الآلة على ما يعمل بها، والتعبير عن الشيء بآله أسلوب عربي... وهو من المجاز المرسل عند علماء البلاغة"⁴. وخلاصة القول: فإن ما اقتضت عليه سورة هود من نماذج لبعض علاقات المجاز المرسل ما هو إلا قليل من كثير، فالبلاغة القرآنية تحفل بالكثير من المجازات.

ومما لاشك فيه أنّ القرآن الكريم حين استعمل هذه الصور المجازية سواء عقلية كانت أم مرسلة، فإنه لم يقصد هذه الصورة لذاتها، وإنما لغايات وأهداف إعجازية تتناسب مع الغاية الكبرى، وهي هداية الناس إلى الطّريق المستقيم.

كما أنّ الملاحظ أنّ القرآن الكريم لم يخرج عن سنن العرب في استعمالها للمجاز، لكنه أتى بتلك الصور المجازية بطريقة متفردة لا ترقى إليها أي بلاغة من بلغاء العرب، حيث أنّ للمجاز القرآني خصائصه

¹ ينظر: أبو حيان الأندلسي: "المصدر السابق"، ج 5، ص 243.

² بسيوني فيود: "المرجع السابق"، ص 388.

³ سورة هود: الآية 84.

⁴ محمد الأمين الشنقيطي: "معارج الصعود إلى تفسير في سورة هود"، مصدر سابق، ص 205.

التي انفرد بها والتي بلغت دروة الإعجاز الإلهي وبرهنت على روعة وجمال البلاغة الربانية، إذ وجدنا أن "المجاز القرآني يقود اللفظ إلى ماهو أرجح معنى، وأرق حسنا في حالة النقل مما كان عليه قبلها، وإن أراد صورة متداعية في القبح ساق اللفظ إلى ما يماثل تلك الصورة بما هو أردأ منه في صيغته الحقيقية، فكان ذلك مجالا فريدا." ¹

3- الاستعارة في سورة هود:

تعد الاستعارة أحد الصور البيانية المهمة، التي استحوذت على أقلام الدارسين والباحثين البلاغيين، فقد كتب عنها الكثير، وقيل عنها مالا يمكن في وريقات صغيرة، وذلك لارتباطها الوثيق بالبلاغة العربية على وجه العموم، والبلاغة القرآنية على وجه الخصوص.

وقبل الخوض في الحديث عن موقع الاستعارة في سورة هود لا بد من الوقوف وقفة عابرة مفهوم هذا المصطلح البلاغي البياني.

فلاستعارة في اللغة مأخوذة من عور، وعارية والعارية هي نقل الشيء من شخص إلى آخر، وأعاره الشيء واستعاره طلب منه أن يعيره إياه، والمعاورة والتعاور المداولة والتداول، ويكون بين اثنين ².

أما اصطلاحاً: "هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي" ³.

وهناك من يقول عن الاستعارة بأنها "ليست إلا تشبيها مختصراً" ⁴، أي تشبيه حذف أحد طرفيه.

وعلى هذا الأساس تعد الاستعارة نقطة التلاقي بين التشبيه والمجاز.

ونظراً لأهميتها ورونقها البلاغي، فقد لفتت الاستعارة أنظار البلاغيين إليها منذ القدم، فما من أحد منهم إلا وأشار إليها أثناء دراسته لمباحث البلاغة العربية سواء قديماً أو حديثاً.

ومما لا شك فيه أنّ الاستعارة كمصطلح بلاغي بدأت تظهر ملامحه مع الدراسات البلاغية الإعجازية للقرآن الكريم شأنها في ذلك شأن المصطلحات البلاغية جميعها حيث أنه كان للبحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سبيلاً وطريقاً للوقوف على البلاغة العربية بعلومها المختلفة. ⁵

1 محمد الصغير: "مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية"، مرجع سابق، ص 169.

2 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 4، ص 464.

3 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 258.

4 المرجع نفسه: ص 258.

5 أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص 34.

ولعل أولى الإشارات البلاغية للاستعارة القرآنية كانت من قبل الفراء (ت207هـ) ومعاصره أبي عبيدة (ت209هـ)، فقد تنبه كلاهما إلى هذه الصورة البيانية أثناء تفسيرهما للقرآن الكريم، حيث وقفا عند مواطن الاستعارة في القرآن الكريم لكن لم يصرحا بها كمصطلح بلاغي ولم تحدد دلالتها المفهومية¹. وقد أجمع أغلب الدارسين على أنّ الجاحظ (ت255هـ) هو أول من عرف الاستعارة تعريفا فنيا بلاغيا وأفاض في الحديث عن ذلك مستشهدا على ذلك بنماذج شعرية وقرآنية من ذلك شرحه للبيت الشعري القائل:

"وظفت سحابة تغشاها تبكي على عراصها عيناها"²

حيث يقول: "تبكي على عراصها عيناها، عيناها ها هنا للسحاب، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، وتسميه الشيعي بغير اسمه إذا قام مقامه"³.

كما يعد ابن قتيبة (ت276هـ) من الأوائل الذين اهتموا بالاستعارة، وبالأخص الاستعارة القرآنية، فقد أفرد لها بابا في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، بدأه بقوله "ونبدأ بباب الاستعارة، لأن أكثر المجاز يقع فيه"⁴. ويستنتج من هذا أن ابن قتيبة كان أول من تنبه إلى أن الاستعارة نوع من أنواع المجاز وعرفها بقوله: "فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها سبب من الأخرى أو مجاورا لها، أو مشاكلا"⁵.

وقدم على ذلك نماذج من القرآن الكريم حيث يقول: "فمن الاستعارة في كتاب الله قوله عز وجل: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ)⁶، أي عن شدة من الأمر... وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه شمر عن ساقه فاستعيرت الساق في موضع الشدة"⁷.

ولكن وعلى الرغم من تعريف ابن قتيبة للاستعارة والاستشهاد عليها بنماذج قرآنية وشعرية، إلا أن المآخذ

1 ينظر: المرجع نفسه: ص47-54.

2 ينظر: عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية-علم البيان"، مرجع سابق، ص168، وينظر أيضا: عبد الفتاح لاشين: "البيان في ضوء أساليب البيان"، مرجع سابق، ص159.

3 الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج1، ص152.

4 ابن قتيبة: "تأويل مشكل القرآن"، مصدر سابق، ص134.

5 المصدر نفسه: ص135.

6 سورة القلم: الآية42.

7 ابن قتيبة: "المصدر سابق"، ص137.

عليه أنّ الاستعارة عنده لا تزال مضطربة الدلالة مختلطة مع الصورة البيانية الأخرى¹. وبقيت الاستعارة على هذا الاضطراب مصطلحا ومفهوما وتصنيفا حيث نجد أن ابن المعتز(ت296هـ) تكلم عنها في كتابه البديع، وعدها الباب الأول من أبواب البديع وعرفها بقوله: هي "استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها"². واستدل على ذلك بنماذج من القرآن الكريم، والحديث النبوي وكلام الصحابة الكرام وأشعار العرب الأقياح.

ومن نماذج الاستعارة القرآنية التي ذكرها ابن المعتز قوله تعالى: (وَإخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)³، بالإضافة إلى أمثلة قرآنية أخرى تضمنت معنى الاستعارة⁴.

ومما يلاحظ على رأي ابن المعتز في دراسته للاستعارة أنه وفق في تحديد مفهومها الاصطلاحي البلاغي لكن أخطأ في التصنيف، حيث عدها ضمن مباحث علم البديع لا مباحث علم البيان. وظل معنى الاستعارة على هذا الحال من الاضطراب مترددا عند عدد كبير من البلاغيين أمثال: المبرد(ت285هـ)، والرماني(ت384هـ) وأبي الهلال العسكري(ت395هـ) وغيرهم⁵.

حتى جاءت العبقرية البلاغية الفذة إمام البلاغة وشيخها عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) فأولى لها اهتماما بالغا ودقق في مفهومها وتصنيفها، حيث نجده قد تكلم عنها في كتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وأسهب في ذلك حتى أنه لم يترك لمن أتى بعده شيئا يضيفونه سوى احتذاء خطاه وسلوك مسلكه.

ومن التعريفات التي قدمها عبد القاهر الجرجاني عن الاستعارة قوله: "الاستعارة: أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيئ إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه"⁶.

1 ينظر: أحمد جمال العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، مرجع سابق، ص65.

2 ابن المعتز: "البديع"، مصدر سابق، ص2.

3 سورة الإسراء: الآية24.

4 ينظر: ابن المعتز: "المصدر نفسه"، ص3.

5 ينظر: عبد الفتاح لاشين: "البيان في ضوء أساليب البيان"، مرجع سابق، ص160.

6 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص67.

ويعرفها تعريفاً آخر فيقول: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هنا كالعارية."¹

وقد جعل عبد القاهر الجرجاني الاستعارة وجهاً من وجوه الإعجاز في النظم القرآني حيث يقول: "فإن قيل قولك: "إلا النظم" يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز، وذلك مالا مساغ له، قيل: ليس الأمر كما ظننت، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز."²

وإن كان عبد القاهر الجرجاني قد تكلم عن الاستعارة بصفة جملة، فإنّ جار الله الزمخشري (ت538هـ) قد خصص حديثه عن الاستعارة من خلال وقوفه على نماذجها في القرآن الكريم، حيث كان يتوقف عند الآية المتضمنة معنى الاستعارة ويشرحها ويبين سرها البلاغي، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)³.

فيقول الزمخشري عن هذا: "النقض: الفسخ وفك التركيب، فإن قلت من أين ساغ استعمال النقص في إبطال العهد؟ فقلت: من حيث تسميتهم العهد بالحيل على سبيل الاستعارة... وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روافده، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه"⁴.

إذن: فقد تنبه الزمخشري إلى مواطن الاستعارة في القرآن الكريم، وأعطى من خلال ذلك مفهوماً شاملاً مانعاً للاستعارة.

ولم يزد من أتى بعد عبد القاهر الجرجاني والزمخشري شيئاً سوى الترتيب والتنظيم والتصنيف أمثال أبو يعقوب السكاكي (ت626هـ) وتلميذه الخطيب القزويني (ت739هـ)، إذ أفرد السكاكي فصلاً للاستعارة

1 عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة"، مصدر سابق، ص31.

2 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص393.

3 سورة البقرة: الآية 27.

4 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص68.

أدرجه تحت مباحث علم البيان واستهله بتعريف الاستعارة فقال: "هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به." ¹ ثم أعقب هذا التعريف بذكره لأقسام الاستعارة فقال: "فاعلم أن الاستعارة تنقسم إلى مصرح به ومكني عنها، والمراد بالأول: هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه، هو المشبه به، والمراد بالثاني أن يكون الطرف المذكور هو المشبه" ².

فالاستعارة عند السكاكي تنحصر في نوعين أساسيين هما: الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية بالإضافة إلى أنواع أخرى متفرعة عنهما ³.

وتبعه في ذات المنهج تلميذه الخطيب القزويني (ت739هـ)، حيث لم يصف هذا الأخير شيئاً ذات أهمية عن أستاذه، فهو كذلك استهل حديثه عن الاستعارة بإعطاء مفهوم لها كمصطلح بلاغي بياني فقال: "الضرب الثاني من مجاز الاستعارة، وهي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له" ⁴.

ثم تبع هذا التعريف بشرح لأنواع الاستعارة مع التمثيل لذلك بشواهد من القرآن الكريم والشعر العربي. وبعد هذه الوقفة مع جهود البلاغيين في تعييدهم لمصطلح الاستعارة نخلص إلى أن الاستعارة هي مجاز يقوم على علاقة المشابهة، ولا تحقق إلا بتوفر أركان ثلاثة هي:

1- المستعار منه: وهو المشبه

2- المستعار له: المشبه

3- المستعار: اللفظ المنقول ⁵.

وعلى أساس هذه الأركان قسم علماء البلاغة الاستعارة إلى قسمين أساسيين هما:

الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية، بالإضافة إلى تقسيمات فرعية تعود لاعتبارات أخرى، إلا أن الأجدر بالدراسة هما هذين النوعين. ⁶

1 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص369.

2 المصدر نفسه: ص373.

3 من الأنواع الفرعية للاستعارة: التحقيقية والتخييلية، القطعية، الاحتمالية الأصلية، التبعية، المجردة، الترشيحية.

4 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص285.

5 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص250.

6 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص87.

وما يهمننا في هذا المقام هو موقع الاستعارة في البلاغة القرآنية، إذ من المؤكد أن الاستعارة قد تجلت في القرآن الكريم، بل ونالت الحظ الأكبر منه، لما فيها من القوة والحسن والرونق الذي يشير الأهواء والإحساس¹، وإن كان البعض أنكرها بناء على إنكار المجاز².

ومن هذا المنطلق سنحاول أن نقف على بعض نماذج الاستعارة القرآنية على ضوء سورة هود، مقتصرين في ذلك على التصريحية منها والممكنة.

فبعد تصفحنا لصفحات سورة هود وتبعنا لآياتها، وجدناها حوت هذا الصّرب البياني بنوعيه.

3/1- الاستعارة التصريحية في سورة هود: وقد عرف البلاغيون الاستعارة التصريحية لأنها "ما صرح فيه بلفظ المشبه دون المشبه"³.

ومن نماذجها في سورة هود قوله تعالى: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)⁴. فالصورة البيانية تتمثل في قوله تعالى: (أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)، وهي "استعارة والمراد بها قومه وعشيرته جعلهم ركناً لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين"⁵ وبعبارة أيسر فقد استعير لفظ الركن الشديد للسند الذي يستند عليه الإنسان وهو القوم والعشيرة من علاقة المشابهة، فصرح بالمشبه به وهو الركن وحذف المشبه وهو القوم أو العشيرة، وذلك من باب الاستعارة التصريحية.

وبعد تتبعنا لمواضع الاستعارة التصريحية في سورة هود لم نتصادف إلا بهذا النموذج المشار إليه أعلاه.

2- الاستعارة الممكنة في سورة هود: ويقصد بالاستعارة الممكنة "هي التي اختفى فيها لفظ المشبه واكتفى بذكر شئ من لوازمه دليلاً عليه"⁶.

وقد تزينت سورة هود بروائع من هذا النوع من الاستعارة على خلاف الاستعارة التصريحية التي لم تظفر فيها إلا بمثال واحد.

1 ينظر: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة" مرجع سابق، ص 259.

2 ينظر: الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج 3، ص 432.

3 أحمد مطلوب: "المرجع السابق"، ص 93.

4 سورة هود: الآية 80.

5 محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 32.

6 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص 88.

ومما وقعت عليه أعيننا من نماذج عن الاستعارة المكنية في سورة هود، قوله تعالى: (وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرًا)¹.

ففي هذه الآية الكريمة تعبير مجازي يتمثل في قوله تعالى: (وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا...)، "والإذاقة-هنا-مستعملة في إيصال الإدراك على وجه المجاز"²، الذي يقوم على علاقة المشابهة، فقد شبه الله سبحانه وتعالى الرحمة بالطعام الذي يشتهي المرء فيتذوق بفمه، ثم حذف المشبه به الطعام، ورمز إليه بإحدى لوازمه وهي "أدقنا"، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

كما يظهر المجاز في هذه الآية الكريمة أيضا في قوله تعالى: (ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ)، يقول الطاهر بن عاشور "والنزع حقيقته خلع الثوب عن الجسد، واستعمل هنا في سلب النعمة على طريقة الاستعارة"³. وببساطة فقد شبه الله سبحانه وتعالى سلب الرحمة من الإنسان بخلع الثوب عن الجسد ثم حذف المشبه به الثوب ورمز له بإحدى لوازمه وهي "نزعناها" على سبيل الاستعارة المكنية.

كما تظهر الاستعارة المكنية أيضا في قوله تعالى: (وَلَئِن أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)⁴. ففي قوله تعالى: (أدقناه نعماء بعد ضراء...) تعبير مجازي يقوم على علاقة المشابهة، حيث شبه النعماء بالطعام الذي يتذوقه الإنسان، ثم حذف المشبه به الطعام، وترك القرينة الدالة عليه (أدقناه) من باب الاستعارة المكنية.

ومنها أيضا قوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)⁵ ولعل الصورة البيانية تبدو واضحة في قوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) ويقول عن هذا الطاهر بن عاشور: "ذكر الخزائن هنا استعارة مكنية، شبهت النعم والأشياء النافعة بالأموال النفيسة التي تدخر في الخزائن، ورمز إلى ذلك ما هو من روادف المشبه به وهو الخزائن"⁶

1 سورة هود: الآية 9.

2 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 12، ص 12.

3 المصدر نفسه: ج 12، ص 13.

4 سورة هود: الآية 10.

5 سورة هود: الآية 31.

6 الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج 12، ص 57.

ومن نماذجها أيضا قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)¹. ففي هذه الآية الكريمة تجسدت العديد من الاستعارات المكنية، وهذا ما أكده السكاكي قائلا: "قال جل وعلا: قيل على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض ويا سماء، ثم قال كما ترى: يا أرض ويا سماء مخاطبا لهما على سبيل الاستعارة للتشبيه المذكور، ثم استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقر خفي، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها لها بالغذاء، لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزرع والأشجار تقوي الأكل بالطعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة: ابلعي لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء، ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر ترشحا لاستعارة النداء."²

وبعبارة أبسط يمكن القول بأنّ في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي)، تعبير مجازي يقوم على علاقة المشابهة، وذلك من خلال نداء الأرض والسماء بما ينادي به الإنسان المميز (يا أرض، يا سماء)، ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من ذلك قوله: "ابلعي"، "اقلعي"³. قد شبه الله سبحانه وتعالى: الأرض والسماء بإنسان يسمع لأن النداء والأمر لا يوجهان إلا لإنسان عاقل يسمع ويعي ثم حذف المشبه به الإنسان ورمز له بإحدى لوازمه وهي النداء "يا" والأمر في الفعلين "ابلعي" و"اقلعي" وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

كما تظهر الاستعارة أيضا في قوله: (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ)، حيث شبه الأرض بإنسان أو حيوان له فم ويأكل، فحذف المشبه به الإنسان أو الحيوان وترك ما يدل عليه وهو "ابلعي" على سبيل الاستعارة المكنية. وفي ذات السياق نجد أيضا قوله تعالى: (ابْلَعِي مَاءَكِ) تعبير مجازي تمثل في الاستعارة، يقول عن هذا الطاهر بن عاشور: "البلع حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم، وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة، ومعنى: بلع الأرض ماءها دخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازدياد الباع."⁴

1 سورة هود: الآية 44.

2 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص 418.

3 ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 485، وينظر أيضا: أبو حيان الأندلسي: "البحر المحييط"، مصدر سابق، ج 5، ص 228.

4 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 12، ص 78.

وبهذا فقد "استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها له بالغذاء لتقوي الارض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوي الآكل بالطعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة ابلي، لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء." ¹

وعدّ البلاغيون هذه الآية الكريمة نموذجاً مثالياً لبراعة التشخيص القرآني، فقد شخص الجماد وبث فيه الحركة والحياة بأسلوب إعجازي أبهر بلغاء العرب، وتراقصت عليه رؤوس أقلام علماء البيان محللة مكامن الإعجاز، حيث تجلّى فيها مبدأ العظمة الإلهية والاحلال الرباني من خلال نداء الأرض والسماء وأمرهما كأنهما إنسان عاقل يسمع ويعي. ²

ومن نماذج الاستعارة المكنية في سورة هود قوله تعالى أيضاً: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَن نُّنَزِّلُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) ³.

يقول الطاهر بن عاشور مفسراً هذه الآية الكريمة: "ومعنى "فعميت" ، فحفيت، وهو استعارة، إذ شبهت الحجة التي لم يدركها المخاطبون كالعمياء في أنها لم تصل إلى عقولهم كما أن الأعمى لا يهتدي للوصول إلى مقصده فلا يصل إليه" ⁴.

ومن خلال شرح الطاهر بن عاشور يتبين لنا أن الاستعارة هي استعارة مكنية لأن الله سبحانه وتعالى شبه البينة التي لم يدركها قوم نوح بالعمياء التي لا تبصر، ثم حذف المشبه به بالعمياء وترك القرينة الدالة عليه هي "عميت".

كما تتمثل الاستعارة المكنية أيضاً في قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) ⁵. ففي هذه الآية الكريمة تعبير مجازي، لأنه من المعلوم أن الروع هو الخوف، وهو أمر معنوي إذ ليس من صفاته الذهاب، ونفس الأمر بالنسبة للبشرى، فهي كذلك أمر معنوي وليس من صفاتها الجبى، وإنما الذهاب والجبى صفتان للإنسان.

1 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص418.

2 ينظر: أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط" مصدر سابق، ج5، ص228.

3 سورة هود: الآية28.

4 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص52.

5 سورة هود: الآية74.

وبناء على هذا فقد شبه الله تعالى الروح والبشرى بإنسان ثم حذف المشبه به الإنسان، ورمز له بإحدى لوازمه (ذهب-جاءته) على سبيل الاستعارة المكنية، ومن نماذجها أيضا قوله تعالى: (**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**)¹ .
فالمجاز يتجسد في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى: (**أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ**)، وسبق وأن أشرنا إلى أن هذه العبارة القرآنية تمثل لنا مجازا عقليا.²

ولكن وعلى غرار هذا نجد فيها مجازا لغويا تمثل في الاستعارة المكنية، لأن الصلاة ليست آمرة، وإنما الأمر يأتي من يملك السلطة على وجه الاستعلاء، فقد شبهت الصلاة بالأمر، ورمز له بإحدى لوازمه وهي تأمرك على سبيل الاستعارة المكنية لغرض التهمك والسخرية.³

وتظهر الاستعارة المكنية أيضا في قوله تعالى: (**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ**)⁴ . ففي قوله تعالى: (**فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**) استعارة مكنية لأن الورد في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه، فشبه النار بماء يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورد، وشبه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش وقوله: "بئس الورد المورود"، تأكيد له لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد وفي النار إلهاب للعطش وتقطيع للأكباد"⁵ .

ومما لحناه عن هذا النوع من الاستعارة قوله تعالى: (**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ**)⁶، حيث شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه، وشبه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الاستعارة المكنية"⁷ .

وبأسلوب آخر يمكننا القول بأنّ في قوله تعالى: (... **قَائِمٌ وَحَصِيدٌ**) مجاز لغوي قائم على علاقة المشابهة، حيث شبه الله- سبحانه وتعالى- ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه، وشبه

1 سورة هود: الآية 87.

2 ينظر: العلاقة السببية من المجاز العقلي.

3 ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 494.

4 سورة هود: الآية 98.

5 محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 32.

6 سورة هود: الآية 100.

7 محمد الصابوني: "المصدر السابق"، ج 2، ص 38.

ماهلك منها ولم يبق له أثر بالزرع المحصود، ثم حذف المشبه به وهو الزرع، وأبقى على أحد لوازمه (قائم وحصيد) على سبيل الاستعارة المكنية.

وإن كان الطاهر بن عاشور عد هذه الآية الكريمة من باب التشبيه البليغ¹، كما أشرنا سابقاً في حديثنا عن التشبيه في سورة هود.

إذن: هذه أهم نماذج الاستعارة التصريحية والمكنية التي تمثلت في سورة هود، وعلى غرارها توجد نماذج أخرى من الاستعارة القرآنية التي "تنبعث منها لطائف وأنوار لا يدركها إلا من تذوق حلاوة القرآن"²، وبصر بسر إعجازه البياني وأحس بجمال بلاغته الإلهية.

وحاصل القول: فإنّ للاستعارة في القرآن الكريم خصوصيتها المتفردة، والتي لا يمكن لأيّ إنسان مهما أوتي من قوة البيان وبراعة التصوير أن يرقى إلى درجة حسنها وجمالها، فقد جسّمت الاستعارة القرآنية المعنى، ووهبت الجماد العقل والحياة، وزيادة على تصوير المعنى وتمثيله للنفس³، مما يثير عواطفها ويحرك مشاعرها، هذا التصوير الذي عده سيد قطب القاعدة الأولى في التعبير القرآني ومادته المفضلة⁴.

بالإضافة إلى غرابة التركيب وحسن الإيجاز⁵، حيث أتت الاستعارة القرآنية بتعابير غريبة لم يسبق للعرب أن عرفتها في بلاغتها مع إيجاز جامع للمعنى وملم بالمقصد والغرض.

4- الكناية في سورة هود:

تعد الكناية عند العرب ضرباً من أضرب البراعة والبلاغة في الكلام⁶.

وهي عند أهل اللغة مشتقة من كنى، كنى عن المرء بغيره، يكني كناية إذا تكلم بغيره والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره⁷.

أما في اصطلاح البلاغيين: "لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي"⁸.

1 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص159.

2 محمود السيد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"،

3 ينظر: أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص169.

4 ينظر: سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص70.

5 ينظر: بغداداي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص269.

6 ينظر: الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج2، ص300.

7 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص444.

8 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص287.

وكان لهذا الأسلوب من الكلام حضوره في الساحة البلاغية، منذ بواكر الدراسات البلاغية، وقد أجمع الباحثون على أن أبا عبيدة (ت210هـ) أول من تنبه إلى هذا اللون البلاغي من خلال تفسيره للقرآن الكريم¹، ففي تفسيره لقوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ)²، قال: "كناية وتشبيه"³. غير أن الملاحظ على أبي عبيدة أنه حدد المصطلح لكن لم يفهم معناه مما أدى به إلى الخلط بينه وبين مصطلح التشبيه.

ولعل الكناية بدأت تعرف ملامح الوضوح والاستقلالية على يد الجاحظ (ت255هـ) حيث ذكر هذا الأخير قولاً لإسحاق بن حسان بن قوهي يقول فيه: "أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف"⁴.

فالكناية عند الجاحظ هي عكس الإفصاح، حيث يقول: "والكناية والوحي بالخط ودلالة الإشارة"⁵. يستنتج من هذا أن الجاحظ فهم معنى الكناية، وقد تعريفها شاملاً مانعاً لها، لكن لحد الآن لم يتم تصنيف الكناية كفرع من فروع البيان، والدليل على ذلك أن ابن المعتز (ت296هـ) عدها من مباحث علم البديع⁶. وتواصل الكلام في هذا الضرب من البلاغة على هذا النمط من الاضطرابات حتى وصل إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) فأوضح دلالاته وأصل مفهومه وحصره في مظانه مع التشبيه والمجاز والاستعارة المندرجة تحت مباحث علم البيان، ويقول عبد القاهر الجرجاني عن الكناية هي "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلاً عليه"⁷.

وعلى رؤية عبد القاهر الجرجاني للكناية سار جار الله الزمخشري (ت538هـ)، غير أنه لم يكتف بالتنظير مثلما فعل سابقه وإنما اختار منهج التطبيق على آيات الذكر الحكيم، حيث كان يقف عند الشواهد القرآنية

1 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص568.

2 سورة البقرة: الآية223.

3 أبو عبيدة: "مجاز القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص73.

4 الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج1، ص117.

5 المصدر نفسه: ج1، ص44.

6 ينظر: الباقلائي: "إعجاز القرآن"، ص148.

7 عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"، مصدر سابق، ص66.

المتضمنة لأسلوب الكناية، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)¹، فقال: "لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك."²
إذن: لقد نظر عبد القاهر الجرجاني للكناية، وطبق عن ذلك الزمخشري بشواهد من القرآن الكريم، فلم يبق لمن أتى بعدهما سوى الترتيب والتنظيم والتقسيم.
حيث تكلم السكاكي (ت626هـ) عن الكناية وحددها في ثلاثة أقسام: كناية عن الصفة، كناية عن موصوف، كناية عن نسبة³.

وعلى منهجه احتذي تلميذه الخطيب القزويني (ت739هـ)، إذ عقد فصلاً تحت مباحث علم البيان سماه القول في الكناية، ولم يخرج فيه عما ذهب إليه سابقه في مفهوم الكناية وأقسامها.⁴
وعلى ضوء هذه اللوحة التاريخية نخلص إلى أن الكناية شكل من أشكال التعبير البلاغي تجمع بين الحقيقة والمجاز⁵، وإن كان هذا الأخير هو المرجح فيها على حد اعتبار البلاغيين الذين جعلوها ضمن مباحث علم البيان المتضمن التعابير المجازية على اختلاف أنواعها.
ومن القضايا المهمة في هذا الجانب قضية مصطلح الكناية في القرآن الكريم، حيث احتار العلماء فيم إن كان للكناية موضع في القرآن الكريم أم لا؟
وقد تناول هذه القضية الإمام الزركشي حيث يقول في كتابه قولاً للطرطوسي⁶، حيث يقول فيه: "قد اختلف في وجود الكناية في القرآن، وهو قول الجمهور، ومن أنكر ذلك أنكر هذا"⁷.
يستنتج من خلال هذا القول أنّ جمهور البلاغيين يرى بوجود الكناية في القرآن الكريم، ومن هذا المنطلق سنحاول أن نقف مع نماذج الكناية في القرآن الكريم على ضوء سورة هود، معتمدين في ذلك على تقسيماتها وأنواعها المنحصرة في ثلاثة أقسام.

1 سورة طه: الآية 5.

2 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص651.

3 ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص404-405.

4 ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص330-331.

5 ينظر: المصدر نفسه: ص330.

6 هو القاضي نجم الدين إبراهيم بن علي الطرطوسي (ت708هـ) صاحب كتاب "عمدة الحكام فيما لا ينفذ من الأحكام حسب ما ذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون.

7 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج2، ص301.

4/1-الكناية عن صفة: "وهي التي يطلب بها نفس الصفة المعنوية."¹

وقد حفل القرآن الكريم بهذا النوع من الكناية، ومن نماذجها في سورة هود، قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)². فالإحكام والتفصيل صفتان خص بهما القرآن الكريم، وهما كناية مشهورة عن صفة البلاغة والبيان³، والتي اختص بها القرآن الكريم عن سواه من الكتب السماوية الأخرى.

ومنها أيضا قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)⁴، ففي الآية الكريمة كناية عن صفة التحدي، حيث تحدى الله سبحانه وتعالى بلغاء العرب بأن يأتوا بعشر سور من القرآن الكريم⁵.

كما تمثل هذا النوع من الكناية أيضا في قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)⁶، حيث تتجلى الكناية في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى: (... ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون)، فهي كناية عن صفة الإعراض وعدم قبول الحق⁷.

ومنها أيضا قوله تعالى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)⁸. يقول عن هذا محمد الصابوني: "الأعين كناية عن الرعاية والحفظ، يقال للمسافر: صحبتك عين الله"، أي رعاية الله وحفظه"⁹.

إذن: فالمراد "بأعيننا" بالمعنى المجازي كناية عن صفة الحفظ والرعاية¹⁰.

1 عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية-علم البيان-"، مرجع سابق، ص212.

2 سورة هود: الآية1.

3 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج11، ص315.

4 سورة هود: الآية13.

5 ينظر: الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج12، ص20.

6 سورة هود: الآية20.

7 ينظر: البقاعي: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، مصدر سابق، ج9، ص258.

8 سورة هود: الآية37.

9 محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص17.

10 ينظر: الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج12، ص66.

ومنها أيضا قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ)¹، ففي هذه الآية الكريمة كناية عن صفة الهلاك والانتقام الذي سلطه الله على قوم لوط.² كما تظهر الكناية عن صفة الهلاك والإبادة الجماعية أيضا في قوله تعالى: (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)³، أي موتى هامدين لا حراك بهم⁴، وذلك بسبب غضب الله وسخطه عليهم. ومن نماذجها كذلك قوله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)⁵، لفظة "حصيد" يقصد بها حصد الزرع، وفي ذلك كناية عن صفة الفناء⁶، لأنه صور هيئة القرى وهي خالية مقفرة بالزرع المحصود.

4/2 - كناية عن موصوف: "وهي التي يطلب بها نفس الموصوف، والشرط هنا أن تكون الكناية مختصة بالمكنى عنه لا تتعداه، وذلك ليحصل الانتقال منها إليه."⁷

ويتجلى هذا النوع من الكناية في عدة مواضع من سورة هود، من ذلك قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)⁸، ففي هذه الآية الكريمة كناية عن موصوف وهو القرآن الكريم لأن آياته أحكمت من الباطل، وفصلت الحلال والحرام، فهو جامع لكل خير، ولا يمكن لأي كان أن يطعن فيه أو يشكك في فصاحته وبلاغته.⁹ وعليه "صار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني"¹⁰.

1 سورة هود: الآية 82.

2 ينظر: محمد الصابوني: "صفوة التفاسير" مصدر سابق، ج 2، ص 28.

3 سورة هود: الآية 94.

4 ينظر: محمد الصابوني: "المصدر السابق، ج 2، ص 31.

5 سورة هود: الآية 100.

6 ينظر: أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط"، مصدر سابق، ج 5، ص 260.

7 عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية - علم البيان"، مرجع سابق، ص 215.

8 سورة هود: الآية 1.

9 ينظر: البقاعي: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ج 9، ص 22، وينظر أيضا: أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط"، مصدر سابق، ج 5، ص 201.

10 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 11، ص 315.

إذن: فهذه الآية الكريمة مثلت لنا الكناية بنوعين، كناية عن صفة البلاغة والبيان، وأشرنا إلى ذلك سالفًا، وكناية عن موصوف وهو القرآن الكريم الذي تفرد بتلك الصفة البلاغية البيانية التي رقت إلى درجة الإعجاز.

ومنها أيضا قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمْتَعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)¹، ففي قوله تعالى: (... عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)، كناية عن موصوف وهو يوم القيامة، فوصفه باليوم الكبير لما فيه من الأهوال الشديدة.² كما يظهر هذا النوع من الكناية أيضا قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)³، ففي الآية الكريمة كناية عن موصوف، فقد كنى عن فريق المشركين الكافرين "بالأعمى والأصم"، وكنى عن فريق المؤمنين "بالبصير والسميع"⁴.

إذن فعلى غرار التشبيه الوارد في هذه الآية الكريمة توجد أيضا الكناية التي تمثلت في التكني عن المشركين (بالأعمى والأصم) وعن المؤمنين "بالبصير والسميع".

ومما رصدناه من كناية عن موصوف قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)⁵

ففي قوله تعالى: (إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)، أي "يرسل عليكم المطر غزيرا متتابعا"⁶. وبهذا ففي هذا الجزء من الآية صورة بيانية تمثلت في الكناية عن موصوف وهو المطر الغزير. كما تتجلى الكناية عن موصوف أيضا في وقله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)⁷.

1 سورة هود: الآية 3.

2 ينظر: محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 7.

3 ينظر: سورة هود: الآية 24.

4 ينظر: محمد الصابوني: "المصدر السابق"، ج 2، ص 11، وينظر أيضا: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج 12، ص 42.

5 سورة هود: الآية 52.

6 محمد الصابوني: "المصدر السابق"، ج 2، ص 20.

7 سورة هود: الآية 58.

ففي قوله تعالى: (:) (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا)، كناية عن موصوف وهو العذاب¹، "فالأمر واحد من الأمور، فيكون كناية عن العذاب أو عن القضاء بهلاكهم"²، أو عن الموعد الذي قدره الله.

وفي ذات السياق نجد قوله تعالى: (إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ)³. يقول محمد علي الصابوني: "جاء أمر ربك" كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم.⁴

ومن نماذجها أيضا قوله تعالى: (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)⁵. ففي الآية الكريمة كناية عن موصوف وهو العمل الخبيث الذي كان يقوم به أهل لوط في عمل الفاحشة وإتيان الذكور⁶.

ومن نماذجها أيضا وقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)⁷.

والمقصود بالكلمة في الآية الكريمة "إرادة الله الأزلية وسنته في خلقه"⁸، وبهذا "فالكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر."⁹

ومنها أيضا قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)¹⁰، ففي الآية الكريمة كناية عن موصوف وهي مواقيت الصلاة، يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: "طرفي النهار" غدوة وعشيه "وزلفا من الليل" وساعات من الليل، وهي: ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشي: الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال عشي، وصلاة الزلف المغرب والعشاء"¹¹.

1 محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج2، ص25.

2 أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط"، مصدر سابق، ج5، ص234.

3 سورة هود: الآية76.

4 محمد الصابوني: "المصدر السابق"، ج2، ص32.

5 سورة هود: الآية79.

6 محمد الصابوني: "المصدر السابق"، ج2، ص27.

7 سورة هود: الآية110.

8 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص171.

9 محمد الصابوني: "المصدر السابق"، ج2، ص38.

10 سورة هود: الآية114.

11 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص500.

وبهذا "فطربي النهار" كناية عن مواقيت الصلاة نهاراً، و"زلفا من الليل" كناية عن مواقيت الصلاة ليلاً. كما نجد هذا النوع من الكناية أيضاً في قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا ...)¹.

ففي قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ)، كناية عن الأمم الماضية لأن المراد بالقرن الأمم الماضية الذي تقدم ذكر إهلاكها².

4/3-الكناية عن نسبة: "ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، أو بعبارة أخرى تخصيص الصفة بالموصوف"³.

ولم يكن لهذا النوع من الكناية حظ مثل سابقه، ولعل ما ورد منه في سورة هود كان مثالا واحداً تمثل في قوله تعالى: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)⁴، ففي هذه الآية الكريمة كناية نسبة حيث نسبت العزة للرَهْط، والأصل في العزة أن تكون لله سبحانه وتعالى، وهذا ما أنكره عليهم شعيب عليه السلام فقوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ) أي جعلتم مراعاتي من أجل الرَهْط ولم تسندوها إلى الله، وأن الأولى والأحق أن راعي من أجل الله⁵.

وخلاصة القول: فإنَّ من خلال تقصينا لمواضع الكناية في سورة هود أدركنا بأنَّ للكناية القرآنية أثرها المتفرد وأسلوبها المتميز المستوحى من قدسية القرآن الكريم، ومقصدية الشَّارع سبحانه وتعالى، حيث تقوم الكناية القرآنية بنصيبتها كاملاً في أداء المعاني وتصويرها خير أداء وتصوير، وهي حيناً راسمة مصورة موحية، وحيناً مؤدبة مهذبة، تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافياً في لفظ قليل، ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية في المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية⁶.

1 سورة هود: الآية 116.

2 ينظر: البقاعي: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ج 9، ص 398.

3 عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية-علم البيان"-مرجع سابق، ص 217.

4 سورة هود: الآية 91-92.

5 ينظر: أبو حيان الأندلسي: "البحر المحيط"، مصدر سابق، ج 5، ص 256.

6 أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص 183.

ولعل جل ما لم يصرح به النظم القرآني وفضل فيه الأسلوب الكنائي تلك المقامات التي استقبح ذكرها واستحي من التصريح بها تهديبا للنفس وإرشادا وتعلیما، كتكنيته عن الجماع والمعاشرة الزوجية¹، من ذلك قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)²

ففي هذه الآية الكريمة كناية عن الغاية السامية في قضاء الشهوة المتمثلة في الإنجاب وتعمير الكون، ولذا جعلت المرأة حرثا تنبت كما تنبت الأرض³.

"وبهذا يتجلى لنا أن النظم القرآني قد كنى عما يستقبح ذكره، وعما يستحي أن يصرح به، وقد جاءت التكنية عن ذلك متلائمة مع سياقها، منسجمة مع المعنى الذي يبرزه السياق"⁴،

وخير دليل على ذلك ما ورد في سورة هود في قوله تعالى: (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ)⁵، إذ يظهر لنا أن الله تعالى لم يصرح بالفاحشة والعمل الخبيث الذي كان يقوم به قوم لوط في إتيانهم الذكور وما لهم في ذلك من شهوة⁶، وإنما كنى عن ذلك بقوله: (وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ)، استقباحا واستنكارا لهذا الفعل المشين.

تلك هي خصائص الكناية القرآنية التي عدلت عن التراكيب الحقيقية لمقاصد إلهية ونكت بلاغية وأسرار إعجازية ما كانت لتكون لو جاءت بأسلوب حقيقي مباشر.

1 ينظر: بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص 397.

2 سورة البقرة: الآية 223.

3 ينظر: بسيوني فيود: "من بلاغة النظم القرآني"، مرجع سابق، ص 401.

4 المرجع نفسه: ص 405.

5 سورة هود: الآية 79.

6 ينظر: محمد الصابوني: "صفوة التفاسير"، مصدر سابق، ج 2، ص 27.

ج-علم البديع من منظور سورة هود:

لا تكتمل حلقة البلاغة إلا بعلم البديع، هذا العلم الذي جعله علماء البلاغة المتأخرين ثالث علوم البلاغة وآخرها.

وتأخير رتبة البديع لا يقلل من شأنه وعظم مكانته، خصوصا إذا ما ارتبطت بالبلاغة القرآنية، فمن المعلوم أنّ البلاغة القرآنية قد تنوعت في طرق تعبيرها، وتفردت بخصائص ومميزات جعلتها ترقى إلى درجة السمو الإلهي الذي لا يرقى إليه معشر الإنس والجن ولو اجتمعوا، قال الله تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا¹) ومن طرق التعبير الإعجازية في القرآن الكريم توظيفه للمحسنات البديعية على نمط لم تعهده العرب في بديعها.

فالبديع القرآني لوحة فنية وجوقة موسيقية صنعها الخالق البديع في بلاغته القرآنية التي أدهشت الثقلين، وأبهرت جمادات الكون فخرت خاشعة منكسرة أمام عظمتها، يقول الله تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ²) .

وقبل أن نقف على استنباط واستقراء تلك المحسنات البديعية التي تزينت بها البلاغة القرآنية في سورة هود، لا بد أن نقف كما جرت عادتنا فيما سلف عند مفهوم البديع ونشأته في الدراسات البلاغية.

1- مفهوم علم البديع:

البديع في اللغة من بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه، البديع والبدع: الشيء الذي يكون أولا، والمحدث العجيب، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شيء³، لقوله تعالى: (بِدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ⁴) .

أما اصطلاحا: "هو علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة وتكسوه بهاء ورونقا بعد مطابقته لمتضى الحال ووضوح دلالاته على المراد."⁵

1 سورة الإسراء: الآية 88.

2 سورة الحشر: الآية 21.

3 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 1، ص 175.

4 سورة البقرة: الآية 117.

5 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 298.

وقد تأسس هذا العلم وأثمر نتاجه-شأنه في ذلك شأن علوم البلاغة جميعها-بعد رحلة من الجهود المضنية.

فمن المعلوم أن العرب منذ العصر الجاهلي كانوا يستحسنون الكلام الجميل، الذي تطرب له النفوس وتستأثر به العواطف والقلوب، ويستهنون الكلام المهجين الذي تنفر منه النفوس وتشمئز، وقد عرف العرب في شعرهم كل الخصائص الفنية والأساليب البديعية التي توحى بالحسن والرونق والجمال، لكن كانوا يستعملونها عن طبع وسجية دون علم بمصطلحاتها¹، إلى أن جاء القرآن الكريم، فكان البحث فيه والتدبر في إعجازه سببا إلى تقعيد علوم البلاغة العربية بصفة عامة وعلم البديع واحد منها .

ولعل أول إشارة إلى علم البديع كانت من قبل الجاحظ (ت255هـ) حيث قال: "والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان."²

وتلك اللغة لم ترق إلا بفضل القرآن الكريم الذي اختارها لسانا له، يقول تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)³.

ومع هذه المحاولة التي قام بها الجاحظ وإن كانت ناقصة⁴، إلا أنها فتحت الباب أمام ابن المعتز (ت296هـ) ليؤلف كتابا كاملا يتحدث فيه عن الفنون البديعية ومحاسن الكلام الموجودة في كلام رب البرية وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وأشعار المتقدمين، وقد استهله بقوله: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع."⁵

وبهذا فإن أول محاولة علمية جادة هي هته المحاولة التي قام بها ابن المعتز، فإن كان عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) أول من وضع قواعد علم المعاني والبيان، فإن ابن المعتز (ت296هـ) هو أول مؤسس لعلم البديع وقواعده.⁶

1 ينظر: عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية-علم البديع"، لبنان، بيروت، دار النهضة، دط، ص8-9.

2 الجاحظ: "البيان والتبيين"، مصدر سابق، ج4، ص55-56.

3 سورة الشعراء: الآية192-195.

4 ينظر: عبد العزيز عتيق: "المرجع السابق"، ص12.

5 ابن المعتز: "البديع"، مصدر سابق، ص1.

6 ينظر: عبد العزيز عتيق: "المرجع السابق"، ص12-13.

وقد حصر ابن المعتز علم البديع في أبواب خمسة وهي: 1- الاستعارة، 2- التجنيس، 3- المطابقة، 4- رد أعجاز الكلام على ما تقدمها، 5- المذهب الكلامي، ويقول معقبا عن هذا "... ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختبارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة، فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذا المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ولم يأت غير ما رأينا فله اختياره"¹.

ولم يكتف ابن المعتز بهذه الأبواب الخمسة لعلم البديع بل أتبعها بفنون أخرى فرعية وهي: الالتفات، اعتراض كلام في كلام لم يتمم الشاعر معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد، الرجوع، حسن الخروج من معنى إلى معنى، تأكيد المدح بما يشبه الذم، تجاهل العارف، هزل يراد به الجد، حسن التضمنين، التعريض والكناية، الإفراط في الصفة أو المبالغة، حسن التشبيه، إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك، حسن الابتداء.

كما أشار إلى أن هذه المصطلحات البديعية هي "بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها"².

غير أن الملاحظ أنّ هذه المصطلحات التي أدرجها ابن المعتز تحت مباحث علم البديع ذكرها غيره ضمن مباحث البيان أو علم البيان، ولعل السبب في ذلك يعود إلى تلك الاضطرابات التي كانت تشهدها البلاغة العربية في بداية عهدها، والتي استمرت إلى غاية القرن الرابع الهجري، حيث نلاحظ أن الباقلاني (ت403هـ) تناول كذلك البديع وعده وجها من وجوه الإعجاز القرآني³، لكن مصطلحاته لم تكن مضبوطة، حيث أدرج جميع المصطلحات البلاغية بما فيها مصطلحات المعاني والبيان تحت علم واحد وهو علم البديع.

كما أننا لاحظنا أنّ إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) لم يول اهتماما للبديع مثلما ولاه لنظرية المعاني والبيان، واكتفى بقوله: "وقد تجدد في كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع."⁴

1 ابن المعتز: "المصدر السابق"، ص58.

2 المصدر نفسه: ص58.

3 ينظر: الباقلاني: "إعجاز القرآني"، مصدر سابق، ص52.

4 عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة"، مصدر سابق، ص17.

وقد حذا الزمخشري (ت538هـ) حذو الإمام عبد القاهر الجرجاني، حيث لم يعن هو كذلك بالبديع إلا ما جاء عارضا على ضوء تفسيره لآيات الذكر الحكيم¹، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: (يا أَسْفَى عَلَى يوسُفَ)²، فقال: "... والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعا غير متعمل، فيلمح ويبدع."³ والتجانس الذي لمح الزمخشري في هذه الآية الكريمة، من أهم مصطلحات علم البديع. ولعل علم البديع ومصطلحاته نُظِمَ ورُتِّبَ كعلم مستقل وفرع من فروع البلاغة العربية على يدي البلاغيين المتأخرين أمثال: السكاكي (ت626هـ)، وابن الناظم (ت686هـ)، والخطيب القزويني (ت739هـ) وتواضعوا على جعل مصطلحاته في قسمين: أحدهما من جهة المعنى، وهو ما يعرف عندهم بالبديع المعنوي، وثانيهما من جهة اللفظ، وهو ما تعارفوا عليه بالبديع اللفظي⁴.

وبعد هذه الرحلة التاريخية مع مصطلح البديع والتي تبين المكانة التي كانت تنعم بها البلاغة العربية وعلومها في ظل عطاء الحضارة العربية الإسلامية والتي كان الغرض منها خدمة كتاب الله تعالى الذي زخر بأفانين البديع الإعجازية، ومكامن الحسن الإلهية.

فقد اكتشف هؤلاء البلاغيون من خلال دراستهم للقرآن الكريم روائع بديعية ازدانت بها البلاغة القرآنية. وعليه فإنّ البديع القرآني: هو تلك الوجوه والمزايا الإعجازية التي تزيد النصّ القرآني حسنا وطلاوة، وتكسوه بهاء ورونقا بعد مطابقتها لمقتضى الحال ووضوح دلالاته على المراد.

"ولما كانت أنواع البديع التي قننها علماءه ووضعوا لكل منها مصطلحه وشرطه مما يصعب على الطالب أن يلم بها جميعا"⁵، ارتأينا أن نقتصر على ذكر بعضها على ضوء ما جاء منها في سورة هود.

2- مصطلحات علم البديع من منظور سورة هود:

حصر علماء البلاغة محاسن البديع في صنفين: أحدهما على حساب المعنى وسموا ذلك بالمحسنات البديعية المعنوية، والأخرى على حساب اللفظ وسموا ذلك بالمحسنات البديعية اللفظية.

1 ينظر: عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية-علم البديع"، مرجع سابق، ص33.

2 سورة يوسف: الآية84.

3 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص527.

4 ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص423، وينظر أيضا: ابن الناظم: "المصباح في البيان والمعاني والبديع"، مصدر

سابق، ص159، وينظر: القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص348.

5 محمود أحمد حسن المراغي: "في البلاغة العربية-علم البديع"، لبنان، بيروت، دار العلوم العربية، ط1، 1411هـ-1991م، ص5.

1/2-المحسنات البديعية المعنوية في سورة هود: حبدنا أن نبدأ بدراسة المحسنات البديعية المعنوية احتذاء بعلمائنا الذين وجدناهم في جميع مصنفاتهم قد ابتدؤوا بذكر المحسنات المعنوية لتليها بعد ذلك المحسنات اللفظية، وما سلطنا هذا المنهج إلا من باب الترتيب والتنظيم وليس من باب الانتصار للمعنى على حساب اللفظ، لأن هذه قضية أخرى لا نريد فتحها في مقامنا هذا، وما يهمنا هو التركيز على تلك المحسنات القرآنية وأغراضها البلاغية لا أكثر.

والمقصود بالبديع المعنوي: "هو الذي وجبت فيه رعاية المعنى دون اللفظ فيبقى مع تغير الألفاظ."¹

وقد تزينت سورة هود بأنوار من البديع المعنوي وتحملت بمحاسن الإعجاز القرآني من ذلك:

1/1/2-الائتلاف: وهو في اللغة من ألف، والائتلاف: الاجتماع والاتفاق، يقال: ائتلف الشيء: ألف بعضه بعضاً.²

أما اصطلاحاً: "هو أن يجمع المتكلم بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد"³. ويسميه البلاغيون أيضاً كالخطيب القزويني بمراعاة النظر فيقول: "ومنه مراعاة النظر وتسمى التناسب والائتلاف والتوفيق أيضاً، وهي أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد"⁴.

كما سما أيضاً بتشابه الأطراف فقال: "ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف وهو أن يتم الكلام بما يناسب أوله في المعنى"⁵.

والائتلاف البديعي أنواع وأصناف مختلفة، وما يندرج تحت المحسنات المعنوية هو ائتلاف المعنى مع المعنى أو ائتلاف اللفظ مع المعنى.

وقبل أن نطبق هذا الفن البديعي على سورة هود، يجدر بنا الاعتراف بحقيقة وهي أن ائتلاف اللفظ مع المعنى سمة للقرآن كله"⁶، حيث أتى في منتهى حسن الجوار والتآلف والتناسب، وذلك ببساطة لأن كلام الله عز وجل المعجز.

1 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص298.

2 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص93.

3 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص11.

4 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص355.

5 المصدر نفسه: ص356.

6 عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ص445.

وقد أتت سورة هود في غاية الائتلاف والاجتماع، وخير دليل على ذلك ما استهل الحق سبحانه قوله: (الر كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبير)¹.

يقول الزمخشري (ت538هـ): "أحكمت آياته"، نظمت نظماً رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف.²

كما يذهب الطاهر بن عاشور إلى تفسير هذه الآية الكريمة فيقول: "الإحكام إتقان الصنع، مشتق من الحكمة... وهي إتقان الأشياء بحيث تكون سالمة من الأخلال التي تعرض لنوعها، أي جعلت آياته كاملة في نوع الكلام بحيث سلمت من مخالفة الواقع ومن أخلال المعنى واللفظ"³.

ومعنى هذا أن آيات الذكر الحكيم أتت محكمة متناسبة ومتألفة معانيها مع ألفاظها.

وائتلاف اللفظ مع المعنى يبدو جلياً في سورة هود، فهو ليس مقصوراً على آية دون أخرى، بل إن القرآن كله موصوف بائتلاف ألفاظه مع معانيه⁴، ومن ذلك قوله تعالى: (الر كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبير)⁵

يظهر من هذه الآية الكريمة ائتلاف ألفاظها مع معانيها وتناسب أولها مع آخرها، فالحكيم "الموصوف بإبداع الصنع لحكمته وإيضاح التبيين لقوة علمه، والخبير العالم بخفايا الأشياء، وكلما كثرت الأشياء كانت الإحاطة بها أعز، فالحكيم مقابل ل(أحكمت)، والخبير مقابل ل(فصلت)"⁶، والحكمة لا تناسبها إلا الخبرة.

بالإضافة إلى هذا يظهر الائتلاف كذلك في قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)⁷.

حيث اشتملت هذه الآية الكريمة على التناسب التام والتوافق الكامل بين الألفاظ ومعانيها، يقول السكاكي معقبا عن هذا الآية الكريمة: "أما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم

1 سورة هود: الآية 1.

2 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص476.

3 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج11، ص314.

4 ينظر: عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني"، مرجع سابق ص461.

5 سورة هود: الآية 1.

6 الطاهر بن عاشور: "المصدر السابق"، ج11، ص315.

7 سورة هود: الآية 44.

للمعاني لطيف وتأدية لها مخلصه مبينة، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها¹.
معنى هذا أن لفظة موظفة في موضعها، مناسبة لمعناها، ولا يصلح في موضعها غيرها.

2/1/2-الابتداء: هو في اللغة من بدأ، والبدا فعل الشيء أولاً، بدأ وابتداً: أنشا واخترع، والبدا فعل الشيء أولاً من غير سابق².

أمّا اصطلاحاً: "أن يكون مطلع الكلام شعراً أو نثراً، أنيقاً بديعاً، لأنه أول ما يقرع السمع فيقبل السامع على الكلام ويعيه، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه"³.

ويسمى أيضاً هذا النوع من البديع براءة الاستهلال، يقول الخطيب القزويني: "وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براءة الاستهلال"⁴.

وحسن الإبتداء وبراعته من بديعيات القرآن الكريم، ومحاسنه الإعجازية، يقول السيوطي: "ومن الإبتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براءة الاستهلال، وهو أن يشمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله، والعلم الأسمى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن الكريم فإنها مشتملة على جميع مقاصده"⁵.

وسورة هود ليست بدعا من حسن ابتداءات القرآن الكريم، فقد استهلها الحق سبحانه وتعالى بحروفه الإعجازية: "انتصارا للقرآن وبيان إعجازه وعظمته"⁶، ثمّ الثناء على كتابه المحكم المفصل بحكمته وخبرته الإلهية حيث يقول عز وجل: (الر كتابٌ أحكمت آياته ثمّ فصلت من لدن حكيمٍ خبير)⁷

2/1/3-الطباق: في اللغة من طبق، تطابق الشئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، وطابقت بين الشئين إذ جعلتهما على حد واحد⁸.

1 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص421.

2 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص172

3 أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورهاط، مرجع سابق، ص21.

4 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص441.

5 السيوطي: "معترك الاقران"، مصدر سابق، ج1، ص58.

6 ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، ج1، ص160.

7 سورة هود: الآية1.

8 ينظر: ابن منظور: "المصدر السابق"، ج4، ص157.

وقد وردت كلمة الطَّباق في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)¹ أما اصطلاحاً: "هو الجمع بين الشئى وضده في الكلام"². وقد جعل ابن المعتز (ت296هـ) الطَّباق نوعاً من المحسنات البديعية فقال: "الباب الثالث من البديع وهو المطابقة... يقال طابقت بين الشئين إذا جمعتهما على حد واحد."³ وإن كان ابن المعتز عد الطباق لونا من ألوان البديع فإن البلاغيين المتأخرين حددوه بدقة وضيقوا مساحته في حدود المحسنات البديعية المعنوية كالسكاكي (ت626هـ) والخطيب القزويني (ت739هـ)⁴. وللطباق مكانته البلاغية في القرآن الكريم، ومنه الكثير كما قال ابن قيم الجوزية في الفوائد المشوق⁵. وسورة هود أتت حافلة بالطباق من ذلك:

-الطباق بين اسمين: كقوله تعالى: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)⁶

فالطباق في الآية الكريمة بين نذير وبشير أي "إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه"⁷، ومعلوم أنّ البشارة ضد النذارة، فالبشارة تكون في الثواب، والنذارة تكون في العقاب. وكذلك يظهر الطباق في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...)⁸.

فالطباق هنا بين اسمين هما السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ويعد الطباق بين لفظتي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ من أكثر الطباق الوارد في القرآن الكريم، وقد وجدناه بكثرة كذلك في سورة هود مثل قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي)⁹، فالطباق هنا بين الأرض والسَّمَاءِ.

1 سورة الملك: الآية 3.

2 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص303.

3 ابن المعتز: "البديع"، مصدر سابق، ص36.

4 ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص423. والخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة ط"، مصدر سابق، ص348.

5 ينظر: ابن القيم الجوزية: "الفوائد المشوق"، مصدر سابق، ص149.

6 سورة هود: الآية 2.

7 ابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، ج4، ص303.

8 سورة هود: الآية 7.

9 سورة هود: الآية 44.

وفي قوله تعالى أيضا: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)¹، وكذلك قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)²، ومنه أيضا قوله عز وجل: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...)³.

يلاحظ من هذا أنّ الطباق بين السماوات والأرض ورد في خمسة مواضع من سورة هود، وهذا دليل على كثرة توظيف هذين المتضادين في القرآن الكريم.

ومن الطباق بين الاسمين في هذه السورة الكريمة أيضا قوله عز وجل: (وَلَئِن أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)⁴. فالطباق هنا بين النعماء والضراء لأن النعماء هي المسرة والفرح بينما الضراء هي المعسرة والضيق.

ومن ذلك قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرُّوعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)⁵، فالطباق هنا بين الروع والبشرى وكلاهما اسمين.

وأياضا قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مِّنْضُودٍ)⁶، فالطباق بين عاليها من العلو، وسافلها من السفلى.

وأياضا قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)⁷، فالطباق هنا بين الشقي وهو "الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه".⁸

كما يلي هذه الآية الكريمة طباق آخر في قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ)⁹، فالطباق بين لفظي زفير وهو "إخراج النفس، والشهيق رده"¹⁰.

1 سورة هود: الآية 107.

2 سورة هود: الآية 108.

3 سورة هود: الآية 123.

4 سورة هود: الآية 10.

5 سورة هود: الآية 74.

6 سورة هود: الآية 82.

7 سورة هود: الآية 105.

8 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 498.

9 سورة هود: الآية 106.

10 الزمخشري: "المصدر السابق"، ص 498.

كما اشتملت الآية الكريمة في قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)¹، على طباق بين الحسنات والسيئات.

وجميع هذه الآيات الكريمة من سورة هود كانت نموذجاً للطباق بين اسمين من نوع الإيجاب. والمقصود بالطباق الإيجاب: "هو ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً"²، أي كلا الضدان مثبتان، وعكسه طباق السلب وهو ما اختلف فيه الضدين إيجاباً وسلباً فيكون أحدهما مثبت والآخر منفي³.
-الطباق بين فعلين: من المقامات التي ورد فيها الطباق بين فعلين في سورة هود، قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)⁴.

فالطباق في الآية الكريمة يظهر بين فعلين هما: أحكمت وفصلت ويعقب عن هذا الزمخشري بقوله: "وفيه-يقصد الآية الكريمة-طباق حسن لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي بينها وشرحها خبير عليم بكيفيات الأمور"⁵.

ومنه أيضاً قوله تعالى: (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)⁶

فالطباق هنا جلي بين الفعلين: يسرون ويعلمون.

ومنه كذلك قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لوطٍ)⁷

فالطباق هنا بين الفعل ذهب وجاء.

والطباق الذي تجلى في هذه الآيات الكريمة كله من باب طباق الإيجاب. أمّا عن طباق السلب فقد رود

في موضعين من سورة هود:

أولها: في قوله تعالى: (قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)⁸، وهو

طباق بين فعل واسم، حيث إنّ الفعل "يعصمني"، ورد مثبتاً في حين الاسم "لاعاصم" أتى منفيًا.

1 سورة هود: الآية 114.

2 عبد العزيز عتيق: "في البلاغة العربية-علم البديع-"، مرجع سابق، ص 79.

3 ينظر: المرجع نفسه: ص 80.

4 سورة هود: الآية 1.

5 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 476.

6 سورة هود: الآية 5.

7 سورة هود: الآية 74.

8 سورة هود: الآية 43.

وثانيهما: في قوله تعالى: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...) ¹، فالطباق هنا يظهر بين فعلين أحدهما منفي وهو "وما ظلمناهم" والآخر مثبت وهو ظلموا، وبهذا فهو طباق سلب.

ولعل أهم ما نستنتجه من هذه النماذج القرآنية عن الطباق في سورة هود هو أنه ورد بكثرة وبلغ في ذلك قمة الإعجاز الذي انعدم في طباق الوضع الإنساني، فالطباق في القرآن الكريم-ومثله كل فنون البديع- يؤدي دورا هاما في مظاهر إعجازه، وهو سمة عظيمة من سمات أسلوب قد سلم-مع كثرته-من التكلف بل هو آية الحسن، ومصدر العجب ².

2/1/4-المقابلة: هي في اللغة من قابل الشيء بالشيء، وقابله: عارضه، والمقابلة: المواجهة، ومنه التقابل. ³
أما اصطلاحا: فهي "أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معاني متوافقة، ثم يأتي بما يقابل ذلك على الترتيب" ⁴.
وقد عني البلاغيون بهذا الأسلوب وعدوه ضمن مباحث علم البديع، يقول الباقلاني (ت403هـ): "ويعدون من البديع" المقابلة"، وهي أن يوف بين معاني ونظائرها والمضاد بضده. ⁵
وذهب البلاغيون المتأخرون أمثال السكاكي (ت626هـ) والخطيب القزويني (ت739هـ) إلى عدّها ضمن مباحث علم البديع المعنوي. ⁶

وقد اختلف البلاغيون حول قضية هل المقابلة تدخل في المطابقة أم هناك فرق بينهما؟ فتوصلوا إلى أن المقابلة أعم من المطابقة، لأن الطباق يكون بين ضدين لا يتجاوزهما بينما المقابلة تكون غالبا بين أربعة أضداد. ⁷

ولعل ما يهمنا نحن في هذا المقام هو المقابلة في القرآن الكريم، حيث إنّ القرآن الكريم زخر بشتى ألوان البديع، فمن غير الممكن أن لا يكون قد تناول هذا الأسلوب التقابلي القائم على المقارنة التي تميز الصحيح

¹سورة هود: الآية 101.

² عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ط، مرجع سابق، ج2، ص419.

³ ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص193.

⁴ أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص304.

⁵ الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص132.

⁶ ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص424. وأيضا: القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص353.

⁷ ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص637.

من الخاطئ والحسن من القبيح .ويقول الزركشي: "واعلم أن تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل"¹.

وبناء على قول الزركشي سنحاول أن نتقصى المقابلات التي تضمنتها سورة هود وتأمل في معانيها البديعية.

ومن ذلك قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)²، ففي الآية الكريمة تقابل بين الأعمى والأصم والبصير السميع، حيث أن الله سبحانه وتعالى "لما ذكر انسداد العين أتبعه انسداد السمع، وبضد ذلك لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بالانفتاح السمع، فما تضمنته الآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة والأتَم في الإعجاز"³، وإن عدها الزمخشري من باب الطباق⁴.

ومن المقابلة أيضا قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِيهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ)⁵.

والغرض من هذه المقابلة هو المقاربة بين حال الأشقياء الخالدين في جهنم وحال السعداء الخالدين في جنات النعيم، ومثل هذه المقابلة كثير في القرآن الكريم.

ومن المقابلة الواردة أيضا في سورة هود قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ...)⁶، فبين (طرفي النهار وزلفا من الليل) تقابل لأن (طرفي النهار) يقصد بها الغدوة والعشي في حين (زلفا من الليل) يقصد بها ساعات الليل⁷.

2/1/5-الطِّي والنَّشْر: الطِّي في اللغة نقيض النَّشْر، طويته طيا وطيية⁸ أي جمعته. بينما النَّشْر من نشر

1 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص462.

2 سورة هود: الآية24.

3 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص466.

4 ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص481.

5 سورة هود: الآية106-108.

6 سورة هود: الآية114.

7 ينظر: الزمخشري: "المصدر السابق"، ص500.

8 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج4، ص209.

الثوب: بسطه¹.

أمّا في اصطلاح البلاغيين يعد نوعاً من ألوان البديع المعنوي ويقصد به "أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل أفرادها شائعاً من غير تعيين، اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منها، وورده إلى ما هو له"².

ويسمى أيضاً باللف والنشر، يقول الخطيب القزويني: "اللف والنشر هو ذكر متعدد على جهة التفصيل لا الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه"³. واللف والنشر في القرآن الكريم وجه من وجوه البديع الإعجازي، تظهر فيه ملامح النظم العجيب والاتساق بين الإجمال والتفصيل.

وقد تضمنت سورة هود على هذا النموذج البديعي من ذلك قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)⁴، حيث يقول الزمخشري عن هذه الآية الكريمة بأن الله سبحانه "شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف"⁵. كما قال برهان الدين البقاعي معلقاً على هذه الآية: "ضرب لكل مثلاً بقوله (مثل الفريقين) أي الكافرين والمؤمنين، وهو من باب اللف والنشر المرتب"⁶، فإنّ الكافر ذكر فيما قبل أولاً "كالأعمى"، أي العام العمى في بصره وبصيرته "الأصم" في سمعه كذلك، فهذا للكافرين "والبصير" بعينه وقلبه "والسميع" على أتم أحوالها، وهذا للمؤمنين"⁷.

ومن اللف والنشر في هذه السورة الكريمة قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

1 ينظر: المصدر نفسه: ج 6، ص 185 .

2 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 310.

3 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 366.

4 سورة هود: الآية 24.

5 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص 480-481.

6 يقصد باللف والنشر المرتب أي يكون النشر على ترتيب اللف وعكسه اللف والنشر المشوش.

7 برهان الدين البقاعي: "نظم الدرر"، مصدر سابق، ج 9، ص 263-264.

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ¹.

فالآيات الكريمة جسدت مثالا رائعا للفت والنشر المرتب حيث تكلم الله سبحانه عن كل شقي والسعيد بصفة عامة ثم بسط حديثه عن مصير الأشقياء وثواب السعداء على ترتيب يمثل قمة الإعجاز البديعي، يقول برهان الدين البقاعي عن هذا: "ولما كان أكثر الخلق هالكا مع أن المقام مقام تهديد وتهويل بدأ الله تعالى بالأشقياء ترتيبا للنشر على ترتيب اللف"².

كما تعد هذه الآية الكريمة نموذجا من نماذج الجمع مع التفريق والتقسيم وهذا ما أورده الخطيب القزويني حيث قال: "أما الجمع ففي قوله: (يوم يأتي لا تكلم نفسه إلا بإذنه) فإن قوله "نفس" متعدد المعنى، لأن النكرة في سياق النفي تعم، وأما التفريق ففي قوله: (فمنهم شقي وسعيد)، أما التقسيم ففي قوله تعالى: (فأما الذين شقوا) إلى آخر الآية الثانية"³

والمقصود بالجمع مع التقسيم في الدراسات البلاغية هو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر تحت حكم واحد ثم يقسم ما جمع"⁴.

ويرى الخطيب القزويني أن "التقسيم أعم من اللف والنشر"⁵.

وقد شمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الأسلوب البديعي فجاءت تقسيماته في غاية الصحة التي بلغت درجة الإعجاز.

6- الاستطراد: في اللغة من طرد، أطرده الشيء تبع بعضه بعضا وجرى، واطردت الأشياء إذ تبع بعضها بعضا، وأطرده الكلام، إذ تتابع⁶.

أما اصطلاحا: "هو أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر لمناسبة بينهما، ثم يرجع فينتقل إلى إتمام الكلام الأول."⁷

1 سورة هود: الآية 105-108.

2 برهان الدين البقاعي: "نظم الدرر"، مصدر سابق، ج 9، ص 281.

3 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص 371-372.

4 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص 312.

5 الخطيب القزويني: "المصدر السابق"، ص 369.

6 ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج 4، ص 165.

7 أحمد الهاشمي: "المرجع السابق"، ص 302.

وسماه ابن المعتز بحسن الخروج من معنى إلى معنى¹.

أما عن الاستطراد في القرآن الكريم فيذهب أهل علم البيان إلى القول بأنه لم يرد هذا النوع من البديع في القرآن إلا في موضع واحد وذلك في سورة هود²، في قوله تعالى: (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ)³.

ويقول الطاهر بن عاشور بأن هذه الآية الكريمة احتوت على "الاستطراد بدم ثمود لأنهم كانوا أشد جراحة في مناواة رسل الله، فلما تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب أن يعاد ذكر أشدها كفراً وعناداً فشبهه هلك مدين بهلكهم"⁴.

ثم يتبع الطاهر بن عاشور تفسيره لهذا بقوله: "والاستطراد فن من البديع"⁵

وإن كان بعض أهل البيان يرون بأن الاستطراد لم يرد في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع من سورة هود فإن صاحب البرهان ذكر مواضع أخرى للاستطراد في القرآن الكريم⁶، وذلك في قوله تعالى في سورة ابراهيم: (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ)⁷، وكذلك قوله تعالى في سورة فصلت: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)⁸.

2/1/7-المشاكله: في اللغة من الشكل وهو الشبه والمثل، وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه⁹.

أما اصطلاحاً: "هو أن يزاوج المتكلم بين معنيين في الشرط والجزاء، بأن يرتب على كل منهما معنى رتب على آخر."¹⁰

1 ينظر: ابن المعتز: "البديع"، مصدر سابق، ص60.

2 ينظر: أبو حيان الأندلسي: "تفسير البحر المحيط"، مصدر سابق، ج5، ص258.

3 سورة هود: الآية95.

4 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص154.

5 المصدر نفسه: ص154.

6 ينظر: الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج3، ص300.

7 سورة ابراهيم: الآية45.

8 سورة فصلت: الآية13.

9 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، ج3، ص463.

10 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص309.

وعدّ البلاغيون المتأخرون المشاكلة لونا من ألوان البديع المعنوي، يقول الخطيب القزويني: "ومنه المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا"¹.

والمشاكلة خاصة من خصائص التعبير البديعي في القرآن الكريم²، وقد تضمنت سورة هود مثالا عن ذلك في قوله تعالى: (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)³.

وقال الزمخشري في معنى الآية "مسخر منكم سخرية مثل سخرتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة"⁴.

فقد تضمنت الآية الكريمة مشاكلة لأن الله سبحانه وتعالى "سمى الجاء كذلك اعتداء وسخرية ليكون أوقع في نفس المعتدي فيكف عن الاعتداء، وفي نفس الساخر ليقنع عما هو فيه"⁵.

2/1/8-تجاهل العارف: هو في اللغة من الجهل: نقيض العلم، جهله فلان جهلا، وجهل عليه، تجاهل: أظهر الجهل⁶.

أمّا اصطلاحا: "هو أن يأتي سياق الكلام المعلوم في سياق كلام مجهول حتى أنه يجعل العارف بالشيء المتأكد منه جاهلا"⁷.

وأول من أشار إلى هذا الفن ابن المعتز (ت296هـ) وعده ضمن محاسن الكلام⁸. ونفس الشيء ذهب إليه المتأخرون في إدراج هذا الأسلوب ضمن مباحث علم البديع كالسكاكي وتلميذه الخطيب القزويني، غير أنّ السكاكي لم يجذ تسميته بتجاهل العارف وإنما كان يسميه سوق المعلوم مساق غيره⁹.

ولهذا الأسلوب موضعه في القرآن الكريم لأغراض بلاغية يقتضيها المقام كالمبالغة أو التعجب

1 الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص360.

2 ينظر: عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ج2، ص424.

3 سورة هود: الآية38.

4 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص483.

5 عبد العظيم المطعني: "المرجع السابق"، ج2، ص425.

6 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص480.

7 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص322.

8 ينظر: ابن المعتز: "البديع"، مصدر سابق، ص62.

9 ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص427. وأيضا: القزويني: "الإيضاح"، مصدر سابق، ص319.

أو التوبيخ¹.

وقد تضمنت سورة هود نموذجاً عن هذا الأسلوب البديعي، وذلك في قوله تعالى: (قَالَ يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)²، حيث إنّ الصلاة كانت عماد الأديان كلها وكان المكذبون الملحدون قد تمالؤوا في كل أمة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها ولما كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة ومعروفاً بذلك بين قومه ردوا عليه بالتساؤل المجهول قصد الاستهزاء والتهكم والسخرية³.

إذن: فالآية الكريمة تضمنت تجاهل العارف لأن قوم شعيب عليه السلام تساءلوا عما كانوا يعلمون حقيقته تجاهلاً منهم على سبيل الاستهزاء وليس على سبيل المعرفة.

2/1/9-الإبداع: لغة هو من بدع وأبدع، وهو من يأتي بالبديع، والبديع الشيء الذي يكون أولاً⁴.

أما اصطلاحاً: فالإبداع "هو أن يكون الكلام مشتملاً على عدة أنواع من البديع"⁵.

وذهب بعض البلاغيين إلى تسمية هذا اللون البديعي بسلامة الاختراع، غير أن معظمهم رفض هذه التسمية بناءً على أن الإبداع هو احتواء الكلام على عدد من المصطلحات البديعية، بينما سلامة الاختراع فمختصة بالمعنى الجديد⁶.

ومما لا شك فيه أن أعظم إبداع ورد في القرآن الكريم، هو الذي تجلّى في سورة هود في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)⁷.

1 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص322.

2 سورة هود: الآية 87.

3 ينظر: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج12، ص141، وينظر أيضاً: أبو حيان الأندلسي: "تفسير البحر المحيط"، مصدر سابق، ج5، ص235.

4 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص175.

5 أحمد الهاشمي: "المرجع السابق"، ص 322

6 ينظر: أحمد مطلوب: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، مرجع سابق، ص24.

7 سورة هود: الآية 44.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عدة ألوان بديعية فقد جمعت بين الفصاحة المعنوية والفصاحة اللفظية¹، من ذلك:

-الطباق الموجب بين الأرض والسماء.

-الإئتلاف والتوافق بين الألفاظ ومعانيها.

-الجناس بين أبلغي واقلعي².

وبهذه المحسنات البديعية تحقق الإبداع البديعي الذي بلغ حد الإعجاز لما اشتمل عليه من "المحسن التي هي اللب وما عداها قشور"³.

وبالإبداع نتهي حديثنا عن المحسنات البديعية المعنوية في سورة هود اختصارا لا حصرا لأنّ المحسن المعنوية لا تزال كثيرة، والبّحث فيها معمق ومتشعب.

وبعد ذكرنا للمحسنات المعنوية سنحاول أن نقف على بعض المحسن اللفظية التي تضمنتها سورة هود.

2/2-المحسنات البديعية اللفظية في سورة هود: إذا كانت المحسنات البديعية المعنوية ترجع محاسنها إلى المعنى، فإنّ "المحسنات اللفظية هي ما كان التحسين بها راجها إلى اللفظ بالأصالة، وإن حسنت المعنى تبعاً"⁴.

والمحسنات اللفظية عديدة، سنحاول ذكر بعضها على ضوء سورة هود.

2/2/1-إئتلاف اللفظ مع اللفظ: هو الصنف الثاني من الإئتلاف⁵، وهو كون ألفاظ العبارة من واد واحد في الغرابة والتأمل⁶.

وسبق أن أشرنا فيما سلف إلى الإئتلاف في سورة هود، وركزنا في ذلك على ائتلاف اللفظ مع المعنى، ومثلما أتت ألفاظ هذه السورة في غاية الإئتلاف مع معانيها، أتت ألفاظها كذلك متألّفة متناسقة مع

1 ينظر: السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص421.

2 ينظر: عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني"، مرجع سابق، ج2، ص462-463، وأيضاً: أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، ص318.

3 الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص485.

4 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة"، مرجع سابق، ص298.

5 ينظر: ابن الناظم: "المصباح في البيان والمعاني والبديع"، مرجع سابق، ص251.

6 أحمد الهاشمي: "المرجع السابق"، ص334.

بعضها البعض، وخير مثال على ذلك- بإجماع أهل التفسير والبلاغة- قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)¹.

ويعقب السكاكي عن تناسق الألفاظ في هذه الآية الكريمة بقوله: "وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ماترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن الشاعة، عذبة على العذبات، سلسلة على الأسلات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة."²

وهذا الحسن في التناسق والتآلف بين الألفاظ هو سمة القرآن الكريم عامة³ ووجه إعجازه الذي تفرد به وأبهر العرب.

2/2/2-الجناس: يعد الجناس أحد الأساليب البلاغية وأهم فنونها البديعية اللفظية وهو في مفهومه اللغوي من جنس، ومنه المجانسة والتجنيس، يقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله.⁴

أما عن معناه الاصطلاحي: "هو أن يجيء الكلمة تجانس أخرى بين شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها"⁵

وكان ابن المعتز (ت296هـ) أول من اصطلح مصطلح التجنيس وحصره في مفهومه هذا وعلى خطاه سار جل البلاغيين.

وعلى الرغم من أن ابن المعتز عدّ التجنيس من محاسن الكلام غير أنه لم يحدده في المعنوي منها أو اللفظي وبقي على حاله هذا إلى أن جاء المتأخرون أمثال السكاكي والقزويني وحددوه في مغان المحسنات البديعية اللفظية.⁶

والجناس في البلاغة ينحصر في نوعين أساسيين هما:

1 سورة هود: الآية 44.

2 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص421.

3 ينظر: عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ج2، ص445.

4 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج1، ص471.

5 عبد الله بن المعتز: "البديع"، مصدر سابق، ص25.

6 ينظر: السكاكي "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص429. وينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة"، مصدر سابق، ص393.

***أولهما:** الجناس التام: وهو ما اتفق فيه اللفظين في أربعة أمور هي: أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها.

* **ثانيهما:** الجناس غير التام (الناقص): وهو ما اختلف فيه اللفظين في أمر واحد من الأمور التي بنت الجناس التام ويتفقا في سائرهما¹.

وللجناس أمثلة في القرآن الكريم التي جاءت في غاية الدقة والفصاحة اللفظية، وفي سورة هود نماذج رائعة عن الجناس القرآني من ذلك :

قوله تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)²

فالجناس في هذه الآية الكريمة يظهر بين لفظي فضل وفضله، فالكلمتان تشابهان في اللفظ وتختلفان في المعنى، حيث أن المقصود "بالفضل الأول العمل والثاني الثواب"³، وهو من باب الجناس التام لاشتراك اللفظتين وتشابههما في نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها.

ومن الجناس الوارد أيضا قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي)⁴

والجناس هنا يكمن بين ابلعي واقلعي، وهو من باب الجناس الناقص لاختلافهما في حرف واحد وهو "الباء" في ابلعي و"القاف" في اقلعي.

وكذلك يظهر الجناس في قوله تعالى: (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ)⁵، وذلك بين الورد والمورود، وهو جناس ناقص لأنهما اختلفا في: عدد الحروف.

ونفس الأمر في قوله تعالى: (وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ)⁶

حيث يظهر أن نوع الجناس الوارد في الآية الكريمة هو الجناس الناقص وذلك بين لفظي الرفد والمرفود.

1 ينظر: أحمد مطلوب، حسن البصير: "البلاغة والتطبيق"، مرجع سابق، ص251.

2 سورة هود: الآية3.

3 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج4، ص100.

4 سورة هود: الآية44.

5 سورة هود: الآية98.

6 سورة هود: الآية99.

وبعد هذا الوقفة مع الجناس في سورة هود نستنتج بأن الجناس في القرآن الكريم "جاء على أحسن صورة وأجمل موقع لا تكلف فيه، ولا تصنع، ولا جور على المعنى لحساب اللفظ، ولا اقتصار للفظ بدون دلالة حسنه"¹.

فالجناس القرآني هو جناس فطري لا تكلف فيه ولا تصنع، وشتان بين الجناس الإلهي المعجز، والجناس البشري المتكلف.

2/2/3-الفاصلة: هي في اللغة- كما أشرنا فيما سلف في حديثنا عن الوصل والفصل- من فصل، والفصل: البون بين الشئين، والفصل من الجسد موضع المفصل، والفاصلة: الحزرة التي تفصل بين الحزرتين في النظام، وقد فصل النظم، وعقد مفصل أي جعل بين كل لؤلؤتين حزرة.²

أمّا اصطلاحاً: "الفاصلة هي كلمة آخر الجملة، وهي بالنسبة للآية ككافية الشعر وقرينة السجع"³ فالفاصلة القرآنية هي "ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية"⁴، مما ينتج عنه إيقاعاً موسيقياً خلافاً يطرب السامعين، ويؤثر في نفوسهم تأثيراً بالغاً.

ولعل من أهم القضايا الحساسة التي طرحت في الدراسات البلاغية القرآنية قضية نظم الفواصل في القرآن الكريم وعلاقتها بالسجع، حيث إنّ أغلب البلاغيين وعلماء الإعجاز نفوا السجع عن القرآن وحبذوا مصطلح الفاصلة القرآنية.

حيث نجد الرماني (ت386هـ) يقول: "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعنى، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني أما الأسجاع فالمعاني تابعة لها."⁵ وعقد الباقلاني (ت403هـ) فصلاً في كتابه "إعجاز القرآن سماه" في نفي السجع من القرآن"⁶، ويبرر الباقلاني موقفه في نفي السجع عن القرآن بقوله: "ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز."⁷

1 عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ج2، ص443.

2 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج5، ص134-135.

3 بغداددي بلقاسم: "المعجزة القرآنية"، مرجع سابق، ص276.

4 فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "إعجاز القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص225.

5 الرماني: "النكت في إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص97.

6 الباقلاني: "إعجاز القرآن"، مصدر سابق، ص87.

7 المصدر نفسه، ص87.

إذن: لقد نفى الباقلاني السجع عن القرآن الكريم، وقال بأن ما يعرف عند العرب بالسجع، وهو الفاصلة في القرآن الكريم¹، وشتان بين سجع العرب، والفواصل القرآنية التي أتت في غاية التناسب الإيقاعي، والرونق الإعجازي.

وإن كانت الفاصلة القرآنية هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع². إلا أن الفرق واضح بين شعر العرب وأسجاعهم وفواصل القرآن، يقول الرماني عن هذا "وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليه، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة، وذلك لأنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة"³.

وخلاصة ما نستنتجه نحن من هذا هو أن علماء الإعجاز تواضعوا على تسميته خواتم كلمات الآيات القرآنية بالفواصل ولا ينبغي تسميتها بالسجع، ونحن نشاطرهم كذلك الرأي.

ويرى الدارسون أنّ الفاصلة مصطلح قرآني، ويظهر ذلك في مواضع عدة من القرآن الكريم من ذلك:

يقول تعالى: (كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)⁴،

ويقول عز وجل أيضا: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)⁵،

وأیضا قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)⁶.

وربما سميت بذلك لأن بها يتم المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوة، وهذا لأن التفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان، ومكانة الفاصلة من الآية القرآنية مكانة القافية من البيت الشعري، إذ بها تصبح الآية لبنة أساسية في بناء هيكل السورة⁷.

ومثلما انتصر الأقدمون للفاصلة القرآنية، انتصر كذلك المحدثون لهذا المصطلح البديعي ورأوا بأن سر الإعجاز القرآني يكمن في تناسقه الفني وإيقاعه الموسيقي الرّثام الذي يتولد عن فواصله، يقول عن هذا الرّافعي بأنّ العرب "لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة ألحانها لغوية رائعة كأن

1 ينظر: المصدر نفسه: ص 89.

2 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج 1، ص 53.

3 الرماني: "المصدر السابق"، ص 98.

4 سورة فصلت: الآية 3.

5 سورة فصلت: الآية 44.

6 سورة هود: الآية 1.

7 ينظر: أحمد البدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص 64.

لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها في توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة جرح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً، أو باباً منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنما هي أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو سجعاً¹. وفي ذات المعنى يذهب سيد قطب إلى القول بأنّ منبع السحر في القرآن الكريم يعود إلى ترابط فواصله وتناسقها تناسقاً دقيقاً².

هذا التناسق الذي جعل من القرآن الكريم نصاً بلاغياً متفرداً ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعة، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك ولكنك مع ذلك تقرّأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته³. ولعل الشرف في هذا التناسق الفني الذي تفرد به كتاب الله تعالى يعود إلى فواصله، يقول عن هذا الزركشي بأنّ الفاصلة القرآنية هي الطريقة التي يبين القرآن بها سائر الكلام⁴.

وسورة هود ليست بدعا من فواصل القرآن الكريم، بل أتى نظمها في غاية التناسق البديع، والاختيار الدقيق الذي يمثل الإبداع الإلهي المعجز، والبون الشاسع بين فواصل القرآن الكريم، وتسجيع العرب الوضعي المتكلف، من ذلك قوله تعالى: (الر كتابٌ أَحَكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)⁵ ففاصلة الآية القرآنية تكمن في قوله تعالى: (مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) ولا يصلح لهذه الآية الكريمة غير هذه الفاصلة لأن القرآن الكريم كتاب محكم إحكاماً رصيناً، ومفصل تفصيلاً بيناً ولا يقوم بهذا الفعل إلا الحكيم بإبداع الصنع، والخبير بخفايا الأشياء وكيفيات الأمور⁶.

ثم تلى هذه الفاصلة فاصلة أخرى في قوله تعالى: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)⁷

1 الرفاعي: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، مصدر سابق، ص214.

2 ينظر: سيد قطب: "التصوير الفني في القرآن"، مصدر سابق، ص19-20.

3 محمود السيد شيخون: "الإعجاز في نظم القرآن"، مرجع سابق، ص66.

4 الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص54.

5 سورة هود: الآية1.

6 ينظر: الزمخشري: "الكشاف"، مصدر سابق، ص476، وينظر أيضاً: الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج11، ص315.

7 سورة هود: الآية2.

وتتجلى الفاصلة في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى (إني لكم منه نذير وبشير) وذلك لتناسبها مع ما ابتدأت به الآية، يقول الطاهر بن عاشور في تفسيرها "فإن مضمون البشير والنذير هو جامع عمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - في رسالته فهو بشير آمن وآمن وأطاع، ونذير لمن أعرض وعصى... والجمع بين النذارة والبشارة لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله بطريق النهي وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول والبشارة ترجع إلى الجزء الثاني"¹

إن الناظر في الفاصلة القرآنية يدرك دقة اختيارها وأنها مناسبة مع مضمون الآية ومحتواها. ومن روائع الفواصل التي تجلت في سورة هود قوله تعالى: (قالوا يا شعيبُ أصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا ما نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)²

ففاصلة هذه الآية تكمن في قوله تعالى: (إنك أنت الحليم الرشيد)، وقد عد الزركشي هذه الفاصلة من باب ائتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام، أو بالأخص ما يعرف بالتمكين³ وهو أن يمهّد قبلها تمهيدا تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافذة ولا قلقة، متعلق معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما حيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم.⁴

والتأمل في هذه الفاصلة يلمح هذا الأمر فيها حيث أنه "لما تقدم ذكر العبادة والتصرف في الأموال كان ذلك تمهيدا تاما لذكر الحلم الورشد، لأن الحلم الذي صح به التكليف والرشد حسن التصرف في الأموال، فكان آخر آية مناسبة لأولها متناسبة معنوية، ويسميه بعضهم ملاءمة"⁵.

وهذه سمة لفواصل القرآن جميعها سر من أسرار الإعجازية حيث أن كل فاصلة في القرآن الكريم تؤدي في مكانها جزءا من معنى الآية ينقص ويختل بنقصانها.⁶

وحسبنا أن نقف عند هذا القدر من حديثنا عن الفواصل في سورة هود، وما ذكرناه كان على سبيل المثال لا الحصر لأنّ دراسة الفواصل والإمام بجميع مكامن إعجازها يتطلب دراسة مستفيضة لا تليق بمقامنا الضيق، حيث إنّ كل فاصلة تظهر فيها الدقة والإحكام يظهر فيها الإعجاز مشرقا متألقا¹.

1 الطاهر بن عاشور: "التحرير والتنوير"، مصدر سابق، ج11، ص316.

2 سورة هود: الآية 87.

3 ينظر: الزركشي: "البرهان في علوم القرآن"، مصدر سابق، ج1، ص78.

4 المصدر نفسه: ج1، ص79.

5 المصدر نفسه: ج1، ص80.

6 أحمد بدوي: "من بلاغة القرآن"، مرجع سابق، ص65.

فقد جسدت سورة هود من خلال فواصلها الإبداع الإلهي المعجز، حيث اختيرت هذه الفواصل بدقة إلهية فائقة جامعة في ذلك بين محاسن اللفظ، وبديع الإيقاع والغرض المعنوي الذي يتطلبه السياق المقامي وتقتضيه الحكمة الإلهية².

2/2/4-الموازنة: هي في اللغة من وزن، وازنه: عادله وقابله³.

أما اصطلاحاً: "هي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية"⁴.

وعدّ الخطيب القزويني الموازنة من باب المحسنات البديعية اللفظية، وسماه أيضاً بالمماثلة، وذلك لأن إحدى القريبتين من الألفاظ تماثل ما يقابلها في الوزن.⁵

وقد تجسد هذا الأسلوب البديعي في القرآن الكريم، ويظهر في سورة هود في قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنْهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)⁶، حيث وازن الله سبحانه وتعالى بين السعيد والشقي.

ومن الموازنة الموجودة في هذه السورة الكريمة أيضاً قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُؤَفِّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)⁷، فوازن الله سبحانه وتعالى بين مجدوذ ومنقوص.

وهذا ما تيسر لنا ذكره من حديث عن البديع اللفظي في سورة هود، وما تم لاقتصار عليه كان على سبيل المثال لا الحصر، لأنّ العدد لا ينحصر في هذه الأنواع بل يتعداه إلى أنواع أخرى لا يتسع المقام إلى ذكرها جميعاً، إلا أن الغاية من هذه المحسنات واحدة -سواء التي ذكرت أم التي لم تذكر- هي الكشف عن جمال القرآن ومنتهى إعجاز البديع.

1 فضل حسن عباس، سناء فضل عباس: "إعجاز القرآن الكريم"، مرجع سابق، ص231.

2 ينظر: المرجع نفسه: ص226.

3 ينظر: ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ج6، ص436

4 أحمد الهاشمي: "جواهر البلاغة ط، مرجع سابق، ص331.

5 ينظر: الخطيب القزويني: "الإيضاح في علوم البلاغة ط، مصدر سابق، ص406.

6 سورة هود: الآية 105-106.

7 سورة هود: الآية 108-109.

فقد مثلت سورة هود نموذجاً رائعاً عن البديع الإعجازي في القرآن الكريم الذي تحدى العرب بخروجه عن مألوفه وخرقه لعاداتهم وسننهم، حيث إنّ البديع في القرآن هو "بديع فطري جرى مع طبيعة الأسلوب، ولم يصر إليه إلى حلية لفظ أو تزويق عبارة، وهو فيه سمة من سمات إعجازه وحسنه سواء أكان راجعاً إلى المعنى أو راجعاً إلى اللفظ وحسنه ذاتي لا عرضي، ولو ذهبنا ننحى ماجاء من بديع القرآن عن أصالة أسلوبه وروعة معانيه، لذهبنا بشرط الحسن فيه لقوة صورته وأصاله ووروده فيه"¹.

وخلاصة القول: فإنّ سورة هود مثلت لنا معجماً بلاغياً لما احتوت عليه من أفانين البلاغة القرآنية المقدسة والبيان الإلهي المعجز الذي أعجز بجماله الثقلين إنسهم وجنّهم، فهي مع أسلوبها القصصي الهادف الذي أعطى التّموذج الأمثل للتّربية الحضارية تزينت بروائع من مباحث البلاغة والبيان الإلهي لتضرب بذلك نموذجاً فريداً عن البلاغة القرآنية المتفردة.

ولعل خير ما نختتم به كلامنا مقال الدكتور عبد الله دراز: "لعمري لعن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم التّفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنّ في ترتيب أيه على هذا الوجه هو معجزة المعجزة"².
"ولله در شأن التنزيل، لا يتأمل العالم آية من آياته إلاّ أدرك لطائف لا تتسع الحصر"³، وعليه فسورة هود ليست مقصورة على ما ذكر منها في هذه الصّفحات، فلعل ماترك أكثر مما ذكر، يقول الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)⁴
فالقرآن الكريم بحر الله الذي لا تنفذ مكامن بلاغته الإعجازية، ومنهاج تربوي صالح ينفع الأمة العربية الإسلامية في كل زمان ومكان للنهوض بمسؤوليتها من جديد في بناء صرح الحضارة الإسلامية، وإثبات الخصوصية القرآنية التي تفردت بها على العالمين تكليفاً وتشريفاً.

1 عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، مرجع سابق، ج2، ص477.

2 عبد الله دراز: "النّبأ العظيم"، مصدر سابق، ص211

3 السكاكي: "مفتاح العلوم"، مصدر سابق، ص421

4 سورة لقمان: الآية 27

خاتمة

خاتمة:

كانت دراستنا رحلة طيبة في رحاب كتاب الله تعالى، وفي ظلال بلاغته الربانية الإعجازية، وبالتحديد مع سورة هود، وبعد طول عناء وجهد نقف في ختام هذا البحث على تعداد أهم النتائج التي توصلنا إليها وهي:

أولاً: القرآن الكريم كتاب الله تعالى الذي نزل في العرب تكريماً وتشريفاً قبل أن يكون تحدياً وإعجازاً، ومُعجزةً محمد صلى الله عليه وسلم التي تفرد بها عن سواه من الأنبياء والمرسلين، والإعجاز القرآني هو إثبات عجز العرب خاصة والخلق عامة إنسهم وجنهم على الإتيان بمثل القرآن الكريم قصد إظهار صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- في دعوته.

ثانياً: تُثبتُ الدِّراسات الإعجازية على الرَّغم من تعدد مصادرها واختلاف مدارسها بالإجماع على أنَّ القرآن الكريم معجز على الوجه البلاغي، وأنَّ قضية الإعجاز القرآني كان لها الفضل الأكبر في تأسيس مباحث البلاغة في الدِّراسات العربية الإسلامية، وظلت مسيرة الدِّراسات الإعجازية البلاغية التي خاض غمارها نخبة من خيرة علماء البلاغة والدِّراسات القرآنية عبر قرونٍ متتالية دلالة على عناية المسلمين بالقرآن الكريم وبلاغته، والرَّد على الطَّاعنين والمشككين في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: إنَّ البلاغة القرآنية هي البلاغة التي عجز البشر عن الإتيان بمثلها لأتَّها بلاغة إلهية منزهة عن الخلل والتَّقصان وتبلغ معالي السَّمو الرِّباني، وتعلو عن بلاغة البشر علو الله على جميع خلقه.

رابعاً: يعد علم البلاغة القرآنية حلقة وصل بين علوم قرآنية متعددة كالتفسير والتأويل وعلم المناسبات والفقهاء مما يشكل دائرة موسوعية متكاملة المعارف في الحضارة العربية الإسلامية، وقد شغلت قضية الإعجاز والبلاغة القرآنية مساحة كبيرة في الفكر الحضاري الإسلامي، لأتَّها القضية الوحيدة التي تفردت بها الحضارة العربية الإسلامية عن سواها من الأمم والملل، فقد كان لعربية القرآن الكريم فضل على الأمة العربية التي أصبحت بعد نزول القرآن الكريم أمة الرِّسالة الخاتمة والدِّين الإسلامي الخالد، مما ضمن لها البقاء وحفظها من الاندثار والزوال وأودع فيها بذرة العز والشرف والخير على مرِّ العصور والأزمان.

خامساً: لقد ثَبَّت لنا بعد مقارنتنا بين البلاغة القرآنية وبلاغة الكتب السَّماوية الأخرى، وبين البلاغة الوضعية من بلاغة اليونان والفرس وغيرها أنَّ البلاغة القرآنية بلاغة متفردة لها قدسيته المستنبطة من قدسية كتابها الكريم، وهذا ما لا نجد في بلاغة أيِّ أمة من الأمم. وقد أسهمت البلاغة القرآنية بدور فعال في

التفاعل بين الحضارات و الأمم، حيث لفتت إليها عيون الكثير من الأعاجم الذين دخلوا الإسلام واستهوت قلوبهم بسحر بيانها وجمال بديعها الالهي، وتعدُّ البلاغة القرآنية مصدرًا من مصادر الحضارة العربية الإسلامية والبحث فيها فريضة إسلامية وواجب ديني على أبناء الأمة العربية الإسلامية.

سادسًا: يتجلى في الجانب التطبيقي بعد القراءة والتحليل أنّ الأسلوب القصصي يأخذ الحيز الأكبر من أساليب القرآن الكريم، وسورة هود واحدة من السور القرآنية التي احتوت هذا الجانب حيث تعرضت لسلسلة متنوعة من قصص الأنبياء والمرسلين، ومصير الحضارات الغابرة والأمم البائدة.

سابعًا: القصص القرآني نموذج رائع من نماذج الأسلوب القرآني يجمع بين التهذيب التربوي الرباني، والتفرد الإعجازي البلاغي، فالقصة القرآنية تتميز بخطاب سردي متفرد عن الخطابات السردية الوضعية، بل حتى على الخطابات السردية الواردة في الكتب السماوية التي تعرضت للتحريف والتبديل مثلما هو الحال في التوراة والإنجيل، وذلك لأن مصدرها السردية يعود إلى الوحي الإلهي المنزه والمحفوظ من التحريف والتبديل، وقصص سورة هود من القصص القرآنية التي أصلت لقيم التربية الحضارية الإسلامية، وأعطت نموذجًا راقيا في أسباب قيام الحضارات وزوالها، وهي بهذا تمثل رصيذا كافيا من الدروس والتجارب الحضارية التي يمكن أن تفيد الأمة العربية الإسلامية في بناء مجدها الحضاري من جديد، وتكمل مشوارها في الشهود الحضاري على الأمم.

ثامنا: تزينت سورة هود بأفانين البلاغة القرآنية، والبيان الإلهي المعجز، مما جعل منها مرجعا بلاغيا يجمع علوم البلاغة الثلاثة (المعاني-البيان-البديع)

تاسعًا: إنّ الأساليب البلاغية التي عرضتها سورة هود تعد نموذجًا فريدًا يعبر عن مدى البون الشاسع بين بلاغة القرآن الكريم، وبلاغة البشر الوضعية.

عاشرًا: بينت سورة هود مدى امتلاك الأمة العربية الإسلامية لرصيد بلاغي وكنز بياني لا تنفذ أسراره، ولا تنتهي مكانه، وما ذلك إلا قليلا من كثير، وإنّ الباحث في القرآن الكريم وبلاغته، يستوقفه تساؤل عصيب هو: أين الأمة العربية الإسلامية اليوم من هذا الكنز البلاغي؟ ولماذا تحاول أمتنا أن تتخلى عن هويتها اللغوية العربية، وخصوصيتها البلاغية المتفردة؟

وقد ارتأيت في ختام هذا البحث تقديم مجموعة من التوصيات، والتي أتمنى أن تجد آذانًا صاغيةً وعقولاً واعيةً تستوعب المعنى وتدرك الفحوى منها.

أ- أن تعود الأمة العربية الإسلامية إلى القرآن الكريم حفظاً وفهماً وتدبراً.

ب- الإقبال على دراسة البلاغة القرآنية، وتوجيه عناية الباحثين وطلبة العلم إلى الاهتمام بها واستنباط مكانتها الإعجازية، لأنها - حسب رأيي - من أجلّ العلوم وأشرفها.

ج- أن تنال دراسة البلاغة القرآنية اهتماماً يليق بها، وتتجه العناية بمباحثها في المناهج التربوية والتعليمية .

د- أن تجد البلاغة القرآنية أيداً مخلصه تنفق مداد أقلامها في الكتابة في مضامينها، وإحياء سيرة الأسلاف في الدراسات الإعجازية.

-وعلى الله قصد السبيل-

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

*القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أولاً: الكتب

- 1- ابن الأثير، ضياء الدين: "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، مصر، القاهرة، دار النهضة للطباعة والنشر، ط1، 1، ج1، ج2.
- 2- ابن باديس، عبد الحميد: "تفسير ابن باديس"، الجزائر، منشورات المعارف، دط، 1991م.
- 3- ابن جني، أبو الفتح عثمان: "سر صناعة الأعراب"، تحقيق تعليق: أحمد فريد أحمد، القاهرة، المكتبة التوفيقية، دط، ج1.
- 4- ابن خلدون، عبد الرحمن: "المقدمة"، خرج نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار يعرب، ط1، 1425هـ-2004م.
- 5- ابن عاشور، محمد الطاهر: "التحرير والتنوير"، تونس، الدار التونسية للنشر، دط، 1984م، ج11، ج12.
- 6- ابن عاشور، محمد الطاهر: "مقاصد الشريعة الإسلامية"، تحقيق ومراجعة: الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دط، 1425هـ-2004م، ج2.
- 7- ابن فارس، أبو الحسن أحمد: "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها"، تحقيق: مصطفى الشومبي، بيروت، مؤسسة بدران، 1382هـ-1963م.
- 8- ابن فارس، أبو الحسين أحمد: "مقاييس اللغة"، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، بيروت، دار الفكر، دط، 1992م.
- 9- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: "تأويل مشكل القرآن"، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط2، 1993هـ-1973م.
- 10- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل: "تفسير القرآن العظيم"، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دب ن، دار الطيبة، 1420هـ-1999م، ج1، ج4.
- 11- ابن المعتز، عبد الله: "كتاب البديع"، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس: اغناطيوس كراتشكوفسكي، بيروت، دار المسيرة، ط3، 1402هـ-1982م.

- 12- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: "لسان العرب"، لبنان، بيروت، دار صادر، ط1، 1997م، ج1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9.
- 13- ابن التّائظم، بدر الدين بن مالك: "المصباح في المعاني والبيان والبديع"، حققه الدكتور: عبد الجليل يوسف، الحلمية الجديدة، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، دط، دت.
- 14- ابن نبي، مالك: "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين"، تقديم: عمر مسقاوي، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط6، 1427هـ-2006م.
- 15- ابن نبي، مالك: "شروط النهضة"، ترجمة: عمر مسقاوي، عبد الصبور شاهين، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط6، 1427هـ-2006م.
- 16- ابن نبي، مالك: "الظاهرة القرآنية"، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تقديم: محمود محمد شاكر، محمد عبد الله دراز، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط4، 1420هـ-2000م.
- 17- ابن هاشم: "السيرة النبوية"، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري، عبد الحفيظ شلي، القاهرة، مطبعة الحلبي، ط2، 1375هـ-1955م، ج1.
- 18- أبو زهرة، محمد: "تاريخ الجدل"، لبنان، بيروت، دار الفكر العربي، دط، دت.
- 19- أبو زيد، أحمد: "التناسب البياني في القرآن"، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، دط، 1992م.
- 20- أبو علي، محمد بركات حمدي: "الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية"، عمان، دار وائل للطباعة والنشر، ط1، 1999م.
- 21- أبو علي، محمد بركات حمدي: "البلاغة عرض وتوجيه وتفسير"، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، 1403هـ-1983م.
- 22- أبو موسى، محمد، محمد: "الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم"، مصر، مكتبة وهبة، ط1، 1405هـ-1984م.
- 23- أبو موسى، محمد حسين: "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ووأثرها في الدراسات البلاغية"، القاهرة، دار الفكر العربي، دط، دت.
- 24- الأشعري، أبو الحسن: "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين"، عني بتصحيحه: هلموت دريتر فراتر تشايز، بقسبادن، ط3، 1980م، ج1.

- 25- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: "المفردات في غريب القرآن"، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، لبنان، بيروت، دار المعرفة، دط، دت.
- 26- الألباني، محمد ناصر الدين: "سلسلة الأحاديث الصحيحة"، بيروت، المكتب الإسلامي، ط1، 1399هـ-1977م.
- 27- الألمعي، زاهر عواض: "مناهل الجدل في القرآن الكريم"، دب ن، مطابع الفرزدق التجارية، دط، دت.
- 28- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف: "البحر المحيط في التفسير"، دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-الشيخ علي محمد معوض لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ-1993م، ج1، ج5، ج9.
- 29- أولمان ستيفن: "دور الكلمة في اللغة"، ترجمة: كمال بشر، القاهرة، مكتبة الشباب، دط، دت.
- 30- الباجي، أبو الوليد: "المنهاج في ترتيب الحجاج"، تحقيق: عبد المجيد التركي، المغرب، دار المغرب الإسلامي، ط2، 1987م.
- 31- باحاذق، عمر محمد عمر: "أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني"، دمشق، دار المأمون، ط1، 1414هـ-1994م.
- 32- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: "إعجاز القرآن"، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1977م.
- 33- باورا: "الأدب اليوناني في القديم"، ترجمة: محمد علي، وأحمد سلامة محمد، راجعه: محمد صقر خفاجة، مصر، القاهرة، دار سعيد، دط، دت.
- 34- البخاري، محمد بن اسماعيل: "صحيح البخاري"، اعتمنى به: أبو عبد الله محمود بن الجميل، القاهرة، مكتبة الصفا، ط1، 1423هـ-2003م، ج1، ج2، ج3.
- 35- بدوي، أحمد أحمد: "من بلاغة القرآن"، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر، دط، مارس 2004م.
- 36- بركة، فاطمة طبال: "النظرية الألسنية عند رمان جاكسون"، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1993م.
- 37- بركة عبد الغني محمد سعد: "الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره"، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1409هـ.
- 38- البغا، مصطفى ديب، متو، محي الدين ديب: الواضح في علوم القرآن "دن ب، دار الكلام الطيب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1418هـ-1998م.

- 39-البغدادي،عبد القادر:"أصول الدين"،استانبول،مطبعة الدولة،دط،1928م.
- 40-البغدادي،عبد القاهر:"الفرق بين الفرق وبيان الفرقة للناجية منهم"،دراسة وتحقيق:محمد عثمان الخشن،القاهرة،مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع،دط،دت.
- 41-البقاعي،برهان الدين:"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"،القاهرة،دار الكتاب الإسلامي،دط،دت،ج9.
- 42-بلعيد،صالح:"نظرية النظم"،الجزائر،دار هومة للطباعة والنشر،دط،2000م.
- 43-بلقاسم،بغدادى:"المعجزة القرآنية"،الجزائر،بن عكنون،ديوان المطبوعات الجامعية،دط،دت.
- 44-بنت الشاطىء،عائشة عبد الرحمن:"الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق-دراسة قرآنية لغوية وبيانية"،القاهرة،دار المعارف،ط3،دت.
- 45-بنت الشاطىء،عائشة عبد الرحمن:"التفسير البياني للقرآن الكريم"،مصر،دار المعارف،ط5،دت،ج1.
- 46.-البوصري،أحمد بن اسماعيل:"تحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة"،تحقيق:أبي عبد الرحمن عادل ابن سعد،وأبي اسحاق بن اسماعيل،الرياض ،مكتبة الرشيد،ط1،1419،1998م.
- 47-البوطي،محمد سعيد رمضان:من روائع القرآن -تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزوجل -"بيروت،مؤسسة الرسالة،دط، 1420هـ-1999م.
- 48-البوطي،محمد سعيد رمضان:"منهج الحضارة الإنسانية في القرآن"،سوريا،دمشق،دار الفكر،ط3،1998م
- 49-بوكاي موريس:"القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"،القاهرة،مكتبة مدب
- 50-الترمذي،الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى:"سنن الترمذي"،تعليق:محمد ناصر الدين الألباني،السعودية،الرياض،مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط1،دت.
- 51-التميمي،أبو عبيدة معمر بن المثنى:"مجاز القرآن"،عرضه بأصوله وعلق عليه:الدكتور محمد فؤاد سزكين،القاهرة،مكتبة الخانجي،دط،دت،ج2.
- 52-التميمي،الإمام أحمد بن علي بن المثنى:"مسند أبو يعلى الموصلي،تحقيق:حسين سالم أسد،دمشقن دار المأمون،1404هـ-1984م،ج2.
- 53-التونجي،محمد:"المعجم المفصل في الأدب"،لبنان،بيروت،دار الكتب العلمية،ط2،1419هـ-1999م.

- 54- التويجري، عبد العزيز بن عثمان: "الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي"، الرباط، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط2، 1436هـ-2015م.
- 55- التويجري، عبد العزيز بن عثمان: "خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل"، الرباط، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط2، 1436هـ-2015م.
- 56- التويجري، عبد العزيز بن عثمان: "اللغة العربية والعولمة"، دب ن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، أيسيسيكو، دط، 1429هـ-2008م.
- 57- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: "البيان والتبيين"، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط7، 148هـ-1998م، ج1، ج2، ج3.
- 58- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: "الحيوان"، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجليل، دط، 1996م، ج1، ج3.
- 59- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: "الرسائل- حجج النبوة"، دب ن، السندوني للنشر، دط، دت.
- 60- الجازم، علي أمين مصطفى: "البلاغة الواضحة مع دليلها-البيان، المعاني، البديع"، لبنان، بيروت، دار الفكر، ط1، 2006م.
- 61- جاكسون رومان: "القضايا الشعرية"، ترجمة: محمد الولي، ومبارك حنون، الدار البيضاء، دار البرتقال للنشر، ط1، 1988م.
- 62- الجرجاني، عبد القاهر: "أسرار البلاغة في علم البيان"، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ-2001م.
- 63- الجرجاني، عبد القاهر: "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاعر، جدة، دار المدني، ط3، 1413هـ-1992م.
- 64- الجرجاني، عبد القاهر: "الرسالة الشافية"، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلال سلام، مصر، دار المعارف، ط2، 1968م.
- 65- الجرجاني، علي بن محمد: "التعريفات"، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب، ط1، 1405هـ.
- 66- الجلال، ماجد زكي: "تعلم القيم وتعليمها"، عمان، دار المسيرة، ط3، 1430هـ-2010م.
- 67- الجوزية، شمس الدين بن القيم: "الأمثال في القرآن الكريم"، تحقيق: سعيد محمد نمو الخطيب، لبنان، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط2، 1430هـ-1983م.

- 68- الجوزية، شمس الدين بن القيم: "كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان"، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت، القاهرة، مكتبة القرآن للطباعة والنشر، دط، دت.
- 69- الجوهري: "تاج العدة وصحاح العربية"، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دط، 1982م.
- 70- جيرو، بير: "الأسلوبية"، ترجمة: منذر عياشي، حلب، دار الحاسوب للطباعة، ط2، 1994م.
- 71- الحارثي، عبد الوهاب أبو صفية: "دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم"، الأردن، عمان، دار عمار للنشر والتوزيع، ط1، 1409هـ.
- 72- الحازمي، خالد بن أحمد: "أصول التربية الإسلامية"، دار عالم الكتب، ط1، 1420هـ-2000م.
- 73- حامدي، عبد الكريم: "مقاصد القرآن من تشريع الأحكام"، دب ن، دار ابن حزم، دط، 1429هـ.
- 74- الحرالي، أبو الحسن: "رسالة مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل"، تحقيق: محامدى الخياط، المغرب، ط1، 1418هـ.
- 75- حريز، سامي محمد هشام: "نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا"، الأردن، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، دط، 2006م.
- 76- حسان تمام: "اللغة العربية معناها ومبناها"، المغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة، دط، 1994م.
- 77- حسان، تمام: "مقالات في اللغة والأدب"، القاهرة، عالم الكتب، ط1، 2006م، ج2.
- 78- حسنة، عمر عبيد: "حتى يتحقق الشهود الحضاري"، بيروت، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دط، 1412هـ-1991م.
- 79- حسنة، عمر عبيد: "الوراثة الحضارية"، دمشق، المكتب الإسلامي، ط1، 1424هـ-2003م.
- 80- حسين، طه: "من حديث الشعر والنثر" مصر، دار المعارف، دط، دت.
- 81- الحطيئة: "ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت"، دراسة وتبويب: مفيد محمد قميحة، لبنان بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ-1993م.
- 82- الحمصي نعيم: "فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر"، لبنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1400هـ-1980م.
- 83- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني"، الأردن، عمان، دار عمار للنشر والتوزيع، ط3، 1429هـ-2008م.

- 84- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: "القصص القرآني عرض وقائع وتحليل وأحداث"، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية، ط1، 1419هـ-1998م، ج1.
- 85- الخفاجي، ابن سنان: "سر الفصاحة"، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، القاهرة، دط، 1969م.
- 86- خفاجي، محمد عبد المنعم: "الحياة الأدبية بعد ظهر الإسلام"، بيروت، دار الجيل، دط، 1410هـ-1990م.
- 87- الخطابي أبو سليمان: "بيان إعجاز القرآن"، ضمن ثلاث رسائل، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، دا محمد زغلول سلام، مصر، دار المعارف، ط3، دت.
- 88- الخطيب، سليمان: "أسس مفهوم الحضارة في الإسلام"، الجزائر، بن عكنون، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، دت.
- 89- الخطيب، عبد الكريم: "الإعجاز في دراسات السابقين"، القاهرة، دار الفكر العربي، دط، 1971م.
- 90- الخطيب، عبد الكريم: "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه"، لبنان، بيروت، دار الفكر، دط، 1965م.
- 91- خلف الله، محمد أحمد: "الفن القصصي في القرآن"، شرح وتعليق: خليل عبد الكريم، لبنان، بيروت، القاهرة، سينا للنشر، الانتشار العربي، ط4، 1999م.
- 92- خليل، أحمد: "المدخل إلى دراسة البلاغة العربية"، لبنان، بيروت، دار النهضة العربية، دط، 1986م.
- 93- خليل، عبد النعيم: "السياق بين القدماء والمحدثين"، الإسكندرية، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، ط1، 2007م.
- 94- خليل، عماد الدين: "قالوا عن الإسلام"، الرياض، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط1، 1412هـ-1992م.
- 95- الخيرو، مازن موفق صديق: "الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني-الالتفات أنموذجاً"، دمشق، مكتبة دار البيان، ط1، 1431هـ-2010م.
- 96- دراز، عبد الله: "النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن"، قطر، الدوحة، دار الثقافة، دط، 1405هـ-1985م.
- 97- دراز، صباح عبيد: "أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية"، مصر، مطبعة الأمانة، ط1، 1406هـ-1986م.

- 98- درويش ،أحمد: "النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي"، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر التوزيع، دط، 1998م.
- 99- ديماس، محمد راشد: "فنون الحوار والقناع"، دب ن، دار ابن حزم، ط1، 1420هـ-1999م.
- 100- الذهبي، محمد حسن: "التفسير والمفسرون"، القاهرة، مكتبة وهبة، ط7، 2000م.
- 101- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز _ في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الشريف"، مصر، القاهرة ، مطبعة الآداب والمؤيد، 1317هـ.
- 102- الرافعي، مصطفى صادق: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، الباب الأخضر، شيرنا الحسين، المكتبة التوفيقية، دط، دت.
- 103- ربابعة، موسى سامح: "الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها"، الكويت، دار الكندي، ط1، 2003م.
- 104- رضا ،رشيد: "الوحي المحمدي- ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة للإسلام"، لبنان، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط3، 1406هـ.
- 105- الرماني، أبو الحسن: "النكت في إعجاز القرآن"، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن حققها وعلق عليها: محمد خلف، محمد زغلول، سلام، مصر، دار المعارف، ط3، 1976م.
- 106- الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان: "بحوث في أصول التفسير ومناهجه"، دب ن، مكتبة التوبة، دط، دت.
- 107- زايد، فهد خليل: "الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن"، الأردن، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط1، 1428هـ-2008م.
- 108- الزبيدي: "تاج العروس"، تحقيق: علي هلاي مطبعة الكويت، ط2، 1407هـ-1987، ج2،
- 109- الزرقاني، محمد عبد العظيم: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، حققه واعتنى به: فواز أحمد زمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1415هـ-1995م، ج1، ج2.
- 110- الزركشي، بدر الدين: "البرهان في علوم القرآن"، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط3، 1404هـ-1984م، ج1، ج2، ج3، ج4.
- 111- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر: "أساس البلاغة"، تحقيق: محمد باسل عيون السود، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ-1998م.

- 112- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر: "الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل"، اعتنى به: خليل مأمون شي، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ط3، 1430هـ.
- 114- الزنكي، نجم الدين قادر كريم: "نظرية السياق-دراسة أصولية"، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2007م.
- 115- زهران، بدرأوي: "أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث"، القاهرة، دار المعارف، دط، دت.
- 116- الزيات، أحمد حسن: "تاريخ الأدب العربي"، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، دط، دت.
- 117- ساسي، عمار: "الإعجاز البياني في القرآن الكريم-دراسة نظرية تطبيقية في الآيات المحكمات"، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1، 2007م.
- 118- سالم، شريف: "دلائل تحريف الكتاب المقدس"، دب ن، دط، دت، ج1.
- 119- سالم، محمد زغلول: "أثر القرآن في تطور النقد العربي حتى القرن الرابع الهجري"، قدم له: محمد خلف الله أحمد، دب ن، مكتبة الشباب، ط1، دت.
- 120- سالم، محمد زغلول: "النقد العربي الحديث أصوله واتجاهات رواده"، الإسكندرية، منشأة المعارف، دط، دت.
- 121- السامرائي، فاضل صلاح: "الجملة العربية تأليفها وأقسامها"، دب ن، دار الفكر ناشرون وموزعون، ط2، 1428هـ-2007م.
- 122- السامرائي، فاضل صلاح: "على طريق التفسير البياني"، الإمارات العربية المتحدة للنشر العلمي، جامعة الشارقة، ط2، 1428هـ-2007م، ج1.
- 123- ساندريس، فيلي: "نحو نظرية أسلوبية لسانية"، ترجمة: خالد محمود جمعة، دمشق، دار الفكر، ط1، 2003م.
- 124- السحيباني، عبد العزيز: "جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز"، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1429هـ-2008م.
- 125- السد، نور الدين: "الأسلوبية وتحليل الخطاب-دراسة في النقد العربي الحديث"، الجزائر، دار هومه، 1998م، دط، ج1.
- 126- سعيد، إحسان صادق: "علوم البلاغة عند العرب والفرس-دراسة مقارنة"، دمشق، المستشارية الثقافية الإيرانية، ط1، 1421هـ-2000م.

- 127- السكاكي، أبو يعقوب: "مفتاح العلوم"، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1407هـ-1987م.
- 128- السيد، شفيق: "فن القول بين البلاغة العربيو وأرسطو"، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2006م.
- 129- السيوطي، جلال الدين: "الاتقان في علوم القرآن"، تحقيق: أحمد بن علي، دب ن، دار الحديث، دط، 2004م.
- 130- السيوطي، جلال الدين: "التحبير في علم التفسير"، تحقيق: فتحى عبد القادر فريد، الرياض، دار العلوم، ط1، 1402هـ.
- 131- السيوطي، جلال الدين: "تناسق الدرر في تناسب الآيات والسر"، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1406هـ-1986م.
- 132- السيوطي، جلال الدين: "معترك الأقران في إعجاز القرآن"، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ-1988م، ج1.
- 133- الشاطبي، أبو إسحاق: "الموافقات"، تقديم: فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط نصه وعلق عليه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، المملكة العربية السعودية، دار عفان للنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ-1997م، ج4.
- 134- شاكر، محمود محمد: "مداخل إلى إعجاز القرآن"، جدة، دار المدني، ط1، 1423هـ-2002م.
- 135- الشايب، أحمد: "الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط8، 1411هـ-1991م.
- 136- شرف، حفني محمد: "إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق"، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، دط، 1390هـ-1970م.
- 137- الشريف، محمد موسى: "إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء-دراسة نقدية مقارنة"، جدة، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، ط2، 1422هـ-2002م.
- 138- شريفى عبد اللطيف، دراقي زبير: "الإحاطة في علوم البلاغة"، الجزائر، بن عكنون، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2004م.
- 139- شعيب، ابن عبد الله: "البلاغة العربية الواضحة-علم البيان"، الجزائر، عين ميلة، دار الهدى، دط، دت.

- 140- الشنقيطي، محمد الأمين: "معارج الصعود إلى التفسير في سورة هود"، جدة، دار المجتمع، ط1، 1408هـ-1988م.
- 141- الشيباني، عمر التومي: "فلسفة التربية الإسلامية"، ليبيا، طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1395هـ-1975م.
- 142- شيخون، محمد السيد: "الإعجاز في نظم القرآن"، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1398هـ-1978م.
- 143- الصابوني، محمد علي: "التبيان في علوم القرآن"، باكستان، كراتشي، مكتبة البشرى للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1432هـ-2011م.
- 144- الصابوني، محمد علي: "النبوة والأنبياء-دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام ودعوتهم وأثرهم في تفسير مفاهيم البشر"، دمشق، مكتبة الغزالي، بيروت، مؤسسة مناهل العرفان، ط3، 1405هـ-1985م.
- 145- الصابوني، محمد علي: "صفوة التفاسير"، بيروت، دار القرآن الكريم، ط4، 1402هـ-1981م، ج2.
- 146- الصالح، صبحي: "مباحث في علوم القرآن"، لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، دط، 2009م.
- 147- الصعيدي، عبد المتعال: "البلاغة العالية-علم المعاني"، مصر، مكتبة الآداب ومطبعته بالجمايز، ط2، 1411هـ-1991م.
- 148- الصعيدي، عبد المتعال: "دراسات إسلامية"، مصر، دار الفكر العربي، ط1، دت.
- 149- الصغير، محمد حسين علي: "بجاء القرآن خصائصه الفنيّة وبلاغته العربية"، لبنان، بيروت، دار المؤرخ، دط، دت.
- 150- ضيف، شوقي: "البلاغة تطور وتاريخ"، مصر، دار المعارف، ط9، دت.
- 151- الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد: "المعجم الكبير"، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد الحميد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، دط، دت، ج9.
- 152- طبل، حسن: "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"، القاهرة، دار الفكر العربي، دط، 1998م.
- 153- الطيار، مساعد بن سليمان: "فصول في أصول التفسير"، تقديم: محمد بن صالح الفوزان، الدمام، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط3، 1420هـ-1999م.
- 154- الظاهري، كاظم: "بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم"، دب ن، ط1، 1412هـ-1991م.

- 155- عاكوب، عيسى علي-الشتيوي علي سعد: "الكافي في علوم البلاغة-المعاني البيان البديع"، دب ن، الجامعة المفتوحة، دط، 1993م.
- 156- عامر، فتحي أحمد: "بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ"، الإسكندرية، منشأة المعارف، دط، دت.
- 157- عباس، فضل حسن، عباس، سنا فضل: "إعجاز القرآن الكريم"، الأردن، عمان، دار الفرقان، دط، 1991م
- 158- عباس، فضل حسن: "البلاغة فنونها وأفنانها-علم المعاني- "ندب ن، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط2، 1409هـ-1998م.
- 159- عباس، محمد: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني"، دمشق، دار الفكر، ط1، 1999م.
- 160- عبد الباقي، محمد فؤاد: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، دب ن، دار الفكر، ط3، 1992م.
- 161 -- عبد التواب، رمضان: "المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي"، مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، 1417هـ - 1999م
- 162- عبد الرحمن، طه: "تجديد المنهج في تقويم التراث"، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، دت
- 163- عبد الرزاق، حسين اسماعيل: "آلئ التبيان في المعاني والبيان والبديع"، القاهرة، الأزهر، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1405هـ-1985م.
- 164- عبد الغني، أيمن أمين: "الصرف الكافي"، مراجعة: عبده الراجحي، رشدى طعيمة، القاهرة، دار التوفيقية للتراث، دط، دت.
- 165- عبد اللطيف، محمد حماسة: طبناء الجملة العربية" نالقاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع دط، 2003م.
- 166- عبد المطلب، محمد: "البلاغة والأسلوبية"، لبنان، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1994م
- 167- عبد النور، جبور: "المعجم الأدبي"، بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1984م.
- 168- عتر، نور الدين: "علوم القرآن"، دب ن، مطبعة الصباح، ط1، 1414هـ-1993م.
- 169- عتيق، عبد العزيز: "في البلاغة العربية-علم البديع-"، لبنان، بيروت، دار النهضة العربية، دط، 1405هـ-1985م.
- 170- عتيق، عبد العزيز: "في البلاغة العربية -علم البيان"، بيروت، دار النهضة العربية، دط، دت.

- 171- عتيق، عبد العزيز: "في البلاغة العربية - علم المعاني -"، لبنان، بيروت، دار النهضة، ط1، 1430هـ - 2009م.
- 172- عرفة، عبد العزيز معطى: "قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية"، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1985م.
- 173- عرفة، عبد العزيز معطى: "من بلاغة النظم العربي"، دب ن، عالم الكتب، ط2، 1984م.
- 174- العسكري، أبو هلال: "الصناعتين"، تحقيق: علي محمد بجاوي، دب ن، دار الفكر، ط2، 1971م.
- 175- عشراقي، سليمان: "الخطاب القرآني - مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي"، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 1998.
- 176- عظيمة، عبد الخالق: "دراسات لأسلوب القرآن الكريم"، القاهرة، دار الحديث، دط، دت، ج3
- 177- علوان، عبد الله ناصح: "الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية" دب ن، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، دط، دت.
- 178- علوان، محمد شعبان - علوان، نعمان شعبان: "من بلاغة القرآن"، القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، دط، 1998م.
- 179- علوان، فهمي محمد: "القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي"، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1989م.
- 180- العلوي، يحيى بن حمزة: "الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" نتحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 1423هـ - 2000م، ج1.
- 181- العلي، ابراهيم محمد: "الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"، دمشق، دار القلم - بيروت، الدار الشامية، ط1، 1416هـ - 1995م.
- 182- عمار، أحمد سيّد محمد: "نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي المعاصر"، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط1، 1988م.
- 183- عمارة، محمد: "الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية"، القاهرة، نهضة مصر للطباعة، ط1، يناير 2003م.
- 184- العمري، أحمد جمال: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن السابع الهجري"، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1410هـ - 1990م.

- 185- عودة، رجاء بنت محمد: "الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل"، الرياض، مكتبة العبيكان، ط1، 1424هـ-2003م.
- 186- عويس، عبد الحلیم: "إنسانيات الإسلام مبادئ شرعية... وتجارب واقعية"، الرياض، مكتبة العبيكان، ط1، 1427هـ-2006م.
- 187- عويس، عبد الحلیم: "الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل" نالقاهرة، دار الصحوة، ط1، 1431هـ-2010م.
- 188- عياض، القاضي: "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى"، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الكتاب العربي، دط، 1404هـ-1984م.
- 189- الغزالي، محمد: "جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج"، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 2005م.
- 190- الغزالي، محمد: "الدعوة الإسلامية في القرن الحالي"، القاهرة، دار الشروق، دط، دت.
- 191- الغزالي، محمد: "الطريق من هنا"، القاهرة، دار الشروق، دط، دت.
- 192- الغزالي، محمد: "كيف نتعامل مع القرآن"، مدارس أجراها: عمر عبید حسنة، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط7، يوليو 2005م.
- 193- الغزالي، محمد: "من مقالات الشيخ الغزالي"، جمع: عبد الحميد حسانين، القاهرة، نهضة مصر، ط1، يناير 2005م، ج3.
- 194- الغزالي، محمد: "نظرات في القرآن الكريم"، دب ن، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط6، يوليو 2005م.
- 195- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد: "معاني القرآن"، بيروت، عالم الكتب، ط3، 1403هـ-1983م، ج1-ج2-ج3
- 196- فضل، صلاح: "علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته"، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1419هـ-1998م.
- 197- فيود، بسيوني عبد الفتاح: "من بلاغة النظم القرآني"، حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر، مطبعة الحسين الإسلامية، ط1، 1413هـ-1992م.
- 198- القزويني، الخطيب: "الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع"، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، دط، دت.

- 199- القرضاوي، يوسف: "دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والجزئية"، مصر، القاهرة، دار الشروق، ط3، 2008م.
- 200- القرطاجني، حازم: "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، الدار العربية للكتاب، ط3، 2008م.
- 201- القرطبي، أبو عبد الله بن أبي بكر: "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان"، تحقيق: عبد الله بن المحسن التركي، لبنان، بيروت، الرسالة، ط1، 1427هـ-2006م، ج1، ج8-ج11.
- 202- القطان، مناع: "مباحث في علوم القرآن"، القاهرة، مكتبة وهبة، ط7، 1990م.
- 203- قطب، سيّد: "التصوير الفني في القرآن"، القاهرة، دار الشروق، دط، دت.
- 204- قطب، سيّد: "في ظلال القرآن"، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1972م، ج1، ج4، ج6.
- 205- قطب، سيّد: "النقد الأدبي أصوله ومناهجه"، القاهرة، دار الشروق، ط6، 1410هـ-1990م.
- 206- قميحة، جابر: "المدخل إلى القيم الإسلامية في دراسات الحضارة الإسلامية"، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، دط، 1985م.
- 207- القيرواني، ابن رشيق: "العمدة في محاسن الشعر وآدبه ونقده"، تحقيق: الدكتور محمد فرقزان، بيروت، دار المعرفة، ط1، 1988م، ج1.
- 208- الكواز، محمد كريم: "الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم"، بنغازي، دار الكتب الوطنية، ط1، 1426هـ.
- 209- لحميداني، حميد: "بنية النصّ السردّي من منظور النقد الأدبي"، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط3، 2003م.
- 210- لاشين، عبد الفتّاح: "بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية" دب ن، دار الفكر العربي، دط، دت.
- 211- لاشين، عبد الفتّاح: "البيان في ضوء أساليب البيان"، القاهرة، دار الفكر العربي، دط، 1412هـ-1992م.
- 212- مايو، عبد القادر محمد: "البلاغة العربية الخبر والإنشاء"، حلب، دار القلم، دط، دت.
- 213- المبارك، مازن: "الموجز في تاريخ البلاغة"، دمشق، دار الفكر، ط2، 1400هـ-1979م.

- 214- محمد، يونس علي محمد: "مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب" دار الكتاب الجديد، ط1، 2004م.
- 215- محمود، مصطفى: "التوراة"، دب ن، ددن، دط، دت.
- 216- المبرد، أبو العباس: "الكامل في اللغة والأدب"، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية، دط، دت.
- 217- المراغي، محمود أحمد حسن: "في البلاغة العربية- علم البديع-"، لبنان، بيروت، دار العلوم العربية، ط1، 1411هـ-1991م.
- 218- المسدي، عبد السلام: "الأسلوبية والأسلوب"، تونس، الدار العربية للكتاب، ط3، 1982م.
- 219- مسلم، مصطفى: "التفسير الموضوعي لسور القرآن"، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، جامعة الشارقة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، 1431هـ-2010م، ج1-ج3
- 220- مصطفى، محمود السيد علي: "الإعجاز اللغوي في قصة القرآنية"، تقديم: حسن عون، الإسكندرية، مؤسسة الشباب الجامعية، ط1، 1971م
- 221- مطاوع، سعيد عطية علي: "الإعجاز القصصي في القرآن"، القاهرة، دار الآفاق العربية ط1، 2006م.
- 222- المطعني، عبد العظيم ابراهيم: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، القاهرة، مكتبة وهبية، ط1، 1413هـ-1992م، ج1-ج2.
- 223- مطلوب، أحمد: "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها"، لبنان، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 1414هـ-1993م.
- 224- مطلوب، أحمد-البصير، حسن: "البلاغة والتطبيق"، جمهورية العراق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط2، 1420هـ-1999م.
- 225- الميداني، عبد الرحمن: "العقيدة الإسلامية وأسسها"، دمشق، دار القلم، ط2، 1979م.
- 226- النحلاوي، عبد الرحمن: "أصول التربية الإسلامية في البيت والمدرسة والمجتمع"، سوريا، دمشق، دار الفكر، ط2، 1408هـ-1983م.
- 227- النحوي، عدنان علي رضا: "الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام"، دب ن، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط1، دت.

- 228-النورسي، بديع الزمان: "الإيمان وتكامل الإنسان" من كليات رسائل التّور، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، ط7، 2011م.
- 229-النورسي، بديع الزمان: "رسائل النور-إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، ددن، دب ن، دط، دت.
- 230-النيسابوري، مسلم بن الحجاج: "صحيح مسلم"، تشرف بخدمتها والعناية بها: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الرياض، دار طيبة، ط1، 1427هـ-2006م.
- 231-الهاشمي، أحمد: "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع"، ضبط: يوسف صميلي، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، ط1، 1999م.
- 232- الهمذاني، القاضي عبد الجبار بن أحمد القاضي: "تثبيت دلائل النبوة"، حققه وقدم عليه: عبد الكريم عثمان، بيروت، دار العربية للطباعة والنشر، دط، دت
- 233- الهمذاني، القاضي عبد الجبار بن أحمد: "المغني في أبواب التّوحيد والعدل"، قدم نصه: أمين الخولي، دار الكتب، ط1، 1405هـ-1985م، ج16.
- 234-هونكه، زيغريد: "شمس العرب تسطع على الغرب-أثر الحضارة الإسلامية في أوربة-"، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون-كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، بيروت، دار الجليل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط8، 1413هـ-1993م.
- 235-الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: "أسباب نزول القرآن"، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ-1991م.
- 236-الواعي، توفيق يوسف: "الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية"، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، ط2، 1425هـ-2004م.
- 237-يالجن، مقداد: "التربية الأخلاقية الإسلامية"، الرياض، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1423هـ-2002م.
- 238-يوسف، عبد الكريم محمود: "أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم غرضه-اعرابه"، دمشق، مطبعة الشام، ط1، 1421هـ-2000م.
- 239-التوراة: ترجمة عربية، تحقيق: سهيل زكار، سوري، دمشق، لبنان، بيروت، دار قتيبة، ط1، 1428هـ-2007م.

240- الكتاب المقدس، ترجمة: العالم الجديد اليابان دط فبراير 2010م

ثانيا: الكتب باللغة الأجنبية

1-archibeld Ahill:"la linguistic"vois of america form

lecture,july1960.

2-FIRT":papers linguistique"oxford unisity Press,newyork

toronto,1957.

3-George Mounin : dictionnaire de la l'inguistique Paris2004.

ثالثا:الدّوريات

أ-الموسوعات

1-سلسلة الدراسات القرآنية،العدد:2-3،1428هـ-2007م.

2-سلسلة المعارف الإسلامية،مركز الرسالة،العدد5.

3-موسوعة الحضارة الإسلامية،إشراف:محمد حمدي زقزوق،القاهرة،المجلس الأعلى للعلوم

الإسلامية،العدد4،1426هـ-2005م.

ب-المجلات:

1-مجلة الأثر،الجزائر،ورقلة،العدد5،2005م.

2-مجلة إضاءات نقدية،الأردن،العدد8،كانون الأول،2012م.

3-مجلة التراث العربي،دمشق،اتحات كتاب العرب،العدد95،رجب1425هـ-أيلول2004م.

4-المجلة الجامعة،العدد9،2007م.

5-المجلة الجامعة،العدد11،2009م.

6-مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها،العدد30،ج18،جمادى الأولى1425هـ.

7-مجلة جامعة دمشق،العدد1،2002م.

8-مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات ،العدد5،أيلول2011م.

9-مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها،إيرا،جامعة سمنان بالتعاون مع جامعة

تشرين،سوريا،العدد18،2014م.

10- المجلة العالمية لبحوث القرآن، دب ن، دع، دت.

11- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان العدد 3-4، 2001م.

12- مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية الموصل، العدد 96.

ج-بحوث ومؤتمرات:

1-الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، بحث مقدم إلى مؤتمر كلية الشريعة السابع، جامعة الزرقاء الأهلية، 18-20 رجب 1426هـ-23-25 آب 2005م.

2-البناء القيمي للشخصية كما ورد في القرآن الكريم، بحوث مقدمة لندوة خبراء أسس التربية، مكة المكرمة، 1400هـ.

د-الرسائل الجامعية:

1-بولنوار سعد: "آيات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان للشنقيطي-تحديد المفاهيم النظرية"، أطروحة دكتوراه العلوم في اللغة العربية وآدابها، إشراف: الدكتور: لبوخ بوجملين، ورقلة، جامعة قاصدي مرباح، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، 2011م-2012م.

2-الحارثي علي بن محمد بن عبد المحسن: "أسلوب القسم في القرآن الكريم-دراسة بلاغية"، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في البلاغة، إشراف: فتحي عبد القادر فريد، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا، 1411هـ-1991م.

3-الحسنائي، خالد توفيق مرغل: "الأنساق الأسلوبية المهيمنة في السور القرآنية-دراسة تطبيقية على السور المكية"، أطروحة دكتوراه، إشراف: سيروان عبد الزهرة هاشم الجناني، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1433هـ-2012م.

4-داود، منى عبد الله حسن: "منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، رسالة

دكتوراه، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الدعوة والإعلام، 1417هـ.

5-دبور، محمد عبد الله عبده: "أسس بناء القصة في القرآن الكريم-دراسة أدبية نقدية"، رسالة مقدمة لنيل الدرجة العلمية الدكتوراه في الأدب والنقد، إشراف: الأستاذ الدكتور: فتحي محمد أبو عيسى، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم الأدب والنقد، 1417هـ-1996م.

- 6- سيب خير الدين: "الأسلوب والأداء-دراسة صوتية تباينية في القراءات القرآنية"، أطروحة دكتوراه الدولة، إشراف: الأستاذ الدكتور: محمد عباس، تلمسان، جامعة أبي بكر بلقايد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها، 1424هـ-1425هـ، 2003م-2004م.
- 7- الصحفي، دخيل الله بن محمد: "سورة هود عليه السلام-دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة، إشراف: الأستاذ الدكتور: عبد العظيم ابراهيم المطعني، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية اللغة العربية، فرع البلاغة، 1413هـ-1993م.
- 8- الطلحي، ردة الله بن ردة عبد الله بم ضيف الله: "دلالة السياق"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة، إشراف: الدكتور: عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى-مكة المكرمة، كلية اللغة العربية وآدابها 1418هـ.
- 9- محمد، محمد عامر: "أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني"، أطروحة دكتوراه، إشراف: دا علي كاظم أسد، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1432هـ-2001م.
- 10- محمود، المثني عبد الفتاح محمود: "السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي"، أطروحة دكتوراه في تخصص التفسير وعلوم القرآن، إشراف: فضل حسن عباس، الأردن، جامعة اليرموك، 3 ربيع الثاني 1426هـ-12 آيار 2005م.
- 11- يخلف نوال: "الانسجام في القرآن-سورة النور أمودجا"، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي، إشراف الدكتور: محمد العيد رتيمة، جامعة الجزائر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، 2006م-2007م.
- رابعا: المواقع الإلكترونية
- 1- WWW.ALUKAH.NET: شبكة الألوكة: أحمد الجوهري عبد الجواد: "القصة في القرآن الكريم"، بحث مقدم في مادة علوم القرآن، إشراف: الأستاذ الدكتور: عبد الرحمن محمد عويس، الجامعة الأمريكية، قسم أصول الدين.
- 2- WWW.NACHIRI.NET: محمد رفعت زنجير: "الإعجاز الحضاري في القرآن"، مقال نشرته: دار ناشري الإلكتروني، 23 أبريل 2009م.
- 3- WWW.JAWHARA.COM: الباحث مجهول: مقال الخصوصية والكونية تعريف ومعنى.

- 4-<http://an.wikipedia.org>: ويكيبيديا الموسوعة الحرة-الإنجيل.-
- 5-<http://ar.wikipedia.org>: ويكيبيديا الموسوعة الحرة-التوراة.-

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
التصدير	
الإهداء	
كلمة شكر وعرفان	
مقدمة	أ-ي.....
مدخل : البلاغة العربية بين الجاهلية والقرآن.....	1.....
أولا : لمحة عن حياة العرب في الجاهلية.....	3.....
ثانيا : تعريف البلاغة العربية.....	9.....
أ : التّعريف اللغوي.....	9.....
ب : التّعريف الاصطلاحي.....	12.....
ج :تعريف الفصاحة والفرق بينها وبين البلاغة.....	13.....
1-التّعريف اللغوي.....	13.....
2- التّعريف الاصطلاحي.....	14.....
ثالثا:تعريف القرآن الكريم.....	22.....
1-التّعريف اللغوي.....	22.....
2-التّعريف الاصطلاحي.....	24.....
رابعا:تعريف البلاغة القرآنية.....	27.....

34.....	الفصل الأول: الإعجاز القرآني وصلته بالمباحث البلاغية.....
38.....	أولاً: الإعجاز القرآني المفهوم والنشأة.....
38.....	أ- تعريف الإعجاز القرآني.....
38.....	1-التعريف اللغوي.....
40.....	2-التعريف الاصطلاحي.....
41.....	ب-تعريف المعجزة القرآنية وميزاتها.....
41.....	1-التعريف اللغوي.....
41.....	2-التعريف الاصطلاحي.....
43.....	3- المعجزة القرآنية كمركب إضافي.....
44.....	4-مزايا المعجزة القرآنية.....
53.....	ج- المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم.....
59.....	ثانياً: الإعجاز القرآني عبر مسيرته التاريخية.....
60.....	أ-أطوار الكتابة في الإعجاز القرآني.....
61.....	1-الطور الأول: جهود العلماء في القرن الثالث الهجري.....
66.....	2-الطور الثاني: جهود العلماء في القرنين الرابع والخامس الهجري.....
78.....	3-الطور الثالث: جهود العلماء من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر الهجري.....
84.....	4-الطور الرابع: جهود العلماء في العصر الحديث والمعاصر.....
92.....	ب-مقاصد الكتابة في الإعجاز القرآني وأهدافها.....

95.....	1- مقصد ديني.....
95.....	2- مقصد حضاري.....
96.....	3- مقصد تعليمي.....
96.....	ج- مقاصد الإعجاز القرآني.....
97.....	1- حفظ القرآن الكريم من التحريف.....
98.....	2- تثبيت المؤمنين على التمسك بالقرآن الكريم مدى الدهر.....
99.....	3- إثبات عظمة الخالق سبحانه وتعالى.....
99.....	4- أخذ العبرة والموعظة.....
102.....	ثالثاً: أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.....
103.....	أ- أنواع الإعجاز القرآني.....
103.....	1- الإعجاز بالصرفة.....
109.....	2- الإعجاز الغيبي.....
112.....	3- الإعجاز التشريعي.....
113.....	4- الإعجاز العلمي.....
117.....	5- الإعجاز الحضاري.....
122.....	6- الإعجاز التأثري.....
128.....	7- الإعجاز اللغوي.....
132.....	ب- الإعجاز البلاغي وآراء العلماء فيه.....

133.....	1- مفهوم الإعجاز البلاغي.....
135.....	* مفهوم الإعجاز البياني.....
135	- لغة.....
135.....	- اصطلاحا.....
136.....	- تعريف الإعجاز البياني.....
136... ..	2- آراء العلماء في الإعجاز البلاغي.....
147.....	3- أهمية الإعجاز البلاغي.....
150.....	ج- التحدي الرباني بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.....
151.....	1- تحدي الإنس والجن.....
152.....	2- تحدي بلغاء العرب.....
153.....	3- تحدي الغرب وموقف المستشرقين من القرآن الكريم.....
156.....	الفصل الثاني: الأسلوب القرآني وخصائصه البلاغية.....
159.....	أولا: مفهوم الأسلوب القرآني وأنواعه.....
159.....	أ- تعريف الأسلوب القرآني.....
159.....	1- التّعريف اللغوي.....
160.....	2- التّعريف الاصطلاحي.....
160.....	* الأسلوب في اصطلاح الغريين.....
163.....	* الأسلوب في اصطلاح البلاغيين العرب.....
169.....	3- تعريف الأسلوب القرآني كمركب إضافي.....

ب_أنواع الأساليب في القرآن الكريم.....	171
1-أسلوب التّزغيب والتّرهيب في القرآن الكريم.....	171
2-أسلوب الجدل والحوار في القرآن الكريم.....	173
3-أسلوب الحجاج في القرآن الكريم.....	177
4-أسلوب القسم في القرآن الكريم.....	178
5-أسلوب ضرب الأمثال في القرآن الكريم.....	181
6-أسلوب القصة في القرآن الكريم.....	183
ج-أهمية الأسلوب القرآني في الدراسات الإعجازية البلاغية.....	183
ثانيا: خصائص الأسلوب القرآني.....	186
أ-التّسق الفني في القرآن.....	186
1-مفهوم التّسق القرآني.....	186
التّسق لغة.....	186
التّسق اصطلاحا.....	187
تعريف التّسق القرآني.....	188
2-عناصر التّسق القرآني.....	191
*الحروف وأصواتها في القرآن الكريم.....	192
*اللفظ في القرآن الكريم.....	193
*الجملة في القرآن الكريم.....	196

200.....	*التّظّم في القرآن الكريم.....
204.....	3-خصائص النسق.....
204.....	ب- السّيق في القرآن.....
204.....	1-مفهوم السّيق.....
205.....	*لغة.....
205.....	*اصطلاحا.....
209.....	*السّيق عند البلاغيين.....
213.....	*السّيق عند المفسرين.....
214.....	*تعريف السّيق القرآني.....
215.....	2-عناصر السّيق القرآني.....
218.....	3-خصائص السّيق القرآني.....
220.....	ثالثا: الأسلوب البلاغي للقرآن الكريم وأثره في علم التّفسير.....
220.....	أ- مفهوم علم التّفسير.....
220.....	1-التّفسير لغة.....
220.....	2-التّفسير في الاصطلاح.....
222.....	3-أهمية علم التّفسير.....
225.....	ب- أثر الدّرس البلاغي في فهم القرآن الكريم.....
225.....	1-طرق التّفسير ومناهجه.....

- 228.....2-التفسير البلاغي للقرآن الكريم
- 229.....3-أشهر الذين كتبوا في التفسير البلاغي
- 231.....ج-علم المناسبة وعلاقته بالتفسير
- 232.....1-تعريف علم المناسبة
- 232.....2-نشأة علم المناسبة
- 234.....3-أهمية علم المناسبة وعلاقته بالدراسات الإعجازية البلاغية
- 237.....الفصل الثالث:التفرد البلاغي للنص القرآني وخصائصه في الحضارة العربية الإسلامية
- 238.....أولا:تفرد البلاغة القرآنية عن البلاغات الأخرى
- 240.....أ-التفرد البلاغي للنص القرآني وخصائصه
- 241.....1-التفرد لغة
- 241.....2-التفرد اصطلاحا
- 242.....3-خصائص البلاغة القرآنية
- 244.....ب-أوجه التباين بين البلاغة القرآنية وبلاغة الكتب السماوية الأخرى
- 246.....1-التوراة
- 246.....*محتويات التوراة وموضوعاته
- 248.....*التوراة بين الوحي الالهي والتحرير
- 250.....2-الإنجيل
- 252.....*محتويات الإنجيل وموضوعاته

- 254.....*الإنجيل بين الوحي الالهي والتّحريف
- 3-القرآن الكريم وخصوصيته المتفردة بين الكتب السّماوية.....257
- ج-أوجه التّباين بين البلاغة القرآنية وبلاغة الأمم الأخرى.....263
- 1-اليونانية وبلاغتها.....1-264
- 2-الفارسية وبلاغتها.....2-265
- 3-البلاغة الغربية الأوربية.....3-267
- 4- الفرق بين البلاغة القرآنية وبلاغة الأمم الأخرى.....269
- *من حيث المصدر.....269
- *من حيث الموضوع.....270
- ثانيا:البلاغة القرآنية ودورها في التفاعل الحضاري بين الأمم.....272
- أ-مفهوم الحضارة العربية الإسلامية.....273
- 1-الحضارة لغة.....1-273
- 2- الحضارة اصطلاحا.....2-274
- 3-الحضارة في المفهوم الإسلامي.....3-274
- ب-عربية القرآن الكريم ومدى مساهمتها في التفاعل الحضاري بين الأمم.....275
- 1-مفهوم التفاعل الحضاري.....1-276
- 2-أهمية التفاعل الحضاري بين الأمم.....2-277
- 3-اللغة العربية مقوم من مقومات الحضارة العربيّة الإسلاميّة.....3-278

- ج-الدور البلاغي في الحضارة العربية الإسلامية.....279
- 1-البلاغة القرآنية مصدر من مصادر الحضارة العربية الإسلامية.....280
- 2-جهود العلماء المسلمين في العناية بمباحث البلاغة القرآنية.....280
- ثالثا:التفكير البلاغي فريضة إسلامية في الحضارة العربية الإسلامية.....282
- أ-عناصر التفكير البلاغي في القرآن الكريم.....283
- 1- الإنسان283
- 2- البيان286
- 3- المعرفة287
- ب-ضوابط التفكير البلاغي وشروطه في معرفة البيان القرآني.....288
- 1-العلم بصفات الله تعالى.....289
- 2-العلم باللغة العربية ومراعاة خصائصها.....289
- 3-مراعاة السياق المقامي والمقالي.....290
- 4-العلم بمقاصد القرآن الكريم.....292
- 5-تكمال المعارف الإسلامية.....292
- ج-تحديد التفكير البلاغي واجب ديني ومقصد شرعي.....292
- 1-الاعتماد على التراث البلاغي القديم.....293
- 2-الاطلاع على بلاغة الآخر.....294
- 3-الاطلاع على المعارف العربية والإسلامية والإنسانية.....294

الفصل الرابع: الأسلوب القصصي في القرآن -ميزة بلاغية وتربية حضارية-دراسة موضوعية بلاغية	
لسورة هود-	297.....
أولاً: القصة والإعجاز القرآني	299.....
أ- مفهوم القصة القرآنية.....	299.....
1- القصة في اللغة.....	299.....
2- القصة في الاصطلاح.....	300.....
3- تعريف القصة القرآنية.....	300.....
ب- خصائص القصة القرآنية.....	302.....
1- عناصر القصة القرآنية.....	304.....
2- أنواع القصة القرآنية وأشكالها.....	310.....
3- مميزات القصة القرآنية.....	313.....
ج- أغراض القصة القرآنية.....	318.....
ثانياً: القصة ودورها في التربية الحضارية من منظور سورة هود.....	321.....
أ- مقدمات في سورة هود.....	321.....
1- تسميتها وترتيبها.....	322.....
2- مكان نزولها وسببه.....	324.....
3- فضلها وشرفها.....	326.....
ب- موضوعات سورة هود ومقاصدها.....	327.....

- 1-الموضوع العام لسورة هود ومقاطعها الفرعية 327
- 2 -المناسبات في سورة هود..... 331
- 3-خصائص السّياق القرآني في سورة هود..... 335
- ج-أصول التّربّيّة الحضارية من خلال القصص القرآني لسورة هود..... 339
- 1-القصة وعناصرها في سورة هود..... 340
- 2-مفهوم التّربّيّة الحضارية من منظور القرآن الكريم..... 343
- *التّربية لغة..... 344
- *التّربّيّة اصطلاحاً..... 344
- *التّربّيّة في المفهوم الإسلامي..... 344
- *تعريف التّربية الحضاريّة..... 344
- 3-قيم التّربّيّة الحضاريّة في قصص سورة هود..... 345
- 3/1-القيم الضروريّة..... 347
- 3/2-القيم الحاجيّة..... 348
- 3/3-القيم التّحسينية..... 348
- ثالثاً:الخصائص البلاغيّة للقصة القرآنية من منظور سورة هود..... 356
- أ-علم المعاني من منظور سورة هود..... 357
- 1-مفهوم علم المعاني..... 357
- 2-نظرية نظم ودورها في تأسيس علم المعاني..... 359

- 3-مصطلحات علم المعاني من منظور سورة هود.....362
- 3/1-أحوال الإسناد الخبري والإنشائي في سورة هود.....363
- 3/1/1-الخبر وأغراضه من منظور سورة هود.....363
- *أضرب الخبر في سورة هود.....368
- 3/1/2-الإنشاء وأغراضه من منظور سورة هود.....370
- *الأساليب الإنشائية الطلبية في سورة هود.....370
- 1-الاستفهام في سورة هود.....371
- 2-الأمر في سورة هود.....376
- 3-النهي في سورة هود.....382
- 4-التمني في سورة هود.....385
- 5-النداء في سورة هود.....387
- *الأساليب الإنشائية غير الطلبية في سورة هود.....391
- 3/2-أحوال الطرفين (المسند والمسند إليه) والمتعلقات من منظور سورة هود.....391
- 3/2/1-المسند إليه والمسند في سورة هود.....392
- 3/2/2-المتعلقات في سورة هود.....394
- 3/2/3-أحوال الطرفين والمتعلقات في سورة هود.....394
- *التقديم والتأخير.....394
- *الذكر والحذف.....398

- 402.....*التعريف والتذكير
- 406.....*الإطلاق والتقييد
- 407.....3/3-أحوال الجملة في استقلالها من منظور سورة هود.
- 407.....3/3/1-الإطناب والإيجاز والمساواة.
- 412.....3/3/2-الفصل والوصل.
- 416.....3/3/3-أسلوب القصر.
- 420.....4/ 3-الأساليب الخارجة عن مقتضى الظاهر في سورة هود .
- 420.....3/4/1-الاتفات في سورة هود.
- 424.....3/4/2-المخالفة في صيغ الأفعال في سورة هود.
- 426.....3/4/3-وضع المظهر موضع المضمرة وعكسه في سورة هود.
- 427.....4 -أهمية علم المعاني في الدرس البلاغي القرآني.
- 428.....ب-علم البيان من منظور سورة هود.
- 428.....1-مفهوم علم البيان.
- 430.....2-مصطلحات علم البيان من منظور سورة هود.
- 431.....2/1-التشبيه في سورة هود.
- 438.....2/2-المجاز في سورة هود.
- 443.....*المجاز العقلي في سورة هود.
- 445*المجاز المرسل في سورة هود.

- 451.....3/3-الاستعارة في سورة هود
- 461.....4_الكناية في سورة هود
- 470.....ج-علم البديع من منظور سورة هود
- 470.....1-مفهوم علم البديع
- 473.....2-مصطلحات علم البديع من منظور سورة هود
- 474.....2/1-المحسنات البديعية المعنوية في سورة هود
- 474.....2/1/1-الائتلاف
- 476.....2/1/2-الابتداء
- 476.....2/1/3-الطباق
- 480.....2/1/4-المقابلة
- 481.....2/1/5-الطي والتشتر
- 483.....2/1/6-الاستطراد
- 484.....2/1/7-المشاكلة
- 485.....2/1/8-تجاهل العارف
- 486.....2/1/9-الإبداع
- 487.....2/2-المحسنات البديعية اللفظية في سورة هود
- 487.....2/2/1-ائتلاف اللفظ مع اللفظ
- 488.....2/2/2-الجناس

490.....	2/2/3-الفاصلة
494.....	2/2/4-الموازنة
496.....	خاتمة
500.....	قائمة المصادر والمراجع
522.....	فهرس الموضوعات

الملخص:

تحاول هذه الرسالة الموسومة بـ: "البلاغة القرآنية تفرد وخصوصية في الحضارة العربية الإسلامية - دراسة موضوعية بلاغية لسورة هود-" أن تتطلع إلى الكشف عن جانب الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وتثبت تلك الخصوصية البلاغية التي تفرد بها كتاب الله تعالى وميزته عن سواه من كلام البشر، والذي بفضلها تفردت الحضارة العربية الإسلامية عن حضارات الأمم الأخرى على اعتبار أنه دستورها وأساس حضارتها. فالقرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز يحمل بين دفتيه التّهذيب التربوي والإعجاز البلاغي الإلهي مما أكسب الأمة العربية الإسلامية خصوصية متفردة عن غيرها من الحضارات الأخرى. وجاءت سورة هود بأسلوبها القصصي نموذجاً تطبيقياً حياً عن تلك البلاغة القرآنية التي جمعت بين دفتيهما التفرد الإعجازي والتّهذيب التربوي الحضاري.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة القرآنية- التفرد والخصوصية- الحضارة العربية الإسلامية- سورة هود

Résumé :

Ce mémoire intitulé « **la Rhétorique Coranique unicité et spécificité dans la civilisation arabo-islamique - Etude rhétorique et objective du Surat Hud** ». Veut montrer le côté miraculeux et rhétorique dans Coran et prouver cette spécificité qui le distingue aux paroles des êtres humains. Aussi la civilisation arabo-musulmane a un statut particulier par rapport aux autres civilisations grâce au Coran qui est considéré comme sa constitution et le pilier principal de la civilisation notamment avec ses orientations disciplinaires et éducatives, et son miracle rhétorique Divine. Le Surat du Hud avec son style narratif représente un modèle pratique du rhétorique coranique qui a réussi à regrouper l'exclusivité miraculeuse et la discipline éducative civilisée.

Mots clés:

La rhétorique coranique - l'unicité et la spécificité - la civilisation arabo islamique - Surat

Abstract:

This memoir titled "Rhetoric Quranic uniqueness and specificity in the Arab-Islamic civilization - rhetoric Study and objective of Surat Hud". Wants to show the miracles costed and rhetoric in the Qur'an and prove this specificity that distinguishes the words of human beings. Also the Muslim civilization has a special status in relation to other civilizations through the Quran is considered its constitution and the main pillar of civilization especially with its disciplinary and educational goals, and divine rhetoric miracle. The Surat of Hud with its narrative style represents a practical model of the Quranic rhetoric which succeeded in regrouping the miraculous exclusivity and the civilized educational discipline.

Keywords:

Rhetoric Quranic - the uniqueness and specificity – the Arab Islamic civilization - Surat Hud.